أمور تاولز

جنتلمان في موسكو

« رواية مذهلة، ومبهجة، وحكيمة. لا تفوّتوها » – Chris Cleave



ترجمة إيهاب عبد الحميد

أَمور تاولز

جنتلمان في موسكو

الكتاب: جنتلمان في موسكو (رواية)

تأليف: أمور تاولز

ترجمة: إيهاب عبد الحميد

عدد الصفحات: 592 صفحة

الترقيم الدولي: 1-069-472-614-978

الطبعة الأولى: 2019

هذه ترجمة مرخصة لكتاب
A GENTLEMAN IN MOSCOW
by Amor Towles

الناشر

دار التنوير للطباعة والنشر

لبنان: بيروت - بئر حسن - بناية فارس قاسم (سارة بنما) - الطابق السفلي
هاتف: 009611843340

بريد إلكتروني: darattanweer@gmail.com

مصر: القاهرة - 2 شارع السرايا الكبرى (فؤاد سراج الدين سابقا) - جاردن سيتي
هاتف: 002022795557

بريد إلكتروني: cairo@dar-altanweer.com

تونس: 24، نهج سعيد أبو بكر - 1001 تونس
هاتف وفاكس: 0021670315690

بريد إلكتروني: tunis@dar-altanweer.com

موقع إلكتروني: www.dar-altanweer.com

أَمور تاولز

جنتلمان في موسكو

(رواية)

ترجمة: إيهاب عبد الحميد



موسكو حوالي عام 1922



إلى ستوكلي وإسميه

لَكَم أتذكّر

عندما جاءنا على الأقدام زائرًا
وأقام بيننا
لحنٌ في مظهر قِطٍّ جبليٍّ

الآن، أين عزمُنا؟

مثل أسئلةٍ لا حصر لها
أجيب عن السؤال
مُشيحًا ببصري، أُقشِّر إجاصةً

بانحناءة من رأسي أتمنّى لهم ليلة سعيدة
وأخرج من باب الشرفة
قاصدًا تلك المسرّات البسيطة
لربيعٍ آخر معتدل الأجواء

لكنني أعرف هذا القَدْر:
لم يَضِع بين أوراق الخريف في ميدان بيتر
ليس وسط الرماد في جرار الرماد بالأثينيوم
ليس داخل معابد الباغودا الزرقاء المنقوشة على الـ«شينوازيري».

ليس في جُعبة سرج فرونسكي
ولا في السوناتّا الثلاثين، المقطع الأول؛
ولا في على الخانة الحمراء رقم سبعة وعشرين...(*).

«أين هو الآن» (السطور 1-19)
الكونت ألكسندر إلييتش روستوف
1913

(*) الأثينيوم: مدرسة في روما القديمة. فرونسكي: العشيق في رواية «آنا كارنينا» لليو تولستوي. السوناتّا الثلاثين: لشكسبير. الباغودا: المعبد الشهير للديانة البوذية، الذي يُصمَّم على هيئة برج من عدة طبقات رفيعة بينها فراغات واسعة، ويجمعها محور مركزي. الشينوازيري: طراز زُخرفي قائم على الموتيفات والأساليب الفنيّة الصينية شاع في أوروبا في القرن الثامن عشر. الخانة الحمراء رقم سبعة وعشرين: أحد الرهانات في لعبة الـ«روليت». (المترجم)

مثول الكونت ألكسندر إلييتش روستوف
أمام اللجنة الطارئة لمفوضيّة الشعب للشؤون الداخلية
الرؤساء: الرفاق «ف. أ. إغناتوف»، «م. س. زاكوفسكي»، «أ. ن. كوساريف».
الادعاء: «أ. ف. فيشنسكي».

المدعي العام فيشنسكي: اذكر اسمك.
روستوف: الكونت ألكسندر إلييتش روستوف، حامل وسام القديس أندرو، عضو نادي الفروسية، مستشار الصيد الأمبراطوري.
فيشنسكي: تستطيع الاحتفاظ بألقابك، فهي لا تعني أحدًا سواك. لكن لأغراض التحقيق، ألست ألكسندر روستوف، المولود في سان بطرسبرغ، 24 أكتوبر عام 1889؟
روستوف: أنا هو.
فيشنسكي: قبل أن نبدأ، لا بد أن أقول إنني لم يسبق لي، في ما أظن، رؤية سترة مرصَّعة بهذا الكمّ من الأزرار.
روستوف: شكرًا لك.
فيشنسكي: لم أقصد بذلك مديحًا.
روستوف: في تلك الحالة، أطالب بردّ شرف في ميدان المبارزة.
[ضحك].
الرئيس إغناتوف: لتهدأ القاعة.
فيشنسكي: ما هو عنوانك الحالي؟
روستوف: الجناح 317 في فندق متروبول، موسكو.

فيشنسكي: منذ متى تعيش هناك؟
روستوف: أنا مقيم هناك منذ الخامس من سبتمبر عام 1918. أقل قليلًا من أربع سنوات.
فيشنسكي: ووظيفتك؟
روستوف: الاشتغال بالوظائف ليس صَنْعة الجنتلمان.
فيشنسكي: عظيم. فكيف تقضي وقتك إذًا؟
روستوف: تناول الطعام والنقاش. القراءة والتفكير. اللغو المعتاد.
فيشنسكي: وتكتب الشعر؟
روستوف: أنا معروف بمهارتي في المبارزة بريشة الكتابة.
فيشنسكي [رافعًا منشورًا]: هل أنت مؤلّف هذه القصيدة الطويلة «أين هو الآن؟» المنشورة عام 1913؟
روستوف: إنها منسوبة إليَّ.
فيشنسكي: لماذا كتبتَ القصيدة؟
روستوف: لقد طالبَتني بأن أكتبها. كنت ببساطة جالسًا إلى مكتب ما صبيحة يوم ما عندما قرَّرَتْ أن تأتي وتطالبني بذلك.
فيشنسكي: وأين كان ذلك تحديدًا؟
روستوف: في الصالة الجنوبية في «أيدل آوَر».
فيشنسكي: «أيدل آوَر»؟
روستوف: عزبة روستوف في «نيجني نوفُغارِد».
فيشنسكي: آه، نعم. بالطبع. ونِعم المكان! لكن لنرجع إلى القصيدة. عندما ظهرَت- في سنوات القهر التي أعقبت انتفاضة عام 1905 الفاشلة- اعتبرها كثيرون دعوة للتحرّك. هل تتفق مع هذا الرأي؟
روستوف: الشعر كلّه دعوة للتحرك.
فيشنسكي: [مراجعًا أوراقه] وقد غادرتَ روسيا متجهًا إلى باريس في ربيع العام التالي.

روستوف: أتذكر النوّارات على أشجار التفاح. إذًا، نعم، كان الربيع على أغلب الظن.

فيشنسكي: 16 مايو بالتحديد. الآن، نحن نفهم أسباب المنفى الذي فرضته على نفسك؛ بل ونشعر بقدر من التعاطف مع الحوادث التي أفضت إلى فرارك. ما يهمنا هنا هو عودتك عام 1918. فهنا يُثار السؤال: هل عدتَ بنيَّة حمل السلاح، وإن كان كذلك، فضد الثورة أم معها؟

روستوف: في ذلك الوقت، يؤسفني أن أيام حمل السلاح، بالنسبة إليَّ، كانت قد ولَّت إلى غير رجعة.

فيشنسكي: فلماذا عدتَ إذًا؟

روستوف: اشتقتُ للطقس.

[ضحك].

فيشنسكي: الكونت روستوف، يبدو أنك لا تُقدّر جسامة موقفك، ولا تُظهر الاحترام اللازم للرجال المجتمعين أمامك.

روستوف: القيصرة، في أيامها، كانت تُردّد الشكوى نفسها.

إغناتوف: سيادة المدّعي فيشنسكي. اسمح لي...

فيشنسكي: تفضل يا سيادة الرئيس إغناتوف.

إغناتوف: لا شكَّ عندي، يا كونت روستوف، أن كثيرين في هذه القاعة فوجئوا بأنك على هذا القدر من الجاذبية؛ لكنّ ذلك لم يفاجئني أنا على الإطلاق. فالتاريخ يبيِّن لنا أن الجاذبية هي الغاية النهائية للطبقة المترفة. ما يدهشني حقًّا هو كيف يمكن لمؤلف القصيدة محل التحقيق أن يصبح رجلًا بلا أي قدرٍ من العزم.

روستوف: لطالما آمنت بأن الرب وحده هو المطّلع على عَزم الرجال.

إغناتوف: فعلًا. لَكَم يناسبك هذا.

[تُرفع الجلسة لاثنتي عشرة دقيقة].

إغناتوف: ألكسندر إلييتش روستوف، بالمراعاة التامة لشهادتك، لا يتسنى لنا إلا افتراض أن الإنسان البصير الذي كتب قصيدة «أين هو الآن؟» قد امتثل قطعيًّا لمفاسد طبقته- وأصبح الآن يمثل خطرًا على المُثل التي سبق له مناصرتها. بناءً على هذا، كان يمكننا أن نقرر اقتيادك من هذه الغرفة ووضعك أمام الحائط. لكن بعض قيادات الحزب بيننا يعتبرونك من أبطال القضيّة في عصر ما قبل الثورة. لذا، رأت اللجنة أن ترجع إلى فندقك العزيز. لكن حذارِ: إذا خطوت بقدمك خارج المتروبول ثانية، سيُطلق عليك الرصاص. القضية التالية.

وثيقة تحمل توقيعات
ف. أ. إغناتوف
م. س. زاكوفسكي
أ. ن. كوساريف

الكتاب الأول

1922

سفيرة

في الساعة السادسة والنصف في الحادي والعشرين من يونيو عام 1922، عندما اقتيد الكونت ألكسندر إليتش روستوف عبر بوابة الكرملين إلى الميدان الأحمر، كان الجو متألّقًا لطيف البرودة. شدّ الكونت كتفيه إلى الخلف دون أن يبطئ خطاه، وتنشّق الهواء وكأنه خرج لتوّه من المسبَح. كانت السماء زرقاء بالدرجة نفسها التي طُليت بها بعض قُبيْبات كاتدرائية «سان باسيل». أما قُبيباتها الوردية والخضراء والذهبية، فراحت تتلألأ وكأنما لا غرض للدين إلا الابتهاج بقدسيّته. حتى الفتيات البُلشفيّات اللاتي يتجاذبن أطراف الحديث قبالة نوافذ «الـمُجمَّع التجاري الحكومي» بَدَون متأنّقات للاحتفال بآخر أيام الربيع.

«أهلًا يا أستاذ»، هكذا حيًّا الكونتُ فيودور، عند طرف الميدان. «أرى التوت الأسود ظهر مبكرًا هذا العام!».

دون أن يترك للفاكهانيّ المتحيّر فرصةً للرد، واصل الكونت طريقه في خطى رشيقة، وشارباه المدهونان بالشمع مُشرعان مثل جناحَيْ نَورس. لدى مروره من بوابة البَعْث، استدار موليًا ظهره لأزهار الليلك في حدائق ألكسندر وتابع خطاه باتجاه ميدان المسرح، حيث ينتصب فندق المتروبول بكامل جلاله. عندما وصل إلى العتبة، حيًّا بافِل، حاجب وردية بعد الظهر، بغمزة من عينه، واستدار مادًّا يده للجنديَّين اللذين يسيران في أعقابه.

«أشكركما يا سادة على توصيلي بسلام. لم أعد بحاجة إلى مساعدتكما بعد الآن».

رغم بنيتهما المفتولة، اضطر الجنديان إلى رفع رأسيهما من تحت قبعتيهما ليبادلا الكونت النظر - إذ كان الكونت، مثل عشرة أجيال من آل روستوف، ينتصب بقامة فارعة تتجاوز الـ190 سنتيمترًا طولًا.

وضع الجندي الأكثر تنمُّرًا بينهما يده على عقب بندقيته وهو يقول: «تابع طريقك. سنأخذك إلى حجرتك».

في البهو، لوّح الكونت بيده في قوس واسع ليحيِّي كلًّا من أركادي رابط الجأش (الواقف عند مكتب الاستقبال) وفالنتينا الحلوة (التي تنفض الغبار عن تمثال صغير). كان الكونت قد حيَّاهما بهذه الطريقة مئة مرة من قبل، لكنهما استقبلاه هذه المرة بنظرة مندهشة من أعين مفتوحة على وسعها. كان استقبالًا يشبه الذي قد يتوقّعه المرء لدى وصوله إلى حفل عشاء وقد نسي ارتداء بنطاله.

لدى مروره بالفتاة المغرَمة بالأصفر، التي تقرأ مجلة في كرسيّها المفضل في البهو، توقف الكونت فجأة أمام أُصص النخيل لكي يخاطب مرافقَيْه.

«المصعد أم السلَّم يا سادة؟».

نظر كل جندي إلى الآخر ثم إلى الكونت ثم إلى الآخر مجددًا، وبدوَا عاجزيْن عن الاستقرار على رأي.

«السلَّم»، هكذا قرر بالنيابة عنهما، ثم وثب على السلالم، درجتين في كل مرة، كما اعتاد منذ أيام الأكاديمية.

في الطابق الثالث، سار الكونت على سجادة الرواق الحمراء باتجاه جناحه - الذي يضمّ غرفة نوم، وحمّام، وغرفة طعام، وصالة فسيحة فيها نوافذ عرضها متران ونصف تطل على أشجار الزيزفون في ميدان المسرح. وهناك، كانت سماجة اليوم في انتظاره. فأمام باب غرفته الـمُشرَع على مصراعيه وقف ضابط إلى جوار باشا وبيتيا، ساعِيَي الفندق. تلقّى الصبيَّان نظرة الكونت بحرجٍ بادٍ، وقد ظهر واضحًا أنهما كُلِّفا بمهمة بغيضة إلى قلبهما. وجّه الكونت كلامه إلى الضابط.

«ما معنى هذا يا حضرة الضابط؟».
الضابط، الذي بدا وكأنَّ السؤال فاجأه، كان مدرَّبًا جيدًا على الحفاظ على رباطة جأشه. قال:
«أنا هنا لأقودك إلى مسكنك».
«هذا هو مسكني».
ردَّ الضابط، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة خافتة: «لم يعد كذلك، للأسف».

ترك الضابط باشا وبيتيا مكانهما، وقاد الكونت ومرافقَيْه إلى سلّم الخدمات المحتجب خلف بابٍ متوارٍ عن الأنظار في جوف الفندق. كان المرتقَى المظلم ينعطف بحدّةٍ كل خمس درجات كما في بُرج جَرَس الكنيسة. صعدوا ثلاث مجموعات ملتفَّة من السلالم وصولًا إلى باب يفتح على دهليز ضيّق يؤدي إلى حمام وست غرف نوم تُذكِّر بصوامع النُسَّاك. كانت تلك العليّة قد شُيّدت بالأساس لاستضافة حاشية ضيوف الفندق من قهرمانات ووصيفات. لكن بعد انتهاء موضة السفر بصحبة الخدم، أصبحت الحجرات غير المستغلَّة تُخصّص وفقًا لمقتضى الحاجة، وتحوَّلَت إلى مخازن لبقايا الألواح الخشبية، وقطع الأثاث التالفة، وشتى أنواع المخلّفات.
في وقت سابق من ذلك اليوم، أُخليت الغرفة الأقرب لبئر السلم من كل محتوياتها باستثناء سرير حديدي، وكومود بثلاث قوائم، وعشر سنوات من الأتربة. في الزاوية القريبة من الباب ثمة دولاب ملابس صغير، أشبه بكابينة هاتف، أُلقي في الغرفة وكأنما في اللحظة الأخيرة. واتفاقًا مع انحدار السطح، كان السقف يميل في نزلة تدريجية مع ابتعاده عن الباب. هكذا، عند الحائط الخارجي للغرفة، كان الموضع الوحيد الذي يتيح للكونت الوقوف بكامل قامته هو تلك الكوّة البارزة إلى الخارج، التي تحوي نافذة بحجم رقعة الشطرنج.

وبينما كان الحارسان يعاينان الغرفة بتعالٍ من على الباب، أوضح الضابط الفاضل أنه استدعى الساعِيَيْن لمساعدة الكونت في نقل الأغراض القليلة التي سيتسع لها مقرّه الجديد.

«والبقية؟».

«تصبح من أملاك الشعب».

تلك هي لعبتهم إذًا، هكذا فكَّر الكونت.

«حسنًا جدًّا».

عاود نزول سلم البُرج بنشاط، والحارسان يهرولان في عقبيه، وبندقيتاهما تتخبطان في الحائط. في الطابق الثالث، سار في الرواق بخطًى واسعة، ثم ولج الجناح حيث رفع الساعيان أعينهما إليه في نظراتِ رثاء.

«لا بأس يا صديقيَّ»، طمأنهما الكونت ثم بدأ يشير بيده: «هذا، وتلك، وهذه. والكتب كلّها».

من بين قطع الأثاث المقدَّر لها الانتقال إلى مقرّه الجديد، اختار الكونت كرسيين بظهرٍ عالٍ، وطاولة القهوة الشرقية التي ورثها عن جدته، وطقمًا أثيرًا من أطباقها الخزفية. اختار أباجورتين على هيئة فيل أسود، وبورتريه لشقيقته، هيلينا، رسمه لها «سيروف»(*) إبّان إقامته القصيرة في «أيدل آور» عام 1908. ولم ينسَ الحقيبة الجلدية التي صُنعت له خصيصًا من محلات «أسبري» في لندن والتي عمَّدها صديقه المقرب ميشكا باسم جدير بها: «السفيرة».

كان شخص ما قد أظهرَ كياسةً ونقَل أحد صناديق السَّفر الخاصة بالكونت إلى غرفة نومه. هكذا، بينما راح الساعيان ينقلان الأغراض

(*) سيروف: الفنان الروسي «فالنتين سيروف»، أحد أشهر رسامي البورتريه في عصره. (المترجم)

سالفة الذكر إلى أعلى، أخذ الكونت يملأ الصندوق بملابس ومتاعٍ شخصي. وإذ لاحظ نظرة الحارسين لزجاجتي البراندي على الكونسول، ألقاهما داخل الصندوق بدورهما. وبعد أن نُقل الصندوق إلى أعلى، أشار إلى المكتب.

أمسكه الساعيان من أركانه، وقد ظهرت بُقَع العرق على ملابسهما بعد ما بذلاه من جهد حتى اللحظة.

قال أحدهما للآخر: «لكنه يزن طنًّا كاملًا».

وعلّق الكونت: «الملكُ يتحصّن بقلعة، أما الجنتلمان فبطاولة مكتب».

حين رفعه الساعيان متجهيْن إلى الصالة، دقت الساعة التي ورثها روستوف عن جدّه، والتي قُدّر لها البقاء في مكانها، ثماني دقات أسيانة. وقتها، كان الضابط قد غادر عائدًا إلى موقعه منذ زمن، وكان الحارسان، وقد حلّ فيهما الضجر محل العدوانية، يتكئان الآن على الحائط ويتركان رماد سجائرهما يسقط على باركيه الأرضية بينما ينهمر ضوء الانقلاب الصيفي الموسكوفي على الصالة الفسيحة كاملًا دون نقصان.

بنظرة محزونة، اقترب الكونت من النوافذ في الركن الشمالي الغربي من الجناح. كم ساعة أفناها أمامها؟ كم صباحٍ قضاه، مرتديًا الروب وقهوته في يده، يتابع القادمين من سان بطرسبرغ وهم يترجّلون من عربات الأجرة، مرهَقين ومنهَكين من رحلة القطار الليلي؟ كم ليلة شتوية سهرها يراقب الثلوج تهطل ببطء بينما يمرّ شبح وحدانيّ، قصير وممتلئ، تحت أحد مصابيح الشوارع؟ في تلك اللحظة ذاتها، في الطرف الشمالي الأقصى من الميدان، كان ضابطٌ شابٌ من الجيش الأحمر يهرول صاعدًا دَرَج مسرح البولشوي، وقد فاتته نصف ساعة من الحفلة المسائية.

ابتسم الكونت وهو يتذكّر شبابه، وكيف كان يميل للوصول أُنتر

آكت(*). كان يؤكّد لأصحابه في «النادي الإنكليزي» أنه لا يستطيع البقاء إلا لكأس واحدة أخرى، لكنه يبقى لثلاث كؤوس. بعدها، يقفز في العربة التي تنتظره، وينطلق كالسهم في شوارع المدينة، ويندفع صاعدًا الدَرَج الأسطوري، ثم يدلف، مثل هذا الشاب اليافع، من الأبواب الذهبية. وبينما ترقص الباليرينات برشاقة على خشبة المسرح، يطلق الكونت اعتذارات هامسة- إكسكوزيه موا- وهو يشقّ طريقه إلى كرسيّه المعتاد في الصف العشرين الذي يتيح له إطلالة متميّزة على السيدات في شرفات اللُوج.

تنهّد الكونت وهو يفكّر: الوصول متأخرًا، يا له من ترفٍ شبابيٍّ.

ثم استدار على عقبيه، وبدأ يتجول بين حجراته. أولًا، استحسن الصالة الفسيحة بأبعادها الكبيرة وثريّاتها. استحسن الزخارف المرسومة على ألواح غرفة الطعام الصغيرة والدِقّة الميكانيكية للمفصّلات النحاسية التي تسمح للمرء بإغلاق باب غرفة النوم المزدوج بهذا الإحكام. باختصار، راح يتفحّص المكان كما قد يتفحّصه مشترٍ محتمَل يرى الحجرات للمرة الأولى. وعندما وصل الكونت إلى غرفة النوم، توقف أمام الطاولة ذات السطح الرخامي الذي يحمل تشكيلة من التحف. من بينها، التقط مقصًّا كان عزيزًا على شقيقته. كان المقصّ، المسبوك على شكل طائر بَلَشون بنصلين فضيَّين طويلين يمثلان منقاره ومسمارٍ ذهبيٍّ في المحور يمثل عينه، صغيرًا للغاية، لا تكاد حلقتاه تتسعان لإبهام الكونت وإصبعه.

جال الكونت بعينيه في أرجاء الشقة، مُجريًا جردًا سريعًا لكل ما سيخلّفه وراءه. كل الممتلكات الشخصية، وقطع الأثاث، والأعمال الفنية التي جلبها إلى جناحه قبل أربع سنوات كانت أصلًا نتاجَ غربلة هائلة. فعندما وصل خبر إعدام القيصر إلى الكونت، غادر باريس على عجل. وعلى مدار عشرين يومًا، شقّ طريقه عبر ستة بلدان مختلفة،

(*) أُنتر آكت *entr'acte*: بين الفصول (بالفرنسية في الأصل). (المترجم)

والتفّ حول ثماني كتائب تحارب تحت خمس رايات مختلفة، ووصل في النهاية إلى «أيدل آور» في السابع من أغسطس عام 1918، لا يحمل إلا حقيبة ظهر. ورغم أنه وجد الفلاحين على حافة الغليان والدار في حالة بائسة، كانت جدّته، الكونتيسة، ثابتة الجنان كعهدها.

«ساشا»، نادته دون أن تنهض عن كرسيّها، «أمرٌ طيّب أنك أتيت. لا بُد أنك تتضوّر جوعًا. تعال وتناول الشاي معي».

عندما شرح لها ضرورة أن تغادر البلاد ووصف لها الترتيبات التي أعدّها لإخراجها، فهمت الكونتيسة أنه ما من خيار آخر. فهمت أن عليها أن تسافر مع خادميْن فقط، مع أن خدمها جميعًا كانوا مستعدين لمرافقتها. وفهمت أيضًا السبب الذي يمنع حفيدها ووريثها الوحيد، الذي ربّته منذ سن العاشرة، من المضيِّ معها.

عندما كان الكونت لا يزال في السابعة من عمره، تلقّى هزيمة نكراء أمام صبيّ من جيرانه في لعبة الداما، وكانت النتيجة أن ذُرفت دمعة، وأُطلقت سُبَّة، ونُثرت قطع اللعبة على الأرض. هذا الافتقار للروح الرياضيّة استجلب تقريعًا قاسيًا من والد الكونت وذهابًا إلى السرير دون عشاء. لكن عندما كان الكونت الصغير يقبض على بطانيّته في بؤس، تلقّى زيارة من جدته. وبينما كانت الكونتيسة تتجه للجلوس على قدم الفراش، شَرعت تُعرب عن تعاطفها قائلة: «ما مِن كلمات لطيفة تقال عن الخسارة. وأوبولنسكي ولدٌ سمج. لكن يا ساشا، يا عزيزي، لماذا تمنحه متعة التشفِّي؟». تلك هي الروح التي افترق بها عن جدّته بلا دموع على أرصفة ميناء بيترهوف. بعدها، عاد الكونت إلى عزبة العائلة لكي يُشرف على تسكيرها.

في تتابع سريع، جرى تنظيف المداخن، وإخلاء حجرات المؤن، وتغطية الأثاث. بدا الأمر وكأن الأسرة بصدد العودة إلى سان بطرسبرغ لقضاء الموسم، باستثناء أن الكلاب حُرّرت من أوجارها، والجياد من

إسطبلاتها، والخدم من مهامهم. وبعد أن حمَّل الكونت عربةً واحدة ببعض من أفضل قطع الأثاث التي يمتلكها آل روستوف، تربَس الأبواب، وانطلق إلى موسكو.

أمرٌ عجيب، هكذا فكر الكونت وهو يقف مستعدًا لهجر جناحه. منذ نعومة أظفارنا نتعلم فراق أصدقائنا وأقاربنا. نودّع آباءنا وأخوتنا في المحطة؛ نزور أبناء عمومتنا، نذهب إلى المدارس، نلتحق بالخدمة العسكرية، نتزوج، أو نسافر إلى الخارج. جزء من الخبرة الإنسانية أن نُمسك صديقًا مقرّبًا من كتفيه، مرة بعد مرة، ونتمنى له الخير، معزّين أنفسنا بفكرة أننا سنسمع منه عمّا قريب.

لكن التجارب قلّما تُعلِّمنا كيف نودّع ممتلكاتنا العزيزة. وإن علَّمَتنا؟ ما كنا لنرحب بهكذا توعية. فنحن، في نهاية المطاف، نتشبث بممتلكاتنا العزيزة أكثر مما نتمسك بأصدقائنا. ننقلها معنا من مكان إلى مكان، متكلّفين نفقاتٍ ومشاقَ جمّة؛ ننفض الغبار عن أسطحها ونلمّعها، ونعنّف الأطفال إذا لعبوا بخشونة بالقرب منها- ونظل نسمح لذاكراتنا بأن تضفي عليها أهمية أعظم فأعظم. نجدنا نقول: هذا الصُّوان القديم هو ذاته الذي اختبأنا فيه ونحن صغار؛ وهذه الشمعدانات الفضية زَيّنت مائدتنا عشية الكريسماس؛ وبهذا المنديل جفَّفَت دموعها ذات مرة، وهلم جرًّا. إلى أن نتخيل أن تلك الممتلكات المصانة بعناية قد تمنحنا سلوانًا حقيقيًّا إزاء صاحبٍ فقدناه.

لكن الشيء، بطبيعة الحال، ليس إلا شيئًا.

وهكذا، أسقَط الكونت مقصّ أخته في جيبه، وألقى نظرة أخيرة على ما تبقى من متاع ثم شطبه من أوجاعه القلبية إلى الأبد.

★ ★ ★

بعد ساعة، فيما كان الكونت ينطّ مرتين على مرتبته الجديدة ليتعرّف على المفتاح الموسيقي لنوابض فراشه (صول مرتفِع)، عايَن الأثاث الذي كدّسه من حوله وذكّر نفسه كيف كان يتوق، في شبابه، لرحلات إلى فرنسا بالسفينة البخارية، وإلى موسكو بقطار الليل.

فلماذا كان يتوق إلى تلك الرحلات بالذات؟

لأن المقصورات فيها كانت شديدة الضيق!

كم كان عجيبًا اكتشاف الطاولة التي تُطوى فلا تترك أثرًا؛ والأدراج المدمَجة في قاعدة الفراش؛ والمصابيح المعلّقة إلى الحائط وتكفي بالكاد لإنارة صفحة. كفاءة التصميم تلك كان لها أثر الموسيقى في عقله الشاب. كانت شهادة على قوة العزيمة ووعدًا بالمغامرة. كانت تشبه مقر «كابتن نيمو» أثناء غوصه عشرين ألف فرسخ تحت سطح البحر. ثم، أَلَنْ يُقايِض أيُّ صبيّ يتمتع بأدنى قدر من الجرأة، عن طيب خاطر، مائة ليلة في قصرٍ منيف بليلةٍ واحدة في الغواصة «نوتيلوس»؟

طيّب. ها قد تحقّق له ذلك، أخيرًا وبعد طول انتظار.

علاوة على ذلك، وبالنظر إلى استيلاء البلاشفة على نصف الغُرف في الطابق الثاني بشكل مؤقت من أجل طباعة التوجيهات على الآلة الكاتبة دون كلل، نجد أن الرجل الذي يسكن في الطابق السادس يستطيع، على الأقل، سماع نفسه وهو يفكّر(*).

(*) -الحق أن الجناح الواقع أسفل جناح الكونت مباشرة، كان هو المقر الذي قام فيه ياكوف سفيردلوف، أول رئيس لـ«اللجنة التنفيذية لعموم روسيا» باحتجاز لجنة صياغة الدستور- متعهدًا بأنه لن يدير المفتاح في الباب ثانية إلى أن ينتهوا من عملهم. وهكذا، ظَلّ الكتبة يدقّون على الآلات الكاتبة طوال الليل، إلى أن اكتملت صياغة تلك الوثيقة التاريخية التي ضمِنت لكل الروس حرية الضمير (المادة 13)، وحرية التعبير (المادة 14)، وحرية التجمّع (المادة 15)، وحرية إبطال أي من تلك الحقوق في حال «استغلالها على نحو يضرّ بالثورة الاشتراكية» (المادة 23)!

نهض الكونت فارتطم رأسه بمنحدَر السقف.

«هكذا إذًا!»، جاء ردُّه.

زحزح الكونت أحد الكرسيين عاليَي الظهر جانبًا ونقل أباجورتَي الفيل إلى السرير، ثم فتح صندوقه. أولًا، أخرج صورة «الوفد» ووضعها على المكتب حيث تنتمي. ثم أخرج زجاجتي البراندي وساعة أبيه مزدوجة الدقات. لكن عندما أخرج نظارة الأوبرا الخاصة بجدته ووضعها على المكتب، لفَت انتباهه خفقانٌ عند الكوّة البارزة. ومع أن النافذة لم تكن أكبر من بطاقة دعوة لعشاء، استطاع الكونت أن يرى حمامةً حطّت على شريط الإفريز النحاسي.

قال الكونت: «أهلًا بكِ. لطيفٌ منكِ أن تأتي لزيارتي».

واجهته الحمامة بالنظرة المميزة لصاحب المِلك. ثم خَرْبَشَت بمخالبها في مانِع التسريب المعدني، ونَقَرت النافذة نقرات سريعة متعاقبة.

وسَلَّم الكونت: «آه، نعم. كلامكِ منطقي».

كان بصدد أن يوضح لجارته الجديدة سبب وصوله غير المتوقّع، عندما تناهت من الرواق نحنحةٌ خفيفة. دون أن يستدير، عرف الكونت أنه أندري، «مِتر» مطعم البويارسكي، إذ كانت تلك دَخلتُه المميَّزة.

أومأ الكونت برأسه إلى الحمامة وكأنما ليخبرها بأنهما سيستكملان المناقشة عمّا قريب، ثم زرّر سترته ثانية واستدار ليجد أن أندري لم يكن وحده، بل كان ثلاثة من موظفي الفندق يتزاحمون في مدخل الباب.

هناك، كان أندري بكامل وقاره ويديه الطويلتين البارعتين؛ وفاسيلي، مسؤول خدمة النزلاء الفذّ؛ ومارينا، المبهجة الخجولة ذات العينين الحائرتين التي رُقّيت مؤخرًا من خادمة غُرف إلى خيَّاطة. ارتسمت على وجوههم جميعًا النظرة المرتبكة ذاتها التي لاحظها الكونت على وجه أركادي وفالنتينا قبل بضع ساعات، ثم أدرك فجأة: لقد ظنّوا جميعًا أنه

لن يرجع أبدًا عندما رأوه يُقتاد في العربة ذلك الصباح. لقد خرج من وراء جدران الكرملين مثل ملّاحٍ نجا من حطام طائرة.

قال الكونت: «أصدقائيَ الأعزاء، لا شك أنكم تتساءلون عن مجريات اليوم. لقد تلقّيتُ، لعلكم تعرفون، دعوة إلى الكرملين من أجل بعض الدردشة. وهناك، قرر عدد من ضباط النظام الحالي، بِلُحًى مخروطية تليق بمناصبهم، أن أعاقَب على جريمة كوني وُلدت أرستقراطيًّا، وحُكم عليَّ بقضاء بقية أيامي... في هذا الفندق».

تعالت الهتافات، وصافح الكونت أيدي ضيوفه واحدًا بعد آخر، معربًا لكل منهم عن سعادته بصحبته وامتنانه الحار.

قال: «ادخلوا، ادخلوا».

انحشر الموظفون الثلاثة شاقين طريقهم وسط أكداس الأثاث المتقلقلة.

«إذا منحتموني الشرف»، قالها الكونت، وهو يمدّ يده لأندري بإحدى زجاجتي البراندي. ثم ركع إلى جوار «السفيرة»، وفضّ مشبكيها، وفتحها مثل كتاب عملاق. محفوظًا بعناية داخلها، كان طقمٌ من اثنتين وخمسين كأسًا- أو بتحديد أكثر، ستة وعشرين زوجًا من الكؤوس- كل منها صُنعت على هيئة تناسب غرضها، من الحُضن الكبير لكؤوس البُرغندي وحتى تلك الأقداح الصغيرة المخصصة لأصناف اللِيكور الجنوب-أوروبية ذات الألوان المبهجة. وبوحيٍ من روح اللحظة، أخرج الكونت أربع كؤوس كيفما اتُّفق ومرّرها لهم، فيما قام أندري، وقد نزع سدادة الزجاجة، بواجب الضيافة.

فور أن امتلأت الكؤوس، رفع الكونت كأسه عاليًا:

«في صحة المتروبول».

وأجابوه: «في صحة المتروبول».

كان الكونت مُضيفًا بالسليقة، وفي غضون الساعة التي أعقبت ذلك،

فيما كان يَترع كوبًا هنا ويفتح مناقشة هناك، ظل منتبهًا بوعيه الغريزي إلى مختلف الحالات المزاجية في الغرفة. أندري، رغم الطابع الرسمي الذي تفرضه وظيفته، حافَظ الليلة على ابتسامة لم تُغادر وجهه، بل وكان يغمز بعينه بين حين وآخر. أما فاسيلي، الذي اعتاد أن يتحدث بدقة بالغة وهو يصف الاتجاهات إلى مختلف المعالم السياحية في المدينة، فقد أبدى، فجأة، خفّة رجُلٍ قد يتذكر في الغد، أو لا يتذكر، ما قاله اليوم. وعند كل دعابة، سمحت مارينا الخجولة لنفسها بأن تقهقه دون أن تضع يدًا أمام شفتيها.

في تلك الليلة من بين كل الليالي، شعر الكونت بتقدير عميق لانشراحهم المبهِج؛ لكنه لم يكن ساذجًا ليتخيل أن ذلك الانشراح نابع فقط من خبر نجاته من مأزقه. عرف الكونت أكثر من غيره أن شهر سبتمبر عام 1905 شهد توقيع أعضاء «الوفد» معاهدة بورتسموث التي أنهت الحرب الروسية- اليابانية. وفي السنوات السبع عشرة التي تلت إحلال ذلك السلام- أي في غضون زمن لم يتجاوز جيلًا واحدًا- تجشَّمت روسيا حربًا عالمية، وحربًا أهلية، ومجاعتين، وما سُمي بـ«الإرهاب الأحمر». باختصار، عاشت عصرًا من القلاقل لم يرحم أحدًا. وسواءً أكانت ميول المرء يسارية أم يمينية، «حمراء» أم «بيضاء»، سواءً تبدّلت ظروفه الشخصية للأفضل أم تبدّلت للأسوأ، كان الوقت قد حان، في نهاية المطاف، لأن يشرب الجميع في صحة البلاد.



في العاشرة مساء، أوصل الكونت ضيوفه إلى سلم البُرج وتمنى لهم ليلة سعيدة بتلك اللياقة التي كان يظهرها على باب دار أسرته في سان بطرسبرغ. وعند عودته إلى مقامه، فتح النافذة (التي لم تكن أكبر من طابع بريد)، وصبّ ما تبقى في زجاجة البراندي، وجلس إلى المكتب.

هذا المكتب، المصنوع في باريس لويس السادس عشر، بحليّه المذهَّبة وسطحه الجلدي المميِّز لعصره، ورثه الكونت عن أبيه الروحي، «الدوق الأكبر ديميدوف». كان الدوق الأكبر، صاحب السوالف الهائلة البيضاء، والعينين الزرقاوين الفاتحتين، والكتفيَّات الذهبية، يتحدّث بأربع لغات ويقرأ بستٍّ. وقد مثَّل الرجل، الذي لم يتزوج مطلقًا، بلاده في بورتسموث، وأدار ثلاث عِزَب، وفضَّل، عمومًا، العمل عن اللغو الفارغ. لكنه قبل كل ذلك كان قد خَدَم مع والد الكونت كملازم طائش في سلاح الفرسان. هكذا، أصبح الدوق الأكبر بمثابة العين الحارسة للكونت. وعندما استسلم والدا الكونت للكوليرا، بفارق سويعات قليلة، في عام 1900، كان الدوق الأكبر هو من أخذ الكونت جانبًا وشرح له أنه يجب أن يكون قويًّا من أجل أخته؛ وأن الشدائد تتجلّى في أشكال عديدة؛ وأن الرجل إذا لم يقهر ظروفه، فحتمًا ستقهره ظروفه.

تحسّس الكونت سطح المكتب المغطّى بالنُّقَر.

كم كلمةٍ من كلمات الدوق الأكبر، يا ترى، كوَّنت هذه الحزوز الدقيقة؟ هنا، على مدار أكثر من أربعين عامًا، كُتبت تعليماتٌ موجزة للنُظَّار، وحججٌ مقنِعة لرجال الدولة؛ ونصائح نفيسة للأصدقاء. لقد كان، بعبارة أخرى، مكتبًا لا يُستهان به.

تجرَّع الكونت كوبه، وأزاح كرسيّه إلى الخلف، وجلس على الأرض. مرَّر يده وراء قائمة المكتب الأمامية اليمنى حتى عثر على الماسكة. عندما ضغط عليها، انفتح باب سرّي ليكشف تجويفًا ذا بطانة مخمليّة مليء، مثل التجاويف في القوائم الثلاث الأخرى، بأكداس من العملات الذهبية.

أنغليكاني أطاحته الأمواج

عندما بدأ الكونت ألكسندر إلييتش روستوف يتململ في التاسعة والنصف، في تلك اللحظات المائعة قُبيل العودة إلى الوعي، راح يستطعم مذاق النهار الوشيك.

في غضون الساعة، سيكون وسط الهواء الربيعي الدافئ، يسير بخطًى واسعة في شارع تفرسكايا، شارباه كشراعين مفرودَين على أشدّهما. في الطريق، سيشتري صحيفة الهيرالد من الكشك في «سِكّة غازتني»، سيمرّ بمخبز فيليبوف (ويتوقّف برهة ليعاين المخبوزات في واجهة العرض)، ثم يتابع طريقه لمقابلة مستشاريه الماليين.

لكن حين يتوقَف الكونت على الرصيف (لكي يسمح للسيارات بالمرور)، سيتذكّر أن غداءه في نادي الفروسيّة مقرّرٌ في الساعة الثانية- وأن المستشارين الماليين الذين ينتظرونه في العاشرة والنصف، من الناحية العملية، يعملون في خدمة المودعين، ومن ثم يستطيع أن يتركهم ينتظرون... بهكذا أفكار في عقله، سيستدير على عقبيه ويعود أدراجه، ثم، وهو يخلع قبعته العالية عن رأسه، سيفتح باب «فيليبوف».

في التو واللحظة، ستتلقّى حواسه تلك المكافأة التي تمثّل برهانًا قاطعًا على براعة الخبّاز. سيَعبقُ الهواء بالرائحة الحلوة للمخبوزات الطازجة من بسكويت، وكعك مُحلّى، وأرغفة خبز؛ مخبوزات لا تضاهى في جودتها حتى إنها تُنقل يوميًّا بالقطار إلى «متحف الأرميتاج» [في سان بطرسبرغ]- بينما خلف زجاج الخزانة الأمامية ستظهر، في صفوف كاملة الانتظام، قِطع الكيك المزيّنة بالكريمة بألوانها المتنوّعة

كما زهور التوليب في أمستردام. سيقترب الكونت من منضدة البيع، ويطلب من الآنسة ذات المريلة الزرقاء الفاتحة قطعة **مِلفيه** (ويا له من اسم جدير بها)(*) ويراقبها بإعجاب وهي تستخدم ملعقة شاي لكي تدفع القطعة برفق من فوق ورقتها الفضية إلى صحن خزفيّ.

سيحمل الكونت وجبته المنعشة، ويختار أقرب كرسي شاغر لتلك الطاولة الصغيرة في الزاوية حيث تلتقي هاتِه الآنسات المتأنّقات كل صباح لمراجعة مكائد الليلة السابقة. في أول الأمر، تنتبه العذارى الثلاث إلى الزبائن من حولهن، ويشرعن في الحديث بأصوات هامسة متناسبة مع رقّتهن؛ لكن سرعان ما تجرفهنّ تيارات انفعالاتهنّ، فترتفع أصواتهنّ. هكذا، بحلول الساعة 11:15، لا يبقى خيار أمام أكثر الزبائن تحفظًا إلّا استراق السمع إلى مواجع أفئدتهنّ المؤلَّفة من «ألفِ طبقة».

بحلول الساعة 11:45، وبعد أن يأتي على صحنه وينفض الفتات عن شاربيه، وبعد أن يلوِّح شاكرًا للآنسة وراء منضدة البيع ويلمس قبعته محييًا الآنسات الثلاث اللاتي سبق له تبادل حديث قصير معهن، سيرجع إلى شارع تفرسكايا ويتوقف ليفكر: **ماذا بعد؟** لعله يمر بـ«غاليري برتراند» لإلقاء نظرة على أحدث اللوحات الواردة من باريس، أو يدلف إلى بهو الكونسرفاتوار، حيث يحاول رباعيٌّ من العازفين الشبّان إتقان مقطوعة لبيتهوفن؛ وربما يستدير ببساطة عائدًا إلى حدائق ألكسندر، حيث قد يجد مقعدًا يجلس عليه ويستمتع بزهور الليلك بينما تهدل حمامة وتُخربش بقدميها على مانع التسريب النحاسي لعتبة الشبّاك.

على مانع التسريب النحاسي لعتبة الشبّاك...

«آه، نعم»، أدرك الكونت. «أظن أن أيًّا من ذلك لن يحدث».

(*) **مِلفيه** *mille-feuille*: وتعني- بالفرنسية- «ذات الألف ورقة» أو «ذات الألف طبقة»، وهي نوع من الحلوى. (المترجم)

لو كان الكونت قد أغلق عينيه وانقلب باتجاه الحائط، أكان يستطيع العودة إلى مقعد الحديقة في الوقت المناسب كي يرى، **يا لمحاسن الصُّدف**، الآنسات الثلاث من مخبز فيليبوف في جواره؟

لا شك في ذلك. لكن أن يتخيل المرء ما كان سيحدث تحت ظروف مختلفة لهو الطريق الأكيد الوحيد نحو الجنون.

اعتدل الكونت جالسًا في سريره، ووضع باطن قدميه مباشرة على الأرض العارية من السجاد، وفتل شاربيه الشبيهين بمؤشّر البوصلة.

على مكتب الدوق الأكبر كانت كأس شامبانيا طويلة وكأس براندي مكتنزة. حين يرى المرء الاستقامة النحيلة للأولى التي تَنظر من عليائها إلى التكوّر البدين للثانية، لا يسعه إلا التفكير في دون كيخوته وسانشو بانثا في سهول «سييرا مورينا». أو في روبن هود والراهب تَك في ظلال غابة «شيروود». أو في الأمير هال والسير فالستاف أمام بوابات...

لكن ثمة طرقة على الباب.

نهض الكونت فخبط رأسه في السقف.

هتف: «لحظة واحدة»، وهو يفرك قمة رأسه ويفتش في صندوقه عن رُوب. فور أن تزيَّا على نحو ملائم، فتح الباب ليجد شابًا من النوع المكافح يقف في الردهة ومعه إفطار الكونت اليومي- إبريق قهوة، وقطعتان من البسكويت، وحبّة فاكهة (اليوم برقوق).

«أحسنت يا يوري! تفضّل، تفضّل. ضعها هناك، ضعها هناك».

أخذ يوري يرتّب الإفطار فوق الصندوق، بينما جلس الكونت إلى مكتب الدوق الأكبر وخطَّ رسالة سريعة إلى المدعو قنسطنطين قنسطنطينوفيتش في شارع دورنوفكسي.

«هل تصنع لي معروفًا وتسلِّم هذه يا ولدي؟».

يوري، الذي لا يتنصّل من أي مأموريات، تناول الرسالة ببشاشة، وتعهَّد بأن يسلّمها باليد، وقَبِلَ البقشيش بانحناءة. ثم توقّف عند عتبة الباب.

«هل... أترك الباب مواربًا؟».

كان سؤالًا في محلّه، إذ كانت الغرفة مكتومة نوعًا، وفي الطابق السادس لم يكن المرء ليخشى كثيرًا من انكشاف خصوصياته.

«نعم، من فضلك».

على وقع خطى يوري وهو ينزل سلم الخدمات، وضع الكونت فوطة المائدة في حِجره، وصب فنجانًا من القهوة، وزيّنها ببضع قطرات من القشدة. مع تناول الرشفة الأولى لاحظ بقدر من الرضا أن يوري الصغير لا بُد قَطَع مجموعات الدَّرَج الثلاث الإضافية وثبًا، حيث لم تكن القهوة أبرد من المعتاد ولا بدرجة واحدة.

لكن حين كان الكونت يحرّر بذرة البرقوقة من نُقرتها بسكين التقشير، لاحظ ظلًّا فضيًّا، واهيًا كنفخة دخان، ينسلّ خلف صندوقه. مال الكونت جانبًا لكي يدقق النظر وراء الكرسي ذي الظهر العالي، فاكتشف أن الشبح ليس سوى قِط بهو المتروبول. قط روسي أزرق أعور لا يترك شيئًا داخل الفندق يحدث في غفلة منه، وقد جاء إلى العليّة، فيما يبدو، لكي يعاين بنفسه مقر الكونت الجديد. خارجًا من الظلال، قفز من الأرض إلى «السفيرة»، ومن «السفيرة» إلى الطاولة الجانبية، ومن الطاولة الجانبية إلى أعلى الكومود ذي القوائم الثلاث، دون أن يصدر صوتًا. وإذ وصل إلى نقطة المراقبة المبتغاة، صوَّب للغرفة نظرة متفحصة، ثم هزّ رأسه بإحباط سَنُّوريّ.

«نعم»، قالها الكونت بعد أن أتم معاينة الغرفة بنفسه. «أفهم قصدك جيدًا».

كانت فوضى الأثاث المتزاحم تضفي على الحيز الصغير مظهر متجرٍ للبضائع المستعملة في منطقة أربات. في غرفة بهذا الحجم، كان بإمكانه الاكتفاء بكرسي واحد عالي الظهر، وطاولة فراش واحدة، ومصباح واحد. كان بإمكانه الاستغناء نهائيًّا عن طقم جدته البورسلين الـ«ليموج».

والكتب؟ **كلّها!** هكذا قال بالأمس في صَلَف. لكن في ضوء النهار، اضطر لأن يعترف بأن ذلك الأمر لم يصدر عن حسٍّ سليم قدر ما صدر عن نزوة طفولية للتأثير في الساعيَيْن وإلزام الحارسيْن مكانهما. إذ لم تكن الكتب، حتى، من النوع الذي يفضّله. فمكتبته الشخصية الحافلة بأعمال كبار الكتّاب أمثال بلزاك، وديكنز، وتولستوي تُركت في باريس. أما الكتب التي حَمَلها الساعيان إلى العليّة فكانت تخص والده، ولما كانت مكرّسة لدراسات الفلسفة المنطقية وعلم الزراعة الحديث، كان كل منها يُبشّر بحمولة جسيمة ويُنذر بقراءة مستعصية.

لا شكّ، كانت الضرورة تقتضي غربلة أخرى.

لذا، بعد أن تناول الكونت فطوره، وتحمّم، وارتدى ملابسه، انصرف إلى العمل. أولًا، جرَّب الباب المؤدي إلى الغرفة المجاورة. لا بُد أنه مسدود من الداخل بشيء ثقيل جدًّا، إذ لم يتزحزح من مكانه تقريبًا تحت قوة كتف الكونت. في الحجرات الثلاث التالية، وجد الكونت حطامًا كأنه من طرح البحر، مكدَّسًا من الأرض إلى السقف. لكن في الغرفة الأخيرة، وسط ألواح الأردواز وشرائط موانع التسريب، كانت فُسحة واسعة قد أخليت حول سماور قديم منبعج بدا واضحًا أن بعض عمال صيانة السقف كانوا يعدّون فيه الشاي في ما مضى.

عندما عاد الكونت إلى غرفته، علّق بضع سترات في دولابه. أخرج بعضًا من بناطيله وقمصانه ورصّها في الزاوية الخلفية اليمنى للكومود (ليمنع الوحش ذا القوائم الثلاث من السقوط). إلى الردهة، جرَّ صندوقه، ونِصف قطع الأثاث، وكل كُتب والده عدا واحدٍ. هكذا، في ساعة واحدة قلّص غرفته إلى الضروريات الأساسية: مكتب وكرسي، سرير وطاولة جانبية، كرسي عالي الظهر للضيوف، وممر طوله ثلاثة أمتار وعرضه بالكاد يكفي جنتلمانًا لأن يروح ويجيء وهو يُعمل الفِكر.

نظر الكونت برضا إلى القط (الذي كان مشغولًا بلعق القشدة عن

مخلبيه في رغد الكرسي عالي الظهر). «ماذا تقول الآن أيها القرصان العجوز؟».

ثم جلس إلى مكتبه والتقط المجلد الوحيد الذي استبقاه، لا بُد أن عقدًا من الزمن قد مرّ منذ تعهد الكونت أمام نفسه للمرة الأولى بقراءة هذا العمل الذي أشاد به العالم وحمل له والده معزَّة كبيرة. مع ذلك، ففي كل مرة كان يضع إصبعه على الروزنامة ويعلن: **هذا هو الشهر الذي سأكرّس فيه نفسي لـ«مقالات ميشيل دو مونتاني»** كان شأن شيطاني من شؤون الحياة يطل برأسه من الباب. من مكان غير متوقَّع كان يلتقط مؤشّرًا على اهتمام غراميّ، وهو أمر لا يصحُّ لصاحب الضمير الحي أن يتجاهله. أو يهاتفه أحد مستشاريه الماليين. أو يأتي السيرك إلى البلدة.

كانت الحياة تَفتنه، في نهاية المطاف.

لكن هنا، على الأقل، تواطأت الظروف لا لتصرف انتباه الكونت، بل لتوفّر له الوقت والخلوة اللازمين لإيلاء الكتاب ما يستحقه من اهتمام. وهكذا، أمسك المجلّد بقوة، ووضع إحدى قدميه على زاوية الكومود، ودفع جسده إلى الوراء إلى أن توازَن الكرسي على قدميه الخلفيتين، وشرع يقرأ.

بوسائل مختلفة نصل إلى الغاية نفسها

الطريقة الأكثر شيوعًا لترقيق قلوب أولئك الذين أسأنا إليهم، حين تحين فرصتهم للانتقام، ونصبح تحت رحمتهم، هي الخضوع لهم لكي ننقلهم إلى حالة التأسّي والإشفاق. مع ذلك، في بعض الأحيان، ينجح الاجتراء والعناد- الوسيلة النقيضة تمامًا- في إحداث الأثر نفسه...

عادة القراءة في كرسي مائل تشكَّلَت لدى الكونت لأول مرة في «أيدل آور».

في تلك الأيام الربيعية المجيدة، والبساتين مزهرة، وحشيشة ذيل الثعلب تتمايل فوق العشب، كان هو وهيلينا يبحثان عن ركن بهيج لتزجية الساعات. يومًا، يختاران الجلوس تحت التعريشة في الفناء الأمامي، وفي اليوم التالي يلجآن إلى شجرة الدردار الضخمة المطلّة على منعطف النهر. كانت هيلينا تنشغل بالتطريز، بينما يُميل الكونت كرسيّه- موازنًا نفسه بإسناد إحدى قدميه على حافة الفسقية أو على جذع شجرة- ليقرأ لها بصوت عالٍ من أعمال بوشكين المحبّبة إلى قلبها. وساعة بعد ساعة، مقطعًا بعد مقطع، تظل إبرتها الصغيرة تدور وتدور.

«إلى أين تذهب كل تلك الغُرَز؟»، كان يسألها أحيانًا مع نهاية إحدى الصفحات. «بعد كل هذا الوقت، لا بُد أن كل وسادة في البيت قد زُيِّنت بفَراشة وكل منديل بالأحرف الأولى». وعندما كان يتهمها بفك غُرَزها في الليل مثل بينيلوبي(*)، فقط لكي تضطره إلى قراءة كتاب آخر من الأشعار، كانت ترد بابتسامة غامضة.

رفع الكونت رأسه عن مونتاني، وركَّز بصره على بورتريه هيلينا. الذي كان مستندًا إلى الحائط. كان البورتريه، المرسوم في «أيدل آور» في شهر أغسطس، يصوِّر أخته جالسة إلى مائدة غرفة الطعام أمام صحن من الخوخ. لَكَمْ برع سيروف في اقتناص وجهها- بشعرها الأسود مثل ريش الغراب النوحيّ، وخديها المتورّدين بخفّة، وتعبيرات وجهها اللطيفة والمتسامحة. وفكَّر الكونت: ربما كانت تلك الغُرَز تحوي شيئًا ما، حكمةً رقيقةً تكتسبها مع إكمال كل عقدة صغيرة. نعم، بطيبة قلبها تلك وهي في الرابعة عشرة، لا يسع المرء إلا أن يتخيّل الرقة التي كانت لتُبديها في الخامسة والعشرين...

(*) بينيلوبي: زوجة أوديسوس، ملك إيثاكا، وبطل «الأوديسة». (المترجم)

أفاق الكونت من حلم يقظته على صوت نقرة خافتة. أغلق كتاب والده، ونظر خلفه ليجد رجلًا يونانيًّا في الستين من عمره عند مدخل الباب.

«قنسطنطين قنسطنطينوفيتش!».

ترك الكونت قائمتي الكرسي الأماميتين تهبطان على الأرض بخبطة، ومضى إلى عتبة الباب وأخذ بيد زائره.

«أنا سعيد جدًا لأنك استطعت الحضور. لم يسبق لنا اللقاء إلا مرة أو اثنتين، لذا قد لا تتذكّرني، أنا ألكسندر روستوف».

أحنى اليوناني العجوز رأسه ليُبدي له أنْ لا لزومَ للتذكير.

«تفضّل، ادخل. تفضّل بالجلوس».

أشاح الكونت برائعة مونتاني ليصرف القط الأعور (الذي قفز إلى الأرض وهو يهسّ)، وعَرَض على ضيفه الكرسي عالي الظهر، وجلس هو على كرسي المكتب.

في الثواني التالية، راح اليوناني العجوز ينظر إلى الكونت بقدرٍ من الفضول- وهو الأمر المتوقّع، ربما، باعتبار أنهما لم يلتقيا من قبل في شأن من شؤون العمل. فالكونت، في نهاية المطاف، لم يكن معتادًا على الخسارة في القُمار. لذا، تولّى الكونت مهمّة البدء.

«كما ترى يا قنسطنطين، فقد تغيَّرت ظروفي».

سمح ضيف الكونت لنفسه بإبداء الدهشة.

قال الكونت: «لا، هذه حقيقة. لقد تغيَّرت كثيرًا».

أجال اليوناني العجوز بصره في الغرفة سريعًا، ورفع يديه في رثاء للظروف التي لا تبقى على حالٍ، ثم جازف بالقول:

«لعلّك تبحث عن مصدر لبعض من... رأس المال؟».

في اقتراحه ذلك، تمهَّل اليوناني العجوز لبرهة قصيرة للغاية قبل كلمة **رأس المال**. وفي رأي الكونت المعتبَر، كانت وقفةً مثالية- وقفةً

أُتقنت على مدار عقود من المحادثات الشائكة. وقفة عبَّر فيها عن قدر من التعاطف مع محاوِره دونَ أن يُلمِح، ولو للحظة، أن ذلك أثَّر في مكانة كل منهما بالنسبة للآخر.

«لا، لا»، طمأنه الكونت بهزّة من رأسه ليؤكد له أن الاستدانة ليست من عادات آل روستوف. «على العكس يا قنسطنطين. لديّ شيء أظنه يهمك». ثم أبرز الكونت، وكأنما من الهواء، إحدى عملات مكتب الدوق الأكبر، ووازنها على حافتها فوق إبهامه وسبابته.

عاين اليوناني العجوز العملة للحظة، ثم تنهّد ببطء، في إيماءة امتنان. فرغم أن الإقراض كان مهنة قنسطنطين قنسطنطينوفيتش، كانت براعته تكمن في قدرته على رؤية الشيء لوهلة، والإمساك به للحظة، ومن ثم معرفة قيمته الحقيقية.

سأله: «أتسمح لي...؟».

«بكل تأكيد».

تناول العملة، وقَلَبها مرة، ثم أعادها بإجلال. إذ لم تكن القطعة خالصة من الناحية المعادنيّة فحسب، بل كانت الصورة على ظهرها- صورة العُقاب ذي الرأسين بعينه الطارفة- تؤكّد للعين الخبيرة أنها واحدة من خمسة آلاف عملة سُبكت لإحياء ذكرى تتويج «كاثرين العظيمة». تلك القطعة حين تُشترى من جنتلمان معوز يمكن أن تُباع، بربح معتَبر، لأكثر دور الصرافة حيطة وحذرًا في أوقات الرخاء. لكن ماذا عن أوقات الاضطراب؟ حتى مع انهيار الطلب على الرفاهيات المعتادة، تظل قيمة قطعة ثمينة كهذه في ارتفاع.

«اغفر لي فضولي، يا صاحب السعادة، لكن هل هي... قطعة وحيدة؟».

هز الكونت رأسه نافيًا: «وحيدة؟ لا، لا. إنها تعيش مثل جندي في ثكنات. مثل عبدٍ في سفينة بمجاديف. لا تختلي بنفسها ولو للحظة. صدّقني».

تنهَّد اليوناني العجوز ثانية.

«طيّب، إذًا...».

وفي غضون دقائق، كان الرجلان قد عقدا صفقة دون أَخذٍ أو ردٍّ. وعلاوة على ذلك، قال اليوناني العجوز أنه سيكون من دواعي سروره أن يوصِّل بنفسه ثلاث رسائل، خطّها الكونت على الفور. ثم تصافحا مثل معارف قَدامى، واتفقا على اللقاء بعد ثلاثة أشهر من الآن.

لكن اليوناني العجوز تمهَّل قبيل خروجه من الباب.

«يا صاحب السعادة... هل تسمح لي بسؤال شخصي؟».

«بكل تأكيد».

أومأ بقدر من الخجل إلى مكتب الدوق الأكبر.

«هل لنا أن ننتظر منك المزيد من القصائد؟».

نظر الكونت إليه بامتنان.

«يؤسفني القول، يا قسطنطين، أن أيام الشعر بالنسبة إليَّ قد ولَّت إلى غير رجعة».

«إذا كانت أيام الشعر بالنسبة إليك قد ولَّت إلى غير رجعة يا كونت روستوف، فذلك مَدعاةٌ لأسفِنا نحن».

★ ★ ★

مخفيًّا عن الأعين في الركن الشمالي الشرقي من الطابق الثاني للفندق، كان البويارسكي- أرقى مطعم في موسكو، وربما في عموم روسيا. بأسقفه المقنطَرة وجدرانه الحمراء الداكنة التي تُذكِّر بمعتكَفات البويار [النبلاء]، كان البويارسكي يتباهى بأكثر ديكورات المدينة أناقةً، وأرفع النُدُل ثقافةً، وأعظم الطهاة فنًّا وبراعةً.

كان تناول الطعام في البويارسكي تجربة مرموقة، حتى إنك قد تُضطر،

في أي ليلة من الليالي، إلى التدافع بالمناكب لتشقّ طريقك وسط الزبائن الطامحين، فقط لتحظى بنظرة من أندري الواقف على السِّجلّ الأسود الكبير حيث سُجِّلت أسماء المحظوظين. وعندما يقودك الـمِتر، في النهاية، إلى مكانك، لا تَستبعد أن يستوقفك معارفك خمسَ مرات بأربع لغات في الطريق إلى طاولتك في ذلك الركن القصيّ، حيث ستتلقى أخيرًا خدمة لا تشوبها شائبة على يد نادل في سترة بيضاء.

أو بالأحرى، كان لك أن تتوقّع ذلك حتى عام 1920، عندما قرر البلاشفة، بعد أن أغلقوا الحدود، منع استخدام الروبِل في المطاعم الراقية- ما يعني تسكيرها فعليًّا أمام 99 بالمئة من السكان. وهكذا، ففي تلك الليلة، وبينما يشرع الكونت في تناول طبقه الرئيسي، استطاعت أذناه سماع صلصلات أكواب الماء وهي تلامس فضّيَّات المائدة، وراح أزواج الزبائن يتهامسون في ارتباك، وحتى أفضل النُدُل وجد نفسه يحدق في السقف.

لكن لكل زمن فضائله، حتى زمن الاضطراب.

عندما استمالت إدارة الفندق «إميل زوكوفسكي» ليصبح رئيسًا للطهاة عام 1912، كان تحت إمرته فريق مُتمرّس ومطبخ فسيح. علاوة على ذلك، كان لديه أشهر مخزن للمؤن في شرق فيينا. على رفّ توابله كانت نخبة من مختلف بهارات العالم، وفي برَّاده معرضٌ شاملٌ لطيورٍ وأنعامٍ معلّقة من أرجلها بالخطاطيف. على هذا النحو، قد يتسرَّع المرء ويستنتِج أن عام 1912 كان العام المثالي لقياس مواهب الشيف. لكن في زمن الوفرة يستطيع أي أحمق يحمل ملعقةً أن يُرضي الأحناك. أما إذا أراد المرء اختبار براعة الشيف حقًّا، فعليه أن يراه، بدلًا من ذلك، في زمن العَوَز. وماذا يورِد العَوَزَ أكثر من الحرب؟

في أعقاب الثورة- مع تردّي الاقتصاد، وتلف المحاصيل، وانقطاع التجارة- أصبحت المكونات الدقيقة سلعة شحيحة في موسكو كما

الفَراشات في البحر. استُنزفت مؤونة المتروبول مكيالًا بعد مكيال، ورطلًا بعد رطل، ورشّة بعد رشَة، وتُرك الشيف ليلبِّي تطلعات جمهوره بدقيق الذرة، والقرنبيط، والكرنب- بعبارة أخرى، بما تستطيع أن تناله يداه.

أجَل، زعم البعض أن إميل زوكوفسكي ضنينٌ، ورآه البعض فظًّا. قال البعض إن له جسدًا قصيرًا وبالًا أقصر. لكن أحدًا لم يستطع التشكيك في عبقريته. ولنتأمل مثلًا الطبق الذي كان الكونت يُجهِز عليه في تلك اللحظة بالذات: الـ«سالتِمبوكّا» المطهوَّة بما تيسَّر. عِوضًا عن شريحة البتلّو، استعان إميل بصدر دجاجة ودقَّهُ حتى سوَّاه. وعوضًا عن الـ«بروشوتو دي بارما»، قطَّع لحمَ خنزير أوكراني إلى شرائح رفيعة. وعوضًا عن الميرميّة، تلك الوُريْقة الرقيقة التي تَلصق النكهات معًا؟ لجأ إلى عشبة ناعمة وعطرية تشبه الميرميّة، لكنها أحدُّ مذاقًا... لا هي ريحان ولا بردقوش، كان الكونت واثقًا من ذلك، لكنه التقاها بالتأكيد في مكان ما من قبل...

«كيف الطعام الليلة يا صاحب السعادة؟».

«آه يا أندري. كالمعتاد، كل شيء مثالي».

«والسالتِمبوكّا؟».

«فاتنة. لكن عندي سؤال واحد: العشبة التي دسَّها إميل تحت شريحة اللحم- أعرف أنها ليست ميرميَّة. فهل يمكن أن تكون قُرَّاصًا؟».

«قُرَّاص؟ لا أظن. لكن سأستفسر».

ثم، بانحناءة، استأذن المتر في الانصراف.

فكَّر الكونت: إميل زوكوفسكي عبقري دون شك، لكن الرجل الذي صان سمعة البويارسكي الممتازة عبر التأكّد من أن كل شيء داخل جدرانه يسير على الوجه الأمثل هو «أندري دوراس».

كان أندري، المولود في جنوب فرنسا، رجلًا طويلًا وسيمًا، زحف

الشيب على سوالفه، لكن الملمح الأكثر تميّزًا فيه لم يكن مظهره، ولا طول قامته، ولا شعره، بل يداه. كانت أصابعه الشاحبة ذات الأظافر المشذَّبة بعناية أطول بسنتيمتر على الأقل من أصابع معظم الرجال الذين يبلغون قامته. لو كان أندري عازف بيانو، لاستطاع بسهولة أن يُفرِج أصابعه ليطال أبعد المفاتيح. لو كان محرِّك دُمى، لاستطاع تقديم مبارزة بالسيوف بين مَكبث ومَكدوف بينما تقف الساحرات الثلاث متفرّجات. لكن أندري لم يكن عازف بيانو ولا محرِّك دُمى- أو على الأقل ليس بالمعنى التقليدي. كان رُبّان البويارسكي، وكان المرء يراقب يديه متعجبًا وهي تحقق كل غاية انتوَتْها.

بعد أن قاد لتوِّه جماعة من النساء إلى طاولتهن، مثلًا، بدا أندري وكأنه سَحَب كراسيهن جميعًا في اللحظة نفسها. وعندما أخرجت إحدى السيدات سيجارة، كان يمسك قداحة بإحدى يديه ويحرس اللهب بالأخرى (وكأن تيارات الهواء قد نجحت من قبل، ولو مرة، في اختراق جدران البويارسكي!). وعندما سألته المرأة الممسكة بقائمة النبيذ أن يقترح عليها صنفًا، لم يُشر إلى «بوردو 1900»- على الأقل ليس كما كان فرسان المعبد يشيرون بذؤابات سيوفهم- بل مدَّ سبَّاباته على نحو يذكِّر بالإيماءة الشهيرة على سقف كنيسة «سيستين»، التي أَطلق «المحرِّك الأوَّل» من خلالها شرارة الحياة. ثم انحنى طالبًا الإذن بالانصراف، واجتاز القاعة ليدلف من باب المطبخ.

لكن قبل مرور دقيقة واحدة، تأرجح الباب مُشرَعًا من جديد- وظهر إميل.

بقامته التي لا تتجاوز 165 سنتيمترًا طولًا، ووزنه البالغ تسعين كيلوغرامًا، ألقى الشيف نظرة سريعة على القاعة ثم تقدم باتجاه الكونت، وأندري في أعقابه. وبينما كان الشيف يجتاز قاعة الطعام، ارتطم بكرسي أحد الزبائن وكاد يُسقط أحد النُدُل المساعدين وهو يحمل صينية الصحون الخاوية. توقف بغتة عند طاولة الكونت، ونظر إليه من أعلى

إلى أسفل، كما يقيِّم المرء خصمًا قبل أن يتحداه لمبارزة، وقال بنبرة بادية الاستياء: «**برافو مسيو. برافو!**».

ثم استدار على عقبيه وعاود الاختفاء في مطبخه.

انحنى أندري، وقد بدا عليه الانبهار، ليعرب عن اعتذاره وتهانيه.

«لقد كان قرَّاصًا يا صاحب السعادة. ما زلتَ تتمتّع بذائقة لا تُضاهى».

ومع أن الشماتة لم تكن من طباع الكونت، لم يستطع كبح ابتسامة رضا.

وإذ كان أندري يعرف شهية الكونت للحلوى، أشار إلى عربة التحلية.

«أتسمح لي أن أقدم لك قطعة من تورتة البرقوق مع تحيات المطعم...؟».

«شكرًا على الدعوة يا أندري. عادة كنت لأقتنص الفرصة. لكن الليلة لديَّ ارتباط آخر».

★ ★ ★

بعد أن اعترف الكونت بأن على الرجل أن يقهر ظروفه وإلا قهرته ظروفه، رأى من المفيد أن يفكر كيف يمكن للمرء تحقيق هذا الهدف حين يُحكم عليه بالحبس مدى الحياة.

بالنسبة إلى إدموند دانتيس في قلعة جزيرة إف، كان التفكير في الانتقام هو ما حافظ على صفاء ذهنه. فبعد أن سُجن ظلمًا، حافظ [كونت دي مونت كريستو] على نفسه بالتخطيط للقضاء على عملاء الشرّ الذين ظلموه واحدًا بعد آخر. وبالنسبة إلى ثربانتس، الذي استرقَّه القراصنة في الجزائر، كان الوعد بصفحات لم تُكتب هو الذي حفَّزه على المضي قدمًا. أما بالنسبة إلى نابليون على جزيرة إلبا، وهو يمشي وسط الدجاجات، وينشّ الذباب، ويتفادى بُريكات الطين، فكانت رؤى العَوْد المظفَّر إلى باريس هي التي صانت إرادته على الثبات.

لكن الكونت ليس من طبعه الانتقام؛ ولا يتمتّع بمخيلة ملحميّة؛ وبالتأكيد لا يملك الأنا الحالمة لكي يتصور نفسه وهو يستعيد امبراطوريات مسلوبة. لا. مَثله الأعلى في السيطرة على الظروف سيكون نوعًا مختلفًا تمامًا من الأسرى: أنغليكاني أطاحته الأمواج إلى الشاطئ. مثل روبنسن كروزو عالقًا فوق «جزيرة اليأس»، سيظل الكونت محافظًا على عزيمته عن طريق الانشغال بـ**المسائل العملية**. فبعد أن يتحرّر «كروزوات» العالم من حُلم النجدة السريعة التي ستأتي لانتشالهم، يمضون في البحث عن ملجأ ومصدر للماء النظيف؛ يعلّمون أنفسهم إشعال النار بحجر؛ يدرسون طوبوغرافية جزيرتهم، وطقسها، وما عليها من حياة نباتية وحيوانية، وفي الأثناء يُبقون عيونهم مفتوحة، باحثة عن أشرعة في الأفق وآثار أقدام في الرمال.

لهذا الغرض، أعطى الكونت ثلاث رسائل للشيخ اليوناني كي يوصلها. ففي غضون ساعات، استقبل الكونت زيارة من رسولَيْن: صبي من متجر «ميور ومريِيليس» يحمل بياضات فاخرة ووسادة لائقة؛ وآخر من «بيتروفسكي باسيدج» ومعه أربع قِطَع من صابون الكونت المفضل.

والردُّ الثالث؟ لا بُد أنه وصل بينما كان الكونت يتناول عشاءه. ففي انتظاره على السرير كانت علبة زرقاء فاتحة بها قطعة مِلفيه واحدة.

موعد

أبدًا لم تكن دقة الساعة الثانية عشرة موضع ترحاب بهذا القدر. لا في روسيا، ولا في أوروبا. ولا في أي مكان في العالم. لو كانت جولييت قالت لروميو إنها ستظهر في نافذته عند الظهيرة، ما كانت نشوة الفيرونيّ الشاب لتضاهي نشوة الكونت. لو كانوا أخبروا طفلَي «دكتور ستالباوم»- فريتز وكلارا- صبيحة الكريسماس أن باب الصالون سينفتح ساعة الظهيرة، ما كان لطَرَبهما أن يجاري طَرَب الكونت لدى سماعه لأولى الدقّات.

إذ بعد أن نفض عن رأسه بنجاح أفكاره عن شارع تفرسكايا (واحتمالات الالتقاء بآنسات أنيقات)، بعد أن تحمّم، وارتدى ملابسه، وارتشف قهوته، وتناول فاكهته (اليوم حبَّة تين)، بُعيد الساعة العاشرة كان الكونت قد أمسك بتحفة مونتاني بلهفة، فقط ليكتشف أن نظرته، كل خمسة عشر سطرًا، تزيغ باتجاه الساعة...

الحقيقة أن الكونت كان قد شعر بمسحة من قلق عندما رفع الكتاب عن المكتب في اليوم السابق. إذ كان المؤلَّف المنشور في كتاب واحد كثيفًا مثل قاموس أو نسخة من الكتاب المقدس- تلك الكتب التي يتوقّع المرء أن يراجعها، أو ربما يطالعها، لكنه لا **يقرأها** أبدًا. لكن حين استعرض الكونت فهرس المحتويات- قائمة من 107 مقالات حول قضايا من نوع «الالتزام»، «التوسّط»، «العزلة» و«النوم»- تأكّدت شكوكه الأوَّلية أن مؤلِّف الكتاب وَضَعه وفي ذهنه ليالي الشتاء. كان، دون شك، كتابًا يُقرأ عندما تكون الطيور قد هاجرت إلى الجنوب، والأخشاب تكدّست

بجوار المدفأة، والحقول ابيضَّت من الثلوج؛ بعبارة أخرى، عندما يكون المرء عازفًا عن الخروج وأصدقاؤه عازفين عن المجيء.

رغم ذلك، بنظرة ثابتة العزم إلى الوقت، مثل قبطان مخضرم حريص على تسجيل ساعة إقلاعه بكل دقة، أبحر الكونت مجدَّدًا وسط عباب التأمّل الأول: «بوسائل مختلفة نصل إلى الغايةِ نفسها».

في المقالة الافتتاحية- حيث الأمثلة مستقاة من حوليّات التاريخ- قدَّم المؤلِّف حجة شديدة الإقناع على أن المرء عندما يكون تحت رحمة شخص آخر، يتعين عليه أن يتوسّل حفاظًا على حياته.

أو أن يَبقى أبيًّا مرفوع الهامة.

على أي حال، فبعد أن أكد المؤلِّف أن أيًّا من المقاربتين قد تكون المقاربة الصحيحة، انتقل إلى تأمّله الثاني: «عن الحزن».

هنا، استشهد مونتاني بتشكيلة من مرجعيّات «العصر الذهبي» التي لا يعتورها الشك، أكدت جميعًا على نحو حاسم أن الحزن شعور جدير بالمشاركة.

أو بأن يحتفظ به المرء لنفسه.

كان الكونت عند نقطة ما في منتصف المقالة الثالثة عندما وجد نفسه ينظر إلى الساعة للمرة الرابعة أو الخامسة. أم كانت السادسة؟ عجز الكونت عن تحديد عدد النظرات بدقة، لكنّ هذا نفسه كان دليلًا على أن انتباهه قد انجذب إلى الساعة أكثر من مرة.

لكن، يا لها من ميقاتيَّة.

كانت الساعة مزدوجة الدقّات، التي صنعتها شركة «بِريجِيه» الموقَّرة خصيصًا بناء على طلب والد الكونت، تحفةً في حد ذاتها. كانت واجهتها المطلية بالمينا تماثل في محيطها ثمرة «غريب فروت»، وجسمها اللازوردي يتقوّس في منحنيين تقاربيين من قمتها إلى قاعدتها، بينما أجزاؤها الداخلية المرصّعة بالأحجار الكريمة نُحتت بيد نخبة من

الصناع المعروفين في أرجاء العالم بالتزامهم الراسخ بالدقة. والمؤكد أن سمعتهم تلك استندت إلى أسس سليمة. إذ بينما أخذ الكونت يتقدم في المقالة الثالثة (حيث تزاحَم أفلاطون، وأرسطو، وشيشرون على الأريكة إلى جوار الامبراطور ماكسيمليان)، كان بوسعه سماع كل تكّة.

العاشرة وعشرون دقيقة وست وخمسون ثانية، هكذا قالت الساعة.

العاشرة وعشرون دقيقة وسبع وخمسون.

ثمانٍ وخمسون.

تسعٌ وخمسون.

كانت تلك الساعة تحسب الثواني دون خلل مثلما حَسَب هوميروس تفعيلات أبياته الشعرية وحَسَب بطرس خطايا الخطاة.

لكن أين نحن؟

آه، نعم: المقالة الثالثة.

أزاح الكونت كرسيه إلى اليسار قليلًا لكي يبعد الساعة عن مرمى بصره، ثم بحث عن العبارة التي كان يقرأها. كان شِبه متأكد أنها في الفقرة الخامسة في الصفحة الخامسة عشرة. لكن عندما أوغل عائدًا في سطور الفقرة، بدا له السياق غير مألوف بالمرَّة؛ وكذا بدت له الفقرات التي سبقتها مباشرة. في الحقيقة، كان عليه أن يرجع ثلاث صفحات كاملة إلى الوراء قبل أن يعثر على عبارة يتذكّرها بما يكفي لاستئناف تَقدُّمه على نحو أمين.

استفسر الكونت من مونتاني: «هل هكذا تجري الأمور معك؟ خطوة إلى الأمام وخطوتان إلى الخلف؟».

عقد الكونت العزم على أن يُظهر لرفيقه مَن هو صاحب اليد العليا، وتعهد بألّا يرفع عينيه عن الكتاب ثانية حتى يصل إلى المقالة الخامسة والعشرين. وبتحفيز من عزيمته تلك، أتى الكونت سريعًا على المقالات الرابعة، والخامسة، والسادسة. وعندما أجهز على السابعة والثامنة بمزيد

من الهمّة حتّى، بدت له المقالة الخامسة والعشرون في متناول يده مثل إبريق ماء على مائدة عشاء.

لكن مع تقدّم الكونت في المقالات الحادية عشرة، والثانية عشرة، والثالثة عشرة، بدا له أن هدفه ينحسر بعيدًا. فجأة، بدا أن الكتاب ليس مائدة عشاء بأي حال، بل أشبه بالصحراء الكبرى. وبعد أن فرغت مَزادة الكونت، بدأ يزحف فوق الجَمَل، فيبلغ ذروةَ صفحةٍ بعد لَأيٍ لتتكشّف له، من ورائها، صفحةٌ أخرى.

طيّب إذًا، ليكُن. واصل الكونت زحفه.

انقضت الساعة الحادية عشرة.

انقضت المقالة السادسة عشرة.

إلى أن لحِق حارس الدقائق واسعُ الخطى، فجأة، بشقيقه متقوِّس الساق عند قمّة لوحة الأرقام. فور أن تبادلا العناق، ارتخت النوابض داخل كِسوة الساعة، ودارت العجلات، وسقطَت المطرقة الـمُنمنمة، مُطلِقةً أولى النغمات الرخيمة التي تشير إلى بلوغ الظهيرة.

سقطت القائمتان الأماميتان لكرسي الكونت وخبطتا في الأرض، ودار مسيو مونتاني حول نفسه مرتين في الهواء قبل أن يسقط على أغطية الفراش. مع الدقة الرابعة، كان الكونت يدور نازلًا سلّم البُرج، ومع الثامنة كان يجتاز البهو في طريقه إلى الطابق السفلي ليلحق بموعده الأسبوعي مع «ياروسلاف ياروسلافِل»، حلّاق فندق المتروبول الفذّ الذي لا يُضارَع.



على مدار أكثر من قرنين (أو هكذا يخبرنا المؤرخون)، كانت صالونات بطرسبرغ هي المكان الذي ارتقَت منه ثقافة بلادنا. من هذه الغرف العظيمة المطلّة على قناة فونتانكا، تحسّست المطابخ، والموضات، والأفكار

جميعًا أولى خطواتها إلى داخل المجتمع الروسي. لكن إذا كان الحال هكذا، فالأمر يرجع إلى ذلك النشاط المحموم أسفل الصالونات. فهناك، تحت مستوى الشارع ببضع خطوات، كان القهرمانات، والطباخون، والخدم هم مَنْ ضمنوا لأفكار داروين أو مانيه، عندما طُرحت للمرة الأولى، أن تمضي دونما عائق.

وهكذا كان الحال في المتروبول.

منذ افتتاح الفندق عام 1905، ظلّت أجنحته ومطاعمه ملتقًى للنجوم والمتنفّذين والجهابذة؛ لكن الأناقة السَّلِسة البادية للعيان لم تكن لتتوفّر دون خدمات الطابق السفلي:

عندما يترك المرء الدرجات الرخامية الواسعة النازلة من البهو، يمر أولًا بكشك الجرائد، الذي يقدّم للجنتلمان مئة مانشيت، وإن أصبحت الآن بالروسية فقط.

بعد ذلك، هناك دكّان «فاتيما فيدروفا»، بائعة الزهور. كان هذا الدكّان أحد الضحايا الطبيعيين للزمن، إذ أُفرغت رفوفه وغُطّيت واجهاته الزجاجية بالورق في وقت مبكر، عام 1920، ما حوّل واحدة من أكثر بقاع الفندق إشراقًا إلى واحدة من أكثرها وحشة. لكن في أيامه، كان الدكّان يبيع الأزهار بالفدان. كان يمدُّ البهو بالحِزَم السامقة، والغرفَ بالزنابق، ويوفِّر باقات الورد التي تُلقى عند أقدام باليرينات البولشوي، فضلًا عن الأزهار في عُرى سترات الرجال الذين يُلقون تلك الباقات. وعلاوة على ذلك، كانت فاتيما خبيرة في لغة الزهور التي سادت المجتمع المهذّب منذ عصر الفروسية. إذ لم تكن فقط تعرف الزهرة التي يجب أن تُرسَل تعبيرًا عن الاعتذار، بل عرفت أيَّ زهرة يرسلها المرء الذي تأخّر عن موعد؛ والذي تحدث في غير دوره؛ والذي لمح آنسة عند الباب فرمى سهوًا قاطوعًا على ورقة شريكه في لعب الورق. باختصار، كانت فاتيما تعرف أريج الزهرة، ولونها، والغرض منها أفضل من نحلة.

وفكّر الكونت: طيّب، ربما أُغلق دكان فاتيما، لكن ألم تُغلَق دكاكين الزهور في باريس تحت «سطوة» روبسبيير، وألَا تزخر تلك المدينة الآن بالأزهار؟ بالمثل، لا بُد وأن عصر الزهور في المتروبول سيعود من جديد.

في نهاية الردهة، يصل المرء أخيرًا إلى صالون ياروسلاف للحلاقة؛ أرض التفاؤل، والدقة، والحياد السياسي؛ سويسرا الفندق. وإذا كان الكونت قد تعهّد بأن يقهر ظروفه عن طريق الانصراف إلى المشاغل العملية، فهاكَ لمحة مما يعنيه ذلك: موعدٌ للتشذيب الأسبوعي يلتزم به التزامًا قدسيًّا.

عندما دخل الكونت الصالون، كان ياروسلاف منكبًّا على زبونٍ ذي شعرٍ فضيٍّ في بدلة رمادية فاتحة، بينما جلس زبون آخر قوي البنية في سترة مجعّدة على مقعد مستطيل بجوار الحائط ينتظر دوره. حيّا الحلاق الكونت بابتسامة وأشار إلى الكرسي الشاغر بجانبه.

ارتقى الكونت الكرسي وهو يمنح الرجل قوي البنية إيماءة ودود، ثم أراح ظهره وترك عينيه تستقرّان على تلك الأعجوبة في صالون ياروسلاف: خزانته. لو طَلَب المرء من لاروس تعريف كلمة **خزانة**، لربما أجاب المعجميّ المرموق: **قطعة من الأثاث تُزيَّن غالبًا بالزخارف يمكن للأشياء أن تُخفى فيها عن الأنظار**. وهو تعريف نافع، لا شك في ذلك- تعريف يشمل كل شيء من نمليَّة المطبخ في بيوت الريف إلى خزائن «تشيبندل» في قصر باكنغهام. لكن خزانة ياروسلاف لن تندرج بدقة تحت هكذا وصف، فقد صُنعت من النيكل والزجاج حصرًا، أي أنها صُممت لا لتُخفي محتوياتها، بل لتُظهرها للعين المجرّدة.

ولعلّ ذلك لسبب وجيه. إذ يحقّ لتلك الخزانة أن تتباهى بكل محتوياتها: قِطع صابون فرنسي ملفوفة في ورق مشمّع؛ رغوة حلاقة

بريطانية في أسطوانات عاجيّة؛ زيوت إيطالية منشّطة لفروة الرأس في قوارير غريبة الأشكال. وفي الخلف بعيدًا عن الأنظار، تلك القنينة السوداء التي يسميها ياروسلاف، بغمزة من عينه، «نبع الشباب».

الآن، في صورته في المرآة، حوَّل الكونت بصره إلى حيث يُعمل ياروسلاف سحرَه على الجنتلمان ذي الشعر الفضي بمقصّين في آن واحد. في يد ياروسلاف، يتحوّل المقصّ إلى راقص باليه يؤدّي حركة الـإن ترو شاه، يُبدّل ساقَيْه أمامًا وخلفًا وهو في الهواء. لكن مع تقدُّم الحلاق في عمله، راحت يداه تتسارعان إلى أن صارتا تقفزان وتركلان مثل قوزاقيٍّ في رقصة الهوباك! وهكذا، مع طقّة المقص الأخيرة، لن يستغرِب المرء على الإطلاق لو أن ستارة أُسدلت ثم رُفعت مجدّدًا بعدها بلحظة حتى يتمكن الجمهور من التصفيق بينما ينحني الحلاق تحية لهم.

نزع ياروسلاف المريلة البيضاء عن زبونه ونفضها في الهواء؛ ضرب كعبيه معًا وهو يتسلّم أجره عن المهمة التي أنجزها بكفاءة؛ وفيما كان الجنتلمان يخرج من الصالون (وقد بدا أصغر سنًّا وأكثر وجاهة من لحظة وصوله)، اقترب الحلاق من الكونت بملاءة جديدة.

«صاحب السعادة. كيف حالك؟».

«بديع يا ياروسلاف. في أفضل حال».

«وماذا لدينا اليوم على جدول الأعمال؟».

«مجرد تشذيب يا صديقي. مجرد تشذيب».

عندما بدأ المقصَّان حركاتهما الرقيقة، بدا للكونت أن الزبون قوي البنية على المقعد المستطيل قد تحوَّل على نحو ما. فرغم الإيماءة الودود التي حيَّاه بها الكونت قبل لحظات، بدا وجه الرجل في تلك الأثناء وكأنه اصطبغ بلون أكثر تورُّدًا. كان الكونت متأكدًا من ذلك، في الحقيقة، لأن اللون كان يتمدّد إلى أذنيه.

حاول الكونت أن ينظر في عينيه ثانية، قاصدًا منحه إيماءة ودود أخرى، لكن الرجل ثبَّت نظرته على ظهر ياروسلاف، وقال:

«كان دَوري».

ياروسلاف، الذي كان كثيرًا ما يستغرق تمامًا في صنعته شأن معظم الفنانين، تابع القص بكفاءة وأناقة. وهكذا، اضطرّ الرجل إلى تكرار عبارته، وإن بقدر أكبر من التأكيد.

«كان دوري أنا».

تلك النبرة الأحدّ جذبت ياروسلاف وأخرجته من غيبوبته الفنية، فردّ بنبرة مهذبة:

«سأكون معك بعد لحظة واحدة يا سيدي».

«هذا ما قلته لي عندما وصلتُ».

قيلت هذه العبارة بعدائية لا تخطئها الأذن جعلت ياروسلاف يتوقّف عن القصّ ويستدير ليواجه نظرة زبونه المحدّقة وقد بدت الحيرة على وجهه.

مع أن الكونت نشأ على ألّا يتدخل في محادثات الآخرين لأي سبب، فقد شعر بأن الحلاق لا يستحق أن يوضع في موضع يضطره لشرح الموقف نيابة عنه. وهكذا، تدخّل قائلًا:

«ياروسلاف لم يقصد أي إساءة يا سيدي الكريم. كل ما في الأمر أنني عندي موعد ثابت في الثانية عشرة أيام الثلاثاء».

الآن، أدار الرجل نظرته المحدِّقة إلى الكونت، وردّد:

«موعد ثابت؟».

«نعم».

نهض فجأة حتى إنه خبط مقعده إلى الخلف فارتطم بالحائط. عندما وقف بقامته المنتصبة، بدا أن طوله لا يزيد على مائة وسبعين سنتيمترًا. كانت قبضتاه، اللتان برزتا من أساور سترته، حمراوين مثل أذنيه. عندما تقدَّم خطوة، تراجع ياروسلاف ملتصقًا بحافة منضدته. تقدَّم الرجل خطوة أخرى باتجاه الحلاق وانتزع أحد المقصّين من يديه، ثم، برشاقة لا

تتناسب مع وزنه، استدار، وأمسك بتلابيب الكونت، وجزّ شاربه الأيمن بقصة واحدة. ثم شدّد قبضته، وسحب الكونت إليه حتى صارا أنفًا بأنف تقريبًا، وقال:

«يمكنك أن تلحق بموعدك الآن».

ثم دفع الكونت ليعيده إلى الكرسي، ورمى المقصَّ على الأرض، ومضى خارج الصالون.

هتف ياروسلاف مبهوتًا:

«يا صاحب السعادة. لم يسبق لي رؤية هذا الرجل في حياتي. لا أعرف حتى إن كان مقيمًا في الفندق. لكنه أصبح ضيفًا غير مرغوب فيه من الآن، أؤكد لك هذا».

كان الكونت، وقد نهض الآن، يفكر في التأكيد على نقمة ياروسلاف والتوصية بعقوبة تناسب الجُرم. لكن ماذا كان الكونت يعرف عن الجاني؟

عندما دخل الكونت ورآه جالسًا على المقعد المستطيل في سترته المجعدة، قيَّمهُ في لحظة بوصفه رجلًا مكافحًا تعثّر بالصدفة في صالون الحلاقة فقرر أنْ يكافئ نفسه بقصَّة. لكن أنّى له أن يعرف؟ لعلّ الرجل نزيلٌ جديد في الطابق الثاني. لعله بَلَغ رشده وهو يعمل في ورشة حدادة، والتحق بإحدى النقابات عام 1912، وتقدَّم مظاهرة عام 1916، وقاد كتيبة حمراء عام 1918، ووجد نفسه الآن مسؤولًا عن صناعة بأكملها.

قال الكونت لياروسلاف:

«لقد كان محقًّا تمامًا. لقد ظل ينتظر بحُسن نيّة. أنت أردت احترام موعدي. كان عليَّ أنا أن أتخلّى عن الكرسي وأقترح أن تهتم بأمره أولًا».

«لكن ماذا سنفعل الآن؟».

استدار الكونت إلى المرآة وعاين نفسه. عاين نفسه، ربما، للمرة الأولى منذ أعوام.

لطالما آمَن أن الجنتلمان يجب أن ينظر في المرآة بقدر من الارتياب. فالمرايا، التي يُفترض أن تكون أدوات لاكتشاف الذات، كثيرًا ما تصبح أدواتٍ لخداع الذات. كم مِن مرة راقب فيها شابة جميلة تستدير بمقدار ثلاثين درجة أمام مرآتها لتتأكد من أنها ترى نفسها على النحو الأمثل؟ (وكأن العالم بأكمله، من الآن فصاعدًا، سيراها فقط من تلك الزاوية!). كم مِن مرة رأى سيدة جليلة تعتمر قبعة عفى عليها الزمن بشكل فظيع، لكنها بدت لها «على الموضة» لأن مرآتها أُطِّرت على طراز حقبةٍ غابرة؟ كان الكونت يتباهى بسترته الأنيقة؛ لكنه كان يتباهى أكثر بمعرفته أن أفضل ما يُعلِن عن حضور الجنتلمان هو سَمْته، وملاحظاته، وسلوكياته، لا قَصّة معطفه.

فكَّر الكونت: أجل. العالم يدور حقًّا.

والحق أن العالم يدور على محورِه حتى وإن كان يطوف حول الشمس. والمجرة تلفُّ بدورها، عجلة داخل عجلة أكبر، مُصدِرةً دَقّة تختلف في طبيعتها، أيّما اختلاف، عن دَقّة المطرقة الـمُنمنمة للساعة. وعندما تُدوّي تلك الدَقّة السماوية، لربما تُحقّق المرآة فجأة غرضها الأصدق- فلا تكشف للرجل ما يتخيله عن نفسه، وإنما ما أصبح عليه.

عاود الكونت الجلوس على كرسيه، ثم قال للحلاق:

«حلاقة كاملة. حلاقة كاملة يا صديقي».

تعارُف

كان في فندق المتروبول مطعمان: البويارسكي، ذلك المنتجع الأسطوري في الطابق الثاني الذي زرناه سابقاً، وصالة الطعام الكبيرة المتفرعة عن البهو والمعروفة رسميًّا باسم «المتروبول»، بينما يدلّلها الكونت فيسميها «البِيَاتسا».

يعلم الجميع أن البياتسا لا تستطيع منافسة البويارسكي في أناقة ديكوره، ولا في رقيّ خدمته، ولا في براعة مطبخه. لكن البياتسا لم تطمح إلى الأناقة، ولا الخدمة، ولا البراعة. بل أُنشئت البياتسا، التي تتميز بثمانين طاولة تتناثر حول فسقية رخامية وقائمة طعام تقدّم كل شيء من سمبوسك الكرنب إلى شرائح البتلّو، لتكون امتدادًا للمدينة- لحدائقها، وأسواقها، وطُرقها. كانت ملتقًى يمكن أن يرتاده الروس من شتّى المشارب، يرتشفون فيه قهوتهم على مهل، يصادفون أصدقاءهم، يخوضون النقاشات، أو ينجرفون إلى المغازلات- وكانت أيضًا مكانًا يتيح للرجل الذي يتناول طعامه وحيدًا تحت السقف الزجاجي الهائل أن يسترسل وفق هواه في الاستحسان، والاستياء، والارتياب، والضحك، دون أن ينهض عن كرسيه.

والنُدُل؟ مثل نظرائهم في المقاهي الباريسية، يستحقون الإطراء على «كفاءتهم». كانوا معتادين على الإبحار وسط الزحام، ويستطيعون بسهولة إجلاسك أنت وأصدقائك الثمانية إلى طاولة لأربعة أفراد. وبعد إذ يدوِّنون رغباتكم على صوت الأوركسترا، يعودون بعد دقائق بصينية تتوازن عليها مختلف المشروبات، يُنزلونها على الطاولة في تتابع سريع

فلا يُخطئون المواضع. وإذا أمسكتَ القائمة في يدك وتردّدتَ ولو لثانية في الاختيار، تجدهم ينحنون من فوق كتفك ويضعون إصبعهم على الطبق الخصوصيّ للمطعم. وعندما تنتهي من التهام آخر قضمة من التحلية، سرعان ما يرفعون صحنك، ويقدمون لك الحساب، ويعيدون لك الباقي في أقل من دقيقة. بعبارة أخرى، كان نُدُل البياتسا يعرفون مهنتهم حتى آخر لقمة، وملعقة، وكوبِك.

على الأقل، هكذا كانت الأمور قبل الحرب...

اليوم، كانت صالة الطعام شبه فارغة، وكان يقوم على خدمة الكونت شخصٌ بدا جديدًا، ليس فقط على البياتسا، ولكن على مهنة الخدمة في المطاعم برُمَّتها. بطوله الفارع وجسمه النحيل، برأسه الضيق ومسلكه الفوقيّ، بدا أشبه بأسقف [فيل] انتُزِع من لوحة شطرنج. عندما اتخذ الكونت مقعده وفي يده جريدة- تلك الإيماءة العالمية على أن الشخص سيتناول طعامه بمفرده- لم يعبأ ذلك الشاب برفع أدوات المائدة من أمام الكرسي الآخر؛ وعندما أغلق الكونت قائمة الطعام وأعادها إلى جوار صحنه- تلك الإيماءة العالمية على جاهزيته للطلب- لم يتقدّم إليه الشاب إلا بعد أن استدعاه بإشارة من يده؛ وعندما طَلَب الكونت شوربة الأوكروشكا مع شريحة سمك موسى، سأله الشاب إن كان يريد كوبًا من نبيذ سوتيرن الحلو. وهو اقتراح مثالي، لا شك، لو كان الكونت قد طلب فواغرا.

صحّح له الكونت بأدب: «ربما زجاجة شاتو دو بودلير».

وأجابه الأسقف بابتسامة كهنوتيّة: «بالطبع».

بداهةً، كان اختيار زجاجة البودلير ضربًا من المغالاة لشخص يتناول غداءه بمفرده، لكن بعد قضاء صباح آخر مع ميشيل دو مونتاني الذي لا يَكلّ، شعر الكونت بأن معنوياته تحتاج إلى بعض الإنعاش. لعدة أيام، في الحقيقة، ظل يحاول أن ينفض عن نفسه إحساسًا بالتململ. في نزلاته المعتادة إلى البهو، ضبط نفسه وهو يَعدّ درجات السلم. وبينما

كان يمر بعينيه على عناوين الصحف في كرسيه المفضل، وجد نفسه يرفع يديه ليفتل طرفي شاربه الذي لم يعد موجودًا. وجد نفسه يدلف من باب البياتسا الساعة 12:01 لتناول الغداء، وفي الساعة 1:35، عندما صعد الدرجات الـ110 إلى غرفته، كان قد بدأ بالفعل في حساب الدقائق المتبقية قبل أن يستطيع النزول ثانية لتناول مشروب. إذا واصل هذا المسار، لن يستغرق الأمر طويلًا قبل أن ينزلق السقف إلى أسفل، وتنزلق الحيطان إلى الداخل، وتنزلق الأرضية إلى أعلى؛ حتى ينكمش الفندق بأكمله إلى حجم علبة بسكويت.

فيما كان الكونت ينتظر نبيذه، راح يجيل بصره في المطعم، لكنه لم يجد سلواه في أقرانه من الزبائن. على الجانب الآخر كانت طاولة يحتلها دبلوماسيّان ضالّان يأكلان ببطء وهما ينتظران عصر الدبلوماسية. وهناك في الزاوية كان رجلٌ من قاطني الطابق الثاني، يضع نظّارة وقد فَرَش على طاولته أربع وثائق هائلة الحجم، وراح يقارن بينها كلمة بكلمة. لم يبدُ أي من الزبائن بشوشًا على نحو خاص؛ ولم يُعِر أحدهم أي انتباه للكونت. هذا باستثناء الفتاة الصغيرة المغرَمة بالأصفر التي بدا أنها تتجسس عليه من على طاولتها وراء الفسقيّة.

وفقًا لفاسيلي، كانت تلك الفتاة ذات التسع سنوات والشعر الأشقر المسترسل ابنة موظف حكومي أوكراني مترمِّل. كالعادة، كانت تجلس مع مربيتها. عندما انتبهَت إلى أن الكونت ينظر باتجاهها، اختبأت خلف قائمة طعامها.

«الشوربة»، قالها الأسقف.

«آه. شكرًا يا أستاذ. تبدو لذيذة. لكن لا تنسَ النبيذ!».

«بالطبع».

عندما حوَّل انتباهه إلى الأوكروشكا، عرف منذ النظرة الأولى أنها صنيعةٌ جديرةٌ بالثناء- طاسة شوربة من ذلك النوع الذي قد يتناوله أي

روسي في هذه القاعة عند جدّته. وإذ أغمض الكونت عينيه ليمنح الملعقة الأولى ما تستحقه من تدبّر، لاحظ في شوربته درجةَ البرودة المناسبة، مقدارًا زائدًا قليلًا من الملح، ومقدارًا زائدًا قليلًا من الـ«كَفاس» المخمَّر، لكنْ، مقدارٌ مثاليٌّ من الشَّبَت- هذا البشير الصيفي الذي يعيد الأذهان إلى أغنيات صراصير الحقل والسكينة التي تغمر الروح.

لكن عندما فتح الكونت عينيه، كاد أن يُسقط ملعقته. إذ رأى أمامه، عند حافة طاولته، الفتاة الصغيرة المغرَمة بالأصفر- تتفحّصه بذلك الاهتمام الجريء الذي يتميز به الأطفال والكلاب. وقد أضاف إلى صدمة ظهورها المفاجئ ارتداؤها اليوم فستانًا بدرجة من درجات الليمونيّ.

سألَته، دون مقدّمات: «أين ذهبَت؟».

«معذرة. عمّ تتكلمين؟».

أمالت رأسها لتحظى بنظرة أقرب إلى وجهه.

«شواربك».

لم يكن الكونت ممن يحبون التفاعل مع الأطفال، لكنه نشأ على أن اللياقة تستوجب ألّا يذهب الطفل إلى شخص غريب ويبادره بالكلام دون داع، ألّا يقاطعه أثناء تناول وجبته، و- بالتأكيد- ألّا يطرح أسئلة حول مظهره الشخصي. ألم يُعوِّدوا الأطفال في المدارس أن الإنسان لا يصحّ أن يتدخل في شؤون الآخرين؟

أجابها الكونت: «مثل طيور السنونو، رحلَت إلى مكان آخر لقضاء الصيف».

ثم رفرف بإحدى يديه بعيدًا ليُقلّد طيران السنونوات ويوحي للطفلة، في الوقت نفسه، بأن تطير هي الأخرى.

أومأت برأسها تعبيرًا عن الرضا بجوابه.

«أنا أيضًا سأسافر إلى مكان آخر لقضاء جزء من الصيف».

أمال الكونت رأسه معربًا عن تهانيه.

أضافت: «البحر الأسود».

ثم سحبَت الكرسي الشاغر وجلسَت.

سألها: «هلا انضممتِ إليّ؟».

ردًّا على ذلك، زحزحت نفسها إلى الأمام والخلف لتتخذ وضعيةً مريحة، ثم أراحت مرفقيها على الطاولة. حول رقبتها، كانت قلادة صغيرة تتدلّى من سلسلة ذهبية، تميمة حظٍّ أو رَصيعة ما. نظر الكونت إلى مربية الآنسة الصغيرة على أمل أن يلفت انتباهها، لكنّ الواضح أن الخبرة قد علّمتها ألا تدس أنفها في ما لا يعنيها.

أمالت الفتاة رأسها ثانية بطريقة كلبيّة.

«هل صحيح أنك كونت؟».

«صحيح».

اتسعت عيناها.

«هل سبق وأن عرفتَ أميرة؟».

«عرفتُ الكثير من الأميرات».

اتسعت عيناها أكثر، ثم ضاقتا.

«هل صعب جدًّا أن تكون البنت أميرة».

«صعب جدًّا».

في تلك اللحظة، ومع أن نصف شوربة الأوكروشكا كانت لا تزال في الطاسة، ظهر الأسقف حاملًا شريحة سمك موسى، فرفع الطاسة ووضع الطبق مكانها.

«شكرًا لك»، قالها الكونت، والملعقة لا تزال في يده.

«عفوًا».

فتح الكونت فمه ليسأل أين نبيذ البودلير، لكن الأسقف كان قد اختفى. عندما استدار الكونت عائدًا إلى ضيفته، كانت تحدّق في سمكته.

أرادت أن تعرف: «ما هذا».

«هذا؟ سمك موسى».
«هل طَعمه طيب؟».
«ألم تتناولي غداءك؟».
«لم يعجبني».
نَقَل الكونت قطعة سمك إلى صحن جانبي ودفعه فوق الطاولة لتتذوّقها.
«مع تحياتي».
غرسَت شوكتها في القطعة ووضعتها في فمها على مرة واحدة.
قالت: «يَم يَم»، وهو ليس التعبير الأكثر فصاحة لكنه على الأقل صحيح من الناحية الواقعية. ثم ابتسمت بقدر من الحزن وأخرجت تنهيدة وهي تصوِّب نظرتها الزرقاء الفاتحة إلى بقية غدائه.
قال الكونت: «مـمـم».
استعاد الصحن الجانبي، ونَقَل إليه نصف السمكة مع نصيبٍ مساوٍ من السبانخ والجزر الصغير، ثم أعاده إليها. تزحزحت إلى الأمام والخلف ثانية، لكي تستقرّ، في ما يبدو، لمدة أطول. ثم، بعد أن دَفعَت الخضروات إلى حافة الصحن، قطَّعت شريحة السمك إلى أربعة أنصبة متساوية، ووضعت الربع الأيمن العلوي في فمها، وواصلت أسئلتها.
«كيف تقضي الأميرة يومها؟».
أجابها الكونت: «مثل أي آنسة».
بإيماءة من رأسها، شجّعته الفتاة على مواصلة الحديث.
«في الصباح، تأخذ دروسًا في اللغة الفرنسية، والتاريخ، والموسيقى. بعد الدروس، قد تذهب لزيارة صديقاتها أو التجوّل في الحديقة. وعند الغداء تتناول خضرواتها».
«والدي يقول إن الأميرات يُجسّدن تَفسُّخ العصر البائد».
بوغت الكونت.
قال مسلّمًا: «ربما قلّة منهن. لكن ليس كلهن، أؤكد لك».

لوّحت بشوكتها.

«لا تقلق. بابا رجل رائع ويعرف كل شيء يمكن معرفته عن طريقة عمل الجرارات. لكنه لا يعرف أي شيء عن طريقة عمل الأميرات».

لاح الارتياح على وجه الكونت.

تابَعت، بعد لحظة تفكير: «هل سبق لك حضور حفل راقص؟».

«بالطبع».

«هل رقصتَ؟».

«كانوا يقولون إن الباركيه يَبلى تحت قدميّ»، قال الكونت ذلك وقد تلألأت عيناه بتلك اللمعة الشهيرة- تلك الشرارة الصغيرة التي كانت تُهدّئ المحادثات الحامية وتجذب أنظار الجميلات في كل صالون من صالونات بطرسبرغ.

«الباركيه يَبلى تحت قدميك؟».

قال الكونت: «احم. نعم، رقصتُ في الحفلات».

«وهل عشتَ في قلعة؟».

شرح لها الكونت: «القلاع ليست شائعة في بلدنا مثلما في القصص الخيالية. لكنني **أكلتُ** في قلعة...».

اعتبرت الفتاة ذلك جوابًا كافيًا، ولو ليس مثاليًّا، وعقدت حاجبيها. وضعَت رُبعًا آخر من قطعة السمك في فمها وراحت تمضغ بتمعّن. ثم مالت إلى الأمام فجأة.

«هل سَبَق أن اشتركت في مبارزة؟».

«أفّير دونور؟»(*)، تردّد الكونت. «أظنني كنت في مبارزة من نوع ما...».

«بالمسدسات من على بعد اثنتين وثلاثين خطوة؟».

(*) **أفير دونور** *Affaire d'honneur*: مسألة شرف (بالفرنسية في الأصل). (المترجم)

«في حالتي، كانت مبارزة بالمعنى المجازي».
عندما أبدَت ضيفة الكونت إحباطها على ذلك التوضيح المؤسف، وجد نفسه يقدم عزاءً:
«أبي الروحي كان الرجل الثاني في أكثر من مبارزة».
«الرجل الثاني؟».
«عندما يتلقّى جنتلمانٌ إهانة ويَطلب ردّ شرف في الميدان، يقوم هو وخصمه بتعيين رَجُلين ثانيَيْن-مساعدَيْن بمعنى من المعاني. الرجلان الثانِيان هما اللذان يتفقان على قواعد الاشتباك».
«أي قواعد اشتباك؟».
«وقت المبارزة ومكانها. السلاح المستخدم. لو كان المسدس فمن على بُعد كَم خطوة، وهل يُسمَح بأكثر من طلقة من كل طرف؟».
«أبوك الروحي، تقول. أين كان يعيش؟».
«هنا في موسكو».
«هل كانت مبارزاته في موسكو؟».
«إحداها، نعم. في الحقيقة، اندلَعت بسبب مشاحنة حدثت في هذا الفندق- بين أميرال وأمير. كانا على خلاف منذ بعض الوقت، على ما أظن، لكن الأمور تفاقمت ذات ليلة عندما تَقاطع طريقاهما في البهو، فأُلقي القفاز في الموقع عينِه».
«أي موقع؟».
«بجوار مكتب خدمات النزلاء».
«حيث أجلس بالضبط؟».
«نعم، أعتقد ذلك».
«هل كانا مغرمَيْن بالمرأة نفسها؟».
«لا أظن أن الموضوع كان متعلقًا بامرأة».
نظرت الفتاة إلى الكونت بارتياب.
قالت: «دائمًا ما يتعلق الأمر بامرأة».

«نعم. طيّب. أيًّا كان السبب، صدَرَت إهانة، تبعتها مطالبة باعتذار، ثم رفضُ تقديم اعتذار، ولطمةٌ بالقفاز. في ذلك الوقت، كان مدير الفندق ألمانيًّا اسمه كيفلر، كان يَزعم أنه بارون. وعُرف عنه أنه يحتفظ بزوجين من المسدسات مخبَّأيْن وراء لوحٍ في مكتبه. هكذا، عندما تقع الواقعة، يمكن للرجليْن الثانييْن أن يتشاورًا في خصوصية، ثم تُستدعى عربتان، ويُنقل الطرفان المتناحران على وجه السرعة والمسدسان في يديهما».

«في الساعات السابقة على بزوغ الفجر...».

«في الساعات السابقة على بزوغ الفجر».

«إلى مكان بعيد...».

«إلى مكان بعيد».

مالت إلى الأمام.

«لينسكي قُتل على يد أونيجين في مبارزة».

قالت ذلك بصوت هامس، وكأن الاقتباس من أحداث قصيدة بوشكين يستلزم السرّيّة.

ردّ عليها الكونت هامسًا: «نعم، وهكذا أيضًا قُتل بوشكين».

أومأت برأسها موافقة بجدّية.

قالت: «في سان بطرسبرغ، على ضفاف الغدير الأسود».

«على ضفاف الغدير الأسود».

الآن، كانت سمكة الآنسة الصغيرة قد انتهت. وضعَت فوطتها على صحنها وأومأت برأسها مرة واحدة لتعترف للكونت بأنه كان رفيقَ مائدة مقبولًا جدًّا، ثم نهضت عن كرسيها. لكن قبل أن تستدير لتغادر، تمهّلت للحظة.

قالت: «تعجبني أكثر من غير شوارب. غيابها يحسِّن من... قَسَماتك».

ثم ثنت ركبتيها في تحية بلاطٍ مترنِّحة واختفت خلف الفسقيّة.

★ ★ ★

أفِّير دونور...

أو هكذا فكّر الكونت بمسحة من لوم وهو يجلس وحيدًا في وقت لاحق من تلك الليلة في بار الفندق مع كأس براندي.

متفرّعًا من البهو، ومؤثثًا بمقاعد طويلة مُنجَّدة، وطاولة بار من خشب الماهوغني، وجدار من الزجاجات، كان الكونت يُدلل هذا المشرَب المصمم على الطراز الأمريكي باسم «شاليابين»، على شرف مغني الأوبرا الروسي العظيم الذي اعتاد التردد على المكان في سنوات ما قبل الثورة. كان الشاليابين في سابق عهده مَرتعًا يعج بالنشاط، الآن أصبح أشبه بكنيس صغير للصلاة والتأمل- لكنه الليلة كان منسجمًا مع الحالة الذهنية للكونت.

واصل أفكاره: أجل، لَكَمْ يبدو السلوك الإنساني راقيًا حين يُعبَّر عنه بالفرنسية الفصيحة...

«هل تسمح لي بمساعدتك يا صاحب السعادة؟».

كان هذا أودريوس، ساقي بار الشاليابين. كان أودريوس ليتوانيًّا له لحية مخروطيّة شقراء وابتسامة جاهزة. كان رجلًا يعرف شُغلَه. فور أن تجلس على أحد مقاعد البار العالية، تجده ينحني تجاهك وساعدُه على طاولة البار ليسألك عن رغبتك؛ وفور أن تَفرغ كأسُك، تجده يضيف لك رشفةً إضافية. لكن الكونت لم يفهم لماذا اختار تلك اللحظة تحديدًا ليعرض مساعدته.

أوضح الساقي: «في ارتداء سترتك».

الحقيقة كان الكونت يجاهد لوضع ذراعه في كُم السترة- التي لا يذكر متى خلعها أصلًا. كان الكونت قد وصل إلى الشاليابين في السادسة، كالمعتاد، حيث التزم بمشروب واحد فاتح للشهية قبل العشاء. لكنه إذ انتبه إلى أن زجاجة البودلير التي طلبها لم تأتِه قَط، سمح لنفسه بكأس ثانية من الدوبونيه. ثم بكأس أو اثنتين من البراندي. ثم لم ينتبه إلا

والساعة، الساعة...، الساعة...

«كم الساعة الآن يا أودريوس؟».

«العاشرة يا صاحب السعادة».

«العاشرة!».

كان أودريوس، الذي صار فجأة على الجانب الآخر من طاولة البار، يساعد الكونت في النزول عن مقعده. وبينما كان يتقدَّم الكونت عبر البهو (ولم يكن ذلك ضروريًا)، دعاه الكونت ليركَب قطار أفكاره.

«هل تعرف يا أودريوس أن الضباط الروس عندما اكتشفوا المبارزة للمرة الأولى في أوائل القرن الثامن عشر، كانوا يلجأون إليها بكثرة حتى إن القيصر اضطر إلى منعها خوفًا من ألا يتبقى أحدٌ لقيادة قواته؟».

أجابه الساقي بابتسامة: «لم أكن أعرف يا صاحب السعادة».

«طيب، هذا صحيح. والمبارزة ليست حدثًا محوريًّا في ملحمة ‹أونيجين› فقط، بل تجدها عند كل منعطف حاسم في ‹الحرب والسلم›، و‹آباء وأبناء›، و‹الأخوة كارامازوف›! الظاهر أن الأساتذة الروس، رغم كل طاقاتهم الإبداعية، لم يتمكنوا من ابتكار حبكة أفضل من بطلَيْن يسوّيان مسألة أخلاقية عن طريق مسدسين واثنتين وثلاثين خطوة».

«أرى ما ترمي إليه. لكن ها نحن. هل أضغط على زر الطابق الخامس؟».

الكونت، الذي وجد نفسه يقف أمام المصعد، نظر مصدومًا إلى الساقي.

«لكني لم أستقل المصعد طيلة حياتي يا أودريوس!».

ثم، بعد أن ربّت على كتف الساقي، بدأ الكونت يصعد السلم المتعرّج؛ حتى وصل إلى بسطة الطابق الثاني، حيث جلس على إحدى الدرجات.

سأل بئرَ السلّم: «لماذا اعتنقَت أمّتنا، بين كل الأمم، المبارزة بهذا الإخلاص؟».

البعض، بالطبع، سوف يفسر ذلك ببساطة أنّه نوع من المنتجات الفرعية للبربرية. فبالنظر إلى شتاءات روسيا الطويلة القاسية، واعتيادها على المجاعات، وعدالتها الفظّة، وهلم جرًّا، كان من الطبيعي تمامًا أن يتبنّى أعيانُها فعلًا عنيفًا حاسمًا كوسيلة لتسوية النزاعات. لكن في رأي الكونت المعتبَر، لم يكن شيوع المبارزات بين السادة الروس ينبع إلا من شغفهم بالعظَمَة والمجد.

صحيحٌ أن المبارزات كانت تقام وفقًا للتقاليد في الفجر وفي أماكن معزولة لضمان خصوصية الجنتلمانَيْن المشتبكَيْن، لكن أكانت تقام خلف تلال القمامة أو في ساحات الخردة؟ بالطبع لا! كانت تقام في رحبةٍ بين أشجار التامول وسط غبار الثلج المتطاير. أو على ضفاف غدير متعرج. أو على أطراف عزبة عائلية حيث ترتعش النوّارات على الأشجار بفعل النسيم... بعبارة أخرى، كانت تقام في أماكن قد يتوقّع المرء رؤيتها في الفصل الثاني من أي أوبرا.

في روسيا، سيجد النشاط، أيًّا كان، شِيَعًا وأتباعًا إذا اتسمَ مكانُه بالجلال ومغزاهُ بالعَظَمة. في الحقيقة، على مرّ السنين، ومع انتقال المبارزات إلى أماكن أكثر خِلابة وتحوُّل المسدسات إلى صنعةٍ أكثر مَلاحةً، أثبت أفضل الرجال تربيةً استعدادهم للدفاع عن شرفهم لدى بوادر إهانة أصغر فأصغر شأنًا. هكذا، ومع أن المبارزة بدأت، ربما، كردّ فعل على جرائم كبرى- على الغدر، والخيانة، والزنا- فبحلول القرن العشرين راحت تتسلّل نازلة سلم المنطق على أطراف أصابعها، حتى أصبحت تندلع جرّاء قُبعة أُميلَت، أو نظرة أُطيلَت، أو فاصلة وُضعت في غير مكانها.

في القانون القديم والراسخ للمبارزة، كان عدد الخطوات التي يقطعها المعتدي والمعتدى عليه قبل إطلاق النار يتناسب عكسيًا مع درجة الإساءة. ما يعني أن أبغض الإساءات يجب أن تُسوَّى بمبارزة يفصل

بين طرفيها أقلُّ عدد من الخطوات، لضمان ألا يَترك أحد الرجلين ميدان الشرف حيًّا. طيّب، لو كان الحال كذلك، هكذا استنتج الكونت، فلا بُد إذًا أن تقام مبارزات العصر الحديث على بُعد لا يقل عن عشرة آلاف خطوة. بالأحرى، بعد إلقاء القفاز، وتعيين الرجليْن الثانِيَيْن، واختيار السلاح، يجدر بالمعتدي استقلال باخرة متجهة إلى أمريكا بينما يستقل المعتدى عليه باخرة متجهة إلى اليابان، حيث يستطيع الرجلان، لدى وصولهما، ارتداء أجمل معاطفهما، ونزول المعبر الخشبي، والاستدارة على الرصيف، وإطلاق النار.

على أي حال...

بعدها بخمسة أيام، أعرب الكونت عن سعادته بتلقِّي دعوة لتناول الشاي من صاحبته الجديدة، نينا كوليكوفا. كان اللقاء مقررًا في الساعة الثالثة في مقهى الفندق في الركن الشمالي الغربي من الطابق الأرضي. وصل الكونت قبلها بربع ساعة، واتخذ طاولة لاثنين بالقرب من النافذة. وعندما وصلَت مُضيفته بعد الساعة بخمس دقائق في هيئة زهرة نرجس- مرتدية فستانًا أصفر فاتحًا ووشاحًا أزرق داكنًا- نهض الكونت وسحب لها الكرسي.

قالت: «ميرسي».

«جو تون بري».

في الدقائق التي تلت ذلك، أُشير إلى ساقٍ، وطُلِب سَماور، ومع تراكم السحب الرعدية فوق ميدان المسرح، تُبودلت الملاحظات حول احتمالية هطول المطر بحُلوه ومُرِّه. لكن فور صَبّ الشاي ووَضْع الكيك على الطاولة، رسمَت نينا على وجهها تعبيرًا أكثر جدية- في إيماءة إلى أن الوقت قد حان للحديث عن شؤون أكثر أهمية.

ربما يجد البعض هذا الانتقال مباغتًا بعض الشيء أو في غير أوانه، لكن ليس الكونت. على العكس، كان يرى أن الانتهاء من المجاملات على عَجَل والتحول السريع إلى لُبّ الموضوع ينسجم تمامًا مع آداب الشاي- بل وربما يشكِّل حتّى جزءًا من أصوله.

في نهاية المطاف، كانت كل جلسة شاي حضرها الكونت في حياته استجابةً لدعوة رسمية قد سارت على هذا المنوال. سواء أكانت في صالة

استقبال تُطل على قناة فونتاكا أو في بيت شاي في حديقة عامة، فَقَبل تذوّق الكيك كان الغرض من الدعوة يُطرح على الطاولة. في الحقيقة، بعد بضع مجاملات واجبة، كانت الـمُضيفة الأكثر براعة هي القادرة على إنجاز الانتقال بكلمة واحدة من اختيارها.

بالنسبة لجدّة الكونت، كانت الكلمة هي **الآن**، كما في **الآن يا ألكسندر، لقد سمعتُ عنك ذلك الأمر المؤسف جدًّا يا بني**... بالنسبة للأميرة بولياكوفا، الضحيّة الأزلية لقلبها ذاته، كانت الكلمة هي **أوه**، كما في **أوه يا ألكسندر، لقد ارتكبتُ خطأً فظيعًا**... وبالنسبة لنينا الصغيرة، يبدو أن الكلمة كانت **على أي حال**، كما في:

«أنت محق تمامًا يا ألكسندر إلييتش. عصريّةٌ أخرى من الأمطار ولن يكون لدى نوّارات الليلك أدنى فرصة للمقاومة. على أي حال...».

يكفي القول إنه عندما تحوَّلَت نبرة نينا، كان الكونت مستعدًا. كان يريح ساعديه على فخذيه ويميل إلى الأمام بزاوية سبعين درجة، وعلى وجهه تعبير جاد لكنّه طبيعي، يتيح له في لحظة إبداء تعاطفه، أو قلقه، أو التعبير عن استيائه بحسب مقتضى الظروف.

تابعت نينا قولها: «... سأظل ممتنّة لك طوال عمري، إذا شاركتني بعض القواعد التي تميِّز الأميرة».

«القواعد؟».

«نعم، القواعد».

قال الكونت بابتسامة: «لكن يا نينا، أن تكوني أميرة ليست لعبة».

حدّقت نينا في الكونت مبديةً صبرها.

«أنا واثقة أنك تعرف قصدي. تلك الأشياء **المتوقَّعة** من الأميرة».

«آه، نعم. فهمت».

مال الكونت إلى الخلف ليُظهر الاهتمام اللائق باستعلام مُضيفته.

بعد برهة قال: «طيّب، بعيدًا عن دراسة الفنون الحرّة، التي ناقشناها

ذلك اليوم، أعتقد أن القواعد التي تميز الأميرة سوف تبدأ بآداب السلوك. سعيًا إلى تلك الغاية، سوف تتعلم كيف تجعل نفسها منسجمة مع المجتمع؛ سوف تتعلم أساليب المخاطبة، وآداب المائدة، ووضعية الجسد...».

أومأت نينا متجاوبة مع كل بند، لكنها رفعت رأسها بحدّة مع البند الأخير.

«وضعية الجسد؟ هل وضعية الجسد من آداب السلوك؟».

«نعم، إنها كذلك»، أجابها الكونت، وإن بقدر من التردّد. «الوضعية المرتخية توحي عادة بكسل معين في الشخصية، وكذلك عدم اهتمام بالآخرين. بينما الوضعية المشدودة يمكن أن تؤكّد نوعًا من الثقة بالنفس، وقدْرًا من الاهتمام- وكلاهما مما يليق بالأميرة».

بدا أن نينا تأثّرت بحجّته، فاعتدلت أكثر قليلاً في جلستها.

«أكمِل».

فكّر الكونت قليلًا.

«الأميرة تُنشَّأ على إبداء الاحترام لكبار السن».

أحنت نينا رأسها باتجاه الكونت في إذعان، فتنحنح قائلًا:

«لم أكن أقصد نفسي يا نينا. في نهاية المطاف، أنا عمليًّا شاب مثلك. لا، بـ«الكبار» أقصد ذوي الشعر الشائب».

أومأت نينا برأسها لتعبّر عن فهمها.

«تقصد مثل الدوقات الكبار».

«طيّب، نعم. بالتأكيد. لكنني أقصد الكبار من كل طبقة اجتماعية. أصحاب المحلات والحلّابات، الحدّادون والفلاحون».

نينا، التي لا تتردّد قط في الإفصاح عن مشاعرها بتعابير وجهها، قطّبت جبينها. واستطرد الكونت:

«المبدأ هنا هو أن الجيل الجديد مَدين بقدر من الفضل لـكل فرد من

الجيل السابق. كبارنا زرعوا الحقول وخاضوا الحروب؛ طوّروا الفنون والعلوم، وإجمالًا بذلوا تضحيات من أجلنا. لذا، فقد استحقوا من خلال جهودهم، أيًّا كان تواضعها، قدرًا من امتناننا واحترامنا».

ظلت نونا تنظر غير مقتنعة، بينما أخذ الكونت يفكر كيف يوضح نقطته؛ وتصادف أن لاحت، في تلك اللحظة تحديدًا، من وراء النوافذ الكبيرة للمقهى، أن بدأ الناس في فتح مظلّاتهم.

قال: «مثال».

وبدأ قصة الأميرة غوليتسن وشمطاء كودروفو.

ذات ليلة من ليالي بطرسبرغ العاصفة، روى الكونت، كانت الأميرة الصغيرة غوليتسن في طريقها إلى الحفلة السنوية الراقصة في دار آل توشين. وبينما كانت عربتها تعبر جسر لومونوسوف، لاحظَت امرأة في الثمانين من عمرها تسير على قدميها، منحنية تحت المطر. دون تردُّد، صاحت بسائقها أن يوقف العربة ودعت تلك الروح البائسة إلى الداخل. المرأة العجوز، التي كانت عمياء تقريبًا، صعدت العربة بمساعدة الخادم وقدّمَت للأميرة جزيل الشكر. لا بُدّ أن الأميرة كانت تفترض، في خلفيّة عقلها، أن تلك الراكبة تعيش في مكان قريب. في نهاية المطاف، كَم يمكن لعجوز، وعمياء، أن تبتعد في ليلة مثل هذه؟ لكن عندما سألَت الأميرةُ المرأةَ العجوزَ عن وجهتها، أجابت أنها ذاهبة لزيارة ابنها، الحدّاد، في كودروفو- على بُعد أكثر من أحد عشر كيلومترًا.

الآن، كان موعد الأميرة في دار آل توشين قد حان بالفعل. وفي غضون دقائق سيمرّون بالدار- المضاءة من القبو إلى السقف، حيث يقف خادم عند كل خطوة. هكذا، كانت الأميرة تستطيع، دون أن تخرج عن أصول اللياقة، أن تستأذن في النزول، وتُرسل العربة إلى كودروفو مع العجوز. في الواقع، وهم يقتربون من دار آل توشين، أبطأ السائق الحصانيْن ونظر إلى الأميرة منتظرًا التعليمات...

هنا توقَّف الكونت ليترك أثرًا.

سألت نينا: «طيّب. ماذا فعلَت؟».

ابتسم الكونت بمسحة من انتصار. «قالت للسائق أن يمضي قُدمًا. والأكثر من ذلك، عندما وصلوا إلى كودروفو واجتمعت أسرة الحدّاد حول العربة، دعت العجوزُ الأميرةَ للدخول وتناول الشاي. أجفَل الحدّاد، وشهق الحوذيّ، وكاد الخادم أن يسقط مغشيًّا عليه. لكن الأميرة غوليتسن قَبلت دعوة العجوز بتفضّل- وفوَّتَت حفلة آل توشين كُليّةً».

بعد أن أجاد في توضيح نقطته، رفع الكونت فنجان شايه، وأومأ برأسه مرة، وارتشف.

نظرت نينا إليه مترقّبة.

«وبعدها؟».

أعاد الكونت فنجانه إلى صحنه.

«وبعدها ماذا؟».

«هل تزوجَت ابن الحدّاد؟».

«تزوجَت ابن الحدّاد! يا ربي! طبعًا لا. بعد كوب من الشاي عادت إلى عربتها واتجهت إلى بيتها».

تمعّنَت نينا في القصة. كان واضحًا أنها ترى الزواج من ابن الحدّاد نهاية أكثر ملاءمة. لكن وعلى الرغم من عيوب التاريخ، أومأت برأسها معترفة للكونت بنجاحه في سرد قصة جيدة.

فضّل الكونت أن يحافظ على نجاحه، فآثر ألّا يخبرها بخاتمته المعتادة لهذه الأقصوصة المأثورة البهيجة من سان بطرسبرغ: إن الكونتيسّة توشين كانت تحيِّي ضيوفها تحت سقيفة مدخل دارها عندما أبطأت عربة الأميرة غوليتسن الزرقاء الزاهية، المعروفة في أرجاء المدينة، أمام البوابة قبل أن تُسرع الخطى ثانية. وتسبَّب ذلك في شقاق بين آل غوليتسن وآل توشين كان يمكن أن يستغرق ثلاثة أجيال لكي يُرمَّم- ما لم تندلع ثورة فتضع حدًّا للإساءة الفادحة برمَّتها...

أقرّت نينا: «إنه سلوك يلائم أميرة».

قال الكونت: «بالضبط».

ثم مدّ يده بكيك الشاي فتناولت نينا قطعتَيْن، وضعت واحدة في صحنها والأخرى في فمها.

لم يكن الكونت من ذلك النوع الذي ينبّه رفقائه لزلّاتهم الاجتماعية، لكنه، منتشيًا بالأثر الذي أحدثته قصته، لم يستطع مقاومة الإشارة إلى إحداها بابتسامة.

«هناك مثال آخر».

«أين المثال الآخر».

«تُنشَّأ الأميرة على أن تقول **من فضلك** عندما تطلُب قطعة كيك، **وشكرًا لك** عندما تُعرض عليها واحدة».

لاحت الدهشة على وجه نينا؛ ثم الاستنكار.

«أفهم أن **من فضلك** عبارة ملائمة تقولها الأميرة عندما تطلُب قطعة كيك؛ لكنني لا أرى سببًا يدعوها لأن تقول **شكرًا لك** عندما تُعرض عليها واحدة».

«آداب السلوك ليست مثل البونبون يا نينا. لا يجوز أن تختاري منها ما يناسبك فقط؛ وبالتأكيد لا يجوز أن تعيدي قطعة منها إلى العلبة بعد أن مضغتِ نصفها...».

عاينت نينا الكونت بتعبيرِ مَن اعتاد على التسامح، ثم تحدَّثَت، لأجل خاطره في ما يبدو، بوتيرة أبطأ قليلًا.

«أفهم أن تقول الأميرة **من فضلك** إذا كانت تطلب قطعة كيك، لأنها تحاول إقناع شخص بأن يعطيها الكيك. وأفترض أنها إذا طَلَبت الكيك فأُعطيت الكيك، سيكون لديها سبب مقبول لأن تقول **شكرًا لك**. لكن في الجزء الثاني من مثالك، فإن الأميرة المعنيَّة لم تطلب الكيك؛ بل **عُرض عليها**. ولا أرى سببًا يجعلها مضطرة لأن تقول **شكرًا لك** في حين أنها فقط تتفضّل على شخص ما بقبول ما عَرَضه عليها».

كخاتمة مؤثّرة لنقطتها، وضعت نينا كعكة ليمون في فمها.

قال الكونت: «أسلّم بأن هناك بعض الوجاهة في حجّتك. لكن كل ما أقوله لك من خبرتي في الحياة هو أن...».

قاطعته بإيماءة من إصبعها.

«لكنّك قلت لتوِّك إنك لا تزال صغيرًا».

«هذا صحيح».

«طيّب إذًا، يبدو لي أن كلامك عن ‹خبرتك في الحياة› ربما يكون سابقًا لأوانه».

فكّر الكونت، صحيح، وما جلسة الشاي هذه إلا دليلٌ على ذلك.

«سأعمَل على وضعية جسدي»، قالتها نينا بنبرة حاسمة، وهي تنفض الفتات عن أصابعها. «وسأتأكد من قول من **فضلك** وشكرًا **لك** كلما طلبتُ شيئًا. لكن لا نيّة لديّ لأن أشكر الناس على أشياء لم أطلبها من الأساس».

لفٌّ ودَوَران

في الثاني عشر من يوليو، في الساعة السابعة، وفيما كان الكونت يجتاز البهو في طريقه إلى البويارسكي، التقت عيناه بعيني نينا من وراء أحد أصص النخيل فأعطته الإشارة. كانت أول مرة تناديه من أجل جولة في ذلك الوقت المتأخّر من اليوم.

بادرَته عندما لحق بها خلف الشجرة: «بسرعة! الجنتلمان خرج لتناول الطعام».

الجنتلمان؟

تجنّبًا لإثارة الانتباه، صعد الاثنان السلم بطريقة عادية. لكن عندما انعطفا في الطابق الثالث، اصطدما مباشرة بنزيل كان يربّت على جيوبه بحثًا عن مفتاحه. على بَسطة الدَرَج المقابلة للمصعد مباشرة، كانت ثمة نافذة من الزجاج الملون مرسومٌ عليها طيور طويلة الأرجل تخوض في مياه ضحلة مرَّ بها الكونت ألف مرة من قبل. أخذت نينا تتفحّصها باهتمام.

قالت: «نعم، أنت محقّ. إنها نوع من الكركي».

لكن فور أن دخل النزيل إلى غرفته، مضت نينا قُدمًا. سارا في خطًى سريعة فوق السجادة، مرورًا بالغرف 313، و314، و315. مرّا بالطاولة الصغيرة التي تحمل تمثالًا مصغّرًا لهيرمِس ووقفا أمام باب الغرفة 316. ثم أدرك الكونت، وهو مشوّش قليلًا، أنهما متجهان إلى جناحه القديم.

لكن انتظر.

إننا نستبق الأحداث...



بعد تلك الليلة المشؤومة التي انتهت على درجات الطابق الثاني، كان الكونت قد أخذ استراحة من تناول فواتحِ الشهيّة المسائيّة، إذ اشتبه في أن الشراب يؤثّر سلبًا على مزاجه. لكنّ تعفّف القديسين هذا لم يُسفر عن سكينة لروحه. فمع وجود عدد محدود من المهام التي تتطلب الإنجاز، ووقت لا متناهٍ لإنجازها، ظلّت راحة بال الكونت مهدَّدة بنوع من السأم- هذا المستنقع الرهيب للمشاعر الإنسانية.

وفكّر الكونت: إذا كان المرء يشعر بفتور كهذا بعد ثلاثة أسابيع، فما بالك بالفتور الذي ينتظره بعد ثلاث سنوات.

لكن الأقدار كثيرًا ما تُقدِّم مُرشدًا للإنسان الصالح الذي يضلّ الطريق. فعلى جزيرة كريت، وجد ثيسيوس أريادني ومعها كرة الخيط السحرية لكي تقوده للخروج بأمان من عرين المينوتور. وعَبْر تلكُم الكهوف التي تسكنها ظلال شبحيّة، عَثُر أوديسيوس في تايريسيوس، تمامًا مثلما عَثُر دانتي في فرجيل. وفي فندق المتروبول، وجد الكونت ألكسندر إلييتش روستوف فتاةً في التاسعة تُدعى نينا كوليكوفا.

ففي الأربعاء الأول من يوليو، فيما كان الكونت يجلس في البهو لا يعرف ماذا يفعل بنفسه، لاحظ نينا وهي تمرق أمامه وعلى وجهها تصميم واضح على خلاف المعتاد.

«أهلًا يا صديقتي. إلى أين تتجهين؟».

استدارت نينا فزعة مثل شخص ضُبط متلبِّسًا بالجرم المشهود، قبل أن تتمالك نفسها وتجيبه بإشارة من يدها:

«ألفّ وأدور...».

رفع الكونت حاجبيه.

«نعم. لكن أين تذهبين بالضبط؟».

«في هذه اللحظة، إلى غرفة الورق».

«آه. إذًا فأنت تحبين لعب الورق».
«ليس بالضبط...».
«إذًا لماذا تذهبين إلى هناك؟».

احتجّ الكونت: «آه، هيا. مؤكد لن تكون هناك أسرار بيننا **نحن**!».
وَزَنت نينا ملاحظة الكونت، ثم نظَرت مرة إلى يسارها ومرة إلى يمينها، وأسرّت له. أوضحَت أن غرفة الورق لا تُستخدم كثيرًا، لكن في الساعة الثالثة من كل أربعاء تجتمع هناك أربع نساء دون انقطاع ليلعبن دورًا عاديًّا من الـ«هويست»؛ فإذا وصلتَ في الثانية والنصف واختبأتَ في الخزانة، تستطيع سماع كل كلمة- بما في ذلك قدرٌ لا بأس به من الشتائم؛ وعندما تغادر السيدات، تستطيع أن تتناوَلَ بقية الـ«كوكيز».
اعتدل الكونت في جلسته.
«وأين تقضين وقتك أيضًا؟».
مجددًا، وَزَنت ملاحظة الكونت، نظَرت يسارًا ونظَرت يمينًا.
قالت: «قابلني هنا. غدًا في الثانية».
وهكذا، بدأ الكونت يتلقّى تعليمه.

بعد أن عاش الكونت في المتروبول لأربع سنوات، أصبح يعتبر نفسه خبيرًا بالفندق إلى حدٍّ ما. كان يعرف موظفيه بالاسم، وخدماته بالتجربة، وديكورات أجنحته عن ظهر قلب. لكن فور أن أمسكت نينا بيده، أدرك كما كان غرًّا مستجدًّا.
في الشهور العشرة التي عاشتها نينا في المتروبول، خضعت لحبسٍ من نوعٍ آخر. إذ لـمّا كان والدها قد أُرسل «مؤقتًا» فقط إلى موسكو، لم يشغل باله بتسجيلها في المدرسة، ولـمّا كانت مربّية نينا لا تزال تعيش وإحدى قدميها مغروسة في الأرياف البعيدة، فضّلَت أن تظل عهدتها

داخل حدود الفندق حيث تقلّ احتمالية أن تُفسدها مصابيح الشوارع وعربات الترام. هكذا، إذا كان باب المتروبول مشهورًا في شتى أرجاء العالم بأنه يدور بلا توقف، لم يكن يدور لأجل نينا. لكن الآنسة الصغيرة، تلك الروح المغامِرة التي لا تكلّ، أفادت من وضعها إلى أقصى حدٍّ بأن راحت تستجلي الفندق بنفسها حتى أصبحت تعرف كل غرفة، والغرض منها، وكيف يمكن استغلالها على نحو أفضل.

أجل، لطالما ذهب الكونت إلى الشبّاك الصغير في آخر البهو ليسأل عن بريده الوارد، لكن هل سبق له دخول غرفة الفرز حيث تُسكَب المظاريف الواردة على الطاولة في الساعة العاشرة والساعة الثانية- بما في ذلك المظاريف المختومة بختم أحمر مع تعليمات واضحة لا لبس فيها: **للتوصيل الفوري**؟

وأجل، لطالما زار دكّان فاتيما أيام كان مفتوحًا، لكن هل دخل غرفة التقطيع؟ عبْر بابٍ ضيّق في آخر الدكّان كانت تلك الكوّة ذات المنضدة الخضراء الفاتحة حيث تُقصف السُّوْقُ وتُنزع الأشواك عن الوردات، وحيث يستطيع المرء، حتى الآن، أن يرى الأرضية وقد تناثرت عليها بتلّات لعشر نباتات معمِّرة ضرورية لصناعة الأكاسير.

بالطبع، هتفَ الكونت لنفسه. داخل المتروبول هناك غرفٌ خلف الغرف وأبوابٌ خلف الأبواب. خزائن البياضات. غرف غسيل الملابس. حجرات المؤن. لوحة الكهرباء العموميّة!

كان الأمر يشبه الإبحار على متن سفينة بخارية. بعد الاستمتاع بقضاء عصريَّة في التصويب على الأقراص الخزفية الطائرة فوق ميمَنة المقدّمة، يرتدي المسافر ملابسه لتناول العشاء، يتناول طعامه على مائدة القبطان، يتفوّق على ذلك الفرنسي المختال في لعبة الـ«بكاراه»، ثم يتنزّه تحت النجوم متأبطًا ذراع رفيقة جديدة- وهو يهنّئ نفسه طوال الوقت أنه أفاد من رحلته في البحر إلى أقصى الحدود. لكنه، في واقع الأمر، لم يعرّض

نفسه إلا لـ**لمحة**، لا أكثر، من الحياة على السفينة- وقد تجاهل تمامًا تلك المستويات السفليّة التي تضجّ بالحياة وتجعل الإبحار ممكنًا.

لم تكتفِ نينا بمناظر الأسطح العلوية. لقد ذهبت إلى أسفل. إلى الخلف. لفّت. دارت. في الوقت الذي قضته نينا في الفندق لم تنزلق الحيطان إلى الداخل، بل انزلقت إلى الخارج، فاتسع المدى واتضحت التفاصيل. في أسابيعها الأولى، اتسع المكان ليستوعب حياة شارعَيْن من شوارع المدينة. في شهورها الأولى، اتسع ليستوعب نصف موسكو. ولو عاشت في الفندق لفترة كافية، لاتسع ليستوعب روسيا بأكملها.

لكي تدشِّن نينا المسيرة الدراسية للكونت، بدأت البداية المنطقية: من القاع- القبو وما يحتويه من شبكة ممرات وأزقّة. أولًا، شَدّت الباب الفولاذي الثقيل لتقوده إلى المغلاة، حيث أمواج البخار الجيّاشة تنبعث متفلِّتة وسط أكورديون من الصمامات. وبمساعدة منديل الكونت، فتحَت بتحرُّس شديد بابًا حديديًّا صغيرًا في الأتون لتكشف النار التي تظل تحترق ليلًا ونهارًا، والتي تصادَف أنها أفضل مكان في الفندق لتدمير الرسائل السرية وخطابات الحب الحرام.

«هل تتلقّى خطابات حبٍّ حرامٍ يا كونت؟».

«بكل تأكيد».

بعد ذلك كانت غرفة الكهرباء، حيث حذَّرَت نينا الكونت ألا يلمس شيئًا، إذ كان الأزيز المعدني والرائحة الكبريتيّة كافيَيْن لدفع أكثر المغامرين تهورًا إلى الحيطة والحذر. هناك، في الجدار الخلفي وسط خليط من الأسلاك، عرضَت عليه نينا الذراع التي، عندما تُجذب، يمكن أن تُغرق صالة الرقص في الظلام، ما يوفّر غطاءً مثاليًّا لنَشْل عقود اللؤلؤ.

بعد انعطافةٍ إلى اليسار واثنتين إلى اليمين، وصلا إلى غرفة مبعثَرة- أشبه بخزانة الأعاجيب- تُعرض فيها كل الأغراض التي خلَّفها نزلاء

الفندق وراءهم، مثل المظلّات، وكُتيّبات «بايدِكر» السياحية، والروايات الثقيلة التي لم تُستكمَل بعدُ لكنّ الحقائب صارت تنوء بحملها. بينما في الزاوية بعيدًا عن الأعين، صامدةً أمام الزمن، كانت سجادتان شرقيّتان صغيرتان، وأباجورة قائمة، وخزانة الكتب المصنوعة من الخشب الأخضر التي كان الكونت قد خلّفها وراءه في جناحه القديم.

في نهاية القبو، بينما كان الكونت ونينا يقتربان من السلم الخلفي الضيق، مرّا بباب أزرق زاهٍ.

سأل الكونت: «ماذا لدينا هنا؟».

بدت نينا متحيّرة على غير العادة.

«لا أظن أنني دخلتها من قبل».

حاول الكونت مع مقبض الباب.

«آه، طيب. يؤسفني أنه مغلق».

لكن نينا نظرت يسارًا ونظرت يمينًا.

ومثلها، فعل الكونت.

ثم رفعت يديها تحت شعرها وفكّت السلسلة الرقيقة التي تضعها حول رقبتها. من أسفل القَطع المكافئ الذهبي تدلَّت القلادة التي رآها الكونت للمرة الأولى في البياتسا، لكنها لم تكن لا تميمة حظ ولا رَصيعة. بل كانت مفتاح مرور للفندق!

تركت نينا المفتاح ينزلق من سلسلته وناولته للكونت لكي ينال الشرف. دسَّه الكونت في الثقب الذي يتخذ شكل جمجمة في حِلية المقبض، وأداره برفق منصتًا إلى أسنانه وهي تنزلق في فتحاتها بتكّة مُرضية. ثم فتح الباب وشهقت نينا، ففي الداخل كان كنزٌ مخبوء.

كنزٌ بمعنى الكلمة.

على الرفوف التي تغطي الجدران من الأرض إلى السقف، رُصّت فضيات المائدة الخاصة بالفندق، متلألئة وكأنما تُصقَل كل صباح.

سألت مذهولة: «ما فائدة كل هذا؟».

أجابها الكونت: «من أجل الولائم».

بحذاء أكداس الصحون الـ«سيفر» التي تحمل شعار الفندق، كانت سماورات تنتصب بارتفاع أكثر من نصف متر، وسلطانيات شوربة بَدَت مثل أقداح الآلهة. كانت ثمة قدور للقهوة وأوعية للصلصة. وكانت هناك تشكيلة من الأواني، كل منها صُمِّم بأقصى قدر من العناية لخدمة غرضٍ طهويٍّ محدد. من بينها، التقطت نينا ما بدا لها مجرفةً لطيفة الشكل لها مكبس متحرك ومقبض من العاج. ضغطت نينا على الذراع، وراقبت الشفرتين المتقابلتين وهما تنفتحان وتنغلقان، ثم نظرت إلى الكونت في تساؤل.

شرح لها: «مِلقط هِليون».

هل تحتاج الوليمة حقًا إلى مِلقط هِليون؟».

«هل تحتاج الأوركسترا إلى مزمار الباسون؟».

فيما كانت نينا تعيده بحرص إلى الرفّ، تساءل الكونت كم مرة خُدِّمَ على مائدته بتلك الأداة؟ كم مرة تناول طعامه في تلك الصحون؟ لقد أقيم احتفالٌ بالمئوية الثانية لسان بطرسبرغ في صالة الرقص بالمتروبول، وكذا احتفالٌ بمئوية ميلاد بوشكين، والعشاء السنوي لنادي طاولة النرد. ثم هناك اللقاءات الأكثر حميمية التي نُظِّمَت في غرفتي طعام خصوصيّتيْن ملاصقتين للبويارسكي: الغرفة الصفراء والغرفة الحمراء. في أيام عزِّهما، كان هذان المنتجَعان من أنسب الأماكن للإفصاح عن المشاعر حتى إن المرء لو كان له أن يسترِق السمع إلى طاولاتهما على مدار شهر، لاستطاع التكهّن بحالات الإفلاس، وحفلات الزفاف، والحروب المنتظرة في العام التالي.

ترك الكونت عينيه تهيمان على الرفوف، ثم هز رأسه في قدرٍ من الحيرة.

«لا شك أن البلاشفة اكتشفوا هذه الثروة الهابطة من السماء. أتساءل لماذا لم يصادروها».

أجابت نينا باستنتاجها الطفولي الصافي:

«ربما يحتاجون إليها هنا».

أجل، فكّر الكونت. هذا هو الأمر بدقة.

فمهما كان انتصار البلاشفة على الطبقات المترَفة ولصالح البروليتاريا حاسمًا، فسرعان ما سيقيمون الولائم. ربما لن تكون كثيرة العدد مثلما كان الحال تحت حكم آل رومانوف- لا رقصات خريفيّة ولا يوبيلات ماسيّة- لكن لا بُد وأن يحتفلوا بشيء ما، سواء أكان مئوية «رأس المال»، أم العيد الفضي لِلِحيَة لينين. سوف تُنظَّم قوائم الضيوف ثم تُختزَل، سوف تُنقش الدعوات ثم تُسلَّم. ثم، بعد اجتماعهم حول دائرة كبيرة من الطاولات، سوف يومِئ رجال الدولة الجدد برؤوسهم ليناودا نادلًا (دون مقاطعة زميلهم المملّ طويل النَفَس الواقف على قدميه)، ليطلبوا منه المزيد من أعواد الهليون.

فالأبهة قوة لا فكاك منها. وهي مراوِغة كذلك.

إنها تحني رأسها في تواضع بينما يُجَرجَر الامبراطور على السلالم ويُلقى به في الشارع. لكن بعدها، وبعد أن تتحيَّن الفرصة، وبينما تساعد القائد الـمُعيَّن حديثًا على ارتداء سترته، تروح تُطري على مظهره وتقترح عليه ارتداء ميدالية أو اثنتين. أو، بعد أن تقوم على خدمته في عشاء رسمي، تتساءل بصوت عالٍ إن لم يكن من الملائم تخصيص كرسي أطول لرجلٍ يحمل على كاهليه مسؤوليات بهذا الحجم. الجنود من عامة الناس قد يُلقون لافتات النظام القديم في محرقة النصر، لكن الأبواق سرعان ما تُدوّي من جديد، والأبهة سرعان ما تعود لاحتلال مكانها إلى جانب العرش، وقد استعادت سلطانَها مجدّدًا على التاريخ والملوك.

كانت نينا تمرر أصابعها على أدوات المائدة المختلفة بمزيج من الإعجاب والإجلال. ثم توقفت فجأة.

«ما هذا؟».

على الرفّ خلف أحد الشمعدانات انتصبت امرأة طولها ثمانية سنتيمترات مصنوعة من الفضة بتنّورة منفوشة وتسريحة «ماري أنطوانيت» معقودة فوق رأسها.

قال الكونت: «إنها حاجبة».

«حاجبة؟».

«تُوضع على المائدة بجوار الـمُضيفة».

أمسك الكونت بالسيدة الصغيرة من شعرها المنتفخ ورجَّها إلى الأمام وإلى الخلف، فصدرت من تحت التنورة صلصلة مبهِجة (من نغمة دو عالية) سبق لها أن أعلنت عن انتهاء ألف طبقٍ ورَفْع خمسين ألف صحن.

في الأيام التالية، عَرَضت نينا مقرَّرها الدراسي بطريقة منهجية، مرشدةً تلميذها من غرفة إلى غرفة. في البداية، ظن الكونت أن كل دروسهما ستُعقد في طوابق الفندق السفلى، التي تستضيف مختلف الخدمات. لكن بعد زيارة القبو، وغرفة البريد، ولوحة الكهرباء العمومية، وكل ثنايا وأركان الطابق الأول، واصلا طريقهما، في إحدى العصريّات، صاعدَيْن السلّم إلى الأجنحة.

الآن، لا شك في أن دخول المساكن الخاصّة يمثّل انتهاكًا للياقة، لكنّ اهتمام نينا بزيارة الغرف لم يكن لصوصيًّا، ولا كان بهدف التلصّص في حدِّ ذاته، وإنما اهتمام بالإطلالات.

كانت كل غرفة من غرف المتروبول تتيح منظورًا مختلفًا تمامًا- منظور لا ينتج عن ارتفاع الغرفة ووجهتها فحسب، بل يتحدّد أيضًا بفصول السنة وساعات اليوم. هكذا، إذا صادف وأن كان المرء مهتمًا بمتابعة طوابير العروض العسكرية في مسيرتها باتجاه الميدان الأحمر في «السابع من نوفمبر»، فعليه ألا يبتعد أكثر من الغرفة 322. لكن إذا أراد إسقاط كراتِ

ثلج على المشاة الغافلين، فالموقع الأمثل لذلك هو النوافذ ذات الأفاريز العريضة في الغرفة 405. حتى الغرفة 244، وهي غرفة صغيرة محبِطة تطلّ على زقاق خلف الفندق، كانت لها فتنتها: إذ يستطيع المرء من هناك، إذا انحنى بما يكفي من النافذة، أن يراقب باعة الفاكهة وهم يتجمّعون عند باب المطبخ، وأن يلتقط تفاحة تُلقى إلى أعلى من حين إلى آخر.

لكن إذا أراد المرء مراقبة وصول الضيوف إلى البولشوي في ليلة صيفية، فموقع المراقبة الأفضل، بلا جدال، هو النافذة الشمالية الغربية للغرفة 317، وهكذا...

في الثاني عشر من يوليو، في الساعة السابعة، بينما كان الكونت يجتاز البهو، نظرت نينا في عينيه وأعطته الإشارة. بعدها بدقيقتين، وبعد أن لحق بها على السلم، كان يسير في أعقابها مرورًا بالغرف 313، و314، و315، باتجاه باب جناحه القديم. وعندما أدارت نينا المفتاح وانسلّت إلى الداخل، تبعها الكونت على النحو الواجب- وإن خامره توجُّس قوي.

بنظرة واحدة، عاود الكونت التعرّف على كل شبر في الغرفة. كانت الأريكة والكراسي المنجَّدة بالقماش الأحمر على حالها، وكذا ساعة الجِدّ والجِرار الصينية الكبيرة من «أيدل آور». على طاولة القهوة الفرنسية (التي جيء بها عوضًا عن طاولة جدّته) كانت نسخة مطويّة من صحيفة «برافدا»، وطقم أدوات فضيّ، وفنجان شاي غير منتهٍ.

«بسرعة»، كرَّرَتها ثانية، وهي تتسحَّب إلى النافذة في الركن الشمالي الغربي.

على الجانب الآخر من ميدان المسرح كان البولشوي مضاءً من الرواق إلى القَوْصَرة. كان البلاشفة في ثيابهم المعتادة، التي تُذكِّر بملابس شخصيات أوبرا «لا بوهيم»، يستغلّون هواء الليل الدافئ ويختلطون بين

الأعمدة. وفجأة، ومضت الأنوار في البهو. سحق الرجال سجائرهم بنعالهم، وأمسكوا بمرافق سيداتهم. لكن مع اختفاء آخر الحضور وراء الأبواب، توقّفت سيارة أجرة على الرصيف، وانفتح الباب على وسعه، واندفعت امرأة في ثوب أحمر صاعدة السلم وهي تُمسك بذيل فستانها.

مالت نينا إلى الأمام وكوَّرت كفَّيها على الزجاج وضيَّقت عينيها، ثم تنهدت قائلة:

«آهٍ لو كنت أنا هناك وهي هنا».

وفكَّر الكونت أنها شكوى خليقة بكل إنسان.



لاحقًا، في تلك الليلة، بينما كان الكونت يجلس وحيدًا على سريره، فكّر مليًّا في زيارته لجناحه القديم.

ما تبقّى في عقله لم يكن شكل ساعة عائلته التي لا تزال تُتكتِك بجوار الباب، ولا فخامة الطراز المعماري، ولا حتى المنظر من النافذة الشمالية الغربية. ما أطال المقام معه كان مشهد أدوات المائدة على الطاولة بجوار الصحيفة المطويّة.

هذه الصورة الحيّة الصغيرة، على براءتها، كانت معبِّرة بصورة ما عمَّا يُثقل روح الكونت. إذ فَهِم كل جوانب المشهد بنظرة واحدة. لقد عاد نزيل الغرفة الحالي من الخارج في الرابعة، وعلّق سترته على ظهر أحد الكراسي، وطلب شايًا والنسخة المسائية من الجريدة، ثم استراح على الأريكة لتزجية ساعة الأصيل قبل أن يحين الوقت لكي يرتدي ملابسه من أجل العشاء. بعبارة أخرى، لم يكن ما لاحظه الكونت في الجناح 317 مجرد صورة لشاي العصريّة، وإنما لحظة من الحياة اليومية لجنتلمان حُرّ طليق.

على ضوء تلك الأفكار، عاين الكونت غرفته الجديدة- تلك الأمتار التسعة المربّعة التي خُصِّصت له. لم تبدُ له من قبل صغيرة على هذا النحو. كان السرير يزاحم طاولة القهوة، وطاولة القهوة تزاحم الكرسي عالي الظهر، والكرسي عالي الظهر يجب أن يُزاح جانبًا كلما أراد المرء فتح دولاب الملابس. ببساطة، لم تكن هناك مساحة كافية لاستيعاب ساعة أصيل مثل هذه.

لكن بينما كان الكونت يحدّق حوله وفي رأسه تلك الأفكار الموحِشة، ذكَّره صوتٌ، هو نصف صوته فحسب، أن المتروبول فيه غرفٌ وراء الغرف، وأبوابٌ وراء الأبواب...

نهض الكونت من سريره، والتفّ حول طاولة قهوة جدته، وأزاح الكرسي عالي الظهر جانبًا، ووقف أمام دولاب ملابسه الأشبه بكابينة الهاتف. حول محيط ملتقى الدولاب بالحائط كان ثمة كورنيش أنيق. لطالما اعتبر الكونت هذا الكورنيش زخرفة زائدة عن اللزوم نوعًا ما؛ لكن ماذا لو كان الدولاب قد رُكِّب في حَلق باب قديم؟ فتح الكونت باب الدولاب، وأزاح ملابسه إلى الجانبين، ودقَّ بتردّد على الجدار الخلفي. كان الصوت أجوف على نحو واعد. بثلاث أصابع، دفع الحاجز دفعةً فشعر به يتقوّس. أخرج كل السترات ورماها على السرير، ثم أمسك بعضادتَي الباب وركل الجدار الداخلي بكعب قدمه. ظهر شقٌّ مبشِّر. انحنى إلى الخلف، وركل مجددًا، مرة بعد مرة، حتى انفلق الحاجز. ثم شد الألواح المثلَّمة إلى الوراء باتجاه الغرفة وانسلّ عبر الفرجة.

وجد نفسه داخل فضاء ضيّق مظلم، تفوح منه رائحة خشب الأَرز الجاف، لعله دولاب ملابس ملاصق. سحب نَفَسًا، وأدار المقبض، وفتح الباب، فدخل غرفة كانت صورة معكوسة عن غرفته، وإن خُزِّنت فيها هياكل خمسة أسرَّة. في وقت ما، كان اثنان من تلك الهياكل المستندة إلى الحائط قد سقطا، فسمَّرا الباب المؤدّي للرواق في مكانه. سحب

الكونت الهيكلين جانبًا، وفتح الباب، وجرَّ كل شيء إلى خارج الغرفة، وبدأ يعيد تأثيثها.

أولًا، لمَّ شمل الكرسيين عاليي الظهر وطاولة قهوة جدته. ثم، مستخدمًا سلم البُرج، نزل إلى القبو. من خزانة الأعاجيب، استعاد إحدى السجادتين، والأباجورة القائمة، وخزانة الكتب الصغيرة في ثلاث رحلات متتالية. بعدها، قافزًا السلم درجتين بعد درجتين، قام بزيارة أخيرة لكي يسترجع عَشرًا من الروايات الثقيلة التي سبق وأن تخلّى عنها. وفور أن تمّ له تأثيث غرفة مكتبه الجديدة، خرج إلى الردهة واستعار مطرقة بنَّاء الأسقف وخمسة مسامير.

لم يكن الكونت قد أمسك بمطرقة منذ كان صبيًّا في «أيدل آور» عندما كان يساعد تيخون، الحارس العجوز، في إصلاح السور في الأسابيع الأولى من الربيع. كم كان شعورًا جميلًا أن يضرَب بالمطرقة مباشرة على رأس مسمار، فيولجه في لوحٍ خشبيٍّ مثبّتًا إياه في مكانه في السور بينما تتردد الخبطة وسط الهواء الصباحيّ. لكن ما ضربه الكونت مباشرة في أول دقَّة كان مؤخرة إبهامه. (ولكي لا تنسى، فإن إصابة مؤخرة إبهامك بالمطرقة تسبب ألـمًا مبرحًا، وتجعلك تقفز حتمًا إلى أعلى وأسفل مطلقًا لعنات لا يرضى عنها الرب).

لكنّ الحظ يحب الشجعان. وهكذا، بينما انحرفت ضربة المطرقة التالية عن رأس المسمار، فقد أصاب الكونت هدفه في الضربة الثالثة؛ ومع المسمار الثاني، كان قد استعاد الإيقاع المضبوط: ثبِّت، ارفع، اضرب- ذلك الإيقاع العتيق الذي لن تجده لا في رقصات الـ«كوادرِل»، ولا في التفعيلات الشعرية السداسية، ولا في جعبة سرج فرونسكي! يكفي القول إنه في غضون نصف ساعة كانت أربعة مسامير قد دُقّت في حافة الباب إلى داخل إطاره. هكذا، من الآن فصاعدًا أصبحت طريقة الدخول الوحيدة إلى غرفة الكونت الجديدة عبر أكمام سترته.

أما المسمار الخامس فقد أبقاه لكي يعلّق به بورتريه شقيقته فوق خزانة الكتب.

وإذ أنجز الكونت مهمته، جلس في أحد الكرسيين عاليي الظهر وشعر بما يشبه إحساسًا مفاجئًا بالهناء. كانت غرفة نوم الكونت وهذا المكتب المرتجَل الجديد متطابقين في أبعادهما، مع ذلك، كان تأثير كل منهما على مزاجه مختلفًا كل الاختلاف. وقد نشأ هذا الاختلاف، بدرجة ما، عن الطريقة التي أُثِّثت بها كلتا الغرفتين. فبينما ظلت الغرفة المجاورة- بسريرها، وكومودها، وطاولة مكتبها- ملكوتًا للضرورات العملية، أُثِّثت غرفة المكتب- بكُتبها، و«سفيرتها»، وبورتريه هيلينا- على نحو أكثر مواءمة للنفس. لكن أغلب الظن أن وجه الاختلاف الأعظم بين الغرفتين كان يكمن في الولاية عليهما. فإذا كانت الغرفة القائمة تحت حكم آخرين، ورغباتهم، وسلطانهم تبدو أصغر من حقيقتها، يمكن للغرفة القائمة في السرّ، بغض النظر عن أبعادها، أن تبدو أرحب بقدر رحابة خيال المرء.

نهض الكونت عن كرسيه، وتناول الكتب العشرة التي استرجعها من القبو. صحيح، لن تكون مغامرة جديدة بالنسبة له. لكن هل يجب أن تكون كذلك؟ هل يمكن لأحد أن يتهمه بالحنين أو التبطّل، بإهدار وقته لأنه - ببساطة- سبق وأن قرأ القصة مرتين أو ثلاثًا من قبل؟

عاود الكونت الجلوس، ووضع إحدى قدميه على حافة طاولة القهوة، ومال بظهره حتى اتّزن الكرسي على قائمتيه الخلفيتين، ثم انتقل إلى الجملة الافتتاحية.

كل الأسر السعيدة تتشابه؛ وكل أسرة تعيسة لديها تعاستها الخاصة.

«بديع!»، قالها الكونت.

اجتماع

«آه، تفضل بالدخول».

«اعذريني».

«لا تكن دقّة قديمة».

«أنا لست دقّة قديمة».

«وكيف لك أن تتأكد».

«ما مِن رجل يستطيع التأكد بالكامل أنه ليس دقّة قديمة. هذه دلالة بديهية للمصطلح».

«بالضبط».

على هذا النحو، أرغَمَت نينا الكونت على الانضمام إليها في واحدة من جولاتها المفضّلة: التلصص من شرفة صالة الرقص. كان الكونت متردداً في مرافقة نينا في هذه الرحلة تحديدًا لسببين. أولًا: كانت شرفة صالة الرقص ضيقة ومترَبة، وللبقاء بعيدًا عن الأنظار كان المرء مجبرًا على البقاء مُحدَوْدبًا خلف الدرابزين- وهي وضعية غير مريحة قطعًا بالنسبة لرجل يزيد طوله على مائة وثمانين سنتيمترًا. (المرة الأخيرة التي رافق فيها الكونت نينا إلى الشرفة، انقطعت خِياطة بنطاله واستغرق ثلاثة أيام لكي يتخلص من تشنّج رقبته). لكنْ، ثانيًا: لأن لقاء عصريّة اليوم كان بالتأكيد «اجتماعًا» آخر.

على مدار الصيف، ظلّت «الاجتماعات» تقام في الفندق بوتيرة متسارعة. في أوقات مختلفة من اليوم، كانت مجموعات صغيرة من الرجال تهرول عبر البهو، وهي تلوّح بأياديها، وتقاطع بعضها بعضًا، توّاقة

لإثبات وجهات نظرها. في صالة الرقص، كانوا ينضمّون إلى إخوانهم، فيتزاحمون كتفًا بكتف، ومن بين كل اثنين، يدخن واحدٌ سيجارة.

بقَدْر معرفة الكونت، كان البلاشفة يجتمعون كلما أمكن، في أي شكلٍ كان ولأي سببٍ كان. في أسبوع واحد، قد تجد لجانًا، ومقابلات تحضيرية، وحلقات دراسية، ولقاءات، ومؤتمرات من مختلف الأنواع تجتمع لتأسيس قواعد عُرفية، ووضع خطط تنفيذية، ورفع شكاوى تظلُّميَة، وفي العموم للجعجعة حول أقدم مشكلات العالم بعد أن يغدقوا عليها أحدث التسميات الاصطلاحية.

فإذا شعر الكونت بالتردد تجاه مراقبة تلك التجمّعات، فليس ذلك لأنه وجد الميول الأيديولوجية للحضور بغيضة. إذ لم يكن، بالـمِثل، ليربُض وراء درابزين كي يشاهد شيشرون وهو يناقش كاتالينا، ولا هاملت وهو يناقش نفسه. لا، لم تكن مسألة أيديولوجية. بعبارة بسيطة، كان الكونت يجد كل الخطابات السياسية على اختلاف توجّهاتها مُضجرة.

لكن، أليست تلك بالضبط الحجّة التي سيسوقها أي «دقّة قديمة»...؟

غني عن القول أن الكونت تبع نينا صاعدَيْن السلم إلى الطابق الثاني. بعد إذ سارا بحذاء مدخل البويارسكي، وتأكدا من خلوّ الطريق، استخدما مفتاح نينا لفتح الباب الذي لا يحمل أي علامة ويؤدي إلى الشرفة.

هناك في الأسفل، كان مئة رجل في مقاعدهم بالفعل، ومئة آخرون يتشاورون في الممرات، بينما اتخذ ثلاثة رجال مثيرين للإعجاب مقاعدهم خلف طاولة خشب طويلة على المنصّة. ما يعني أن الاجتماع كان مجتمعًا.

وإذ كان اليوم هو الثاني من أغسطس، وقد انعقد اجتماعان بالفعل في وقت سابق من النهار، فقد بلغت درجة الحرارة في صالة الرقص 33 درجة مئوية. سارعت نينا إلى النزول على يديها وركبتيها والاختباء خلف الدرابزين. وعندما انحنى الكونت ليفعل مثلها، انشرمَت خياطة بنطاله مجددًا.

غمغم: «ميرد!»

وقالت نينا: «ششش».

أوّل مرة انضمّ الكونت إلى نينا في الشرفة، لم يسعه إلا الشعور بقدر من الذهول تجاه التغيير العميق الذي طرأ على حياة صالة الرقص. قبلها بأقل من عشرة أعوام، كان مجتمع موسكو بأكمله يجتمع في أبهى زينته تحت الثريات الهائلة ليرقص الـ«مازوركا» ويشرب نخب القيصر. لكن الكونت، بعد أن شهد بضعة اجتماعات، وصل إلى استنتاج أكثر ذهولًا: إن القاعة، برغم الثورة، لم تتغيّر تقريبًا بأي درجة.

في تلك اللحظة ذاتها، على سبيل المثال، دخل شابان من الباب بهيئة من يستعد لشجار؛ لكن قبل أن يتبادلا كلمة واحدة مع أي إنسان، اجتازا الصالة ليقدّما التحية لرجل مسنّ جالس بجوار الحائط. لعل هذا المسنّ شارك في ثورة عام 1905، أو علّق منشورًا عام 1880، أو تعشّى مع كارل ماركس عام 1852. أيًا كان سبب استحقاقه للسؤدد، فقد ردَّ الثوري المسنّ على الشابين البلشفيين بإيماءة معتدَّة من رأسه – دون أن يبارح الكرسي الذي سبق وتلقَّت فيه الدوقة الكبرى أنابوفا تحيّات الأمراء الشبّان الأوفياء في حفلات عيد الفصح الراقصة التي كانت تنظمها سنويًّا.

أو فكِّر في ذلك الشاب ذي المظهر الساحر الذي كان يجول في الصالة في تلك اللحظة، على طريقة الأمير تيتراكوف، مصافحًا الأيدي ومربّتًا على الظهور. فبعد أن عمل بطريقة منهجية على ترك انطباع في كل ركن وزاوية- بملاحظة حصيفة هنا وأخرى طريفة هناك- ها هو الآن يستأذن لـ«لحظة واحدة». لكنه فور أن يخرج من الباب لن يظهر مجددًا. فإذ اطمأن إلى أن كل من في صالة الرقص لاحظ حضوره، سيتّجه الآن إلى اجتماع من نوع آخر تمامًا- اجتماع سوف يُعقد في غرفة صغيرة وحميمة في «أربات»(*).

(*) أربات: الإشارة إلى المنطقة التي اشتهرت بحياة الليل والثقافة والفن. (المترجم)

لاحقًا، دون شك، سيحرص شاب تركمانيّ متعجّل، يُشاع أن لينين يُعِيره أذنيه، على الوصول متأخرًا بينما توشِك مجريات الأمسية على الانتهاء- تمامًا كما كان يفعل الكابتن راديانكو حين كان القيصر يُعِيره أذنيه- مظهرًا لا مبالاته بالتفاصيل الدقيقة للإتيكيت، ومعززًا سمعته كرجل لديه الكثير من الاجتماعات والقليل من الوقت.

بالطبع، أصبحت أقمشة الكانفا أكثر من الكشمير في الصالة، واللون الرمادي أكثر من الذهبي. لكن، هل ثمة فارق كبير حقًا بين الرُقعة على المرفق والشارة فوق الكتف؟ ألا تهدف طواقي العُمّال، شأنها شأن القبعات المجنّحة والأسطوانية من قبلها(*)، إلى إرسال إشارة معينة؟ أو خذ مثلًا ذلك البيروقراطي الجالس على المنصة بمطرقته. لا شك أنه يستطيع شراء سترة أنيقة وبنطالٍ ذي ثنيات. فإذا كان يرتدي هذه الثياب الخشنة، فما ذلك إلا ليؤكد لكل المجتمعين أنه، هو الآخر، ابنٌ صَلبٌ من أبناء الطبقة العاملة!

فجأة، وكأنما سَمع أفكار الكونت، دقَّ ذلك السكرتير بمطرقته على سطح الطاولة- معلنًا بدء «الاجتماع الثاني للملتقى الأول لنقابة عمال سكك حديد عموم روسيا، فرع موسكو». أُغلقت الأبواب، وجلس الحضور في مقاعدهم، وكتمت نينا أنفاسها، وبدأ الاجتماع.

في الدقائق الخمس عشرة الأولى، أثيرت ستّ مسائل إدارية مختلفة وجرى البتّ فيها في تتابع سريع- ما يهيّيء للمرء أن هذا الاجتماع تحديدًا قد يُختتم فعليًّا قبل أن يُنقض ظَهرُه. لكنّ الموضوع التالي على جدول الأعمال كان أكثر خلافيّة. كان مقترَحًا بتعديل ميثاق النقابة- أو بتحديد أكثر، الجُملة السابعة عشرة من الفقرة الثانية، التي راح السكرتير الآن يقرأها بالكامل.

(*) القبعات المجنحة bicorne تشبه قبعة نابليون الشهيرة، والقبعات الأسطوانية shako كانت تُميّز الضباط. (المترجم)

كانت، في الحقيقة، جُملة مفزِعة- جملة تعشق الفاصلة، وتنظر إلى النقطة باستهانة فطرية. إذ كان غرضها الواضح تعداد كل فضيلة من فضائل النقابة دون خوف أو تردد، بما فيها على سبيل المثال لا الحصر: كاهلها الصلب وخطواتها المقدامة، جلجلة مطارقها صيفًا، ورَفْشُ فحمها شتاءً، وصوت صافراتها المبشِّر ليلًا. لكن في العبارات الختامية في هذه الجملة المدهشة، في ذروة ختامها إن جاز التعبير، كانت الملاحظة القائلة بأن عمال السكك الحديدية الروسية، عبر جهودهم التي لا تكلّ، «يُيسِّرون الاتصال والتجارة عبر المقاطعات».

بعد كل هذا التصعيد، تأتي تلك العبارة المخيبة للآمال، هكذا أقرّ الكونت.

لكن الاعتراض المثار لم يكن يخص افتقار العبارة إجمالًا إلى الحماسة؛ بل كان يخص بالأحرى كلمة يُيسِّرون. بالتحديد، اتُّهم الفعل بأنه فاترٌ ومتكلّفٌ بدرجة لا تُنصِف جهود العمال الموجودين في القاعة.

صرخ أحدهم من الخلف: «نحن لا نساعد سيدة على ارتداء معطفها!».

«أو على طلاء أظافرها».

«نعم. نعم!».

طيّب، أمر معقول.

لكن أيَّ فعل يمكن أن يعبّر بصورة أفضل عن عمل النقابة؟ أيّ فعل يُنصِف الإخلاص المتعرِّق للمهندسين، واليقظة المثابرة لعمال المزلقانات، والعضلات النافرة للشغِّيلة الذين يمدّون الخطوط؟

انهمر من القاعة وابل من الاقتراحات:

يُحفِّزون

يَدفعون

يُخوِّلون

واستعرَت النقاشات حول مزايا كل من تلك البدائل ومحدودياتها. كانت هناك حجج من ثلاث نقاط عُدّت على الأنامل، وأسئلة بلاغية، وملخّصات انفعالية، وصافرات استهجان من الصفوف الخلفية تتخلّلها دقّات من المطرقة- فيما كانت درجة حرارة المحيط في الشرفة ترتفع إلى ستٍ وثلاثين درجة مئوية.

ثم، في اللحظة التي بدأ فيها الكونت يستشعر خطر اندلاع شغب، جاء اقتراح من شاب خجول المظهر في الصف العاشر بأنه ربما يمكن الاستعاضة عن **ييسِّرون** بـ**يُمكِّنون ويَضمنون**. هذه المزاوجة، هكذا شرح الشاب (بينما كانت وجنتاه تتوردان كثمرة توت)، قد تستوعب ليس فقط مدّ الخطوط وقيادة الجرارات، وإنما الصيانة المستمرة للمنظومة.

«نعم، هذا هو المطلوب».

«المدّ، والقيادة، والصيانة».

«يُمكِّنون ويَضمنون».

مع تعالي التصفيق الحاد من كل ركن، بدا أن مقترح الشاب يشقّ طريقه باتجاه الاعتماد بسرعة وموثوقية مثلما تَشقّ إحدى قاطرات النقابة طريقها وسط السهوب. لكن ما كادت القاطرة تقترب من آخر الخط، حتى نهض رجل أعجف نوعًا في الصف الثاني. كان ناحل القوام حتى ليتعجب المرء كيف أمّن لنفسه منصبًا في النقابة في المقام الأول. فور أن نال انتباه القاعة، أكد هذا الموظف المكتبي أو المحاسب، هذا الكاتب بالأقلام في عموم روسيا، بصوت فاتر ومتكلِّف كما كلمة **يُيسِّرون**، أن: «الإيجاز الشعري يتطلّب تجنّب ازدواج الكلمات حيث يمكن لكلمة واحدة أن تؤدي الغرض».

«ما هذا؟».

«ماذا قال؟».

نهض عدد من الرجال عازمين على الإمساك بتلابيبه وجرّه إلى خارج

القاعة. لكن قبل أن يتمكنوا من وضع أيديهم عليه، تحدّث رجل متين البنية في الصف الخامس دون أن ينهض على قدميه.

«مع كامل احترامي لـ**الإيجاز الشعري**، فإن الذكَر من بني جنسنا وُهِب اثنتان حيث كان يمكن لواحدة أن تؤدي الغرض».

تصفيقٌ مدوٍّ!

اعتُمد اقتراح الاستعاضة عن **يُيسِّرون** بـ**يُمكِّنون ويَضمنون** بالإجماع برفع الأيدي والدقّ بالأقدام. بينما في الشرفة، صدر اعتراف سري بأن الخطاب السياسي قد لا يكون كلُّه مضجرًا إلى هذا الحد، في نهاية المطاف.

عند انتهاء الاجتماع، وبعد أن خرج الكونت ونينا زاحفَيْن من الشرفة عائدَيْن إلى الرواق، خامر الكونت إحساس قوي بالرضا عن النفس. خامره إحساس بالرضا عن مقارناته الصغيرة بين مقدّمي التحايا، والرابتين على الأكتاف، والوافدين متأخرًا في الحاضر وأقرانهم في الماضي. كذلك وجد لديه طائفة متكاملة من البدائل لعبارة **يُمكِّنون ويَضمنون**، بداية من **يُعجِّلون ويُنشِّطون** وانتهاءً بـ**يُؤرجحون ويُدحرِجون**. وعندما حانت اللحظة المحتومة وسألته نينا عن رأيه في نقاش اليوم، كاد أن يردّ بأنه نقاشٌ شكسبيريٌّ قطعًا. شكسبيريٌّ على طريقة دوغبري في مسرحية «جعجعة بلا طحن». أو هكذا أراد الكونت أن يقول متهكمًا.

لكن بضربة حظ، لم تَسنح له الفرصة. إذ بعد أن سألته نينا عن رأيه في الاجتماع، لم يسعها انتظار انطباعاته ولو للحظة، فاندفعت معربة عن رأيها هي:

«ألم يكن مذهلًا؟ ألم يكن خياليًّا؟ هل سبق لك ركوب قطار من قبل؟».

قال الكونت، بقدر من الحيرة: «القطار هو وسيلة سفري المفضلة».

أومأت برأسها في حماسة.

«وأنا أيضًا. وأثناء السفر بالقطار هل شاهدتَ المناظر المنطويَة من النوافذ، واستمعتَ إلى حوارات زملائك الركاب، وانجرفتَ سارحًا مع قعقعات العجلات؟».

«فعلتُ كل هذه الأشياء».

«تمامًا. لكن هل فكّرْتَ، ولو للحظة، كيف يجد الفحم طريقه إلى داخل محرك القاطرة؟ هل فكّرتَ وأنت في وسط غابة أو على منحدر صخري كيف مُدَّت السكك الحديدية إلى هنا في المقام الأول؟».

تردّد الكونت للحظة. فكَّر. تخيَّل. اعترف.

«مطلقًا».

نظرت إليه نظرة العارف.

«أليس أمرًا مذهلًا؟».

وعندما يُرى الأمر من هذه الزاوية، فمن يسعه أن يعترض؟



بعدها بدقائق، كان الكونت يطرق باب مكتب مارينا، المبهجة الخجولة، وهو يخبّئ مؤخرة بنطاله بصحيفة مطويّة.

منذ عهد قريب، بحسب ما يتذكّر الكونت، كان يعمل في هذه الغرفة ثلاث خيَّاطات، كل واحدة أمام ماكينة خياطة أمريكية الصنع. مثل ربَّات القَدَر الثلاث، كنَّ معًا يُسرِّجن ويَقسن ويَقصُصن- فيُضيّقن الفساتين، ويَرفعن الحواشي، ويُوسّعن السراويل، ويكرّرن المصائر المحتومة لأسلافهن. في أعقاب الثورة، سُرِّحت الخيَّاطات الثلاث؛ وربما أصبحت ماكينات الخياطة التي أُخمد صوتها من ممتلكات الشعب؛ والغرفة؟ أُهدرت مثل دكّان فاتيما للزهور. إذ لم تكن تلك سنوات تضييق

الفساتين أو رفع الحواشي، تمامًا كما لم تكن سنوات إلقاء الباقات على الراقصات أو تعليق الزهور في عُرى السترات.

ثم في عام 1921، وإذ واجه الفندق أكوامًا متراكمة من البياضات الـمُنسَّلة، والستائر المهترئة، وفُوط السفرة الممزقة- التي لم يكن لدى أي شخص نية استبدالها- أُنعم على مارينا بترقية، ومجددًا، أصبحت غُرزٌ مؤتمَنة تحاك داخل جدران الفندق.

«آه، مارينا»، قالها الكونت عندما فتحت الباب وفي يدها إبرة وخيط. «يا لروعة أن أراك تحيكين في غرفة الحياكة».

نظرت مارينا إلى الكونت بمسحة ارتياب.

«وماذا يمكن أن أفعل غير ذلك؟».

قال الكونت: «بالضبط». ثم منحها ابتسامة بالغة الود وهو يستدير تسعين درجة، ورفع صحيفته للحظة، والتمس مساعدتها بتواضع.

«ألم أُصلح أحد بناطيلك الأسبوع الماضي؟».

شرح لها: «كنت أتلصص مع نينا ثانية. من شرفة صالة الرقص».

نظرت الخيّاطة إلى الكونت بعين فزعة وأخرى غير مصدِّقة.

«إذا كنت ستَتَشاقى مع فتاة في التاسعة، فلماذا تصرّ على ارتداء بناطيل مثل هذه؟».

بوغِت الكونت قليلًا من نبرة الخيّاطة.

«عندما ارتديتُ ملابسي صباح اليوم، لم يكن في نيتي أن أتشاقى. لكن على أي حال، أُعرِّفك أن تلك البناطيل صُنعت خصيصًا في شارع ‹سافيل رود› [في لندن]».

«نعم. صُنعت خصيصًا من أجل الجلوس في غرف الجلوس، أو الرسم في قاعة المراسم».

«لكن لم يسبق لي قَط أن رسمتَ في قاعة المراسم».

«وهذا من حسن حظّك، لأنك كنت على الأرجح ستدلق الحبر».

ولما لم تَبدُ مارينا خجولة أو مبهجة بصفة خاصة ذلك اليوم، منحها الكونت انحناءة شخص سرعان ما سيمضي في طريقه.

قالت: «آه، كفانا من هذا. خلف الساتر واخلع بنطالك».

دون كلمة أخرى، ذهب الكونت خلف ساتر تغيير الملابس، وتجرَّد حتى سرواله الداخلي، وناول بنطاله لمارينا. ومن الصمت الذي تلا ذلك، أدرك أنها وجدَت بكرتها، لعقَت خيطها، وكانت توجهه بعناية إلى ثقب الإبرة.

قالت: «طيّب، يمكنك أيضًا أن تخبرني ماذا كنت تفعل فوق في الشرفة».

وهكذا، فيما كانت مارينا تخيط بنطال الكونت- وهي عملية أشبه بمد خطوط السكك الحديدية لكن على نطاق مصغَّر، إن صح التعبير- وصفَ لها الاجتماع وكل انطباعاته المختلفة. ثم، بقدر من الحسرة، أوضح أنه بينما أخذ يتابع تعقيد الأعراف الاجتماعية ونزوع الإنسان لأخذ نفسه بجدّية أكثر من اللازم، كانت نينا مفتونة بما في الاجتماع من طاقة وعزيمة.

«وما العيب في ذلك؟».

اعترف الكونت: «لا شيء. كل ما في الأمر أنها قبل بضعة أسابيع لا أكثر، كانت تدعوني إلى الشاي كي تسألني عن القواعد التي تجعل من الفتاة أميرة...».

بينما كانت مارينا تعيد البنطال للكونت من وراء الستار، هزّت رأسها مثل شخص عليه الآن أن ينقل حقيقة قاسية لعقل بريء.

قالت: «كل البنات الصغيرات يكبرن ويكففن عن الاهتمام بالأميرات. بل إنهن يكبرن ويكففن عن الاهتمام بالأميرات أسرع مما يكبر الأولاد الصغار ويكفّون عن الاهتمام بالشقاوات».

عندما غادر الكونت مكتب مارينا بكلمة شكر، وتلويحة وداع، ومقعدةٍ بنطال سليمة، ارتطم بقوة بساعٍ تصادف وقوفه أمام الباب.

«معذرة يا سعادة الكونت روستوف!».

«لا عليك يا بيتيا. لا داعي للاعتذار. إنها غلطتي، أنا واثق من ذلك».

الصبي المسكين، الذي انفتحت عيناه على وسعهما، لم يلاحظ حتّى سقوط طاقيته. وهكذا، التقطها الكونت من الأرض ووضعها على رأس الحمّال، وتمنى له التوفيق في عمله واستدار ليمضي في طريقه.

«لكنني جئت لحضرتك».

«لحضرتي؟».

«إنه السيد هاليكي. يريدك في كلمة. في مكتبه».

لا عجبَ أنْ فتحَ الصبي عينيه على وسعهما. فالكونت لم يسبق له أن تلقى استدعاء من السيد هاليكي. بل إنه، في السنوات الأربع التي قضاها في المتروبول، لم يسبق له قَط رؤية المدير في أكثر من خمس مناسبات.

إذ كان إيوسيف هاليكي أحد هؤلاء المدراء الاستثنائيين الذين أتقنوا فنون التفويض- بعبارة أخرى، بعد أن فوَّض مساعدين أكفاء في الإشراف على مختلف وظائف الفندق، أصبح نادر الظهور. كان يصل إلى الفندق في الثامنة والنصف، فيتوجه مباشرة إلى مكتبه وعلى وجهه تعبير متعجّل، وكأنه متأخر عن اجتماع ما. وفي الطريق، كان يردُّ التحيّات بإيماءة مقتضبة، وعندما يمر بسكرتيرته يخبرها (دون أن يتوقّف) أنه لا يريد إزعاجًا من أحد. ثم يتوارى خلف بابه.

وماذا يحدث فور دخوله المكتب؟

يصعُب القول، إذ لم يرَ ذلك إلا أقل القليلين. (ولو أن أولئك الذين حظوا بلمحةٍ ذكروا أن مكتبه خالٍ من الأوراق على نحو مدهش، وهاتفه لا يرنُّ إلا فيما ندر، وثمة «شيزلونغ» خمري اللون بجوار الحائط له وسائد مزخرَفة بدبابيس مغروسة في عمق نسيجها...).

وعندما يضطر مساعدو المدير إلى قرع الباب- إن اندلع حريقٌ في المطبخ أو نزاعٌ حول فاتورة حساب- كان المدير يفتح بابه وقد بدا عليه إعياء بالغ، وإحباط بالغ، وانكسار بالغ يجعل المقاطعين يشعرون حتمًا بنوبة تعاطف، فيطمئِنونه بأنهم يستطيعون الاهتمام بالمسألة بأنفسهم، ثم يتراجعون عن الباب معتذرين. بالنتيجة، كان المتروبول يُدار بكفاءة تامة شأن أيٍّ من فنادق أوروبا.

غنيٌّ عن القول أن الكونت شعر بمزيج من القلق والفضول تجاه رغبة المدير المفاجئة في رؤيته. دون تأخير، تقَدّمه بيتيا في الرواق، وعبْر المكاتب الخلفية للفندق، وأخيرًا إلى باب المدير، الذي كان مغلقًا كما هو متوقّع. توقّف الكونت على بعد عدة خطوات من المكتب، منتظرًا أن يُعلِن بيتيا رسميًّا عن حضوره، لكن الساعي أشار إلى الباب بإيماءة مرتبكة ثم اختفى. وإذ لم يرَ الكونت بديلًا واضحًا، طَرَق الباب. أعقبت ذلك خشخشة قصيرة، ولحظة صمت، ونداءٌ مهموم يدعوه للدخول.

عندما فتح الكونت الباب، وجد السيد هاليكي جالسًا إلى مكتبه قابضًا على قلم في يده، ولكن دون ورقة في مرمى البصر. ومع أن الكونت لم يكن مِـمَّن يقفزون إلى الاستنتاجات، فقد لاحظ أن شعر المدير كان مشعثًا من أحد جانبي رأسه ونظارة قراءته منزلقة على أنفه.

«أردتَ أن تراني؟».

«نعم يا كونت روستوف. رجاءً. تفضل بالدخول».

مع اقتراب الكونت من أحد المقعدَيْن الشاغرين اللذين يواجهان طاولة المكتب، لاحظ سلسلة من النقوش الجميلة الملوَّنة باليد مُعلّقة فوق الشيزلونغ الخمري، تُصوِّر مشاهد صيد على الطريقة الإنكليزية.

قال الكونت وهو يتّخذ مقعده: «إنها نماذج ممتازة».

«ماذا؟ آه، نعم. اللوحات؟ ممتازة فعلًا. نعم».

لكن بعد أن قال المدير ذلك، خلع نظّارته ومسح عينيه بإحدى يديه. ثم هزّ رأسه وتنهّد. وفيما كان يفعل ذلك، شعر الكونت بدفقة من ذلك

التعاطف الشهير. سأله الكونت، وهو جالس على حافة كرسيه: «كيف أخدمك؟».

أومأ المدير إيماءة دراية، وقد سمع على الأرجح هذا السؤال ألف مرة من قبل، ثم وضع يديه على طاولة مكتبه.

شرعَ يقول: «كونت روستوف. لقد ظللتَ نزيلًا في هذا الفندق لسنوات عديدة. الحقيقة، بحسب علمي، فإن أولى زياراتك تعود إلى أيام سَلَفي...».

أكَّد له الكونت بابتسامة: «هذا صحيح. كان ذلك في أغسطس عام 1913».

«بالضبط».

«الغرفة 215، أظن».

«آه. غرفة مبهجة».

ران الصمت على الرجلين.

تابع المدير، وإن بقدر من التردد: «لقد نما إلى علمي أن عددًا من الموظفين حين يخاطبونك... لا يزالون يستخدمون بعضًا من... التشريفات».

«التشريفات؟».

«نعم. بتحديد أكبر، عرفت أنهم يخاطبونك بـ**صاحب السعادة**...».

فكَّر الكونت في زَعم المدير للحظة.

«طيّب، نعم. أظن أن بعض موظفيكم يخاطبونني على هذا النحو».

أومأ المدير برأسه ثم ابتسم بقدر من الحزن.

«أنا متأكد أنك تفهم الموقف الذي يضعني فيه هذا».

في حقيقة الأمر، لم يفهم الكونت الموقف الذي يضع المديرَ فيه هذا. لكن بالنظر إلى شعور الكونت بالتعاطف المطلَق، لم يكن يريد، قطعًا، أن يضعه في أي موقف. لذا، أَنصَت بانتباه بينما يتابع السيد هاليكي:

«لو كان الأمر بيدي، بالطبع، لكان غنيًّا عن القول. لكن ماذا عن...».

هنا، في اللحظة التي يُنتظَر فيها من المدير أن يعيِّن الأسباب بالدقة والتحديد، قَلَب يديه بطريقة غير محدَّدة وترك صوته ينجرف. ثم تنحنح.

«بطبيعة الحال، ليس أمامي بديل إلا الإصرار على أن يمتنع موظفو الفندق عن استخدام تلك المصطلحات في مخاطبتك. ففي نهاية المطاف، أظننا نتّفق، قطعًا وجزمًا، أن الزمن قد تغيّر».

وإذ توصَّل المدير إلى هذه النتيجة، نظر إلى الكونت وفي عينيه أشد الرجاء حتى إن الكونت حَرِص أبلغ الحرص على تطمينه.

«شأن الزمن أن يتغيّر يا سيد هاليكي. وشأن الجنتلمان أن يتغيّر معه».

نظر المدير إلى الكونت وقد بدا عليه امتنان عميق- امتنان لشخص تفهَّم ما قاله تمامًا ودون حاجة لمزيد من الإيضاح.

طُرِق الباب وانفتح ليكشف أركادي، مسؤول الاستقبال في الفندق. ارتخى كتفا المدير لدى رؤيته. وأشار تجاه الكونت.

«كما ترى يا أركادي، أنا في وسط حديث مع أحد نزلائنا».

«عذرًا يا سيد هاليكي ويا كونت روستوف».

انحنى أركادي للرجلين، لكنه لم يتراجع.

قال المدير: «طيّب إذًا. ما الأمر؟».

أشار أركادي برأسه إشارة خافتة ليُلمِح إلى أن ما جاء به يُفضَّل أن يُقال سرًّا.

«طيّب».

نهض المدير مستندًا إلى يديه، وجرجر نفسه من وراء مكتبه، وخرج إلى الردهة، وأغلق الباب، فوجد الكونت نفسه وحيدًا.

شرع الكونت في تأمّلات فلسفية: **صاحب السعادة، صاحب السماحة، صاحب القداسة، صاحب السموّ**. في يوم من الأيام كان استخدام تلك المصطلحات دليلًا صادقًا على أن المرء يعيش في بلد متحضّر. لكن الآن، ماذا عن...

هنا، قَلَب الكونت يديه بطريقة غير محدَّدة.

قال: «طيّب. لعلَّ في ذلك خير».

ثم نهض عن مقعده، واقترب من اللوحات المنقوشة، التي اتضح لدى الـمُعاينة الأقرب أنها تُصوّر ثلاث مراحل من صيد الثعالب: «شَمٌّ الطريدة»، «صيحةُ إطلاق الكلاب» و«المطاردة». في اللوحة الثانية، كان شابٌ في حذاءٍ متين عالي الرقبة وسترةٍ حمراء فاتحة ينفخ في بوقٍ نحاسيٍّ مستديرٍ استدارة كاملة بمقدار 360 درجة من مَبسمه إلى فوّهته. كان البوق، دون شك، قطعة متقنة الصنع ونموذجًا للجمال والتقاليد الفنية، لكن أكان ضروريًّا للعالم الحديث؟ في هذا الصدد، هل كنا نحتاج فعلًا إلى طاقم من الرجال المتأنّقين، والجياد الأصيلة، والكلاب المدرّبة جيدًا من أجل محاصرة ثعلب في جُحر؟ قطعًا وجَزمًا، استطاع الكونت أن يجيب عن سؤاله بالنفي.

فالزمن يتغير حقًّا. يتغير بلا كلل. بالضرورة. بالإبداع. وبينما يتغير، يُطلق رصاصة الرحمة على الكثير والكثير من الأشياء، ليس فقط التشريفات وأبواق الصيد التي عفى عليها الزمن، ولكن أيضًا دُمى الحُجَّاب ونظّارات الأوبرا الصدفيّة، وكل صنوف الأغراض مُتقنة الصنع التي عمَّرَت أكثر من اللازم ولم تعد لها فائدة.

فكَّر الكونت: الأغراض متقنة الصنع التي عمَّرَت أكثر من اللازم ولم تعد لها فائدة؟ يا تُرى...

قطع الكونت الغرفة بخطًى هادئة، ووضع أذنًا على الباب، حيث أمكنه سماع أصوات المدير، وأركادي، وطرف ثالث يتكلمون في الخارج. ومع أن الأصوات كانت مكتومة، كانت النبرات توحي بأنهم لا يزالون على بعد بضع أقدام من التوصّل إلى حلّ. سارع الكونت بالعودة إلى جدار اللوحات، وعَدَّ لوحين خشبيّين بعد صورة «المطاردة». وضع يده على منتصف اللوح، ودفعه دفعة قوية. غار اللوح إلى الداخل قليلًا.

وعندما صدرت تكَّة، سحب الكونت أصابعه فانفتح اللوح إلى الخارج، كاشفًا عن خزانة مخبوءة. في الداخل، تمامًا بحسب وصف الدوق الأكبر، كان ثمة صندوق مُطعَّم بأقفال ومفصّلات نحاسية. مدّ الكونت يده داخل الخزانة، ورفع غطاء الصندوق برقَّة وهناك كانا، بصنعتهما الرائعة، في سلام وسَكينة.

قال: «رائع. هذا رائع».

آثار قديمة

«اختاري ورقة»، قالها الكونت لأصغر الباليرينات الثلاث.

عندما دَخل الكونت إلى الشاليابين من أجل مشروبه الليلي الفاتح للشهية، الذي عاد لتناوله من جديد، كان قد رآهن واقفات في صفّ واحد، أصابعهن الرقيقة تستند إلى طاولة البار وكأنهن يؤدين وقفة الـــبيليه [ثَنْي الركبتين]. لكن عندما صار شاربًا وحيدًا مُنكبًّا على سلواه، أصبحن في عينيه آنسات في بارٍ بغير رفقة، وبدا له أن اللياقة تقتضي أن يتبادل معهن بعض الكلمات.

من الوهلة الأولى، أدرك أنهن جديدات على موسكو- ثلاثٌ من الحمامات اللاتي كان غورسكي يجلبهن من الأقاليم في سبتمبر من كل عام للانضمام إلى الـكور دو باليه [راقصات المجموعة]. كانت جذوعهن القصيرة وأطرافهن الطويلة من النوع الكلاسيكي المفضَّل لدى الـمُخرِج، لكنّ قسماتهن لا تزال بحاجة إلى اكتساب الترفّع المميِّز لباليريناته الأكثر تمرُّسًا. كذلك كان وجودهن هكذا في المتروبول، يشربنَ دون رفيق، يوحي بسذاجة غضَّة. ففي حين كان قُرب الفندق من البولشوي يجعل اختياره منطقيًّا بالنسبة لباليرينات صغيرات يرغبن في الانسلال هاربات بعد نهاية البروفة، كان قُربه نفسه يجعله موقعًا مفضّلًا لغورسكي كلما أراد مناقشة شؤون فنية مع راقصته الأولى. وإذا رأى المخرج هاتِه الحمامات وهنّ يرتشفن نبيذ الـموسكات، فسينتهي بهن الحال قريبًا وهن يرقصن الـبا دي دو [رقصة الراقصَيْن] في بِتروبافلوفسك.

من هذا المنطلق، ربما كان على الكونت أن يحذِّرَهن.

لكنّ حرية الإرادة ظلت مبدأً راسخًا من مبادئ الفلسفة الأخلاقية منذ عصر الإغريق. ومع أن أيام المغازلة كانت قد ولَّت إلى غير رجعة بالنسبة إلى الكونت، فليس من طبيعة الجنتلمان، مهما حسنُت نواياه، أن ينصَح آنسات جميلات بمغادرة رِفقته بناءً على فرضيّات.

هكذا، عوضًا عن ذلك، أثنى الكونت على جمال الآنسات، وسألهن عما جاء بهنّ إلى موسكو، وحيَّاهن على إنجازاتهن، وأصر على أن يُحاسِب على نبيذهن، وثرثر معهن عن مساقط رؤوسهن، وأخيرًا عرض أن يقدم لهنّ لعبة من ألعاب خفة اليد.

جاء أودريوس اليَقِظ برزمة من أوراق اللعب تحمل شعار المتروبول.

بادر الكونت بالاعتراف: «لم أمارس هذه الخدعة منذ سنين، لذا سيكون عليكن التحلّي بالصبر».

راح يخلط الأوراق، بينما تراقبه الباليرينات الثلاث عن كَثَب؛ لكن مثل أنصاف الآلهة في الأساطير القديمة، كنَّ يراقبن بثلاث طرق مختلفة: الأولى بعينين بريئتين، والثانية بعينين حالمتين، والثالثة بعينين مرتابتين. ووقع اختيار الكونت على صاحبة العينين البريئتين لتسحب ورقة.

بينما كانت الباليرينا تقوم بالاختيار، شعر الكونت بشخص يقف وراء كتفه، لكنّ ذلك كان متوقعًا. في مكان مثل البار، تجذب ألعاب خفّة اليد حتمًا متفرجًا فضوليًّا أو اثنين. لكن عندما استدار إلى اليسار ليعطي ذلك الشخص غمزة من عينه، لم يجد متفرّجًا فضوليًّا، وإنما أركادي رابط الجأش- يبدو مضطرّب الأعصاب على غير العادة.

«معذرة يا كونت روستوف. آسفٌ جدًا على المقاطعة. لكن هل تسمح لي بلحظة؟».

«بالتأكيد يا أركادي».

ابتسم مسؤول الاستقبال معتذرًا للباليرينات، ورافق الكونت لبضع خطوات إلى الجانب، ثم ترك حقائق الأمسية تتحدّث عن نفسها:

في السادسة والنصف، كان جنتلمانٌ قد طرق باب جناح السكرتير تاركوفسكي. عندما فتح السكرتير المبجَّل الباب، طلب هذا الجنتلمان أن يَعرف مَن هو وماذا يفعل هناك! بوغِتَ الرفيق تاركوفسكي وأوضح له أنه النزيل الحالي للجناح وأن **ذلك** هو ما يفعله هناك. لم يقتنع الجنتلمان بهذا المنطق وأصرّ على أن يُسمَح له بالدخول فورًا. عندما رفض الرفيق تاركوفسكي، أزاحه الجنتلمان جانبًا، واجتاز العتبة، وبدأ يفتش في الغرف واحدة بعد أخرى، بما في ذلك، إحِم، الـ**سال دو بان**- حيث كانت السيدة تاركوفسكي تعكف على وضع الـ**تواليت** الليلي.

عند تلك النقطة، وصل أركادي إلى الموقع، وقد استُدعي بالهاتف على وجه السرعة. كان الرفيق تاركوفسكي يلوّح بعصاه مهتاجًا ويطالب برؤية المدير على الفور باعتباره «ضيفًا ثابتًا على الفندق وعضوًا كبيرًا من أعضاء الحزب».

وردَّ الجنتلمان، الذي كان وقتها جالسًا على الأريكة وذراعاه معقودتان، بأن هذا يناسبه تمامًا- حيث إنه كان على وشك استدعاء المدير بنفسه. أما بالنسبة لعَضوية الحزب، فقد أكد أنه عضو في الحزب من قبل أن يولد الرفيق تاركوفسكي- وهو ما بدا عصيًّا على التصديق خاصة أن الرفيق تاركوفسكي في الثانية والثمانين من عمره...

الآن، وبعد أن أصغى الكونت بانتباه إلى كل كلمة رواها أركادي، كان مستعدًّا للاعتراف بأنها حكاية مثيرة. في الحقيقة، كانت من نوع الأحداث المبهرة التي يجدر بفندق عالمي أن يسعد بوجودها ضمن مأثوراته والتي سيقصَّها هو نفسه على الأرجح، بوصفه نزيلًا في الفندق، عند أول فرصة. لكن ما لم يستطع فهمه: لماذا اختار أركادي هذه اللحظة تحديدًا ليشاركه هو هذه القصة تحديدًا؟

«لأن الرفيق تاركوفسكي مقيم في الجناح 317، والرجل المعنيّ كان يبحث عنك أنت».

«عني أنا؟».

«يؤسفني هذا».

«ما اسمه؟».

«رفض أن يقول».

...

«وأين هو الآن؟».

أشار أركادي باتجاه البهو.

«يُبلي السجادة في مرواحه ومجيئه خلف أصص النخيل».

«يُبلي السجادة...؟».

أخرج الكونت رأسه من الشاليابين فيما انحنى أركادي وراءه بحرص. وكما هو متوقّع، هناك على الجانب الآخر من البهو كان الجنتلمان المعنيّ، ينهبُ الخطوات العشر بين أصيصَيْ الزرع نهبًا.

ابتسم الكونت.

رغم زيادة وزنه بضع كيلوغرامات، كان لميخائيل فيودوروفيتش مِنديتش ذاتَ اللحية الشعثاء والخطوة المتململة التي ميزته عندما كان في الحادية والعشرين من عمره.

سأل مسؤول الاستقبال: «هل تعرفه؟».

«إنه بمثابة أخٍ لي، لا أكثر».

عندما التقى الكونت وميخائيل فيودروفيتش للمرة الأولى في الجامعة الامبراطورية في سان بطرسبرغ في خريف عام 1907، كانا أشبه بمخلوقَيْن من عالمَيْن مختلفَيْن. ففي حين نشأ الكونت في قصر من عشرين غرفة يعمل به أربعة عشر خادمًا، نشأ ميخائيل في شقة من غرفتين مع أمه. وفي حين عُرِف الكونت في كل صالونات العاصمة بوصفه شخصًا يُعتمد عليه لخفّة ظلّه، وذكائه، وسحره، عُرِف ميخائيل بالكاد هنا

أو هناك بوصفه شخصًا يفضّل القراءة في غرفته عن إهدار الأمسية سدًى في محادثات تافهة.

على ذلك، لم يبدُ مقدّرًا لهما أن يكونا صديقين. لكن ربّة القَدَر ما كانت لتحظى بسمعتها الرائجة لو كانت تفعل ما هو مُتوقَّع منها. وهكذا، كما كان ميخائيل ممّن يُلقون بأنفسهم في المعارك عند أدنى اختلاف في الآراء، بغضّ النظر عن عدد الخصوم أو أحجامهم، تصادف أن كان الكونت روستوف ممّن يهبُّون لنجدة رجلٍ تكالَب عليه الخصوم، بغضّ النظر عن سفاهة قضيته. هكذا، في اليوم الرابع من سنتهما الدراسية الأولى، كان الطالبان يتساندان لينهضا على أقدامهما، وهما يمسحان التراب عن رُكَبهما، والدم عن شفاههما.

المسرَّات التي تُفلِت منا في الصغر كثيرًا ما نزدريها بلا اهتمام في المراهقة وننشغل بها نوعًا في البلوغ، لكنها تبقينا أسرى لها إلى الأبد. هكذا، في الأيام التي تلت لقاءهما الأول، راح الكونت يُصغي ذاهلًا إلى آراء ميخائيل الجيّاشة عن الـمُثل العليا، تمامًا كما راح ميخائيل يُصغي ذاهلًا إلى أوصاف الكونت لصالونات المدينة. ولم ينقضِ العام إلا وهما يتشاركان شقة للإيجار فوق دكّان إسكافيّ متفرع من جادة «سريدنيش بروسبِكت».

وكما سيلاحظ الكونت لاحقًا، كان من محاسن الصدف أن ينتهي بهما الحال فوق إسكافي- فما من أحد في عموم روسيا كان يُبلي أحذيته مثل ميخائيل مِنديتش. كان بوسعه- بكل سهولة- أن يمشي لمسافة ثلاثين كيلومترًا في غرفة طولها ستة أمتار. كان بوسعه أن يمشي خمسين كيلومترًا في مقصورة أوبرا، وثمانين في حجرة اعتراف. ببساطة، كان المشي هو وضعية ميشكا الطبيعية.

لنفترض أن الكونت أمَّن لهما دعوتين للشراب عند آل بلاتونوف، وللعشاء عند آل بتروفسكي، وللرقص عند الأميرة بتروسيان- سيرفض

ميشكا دائمًا بحجة أنه اكتشف لتوِّه، في الجزء الخلفي من متجر الكتب، كتابًا لشخص يدعى فلامِنهِشَر يجب قراءته من البداية إلى النهاية دون تأخير. لكن فور أن يبقى ميخائيل بمفرده، وبعد التهامه أول خمسين صفحة من دراسة «هِر فلامِنهِشَر» المتخصصة الصغيرة، كان يثب على قدميه ويبدأ المشي من زاوية إلى زاوية لكي يُعرب عن اتفاقه المتَّقد أو اختلافه المحرور مع أطروحة المؤلف، أو أسلوبه، أو استخدامه لعلامات الترقيم. إلى حدّ أنه لدى عودة الكونت في الثانية صباحًا، ورغم أن ميشكا لم يتقدَّم بعد الصفحة الخمسين، يكون قد أبلى من جِلد الحذاء أكثر مما يبليه حاجٌ في طريقه إلى كاتدرائية سان بول.

هكذا، لم يكن اقتحام أجنحة الفنادق وإبلاء السجاجيد أمرًا بعيدًا عن شخصية صديقه القديم. لكن لما كان ميشكا قد عُيّن حديثًا في جامعتهما الأم في سان بطرسبرغ، فقد اندهش الكونت لظهوره المفاجئ هذا، وبهذه الحالة.

بعد العناق، صعد الرجلان الطوابق الخمسة إلى العليّة. ولأن ميشكا أُخبِر سلفًا بما ينتظره، فقد استوعب ظروف صديقه الجديدة دون أن تبدو عليه الدهشة. لكنه توقّف أمام الكمودو ذي القوائم الثلاث وأمال رأسه ليلقي نظرة ثانية على قاعدته.

«مقالات مونتاني؟».

أكد له الكونت: «نعم».

«يبدو أنكما لم تتّفقا».

«على العكس. لقد تبيَّن أن ارتفاعها مثالي. لكن قُل لي يا صديقي، ما الذي أتى بك إلى موسكو؟».

«من الناحية النظرية يا ساشا، أنا هنا للمساعدة في التخطيط للملتقى الأول للـ(ر. ك. ب. ر) الذي سيُعقد في يونيو. لكن الأهم من ذلك...».

هنا، دسّ ميشكا يده في حقيبته المعلّقة على كتفه وأخرج زجاجة نبيذ زُيِّن زجاجها، فوق بطاقة التعريف، بنقش بارز لمفتاحين متقاطعين.

«أتمنى ألا أكون قد جئت متأخرًا».

تناول الكونت الزجاجة في يده. مرّر إبهامه على سطح الشعار. ثم هز رأسه بابتسامةٍ تأثّر بالغ.

«لا يا ميشكا. لقد جئت في الوقت المناسب كالمعتاد».

ثم قاد صديقه القديم عبر سُتراته.

★ ★ ★

عندما استأذن الكونت لكي يشطُف كأسين من كؤوس «السفيرة»، عاين ميشكا مكتب صديقه بنظرة متعاطفة. إذ تعرَّف على كل شيء: الطاولتين، والكرسيين، والأعمال الفنية. وعرف جيدًا أنها اصطُفيت من أبهاء «أيدل آور» كتذكِرات على أيام النعيم.

لا بُد أن العام كان 1908، عندما بدأ ألكسندر يدعوه إلى «أيدل آور» لقضاء شهر يوليو. بعد سفرهما من سان بطرسبرغ على متن سلسلة متتابعة من القطارات المتدرّجة في صغرها، كانا يصلان في النهاية إلى تلك المحطة الصغيرة وسط الحشائش العالية على الخط الفرعي، حيث تستقبلهما عربة آل روستوف التي تجرها أربعة جياد. بعدها ينطلقون، حقائبهما فوق العربة، والحوذي بداخلها، وألكسندر على اللجام، ليشقُّوا الريح ملوّحين لكل صَبيّة من بنات الفلّاحين، إلى أن ينعطفوا في الطريق المحفوف بأشجار التفاح، الذي يقود إلى مقام العائلة.

وإذ يخلعان معطفيهما في قاعة الدخول، تُنقل حقائبهما على الفور إلى الغرفتين الكبيرتين في الجناح الشرقي، حيث يمكن شدّ الحبال المخمليّة لقرع الجرس من أجل طلب كوب من البيرة الباردة، أو ماءٍ ساخن للاستحمام. لكنهما يمضيان أولًا إلى صالة الاستقبال حيث يجدان الكونتيسة- على هذه الطاولة بالذات، المنقوش عليها معبد

باغودا أحمر اللون- في استضافة بعض الجيران من ذوي الدم الأزرق لتناول الشاي.

كانت الكونتيسة، التي لا ترتدي إلا الأسود، واحدة من هاتِه الأرامل النبيلات اللاتي يجعلهن استقلالهن العقلي الفطري، وسلطتهن التي اكتسبنها من أعمارهن، ونفاد صبرهن تجاه التفاهات، حليفات لكل الشبّان الطائشين. إذ لم تكن تصبر فحسب، بل تستمتع عندما يقاطِع حفيدها محادثةً مهذّبة لكي يحتجَّ على منزلة الكنيسة أو الطبقة الحاكمة. وعندما يتورّد خدًّا ضيفها ويرُدّ بنفخةِ حِنق، تمنح الكونتيسة لميشكا غمزة تواطؤ، وكأنهما يقفان متأبّطَي الذراعين في معركة ضد قواعد اللياقة الجافة وسلوكيات العصر التي عفى عليها الزمن.

بعد أن يتقدم ميشكا وألكسندر بالتحية إلى الكونتيسة، يخرجان من أبواب الشرفة باحثيْن عن هيلينا. أحيانًا، كانا يجدانها تحت التعريشة المشرفة على الحدائق، وفي أحيان أخرى تحت شجرة الدردار عند منعطف النهر؛ لكن حيثما وجداها، فور سماعهما يقتربان كانت ترفع رأسها عن كتابها وتستقبلهما بابتسامة ترحاب- لا تختلف كثيرًا عن تلك التي التقطها هذا البورتريه المعلّق على الحائط.

مع هيلينا، يكون ألكسندر دائمًا في أغرب أطواره، فيزعم وهو يسقط على العشب أنهما قد التقيا لتوّهما بتولوستوي في القطار؛ أو أنه قد قرر بعد تفكير عميق أن يلتحق بالدير وأن يقطع على نفسه عهدًا بالصمت الأبدي. حالًا. دون لحظة تأخير. أو، بعد الغداء مباشرة.

وتسأله هيلينا: «هل تظن حقًّا أن الصمت سيناسبك؟».

«مثلما كان الصممُ مناسبًا لبيتهوفن».

عندها تلقي هيلينا نظرة ودّية على ميشكا وتضحك، ثم ترجع إلى شقيقها وتسأل: «كيف سينتهي بك الحال يا ألكسندر؟».

كانوا جميعًا يسألون ذلك السؤال عن الكونت، هيلينا، والكونتيسة،

والدوق الأكبر. **كيف سينتهي بك الحال يا ألكسندر؟** لكنهم كانوا يسألونه بثلاث طرق مختلفة.

مع الدوق الأكبر كان السؤال، بالطبع، بلاغيًّا. كان الكونت يتلقى تقريرًا عن الرسوب في فصل دراسي أو عن فاتورة غير مسدَّدة، فيستدعي حفيده إلى مكتبته، ويقرأ الخطاب بصوتٍ عالٍ، ويتركه يسقط على طاولة المكتب، ويسأل السؤال دون انتظار ردٍّ، إذ يعرف الإجابة جيدًا: سجينًا، أو مفلسًا، أو كليهما.

مع جدته، التي كانت تطرح السؤال عادة بعد أن يكون الكونت قد قال شيئا مشينًا على وجه الخصوص، كان **كيف سينتهي بك الحال يا ألكسندر؟** إقرارًا منها لكل من يَسمَع بأن هذا هو فتاها المفضل، لذا فلا تنتظر منها هي أن تكبح جماح سلوكه.

لكن عندما طَرحت هيلينا السؤال، طرحته وكأن الإجابة لغزٌ حقيقي. وكأن العالم، بالرغم من تعثّر شقيقها في دراساته ومسلكه اللامبالي، لم يأخذ بعد فكرة عن الرجل الذي سيصيره حتمًا.

تسأل هيلينا: «كيف سينتهي بك الحال يا ألكسندر؟».

ويتفق معها الكونت: «تلك هي المسألة». ثم يستلقي على ظهره وسط العشب ويحدّق متأملًا في حركة الحباحب المضيئة في مسارات تشبه الرقم 8 وكأنه هو الآخر يفكر مليًّا في هذه الأحجية الجوهرية.

نعم، فكَّر ميشكا، تلك كانت أيام النعيم. لكنها، شأنها شأن «مَجمَع الخالدين»، تنتمي إلى الماضي. تنتمي إلى أيام الصدريَّات والكورسيهات، إلى رقصات الـ«كوادِرل» وأدوار لعبة الـ«بزِيك»، إلى امتلاك الأرواح ودفعِ الجزية، وتكديس الأيقونات في الأركان. تنتمي إلى عصر المكائد المعقَّدة والأباطيل الرذيلة- عندما كانت القلة المحظوظة تلتهم شرائح البتِلو بينما الغالبية تكابد في الحياة غافلةً.

كانت تنتمي إلى هذه الأشياء، فكَّر ميشكا وهو يدير نظرته من بورتريه

هيلينا إلى روايات القرن التاسع عشر المصفوفة في خزانة الكتب الصغيرة المألوفة. كل تلك المغامرات وروايات الرومانس المرويَّة بالأساليب الخيالية التي تحظى ببالغ إعجاب صديقه القديم. لكن هنا، فوق المكتبة بإطارها الضيق الطويل، كان منتَجٌ يدويٌّ أصيلٌ- الصورة الفوتوغرافية بالأبيض والأسود لرجال يوقِّعون «معاهدة بورتسموث» التي أنهت الحرب الروسية اليابانية.

تناول ميشكا الصورة وعاين سِحنات الرجال، الرصينة المطمئنّة. كان كل أعضاء الوفدين الياباني والروسي يقفون بهيئة رسمية، بياقات بيضاء طويلة، وشوارب، وربطات عنق فراشيَّة، وعلى وجوههم تعبيرات توحي بالنجاح في تحقيق إنجاز هائل- وقد وضعوا التوِّهم، بجرّة قلم، نهايةً لحرب أشعلها رجال على شاكلتهم في المقام الأول. وهناك، على يسار الوسط مباشرة، كان يقف الدوق الأكبر بنفسه: مبعوثًا خاصًّا من بلاط القيصر.

في «أيدل آور» عام 1910، شهد ميشكا لأول مرة ذلك التقليد الراسخ لدى آل روستوف- التجمّع في الذكرى العاشرة لوفاة أحد أفراد العائلة لرفع كأس من نبيذ «شاتينوف دو باب». بعد وصوله والكونت بيومين لقضاء الإجازة، بدأ الضيوف في الظهور. في الرابعة عصرًا كان طابورٌ من العربات يقف في المدخل: عربات حنطور، و«بريشكا»، و«دروشكي»، وكاريتَّات من موسكو وسان بطرسبرغ والأحياء المجاورة كافةً. وعندما اجتمعت العائلة في الردهة في الساعة الخامسة، كان الدوق الأكبر هو مَن نال شرف رفع الكأس الأولى تحية لذكرى والدَي الكونت، اللذين تُوفيا بفارق سويعات قليلة.

لَكَمْ كان الدوق الأكبر بديع الهيئة. كان يبدو وكأنه وُلد بكامل ملابسه، وكان نادرًا ما يجلس، وأبدًا لا يعاقر الخمر، وتوفى على صهوة جواده في الحادي والعشرين من سبتمبر عام 1912- قبل عشر سنوات من اليوم.

«كان روحًا زكيَّة قديمة».

استدار ميشكا ليجد الكونت واقفًا خلفه وفي يده كأسان مخصصتان لنبيذ بوردو. «رجلٌ من زمن آخر»، قالها ميشكا بإجلال، وهو يعيد الصورة إلى رفِّها. ثم فُتحت الزجاجة، وصُبّ النبيذ، ورفع الصديقان القديمان كأسيهما عاليًا.

★ ★ ★

«يا لها من زُمرةٍ تلك التي جمعناها يا ساشا...».

بعد إذ شربا نخب الذوق الأكبر وتذكّرا الأيام الخوالي، حوَّل الصديقان القديمان انتباههما إلى ملتقى «ر. ك. ب. ر» الوشيك، الذي تبيّن أنه «رابطة كتّاب البروليتاريا الروس».

«سيكون اجتماعًا غير عادي. اجتماع غير عادي في وقت غير عادي. أخماتوفا، بولغاكوف، ماياكوفسكي، ماندِلشتام- هذا النوع من الكتّاب الذين لم يكن بوسعهم، في الماضي القريب، تناول العشاء على المائدة نفسها خشية الاعتقال- سيكونون هناك. صحيح أنهم قد أتقنوا أساليبهم المختلفة على مرّ السنين، لكن في يونيو سوف يجتمعون لصوغ **نوفايا بويزيا**، شِعر جديد. شعر عالمي يا ساشا. شعر لا يتردّد ولا يتزلّف. شعر يتّخذ من النفس الإنسانية موضوعًا ومن المستقبل ربَّة للإلهام».

قبل أن ينطق أولى عباراته التي يبدأها بـكلمة **شِعر** كان قد قفز على قدميه، والآن صار يذرع مكتب الكونت الصغير من ركن إلى ركن، وكأنه يصوغ أفكاره مع نفسه في بيته.

«تتذكّر، دون شك، ذلك العمل الذي أنجزه طومسن الدنماركي...».

(لم يكن الكونت يتذكّر العمل الذي أنجزه طومسن الدنماركي. لكن مقاطعة ميخائيل وهو يسير على قدميه تشبه مقاطعة فيفالدي وهو يعزف على كمانه).

«كأثريٍّ، عندما قسَّم طومسن عصور الإنسان إلى العصر الحجري، والبرونزي، والحديدي، فعل ذلك، بداهةً، وفقًا للأدوات المادية التي حدَّدَت كل حقبة. لكن ماذا عن التطور **الروحي** للإنسان؟ ماذا عن تطوّره **الأخلاقي**؟ أنا أقول لك، إنهما يتقدمان على المنوال نفسه. في العصر الحجري، كانت الأفكار في رأس رجل الكهوف فظّة شأنها شأن العصا في يده؛ كانت خشنة مثل الحجر الذي يَقدحه لإشعال النار. في العصر البرونزي، عندما اكتشف قلَّةٌ من الأدهياء عِلم التعدين، كم احتاجوا من وقت لسبك العملات، والتيجان، والسيوف؟ ذلك الثالوث المدنَّس الذي سيصيرُ الرجل العادي عبدًا له للألف عام التالية».

توقّف ميشكا لحظة لكي ينظر إلى السقف.

«ثم جاء عصر الحديد- ومعه المحرّك البخاري، وماكينة الطباعة، والبندقية. وهاتِه كانت ثالوثًا من طبيعة مختلفة تمامًا. فرغم أن تلك الأدوات طوَّرتها البورجوازية لزيادة مصالحها، فقد أتاح المحرك، والمطبعة، والمسدس للبروليتاريا تحرير نفسها من الكدح، والجهل، والطغيان».

هزَّ ميشكا رأسه تقديرًا، إما لسيرورة التاريخ أو لبلاغة عباراته.

«طيّب يا صديقي، لعلّنا نتفق أن عصرًا جديدًا قد بدأ: عصر الصُلب. الآن لدينا القدرة على بناء محطات الطاقة، وناطحات السحاب، والطائرات».

استدار ميشكا إلى الكونت.

«هل رأيت برج شوخوف للبَث؟».

لكن الكونت لم يره.

«إنه الجمال بعينه يا ساشا. بناءٌ ارتفاعه مئة وستون مترًا من الصلب الحلزوني يمكننا من خلاله بث آخر الأخبار والمعلومات- و، نعم، المقطوعات الموسيقية المرهفة لتشايكوفسكي الذي تحبّه- إلى داخل

بيت كل مواطن في نطاق مائة وستين كيلومترًا. ومع كل تقدُّم من هذه، تمضي القِيَم الروسية قُدمًا. في حياتنا، قد نشهد نهاية الجهل، ونهاية القهر، وحلول الإخاء بين بني الإنسان».

توقّف ميشكا ولوّح بيده في الهواء.

«**لكن ماذا عن الشعر؟** قد تسألني. **ماذا عن الكلمة المكتوبة؟** طيّب، أستطيع أن أؤكد لك أنها هي الأخرى تمضي قُدمًا. ما كان يُصاغ من البرونز والحديد في الماضي، يُصاغ الآن من الصُلب. لم يعد شِعرنا يقوم على الرباعيات والتفعيلات والمجازات المسهَبة، بل أصبح فنًّا من فنون الفعل، فنًّا سرعان ما سيغزو قارات العالم ويرتقي بالموسيقى إلى النجوم!».

لو كان الكونت قد سمع خطبة كهذه تتدفّق من فم طالبٍ في مقهى ما، لربما لاحظ بلمعة في عينيه أننا، في ما يبدو، لم نعد في زمن يسمح للشاعر بكتابة قصيدة. الآن، أصبح لزامًا على القصيدة أن تنبثق من مَدرسة لها مانيفستو خاص بها، وأن تُفصح عن دعواها في التوّ واللحظة، مستخدمةً ضمير المتكلم الجمعي والزمن المستقبل، بأسئلة بلاغية وحروف كبيرة في أوائل الكلمات وكتيبة من علامات التعجب! وفوق كل ذلك، يجب أن تكون نوفايا.

لكن كما أسلفنا، كان الكونت ليفكّر هكذا لو أنه سمع شخصًا آخر يتحدّث بالصدفة. أمّا سماع الخطبة وهي تتدفّق من فم ميشكا فقد ملأ الكونت بالبهجة.

فالحقيقة أن المرء يمكن أن يمضي خارج إيقاع عصره حدَّ النشاز. قد يولد المرء في مدينة شهيرة بثقافتها المتفرّدة ومع ذلك ينظر إلى العادات، والأعراف، والأفكار التي تسمو بهذه المدينة في عيون العالم، فيجدها غير ذات معنى بالنسبة له. وبينما هو يمضي في الحياة، ينظر حوله مرتبكًا، عاجزًا عن فهم ميول أقرانه أو طموحاتهم.

مِثل هذا الإنسان لن تكون لديه أدنى فرصة للنجاح على المستوى العاطفي أو المهني؛ فتلك ميادين للرجال الذين يسايرون عصرهم. عِوضًا عن ذلك، سيكون أمام هذا الإنسان خيارُ أن يَنهَق مثل بغل، أو أن يجد سلواه في المجلّدات المهمَلة التي يعثر عليها فوق أرفف المكتبات المهمَلة. وعندما يأتي زميله في الغرفة مترنحًا في الثانية صباحًا، لن يكون أمامه خيار حقيقي إلا الإصغاء إليه في حيرة وهو يسرد آخر الأخبار الدرامية من صالونات المدينة.

وقد ظَل ذلك قَدَر ميشكا معظم حياته.

لكن الحوادث قد تتكشّف بطريقة تجعل ذلك الرجل الناشز عن إيقاع عصره يجد نفسه، بين عشيّة وضحاها، في المكان المناسب في اللحظة المناسبة... يجد الأعراف والمواقف التي بدت غريبة عنه كل الغرابة وقد أُزيحت جانبًا فجأة وحَلّت محلها أعرافٌ ومواقف متعاطفة تعاطفًا كاملًا مع أعمق مشاعره. هكذا، مثل بحّار وحيد جرفته الأمواج لسنوات في بحار غريبة، يستيقظ ذات ليلة ليكتشف كوكبات مألوفة فوق رأسه.

وعندما يحدث هذا- إعادة ترتيب النجوم على هذا النحو غير العادي- يَـختبر الشخص الناشز عن إيقاع زمنه نوعًا فائقًا من الصفاء. فجأة، يَدخل الماضي كله إلى بؤرة الصورة بوصفه مسارًا ضروريًّا للأحداث، بينما يظهر المستقبل الواعد وقد صار له أوضح معنًى ومغزًى.

عندما دقّت الساعة مزدوجة الدقّات معلنة بلوغ الثانية عشرة، كان ميشكا متحمسًا حتى إنه رأى وجاهة في تناول كأس نبيذ آخر؛ رُفعت الأنخاب لا للدوق الأكبر وحده، وإنما أيضًا لهيلينا والكونتيسة، لروسيا و«أيدل آور»، للشعر والمشي، ولكل وجهٍ جديرٍ من أوجه الحياة خطرَ لهما ببال.

كريسماس

ذات مساء في أواخر ديسمبر، وبينما كان الكونت يقطع الرواق باتجاه البياتسا، شعر بهبّة قوية من الهواء القارس، رغم أنه كان على بعد خمسين مترًا من أقرب مخرَج إلى الشارع. مرقَت تلك الهبّة بجواره بانتعاشِ ووضوحِ ليلةٍ شتوية مرصّعة بالنجوم. بعد وقفة واستجلاء، أدرك أن التيار يأتي... من حجرة المعاطف. التي كانت تانيا، الحارسة المسؤولة، قد تركتها بلا حراسة. وهكذا، بعد نظرة إلى يساره ونظرة إلى يمينه، دخل الكونت الحجرة.

في الدقائق السابقة، لا بُد أن أفواجًا قد توافدت لتناول العشاء، إذ لم يكن الهواء الشتوي قد تبدَّد بعد من أقمشة معاطفهم. فهاكَ بالطو جنديّة سميك غطَّى غبارُ الثلج كتفيه؛ وهاكَ سترة صوفية لموظف حكومي لا تزال رطبة؛ وهاكّ معطف أسود من الـمِنك له ياقة من فراء القاقوم (أم إنه السمُّور؟) يخصّ، على أغلب الظن، خليلة أحد المفوَّضين.

رفع الكونت أحد الأكمام إلى فمه، فاستتشمَّ دخان مدفأة ومسحةٍ من كولونيا شرقية. لعل تلك الجميلة الشابة خرجت من بيتٍ راقٍ مطلّ على الطريق الدائري، ووصلت في أوتوموبيل أسود بلون معطفها. أو لعلّها قد اختارت السير على قدميها في شارع تِفرسكايا، حيث ينتصب تمثال بوشكين متأملًا ولكن رابط الجأش تحت الثلج المنهمر لتوِّه. أو الأفضل من كل ذلك، أن تكون قد أتت على زلّاجةٍ حوافرُ جيادها تطقطق على أرضية الشوارع المعبَّدة بالحصى، بينما تتناغم قعقعة كرباجها مع صيحة الحوذي: هياه!

هكذا كان الكونت وشقيقته يتحدّيان البرد في عشيّات الكريسماس. كان الشقيقان يتعهّدان أمام جدتهما ألّا يتأخران عن منتصف الليل، ثم ينطلقان في عربة الترويكا وسط هواء الليل المنعش في طريقهما لتوجيه الدعوات إلى الجيران. كان الكونت يمسك باللجام، ويغطّيان حِجريهما بفروة ذئب، ويشقّان المرعى الواطئ إلى طريق القرية، حيث يصيح الكونت: **إلى مَن نذهب أولًا؟ آل بوبرينسكي؟ أم آل دافيدوف؟**

لكن، سواءً وقع الاختيار على إحدى العائلتين أو الأخرى، أو على مكان ثالث، كانا يجدان في استقبالهما مأدبةً، ونارًا، وأحضانًا مفتوحة. كانا يجدان فساتين زاهية، وبَشْرات متورِّدة، وأعمامًا عاطفيين يرفعون الأنخاب والدموع تترقرق في عيونهم بينما يتلصص الأطفال من فوق السلالم. والموسيقى؟ تصدح موسيقى تجعلك تتجرّع كأسك وتنهض على قدميك. وأغنيات تقودك لأن تقفز وتتوهج بطريقة تُكذِّب سِنَّك. أغنيات تجعلك تلف وتدور إلى أن تضلّ الطريق، ليس فقط بين صالة الاستقبال والصالون، ولكن أيضًا بين السماء والأرض.

مع اقتراب منتصف الليل، يترنّح الشقيقان روستوف تحت وطأة زيارتهما الثانية أو الثالثة باحثَيْن عن زلّاجتهما. ويتردّد صدى ضحكتهما تحت النجوم، وتتمايل خُطاهما في تعاريج واسعة ذهابًا وإيابًا على المسارات المستقيمة التي رسمتها عربتهما إبّان وصولهما- حتى إن مضيفِيهما يجِدون في الصباح «مفتاح صول» عملاقًا نقشه حذاءاهما على الثلوج.

بعد عودتهما إلى الترويكا، ينطلقان عبر الريف، يخترقان قرية بيتروفسكوي، حيث تنتصب «كنيسة الصعود» على غير مبعدة من جدران ديرها. برُج الجرس الذي نُصب عام 1814 إحياءً لذكرى هزيمة نابليونَ لم يكن يضاهيه إلا برج «إيفان الأكبر» في الكرملين. وقد سُبكت أجراسُه العشرون من حديد المدافع التي أُجبر «غازي الغزاة» على التخلي عنها

أثناء انسحابه، وهكذا أصبح كل رنين وكأنه يقول: **تحيا روسيا! يحيا القيصر!**

لكن عند وصولهما إلى المنعطف حيث يضرب الكونت عادة بلِجامه ليحثّ الجياد على الإسراع عائدة إلى الدار، تضع هيلينا يدها على ذراعه داعيةً إيّاه إلى الإبطاء- فقد حلّ منتصف الليل لتوّه، وعلى بعد أقل من كيلومترين وراءهما بدأت أجراس كنيسة الصعود في التأرجح، وصارت دقاتها تتصاعد فوق الأرض المجمَّدة في ترنيمة مقدسة. وفي الوقفة بين التراتيل، إذا أصاخ المرء السمعَ، في ما وراء لهاث الجياد، في ما وراء صفير الريح، لأمكنه سماع أجراس كنيسة سان ميشيل على بعد خمسة عشر كيلومترًا- وخلفها أجراس كنيسة سانت صوفيا أبعَد بَوْنًا- تتنادى مثل أسراب من الأوزّ على جانبي بركة ماء في الغسق.

أجراس كنيسة الصعود...

بعدما اخترق الكونت قرية بيتروفسكوي عام 1918 في عودته المتعجلة من باريس، التقى بجمعٍ من الفلاحين يحتشدون في ذعر صامت أمام جدران الدير. كانت فِرقة الخيَّالة الحمراء، فيما يبدو، قد وصلت ذلك الصباح مع قافلة من العربات الشاغرة. وبأمرٍ من قائدهم الصغير، كانت فرقة من القوزاق قد تسلقت بُرج الجرس وجرَّت الأجراس من صومعة الكنيسة واحدًا بعد آخر. وعندما حان وقت جرِّ «الجرس الأكبر»، أُرسلت فرقة ثانية من القوزاق إلى أعلى. رُفع العملاق العجوز من خُطّافه، ووُوزِن على الدرابزين، ثم قُلب في الهواء، حيث سقط بشقلبةٍ خلفيّةٍ، وهبط وسط التراب بهدّة مكتومة.

عندما هرع رئيس الدير خارجًا لمواجهة القائد- طالبًا منه باسم الرب أن يوقفوا هذا التدنيس في التوّ واللحظة- استند القائد إلى عمود وأشعل سيجارة، ثم قال:

«على المرء أن يُعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله». بعدها، أمر رجاله

بجرِّ رئيس الدير إلى أعلى سلم البرج ودفعه من فوق الصومعة لتتلقفه ذراعا «صانعه».

يقال إن البلاشفة استردّوا أجراس كنيسة الصعود لتصنيع المدفعية، عائدين بها إلى العالم الذي جاءت منه. ذلك رغم أن المدافع التي استُنقِذَت من انسحاب نابليون لصناعة أجراس «كنيسة الصعود»، بحسب علم الكونت، كانت قد سُبكَت على أيدي الفرنسيين من أجراس كنيسة «لا روشيل»؛ والتي سُبكت بدورها من بنادق «بَلَنْدَرباص» البريطانية التي جرى الاستيلاء عليها إبَان حرب الثلاثين عامًا. من أجراس إلى مدافع وبالعكس، من الآن حتى نهاية الزمن. إنه قَدرُ الحديد.

«كونت روستوف...؟».

رفع الكونت رأسَه من سَرحتِه ليجد تانيا واقفةً في حَلق الباب.

قال الكونت، وهو يترك الكُمَّ من يده: «سمُّور، أعتقد. نعم، هو سمُّور بالتأكيد».

★ ★ ★

ديسمبر في البياتسا.

منذ يوم افتتح المتروبول أبوابه، ظل سُكّان موسكو الطيبون يتطلعون إلى البياتسا لتحديد مسار موسم الأعياد. فبحلول الساعة الخامسة من أول أيام ديسمبر، كنت تجد الغرفة وقد زُيّنت بانتظار العام الجديد. الأكاليل دائمة الخضرة ذات الأعناب الحمراء الزاهية تدلَّت من الفسقية. وخيوط النور عُلِّقت من الشرفات. والعرابدة؟ جاءوا من كل أنحاء موسكو، حتى إنه بحلول الساعة الثامنة، عندما عزفت الأوركسترا أولى أغنياتها الاحتفالية، كانت كل الطاولات محجوزة. وبحلول التاسعة، كان النُدُل يجرُّون كراسيَ من الأروقة لكي يتمكن من تأخروا في الحضور من

وضع أذرعهم على أكتاف أصدقائهم. في منتصف كل طاولة- سواء أكان شاغلوها من عِليَة القوم أو أصاغرهم- كان ثمة صحن من الكافيار، إذ تكمن عبقرية تلك الأكلة الشهية في إمكانية الاستمتاع بها، سواء بالأوقيّة أو بالرطل.

وعليه، أصيب الكونت بمسحةٍ من إحباط عندما دخل البياتسا في ذلك الانقلاب الشتوي ليجد الغرفة بلا أكاليل، والدرابزينات بلا خيوط نور، والمسرح خاليًا إلا من عازف وكورديون وحيد، وثُلثي الطاولات شاغرة.

مع ذلك، فكما يعرف كل الأطفال، لا بُد لطبول الأعياد أن تَقرع من داخل الإنسان. وهناك، على طاولتها المعتادة بجوار الفسقية، كانت نينا بشريط أخضر داكن مربوط حول وسط فستانها الأصفر الزاهي.

«عيد ميلاد سعيد»، قالها الكونت بانحناءة عندما وصل إلى الطاولة.

نهضت نينا وانحنت احترامًا.

«فلتحلَّ عليك أفراح العيد يا سيدي».

عندما جلسا ووضعا فوطتَيْ المائدة في حِجريهما، أوضحت نينا أنها ستقابل والدها على العشاء بعد وقت قصير، وعليه فقد سمحَت لنفسها بأن تطلب أورديفر.

قال الكونت: «قرار حصيف».

في تلك اللحظة، وصل الأسقف، حاملًا بُرجًا صغيرًا من الآيس كريم.

الـ«أورديفر؟».

أجابت نينا: «وي».

وضع الأسقف الطبق أمام نينا بابتسامة كهنوتيّة، ثم استدار وسأل الكونت إذا كان يريد قائمة طعام (وكأنه لا يحفظها عن ظهر قلب!).

«لا، شكرًا يا أستاذ. فقط كأسًا من الشامبانيا وملعقة».

بمنهجيتها المميزة في الشؤون المهمّة، التهمت نينا الآيس كريم نكهةً واحدة في كل مرة، منتقلة من الأفتح إلى الأدكن لونًا. وهكذا، وقد

أجهزَت بالفعل على الفانيليا الفرنسية، كانت الآن تنتقل إلى كُرة الليمون، المنسجمة تمام الانسجام مع فستانها.

قال الكونت: «إذًا، هل تتطلّعين إلى زيارة ديارك؟».

قالت نينا: «نعم، سيكون لطيفًا أن أرى الجميع. لكن عندما نرجع إلى موسكو في يناير، سوف أبدأ المدرسة».

«لا يبدو أنك متحمسة كثيرًا للفكرة».

اعترفَت: «أخشى أنها ستكون مملّة على نحو بشع، وبالتأكيد طافحةً بالأطفال».

أومأ الكونت برأسه في جدية ليُقِرَّ بالاحتمالية التي لا جدال حولها، المتمثّلة في وجود الأطفال في دار الدراسة؛ ثم، وهو يغرس ملعقته في كُرة الفراولة، ذَكَر أنه كان يستمتع كثيرًا بالمدرسة.

«الجميع يقولون هذا».

«أحببتُ قراءة الأوديسة والإلياذة؛ وعقدتُ بعضًا من أجمل الصداقات في حياتي...».

قالت، وهي تَقْلب عينيها: «نعم، نعم. الجميع يقولون هذا أيضًا».

«طيّب، أحيانًا يقول لك الجميع شيئًا ما لأنه صحيح».

وأوضحت نينا: «أحيانًا يقول لك الجميع شيئًا ما لأنهم الجميع. لكن لماذا يجب على الشخص أن يُنصت للجميع؟ هل **الجميع** كتبوا الأوديسة؟ هل **الجميع** كتبوا الإلياذة؟». ثم هزّت رأسها وهي تنهي كلامها في حسم: «الفارق الوحيد بين الجميع ولا أحد يكمن في عدد الأحذية».

ربما كان على الكونت أن يترك الموضوع عند هذه النقطة. لكنه كَرِه أن تبدأ صديقته الصغيرة أيامها الدراسية في موسكو بنظرة كئيبة كهذه.

مع تقدّمها خلال الكرة الأرجوانية (توتٌ أسود على الأرجح)، فكَّر في أفضل طريقة لصياغة فضائل التعليم الرسمي.

«هناك بالتأكيد بعض الأوجه المضجِرة في المدرسة»، هكذا سلَّم بعد

برهة. «لكنني أعتقد أنكِ ستجدين بهجة في نهاية المطاف في الخبرة التي تُوسِّع آفاقك».

رفعت نينا رأسها.

«ماذا تقصد بهذا؟».

«ماذا أقصد بماذا؟».

«بقولك **تُوسِّع آفاقك**؟».

كانت العبارة قد بدت بديهية للكونت حتى إنه لم يستعد للإسهاب فيها. وهكذا، قبل أن يجيبها، أشار للأسقف طالبًا كأسًا أخرى من الشمبانيا. على مدار قرون ظلّت الشامبانيا تُستخدم لتدشين الزيجات والسفن. أغلب الناس يفترضون أن ذلك يرجع إلى أن المشروب احتفاليٌّ في جوهره؛ لكنه، في حقيقة الأمر، يُستخدم في بداية تلك المغامرات الخطيرة لقدرته القوية على شَحذ الهِمم. عندما وُضعَ الكأس على الطاولة، ارتشف الكونت جرعة كبيرة بما يكفي لدغدغة جيوبه الأنفية.

تجاسر وقال: «ما أعنيه بتوسيع آفاقك هو أن التعليم سوف يمنحك إحساسًا بمدى اتساع العالم، بما فيه من عجائب، وما فيه من أساليب عديدة ومتنوعة للحياة».

«ألا يحقق السفر ذلك بكفاءة أكبر؟».

«السفر؟».

«إننا نتحدّث عن الآفاق، أليس كذلك؟ هذا الخط الأفقي عند مدّ البصر؟ بدلًا من الجلوس في صفوف منتظمة في دار الدرس، ألن يُفيد المرء أكثر أن يشقّ طريقه باتجاه **أفق** حقيقي، فيعرف ماذا يوجد خلفه؟ هذا ما فعله ماركو بولو عندما سافر إلى الصين. وما فعله كولومبوس عندما سافر إلى أمريكا. وما فعله بيتر العظيم عندما سافر في أرجاء أوروبا **متخفّيًا**!».

توقّفت نينا لتلتهم ملعقة هائلة من الشوكولاته، وعندما بدا أن الكونت

بصدد الإجابة لوَّحَت بالملعقة لتبيّن أنها لم تنتهِ بعد. انتظرها بانتباه إلى أن تُتم البلع.

«ليلة أمس اصطحبني أبي إلى ‹شهرزاد›».

أجابها الكونت (ممتنًّا لتغيير الموضوع): «آه. أفضل أعمال ريمسكي كورساكوف».

«ربما. لا أعرف. الفكرة هي: وفقًا للبرنامج، كان الهدف من المقطوعة الموسيقية أن ‹تخلِب ألباب› المستمعين بـ‹عالم ألف ليلة وليلة›».

ابتسم الكونت قائلًا: «عالم علاء الدين والمصباح».

«بالضبط. وفي الحقيقة، بدا أنها خلبت ألباب كل من في المسرح بالكامل».

«طيّب، ها أنتِ تقولين».

«مع ذلك، فليس لدى أي منهم أدنى نيّة **للذهاب** إلى بلاد العرب- مع أنها مكان المصباح».

بتدبيرٍ قدريٍّ غير عاديّ، لحظة أدلت نينا بهذا التصريح، اختتم عازف الأَكورديون مقطوعة شهيرة قديمة وضجّت القاعة شحيحة الزبائن بالتصفيق. أسندت نينا ظهرها للخلف، وأومأت إلى أقرانها من الزبائن بيديها وكأن تصفيقهم الحار هو البرهان النهائي على صحة كلامها.

من علامات لاعب الشطرنج الماهر أن يقلِب ملكه بنفسه عندما يُدرك حتمية هزيمته، بغضّ النظر عن عدد الحركات المتبقية في الدور. هكذا، تساءل الكونت:

«كيف حال الـ**أورديفر**؟».

«رائع».

بدأ عازف الأَكورديون الآن في عزف لحن صغير مرح يُذكِّر بالترانيم الإنكليزية. اعتبرها الكونت علامة، وأوضح أنه يرغب في رفع نخب خاص.

شرع يقول: «ثمة حقيقة حزينة إنما لا يمكن تجنّبها من حقائق الحياة، أننا كلما تقدّمنا في السنّ صغُرت دوائرنا الاجتماعية. سواءً عن زيادة في التعوُّد أو نقصٍ في الهمّة، نجد أنفسنا فجأة في صحبة عدد قليل من الوجوه فحسب. لذلك، فإني أعتبر عثوري على صديقة جديدة جميلة مثلك في هذه المرحلة من حياتي ضربة حظ لا تُصدّق».

بهذا، دسّ الكونت يده في جيبه وأخرج هدية لنينا.

«هذا شيء صغير انتفعتُ به كثيرًا عندما كنتُ في سنّك. آمل أن يعينك على الصبر إلى أن تسافري متخفّية».

ابتسمت نينا بطريقة أوحت (بصورة غير مقنعة إطلاقًا) أنه لم يكن مضطرًا إلى ذلك. ثم نزعت الغلاف الورقي فظهرت نظارة الأوبرا سداسية الأضلاع الخاصة بالكونتيسة روستوف.

قال الكونت: «كانت لجدتي».

للمرة الأولى في رفقتهما، انعقد لسان نينا. أدارت المنظار ذا العينين في يديها، معجبةً بجسمه الصدفيّ وزخارفه النحاسية الرقيقة. ثم وضعته على عينيها لكي تعاين الغرفة ببطء.

بعد لحظة، قالت: «أنت من يعرفني أكثر من أي شخص. سأصونها حتى مماتي».

أما كونها لم تفكر في إحضار هدية للكونت، فقد اعتبره أمرًا مفهومًا للغاية، فهي مجرد طفلة، في نهاية المطاف؛ كما أن أيام فضّ الهدايا بالنسبة إليه كانت قد ولّت إلى غير رجعة.

قال الكونت: «الوقت تأخّر. لا أريدك أن تتركي والدك ينتظر».

اعترفت آسفة: «نعم. حان الوقت لأذهب».

ثم أدارت رأسها باتجاه منصَّة كبير النُدُل، ورفعت يدها كمن يطلب الحساب. لكن عندما اقترب كبير النُدُل من الطاولة، لم تكن معه الفاتورة. بدلًا منها، كانت معه علبة صفراء كبيرة مربوطة بشريط أخضر داكن.

قالت نينا: «هنا شيء صغير لأجلك. لكن عِدني ألّا تفتحه قبل دقَّة منتصف الليل».

عندما غادرت نينا البياتسا لتلحق بوالدها، كانت نيّة الكونت أن يسوِّيَ الحساب، ثم يتابع طريقه إلى البويارسكي (ليأكل ريشة ضأن مغطاة بالأعشاب)، ثم ينسحب إلى مكتبه لتناول كأس من نبيذ البورت في انتظار دقَّة الثانية عشرة. لكن عندما بدأ عازف الأَكورديون في عزف ترنيمة ثانية، وجد الكونت نفسه يحوِّل انتباهه إلى الطاولة المجاورة، حيث رجلٌ شاب بدا له في أولى مراحل الاستكشاف الغرامي.

في قاعة محاضرات ما، ربما كان هذا الفتى ذو الشارب الرفيع قد أبدى إعجابه بزميلته الطالبة على حدَّة ذكائها وجديَّة سيمائها. وفي نهاية المطاف، استجمع شجاعته ليدعوها للخروج، ربما بحجّة مناقشة مسألة مهمة من الناحية الأيديولوجية. والآن، ها هي تجلس أمامه في البياتسا وتجيل بصرها في القاعة دون ابتسامة على وجهها ولا كلمة على شفتيها.

في محاولة لكسر الصمت، لفَت الفتى إلى المؤتمر الوشيك من أجل توحيد الجمهوريات السوفييتية- وهي خطوة استهلالية معقولة بالنظر إلى تحمّسها الواضح. بكل تأكيد كان للفتاة وجهات نظر حول الموضوع؛ لكن بينما كانت تُعرب عن رأيها حول قضية «ما وراء القوقاز»، أصبح مضمون المحادثة تقنيًّا بالكامل. والأكثر من ذلك أن الشاب، وقد رَسم على وجهه تعبيرًا جادًّا مثلها، لم يكن يفقه شيئًا عن المسألة. والآن، إذا غامر بإبداء رأيه، فلا بُد أنه سيبدو مدّعيًا، شخصًا لا يمتلك معلومات كافية حول قضايا اليوم الجوهرية. عند تلك اللحظة، لن تزداد الأمسية إلا سوءًا، وسينتهي به الحال مجرجِرًا أذيال الخيبة مثل طفل عوقب لتوِّه فراح يصعد إلى غرفته ساحبًا دبَّه القطني وهو يخبط بقدميه على الدرَج.

لكن في اللحظة التي دعته فيها الفتاة لمشاركة أفكاره حول المسألة، بدأ عازف الأَكورديون نمرةً صغيرة ذات نكهة إسبانية. ولا بد أنها ضربَتْ

على وترٍ ما، لأنها قاطعَت نفسها لكي تنظر إلى الموسيقيّ وتتساءل بصوت عالٍ من أين ذلك اللحن.

أجاب الشاب دون تفكير: «إنه من 'كسارة البندق'».

ردَّدَت: «'كسارة البندق'...».

بالنظر إلى الجدّيّة التي ارتسمت على محيّاها، اتّضح رأيها في تلك الموسيقى القادمة من زمن آخر. هكذا، كان كثير من المخضرمين لينصحوا الشاب بأن يتقدم بحذر- بأن ينتظر ويُنصت إلى الارتباطات التي تحملها تلك الموسيقى بالنسبة لها. عوضًا عن ذلك، فقد بادر؛ وبادر بجسارة.

«عندما كنتُ صبيًّا، كانت جدتي تصحبني كل عام».

استدارت الشابة عن الموسيقيّ لتواجه صاحبها.

تابع قائلًا: «أظن أن البعض يرونها موسيقى عاطفية، لكنني لا أفوِّت حضور الباليه كل مرة يُقدَّم في ديسمبر، حتى إذا اضطررتُ لحضوره بمفردي».

أحسنتَ صُنعًا يا صاح!

رقَّت ملامح الفتاة بصورة ملحوظة وأظهرَت عيناها لمحة من الاهتمام، كَوْن ذلك كشف عن وجهٍ غير متوقّع لهذا الشاب الذي عرفته حديثًا؛ شيء نقي وصادق وفيه اعتداد بالذات. افترقَت شفتاها وهي تستعد لطرح سؤال...

«هل أنتما جاهزان للطلب؟».

كان الأسقف يميل على الطاولة.

أراد الكونت أن يصرخ: **إنهما غير جاهزَين للطلب بالطبع، كما قد يرى أي مغفّل.**

لو كان الشاب حكيمًا، لصَرَف الأسقف على الفور وطلب من الفتاة أن تتابع سؤالها. عوضًا عن ذلك، تناول القائمة على النحو الواجب. ربما

تخيَّل أن الطبق المثالي سيقفز من بين الصفحات ويُعرِّف نفسه بالاسم. لكن بالنسبة لشابٍ مفعم بالأمل يحاول التأثير في فتاة جادة، كانت قائمة البياتسا محفوفة بالمخاطر مثل مضيق «ميسينا». كان مثل العالق بين «سيلَّا» و«خاريبدِس».(*) على اليسار كانت أطباقٌ منخفضة الأسعار يمكن أن توحي بتقتيرٍ ينُمّ عن قلّة ذوق؛ وعلى اليمين كانت طيِّبات يمكنها إفراغ جيوب المرء وإظهاره، في الوقت نفسه، بمظهر الدعيّ. راحتِ نظرات الشاب تتمايل جيئة وذهابًا بين الخطرَيْن المتقابلَيْن. لكن في ومضة عبقرية، طلبَ «يخنة على الطريقة اللاتفيَّة».

كان طبقًا تقليديًّا من لحم الخنزير، والبصل، والمشمش، يتميز بسعر معقول، وقدر معقول من الغرائبية؛ ويرتدُّ على نحو ما إلى عالم الجدّات والأعياد والألحان العاطفية التي كانوا بصدد مناقشتها قبل مقاطعتهما بهذه الوقاحة.

وقالت الفتاة الجادة: «سآخذ الطبق ذاته».

الطبق ذاته!

ثم ألقت على صاحبها الشاب المفعم بالأمل نظرة تحمل لمحة من تلك الرقّة التي أظهرتها ناتاشا لبيير في رواية «الحرب والسلام» نهاية الجزء الثاني.

سأل الأسقف: «وهل تريدان بعض النبيذ مع اليخنة؟».

تردد الشاب ثم تناول قائمة النبيذ بيدين مرتبكتين. احتمالٌ كبيرٌ أن تكون المرة الأولى في حياته التي يطلب فيها زجاجة نبيذ. فبعيدًا عن كونه لا يستوعب مميزات منتجات عام 1900 مقارنة بمنتجات عام 1901، لم يكن يعرف البُرغندي من البوردو.

(*) سيلاّ وخاريبدِس: وحشان بحريان إغريقيّان على جانبي مضيق ميسّينا، إذا مال البحارة يمينًا وجدوا أحدهما، وإذا مالوا يسارًا وجدوا الآخر. (المترجم)

لم يمهل الأسقفُ الشابَ أكثر من دقيقة ليتدبّر رأيه، قبل أن ينحني إلى الأمام وينكز القائمة بإصبعه بابتسامة متعالية.

«ربما نبيذ الريوخا».

الريوخا؟ هاكَ نبيذٌ سيتصارع مع اليخنة مثلما تصارَع أخيل مع هكتور. سيصرَع الطبق بضربة واحدة على رأسه ويسحله مربوطًا في مركَبته حتى يذوق بنفسه قوة كل رجل في طروادة. علاوة على ذلك، فسعره يبلغ ثلاثة أضعاف ما يستطيع الشاب إنفاقه.

بهزَّة من رأسه، فكّر الكونت أنه، ببساطة، ما من بديل للخبرة. فها هي فرصة مثالية للنادل كي يحقّق غرضه. لو كان قد أوصى بنبيذ مناسب، لأراح الشاب، وقدَّم وجبة مثالية، وخَدَم القضية الغرامية، كل ذلك بحجر واحد. لكن سواء عن قلّة كياسة أو قلّة إدراك، لم يخفُق الأسقف في تحقيق هذا الغرض فحسب، بل وحاصر زبونه في الزاوية. وكان الشاب، الذي بدا واضحًا أنه لا يعرف ماذا يفعل وبدأ يشعر وكأن المطعم بأكمله يراقبه، على وشك قبول اقتراح الأسقف.

«اسمح لي»، تدخَّل الكونت. «تماشيًا مع اليخنة على الطريقة اللاتفيَّة، لن تجد خيارًا أفضل من زجاجة موكويزاني».

مال الكونت على طاولتهما، وقلّد أندري وهو يشير بإصبع مشدود على نحو مثالي إلى الصنف على القائمة. كَوْن هذا النبيذ أقلّ كثيرًا في السعر من الريوخا أمرٌ لا داعٍ لمناقشته بين جنتلمانٍ وآخر. عوضًا عن ذلك، لَفَت الكونت ببساطة: «أهل جورجيا عمليًّا يزرعون العنب على أمل أن يُقدَّم يومًا بصحبة يخنة كهذه».

تبادل الشاب نظرة سريعة مع صاحبته وكأنما يقول، **مَنْ غريب الأطوار هذا؟** لكنه بعدها استدار إلى الأسقف.

«زجاجة موكويزاني».

أجاب الأسقف: «بالطبع».

بعدها بدقائق، كان النبيذ قد قُدِّم وصُبَّ، وكانت الفتاة تسأل صاحبها

أن يصف لها جدته. بينما كان الكونت، من جانبه، قد صرف عن ذهنه أي أفكار عن الضأن المغطى بالأعشاب في البويارسكي.

بدلًا من ذلك، استدعى بيتيا لكي يأخذ هدية نينا إلى غرفته وطلب يخنة على الطريقة اللاتفيّة وزجاجة من الموكويزاني لنفسه.

وكما توقّع تمامًا، كان الطبقَ المثاليّ للموسم. البصل مُحمَّر بشكل كامل، واللحم مُسبَّك على مهل، والمشمش قليل الاستواء، والمكوِّنات الثلاثة جاءت معًا في خليط حلو ومدخَّن يوحي في آنٍ واحد براحة خانٍ عَزَلَته الثلوج وخشخشة رِقٍّ غجريّ.

فيما كان الكونت يرتشف نبيذه، التقت عيناه بعيني الزوجين الشابين فرفعا كأسيهما في تحية امتنان وقُربى. ثم عادا إلى محادثتهما، التي ازدادت حميمية فما بات بالإمكان سماعها فوق صوت الأكورديون.

الحبُّ الشاب، فكَّر الكونت بابتسامة. ليس فيه شيء نوفايا.

«هل ستطلبَ أي شيء آخر».

كان الأسقف يخاطب الكونت. فكَّر للحظة، ثم طلب كرةً واحدة من آيس كريم الفانيليا.

★ ★ ★

عندما دخل الكونت إلى البهو، لاحظ أربعة رجال في ملابس سهرة يدخلون من الباب حاملين حقائب جلدية سوداء، بدا واضحًا أنهم أحد الرباعيَّات الوترية التي تعزف من حين إلى آخر في غرفتي الطعام الخصوصيتَيْن في الطابق العلوي.

ثلاثة من الموسيقيين بدا كأنهم يعزفون معًا منذ القرن التاسع عشر، يتشاركون الشعر الأبيض نفسه والاحترافية الضَجِرة نفسها. لكن عازف الكمان الثاني كان مميزًا عن الباقين، فلا بُد أنه لم يتجاوز الثانية والعشرين وما زال يحتفظ بخفَّة واضحة في مشيته. لم يتعرف عليه الكونت إلا عندما اقترب الرباعي من المصعد.

لا بُد أن الكونت لم يرَ نيكولاي بيتروف منذ عام 1914 عندما كان الأمير صبيًّا لا يتجاوز الثالثة عشرة؛ وبالنظر إلى مرور الوقت، كان يمكن ألّا يتعرف عليه الكونت أصلًا لو لم يشاهد ابتسامته المتواضعة- تلك السمة المميزة لسلسال بيتروف على مر الأجيال.

«نيكولاي؟».

عندما نطق الكونت، استدار العازفون الأربعة عن المصعد وعاينوه بفضول.

بعد برهة، سأل الأمير: «ألكسندر إلييتش...؟».

«ولا أحد غيره».

حثَّ الأمير زملاءه على متابعة طريقهم ثم منح الكونت ابتسامة عائلية.

«سعيد برؤيتك يا ألكسندر».

«وأنا أيضًا».

ظلا صامتين للحظة، ثم تغيّر تعبير الأمير من الدهشة إلى الفضول.

«هل هذا... آيس كريم؟».

«ماذا؟ آه! نعم، هو كذلك. ولو أنه ليس لي».

أومأ الأمير برأسه في حيرة، دون أن يبدي ملاحظة أخرى.

جازف الكونت بالسؤال: «قل لي، هل سمعت من ديمتري؟».

«أظنه في سويسرا».

قال الكونت مبتسمًا: «آه، أنقى هواء في أوروبا».

هز الأمير كتفيه، وكأنما ليقول إنه سمع شيئًا من هذا القبيل، لكنه لم يجرّب بنفسه.

تابع الكونت: «آخر مرة رأيتك، كنتَ تعزف باخ في إحدى حفلات العشاء التي تنظّمها جدتك».

ضحك الأمير ورفع حقيبته.

«أظنني لا زلت أعزف باخ في حفلات العشاء».

ثم أشار تجاه المصعد المغادر وقال بإعجاب لا تغفله الأذن:

«هذا سيرجي أيزينوف».

«لا!».

عند مُنقلَب القرن، كان سيرجي أيزينوف قد أعطى دروسًا في الموسيقى لنصف صبيان طريق موسكو الدائري.

قال الأمير: «ليس سهلًا على أمثالنا العثور على عمل. لكن سيرجي يستعين بي كلما استطاع».

كانت لدى الكونت أسئلة كثيرة: هل تبقّى أحد من عائلة بيتروف في موسكو؟ هل ما زالت جدته على قيد الحياة؟ هل لا يزال يعيش في ذلك المنزل الرائع في ميدان بوشكين؟ لكنهما كانا واقفين في وسط بهو فندق بينما رجالٌ ونساءٌ يصعدون لأعلى - بعضهم بملابس رسمية.

قال الأمير: «لعلهم يتساءلون الآن عمَّا حدث لي».

«نعم، بالطبع. لم أقصد أن أعطّلك».

أومأ الأمير برأسه واستدار ليصعد السلم، لكنه عاد واستدار.

قال: «سنعزف هنا مجددًا ليلة السبت. ربما يمكننا أن نتقابل بعدها لتناول مشروب».

قال الكونت: «سيكون ذلك رائعًا».(*)

(*) - بين قرّاء الأدب الأوروبي، تشتهر شخصيات الروايات الروسية بصعوبة أسمائها. فنحنُ الروس لا نكتفي بالتعويل على الاسم الأول واسم العائلة، بل نحب استغلال الألقاب الشرفيّة، والكُنى، وطيف واسع من أسماء التدليل - حتى إن الشخصية الواحدة في رواياتنا يمكن أن يشار إليها بأربع طرق مختلفة على مرّ الصفحات. وما يزيد الطين بلّة، يبدو أن أعظم كتّابنا، بسبب التزام ضارب في الجذور بالتقاليد أو فقرٍ مدقع في الخيال، حصروا أنفسهم في استخدام ثلاثين اسمًا أوَّلَ فقط. لا تستطيع أن تلتقط عملًا لتولستوي، أو دوستويفسكي، أو تورغينيف دون أن تصطدم بـ«آنّا»، أو «أندري» أو «ألكسندر». هكذا لا بُد أن القارئ الغربي يُقابل كل شخصية جديدة في الرواية الروسية بقدر من الهلع - إذ يعرف أنه إن تحقّق الاحتمال البعيد ولعبَت تلك الشخصية دورًا مهمًّا في الفصول المقبلة، فعليه الآن أن يتوقّف ويحفظ الاسم عن ظهر قلب.

وعلى ذلك، أظن من العدل أن أخبركم الآن أن الأمير نيكولاي بيتروف، رغم اتفاقه مع الكونت على اللقاء ليلة السبت لتناول مشروب، لن يلتزم بالموعد.

فعندما يُنهي الرباعي ارتباطهم في منتصف الليل، سيُغلق الأمير الشاب نيكولاي أزرار معطفه، ويحبُك وشاحه، ويسير على قدميه إلى مقام أسرته في ميدان بوشكين. وغنيٌّ عن القول إنه لدى وصوله في الثانية عشرة والنصف، لا يجد حاجبًا في انتظاره. يصعد السلالم والكمان في يده متّجهًا إلى الغرفة التي خُصصت له في الطابق الرابع.

ومع أن البيت يبدو خاويًا، يُقابل نيكولاي اثنين من سكّان البيت الجدد يدخنان السجائر. يتعرّف نيكولاي عليهما؛ المرأة في منتصف العمر التي تعيش الآن في غرفة الأطفال. والآخر مسؤول تشغيل الحافلات الذي يعيش مع أسرته المكوّنة من أربعة أفراد في مخدع الوالدة القديم. عندما يتمنّى الأمير لهما ليلة سعيدة بالابتسامة الاعتيادية، لا يردّ أي منهما بكلمة. لكن عندما يصل إلى الطابق الرابع يفهم تحفُّظهما فلا يلومهما كثيرًا. إذ يجد أمامه في الرواق ثلاثة رجال من الـ«تشيكا» بانتظار تفتيش غرفته.

لدى رؤيتهم، لا يثير الأمير نيكولاي صخبًا أو يُعرب عن احتجاج فارغ. في نهاية المطاف، تلك هي المرة الثالثة التي يفتشون فيها غرفته في ستة أشهر، بل وقد تعرَّف على أحدهم. وهكذا، ملمًّا بالإجراءات وضَجِرًا بعد يوم طويل، يقابلهم بالابتسامة الاعتيادية نفسها، ويسمح لهم بالدخول، ويجلس إلى الطاولة الصغيرة بجوار النافذة بينما يؤدّون عملهم.

ليس لدى الأمير ما يخفيه. لم يكن قد تجاوز السادسة عشرة من عمره عندما سقط قصر الـ«أرميتاج»، لم يقرأ قَط منشورًا سياسيًّا ولا أضمر ضغينةً أو حقدًا. إذا سألته أن يعزف السلام الامبراطوري، لن يتذكّر كيف يعزفه. بل إنه يرى بعض المنطق في تقسيم بيته القديم الكبير. أمه وشقيقاته في باريس، وجدوده ماتوا، وخَدَم العائلة شتّتتهم الرياح، فماذا يفعل بثلاثين غرفة؟ كل ما كان يحتاجه بحقّ سريرًا، وحمّامًا، وفرصة عمل.

لكن في الثانية صباحًا، يستيقظ الأمير على دَفعة من الضابط المسؤول. بين يديه كتاب مدرسي- قواعد اللغة اللاتينية من أيام دراسة نيكولاي في مدرسة الليسيه الأمبراطورية.

«هل هذا يخصّك؟».

★ ★ ★

ليس هناك داع للكذب.

يقول: «نعم. لقد درَستُ في الأكاديمية عندما كنت صبيًّا».

يفتح الضابط الكتاب؛ وهناك على الصفحة الأولى تظهر صورة للقيصر نيكولاي الثاني- يبدو عليه الجلال والحكمة- ما تُعدّ حيازتها جريمة. يجد الأمير نفسه يضحك، إذ كان قد بذل جهدًا مضنيًا في إزالة كل البورتريهات، وشعارات النبالة، والشارات الـمَلَكيّة من غرفته.

يَقطع الضابط الصفحة من كتاب القواعد بنصل سكّين. يكتب على ظهرها التوقيت والمكان ويجعل الأمير يوقِّع عليها.

يُقتاد الأمير إلى سجن لوبيانكا، حيث يُحتجز لعدة أيام ويُستجوب مرة أخرى بخصوص ولاءاته. في اليوم الخامس، ومع وضع كل الأمور في الاعتبار، تتدخل ربّة القَدَر لاستبقائه. إذ لا يُقاد إلى الباحة ويوقَف أمام الحائط؛ ولا يُشحن إلى سيبيريا. فقط، يُحكم عليه بعقوبة «الحرمان من المدن الستّ»: تلك العقوبة الإدارية التي تسمح له بالتجول كما يشاء في أرجاء روسيا، طالما أنه لا يضع قدميه في موسكو، أو سان بطرسبرغ، أو كييف، أو خاركوف، أو اِيكاترينبرغ، أو تِبليسي- أي في أكبر ستّ مدن في البلاد.

في توشكوفو، على بعد نحو ثمانين كيلومترًا من موسكو، يستأنف الأمير الشاب حياته؛ في الغالب بلا ضغينَة، ولا سُخط، ولا حنين. في بلدته الجديدة، ما زال العشب ينمو، وأشجار الفاكهة تُزهر، والفتيات ينضجن. علاوة على ذلك، بحكم بُعده، يُعفى من معرفة أنه بعد عام من الحكم عليه، سوف يكون ثلاثي من الـ«تشيكا» في انتظار مُعلِّمه القديم عندما يرجع إلى شقته الصغيرة حيث يعيش مع زوجته المسنّة. وعندما يقتادونه للمثول أمام محكمة ثلاثية استثنائية، يكون الدليل الذي يختِم مصيره ويُرسله إلى معسكرات الاعتقال هو استعانته، في عدة مناسبات، بـ«الشخص السابق» نيكولاي بيتروف لكي يعزف في رباعيّه الوتري رغم الحظر التام المفروض على ذلك.

لكن بعدما أخبرتكم بأنكم لستم مضطرين إلى تذكّر اسم الأمير بيتروف، لا بُد أن ألفت هنا إلى ضرورة أن تحفظوا عن ظهر قلب ذلك الشاب القصير صاحب الوجه المدوَّر والشعر المنحسر الذي سيظهر بعد فصلٍ من الآن، رغم ظهوره القصير. فبعد سنوات سوف يكون له أثر عظيم على نهايةٍ تلك الحكاية.

عندما وصل الكونت إلى الطابق السادس، نَقَرَ بلسانه ثلاث مرات، ثم دخل إلى غرفة نومه، تاركًا الباب مشرعًا. على طاولة المكتب كانت هدية نينا حيث تركها بيتيا. وضعها الكونت تحت ذراعه، وعبر من بين ستراته إلى غرفة مكتبه، وضع الهدية على طاولة جدته، وحطَّ طاسة الآيس كريم الذائب على الأرض. وبينما كان يصب لنفسه كأسًا من نبيذ البورت، زاغ ظلٌّ فضيٌّ حول قدميه واقترب من الطاسة.

«عيد سعيد عليك يا هِرْ دروسلماير».(*)

أجاب القط: «مياو».

وفقًا للساعة مزدوجة الدقّات، كانت لا تزال الحادية عشرة. لذا، مال الكونت بكرسيه وهو يمسك بكأس البورت في يد وبرواية «ترنيمة لعيد الميلاد» [لتشارلز ديكنز] في الأخرى، وانتظر دقة الثانية عشرة احترامًا للوعد. في الحقيقة، يتطلّب الأمر قدرًا من الانضباط لكي تجلس في كرسي وتقرأ رواية، حتى إن كانت رواية موسميَّة، بينما تنتظرك هدية ملفوفة لفّة جميلة على بعد ذراع ولا شاهد عليك إلا قطٌّ أعور. لكنّ ذلك هو الانضباط الذي أتقنه الكونت منذ الطفولة عندما كان، في الأيام السابقة على الكريسماس، يمرَّ من أمام أبواب صالة الاستقبال الموصَد بخطًى ثابتةً وعلى وجهه نظرة جامدة وكأنه حارس في قصر بكنغهام.

ذلك التحكّم في النفس لدى الكونت الصغير لم يكن نابعًا من إعجاب مبكّر بالنظام العسكري الصارم، ولا من التزام متزمِّت بالقواعد المنزلية. فعندما وصل الكونت إلى سن العاشرة، بدا جليًّا تمامًا أنه لا بالمتزمِّت ولا بالصارم (كما شهدَت على ذلك كتيبة من المعلّمين، والمربّيات، ورجال الشرطة). لا. إذا كان الكونت قد أتقن الانضباط أثناء مروره من

(*) دروسلماير: يُسمي الكونت القط بهذا الاسم تيمنًا بالبطل الأعور في باليه «كسارة البندق» لتشايكوفسكي. (المترجم)

أمام أبواب صالة الاستقبال الموصَدة، فذلك لأن الخبرة علَّمَته أن تلك هي الوسيلة الفُضلى للاستمتاع ببهجة الأعياد.

ففي عشيّة الكريسماس، عندما يعطيه والده أخيرًا الإشارة ويُسمح له هو وهيلينا بفتح الأبواب- يجدان الصنوْبَرة البالغة ثلاثة أمتار ونصف طولًا مضاءةً من الجذع إلى القمة والأكاليل معلَّقة من كل رفّ. يجدان طاساتٍ من البرتقال من إشبيلية والحلوى فاقعة الألوان من فيينا. وفي مكان ما تحت الشجرة، يجدان الهدية غير المتوقّعة مخبّأة- سواءً كانت سيفًا خشبيًّا لحماية المتاريس، أو فانوسًا لاستكشاف مقبرة مومياء.

هذا هو سحر الكريسماس في الطفولة، هكذا فكّر الكونت بقدر من الحنين، كيف تستطيع هدية واحدة أن توفّر للمرء ساعات لا نهاية لها من المغامرة دون أن يحتاج حتى إلى مغادرة منزله.

دروسلماير، الذي كان قد استراح على الكرسي الثاني عالي الظهر لكي يلعق مخالبه، أدار عينه الوحيدة باتجاه باب الدولاب وقد انتصبت أذناه الصغيرتان. لا بُد أنه سمع طنين التروس الداخلية، فبعدها بثانية انطلقت أولى دقات منتصف الليل.

وضع الكونت الكتاب وكأس البورت جانبًا، وحطَّ هدية نينا على حجره وأصابعه على العقدة الخضراء الداكنة المعقودة على شكل فَراشة، وأنصت إلى دقات الساعة. فقط بعد انتهاء الدقة الثانية عشرة الأخيرة سحب طرفَي الشريط.

«ما رأيك يا ماين هِرْ؟ قبعة أنيقة؟».

رفع القط رأسه للكونت وشرع في خرخرة وكأنها تحية عيد الميلاد. ردّ الكونت بإيماءة من رأسه ثم رفع الغطاء بحرص... فقط ليجد علبة أخرى مغلَّفة بالأصفر ومربوطة بعقدة فراشة خضراء داكنة.

نحّى الكونت العلبة الفارغة جانبًا وهو يومئ برأسه مجددًا للقط، ثم سحب طرفي العقدة الثانية، ورفع الغطاء الثاني... فقط ليجد علبة

ثالثة. بإخلاص، كرّر الكونت فك العُقَد ورفع الأغطية مع العلب الثلاث الأخرى، حتى صار ممسكًا بواحدة في حجم علبة ثقاب. لكن عندما فك عقدة تلك العلبة ورفع غطاءها، وجد داخل الحُجيرة الحميمة، مربوطًا بقطعة من الشريط الأخضر الداكن، مفتاح مرور الفندق الخاص بنينا.

عندما دخل الكونت فراشه مع ديكنز الساعة 12:15، ظن أنه سيقرأ فقرة أو اثنتين فقط قبل أن يطفئ النور؛ لكنه عوضًا عن ذلك وجد نفسه يقرأ بأكبر قدر من الاهتمام.

كان قد وصل في القصة إلى الجزء حيث يظهر لـ«سكرودج» ذلك العملاق الظريف ليروّح عنه، «شبح كريسماس الحاضر». على مدار طفولته، قرأ الكونت «ترنيمة عيد الميلاد» ثلاث مرات على الأقل. لذا، كان يتذكّر بكل تأكيد الزيارة التي قام بها سكرودج ومرشده للحفلة الضاجَّة بالضحك في بيت ابن أخته؛ تمامًا كما يتذكّر الزيارة التي قاما بها للاحتفال المتواضع، إنما الحارّ، في بيت آل كراتشِت. لكنه كان قد نسي تمامًا أنه لدى مغادرة بيت آل كراتشِت، اصطحب شبحٌ آخر سكرودج إلى خارج مدينة لندن بالكامل، إلى مستنقعات موحشة ومهجورة حيث كانت أسرةٌ من عمال المناجم تحتفل بالأعياد في كوخها المتداعي على حافة المنجم؛ ومن هناك إلى منارة على نقطة مراقبة صخرية حيث تهدر الأمواج فيما يغني حارسا الفنار الخشنان معًا إحدى أغنيات الكريسماس؛ ومن هناك، حَمَل الشبحُ سكرودج أبعد فأبعد، إلى أعماق الظلمات المنتحبة للبحر الجيَّاش، إلى أن حطّا على متن سفينة حيث كل الرجال، الصالحون منهم والطالحون، يتذكّرون أوطانهم بحنين، ويحدِّثون زملاءهم برقَّة.

من يعرف.

ربما ما أثار الكونت كانت تلك الشخوص النائية التي تتشاطر فرحة

الموسم رُغم حياتها الشاقة في أجواء قاسية. ربما كانت رؤيته، في وقت سابق من الأمسية، لهذين الشابين العصريين وهما يتقدّمان باتجاه علاقة غرامية على الطريقة القديمة الأزليّة. ربما كانت صُدفة مقابلة نيكولاي الذي، رغم أصوله، بدا وكأنه يجد لنفسه مكانًا في روسيا الجديدة. أو ربما كانت تلك النِعمة غير المتوقّعة على الإطلاق، المتمثّلة في صداقة نينا. أيًّا كان السبب، عندما أغلق الكونت كتابه وأطفأ النور، راح في النوم وقد غمره إحساس عظيم بالانشراح.

لكن لو كان «شبح الكريسماس القادم» قد ظهر فجأة وأيقظ الكونت ليعطيه لمحة عن المستقبل، لأدرك أن إحساسه بالانشراح كان مبتَسرًا. فبعد أقل من أربع سنوات، بعد حسابٍ حريصٍ آخَر للدقات الاثنتي عشرة من الساعة مزدوجة الدقّات، سوف يصعد ألكسندر إلييتش روستوف إلى سطح فندق المتروبول مرتديًا أجمل ستراته ويقترب بثبات من السور لكي يُلقي بنفسه إلى الشارع بالأسفل.

الكتاب الثاني

1923

ممثلة، شبح، مَنحل

في الساعة الخامسة، في الحادي والعشرين من يونيو، وقف الكونت قُبالة دولاب ملابسه ويده على السترة الرمادية السادة، وتردَّد. في غضون دقائق قليلة، سيكون في طريقه إلى زيارته الأسبوعية لصالون الحلّاق، ثم إلى الشاليابين لمقابلة ميشكا، الذي سيكون، على الأرجح، مرتديًا تلك السترة البنيّة التي ظل يرتديها منذ عام 1913. وعليه، بدا اختيار السترة الرمادية مناسبًا تمامًا. أو بالأحرى، مناسبًا إلى أن يفكِّر المرء أن اليوم يُعدّ ذكرى سنوية من نوع ما- إذ كانت سنة كاملة قد انقضت منذ يوم وَضَع الكونت قدمه للمرة الأخيرة خارج فندق المتروبول.

لكن كيف للمرء أن يحتفل بذكرى كهذه؟ وهل يجدر به الاحتفال بها؟ فالإقامة الجبرية ليست افتئاتًا صريحًا على حرّية الفرد فحسب، بل مقصودٌ بها أيضًا قَدْرٌ من الإهانة. لذا فإن الكبرياء والحسَّ السليم سيفضّلان أن تمر ذكرى كهذه دون إحياء.

مع ذلك...

حتى الرجال الذين يعيشون في أحلك الظروف- مثل أولئك الذين ضاعوا في البحر أو حُبسوا في السجن- سيجدون طريقة دقيقة لحساب مرور العام. فمع أن كل التعاقبات البديعة للمواسم وكل المهرجانات البهيجة التي تتابع على مرّ الحياة العادية قد اختفت وحلّ محلها طغيان الأيام المتشابهة، يظلّ الرجال في هكذا مواقف يحفرون 365 ثُلمَة على قطعة من الخشب أو ينقشونها على جدران زنزانتهم.

فلماذا يذهبون إلى ذلك المدى البعيد من أجل حساب الزمن؟ مع أن ذلك، ظاهريًّا، لا يفيدهم بشيء؟ طيّب، أحد الأسباب أن ذلك يوفّر فرصة لتأمّل التقدُّم الحتمي للعالم الذي خلَّفوه وراءهم: آه، **أليوشا؟ لا بُد أنه أصبح قادرًا الآن على تسلق الشجرة في الباحة؛ وفانيا؟ لا بُد أنها ستدخل الأكاديمية؛ وناديا؟ ناديا العزيزة، ستصبح قريبًا في سن الزواج...**

من جهة أخرى، وعلى القَدر نفسه من الأهمية، فإن الحساب الحريص للأيام يسمح للمعزولين بملاحظة أن عامًا آخر من الصعاب قد احتُمل، اجتيز، دُحِر. وسواءً وجدوا القوة على الصمود عبر عزم لا يلين أو تفاؤلٍ أحمق، فإن تلك الشقوق الـ365 تقف شاهدة على صلابتهم. ففي نهاية المطاف، إذا كانت اليقظة تُقاس بالدقائق والانضباطُ بالساعات، فلا بُد أن الصلابة تُقاس بالسنين. أو، إذا لم تكن مولعًا بالتأملات الفلسفية، دعنا نتفق ببساطة أن الرجل الحكيم يحتفل بما يستطيع.

وعليه، ارتدى الكونت أجمل بدلة سموكِن لديه (صُنعت له خصيصًا في باريس من المخمل الخمريّ) وتوجّه إلى أسفل.

عندما وصل الكونت إلى البهو، وقبل أن يستأنف طريقه إلى صالون الحلاقة، انجذبت أنظاره إلى قوامٍ ممشوقٍ يدخل من باب الفندق. والحق أن أنظار كل من في البهو انجذبت إليها. امرأة طويلة في منتصف العشرينيات ذات حاجبين مقوَّسين وشعر كستنائيّ، كانت مذهلة بلا جدال. كانت تمضي إلى مكتب الاستقبال بثقة منعشة، غافلة- في ما يبدو- عن الريش البارز من قبعتها كما عن الساعيَيْن اللذين يجرّان أمتعتها من خلفها. لكن ما كان يضمن مكانتها كمركز طبيعي للانتباه كان الكلبَيْن من نوع «بورزوي» اللذين تمسك بزماميهما.

في لحظة أدرك الكونت أنهما حيوانان رائعان. لقد نشأ هذان الكلبان، بشعرهما الفضّي، وخاصرتيهما الضامرتين، وانتباههما المتوقّد، على

القيام بمطاردات في هواء أكتوبر البارد وفي أعقابهما فرقة صيد كاملة. وفي نهاية اليوم؟ كان جدير بهما أن يجلسا عند قدمي سيدهما أمام النار في بيت من بيوت العزبة- لا أن يزيِّنا يدَي امرأة ممشوقة في بهو فندق كبير...

بدا أن هذا الظلم لم يَخْفَ على الكلبين. فبينما كانت سيدتهما تتحدّث إلى أركادي على مكتب الاستقبال، ظلّا يشدّان في كل اتجاه، ويتشمّمان بحثًا عن علامات مألوفة.

«كفًّا عن ذلك!»، أمرتهما الممشوقة بصوت خرج أجشّ على نحو مفاجئ. ثم نَتَرتْ يدها بطريقة كَشفَت أن علاقتها بالكلبين الذئبيَّيْن في رَسنيها ليست أقوى من علاقتها بالطيور التي زَيَّنت قبعتَها بريشِها.

قابل الكونت الموقف بهزّة الرأس التي يستحقها. لكن وهو يستدير ليمضي في طريقه، لاحظ ببعض التسلِّي ذلك الظل النحيل الذي قفز فجأة من خلف كرسي مجنَّح الظهر إلى حافة أصِيص من أُصص النخيل. لم يكن غير الفيلد مارشال كوتوزوف(*) يحتل أرضًا أعلى تسمح له برصد أعدائه. عندما أدار الكلبان رأسيهما في لحظة واحدة وقد انتصبت آذانهما، انسلَّ القط الأعور وراء جذع النخلة. ثم بعد أن ارتاح إلى كَوْن الكلبين مربوطين بإحكام، قفز من الأصيص وحطَّ على الأرض، ودون أن يتكبّد حتى عناء تقويس ظهره فَتَح مخالبه الصغيرة وأطلق هسيسًا.

بوابل رهيب من النباح، وثَبَ الكلبان بطول رسنيهما، جاذبيْن سيدتِهما من مكتب الاستقبال، بينما سقط قلم دفتر الحسابات بجلجلة على الأرض.

صرخَتْ: «واه، واه!».

وإذ بدا واضحًا أن الكلبيْن الذئبيَّيْن لم يتعرفا على تلك الصيحة الآمرة

(*) كوتوزوف: أحد أشهر القواد العسكريين في روسيا القيصرية. (المترجم)

التي تخصُّ الخيول، قفزا ثانية، وحرّرا نفسيهما من قبضة الممشوقة، وانطلقا متهافتيْن باتجاه فريستهما.

انطلق كوتوزوف مثل طلقة. منسلًّا من أسفل ساتر الكراسي الغربي، اندفع القط الأعور باتجاه الباب الأمامي، وكأنه يعتزم الخروج إلى الشارع. دون لحظة تردد، اندفع الكلبان في مطاردته. وعند أصص النخيل، افترقا، بعد أن اختارا حركة الكمَّاشة، وركضا في أعقاب القط من جانبي الكراسي على أمل قطع طريقه عند الباب. أُسقِطت أباجورة كانت تسد طريق الكلب الأول على الأرض وسط رَشَاش من الشرر، بينما قُلبت مطفأة سجائر قائمة كانت تسدّ طريق الثاني رأسًا على عقب، مُطلقةً سحابة من الغبار.

لكن لحظة كان الكلبان يوحِّدان الصفوف من جديد، قام كوتوزوف- الذي كان، مثل سَمِيِّه، على دراية بتضاريس أرض المعركة- بتغيير مساره فجأة. فبعد أن مرقَ من أمام طاولة قهوة، اندفع تحت ساتر الكراسي الشرقيّ، وقَفل عائدًا باتجاه السلم.

لم يستغرق الأمر سوى بضع ثوان قبل أن يستوعب كلبا الـ«بورزوي» تَكتيك القط؛ لكن إذا كانت اليقظة تُقاس بالدقائق، والانضباط بالساعات، والمتانة بالسنين، فإحراز اليد العلي في ميدان المعركة يُقاس باللحظة. فلحظة انتبهَ الكلبان الذئبيَّان إلى أن القط غيَّر اتجاهه وحاولا الاستدارة، وصلت سجادة البهو الشرقية الفسيحة إلى نهايتها، ووجد الكلبان نفسيهما ينزلقان بقوة الدفع على الأرضية الرخامية ويصطدمان بأمتعة النزلاء الوافدين.

وإذ أدرك كوتوزوف تقدُّمه عن خصميه بثلاثين مترًا، قفز صاعدًا أول بضع درجات من السلم، وتوقَّف لبرهة ليبدي إعجابه بصنيعته، ثم اختفى حول المنعطف.

قد تَتَّهم الكلاب بالفظاظة في الأكل أو إبداء حماسة في غير محلها

عندما تُلقى لها العصا، لكن ليس لك أبدًا أن تتهمها بفقدان الأمل. فرغم التقدّم الحاسم للقط ومعرفته لكل زاوية وشقّ في طوابق الفندق العلوية، فور أن استعاد الكلبان توازنهما، اندفعا عبر البهو في جوقة هائلة، عازمَين عزمًا لا يلين على صعود السلم.

لكن فندق المتروبول لم يكن ميدان صيد. بل كان مَقام سَكنٍ بامتياز، واحةً للمتعَبين المهدُودين. لذا، لوى الكونت لسانه وأطلق صافرة تصاعدية من مقام صول الكبير. ولدى سماع الصوت، قطع الكلبان مطاردتهما وشرعا يدوران بقلق عند أسفل السلم. أطلق الكونت صافرتين أخريَيْن في تتابع سريع، فهرول الكلبان، وقد استسلما لحقيقة انتهاء اليوم، باتجاه الكونت وانكفآ عند قدميه.

«أحسنتم يا أولاد»، قالها الكونت وهو يحكّ فراءهما بقوة خلف الأذن، «من أين هَلَلْتُما؟».

أجاب الكلبان: «آرف».

قال الكونت: «آه. جميل، جميل».

بعد أن سَوَّت الممشوقة تنّورتها وفردت شعرها، اجتازت البهو برشاقة متوجهة إلى الكونت، حيث، بفضل حذائها الفرنسي عالي الكعب، نظرَت في عينيه مباشرة. عند هذه الدرجة من القُرب أدرك الكونت أنها أجمل حتى مما ظنّها؛ وأكثر تعاليًا أيضًا. وظلّ تعاطفه الطبيعي يميل إلى الكلبين.

قالت (بابتسامة افترضَتها كفيلة بتحريك الأساطيل الحربية): «شكرًا لك. يؤسفني أنهما سيئا الأصل».

أجابها الكونت: «على العكس، يبدو أنهما من سلالة ممتازة».

تكلَّفت الممشوقة ابتسامة أخرى.

«قصدت أن أقول إنهما سيئا السلوك».

«نعم، ربما سيئا السلوك؛ لكنها مسألة تربية، لا أصل».

فيما كانت الممشوقة تتفحص الكونت، لاحظ أن قوسي حاجبيها يشبهان تمامًا علامة «الماركاتو» في النوتة الموسيقية- تلك الشَدَّة التي تأمر المرء أن يعزف المقطع أعلى قليلًا. لا بُد أن هذا هو المسؤول عن نزوع الممشوقة إلى إصدار الأوامر، وبالتالي عن خشونة صوتها. لكن بينما كان الكونت يصل إلى ذلك الاستنتاج، بدا واضحًا أن الممشوقة تصل إلى استنتاجها الخاص، إذ كانت الآن قد تخلَّت عن كل رغبة في الإغواء.

قالت بنبرة لاذعة: «يبدو أن التربية لها قوة يحتجب أمامها الأصل. ولهذا السبب تحديدًا أعتقد أن حتى أفضل الكلاب أصلًا تستحق أقصر المقاود».

ردَّ الكونت: «استنتاج مفهوم. لكن في رأيي أن أفضل الكلاب أصلًا تستحق أكثر الأيادي ثقة».

★ ★ ★

بعدها بساعة، وبعد أن شذَّب الكونت شعره فهندَمَه وحلقَ ذقنه فنعَّمها، دخل إلى الشاليابين واختار طاولة صغيرة في الزاوية لينتظر عليها ميشكا، الذي كان في البلدة لحضور الـ«ر. ك. ب. ر».

لم يدرك إلا بعد أن استقرّ في جلسته أن الجميلة الممشوقة، الآن في فستان أزرق طويل، تجلس على المقعد المستطيل المواجه مباشرة لكرسيه. كانت قد أعفَت البار من منظرها وهي تحاول السيطرة على كلبيها، لكن بدلًا منهما أحضرت رجلًا مُدوَّر الوجه حاسرَ الشعر بدا، بطبيعته، متمتعًا بإخلاص الجِراء. وبينما كان الكونت يبتسم لتلك الملاحظة، تصادف أن التقت عيناه بعينَي الممشوقة. وكما اقتضى الحال، فقد تصرّف الشخصان الناضجان على الفور وكأن أحدهما لم يرَ الآخر، الأولى بأن استدارت إلى جرْوِها والثاني بأن استدار إلى الباب.

ومن محاسن الصدف، كان ميشكا هناك في الوقت المناسب- لكن بسترة جديدة تمامًا ولحية حسنة الهندام...

خرج الكونت من وراء الطاولة ليعانق صديقه. ثم، بدلًا من العودة إلى جلسته، قدَّم المقعد المستطيل لميشكا- وهو فِعلٌ بدا كيِّسًا وانتهازيًّا في آن، إذ سمح للكونت أن يدير ظهره للممشوقة.

قال الكونت وهو يُصفِّق يديه معًا: «الآن، ماذا نطلب يا صديقي؟ شامبانيا؟ شاتو ديكِم؟ صحن كافيار بِيلوغا قبل العشاء؟». لكنّ ميشكا هزَّ رأسه وطلب بيرة شارحًا أنه لا يستطيع البقاء حتى العشاء على أي حال.

بطبيعة الحال، شعر الكونت بالإحباط لذلك الخبر. كان قد استقصى خِفيةً وعرف أن طبق البويارسكي المميز في تلك الأمسية هو البط المحمَّر- الطبق المثالي ليشترك فيه صديقان قديمان. وكان أندري قد وعده بأن يُجنِّب لهما زجاجة خصوصيّة من نبيذ غراند كرو الذي لم يكن سيُكمِّل البط فقط، وإنما سيؤدي حتمًا إلى تذكُّر حوادث تلك الليلة المشينة التي وجد الكونت فيها نفسه حبيسًا في قبو نبيذ آل روتشايلد رفقة البارونة الصغيرة...

لكن في حين شعر الكونت بالإحباط، ظهرَ مِن تململ صديقه القديم أن لديه قصصه الخاصة. لذا، فور أن وُضعت زجاجتا البيرة أمامهما، سأل الكونت عن آخر تطورات الـمُلتقى. تناول ميشكا رشفة، وأومأ برأسه وكأنما ليقول إن هذا هو موضوع الساعة- الحديث الذي سرعان ما سيستحوذ على عموم روسيا، إن لم يكن على العالم بأسره.

«لم تكن هناك همسات اليوم يا ساشا. لا إغفاءات ولا عبثٌ بالأقلام. ففي كل زاوية ومن كل يد كان ثمة عمل يُنجَز».

إذا كان تقديم المقعد المستطيل لميشكا كياسةً وانتهازيةً في آن، فقد كانت له قيمة مضافة وهي إبقاؤه في مقعده. فلو لم يكن محتجَزًا وراء طاولة، لكان قفز على قدميه وأخذ يذرع البار. وما هو العمل الذي كان

يُنجَز في ذلك الملتقى؟ بحسب ما فهم الكونت، كان يتضمن صياغة «إعلانات النوايا»، و«تعهدات الولاء»، و«خطابات التضامن المفتوحة». بالفعل، لم تتردد «رابطة كتّاب البروليتاريا الروس» في الإعراب عن تضامنها. والحقيقة أنها أعربت عن تضامنها ليس فقط مع الزملاء من الكتّاب، والناشرين، والمحررين، لكن أيضًا مع البنّائين وعمال الشحن والتفريغ، صنائعيّة اللحام والبرشام، وحتى كنّاسي الشوارع(*).

كان اليوم الأول للملتقى محمومًا حتى إن العشاء لم يُقدَّم إلا الساعة الحادية عشرة. ثم، وهُم على طاولة تتسع لستين فردًا، سمعوا من ماياكوفسكي نفسه. لم تكن هناك منصَّات، لعِلمك. عندما قُدِّمت الأطباق، طرقَ على الطاولة ببساطة ووقفَ فوق كرسيه.

حرصًا على الواقعية، حاول ميشكا أن يقف على المقعد المستطيل، وكاد أن يُسقط بيرَته. ثم اكتفى بإلقاء خطبته جلوسًا:

فجأة- أشرقتُ
بكامل عنفواني
فأقبل الصبحُ
إشراقٌ دائمٌ،
إشراقٌ على كل مكانٍ،

(*) - وكنَاسو الشوارع **على وجه الخصوص!**
تلك القلة المغمورة التي تستيقظ فجرًا وتدهَك الشوارع الفارغة جامعة نفايات العصر. ليس فقط عُلب الثقاب، وأغلفة الحلوى، وكعوب التذاكر، انتبه؛ لكن الصحف والدوريّات والمنشورات؛ كُتيّبات التعاليم والتراتيل المسيحية، التواريخ والذكريات؛ العقود، والصكوك، والحُجَج؛ المعاهدات والدساتير وكل «الوصايا العشر».
اكنسوا، يا كنَاسي الشوارع! اكنسوا حتى تلمع أحجار شوارع روسيا مثل الذهب.

حتى آخر الزمان،
إشراقٌ-
وليذهب كلُّ شيءٍ آخر إلى الجحيم!
هذا هو شعاري-
وشعار الشّمس!

بطبيعة الحال، جَلَبَت قصيدة ماياكوفسكي تصفيقًا بلا كابح وتهشيمًا للكؤوس. لكن بعدها، فور أن عاد الجميع إلى الجلوس واستعدوا لتقطيع دجاجهم، وقف شخص يُدعى زيلنسكي على كرسيه.

غمغم ميشكا: «إذ كان لزامًا علينا، بالطبع، أن نسمع زيلنسكي. وكأنه يقف كتفًا إلى كتف مع ماياكوفسكي. وكأنه يقف كتفًا إلى كتف مع زجاجة حليب».

تناول ميشكا رشفة أخرى.

«تتذكّر زيلنسكي. لا؟ ذلك الذي كان متأخرًا عنا ببضع سنوات في الجامعة؟ الذي كان يرتدي مونوكِل سنة 16 وطاقية بحّار السنة التالية؟ طيّب، على أي حال، أنت تعرف هذا النوع يا ساشا- النوع الذي يجب أن يضع يديه على عجلة القيادة طوال الوقت. في نهاية العشاء، لنقُل أن اثنين منكم يتلكآن في مقعديهما لاستكمال مناقشة بدأت في وقت سابق من اليوم- طيّب، هناك ستجد زيلنسكي يُعلن أنه يعرف المكان المناسب لمواصلة الحديث. وفجأة تجد نفسك وسط عشرة أشخاص متزاحمين حول طاولة في مقهى تحت الأرض. عندما تتجه إلى أحد المقاعد، تجد يده على كتفك، يوجّهك إلى هذا الطرف أو ذاك من الطاولة. وعندما يطلب أحدهم بعض الخبز، تجد لديه فكرة أفضل. يقول لك إن لديهم أفضل ‹زافيتوشكي› في موسكو. وقبل أن تنتبه، تراه يطرقع بإصبعيه في الهواء».

هنا، طرقع ميشكا بإصبعيه ثلاث مرات من باب التوكيد حتى إن

الكونت اضطر إلى صَرف أودريوس المتيقّظ دائمًا، الذي كان في طريقه إليهما بالفعل.

استأنف ميشكا في ازدراء: «وأفكاره! يظل يُعلِن ويُصرِّح، وكأنه في وضع يسمح له بتنوير أي شخص حول قضايا الشعر. وماذا يقول للطالبة الشابة المرهفة الجالسة بجانبه؟ إن كل الشعراء ينحنون في نهاية المطاف أمام الهايكو. **ينحنون أمام الهايكو!** هل تتخيل؟».

أدلى الكونت بدلوه: «من ناحيتي، أنا سعيد لأن هوميروس لم يولَد في اليابان».

حدّق ميشكا في الكونت للحظة ثم انفجر ضاحكًا.

قال، وهو يضرب الطاولة ويمسح دمعة عن عينه: «نعم. سعيد أن هوميروس لم يولد في اليابان. يجب أن أتذكر أن أقول ذلك لكاترينا».

ابتسم ميشكا وقد لاح عليه أنه يتوقّع أثر ذلك على كاترينا.

سأل الكونت: «كاترينا...؟».

تناول ميشكا كوب البيرة بشكل عارض.

«كاترينا ليتفينوف. ألم أذكرها من قبل؟ إنها شاعرة شابة موهوبة من كييف- في سنتها الثانية في الجامعة. نحن عضوان في اللجنة نفسها».

رجع ميشكا بظهره إلى الخلف ليشرب من كوبه. ورجع الكونت بظهره لكي يبتسم لصاحبه- وقد اتضحت الصورة الكاملة أخيرًا.

سترة جديدة ولحية مهندَمة.

مناقشة بعد العشاء بدأت في وقت سابق من اليوم.

وزيلنسكي الذي، وقد نجح في جرّ الجميع إلى ناديه الليلي المفضل، يوجِّه شاعرة شابة مرهَفة إلى طرف الطاولة وميشكا إلى الطرف الآخر...

في حين تابع ميشكا وصفَه للأمسية السابقة، لم يَفُت الكونت ما في الموقف من مفارقة: إنه خلال كل تلك الأعوام التي عاشا فيها معًا فوق دكانة الإسكافي، كان ميشكا هو الذي لا يبرح مكانه بينما الكونت، الذي يعتذر عن عدم تناول العشاء مع صديقه، هو الذي يرجع بعدها بساعات

محمَّلًا بحكايات عن الأنخاب الحماسيّة، والدردشات، والخروجات العفويّة إلى المقاهي المضاءة بالشموع.

هل وجد الكونت بعض المتعة في الاستماع إلى مناوشات ميشكا في آخر الليل؟ بالطبع. خاصة عندما عرف أنه في نهاية الأمسية، وعندما كانت المجموعة على وشك استقلال ثلاث عربات أجرة مختلفة، ذكَّر ميشكا زيلنسكي بأنه نسي قبعته؛ وعندما هرع زيلنسكي عائدًا إلى الداخل لاسترجاعها، أخرجَت «كاترينا من كييف» رأسها من عربتها لتناديه: **اسمع يا ميخائيل فيودوروفيتش، لماذا لا تركب معنا...**

نعم، وجد الكونت متعة في المناوشات الغرامية لصديقه القديم؛ لكن ذلك لا يعني أنه لم يشعر بوخزة من حسد.

بعدها بنصف ساعة، بعد أن ترك الكونت ميشكا يغادر لحضور نقاش حول مستقبل الأوزان الشعرية (يُفترض أن تحضره «كاترينا من كييف»)، اتجه إلى البويارسكي، وقد قُدِّرَ له في ما يبدو أن يتناول البط بمفرده. لكن ريثما كان يغادر، أومأ له أودريوس.

ناوله ورقة مطوية من فوق البار، وشرح له همسًا: «طُلب مني أن أسلمك هذه».

«لي أنا؟ مِن مَن؟».

«الآنسة أوربانوفا».

«الآنسة أوربانوفا؟».

«آنا أوربانوفا. النجمة السينمائية».

ولما لم يُظهر الكونت دلالة على الفهم، شرح له الساقي بصوت أعلى قليلًا: «تلك التي كانت جالسة إلى الطاولة المواجهة لك».

«آه، نعم. شكرًا لك».

وإذ عاد أودريوس إلى عمله، فتح الكونت الورقة، التي كانت تحمل الطلب التالي بخطٍّ ممشوق:

من فضلك امنحني فرصة ثانية
لانطباع أول
في الجناح 208

★ ★ ★

عندما طرق الكونت باب الجناح 208، فتحته امرأة أكبر سنًا نظرت له بصبر نافد.

«نعم؟».

«أنا ألكسندر روستوف...».

«الآنسة أوربانوفا في انتظارك. تفضل. لحظة واحدة».

غريزيًّا، أعدّ الكونت نفسه لمبادرة المرأة بملاحظة ذكية حول الطقس، لكن عندما خطا إلى الداخل خَطَت هي خارجةً وأغلقت الباب وراءها، تاركة إيّاه في المدخل.

بأثاثه المجهَّز على طراز قصرٍ فينيسيّ، كان الجناح 208 أحد أرقى المقامات في طابقه، وبدا أن حالته لم تتدهور كثيرًا الآن بعد أن غادره أخيرًا كَتَبَة التوجيهات الذين لا يكلّون وانتقلوا إلى الكرملين. كان مكونًا من غرفة نوم وغرفة معيشة على جانبي صالة كبيرة، وسقفه مزيَّن بمخلوقات خياليَّة تحدِّق من السماوات. وعلى طاولة جانبية مزخرَفة تنتصب حزمتان سامقتان من الزهور- إحداهما من زنابق الكالا والأخرى من ورود طويلة السيقان. كان التشابه بين الحزمتين في الإسراف والتنافر بينهما في الألوان يوحي بأنهما من معجَبيْن متنافسيْن. ولا يسع المرء إلا أن يتخيل ما الذي يجب على معجَب ثالث أن يرسله إذا...

«سأخرج حالًا»، صاح صوت من غرفة النوم.

وصاح الكونت مجيبًا: «خذي وقتك».

صاحبت صوته نقراتُ أصابع خفيفة على الأرضية، وظهر الكلبان البورزوي من غرفة المعيشة.

«أهلًا يا أولاد!»، قالها، وهو يحك فراءهما مرة أخرى خلف الأذن.

بعد أن قدّما له التحية، هرولا إلى النوافذ المطلّة على ميدان المسرح وأسندا مخالبهما الأمامية على أعتابها لكي يراقبا حركة السيارات بالأسفل.

«كونت روستوف!».

استدار الكونت ليجد الممثلة في ردائها الثالث لذلك اليوم: بنطال أسود وبلوزة عاجيّة. اقتربت منه بيد ممدودة وعلى وجهها ابتسامةُ معرِفة قديمة.

«سعيدة جدًا بحضورك».

«أنا أسعد يا آنسة أوربانوفا».

«أشك في هذا. لكن من فضلك، ناديني آنا».

قبل أن يردَّ الكونت، تناهت طرقة على الباب.

قالت: «آه. ها نحن».

فتحت الباب، وتنحّت جانبًا لتفسح الطريق لأوليغ من خدمة الغُرف. عندما وقعت عينا أوليغ على الكونت، كاد أن يَصدم عربة العشاء التي يدفعها بالمزهريتيْن المتنافستيْن.

قالت الممثلة: «ربما هناك بجوار النافذة».

«حاضر يا آنسة أوربانوفا»، قالها أوليغ، ثم، وقد استعاد رباطة جأشه، أعدَّ طاولة لاثنين، وأشعل شمعة، وتراجع خارجًا من الباب.

استدارت الممثلة إلى الكونت.

«هل تناولت طعامك؟ لقد ذهبتُ إلى مطعميْن وبارٍ اليوم ولم أتناول لقمة واحدة. أنا أتضوَّر جوعًا. ألن تشاركني؟».

«بكل تأكيد».

سحب الكونت كرسيًّا لمضيفته ثم، بينما كان يتخذ مقعده على الجانب الآخر من الشمعة، أدار الكلبان الـ«بروزوي» رأسيهما عن النوافذ. الظاهر أن ذلك كان مشهدًا لم يتوقّعه أيٌّ من الكلبين في أول النهار. بَيْد أنهما كانا قد فقدا اهتمامهما منذ زمن طويل بالمسار المتقلِّب للعلاقات البشرية، فأنزلا قوائمهما على الأرض وهرولا عائدَيْن إلى غرفة المعيشة دون نظرة أخرى.

راقبتهما الممثلة وهما يتراجعان وقد بدا عليهما بعض الحزن.

«أعترف بأنني لست عاشقة للكلاب».

«لماذا تُربيهما إذًا؟».

«لقد كانا... هدية».

«آه. من مُعجَب».

ردّت بابتسامة ممتعضة: «كنت سأرضى بقلادة».

ردّ الكونت ابتسامتها.

قالت: «طيّب، دعنا نرى ماذا لدينا».

رفعت الممثلة القبَّة الفضية عن صينية التقديم، فظهر أحد أطباق إميل الخصوصية: سمكة قاروس كاملة محمَّرة مع الزيتون الأسود، والشَمَّر، والليمون.

قالت: «جميل».

واتفق معها الكونت تمامًا. إذ كان إميل يضبط حرارة فرنه على 230 درجة ليضمن أن يظلَّ لحم السمك رقيقًا، والشمَّر فوّاحًا، وشرائح الليمون مسوَّدة ومقرمشة.

«إذًا، مطعمان وبار دون تناول لقمة واحدة...».

هكذا بدأ الكونت، برغبة طبيعية أن يترك للممثلة سرد حوادث يومها بينما يجهِّز لها صحنها. لكن قبل أن يتمكن من رفع إصبع واحدة، كانت قد أمسكت بالسكين وشوكة التقديم. وشرعت تحكي له التزاماتها الاحترافية

التي استحوذت على فترة بعد الظهيرة، ثَلَمَت العمود الفقري للسمكة بطرف السكين وأحدثت قَطعيْن قُطريَّين عند رأسها وذيلها. ثم دسّت شوكة التقديم بين العمود الفقري للسمكة ولحمها محررةً- بأناقة- شريحة منزوعة العظام. في بضع حركات وجيزة، كانت قد قدَّمت أجزاءً من الشَمَر والزيتون، ورصَّت الليمون المتفحِّم فوق الشريحة. وبعد أن ناولَت الكونت هذا الصحن رائع التجهيز، نزعت العمود الفقري من السمكة وقدَّمَت لنفسها الشريحة الثانية مع مشتملاتها- وهي عملية لم تستغرق أكثر من دقيقة. ثم وضعت أدوات التقديم على الصينية، وحوَّلَت انتباهها إلى النبيذ.

يا الله، فكَّر الكونت. كان قد استغرق في مراقبة أسلوبها تمامًا حتى إنه تغافل عن مسؤولياته هو. قفز من كرسيه وتناول الزجاجة من رقبتها.

«اسمحي لي».

«شكرًا لك».

بينما كان الكونت يصبّ النبيذ، لاحَظَ أنه كان مونتراشيه جافًّا، التتمّة المثالية لقاروسة إميل، وصنيعة أندري بكل تأكيد. رفع الكونت كأسه لمضيفته.

«لا بُد أن أقول إنكِ نزعتِ عظام السمكة مثل خبيرة».

ضحكَت.

«هل هذا إطراء؟».

«بالطبع إطراء!. على الأقل قصدتُه هكذا...».

«في تلك الحالة أشكرك. لكنني لم أكن لألتفت كثيرًا لذلك. لقد نشأتُ في قرية صيادين على البحر الأسود، لذا فقد فككتُ عددًا لا يُحصى من العُقَد ونزعتُ العظام عن عدد لا يُحصى من الأسماك».

«هناك ما هو أسوأ من تناول السمك كل ليلة».

«صحيح. لكن عندما تعيش في منزل صياد، تجد نفسك تأكل ما لا يُباع. لذا ففي أغلب الأحيان كنا نأكل السمك المفلطح والدنيس».

«طرحُ البحر...».

«قاع البحر».

وبهذه الذكرى التي تُجرِّد المرء من كل أسلحته، كانت آنا أوربانوفا فجأة تصف كيف كانت كفتاةٍ تُغافِل أمها وتتسلل في الغسق وتتلوى في شوارع قريتها المنحدرة لكي تصل إلى والدها على الشاطئ وتساعده في ترميم شباكه. وبينما كانت تتكلم، سلَّم الكونت مجددًا بفضائل الإمساك عن إصدار الأحكام.

في نهاية المطاف، ماذا يمكن للانطباع الأوّل أن يقوله لنا عن شخص قابلناه للتوّ لدقيقة واحدة في بهو فندق؟ بل وماذا يمكن لانطباعٍ أوّل أن يقوله لنا عن أي شخص؟ بالطبع ليس أكثر مما يقوله لنا وترٌ عن بيتهوفن، أو ضربةُ فرشاة عن بوتشيللي. إن البشر بطبيعتهم متقلبون للغاية، معقدون للغاية، متناقضون على نحو مبهج للغاية، الأمر الذي يتطلب ليس فقط التدبُّر، ولكن **إعادة التدبُّر**- والإصرار العازم على تأجيل رأينا إلى أن نتداخل معهم في كل موقف ممكن في كل ساعة ممكنة.

خُذ مثلًا المسألة البسيطة المتعلّقة بصوت آنا أوربانوفا. في البهو، حيث كانت الممثلة تغالِب لكبح جماح كلبيها، أعطت خشونةُ صوتها انطباعًا عن شابة متغطرسة ميَّالة للصراخ. حسنًا جدًّا. لكن هنا في الجناح 208 في رفقة الليمون المتفحِّم، والنبيذ الفرنسي، وذكريات البحر، كشف صوتها عن امرأة نادرًا ما تسمح لها مهنتها بالاسترخاء، ناهيك عن الاستمتاع بوجبة لائقة.

فيما كان الكونت يعيد ملء الكأسين، استوقفته واحدة من ذكرياته بدت منسجمة مع الحوار.

قال: «لقد قضيتُ جزءًا لا بأس به من شبابي في مقاطعة نيجني نوفغارِد، التي تصادَف كونُها عاصمة العالم للتفاح. في نيجني نوفغارِد، لا تجدين أشجار التفاح متناثرة ببساطة في أرجاء الريف؛ بل تجدين غابات من أشجار التفاح- غابات برّية وقديمة كروسيا نفسها- ينمو فيها

التفاح على كل لون من ألوان الطيف وفي أحجام تتراوح من حبة الجوز إلى قذيفة المدفع».

«لا بُد أنك أكلت عددًا لا يحصى من التفاحات».

«آه، كنا نجده محشورًا في الأومليت على الإفطار، طافيًا في الشوربة على الغداء، وفي حشوة الدرَّاج على العشاء. وعندما يأتي الكريسماس، نأكل كل صنف ونوع تطرحه الأشجار».

كان الكونت على وشك رفع كأسه في نخب شمولية أكل التفاح، عندما رفع إصبعًا ليصحح نفسَه:

«الحقيقة كانت هناك تفاحة واحدة لم نأكلها...».

رفعت الممثلة أحد حاجبيها الفاتنيْن.

«أي واحدة؟».

«وفقًا للحكايات المأثورة، ثمة شجرة تفاح سوداء مثل الفحم، مخفيّة في أعماق الغابة- إن عثرتِ على تلك الشجرة وأكلتِ من تفاحها، يمكنكِ بدء حياتِك من جديد».

تناول الكونت جرعة كبيرة من المونتراشيه، سعيدًا بأنه قد استدعى تلك الحكاية الفولكلورية الصغيرة من الماضي.

سألته الممثلة: «إذًا، أكنتَ لتفعلها؟».

«أفعل ماذا؟».

«لو وجدتَ التفاحة المخفية في الغابة، أكنتَ لتقضم منها؟».

وضع الكونت كأسه على الطاولة وهزّ رأسه.

«لا شك أن هناك قدرًا من الغواية في فكرة البدء من جديد؛ لكن كيف أتخلى عن ذكرياتي عن الديار، عن أختي، عن سنوات دراستي؟». أشار الكونت إلى الطاولة. «كيف أتخلى عن ذكرياتي عن هذا؟».

وضعت آنا أوربانوفا فوطتها على صحنها وأرجعت كرسيها على الوراء، ثم دارت حول الطاولة، وأمسكت بتلابيب الكونت، وطبعَت قبلة على فمه.

منذ قرأ الكونت رسالة الآنسة أوربانوفا في بار الشاليابين، شعر بأنه متأخر عنها بخطوة. الاستقبال التلقائي في جناحها، العشاء لاثنين على ضوء الشموع، نزع العظام من السمكة وما أعقبه من ذكريات الطفولة- لم يكن قد توقّع شيئًا من تلك التطورات. وبالتأكيد أخذته القُبلة على حين غرّة. والآن، ها هي تدخل غرفة نومها على مهل، وهي تفك أزرار بلوزتها، وتتركها تنزلق على الأرض بوشيشٍ رقيق.

عندما كان شابًا، كان الكونت يتفاخر بأنه متقدِّم بخطوة عن الآخرين. الظهور في الوقت المناسب، التعبير الملائم، توقُّع رغبة الآخر، كانت هذه الأشياء بالنسبة للكونت من سمات حُسن التنشئة. لكن في ظرفه هذا، اكتشف أن التأخر بخطوة له مزاياه أيضًا.

إحدى تلك المزايا أنه يجعلك أكثر استرخاءً. أن تكون متقدمًا بخطوة في شؤون الغرام يتطلب يقظة دائمة. إذا أراد المرء أن يحرز تقدمًا ناجحًا، عليه أن ينتبه لكل لفظ، ويهتم بكل إيماءة، ويلحظ كل نظرة. بعبارة أخرى، أن تكون متقدمًا بخطوة في الغرام أمرٌ مرهق. لكن أن تكون متأخرًا بخطوة؟ أن تُغوَى؟ الأمر أشبه بأن يستريح المرء في كرسيه، ويرتشف نبيذه، ويجيب عن الاستفسارات بأول ما يخطر على رأسه.

ومع ذلك، للمفارقة، إذا كان التأخر بخطوة أكثر مدعاة للاسترخاء من التقدم بخطوة، فهو أيضًا أكثر إثارة. فمن وضعية المسترخي يتخيل المتأخر بخطوة أن أمسيته مع رفيقة جديدة ستنقضي كأي أمسية أخرى- كلمة من هنا، وكلمة من هناك، وأمنيات بليلة سعيدة عند الباب. لكن في منتصف العشاء يظهر إطراءٌ غير متوقَّع وتلمُّسٌ عفويّ بالأصابع ليد المرء؛ يظهر إقرارٌ رقيق وضحكةٌ تلقائية؛ ثم قُبلة مفاجئة.

من هنا لا تني المفاجآت تزداد قوةً ونطاقًا. كأن يكتشف المرء (مع سقوط البلوزة على الأرض) أن الظَهرَ مزخرفٌ بالنمَش مثلما السماوات بالنجوم. أو عندما (بعد الاندساس بحياءٍ تحت الأغطية) تُزاح الملاءات

جانبًا ويجد المرء نفسه على ظهره ويدان تضغطان على صدره وشفتان تُصدران تعليمات مُتقطّعة الأنفاس. لكن بينما تُولِّد كل من تلك المفاجآت حالة جديدة من الدهشة، فلا شيء يضاهي الرهبة التي تُخامر المرء عندما تنقلب امرأة على ظهرها في الواحدة صباحًا وتنطق بنبرة واضحة لا لبس فيها: «وأنت خارجٌ، تأكد من إسدال الستائر».

يكفي القول إنه فور أن جُمعت ملابس الكونت، أُسدلت الستائر على النحو الواجب. علاوة على ذلك، قبل أن يسير على أطراف أصابعه باتجاه الباب وقد ارتدى نصف ملابسه، أخذ لحظة للتأكد من أن بلوزة الممثلة العاجية قد التُقطت من على الأرض وعُلِّقت على شماعتها. ففي نهاية المطاف، كان الكونت نفسه قد أبدى تلك الملاحظة من ساعات قليلة: أفضل الكلاب أصلًا تستحق أكثر الأيادي ثقةً.

★ ★ ★

صوت تَكّة إغلاق الباب من خلفك...

لم يكن الكونت متأكدًا أنه سمع ذلك الصوت من قبل بالضبط. كان رقيقَ الجَرْسِ خافِته؛ مع ذلك، كان به إيحاءٌ حاسم بالطرد- وهو الأمر الجدير بوضع المرء في حالة عقلية فلسفية.

حتى إذا كان المرء يستهجن السلوك الوقح والفظّ عمومًا، فحين يكون في هذا الموقف قد يُضطر إلى الاعتراف بنوع من العدالة الخشنة عندما يجد نفسه في رواقٍ خالٍ وحذاؤه في يده وقميصه خارج بنطاله- فيما تنام المرأة التي غادرها لتوّه قريرة العين. لأنه إذا كان حُسن حظ المرء جعله يُنتزع من وسط الزحام بأمر من جمالٍ طائش، أفلا يجب عليه توقُّع أن يُصرَف إلى حال سبيله دون حفاوة؟

طيّب، ربما كان الحال كذلك. لكن الكونت، وهو واقف في الدهليز

الخالي وأمامه سلطانيّة نصف مأكولة من حساء البورش، لم يشعر بنفسه فيلسوفًا قدرَ ما شعر بنفسه شبحًا.

أجل، شبحٌ، فكّر الكونت، وهو يتحرك بصمت في الردهة. مثل والد هاملت وهو يجوس في متاريس قلعة إلسينور بعد نوبة الحراسة الليلة... أو مثل أكاكي أكاكيفيتش، روح غوغول المنبوذة تلك، التي كانت ترتاد جسر كالينكين في ساعات السَحَر بحثًا عن معطف مسروق...

ما الذي يجعل الكثير من الأشباح يُفضّلون الارتحال في أروقة الليل؟ اسأل الأحياء يجيبونك أن تلك الأرواح لديها رغبة لم تُلبَّ أو مَظلَمة لم تُردّ تقضّ مضاجعهم وتجعلهم يخرجون إلى العالم بحثًا عن سلوان.

لكن الأحياء متمحورون حول ذواتهم أكثر من اللازم.

بالطبع سيفترضون أن تجوال الأرواح الليلي إنما هو نتاج لذكريات أرضيّة. لكن، في واقع الأمر، لو أرادت تلك الأرواح القلقة أن تدهكَ شوارع النهار الصاخبة، لما منعها عن ذلك شيء.

لا. إذا كانت تجوس في أروقة الليل، فذلك ليس عن مظلمةٍ لدى الأحياء أو غِلٍّ تجاههم. بل لأنها لا ترغب في رؤية الأحياء مطلقًا. مثلما لا ترغب الحيَّات في رؤية البستانيَّة، ولا الثعالب في رؤية كلاب الصيد. إنها تجوس في منتصف الليل لأنها تستطيع عمومًا في تلك الساعة أن تفعل ذلك دون أن يعكِّر صفوها صوت المشاعر الدنيوية واهتياجها. فبعد كل تلك السنين من المكابدة والمصارعة، من الأمل والدعاء، من حَمل التوقعات على الأكتاف، وحَبس الآراء في الصدور، من الالتزام باللياقة واصطناع المحادثات، ما يبحثون عنه حقًا، ببساطة، هو قَدْرٌ من السلام والهدوء. على الأقل، هذا ما قاله الكونت لنفسه وهو يسير في الردهة على غير هدًى.

مع أن الكونت، كقاعدةٍ، كان يأخذ السلَّم، فعندما وصل إلى بسطَة الطابق الثاني تلك الليلة، واستجابة لنزوةٍ شبحيّة ما، استدعى المصعد،

مفترضًا أنه سيكون له وحده. لكن عندما انفتح الباب، كان هناك القط الأعور.

ناداه في دهشة: «كوتوزوف!».

تفحّص القط كل تفصيلة في مظهر الكونت، ثم ردّ تمامًا مثلما كان الدوق الأكبر يردّ في الظروف المشابهة قبل أعوام طويلة- أيْ، بنظرة قاسية وصمت محبَط.

«إحم»، قالها الكونت، ودخل المصعد وهو يحاول أن يدسّ قميصه في بنطاله دون أن يُسقط حذاءه.

عندما فارق الكونت القطَّ في الطابق الخامس، صعد سلم البُرج متثاقلًا في إقرار كئيب أن الاحتفال بذكراه السنوية تحوَّل إلى خيبةٍ كبيرة. فبعدما قرر أن يتجاسر ويترك علامته على الحائط، ترك الحائط علامته عليه. وكما علَّمَت الخبرةُ الكونت قبل أعوام طويلة، عندما يقع أمرٌ كهذا، فالأفضل أن يغسل المرء وجهه، ويُفرِّش أسنانه، ويَسحب أغطيته فوق رأسه.

لكن عندما كان الكونت يستعد لفتح باب غرفته، شعر بنفحة هواء في مؤخرة رقبته ذكَّرته بنسيم الصيف. استدار الكونت يسارًا وتجمَّد بلا حراك. كانت هناك مجددًا، قادمةً من الطرف الآخر من الطابق.

ثار فضول الكونت فمضى في الردهة ليكتشف أن كل الأبواب مغلقة بإحكام. في طرف الرواق، لم يبدُ أن هناك شيئًا سوى معمعة من المواسير وأنابيب المداخن. لكن في الطرف الأبعد، في ظلال الماسورة الكبرى، اكتشفَ سُلمًا مثبتًا على الجدار يقود إلى كوة في السقف- تركها أحدهم مفتوحة. انتعل الكونت حذاءه وتسلق السلم بهدوء وخرج إلى الليل.

نسيم الصيف الذي نادى الكونت صار الآن يحتويه بين أحضانه. نسيمٌ دافئ ومتسامح، استدعى مشاعر ليالي الصيف في وقت سابق

من حياته- عندما كان في الخامسة، والعاشرة، والعشرين من عمره في شوارع سان بطرسبرغ أو في مراعي «أيدل آور». اجتاحته فورةُ المشاعر القديمة، حتى إنه اضطر للتوقّف لحظة قبل أن يستأنف السير إلى الطرف الغربي للسطح.

في الأسفل، كانت تقبع مدينة موسكو القديمة التي عادت مجددًا إلى عرش حُكم روسيا، بعد أن انتظرَت بصبر لمئتي عام. رغم تأخر الوقت، كان الكرملين يتلألأ بالأضواء الكهربيّة من كل ألوان الطيف، وكأن قاطنيه المحدَثين لا يزالون مخمورين بالسلطة إلى درجة تحرمهم النوم. لكن إذا كانت أضواء الكرملين تتلألأ ساطعة، فمثل كل الأضواء الأرضية من قبلها، تضاءَل جمالُها أمام جلال الكوكبات السماوية بالأعلى.

اشرأبّ الكونت بعنقه، محاولًا تبيُّن الكوكبات القليلة التي تعلَّمها في طفولته: حامل رأس الغول، الجبَّار، الدب الأكبر، كلها واضحة جليّة، وأبديّة. تساءل، لأي سبب خلق الرب النجومَ في السماء لتفيض على الإنسان بمشاعر الإلهام يومًا ثم تُشعره بتفاهته في اليوم التالي؟

أنزل الكونت بصره إلى الأفق، وراح يتطلع إلى ما وراء حدود المدينة- إلى حيث كانت نجمة الصباح، سلوى البحّارة منذ غابر الزمان، تتوهج بسطوع في القبة السماوية.

ثم طَرَفَتْ.

«صباح الخير يا صاحب السعادة».

استدار الكونت.

على بعد بضعة أمتار، كان يقف رجل في أوائل الستينيات يعتمر طاقية قماشية. عندما تقدم الرجل خطوة إلى الأمام، تعرّف فيه الكونت على أحد الحرفيين الذين يكافحون رشح المواسير وصرير الأبواب في الفندق.

قال: «هذا هو الشوخوف».

«الشوخوف؟».

«برج الإذاعة».

أشار في البعيد باتجاه سلوى البحّارة.

فكّر الكونت بابتسامة: أي نعم! بناية الصُلب اللولبية التي تحدَّث عنها ميشكا، التي تبث آخر الأخبار والمعلومات...

وقف الرجلان صامتَيْن لبرهة، وكأنهما ينتظران أن تطرفَ المنارة ثانية- وهو ما فعلَتْه كما هو منتظَر منها.

«طيّب. القهوة على النار. تستطيع أن تنضم إليّ».

قاد الحِرفيّ المسنّ الكونت إلى الركن الشمالي الشرقي من السطح، حيث كان قد أقام ما يشبه المخيَّم بين مدخنتين. علاوة على مقعد صغير بثلاث قوائم، كانت هناك نارٌ صغيرة تستعر في كانون فوقه إبريق قهوة ينبعث منه البخار. كان الشيخ قد اختار الموقع بعناية، إذ كان بعيدًا عن الريح لكنه، في الوقت نفسه، لا يزال يتمتع بإطلالة على البولشوي الذي لا تعوق رؤيته إلا بضعة صناديق قديمة مكدّسة عند حافة السطح.

قال الحِرفيّ: «لا يأتيني الكثير من الزوار، لذا ليس لدي كرسي ثانٍ».

«لا بأس»، قالها الكونت وهو يتناول قطعة خشب عرضها نصف متر، ووضعها على جنبها، ثم وازن نفسه على حافتها.

«هل أصب لك فنجانًا؟».

«أشكرك».

عندما كانت القهوة تُصبّ، تساءل الكونت إن كان يوم الشيخ في بدايته أم في نهايته. في أي من الحالتين، قدَّرَ أن فنجانًا من القهوة سيكون في أوانه. فما الذي يضاهي القهوة في تعدد مواهبها. القهوة هي القهوة، سواء شُربت في علبة من صفيح أو فنجان من خزف الليموج، تمنح الطاقة للعامل المُكدّ في الفجر، تهدِّئ المتأمِّل في الظهيرة، وترفع معنويات المهموم في منتصف الليل.

قال الكونت: «مضبوطة جدًّا».

مال الشيخ إلى الأمام.

«السر في الطحن». أشار إلى أداة خشبية صغيرة ذات ذراع تدوير حديدية. «قبل التخمير بدقيقة واحدة على الأكثر».

رفع الكونت حاجبيه تقديرًا لحقيقة لا يعرفها.

نعم، في الهواء الطلق، في ليلة صيفية، كانت قهوة مضبوطة تمامًا. في الحقيقة، الشيء الوحيد الذي أفسد اللحظة هو ذلك الأزيز في الهواء- أزيز يشبه ذلك الذي ينبعث من «فِيوز» معطوب أو مذياع يستقبل موجات الراديو.

سأل الكونت: «أهو البُرج؟».

«ماذا عن البُرج؟».

«الأزيز».

تطلّع الشيخ إلى أعلى للحظة ثم قهقه ضاحكًا.

«إنهم الأولاد يعملون».

«الأولاد».

أشار الشيخ بإبهامه إلى الصناديق التي تعوق إطلالته إلى البولشوي. في ضوء ما قبل الفجر، استطاع الكونت رؤية زوبعة من الحركة النشطة فوقهما.

«هل هذا... نحْل؟».

«هو كذلك».

«ماذا يفعل هنا؟».

«يصنع العسل».

«عسل!».

قهقه الشيخ ثانية.

«صناعة العسل هو ما يفعله النحل. هاكَ».

مال الشيخ إلى الأمام ورفع بلاطة من بلاطات السقف عليها شريحتان من الخبز الأسود مدهونتان بالعسل. أخذ الكونت واحدة وتناول قضمة.

أول ما باغَته كان، في الحقيقة، الخبز الأسود. إذ متى كانت آخر مرة تناوله فيها؟ لو سُئل مباشرة، لخجل من الاعتراف. وحين تذوَّق الجاودار الداكن ودِبس السكّر الأكثر دُكنة، وجد في ذلك التتمّة المثالية لفنجان قهوة. والعسل؟ يا له من تناقض غير عادي ذلك الذي قدَّمه. فإذا كان الخبز تُرابيًّا، بنيًّا، وجهِمًا بعض الشيء، فقد كان العسل مُشمِسًا، ذهبيًّا، وبشوشًا. لكن كان هناك بُعدٌ آخر في الموضوع... عُنصرٌ مراوِغ، لكنه مألوف... نغمةٌ رقيقة مخبأة تحت، أو وراء، أو داخل الإحساس بالحلاوة.

سأل الكونت، وكأنما يسأل نفسه: «ما هذه النكهة...؟».

قال الشيخ: «الليْلك». ودون أن يستدير، أشار بإبهامه إلى الوراء في اتجاه حدائق ألكسندر.

بالطبع، فكّر الكونت. إنه الليْلك تحديدًا. كيف فاتَه ذلك؟ في زمن ما، كان يعرف أزهار الليلك في حدائق ألكسندر أكثر مما يعرف أي شخص في موسكو. وعندما يأتي الموسم وتُزهر الأشجار، كان يقضي عصريّات كاملة وهو ينعم بالاسترخاء تحت النوّارات البيضاء والأرجوانية.

قال الكونت بهزّة امتنان من رأسه: «يا له من أمر رائع».

قال الشيخ: «هو كذلك وليس كذلك. عندما تتفتح أزهار الليلك، تُسارع النحلات إلى حدائق ألكسندر وتُنتج عسلًا طعمه يشبه الليلك. لكن في غضون أسبوع أو نحو ذلك، تتحول إلى طريق الحدائق الدائري، وعندها ستتذوق طعم أشجار الكرز».

«طريق الحدائق الدائري! هل تستطيع قطع مسافات كهذه؟».

أجاب الشيخ بابتسامة: «البعض يقول إن النحلة سوف تعبر محيطًا لأجل زهرة. ولو أنني لم أعرف نحلة فعلَت ذلك».

هز الكونت رأسه، وتناول قضمة أخرى، وقَبِل فنجانًا ثانيًا من القهوة.

ثم تذكّر للمرة الثانية ذلك اليوم: «عندما كنت صبيًّا، قضيتُ شطرًا كبيرًا من وقتي في نيجني نوفغارِد».

قال الشيخ بابتسامة: «حيث تتساقط نوّارات التفاح مثل الثلوج. أنا نشأتُ هناك. كان أبي خفيرًا على عزبة سيرجِش».

هتف الكونت: «أعرفها جيدًا! يا لها من مكان جميل...».

ثم بدأت شمس الصيف تُشرق، وبدأت النار تخمد، وبدأ النحل يدور فوق الرؤوس، وراح الرجلان يتحدثان عن أيام طفولتيهما عندما كانت عجلات العربات تقعقع في الطريق، واليعاسيب تَسِفُّ فوق العشب، وأشجار التفاح تُزهر على مد البصر.

حاشية

لحظة سَمع الكونت تكّة إغلاق باب الجناح 208، كانت آنا أوربانوفا، في الحقيقة، تغفو؛ لكنها لم تكن نائمة قريرة العين. عندما صَرفَت الممثلةُ الكونت (بعد أن انقلبت على جنبها بتنهيدة كسول)، راحت تراقبه بسرور لطيف وهو يجمع ملابسه ويُسدل الستائر. بل وشعرت بشيء من الرضا عندما توقَّف ليلتقط بلوزتها ويعلّقها في دولاب الملابس.

لكن عند لحظةٍ ما في الليل، بدأت تلك الصورة للكونت وهو يلتقط بلوزتها تقضّ مضجعها. في قطار العودة إلى سان بطرسبرغ، وجدت نفسها تغمغم حول هذا الأمر. ولدى عودتها إلى الديار، كانت ثائرتُها قد ثارت. في الأسبوع التالي، وكلما سنحت لها أدنى فرصة وسط جدولها المزدحم، كانت الصورة تنقضُّ عليها، فيحمرّ خداها الـمرمريَّان الشهيران من الغضب.

«من يظن نفسه، هذا الكونت روستوف؟ يسحب الكراسي ويصفِّر للكلاب؟ بل ويتعامل باستعلاء وينظر بطرف أنفه. ولكن بأي حق؟ من سمح له بأن يلتقط بلوزتي ويعلّقها على شماعتها؟ إذا أسقطتُ بلوزتي على الأرض، فماذا في ذلك؟ إنها ملابسي وأستطيع تمزيقها إذا أحببتُ».

أو هكذا ستجد نفسها تُلقي بحججها، لا لأحد على وجه التعيين.

ذات ليلة، لدى عودتها من إحدى الحفلات، أثارت فكرة تلك الإيماءة الكريمة من الكونت ثائرتها إلى حدّ أنها عندما خلعت ملابسها لم تكتفِ بإلقاء فستانها الحريري الأحمر على الأرض، لكنها أمرت حاشيتها ألّا يلمسوه. وفي كل ليلة تالية، كانت ترمي رداءً آخر على الأرض. فساتين وبلوزات من القطيفة والحرير من لندن وباريس، وكلما كان أغلى كان

أفضل. ترميه هنا على أرض الحمام وهناك بجوار صندوق القمامة. بعبارة أخرى، حيثما عنَّ لها.

بعد أسبوعين، بدأ مخدعها يبدو أشبه بخيمة عربية مليئة بأقمشة من كل لون تحت الأقدام.

في البداية، كانت أولغا، الجورجيَّة ذات الستين عامًا التي سبق واستقبلت الكونت عند باب الجناح 208 والتي ظلّت تعمل بإخلاص لدى الممثلة كمسؤولة عن ملابسها منذ عام 1920، تنظر إلى سلوك سيدتها بلا مبالاة متمرِّسة. لكن ذات ليلة، بعد أن أسقطت آنا فستانًا بلا ظهر فوق رداء حريري أبيض، قالت أولغا بنبرة من يُقرّ حقيقة واضحة:

«عزيزتي، أنت تتصرفين مثل طفلة. إذا لم تُلملمي ملابسك، سأضطر إلى ضربك على مؤخرتك».

استدارت آنا أوربانوفا وقد احمرّ وجهها مثل برطمان مربَّى.

صرخَت: «ألملم ملابسي؟ تريدينني أن ألملم ملابسي؟ إذًا، سألملمها!».

جمعت الأردية العشرين في ذراعيها، وسارت إلى النافذة المفتوحة وألقت بها في الشارع بالأسفل. راحت الممثلة، بأكبر قدْرٍ من الرضا، تراقبها وهي تخفق وتهوي على الأرض. عندما استدارت لمواجهة وصيفتها بنظرة منتصرة، أوضحت أولغا ببرود كَمْ سيستمتع الجيران بهذا الدليل على نَزَق الممثلة الشهيرة، ثم استدارت وغادرت الغرفة.

بعد أن أطفأت آنا الأنوار واندسّت في الفراش، راحت تُتَفتِف مثل شمعة.

«وماذا يهمني ما يقوله الجيران عن نَزَقي. ماذا يهمني ما تقوله سان بطرسبرغ، أو روسيا بأكملها!».

لكن في الثانية صباحًا، بعدما ظلّت آنا أوربانوفا تتململ وتتقلّب في فراشها، نزلَت السلم العريض على أطراف أصابعها، وانسلّت إلى الشارع، وجمعت ثيابها واحدًا بعد آخر.

1924

مجهوليّة

حُلم الاختفاء قديم قِدم الفولكلور. بحجابٍ ما أو بشَربةٍ سحريّة، أو بمساعدة الآلهة نفسها، يذوب الحضور الجسماني للبطل، ولفترة عمل التعويذة يظل يجول غير مرئيّ بين أقرانه من بني الإنسان.

يمكن لأي طفل في العاشرة من عمره أن يحدثك بإسهاب عن مزايا امتلاك قوة كهذه. سواءً كانت الانسلال من أمام التنانين، أو استراق السمع للمتآمرين، أوالتسلل داخل خزائن الكنوز؛ أو انتزاع فطيرة من غرفة المؤن، أو إسقاط طاقية شرطي، أوإشعال النار في ذيل معطف ناظر المدرسة، يكفي القول إن هناك ألف حكاية تُروى حول فوائد نعمة أن تكون غير مرئيّ.

لكن الحكاية التي نادرًا ما تُروى هي تلك التي تُلقى فيها تعويذة الإخفاء على البطل الغافل في شكل لعنة. فبعد أن عاش حياته في خِضمّ الـمُعتركات، وفي وطيس المناقشات، وفي الصفّ العشرين الذي يتيح له إطلالة متميزة على السيدات في شرفات الـ«لوج»- بعبارة أخرى، في قلب المعمعة- يجد نفسه، فجأة، غير مرئيّ للأصدقاء والأعداء على حد سواء. وقد كانت اللعنة التي ألقتها آنا أوربانوفا على الكونت سنة 1923 من هذا النوع بالضبط.

في تلك الليلة المصيرية عندما تعشّى الكونت مع الساحرة في جناحها، لعلها كانت تمتلك القدرة على جعله غير مرئيّ في التوّ واللحظة. عوضًا عن ذلك، ولكي تتلاعب براحة باله، ألقت عليه لعنةً تتكشف على مدار العام، رويدًا رويدًا.

في الأسابيع التالية، لاحظ الكونت فجأة أنه كان يختفي عن الأنظار لبضع دقائق في كل مرة. يكون جالسًا يتناول طعامه في البياتسا عندما يأتي زوجان ويقتربان من طاولته وقد ظهرت عليهما بوضوح نية احتلالها لنفسيهما؛ أو يكون واقفًا إلى جوار مكتب الاستقبال عندما يقترب منه نزيل متعجّل فيكاد يصطدم به ويُسقطه عن قدميه. وعندما حلّ الشتاء، كان أولئك الذين اعتادوا تحيته بإيماءة أو ابتسامة لا يرونه إلى أن يصبح على بعد ثلاثة أمتار منهم. والآن، بعد مرور عام، عندما كان يجتاز البهو، كان الأمر يستغرق دقيقة كاملة قبل أن ينتبه أقربُ أصدقائه أنه واقفٌ أمامهم.

«أوه»، قالها فاسيلي، معيدًا سمّاعة الهاتف إلى حاملها. «معذرة يا كونت روستوف. لم أركَ. كيف لي أن أخدمك؟».

دقّ الكونت برقّة على مكتب مسؤول خدمات النزلاء.

«هل يتصادف أنك تعرف أين نينا؟».

لم يكن الكونت، في سؤاله لفاسيلي عن مكان نينا، يطرح استفسارًا عابرًا لأول رجل يقابله؛ إذ كان فاسيلي يمتلك معرفة خارقة بالأماكن التي يتواجد فيها الناس في أي لحظة كانت.

«أظنّها في غرفة لعب الورق».

«آه»، قالها الكونت بابتسامة العارف.

استدار الكونت، وسار في البهو باتجاه غرفة لعب الورق وفتح الباب بهدوء، مفترضًا أنه سيجد أربع سيدات في منتصف العمر يتبادلن حلوى الـ«كوكيز» والألفاظ البذيئة حول خِدَع لعبة الهويست، بينما روحٌ منتبهة تحبِس أنفاسها داخل دولاب. لكنها كانت هناك، أمامها مجموعتان من الأوراق وفي يدها قلم رصاص، نموذجًا مثاليًّا للحماسة الدراسية. كان القلم يتحرك بزهو حتى إنه بدا أشبه بحارس شَرف- يسير جيئةً وذهابًا على الصفحة برأس مرفوعة ثم يستدير على عقبيه عند الحافة لكي يهرول عائدًا من حيث أتى.

«تحياتي يا صديقتي».
«أهلًا يا حضرة الكونت»، أجابته نينا دون أن ترفع رأسها عن عملها.
«هل تحبين الانضمام إليّ في جولة قبل العشاء؟ كنت أفكر في زيارة لوحة الكهرباء».
«أخشى أنني لا أستطيع الآن».
جلس الكونت على المقعد المواجه لنينا بينما كانت تضع الورقة التي أكملتها فوق إحدى المجموعتين وتتناول ورقة جديدة من الأخرى. من باب العادة، التقطَ رزمة أوراق اللعب الموضوعة عند زاوية الطاولة وخَلَطها مرتين.
«هل تريدين رؤية خدعة».
«في وقت آخر، ربما».
رتَّب الكونت الرزمة، وأعادها إلى الطاولة. ثم التقط الورقة العليا من كومة الأوراق المكتملة. في أعمدة مصفوفة بعناية، وجد كل الأرقام الأوّليّة من 1100 إلى 1199. وفقًا لنظامٍ مجهولٍ ما، كانت ثلاثة عشر رقمًا قد أحيطت بدوائر حمراء.
غنيّ عن القول أن ذلك أثار فضول الكونت.
«ماذا لدينا هنا؟».
«رياضيات».
«أرى أنك تتعاملين مع الأمر بحماسة».
«البروفيسور ليسِتزكي يقول إن المرء يجب أن يصارع الرياضيات مثلما يصارع دبًّا».
«أهو كذلك؟ وما نوع الدبّ الذي تصارعينه اليوم؟ أظنه دبًّا قطبيًّا، وليس باندا».
رفعت نينا رأسها إلى الكونت بنظرة مثبِّطة...
تنحنح الكونت واتخذ نبرة أكثر جدية.

«بحسب ما أفهم، فالمشروع يتعلق بمجموعة فرعية من الأعداد الصحيحة...».

«هل تعرف ما العدد الأوّلي؟»

«مثل اثنين، ثلاثة، خمسة، سبعة، أحد عشر، ثلاثة عشر...؟».

قالت نينا: «بالضبط. الأعداد الصحيحة التي **لا تقبل القسمة** إلا على واحد وعلى نفسها».

بالنظر إلى الطريقة الدرامية التي نطقت بها عبارة **لا تقبل القسمة**، قد يظن المرء أن نينا تتحدث عن حصن منيع.

قالت: «على أي حال. أنا أضع قائمة بها جميعًا».

«بها جميعًا؟».

«إنها مهمة سيزيفيَّة»، هكذا اعترفَت (وإن بحماسة تدفع المرء إلى التساؤل إن كانت تفهم حقيقةً أصل الكلمة).

أشارت إلى الصفحات المملوءة بالفعل على الطاولة.

«تبدأ قائمة الأعداد الأولية باثنين، ثلاثة، خمسة، كما تقول. لكن الأعداد الأولية تزداد ندرة كلما كَبُرت. لذا فالعثور على سبعة أو أحد عشر شيء، والعثور على ألف وتسعة شيء آخر تمامًا. هل تستطيع تخيُّل تحديد رقم أوّلي في مئات الآلاف...؟ في الملايين...؟».

شردت نينا ببصرها في البعيد، وكأنها ترى تلك الأعداد الكبرى والأكثر مناعة رابضةً على جَرفها الصخري حيث ظلت، لآلاف السنين، صامدة أمام هجمات التنانين النافثة للنيران وجحافل البرابرة. ثم استأنفَت عملها.

ألقى الكونت نظرة أخرى على الورقة في يديه وقد ازداد إحساسه بالتقدير. في نهاية المطاف، يجب على الرجل المتعلم أن يُقدّر أي مسار دراسي مهما كان ملتبسًا، إذا كان يُنشَد بحبٍّ استطلاع وإخلاص.

«هاكِ»، قالها بنبرة من يُدلي بدلوه. «هذا العدد ليس أوّليًا».

رفعت نينا رأسها بتعبير مستنكِر.
«أيُّ عدد؟».
وضع الورقة أمامها ودقّ بإصبعه على رقم محاط بدائرة حمراء.
«ألف ومائة وثلاثة وسبعون».
«وكيف عرفتَ أنه ليس أوليًّا؟».
«إذا كان حاصل مجموع الأرقام المفرَدة في العدد يساوي عددًا يقبل القسمة على ثلاثة، إذًا فالعدد يقبل القسمة على ثلاثة».
في مواجهة تلك الحقيقة الاستثنائية، أجابت نينا:
«مون ديو!».(*)
ثم أرجعت ظهرها في كرسيها وراحت تُقيِّم الكونت بطريقة توحي بأنها ربما هوَّنَت من قَدْره.
الآن، عندما يتعرّض الرجل للتهوين من قَدْره من قِبل صديق، يحقُّ له أن يشعر بالإهانة- إذ إن أصدقاءنا هم الذين يجب أن **يهوِّلوا** من قدراتنا. يجب أن تكون لديهم آراء مبالَغ فيها عن صلابتنا الأخلاقية، وحساسياتنا الجمالية، وقدراتنا الفكرية. بل يجب عليهم عمليًّا أن يتخيلونا ونحن نقفز من نافذة في اللحظة الأخيرة حاملين أعمال شكسبير في يدٍ ومسدس في الأخرى! لكن في هذه اللحظة تحديدًا، اعترف الكونت لنفسه بأنه ما من سبب قوي للشعور بالمهانة. لأنه، طيلة حياته، لم يعرف من أي زاوية مظلمة من عقله المراهق تجسَّدَت هذه الحقيقة الاستثنائية.
«طيّب»، قالتها نينا، وهي تشير إلى كومة الأوراق المنتهية أمام الكونت. «الأفضل أن تناولني هذه».

بعد أن ترك الكونت نينا لعملها، عزَّى نفسه بأنه سيقابل ميشكا على

(*) مون ديو *Mon Dieu*: يا إلهي (بالفرنسية في الأصل). (المترجم)

العشاء في غضون خمس عشرة دقيقة؛ وإلى ذلك، ما زال عليه أن يقرأ الصحف اليومية. وهكذا، عاد إلى البهو، وتناول نسخة من صحيفة «برافدا» من على طاولة القهوة واستراح في الكرسي بين أصص النخيل.

بعد أن مرَّ الكونت بعينيه على المانشيتات، استغرق في موضوع عن منشأة صناعية في موسكو تتجاوز حصص الإنتاج المقرّرة عليها. ثم قرأ صورة وَصْفيّة حول التحسينات المختلفة في حياة القرية الروسية. وعندما حوّل انتباهه إلى تقرير عن تلاميذ مدارس كازان الشاكرين، لم يستطع أن يكبح نفسه عن ملاحظة التكراريّة المميِّزة للأسلوب الصحافي الجديد. لا يقتصر الأمر على انشغال البلاشفة البادي بالمواضيع نفسها من يوم إلى يوم، بل إنهم يحتفون بهذه الحفنة القليلة من الآراء بقدر محدود للغاية من المفردات يشعر معه المرء حتمًا بأنه، لا بُد، قرأ هذه الموضوعات من قبل.

لم يُدرك الكونت إلا في الموضوع الخامس أنه **بالفعل** قرأ ذلك من قبل. إذ كانت تلك صحيفة الأمس. مزمجرًا، عاد ليرميها على الطاولة ونظر إلى الساعة وراء مكتب الاستقبال، التي أشارت إلى أن ميشكا قد تأخر خمس عشرة دقيقة حتى الآن.

مع ذلك، فطول الدقائق الخمس عشرة يختلف كثيرًا بين رجل لديه مشاغله وآخر لا يجد ما يفعله. فإذا كان بالإمكان وصف الشهور الاثني عشرة السابقة من حياة الكونت بأنها خالية من الحوادث، بعبارة مهذَّبة، فالأمر نفسه لا ينطبق على ميشكا. كان صديق الكونت القديم قد غادر مؤتمر «رابطة كتاب البروليتاريا الروس» عام 1923 بتكليفٍ أن يُحرِّر ويعلِّق على أنطولوجيا متعددة الأجزاء للقصة القصيرة الروسية. وهذا وحده يوفر له عذرًا معقولًا للتأخر؛ لكن كان ثمة تطور آخر في حياة ميشكا يجعله يستأهل حرية أكبر، حتى، في مواعيده...

في صِباه، كان الكونت قد حاز، عن جدارة، سمعةً في دِقّة التصويب.

عُرف بقدرته على إصابة جرس المدرسة بحجر وهو واقف خلف الأجمّة في الطرف الآخر من الباحة. عُرف بقدرته على إلقاء كوبِك في مَحبرة من آخر غرفة الدرس. وبسهم وقوس، كان بإمكانه ثَقْب برتقالة على بعد خمسين خطوة. لكن قدرته على إصابة هدف من مسافة بعيدة تجلَّت بأفضل ما تجلَّت عندما لاحظ اهتمام صديقه بـ«كاترينا من كييف». في الشهور التي أعقبت مؤتمر عام 1923، أصبح جمالُها قاطعًا، وقلبُها رقيقًا، وسلوكُها عطوفًا، حتى إن ميشكا لم يجد خيارًا إلا التمترس خلف كومة من الكتب في «المكتبة الامبراطورية في سان بطرسبرغ».

«إنها فراشة مضيئة يا ساشا. نحلة دوَّارة». هكذا، أو ما شابَه، قال ميشكا باستغراب أسْيان مثل شخص لم يُمنح إلا لحظة للتمتع بجمال إحدى عجائب العالم.

لكنْ بعدها، ذات أصيلٍ خريفيّ، ظهرت في صومعته باحثة عن كاتمٍ لأسرارها. من وراء مجلّداته، ظلّا يتهامسان لساعة كاملة، وعندما قُرِعَ جرس إغلاق المكتبة، خرجا بمحادثتهما إلى جادة «نيفسكي بروسبِكت» وظلّا يتسكعان طيلة الطريق إلى «مقبرة تيخفِن» حيث، من فوق بقعة تُشرف على نهر نيفا، فاجأته هذه الفراشة المضيئة، هذه النحلة الدوَّارة، هذه العجيبة من عجائب العالم، وأمسكت يده.

«آه. كونت روستوف!»، صاح أركادي وهو يمرّ به. «ها أنت هنا. أعتقد أن لديّ رسالة لك...». عاد أركادي إلى مكتب الاستقبال، وفتّش سريعًا وسط بعض الرسائل. «هاكَ».

كانت الرسالة، التي دوّنها موظف الاستقبال بالفندق، تُفيد باعتذار ميشكا، وتشرح أنه نظرًا لإصابة كاترينا بوعكة صحية، فإنه سيعود إلى سان بطرسبرغ قبل الموعد المقرر. استغرق الكونت لحظة ليداري خيبة أمله، ثم رفع رأسه عن الرسالة ليشكر أركادي، لكنّ مسؤول الاستقبال كان قد حوَّل انتباهه بالفعل إلى نزيل آخر.

«مساء الخير يا كونت روستوف». ألقى أندري نظرة سريعة في «السِجلّ». «طاولة لشخصيْن الليلة، أليسَ كذلك؟».

«أخشى أنها ستكون طاولة لشخص واحد يا أندري».

«مع ذلك فنحن نتشرف بوجودك معنا. طاولتك ستكون جاهزة في غضون دقائق».

مع اعتراف ألمانيا، وإنكلترا، وإيطاليا مؤخرًا بالاتحاد السوفييتي، أصبح الانتظار لبضع دقائق شائعًا على نحو متزايد في البويارسكي؛ لكنّ ذلك كان ثمن العودة إلى أحضان أُختيَّة الأمم وأخوية التجارة.

عندما تنحّى الكونت جانبًا، جاء رجل بلحية مدبّبة يسير في الرواق، وفي عقبيه تابعٌ. ومع أن الكونت لم يسبق له رؤيته إلا مرة واحدة أو مرتين، عرف أنه «مفوَّض شيء أو آخر»، إذ كان يمشي في عُجالة، ويتحدّث في عُجالة، بل ويتوقف في عُجالة.

قال أندري بابتسامة مُرحِّبة: «مساء الخير يا رفيق سوسلوفسكي».

«نعم»، قالها سوسلوفسكي- وكأن أندري سأله إن كان يرغب في الجلوس فورًا.

بإيماءة متفهّمة، أشار أندري إلى أحد النُدُل، وسلّمه قائمتي طعام، ووجّهه أن يقود السيدين إلى الطاولة رقم أربعة عشر.

من الناحية الهندسية، كان البويارسكي مربَّعًا، في مركزه حزمةٌ سامقة من النباتات (اليوم فروع فُورسيتيا مُزهرة)، حولها عشرون طاولة من أحجام مختلفة. إذا نظر المرء إلى الطاولات وفق الاتجاهات الأساسية للبوصلة، إذًا، كان النادل الآن يقود المفوَّض وتابعَه، وفقًا لتعليمات أندري، إلى الطاولة المخصصة لفردين في الزاوية الشمالية الشرقية- مباشرةً إلى جوار الطاولة التي كان يجلس عليها رجلٌ بيلّاروسيٌّ كبير الألغاد.

«أندري، يا صديقي...».

رفع المِتر رأسه عن «السجلّ».

«أليس هو نفسه الرجل الذي سبق وأن تبادل الحديث مع ذلك البولدوغ قبل بضعة أيام؟».

كانت عبارة «تبادَل الحديث» تعبيرًا ملطِّفًا للحقائق. إذ في ذلك الأصيل المذكور، عندما طَرح سوسلوفسكي تساؤلًا صاخبًا على رفاق مائدته لماذا يبدو البيلَّاروسيون تحديدًا مُتوانين في اعتناق أفكار لينين، ألقى البولدوغ (الذي كان يجلس إلى طاولة مجاورة) فوطته على صحنه وطالب بأن يعرف «معنى هذا!». وفي تجاهلٍ واضح وضوح لحيته المدبَّبة، طرح سوسلوفسكي ثلاثة أسباب، وبدأ يُعدِّدها على أصابعه:

«أولًا، هناك الكسل النسبي المميِّز للسكان- وهي سمة عُرِف بها البيلاروسيّون في العالم بأسره. وثانيًا، هناك افتتانهم بالغرب، الذي ربما نتج عن تاريخ طويل من زواج الأقارب مع أقاربهم البولنديين. لكن ثالثًا، والأهم من كل ما سبق...».

للأسف، لم يَتسنَّ للمطعم قَط سماع الأهم من كل ما سبق. إذ كان البولدوغ، بعد أن دفع كرسيه إلى الخلف لدى سماع كلمة **زواج الأقارب**، قد رفع سوسلوفسكي عن كرسيه. وفي التدافع الذي تلا ذلك، احتاج الأمر إلى ثلاثة نُدُل لفصل الأيادي المختلفة عن التلابيب المختلفة، وإلى اثنين من مساعدي النُدُل لكنس الدجاج المطهوّ على طريقة مارشال عن الأرضية.

وإذ تذكَّر أندري المشهد في ومضة واحدة، استدار إلى الطاولة رقم ثلاثة عشر، حيث كان البولدوغ المقصود جالسًا مع امرأة ذات مظهر مشابِه، حتى إن أيّ مشتغِل متمرّس بالمنطق سيستنتج أنها زوجته. استدار أندري على عقبيه، والتفّ حول أزهار الفورسيتيا، ولحق بسوسلوفسكي وتابِعه، وعاد بهما إلى الطاولة رقم ثلاثة- موقعٌ جميلٌ في الجنوب-الجنوب الشرقي، يتّسع لمجموعة من أربعة أفراد.

قال أندري لدى عودته: «**ميرسي بوكو**».
وردّ الكونت: «**دو ريان**».

في ردّه على أندري قائلًا: **لا عليكَ**، لم يكن الكونت يلجأ، ببساطة، إلى تعبير مجازي باللغة الغاليَّة. في حقيقة الأمر، كان الكونت يستحق الشكر على تدخُّله الصغير مثلما يستحق العصفورُ شكرًا على الزقزقة. فمنذ سن الخامسة عشرة، كان ألكسندر روستوف أستاذًا في إجلاس الطاولات.

كلما عاد إلى بيته لقضاء إجازة، كانت جدته تستدعيه حتمًا إلى المكتبة، حيث كانت تحب الجلوس وحياكة التريكو بجوار المدفأة في كرسي منفرد.

«ادخل يا بنيّ، واجلس معي للحظة».

«بالطبع يا جدتي»، كان الكونت يردُّ، وهو يوازن نفسه على حافة شبكة المدفأة. «كيف يمكنني مساعدتك؟».

«الـمُطران سيأتي للعشاء ليلة الجمعة- وكذا الدوقة أوبولنسكي، والكونت كيراجين، وآل مينسكي-بولوتوف...».

عندها كانت تترك صوتها يخفت حتى ينقطع دون مزيد من التفسير؛ لكنّ الكونت لا يكون بحاجة إلى مزيد من التفسير. كانت الكونتيسة ممن يؤمنون بأن العشاء يجب أن يوفِّر للشخص استراحةً من متاعب الحياة ومِحَنها. هكذا، لم تكن لتسمح بمناقشات في الدين، أو السياسة، أو الأحزان الشخصية على مائدتها. ومما يزيد الطين بلَّة، كان المطران مصابًا بصمم في أذنه اليسرى، ومولعًا بالحِكَم اللاتينية، وميّالًا للتحديق في تقويرات الفساتين، كلما شرب كأسًا من النبيذ؛ بينما كانت الدوقة أوبولنسكي، التي تصير لاذعةً خصوصًا في الصيف، تتجهّم لدى سماع الكلام الفصيح ولا تطيق المناقشات حول الفنون والآداب.

وآل كيراجين؟ في عام 1811 نعتَ الأمير مينسكي-بولوتوف جدَّهم بالـ«بونابارتيّ»، ومن وقتها لم يتبادلوا كلمة مع آل مينسكي-بولوتوف.

سأل الكونت: «كم ضيفًا سيحضر؟».

«أربعون».

«الجَمع المعتاد؟».

«تقريبًا».

«آل أوسيبوف؟».

«نعم، لكن بيير في موسكو...».

«آه»، قالها الكونت بابتسامة بطل شطرنج يواجه مناورةً جديدة.

كانت مقاطعة «نيجني نوفغارِد» تضم مئة من العائلات البارزة التي، على مدار قرنين من الزمان، تزوجت من بعضها البعض وتطلّقت، اقترضت وأَقرضت، وافقت ونَدِمت، تلقّت الإهانات وذادت عن نفسها، وتبارزت في ما بينها- ومع ذلك ظلّت تتحزّب لتشكيلة من المواقف المتضاربة تنوَّعَت وفقًا للجيل، والجنس، والبيت. وفي مركز هذه الدوامة كانت غرفة الطعام الخاصة بالكونتيسة روستوف بطاولتيها المتلاصقتين، تتسع كلٌّ منها لعشرين شخصًا.

طمأنها الكونت: «لا تقلقي يا جدتي. الحل بسيط».

في الحديقة بالخارج، فيما يغمض الكونت عينيه ليبدأ التنقُّل عبر التباديل المختلفة واحدًا بعد آخر، كانت أخته تتسلَّى بالتسفيه من مهمته.

«لماذا تكشّر حاجبيك هكذا يا ساشا؟ أيًّا كان الترتيب حول الطاولة، دائمًا تدور محادثات مبهجة على الطعام».

وكان الكونت يصرخ: «أيًّا كان الترتيب حول الطاولة! محادثات مبهجة! أُعرّفك يا أختي العزيزة أن التهاون في ترتيب الجلوس قد مزَّق أفضل الزيجات إربًا، وأدى لانهيار أطول الوفاقات عمرًا. في الحقيقة، لو لم يُجلَس باريس إلى جوار هيلين وهو يتناول طعامه في بلاط مينيلاوس، لما اندلعت حرب طروادة قَط».

ردٌّ ساحر بلا شكّ، هكذا فكّر الكونت من على بُعد السنين. لكن أين كان آل أوبولنسكي وآل مينسكي-بولوتوف الآن؟

مع هِكتور وأخيل.

«طاولتك جاهزة يا كونت روستوف».

«آه. شكرًا يا أندري».

بعدها بدقيقتين، كان الكونت مستريحًا إلى طاولته مع كأس شامبانيا (إيماءة شكر صغيرة من أندري لتدخُّله في الوقت المناسب).

تناول الكونت رشفة، واستعرض قائمة الطعام من النهاية إلى البداية كما اعتاد، وقد تعلّم من الخبرة أن التفكير في فواتح الشهية قبل الطبق الأول، **الأُنتريه**، لا يؤدّي إلا إلى الندم. وهاكَ مثالٌ مثاليّ. إذ كان الطبق الأخير في القائمة هو الضرورة الحصريّة للأمسية: أوسّو بوكو- طبق أفضل ما يُستهَلُّ به فاتح شهيّة خفيف ومنعش.

أغلق الكونت قائمته، وجال ببصره في المطعم. لا شك أنه شعر بقدر من الإحباط عندما كان يصعد السلم إلى البويارسكي؛ لكنه الآن يمسك بكأس شامبانيا في يده، وينتظر أوسّو بوكو في القريب، ويشعر بالرضا كونه قدَّم خدمة لصديق. ربما ربّات القَدَر- اللاتي يعشقن «قَلب الأوضاع» أكثر من أي شيء آخر- قرَّرن رفع روحه المعنوية.

«هل لديك أي استفسارات».

هكذا جاء التساؤل من خلف ظهر الكونت.

دون تردد، شرع الكونت في الإجابة بأنه جاهز للطلب، لكن بينما كان يستدير في كرسيه، انعقد لسانه من الصدمة، إذ اكتشف أن الأسقف هو الذي يميل فوق كتفه- في سترة البويارسكي البيضاء.

الآن، يقينًا، مع عودة الضيوف الدوليين أخيرًا إلى الفندق، أصبح البويارسكي يعاني من بعض النقص في الموظفين. لذا كان بمُستطاع

الكونت أن يُقدِّر لماذا قرر أندري أن يُدعِّم فريقه. لكن من بين كل النُدُل في البياتسا، من بين كل النُدُل في العالم، لماذا يختار هذا النادل؟

بدا الأسقف وكأنه يتابع قطار أفكار الكونت، إذ صارت ابتسامته متعالية بصورة خاصة. بدا وأنه يقول: **نعم، ها أنا هنا في البويارسكي الشهير، واحد من تلك القلّة المختارة التي تمتلك حصانة المرور من باب مطبخ الشيف زوكوفسكي.**

«ربما تريد المزيد من الوقت...؟»، اقترح عليه الأسقف، وقلمُه الرصاص مرفوعٌ فوق دفتَره.

للحظة، فكّر الكونت أن يَصرفه ويطلب طاولة جديدة. لكن آل روستوف طالما تباهوا بالاعتراف بالخطأ عندما يسلكون سلوكًا يفتقر إلى التسامح.

ردّ الكونت: «لا، يا أستاذ. أنا مستعد للطلب. سآخذ سلطة الشَمَّر والبرتقال في البداية، وبعدها الأوسّو بوكو».

قال الأسقف: «بالطبع. وكيف تريد الأوسّو بوكو؟».

كاد الكونت يفضَح دهشته. **كيف أريده؟ هل ينتظر مني أن أُملي عليه درجة حرارة قطعة من اللحم المسبَّك؟**

أجاب الكونت برحابة صدر: «مثلما يجهّزها الشيف».

«بالطبع. وهل ستتناول نبيذًا؟».

«مؤكد. زجاجة سان لورينسو بارولو، 1912».

«هل تريد نبيذًا أحمر أم أبيض».

شرح له الكونت، متعاونًا بقدر المستطَاع: «البارولو نبيذ أحمر ثقيل من شمال إيطاليا. لذلك، فهو الرِفقة المثالية لطبق الأوسّو بوكو الميلانيّ».

«إذًا، تريد نبيذًا أحمر».

تفحّص الكونت الأسقفَ لبرهة. لم يبدُ على الرجل أدنى أمارات الصمَم، هكذا فكّر؛ ولكنته تدل على أن الروسية هي لغته الأم. بالتأكيد

كان ينبغي عليه الآن أن يكون في طريقه إلى المطبخ؟ لكنْ كما كانت الكونتيسة روستوف تقول: لو كان الصبر سهلًا، لما سُمِّي فضيلةً...

قال الكونت بعد أن عدّ إلى خمسة: «نعم، البارولو أحمر».

ظل الأسقف واقفًا في مكانه وقلمُه مرفوع فوق دفتره.

قال بنبرة غير آسفة: «آسف إن لم أكن واضحًا. لكن بالنسبة لاختيارات النبيذ الليلة، لدينا خياران فقط: أبيض وأحمر».

حدّق الرجلان كلٌّ منهما في الآخر.

«هلا طلبتَ من أندري أن يأتي للحظة؟».

«بالطبع»، قالها الأسقف، وهو يتراجع إلى الخلف بانحناءة كهنوتيّة.

أخذ الكونت يدقّ على سطح الطاولة بأصابعه.

يقول بالطبع، بالطبع، بالطبع، بالطبع. بالطبع ماذا؟ بالطبع أنت هناك وأنا هنا؟ بالطبع أنت قلت شيئًا وأنا أجبتك؟ بالطبع عُمر الإنسان محدود على سطح الأرض ويمكن أن ينتهي في أي لحظة!

«هل هناك مشكلة يا كونت روستوف؟».

«آه، يا أندري. إنه رَجلكم الجديد. أنا أعرفه جيدًا من عمله بالأسفل. في ذلك المكان، يمكن التسامح مع درجة معينة من نقص الخبرة، بل وتوقُّعها حتّى. لكن هنا في البويارسكي...».

فتح الكونت يديه مشيرًا إلى القاعة المهيبة ثم نظر إلى الـمِتر متوقّعًا أن يفهمه.

لا أحد ممن يعرفون أندري أقلَّ معرفة يمكن أن يصفَ مسلكه بالبشاشة. لم يكن مناديًا في مهرجان، ولا متعهدًا للترفيه الخفيف. كان وضعه كمِتر للبويارسكي يتطلّب حصافةً، وكياسةً، ولياقةً. وهكذا كان الكونت معتادًا تمامًا على سيماء الرصانة على وجه أندري. لكن في كل تلك السنوات من تناول الطعام في البويارسكي، لم يسبق له قَط أن رأى أندري بهذه الرصانة.

شرح له الـمِتر بصوت خفيض: «لقد ترقَّى بتعليمات من السيد هاليكي».

«لكن لماذا؟».

«لست متأكدًا. أظن أن لديه صديقًا».

«صديق؟».

هزّ أندري كتفيه، على غير عادته.

«صديق ذو نفوذ. شخص داخل نقابة خُدّام الموائد، ربما؛ أو في مفوضية العمل؛ أو في المراتب العليا للحزب. من يعرف هذه الأيام؟».

قال الكونت: «قلبي معك».

انحنى أندري ممتنًّا.

«طيّب، أنت بالتأكيد لست مسؤولًا إذا كانوا قد فرضوا عليك شخصًا بعينه؛ وسوف أُكيِّف توقعاتي وفقًا لذلك. لكن قبل أن تمضي، هل يمكن أن تقدم لي خدمة صغيرة؟ لسبب غير مفهوم، لم يسمح لي بأن أطلب نبيذي. كنت آمل أن أحصل على زجاجة سان لورنسو بارولو لمرافقة طبق الأوسّو بوكو».

اكتست ملامح أندري بمزيد من الرصانة، لو كان تخيُّل شيءٍ كهذا أمرًا ممكنًا.

«ربما يُفضَّل أن تأتي معي...».

بعد أن تَبع أندري عبر غرفة الطعام، ثم مرورًا من المطبخ، ثم نزولًا على سلّم حلزوني، وجد الكونت نفسه في مكان لم تدخله ولا نينا نفسها: قبو نبيذ المتروبول.

بقناطره المشيَّدة من الطوب وطقسه المظلم البارد، كان قبو نبيذ المتروبول يستحضر الجمال الجهِم لسراديب الموتى. فقط، بدلًا من التوابيت الحجرية التي تحمل صور القديسين، كانت هناك، في

الأصقاع البعيدة للحجرة، صفوفٌ من الحوامل مثقَلة بزجاجات نبيذ. هنا احتشدَت مجموعة مذهلة من زجاجات الكابرنيه والشاردونيه، الريسلنغ والسيراه، البورت والماديرا، قَرنٌ من الخمور المعتَّقة من كافة أنحاء القارة الأوروبية.

إجمالًا، كان هناك نحو عشرة آلاف صندوق. أكثر من مئة ألف زجاجة. وكلها دون بطاقات لاصقة.

شهق الكونت: «ماذا حدث!».

أومأ أندري باعتراف عابِس.

«قُدِّمت شكوى إلى الرفيق تيودوروف، مفوَّض الطعام، تزعُم أن قائمة النبيذ الخاصة بنا تتعارض مع المثل العليا للثورة. وأنها أثرٌ من آثار حَظوة طبقة النبلاء، وتخاذل النخبة المثقفة، والتسعير الوحشي للمُضارِبين».

«لكن هذا سخف».

للمرة الثانية في ساعة واحدة، ردّ أندري الذي لا يهزَّ كتفيه، بهزّة من كتفيه.

«عُقد اجتماعٌ، وأُجري تصويتٌ، وسُلّم تكليفٌ... من الآن فصاعدًا، لا يبيع البويارسكي إلا نبيذًا أحمر ونبيذًا أبيض مع توحيد سعر كل الزجاجات».

بِيدٍ لم تُخلق لهذا الغرض، أشار أندري إلى الزاوية، حيث يتكوّم خليط من البطاقات اللاصقة إلى جوار خمسة براميل من المياه، قائلًا بنبرة مغمومة: «احتاج الأمر إلى عشرة رجال وعشرة أيام لإتمام المهمة».

«لكن من ذا الذي يمكن أن يقدم شكوى كهذه؟».

«لست متأكدًا؛ وإن قيل لي إنها ربما بدأت على يد صاحبك...».

«صاحبي؟».

«النادل القادم من الأسفل».

نظر الكونت إلى أندري ذاهلًا. لكنّ ذكرًى تراءت أمامه على التو-

ذكرى أحد أعياد الميلاد حين انحنى الكونت من على كرسيه لكي يصحِّحَ توصية نادلٍ ما بزجاجة ريوخا كرفقةٍ لليخنة اللاتفيَّة. كم كان الكونت غِرًّا حين قال لنفسه ساعتها إنه ما من بديل للخبرة.

فكّر الكونت: طيّب، ها هو البديل.

تقدم الكونتُ أندري ببضع خطوات، وسار في الممر الأوسط للقبو، مثلما قد يسير قائدٌ برفقة مُعاونه في مستشفى ميداني في أعقاب معركة. بالقرب من نهاية الممر، دار حول أحد الصفوف. بحسبة سريعة للأعمدة والأرفف، خلُص الكونت إلى أن هذا الصف وحده يضم أكثر من ألف زجاجة- ألف زجاجة متطابقة فعليًّا في الشكل والوزن.

تناول واحدة بشكل عشوائي، وتأمّل في الانسجام المثالي بين استدارة الزجاجة وكفّ اليد، بين حجمها وثِقلها على الذراع. لكن ماذا عمَّا بداخلها؟ ما الذي تحتويه تلك الزجاجة الخضراء الداكنة تحديدًا؟ شاردونيه يُشرب مع جبن الكامومبير؟ سوفينيون أبيض يناسب قِطعًا من جبن الماعز؟

أيًّا كان النبيذ بداخلها، فهو بالتأكيد ليس متطابقًا مع ما في جاراتها. على العكس، كانت محتويات الزجاجة في يده نتاجًا لتاريخ متفرّد ومعقّد بتفرُّد وتعقيد أمّة، أو إنسان. نبيذٌ يعبّر بلونه، ونكهته، ومذاقه، عن الجيولوجيا الخاصة والطقس السائد للأرض التي نشأ فيها. لكنه، علاوة على ذلك، يعبِّر أيضًا عن كل الظواهر الطبيعية التي رافقت محصوله. في رشفة واحدة، يستحضِر توقيت ذوبان الثلج في ذلك الشتاء، امتداد أمطار ذلك الصيف، الرياح السائدة، وتواتر السحب.

أجل، زجاجة النبيذ هي التقطير النهائي للزمن والمكان؛ تعبيرٌ شعريٌّ عن الفردانيّة نفسها. مع ذلك ها هي، ملقيَّة في بحر النسيان، في عالم الأشياء العادية والمجهولة.

وفجأة، اختبر الكونت لحظة صفائه الخاصة. فمثلما فهم ميشكا

أخيرًا الحاضر بوصفه نتاجًا عَرَضيًّا للماضي، واستطاع أن يرى بوضوح تام كيف يمكنه أن يُشكِّل المستقبل، فهِم الكونت الآن مكانَه هو في درب الزمن.

ونحن نتقادم في العمر، نجد العزاء في فكرة أن أسلوب الحياة يستغرق أجيالًا حتى يخبو ويتلاشى. إننا نعرف الأغنيات التي كان أجدادنا يحبّونها، في نهاية المطاف، وإن كنّا، نحن أنفسنا، لا نرقص عليها قَط. في الأعياد، نَسحب من الدُرج، عادةً، وَصَفاتٍ لأكْلات من عقود فاتَت، بل أحيانًا تكون مكتوبة بِيَدِ قريبٍ قضى منذ زمن طويل. والأغراض في بيوتنا؟ طاولات القهوة الشرقية وطاولات المكتب المهترئة التي انتقلت من جيل إلى جيل؟ رغم كونها «موضةً قديمةً»، فهي لا تضفي جمالًا على حيواتنا اليومية فحسب، بل وتمنح مصداقية ماديّة لافتراضنا بأن حِقب الدهر إنما تمرُ على مَهل.

لكن تحت ظروف معينة، كما اعترف الكونت أخيرًا، يمكن لهذه السيرورة أن تنقضي في ما يوازي طرفة عين. الفورة الشعبية، الاضطراب السياسي، التقدم الاقتصادي- أيّ توليفة من هذه يمكن أن تجعل المجتمع يتطور في قفزات جيليَّة، تُقصي بضربة واحدة مظاهرَ من الماضي كان يمكن، لولا ذلك، أن تتلكأ لعقود. ولا بُد أن هذا يحدث خصوصًا عندما يكون أصحاب السلطة الجدد رجالًا لا يثقون في أي شكل من التردد، ولا في أوهى درجة من الاختلاف، ويُثمِّنون الثقة بالنفس أكثر من أي شيء آخر.

لسنوات طويلة، ظل الكونت يقول، بابتسامة خافتة، إن هذا الأمر أو ذاك قد ولَّى إلى غير رجعة- مثل أيام كتابته للشعر، أو السفر، أو العلاقات الغرامية. لكنه إذ كان يقول ذلك، لم يصدِّقه حقًّا قَط. بل لقد تخيَّل، في أعماق قلبه، أن مظاهر حياته تلك، حتّى وإن لم يوجد من يرافقها، كانت تتلكأ في مكان ما على الأطراف، تنتظر استدعاءها. لكن حين كان

الكونت ينظر إلى الزجاجة في يده، صُدم بأن كل ذلك، حقًّا وفعلًا، قد ولّى إلى غير رجعة. فالبلاشفة، العازمون على إعادة تشكيل المستقبل من قالبٍ صنعوه بأنفسهم، لن يستريحوا حتى يُستأصل آخر أثرٍ من روسيا التي يعرفها، أو يُهشَّم، أو يُمحى من الوجود.

أعاد الكونت الزجاجة إلى فتحتها، ولحق بأندري عند أسفل السلم. لكن فيما كان يمرّ بين الرفوف، خطر له أن كل ذلك قد ولّى تقريبًا. إذ كانت أمامه مهمة أخيرة عليه إنجازها.

«لحظة واحدة يا أندري».

بادئًا من أوّل القبو، أخذ الكونت يلفُّ جيئةً وذهابًا بين الصفوف على نحو منهجي، معاينًا الحوامل من القمة إلى القاع، حتى إن أندري لا بُد ظنّه فَقَد عقله. لكنه توقف فجأة أمام الصف السادس. مدّ الكونت يده إلى أسفل تجاه رفّ في ارتفاع ركبته، وتناول بحرص زجاجة من بين آلاف الزجاجات. رفعها عاليًا بابتسامةِ حسرة، ومرّر إبهامه على الشعار النافر على الزجاج: مفتاحان متصالبان.

في الثاني والعشرين من يونيو عام 1926- في الذكرى السنوية العاشرة لوفاة هيلينا- سوف يشرب الكونت ألكسندر إلييتش روستوف نخب ذكرى شقيقته. بعدها، سوف يَطرح عنه ذلك الجسد الفاني، مرة واحدة وإلى الأبد.

1926

وداع

من حقائق الحياة البشرية أن الإنسان يجب أن يختار فلسفةً ما في نهاية المطاف. أو هكذا كان رأي الكونت، وهو يقف أمام نوافذه القديمة في الجناح 317، وقد انسلّ إلى الداخل بمساعدة مفتاح نينا.

سواءً عبر التفكير المتأني المتولِّد عن الكتب والسجالات الحامية حول فناجين القهوة في الثانية صباحًا، أو-ببساطة- استجابة لنزوع طبيعيّ، يجب أن ننتهي جميعًا إلى تبنِّي إطار عمل أساسيّ، منظومةً من الأسباب والنتائج، متماسكة على نحو معقول، تساعدنا على إدراك المعاني، ليس معاني الحوادث الجِسام فحسب، ولكن معاني كل الأفعال والتفاعلات الصغيرة التي تشكّل حيواتنا اليومية- سواء أكانت متعمَّدة أو تلقائية، محتومة أو غير متوقعة.

بالنسبة لأغلب الروس، كانت العزاءات الفلسفية قد تأسّست عبر القرون تحت مظلّات الكنيسة. وسواء فضَّلوا يَد العهد القديم الصارمة أو يد العهد الجديد الأكثر تسامحًا، فقد ساعدهم خضوعهم لإرادة الرب على فهم المسار الحتمي للحوادث، أو على قبوله على الأقل.

في مسايرتهم لأساليب العصور، كان معظم زملاء دراسة الكونت قد أداروا ظهورهم للكنيسة؛ لكنهم لم يفعلوا ذلك إلا لصالح عزاءات بديلة. بعض الذين فضَّلوا وضوح العلم تعلّقوا بأفكار داروين، وصاروا يرون أثر الانتخاب الطبيعي عند كل منعطف؛ بينما اختار البعض الآخر نيتشه وعَوْدِه الأبديّ، أو هيغل ودِيالكتيكه- وكلها تبدو منظومات منطقية، بلا شك، عندما يصل المرء في النهاية إلى الصفحة رقم ألف.

لكن بالنسبة للكونت، فلطالما كانت ركائزه الفلسفية ميتيورولوجيّة [أرْصاديّة] بالأساس. تحديدًا، كان يؤمن بالتأثير المحتوم للطقوس المعتدلة وغير المعتدلة. كان يؤمن بتأثير موجات الصقيع المبكرة ومواسم الصيف المتلكئة، السحب الـمُنذرة والأمطار اللطيفة، الضباب وسطوع الشمس وهطول الثلوج. وكان يؤمن، على وجه الخصوص، بقدرة أوهى تغيُّر في ميزان الحرارة على إعادة تشكيل الأقدار.

على سبيل المثال، يكفي أن تنظر إلى أسفل من هذه النافذة. قبل أقل من ثلاثة أسابيع- عندما كانت درجة الحرارة تتراوح حول سبع درجات مئوية- كان ميدان المسرح خاليًا ورماديًّا. لكن مع ارتفاع الحرارة ثلاث درجات فقط، بدأت الأشجار في الإزهار، وبدأت العصافير في الغناء، وأصبح الأزواج صغارًا وكبارًا يطيلون الجلوس على المقاعد المستطيلة. فإذا كان تغييرٌ طفيفٌ كهذا في درجة الحرارة هو كل ما يَلزم لتبديل حياة ميدانٍ عام، فلماذا نظن أن مسار التاريخ البشري أقل حساسية؟

نابليون كان أول من سيعترف أنه بعد جَمْع كتيبة مغاوير من القادة وخمس عشرة فرقة، بعد تقييم نقاط الضعف عند العدو، ودراسة أرضه، ووضع خطة دقيقة لمهاجمته، يجب على المرء في نهاية المطاف أن يحسب حساب درجة الحرارة. فقراءة ميزان الحرارة لن تحكم إيقاع التقدّم فحسب، بل وستحدّد أيضًا كفاية الإمدادات، وتعزّز شجاعة الرجال أو تغدر بها. (آه يا نابليون، ربما لم يكن مقدّرًا لك قَط الانتصار على روسيا الأم؛ لكن لو كان الطقس أدفأ ببضع درجات لربما تمكَّنْتَ، على الأقل، من العودة إلى ديارك بنصف قواتك سليمة، بدلًا من خسارة ثلاثمئة ألف رجل آخر بين بوابات موسكو وضفاف نهر نيمان).

لكن إذا كانت الأمثلة من ميادين القتال لا تناسب ذوقك، فكِّر إذًا، بدلًا من ذلك، في حفلة في أواخر الخريف دُعيتَ إليها أنتَ وثُلّة فضفاضة من أصدقائك ورفاقك للاحتفال بعيد الميلاد الحادي والعشرين للأميرة الساحرة نوفابَكسْكي.

في الساعة الخامسة، عندما تنظر من نافذة حجرة تغيير الملابس، يظهر لك جليًّا أن الطقس سيُلقي بثقله على الاحتفالات. فمع الحرارة التي لا تزيد على درجة واحدة مئوية، والسحب التي تمتد على مدّ البصر، ورذاذ المطر الذي بدأ في التساقط، سيصل ضيوف الأميرة إلى الحفلة باردين، مبلّلين، ومُستَهلكين بعض الشيء. لكن لدى خروجك في السادسة، كانت درجة الحرارة قد انخفضت كثيرًا، وما يهطل على كتفيك ليس مطرًا خريفيًّا رماديًا، وإنما أول ثلوج يشهدها الموسم. وهكذا، فإن الهطول الذي كان يمكن أن يُفسد بهجة الأمسية، يُضفي عليها، بدلًا من ذلك، هالة من السِّحر. بل إن نِدف الثلج تتلوى في الهواء على نحو خلَّاب يأسرك، حتى إنك تجد نفسك تُزاح بعيدًا عن الطريق حين تمرّ بك عربة ترويكا بأقصى سرعتها- حيث يقف ضابط شاب من الهوسار [الخيَّالة] ممسكًا باللجام مثل قائدِ مئةٍ رومانيّ على عربته الحربية.

بعد أن قضيتَ ساعة تحاول تحرير عربتك التي عَلقَت في مصرَف مياه، تصل إلى بيت الأميرة متأخِّرًا إنما، لحسن الحظ، في توقيتِ وصولِ صديقٍ بدين من أيام الأكاديمية. في الحقيقة، تسنح لك فرصة متابعته وهو يترجّل من عربته الـ«دروشيكي»، ويدفع كتفيه إلى الوراء، ويملأ صدره بالهواء، ثم يختبر لياقة الحُجَّاب- بأن ينزلق على رقعة من الثلج ويسقط على عجيزته. تهرع إلى مساعدته، فتتأبط ذراعه، وتقوده إلى داخل البيت في اللحظة التي يندفع فيها بقية الحضور من صالة الاستقبال.

في غرفة الطعام، تدور سريعًا حول الطاولة بحثًا عن اسمك، مفترضًا أنك- وفقًا لسُمعتك كمتحدث بارع- ستُجلَس إلى جانب ابن عمٍّ خجول. لكنك، ويا للعجب، أُجلِست على يمين ضيفة الشرف. بينما الجالس عن يسار الأميرة... ليس سوى ضابط الهوسار الشاب المندفع الذي أخرجَك عن الطريق.

بنظرة واحدة، تُدرك أنه يتخيل نفسه المركز الطبيعي لانتباه الأميرة. تراه

يتوقع أن يطربها بحكايات من الخدمة العسكرية وهو يعيد ملء كأسيها بالنبيذ من حين لآخر. عندما تنتهي الوجبة، سيقدِّم لها ذراعه ويقودها إلى صالة الرقص، حيث سيستعرض مواهبه في رقصة المازوركا. وعندما تعزف الأوركسترا شتراوس، لن يحتاج إلى أن يراقص الأميرة على الفالس عبر القاعة، لأنه يكون في الشرفة بين ذراعيها.

لكن عندما كان الملازم الشاب على وشك سرد طُرفته الأولى، فُتِح باب المطبخ وظهر ثلاثة حُجَّاب يحملون الصِحَاف. استدارت كل الأعين لترى ما أعدَّته السيدة ترِينت للمناسبة، وعندما رُفعت القباب الفضية الثلاث في اللحظة نفسها تعالت شهقات الإعجاب. لقد طَبَخَت، على شرف الأميرة، طبقَها الخصوصي: شرائح اللحم المحمَّر على الطريقة الإنكليزية مع بودينغ يوركشاير.

في تاريخ الإنسان، لم يسبق وأن أثارت الجِراية العسكرية الحسد. فبسبب توليفة من نقص الكفاءة، واللامبالاة، والافتقار إلى اللمسة الأنثوية، يُغلى كل الطعام في مطبخ الجيش حتى تُقعقِع الأغطية فوق القدور. لذا، فبعد أن عاش الملازم الشاب على الكرنب والبطاطس لثلاثة أشهر متتالية، يصبح غير مهيأ لوصول لحوم السيدة ترينت. فبعد تحميصها لخمس عشرة دقيقة في درجة 230 مئوية ثم تحميرها لساعتين في درجة 175، تخرج شرائح اللحم المحمّر طريّةَ وحمراء من الداخل، مقرمشةَ وبنيَّةً من الخارج. وهكذا، يزيح خيَّالُنا حكاياته عن الخدمة العسكرية جانبًا لمصلحة بعض القطع الإضافية وإعادة ملء كأسه هو بالنبيذ؛ بينما، وفقًا لقواعد الإيتيكيت الراسخة، يصبح من واجبك أنتَ الترفيه عن الأميرة ببعض قصصك المسلية.

بعد أن نظَّف المرق من صحنه بآخر لقمة من قِشرة البودينغ، يُحوِّل الملازم الشاب أخيرًا انتباهه إلى مُضيفته؛ لكن في اللحظة نفسها، تبدأ الأوركسترا في ضبط آلاتها في صالة الرقص ويدفع الضيوف كراسيهم

إلى الخلف. وهكذا يكتفي بتقديم ذراعه للأميرة، لحظة ظهور صديقك البدين إلى جوارك.

الآن، أكثر ما يحبّه صديقك هو رقصة «كوادرِل» جيدة؛ وبرغم بنيته الجسمانية، فقد عُرف عنه أنه ينطّ مثل أرنب ويتبختر مثل ظبي. لكنه يضع يده على عُصعُصه، ويشرح أن اندلاقِه في المدخل أصابه بألم لا يجوز معه التصرف بطَيْش. ويتساءل، عوضًا عن ذلك، إن كنت ترغب في لعب بعض أدوار الورق، فتردَّ بأن ذلك سيكون من دواعي سرورك. لكن يتصادف أن يسمع الملازم حواركما. و، في مزاج نفسي صاخب، يتخيلها فرصة مثالية لكي يعلّم هؤلاء المرفَّهين شيئًا أو اثنين عن ألعاب الحظ. علاوة على ذلك، يقول لنفسه، ستظل الأوركسترا تعزف لساعات ولن تذهب الأميرة إلى أي مكان. لذا، دون مزيد من التفكير، يمرِّر ذراعها إلى أقرب جنتلمان، ويدعو نفسه للانضمام إليكما على طاولة الورق- بينما يشير إلى الساقي طالبًا كأس نبيذ أخرى.

طيّب.

ربما كانت كأس النبيذ الإضافية تلك. وربما كان نزوع الملازم للتهوين من شأن الرجال المتأنّقين. أو ربما كان حظًّا سيئًا ببساطة. أيًّا كان السبب، يكفي القول إنه بعد ساعتين، كان الملازم هو من خسِر ألف روبل وكنت أنتَ من يُمسك بصكّ الدين الموقَّع منه.

لكنْ أيًّا بَلَغَ طيش ذلك الرجل في قيادته للترويكا، فأنت لا تريد أن تضعه في موقف محرِج. تقول: «إنه عيد ميلاد الأميرة. تكريمًا لها، دعونا جميعًا نُعلن التعادل». وبهذا، تقطَع صك الملازم اثنين وترمي النصفين على الجوخ. تعبيرًا عن العرفان، يطيح بكأس النبيذ على الأرض، ويدفع كرسيه إلى الوراء فيُسقطه على الأرض، ويخرج متعثرًا من باب الشرفة إلى قلب الليل.

رغم أن اللعبة لم تجمع إلا خمسة لاعبين وثلاثة متفرجين، تشقُّ قِصّة

صك الدين الممزَّق طريقَها سريعًا في أرجاء صالة الرقص، وفجأة تجدَ الأميرة تبحث عنك لكي تعبر لك عن امتنانها لشهامتك. وبينما تنحني وتردُّ بأن **الأمر لا يستحق**، تشرع الفرقة في عزف مقطوعة فالس ولا تجد خيارًا إلا أن تأخذها بين ذراعيك وتدور بها في القاعة.

الأميرة ترقص بطريقة سماوية. إنها خفيفة ورشيقة وتدور مثل نحلة دوَّارة. لكن بوجود أكثر من أربعين من أزواج الراقصين ونارٍ تستعر في المدفأتين بأقوى من المعتاد، تصل درجة حرارة الغرفة إلى 27 مئوية، ما يدفع خدَّي الأميرة إلى التورُّد وصدرَها إلى اللهاث. خوفًا من أن تسقط مغشيًّا عليها، بطبيعة الحال، تسألَها إن كانت ترغب في بعض الهواء...

أرأيتَ؟

لو لم تُتقن السيدة ترانت فنّ التحمير بهذه الروعة، ربما ظل الملازم الشاب منتبهًا للأميرة بدلًا من أن يأتي على حصّة ثالثة من اللحم مع كأس ثامنة من النبيذ. لو لم ترتفع الحرارة عدة درجات في سويعات قليلة، ربما ما تكوَّن الثلجُ في مدخل العربات، وربما ما سقطَ صديقُك البدين، وربما ما لُعبت أدوار الورق. ولو لم يدفع منظَر الثلج الحُجَّاب إلى إضرام النار بهذا الارتفاع، ربما ما انتهى بك الحال في الشرفة بين ذراعي فتاة عيد الميلاد- بينما كان ضابطُ خيّالةٍ شابٌ يُرجِّع عشاءه إلى المرعى الذي جاء منه.

والأكثر من ذلك، هكذا فكّر الكونت بتعبيرٍ جاد، ربما ما حدثت كل الحوادث المؤسفة التي تلت ذلك...

«ما هذا؟ من أنت؟».

استدار الكونت عن النافذة، فرأى زوجيْن في منتصف العمر يقفان في إطار الباب ومعهما مفتاح الجناح.

سأله الزوج: «ماذا تفعل هنا؟».

ردّ الكونت: «أنا... من خدمة البيَاضات».
استدار إلى النافذة، وأمسك بالستارة وأعطاها شدَّة قوية.
قال: «نعم. كل شيء يبدو مضبوطًا».
ثم رفع طاقية لم يكن يعتمرها ولاذ بالفرار إلى الردهة.

★ ★ ★

«مساء الخير يا فاسيلي».
«آه. مساء الخير يا كونت روستوف»
نقَرَ الكونت على طاولة المكتب نقرة خفيفة:
«هل رأيت نينا في الجوار؟».
«أظنّها في صالة الرقص».
«آه. هكذا».

كانت مفاجأة سارة للكونت أن يَسمع بعودة نينا إلى أحد مزاراتها القديمة. إذ كانت نينا، وهي الآن في الثالثة عشرة، قد تخلّت تمامًا عن هوايات الطفولة لحساب الكتب والأساتذة. وأن تترك دروسها، يعني أن هناك، لا بُد، اجتماعًا لجماعة مميزة.

لكن عندما فتح الكونت الباب، لم يسمع زحزحة للكراسي ولا دقًّا على المنصات. كانت نينا جالسة بمفردها إلى طاولة صغيرة تحت الثريّا المركزية. لاحظ الكونت أن شعرها مدسوسٌ وراء أذنيها، وهي علامة لا تخطئ على أنها بصدد عملٍ ذي أهمية. المؤكد أن الدفتر أمامها كان مسوّدًا بشبكة من ستة صفوف في ثلاثة أعمدة، بينما على الطاولة مجموعة من الموازين، وشريطُ قياس، وساعةُ إيقاف من تلك التي يستخدمها العدّاؤون.

«تحياتي يا صديقتي».

«آه، أهلًا يا حضرة الكونت».
«هلا خبّرتِني ماذا تفعلين؟».
«نحن نجهّز لتجربة».
جال الكونت ببصره في صالة الرقص.
«نحن؟».
أشارت نينا بقلمها الرصاص إلى الشرفة.
رفع الكونت رأسه، فرأى صبيًّا في عمر نينا رابضًا في مَكْمَنهما القديم وراء الدرابزين. كان الصبي يرتدي زيًّا بسيطًا ولكنه أنيق، وله عينان واسعتان وتعبير جاد ومتيقِّظ. وفوق الدرابزين، صُفَّت سلسلة من الأغراض من مختلف الأشكال والأحجام.
قامت نينا بمهمة التعريف.
«الكونت روستوف، بوريس. بوريس، الكونت روستوف».
«مساء الخير يا بوريس».
«مساء الخير يا سيدي».
استدار الكونت إلى نينا.
«وما طبيعة تجربتكما هذه؟».
«نحن بصدد اختبار فرضيّات اثنين من علماء الرياضيّات المشاهير في تجربة واحدة. تحديدًا، سنختبر حساب نيوتن لسرعة الجاذبية ومبدأ غاليليو القائل بأن الأشياء مختلفة الكتلة تسقط بالتسارع نفسه».
من الدرابزين، أومأ بوريس ذو العينين الواسعتين برأسه بجدّيّة ويقظة.
من باب التوضيح، أشارت نينا بقلمها إلى أول صف من شبكتها، حيث أدرجَت ستة أغراض في ترتيب تصاعدي من حيث الحجم.
«من أين جئتِ بثمرة الأناناس؟».
هتف بوريس بحماسة: «من سلطانية الفواكه في البهو».
وضعت نينا قلمها.

«دعنا نبدأ بالكوبِك يا بوريس. تذكّر أن تُمسكه عند حافة الدرابزين **تمامًا**، وأن تُسقطه **بالضبط** عندما أقول لك».

لوهلة، تساءل الكونت ما إذا كان ارتفاع الشرفة كافيًا لقياس تأثير الكتلة على سقوط الأغراض المختلفة. في نهاية المطاف، ألم يتسلق غاليليو برج بيزا لكي يُجري تجربته؟ وبالتأكيد، لم تكن الشرفة عالية بما فيه الكفاية لحساب تسارع الجاذبية. لكن ليس من دور المراقِب العابر أن يُسائل منهجية العالِم المحنَّك. هكذا، احتفظ الكونت بتساؤلاته حيثما تنتمي.

رفع بوريس الكوبِك، و، مبديًا الاهتمام الجدير بجدية مهمَّته، عدَّل نفسه لكي يستطيع الإمساك بالغرض المعنيّ عند حافة الدرابزين **تمامًا**.

بعد أن سجَّلَت نينا علامة في دفترها، التقطت ساعتها.

«عند العدّة الثالثة يا بوريس. واحد. اثنان. ثلاثة!».

ترك بوريس العملة وبعد لحظة صمت، رنّت على الأرض.

نظرت نينا إلى ساعتها.

صاحت لبوريس: «ثانية فاصل خمسة وعشرين من مئة».

وأجابها: «تمام».

دوَّنت نينا البيان بدقّة في الخانة المخصصة له، وفي ورقة منفصلة، قسَمت نينا الرقم على مُعاملٍ حسابيّ، وأخذَت الباقي، وطرحَت الفارق، وهكذا وهكذا، إلى أن قرَّبَت الجواب إلى أقرب ثاني رقم عشري. ثم هزّت رأسها في إحباط واضح.

«تسعمائة وخمسة وسبعون سنتيمترًا في الثانية لكل الثانية».

استجاب لها بوريس وقد ارتسمت على وجهه سيماء الاهتمام العلمي.

قالت نينا: «البيضة».

رُفعت البيضة (لعلها اختُلست من مطبخ البياتسا) تمامًا، وتُركَت

بالضبط، وحُسب وقتها إلى جزء من مئة من الثانية. واستمرت التجربة مع فنجان شاي، وكرة بلياردو، وقاموس، وثمرة أناناس، كلها أكملت رحلتها إلى أرضية صالة الرقص في الفترة الزمنية نفسها. وهكذا، في صالة رقص فندق المتروبول في الحادي والعشرين من يونيو عام 1926، بُرِّئت ساحة المهرطِق غاليليو غاليلي برنَّة، ولَطمة، ودشَّة، ورضَّة، ودقَّة، وهدَّة.

من بين الأغراض الستة، كان فنجان الشاي هو الغرض المفضل لدى الكونت. إذ لم يُصدر دشّةً مُرضية عند الارتطام فحسب، ولكن في الأعقاب المباشرة كان بوسع المرء سماع شَقَفَات الخزف وهي تتزحلق على الأرضية مثل حبّاتِ جوزٍ على الجليد.

وإذ انتهت نينا من حساباتها، لاحظَت بقدر من الحزن:

«البروفيسور ليستسكي قال إن تلك الفرضيات اختُبرت عبر الزمن...».

قال الكونت: «نعم. أظنّها اختُبرت».

ثم لكي يلطِّف مزاجها، وطالما أن الساعة شارفت على الثامنة، عَرض عليها هي وصديقها الشاب أن ينضما إليه لتناول العشاء في البويارسكي. لكن للأسف، كان لا يزال أمامها هي وبوريس تجربة أخرى- تجربة تتضمّن دلوَ مياه، ودراجة، ومحيط الميدان الأحمر.

في تلك الليلة من بين كل الليالي، هل شَعر الكونت بالإحباط كون نينا وصديقها الشاب لن يستطيعا الانضمام إليه على العشاء؟ بالطبع. مع ذلك، لطالما آمن الكونت بأن الرب، الذي كان يستطيع بسهولة أن يقسِّم ساعات الظلام والنور بالتساوي من المنتصف، قد اختار عوضًا عن ذلك أن يجعل أيام الصيف أطول لفائدة الاختبارات العلمية من هذا النوع تحديدًا. علاوة على ذلك، راود الكونت شعور لطيف أن بوريس قد يصبح الأول بين سلسلة طويلة من الشبان الجادّين المتيقّظين الذين

سوف يُسقطون البَيْضات من الدرابزينات ويستقلُّون الدرَّاجات بصحبة الدلاء.

قال الكونت بابتسامة: «إذًا، سأترككما لذلك».

«تمام. لكن هل جئتَ لشيء محدد؟».

قال الكونت بعد وقفة: «لا. لا شيء على وجه الخصوص». لكن بينما كان يستدير باتجاه الباب، خطرَ له خاطر. «نينا...».

رفعت رأسها عن عملها.

«حتى إذا كانت تلك الفرضيات قد اختُبرت على مرّ الزمن، أعتقد أنك محقّة تمامًا في اختبارها مجددًا».

تفحَّصت نينا الكونت للحظة، ثم أومأت برأسها قائلة: «نعم. لطالما عرفتَني حقّ المعرفة».

★ ★ ★

في العاشرة، كان الكونت جالسًا على كرسيه في البويارسكي وأمامه صحن فارغ وزجاجة شبه فارغة من النبيذ «الأبيض» على الطاولة. مع اقتراب اليوم حثيثًا من نهايته، شعرَ بقدر من الفخر لمعرفته أن كل شيء في مكانه.

ذلك الصباح، وبعد أن تلقى زيارة من قنسطنطين قنسطنطينوفيتش، كان الكونت قد صفّى حساباته لدى «مُوير وميريليس» (المعروف حاليًّا بـ«المتجر المركزي الشامل»)، ولدى مخبز فيليبوف («مخبز موسكو الأول»)، و، بالطبع، لدى المتروبول. على طاولة مكتب الدوق الأكبر، كان قد كتب خطابًا إلى ميشكا، عَهِد به بعد ذلك إلى بيتيا مصحوبًا بتعليمات أن يُرسَل بالبريد في اليوم التالي. بعد الظهر، كان قد قام بزيارته الأسبوعية للحلاق ووضّب غرفتيه. كان قد ارتدى سترته السموكن

الخمريّة (التي، لنكون صريحين، كانت محكَمة على نحو محرِج)، وفي جيوبها وضع عملة ذهبية واحدة للحانوتيّ مصحوبة بتعليمات أن يُلبسوه السترة السوداء المكويَة حديثًا (التي وضعها على فراشه)، وأن يُدفن جثمانه في أرض العائلة في «أيدل آور».

لكن إذا كان الكونت قد شعر بالفخر لمعرفته أن كل شيء في محلّه، فقد شعر بالراحة لمعرفته أن العالم سيستمر من دونه- بل إنه استمر بالفعل حتى اللحظة. في الليلة السابقة، تصادف أن كان يقف عند مكتب مسؤول خدمات النزلاء عندما أخرج فاسيلي خريطة لموسكو لأجل أحد نزلاء الفندق. وبينما كان فاسيلي يرسم خطًّا متعرجًا من مركز المدينة إلى طريق الحدائق الدائري، بدا أكثر من نصف أسماء الشوارع التي نَطقها غير مألوف للكونت. في وقت سابق من ذلك اليوم، كان فاسيلي قد أبلغه أن بهو البولشوي الشهير بلونيْه الأزرق والذهبي قد طُلي بالأبيض، بينما في منطقة أربات، انتُزع تمثال غوغول المغموم الذي نحته أندرييف عن قاعدته وحلّ محلّه تمثال أكثر بهجة لغوركي. على هذا المنوال، صار لمدينة موسكو أن تتباهى بأسماء شوارع جديدة، وأبهاء جديدة، وتماثيل جديدة- ولم يبدُ أن ذلك سبَّب أدنى إزعاج لا للسيَّاح، ولا لمرتادي المسارح، ولا للحَمَام.

كان الاتجاه الجديد في تعيين الموظفين، الذي بدأ بتعيين الأسقف، قد استمر بلا هوادة- ما سمح الآن لأي شاب يمتلك نفوذًا أكثر من الخبرة أن يرتدي السترة البيضاء، وينظف المائدة من اليسار، ويصبّ النبيذ في أكواب المياه.

مارينا، التي كانت في السابق تُرحب برفقة الكونت وهي تخيط في غرفة الخياطة، أصبح لديها الآن خيّاطة مبتدئة عليها مراقبتها إضافة إلى طفل رضيع في البيت (ليباركه الرب).

نينا، التي كانت قد خطت أولى خطواتها إلى العالم الحديث واكتشفت أنه جدير بذكائها الحادّ شأنه شأن دراسة حياة الأميرات، كانت تنتقل مع

والدها إلى شقة كبيرة في أحد المباني الجديدة المخصصة لاستخدام مسؤولي الحزب.

وحيث إنه كان الأسبوع الثالث من يونيو، كان المؤتمر السنوي الرابع لـ«رابطة كتّاب البروليتاريا الروس» يمضي قُدمًا، لكنّ ميشكا لن يحضره، إذ كان قد أخذ إجازة من وظيفته في الجامعة لكي يُنهي أنطولوجيا القصة القصيرة التي يحرّرها (والتي أصبحت الآن في خمسة أجزاء) ولكي يلحق بكاترينا العائدة إلى كييف، حيث تُدرِّس في إحدى المدارس الابتدائية.

من حين إلى آخر، ظلّ الكونت يحتسي فنجانًا من القهوة على السطح مع الحِرفيّ، أبرام، حيث يتكلمان عن ليالي الصيف في نيجني نوفغارِد. لكن الشيخ صار قصير النظر ومتردّد الخطى حتى إن النحلات، في أحد صباحات ذلك الشهر، وكأنما استباقًا لتقاعده، اختفت من قفائرها.

إذًا، نعم، كانت الحياة تمضي قُدمًا، مثلما ظلّت دائمًا.

حين نظر الكونت إلى الوراء، تذكّر كيف، في الليلة الأولى من إقامته الجبرية، تأثرًا بمقولة أبيه الروحي القديمة، كان قد كرّس نفسه لتَسيُّد ظروفه. طيّب، بأثرٍ رجعي، ثمة قصة أخرى رواها أبوه الروحي جديرة بالاحتذاء بالقدر نفسه. قصة تخص أحد الأصدقاء المقربين للدوق الأكبر، الأدميرال ستيبان ماكاروف، الذي قاد البحرية الروسية الامبراطورية أثناء الحرب الروسية-اليابانية. في الثالث عشر من أبريل عام 1904، عندما كانت «بورت آرثر» تتعرض للهجوم، قاد ماكاروف سفنه الحربية إلى قلب المعمعة وأجبر الأسطول الياباني على التراجع داخل البحر الأصفر. لكن لدى عودة سفينة القيادة إلى الميناء وسط مياه هادئة، اصطدمت بلغم ياباني وبدأت تمتلئ بالمياه. وعليه، صعد ماكاروف، بعد أن انتصر في المعركة وصار يُبصر شواطئ الديار بعينيه، إلى دفّة القيادة بزيّه العسكري الكامل وغرق مع سفينته.

كانت زجاجة النبيذ «الأبيض» الخاصة بالكونت (وكان على يقين أنها شاردونيه من بُرغندي يُفضَّل تقديمها في درجة حرارة 13 مئوية) تتعرَّق

على الطاولة. مدّ الكونت يده من فوق صحنه، وتناول الزجاجة، وصبّ لنفسه منها. ثم رفع نخبَ عرفان للبويارسكي، وتجرع كأسه، واتجه إلى الشاليابين لتناول كأس أخيرة من البراندي.

★ ★ ★

عندما وصل الكونت إلى الشاليابين، كان في نيَّته أن يستمتع بالبراندي، ثم يودِّع أودريوس، ويعود إلى مكتبه لينتظر دقة الثانية عشرة. لكن مع اقتراب كأسه من نهايتها، لم يسعه أن يمنع نفسه من سماع محادثة تجري على البار، على مبعدة منه، بين بريطاني شاب مفعم بالنشاط ومسافر ألماني بدا واضحًا أن السفر بالنسبة له فَقَدَ كل سِحره.

أول ما جذب انتباه الكونت كانت حماسة البريطاني لروسيا. تحديدًا، كان الشاب مفتونًا بالمعمار الغريب للكنائس، والجَرْس الصاخب للغة. لكن الألماني أجابه، بتعبير متيبّس، أن الإسهام الوحيد الذي قدَّمه الروس للغرب هو اختراع الفودكا. ثم، وكأنما ليُقلَّ ملاحظته إلى المنزل، تجرّع كأسه.

قال البريطاني: «هيّا. لا يمكن أن تكون جادًّا».

وجّه الألماني لجاره الشاب نظرة من لا يعرف إلا أن يكون جادًا، وقال: «سأشتري كأس فودكا لأي رجل في هذا البار يستطيع تعداد ثلاثة إسهامات أخرى».

الآن، لم تكن الفودكا مشروب الكونت المفضّل. في الحقيقة، رغم حبّه لبلاده، كان نادرًا ما يشربها. علاوة على ذلك، كان قد أتى بالفعل على زجاجة «أبيض» وكأس براندي، ولا يزال أمامه عمل مُلحّ يُعنى بأمره. لكن عندما يهوِّن الآخرون من شأن بلادك بهذه الطريقة، لا يجوز أن تتحجج بالأولويات أو المواعيد- خصوصًا إذا كنت قد أتيت على زجاجة «أبيض» وكأس براندي. وهكذا، بعد أن خطَّ ملحوظة سريعة

لأودريوس على ظهر منديل، ودسّه تحت ورقة من فئة روبل واحد، تنحنح الكونت.

«معذرة أيها السيّدان. لم أستطع أن أمنع نفسي من سماع حواركما. ليس لدي شك، ماين هِرّ، أن ملاحظتك بخصوص إسهامات روسيا للغرب كانت ضربًا من المبالغة الشعريّة- تقليص الحقائق بشكل مبالغ لإحداث أثرٍ شعريٍّ. مع ذلك، سآخذ كلمتك وأسعد بقبول التحدّي الذي طرحتَه».

قال البريطاني: «هذا هو الكلام!».

وأضاف الكونت: «لكن، لديَّ شرط واحد».

سأل الألماني: «وما هو؟».

«في مقابل كل إسهام أسمّيه، نشرب نحن الثلاثة كأسًا من الفودكا معًا».

أشاح الألماني، الذي كان عابسًا، بيده في الهواء وكأنما يستهين بالكونت، مثلما استهان ببلاده من قبل. لكن أودريوس المتيقّظ دائمًا كان قد جهّز ثلاث كؤوس فارغة على البار وراح يترعها إلى الحافة.

«شكرا يا أودريوس».

«بكل سرور يا صاحب السعادة».

«رقم واحد»، قالها الكونت، ثم توقّف برهة من أجل التأثير الدرامي: «تشيخوف وتولستوي».

أطلق الألماني شَخرة.

«نعم، نعم. أعرف ما ستقول: إن كل أمة لديها شعراؤها في مجمَع الخالدين. لكن بتشيخوف وتولستوي، وَضَعْنَا نحن الروس دفتَيْ كتاب السرد. منذ الآن، سيتخذ كُتّاب الأدب من كل الأصقاع مواقعهم وسط السلسال الذي يبدأ بأحدهما وينتهي بالآخر. إذ، دعني أسألك، من ذا الذي أتقن الشكل الأقصر أفضل من تشيخوف بقصصه الصغيرة كاملة

الأوصاف؟ تلك القصص التي تُدخلنا، بدقّتها وإيجازها، إلى زاويةٍ ما في بيتٍ ما في ساعةٍ بعينها يكون فيها الظرف الإنساني بأكمله سافرًا عاريًا، وإن على نحو يمزق نياطِ القلب. بينما على الطرف الآخر: هل لك أن تتصوَّر عملًا أعظم نطاقًا من ‹الحرب والسلام›؟ عملٌ ينتقل بهذه الرشاقة من صالة البيت إلى ميدان المعركة ثم يعود أدراجه؟ عملٌ يَستقصي على هذا النحو المثالي كيف يشكّل التاريخُ الفردَ، ويشكّل الفردُ التاريخَ؟ أؤكد لك أن الأجيال التالية لن تُنجب مؤلّفين جُددًا يحلّون محلّ هذين الاثنين اللذيْن يمثّلان أَلِفَ الكتابة السردية وياءها».

«هذا الرجل لديه حُجّة قويّة هنا»، قالها البريطاني ثم رفع كأسه وتجرّعها. وهكذا، تجرّع الكونت كأسَه، وبعد دمدمة، حذا الألماني حذوهما.

سأل البريطاني بينما كان أودريوس يعيد ملء الكؤوس: «رقم اثنان؟»

«الفصل الأول، المشهد الأول، من ‹كسّارة البندق›».

قهقه الألماني: «تشايكوفسكي!».

«أنت تضحك، ماين هِر. مع ذلك، فأنا أراهن بألف كرونة على أنك تتخيله الآن. في عشيّة الكريسماس، بعد الاحتفال مع الأسرة والأصدقاء في قاعة مزيّنة بالأكاليل، تستغرق كلارا في النوم على الأرض مع لعبتها الجديدة البديعة. لكن عند دقات منتصف الليلة، وحين يحطّ دروسلماير الأعور على ساعة الجد مثل بومة، تبدأ شجرة الكريسماس في النمو...».

حين رفع الكونت يديه ببطء فوق البار ليوضّح نمو الشجرة، بدأ البريطاني يصفِّر المارش الشهير من الفصل الافتتاحي.

قال الكونت للبريطاني: «نعم، بالضبط. يَشيع أن الانكليز أفضل من يحتفلون بعيد الحلول. لكن مع كامل الاحترام، لكي يعيش المرء خلاصة بهجة الشتاء عليه أن يغامر شمالًا إلى ما وراء لندن. عليه أن يغامر إلى ما بعد خطّ عَرض خمسين، حيث يصل مسار الشمس إلى ذروة إهليلجيَّته وقوة الريح إلى ذروة جبروتها. ظلامٌ، بردٌ، وأراضٍ تعزلها الثلوج، تمتلك

روسيا ذلك النوع من الطقس حيث تستعر روح الكريسماس، وذلك ما جعل تشايكوفسكي يقبض على صوتِه أفضل من أي شخص آخر. أقول لك: الأمر لا يقتصر على أن كل طفل أوروبي في القرن العشرين يعرف ألحان ‹كسّارة البندق›، بل إنهم سيتخيلون الكريسماس تمامًا كما يصوَّر في هذا الباليه؛ وفي عشيّات الكريسماس في أواخر أعمارهم، ستظل شجرة تشايكوفسكي تنمو من أراضي ذكرياتهم، وسيظلّون يحدّقون فيها بدهشة وهي تعلو سامقةً».

أطلق البريطاني ضحكة انفعالية وتجرّع كأسه.

قال الألماني، وهو يرفع شرابه على مضض: «القصة ألّفها كاتب بروسيّ».

اعترف الكونت: «أُقرّ لك بذلك. ولولا تشايكوفسكي، لظلّت في بروسيا».

بينما كان أودريوس يعيد ملء الكؤوس، لاحظ الساقي المتيقّظ دائمًا نظرة الكونت الاستفهامية وأجاب بإيماءة تأكيد من رأسه.

«ثالثًا»، قالها الكونت. ثم، بدلًا من الاستفاضة، أشار ببساطة إلى مدخل الشاليابين حيث ظهر فجأة نادلٌ يحمل صحنًا فضّيًّا متوازنًا على كفّ يده. وبينما يضع الصحن على البار بين الأجنبيَّيْن، رفع القبة ليكشف صحنًا وفيرًا من الكافيار وبجانبه فطائر البلّيني والقشدة الحامضة. حتى الألماني لم يسعه إلا الابتسام، إذ تغلَّبَت شهيّته على تحيّزاته.

أي شخص قضى ساعة في شرب كؤوس متتابعة من الفودكا يعرف أن حجم الإنسان، للغرابة، لا يؤثر كثيرًا في قدرته على الشراب. هناك رجال ضئيلو الجسد حَدُّهم سبع كؤوس، وعمالقة حَدُّهم كأسان. بالنسبة لصديقنا الألماني، بدا أن حَدَّه ثلاثة. فإذا كان تولستوي أسقطه في برميل، وتشايكوفسكي جعله ينجرف مع التيار، كان الكافيار هو الذي دفعه من فوق الشلّال. هكذا، بعد أن هزَّ إصبعه موبخًا الكونت، انتقل إلى زاوية البار، وأراح رأسه على ذراعيه، ونام يحلم بـ«جنيَّة الحلوى».

اعتبرها الكونت علامة، واستعد لإزاحة كرسيه إلى الوراء، لكن البريطاني الشاب كان يعيد ملء كأسه.

قال: «كان الكافيار ضربة عبقرية. لكن كيف استطعت تدبيره دون أن تبتعد عن أنظارنا لحظة واحدة؟».

«الساحر لا يكشف أسراره أبدًا».

ضحك البريطاني، ثم تفحّص الكونت وكأنما بفضول متجدِّد.

«من أنت؟».

هزّ الكونت كتفيه.

«أنا شخص قابلتَه في بار».

«لا. ليس كذلك. أنا أعرف الرجل واسع الاطلاع عندما أقابله. ولقد سمعتُ كيف يخاطبك البارمان. من أنت بحقّ؟».

ابتسم الكونت على نحو يوحي بنكران الذات.

«في زمنٍ ما، كنت الكونت ألكسندر إلييتش روستوف- حامل وسام القديس أندرو، عضو نادي الفروسية، مستشار الصيد الامبراطوري...».

مدّ البريطاني الشاب يده.

«تشارلز أبيرنثي- الوريث المفترض لإيرل ويستمورلاند، مموِّل متدرِّب، ومتسابق المقدمة في فريق كيمبريدج للتجديف الذي خرج من منافسات سباقات هينيلي عام 1920».

تصافح السيدان وشربا. ثم تفحَّص الوريث المفترض لإيرل ويستمورلاند الكونتَ ثانية. «لا بُد وأنها عَشريَّة عصيبة عليك...».

قال الكونت: «تستطيع أن تقول ذلك».

«هل حاولت المغادرة بعد الثورة؟».

«على العكس يا تشارلز؛ لقد عدتُ بسببها».

نظر تشارلز إلى الكونت باندهاش.

«عدتَ؟».

«كنت في باريس عندما سقط الأرميتاج. غادرتُ البلاد قبل الحرب بسبب بعض الـ... الظروف».

«لم تكن فوضويًّا، أليس كذلك؟».

ضحك الكونت:

«لا».

«ثم ماذا؟».

نظر الكونت في كأسه الفارغة. لم يكن قد تكلم عن تلك الحوادث منذ سنوات طويلة.

قال: «الوقت متأخّر. والقصّة طويلة».

ردًّا على ذلك، أعاد تشارلز ملء كأسيهما.

هكذا، رجع الكونت بتشارلز طويلًا حتى خريف عام 1913، حين انطلق في ليلة عاصفة لحضور عيد الميلاد الحادي والعشرين للأميرة نوفابكسكي. وَصَفَ الثلج فوق مَدخل العربات، واللحمَّ المحمَّر الذي أعدَّته السيدة ترينت، وصكّ الدين الممزَّق- وكيف أدى ارتفاع الحرارة بضع درجات هنا وهناك إلى أن ينتهي به الأمر في الشرفة بين ذراعي الأميرة بينما كان الملازم الطائش يتقيأ وسط العشب.

ضحك تشارلز.

«لكن يا ألكسندر، هذا يبدو رائعًا. بالتأكيد لم يكن هذا سبب مغادرتك لروسيا».

«لا»، اعترف الكونت، لكنه واصل بعدها سرد قصّته المشؤومة: «تمرّ سبعة أشهر يا تشارلز. إنه ربيع عام 1914، وأعود إلى عزبة العائلة في زيارة. بعد تقديم التحية لجدتي في المكتبة، أخرج للبحث عن أختي، هيلينا، التي تحب القراءة تحت شجرة الدردار الضخمة عند منعطف النهر. من على بُعد ثلاثين مترًا، أرى أنها ليست على طبيعتها- بعبارة أخرى، أُدرك أنها أكثر من طبيعتها. لدى رؤيتي تعتدل في جلستها ويظهر

بريق في عينيها وابتسامة على شفتيها، ويبدو واضحًا أنها متشوّقة لإخباري بخبر ما، فأصير متشوقًا بالقدر نفسه لسماعه. لكن بينما أجتاز الـمَرجة متجهًا إليها، تنظر إلى نقطة ورائي وتبتسم بإشراقة أكبر وأكبر عندما ترى هيئة وحيدة تقترب على جواد- هيئة وحيدة في زي الهوسار...

«هل تلاحظ المعضلة التي وضعني فيها هذا الثعلب يا تشارلز؟ بينما كنت أعاقر الخمر في موسكو، بدأ يسعى وراء شقيقتي. كان قد اتفق مع أحدهم لكي يقدِّمه لها، ثم تودَّد إليها بحرص، بصبر، **بنجاح**. وعندما كان جسده يتأرجح مترجلًا من على السرج والتقت أعيننا، لم يستطع كبح شفتيه من الالتواء في طَرَب. لكن كيف كان لي أن أشرح الموقف لهيلينا؟ هذه الملاك ذات الألف فضيلة؟ كيف كان لي أن أخبرها أن الرجل الذي وقعَت في غرامه سعى لنيل مشاعرها لا تقديرًا لخصالها، وإنما تصفيةً لحساب».

«وماذا فعلتَ؟».

«آه يا تشارلز. ماذا فعلتُ؟ لم أفعل شيئًا. فكّرتُ أن طبيعته الحقيقة ستجد فرصةً للإفصاح عن نفسها بكل تأكيد- تمامًا كما حدث في بيت آل نوفابكسكي. وهكذا، في الأسابيع التالية، ظللت أحوم حول حوافّ مغازلاتهما. عانيتُ على موائد الغداء وطاولات الشاي. كززتُ على أسناني وأنا أراقبهما يتنزهان في الحدائق. لكن بينما كنت أتحيّن الفرصة، ظلَّت سيطرته على نفسه تفوق أكبر توقعاتي جموحًا. كان يسحب لها الكرسي؛ كان يقطف لها الأزهار، كان يقرأ القصائد؛ كان **يكتب** الشعر! وكلما التقت أعيننا كانت تَظهر تلك الالتواءة الصغيرة في ابتسامته.

«لكن في أصيل يوم عيد ميلاد شقيقتي العشرين، وبينما كان مشغولًا في مناورة عسكرية وكنا نحن في زيارة لأحد الجيران، عُدنا عند الغسق لنجد عربة الترويكا الخاصة به أمام بيتنا. من نظرة واحدة لهيلينا، استشعرتُ جذلَها. كانت تفكر: لقد هرع عائدًا، قاطعًا ذلك الطريق الطويل من مقر

كتيبته لكي يتمنى لي عيد ميلاد سعيد. كادت تقفز عن حصانها وتركض صاعدة الدَرَج؛ وتبعتُها أنا مثل رجل مُدان يُساق إلى المشنقة».

تجرّع الكونت كأسه وأعادها ببطء إلى البار.

«لكنْ هناك، في الردهة، لم أرَ شقيقتي بين ذراعيه. بل رأيتها على بعد درجتين من الباب، ترتعش. فلُصق الحائط، كانت تقف نادَجدا، وصيفة شقيقتي. صدرَّيتُها ممزَّقة، وذراعاها متقاطعان على صدرها، ووجهها قرمزيٌّ من المهانة، ألقَت نظرة سريعة على شقيقتي ثم ركضَت صاعدة السلم. راحت شقيقتي، مرعوبةً، تركض متعثرة في الردهة، وارتمت على كرسي، وغطَّت وجهها بيديها. ومُلازمنا النبيل؟ كان يقف مبتسمًا لي مثل قِط.

«عندما بدأتُ أُفصح عن غضبي، قال: ‹آه، هيا يا ألسكندر. إنه عيد ميلاد هيلينا. على شرفها، دعنا نعتبر نفسنا متعادليْن›. ثم أطلق ضحكة هادرة وهو يخرج من الباب دون أن يلقي نظرة واحدة على شقيقتي».

أطلق تشارلز صفيرًا خافتًا.

أومأ الكونت برأسه.

«لكن عند ذلك المنعطف يا تشارلز، لم أقف مكتوف اليدين. اجتزت المدخل إلى الحائط الذي عُلِّق عليه مسدسان أسفل شعار العائلة. وعندما شدَّت شقيقتي كمّي وسألتني إلى أين أذهب، خرجتُ بدوري من الباب دون أن ألقي عليها نظرة واحدة».

هزّ الكونت رأسه مستنكرًا سلوكَه ذاته.

«كان قد سبقني بدقيقة، لكنه لم يستغلها ليوسّع المسافة بيننا. صعد بهدوء إلى عربته وانطلق بالجوادين في سرعة أقرب إلى الخبب. هاكَ هو في عُجالة يا صديقي: رجلٌ ينهب الأرض نهبًا باتجاه الحفلات، ويفرُّ خببًا من آثامه».

أعاد تشارلز ملء الكأسين وانتظر.

«كان دربُنا دائرة كبيرة تربط البيت بالطريق الرئيسي بقوسين متقابلَيْن محفوفَيْن بأشجار التفاح. وكان حصاني لا يزال مربوطًا في مربطه. وهكذا، عندما رأيته يمضي بعيدًا، امتطيت حصاني وانطلقت في الاتجاه المقابل عدوًا. وفي غضون دقائق، كنت قد وصلت إلى نقطة التقاء قوسَي الدرب مع الطريق. ترجَّلت، ووقفت أنتظر اقترابه.

«تستطيع تصوُّر المشهد- أنا وحدي على الدرب والسماء زرقاء، والنسيم عاصفٌ، وأشجار التفاح مُزهرة. ومع أنه غادر البيت بسرعة لا تتجاوز الخبب إلا قليلًا، فعندما رآني، نهض على قدميه، ورفع كرباجه، وبدأ يحثّ حصانيه على الانطلاق بأقصى سرعة. لم يكن هناك شك في ما ينتويه. لذا، ومن دون مزيد من التفكير، رفعتُ ذراعي، وصوبتُ نحو هدفي، وضغطتُ الزناد. صدمة الرصاصة أطاحته عن قدميه. وتحرَّر اللجام وجَنح الحصانان منحرفَيْن عن الدرب، فانقلبَت العربة، وألقت به وسط التراب- حيث رقد بلا حراك».

«قتلتَه؟».

«نعم يا تشارلز، قتلتُه».

أومأ الوريث المفترض لإيرل ويستمورلاند برأسه ببطء.

«هناك وسط التراب...».

تنهّد الكونت وتناول رشفة.

«لا. كان ذلك بعدها بثمانية أشهر».

بدا الارتباك على وجه تشارلز.

«بعدها بثمانية أشهر...؟».

«نعم. في فبراير عام 1915. تعرِف، منذ شبابي المبكر كنت معروفًا بدقة التصويب، وكنت عاقدًا العزم على أن أُردي الوحش في صميم قلبه. لكن الطريق لم يكن مستويًا... وهو كان يضرب باللجام... وبُريعمات التفاح كانت تتطاير مع الريح... بكلمة واحدة، أخطأتُ هدفي. وانتهيتُ إلى إطلاق النار عليه هنا».

لمس الكونت كتفه اليمنى.

«إذًا، فأنت لم تقتله...».

«ليس وقتها. بعد أن ربطتُ له جرحه وعَدَّلتُ له عربته، أوصلته إلى بيته. طوال الطريق ظل يشتمني مع كل لفَّة من العجلات، وله حق في ذلك. فصحيح أنه نجا من جُرح طلقة المسدس، لكن ذراعه اليمنى الكسيحة أجبرته على اعتزال الخدمة في سلاح الهوسار. وعندما قدَّم والده شكوى رسمية، أرسلتني جدتي إلى باريس، كما كانت العادة في ذلك الزمن. لكن لاحقًا في ذلك الصيف عندما اندلعت الحرب، أصرّ برغم إصابته على مواصلة مكانه على رأس فوجه. وفي معركة بحيرات ماسوريا الثانية، أُطيح من على حصانه واخترقت جسدَه حربة بندقية أحد فرسان المشاة النمساويين».

أعقبَت ذلك لحظة صمت.

«ألكسندر، آسف أن ذلك الرجل مات في المعركة؛ لكنني أستطيع القول بكل اطمئنان إنك حمَّلتَ نفسك ذنبًا أكبر من نصيبك في تلك الحوادث».

«لكنْ تبقّى حدثٌ آخر: قبل عشر سنوات من الغدّ، وحينما كنت في باريس أتحيّن الفرصة، تُوفيت شقيقتي».

«من كَسرة القلب...؟».

«الفتيات يمتن من كسرة القلب في الروايات فقط يا تشارلز. لقد ماتت من الحمّى القرمزية».

هز الإيرل المفترض رأسه في حيرة.

شرح له الكونت: «لكن ألا ترى؟ إنها سلسلة من الحوادث. تلك الليلة في بيت آل نوفابكسكي عندما مزَّقتُ صك دينه، بنفسٍ كريمة، كنت أعرف تمامًا أن خَبر هذا الفِعل سيصل إلى الأميرة؛ وقد شعرتُ ببالغ الرضا جرّاء قلب الطاولة على هذا الخسيس. لكن لو لم أكن ألزمته حَدَّه بهذه العنجهية، لما سعى وراء هيلينا قَط، لما أهانها قَط، لما أطلقتُ

عليه النار، وربما لما لقي حتفه في ماسوريا، ولكنتُ منذ عشر سنوات موجودًا حيث أنتمي- إلى جوار شقيقتي- عندما لفظَت آخر أنفاسها في نهاية المطاف».

★ ★ ★

بعد أن خَتَم الكونت كأس البراندي بست كؤوس فودكا، عندما خرج من كوّة العليّة قُبيل منتصف الليل، شقّ طريقه المتعرّج فوق سطح الفندق. وإذ كانت الريح جامحة قليلًا والمبنى يترنح أمامًا وخلفًا، كان المرء يتخيّل نفسه سائرًا على سطح سفينة وسط أمواج عالية. يا لها من أجواء مناسبة، فكَّر الكونت وهو يتوقف ليستعيد توازنه قُربَ عمود مدخنة. ثم راح يتحسس مواقع قدميه بين الظلال غير المنتظمة التي تمتد هنا وهناك، مقتربًا من الزاوية الشمالية الغربية للمبنى.

لمرّة أخيرة، نظر الكونت من علٍ إلى المدينة التي كانت مدينته ولم تكن. ومع وفرة مصابيح الشوارع في الطرق الرئيسية، تعرَّف بسهولة على الطريق الدائري وطريق الحدائق الدائري- هاتان الدائرتان متّحدَتَي المركز- اللتان يقع الكرملين في مركزهما وتمتد روسيا بأكملها من ورائهما.

وفكّر الكونت: منذ ظهور الإنسان على سطح البسيطة والرجال يذهبون إلى المنافي. من القبائل البدائية إلى المجتمعات الأكثر تقدمًا، ظل رجالٌ يقولون لرجل مثلهم من حين إلى آخر أن يوضّب حقائبه، ويعبر الحدود. في نهاية المطاف، كان المنفى عقابًا أنزله الرب بآدم في الفصل الأول من الكوميديا الإنسانية؛ ثم أنزله بقابيل بعدها ببضع صفحات. نعم، المنفى قديم قِدَم الإنسان. لكنّ الروس كانوا أول من يبرع في فكرة نفي الإنسان داخل وطنه.

مبكّرًا، في القرن الثامن عشر، كفَّ القياصرة عن طرد أعدائهم خارج

البلاد، وآثروا بدلًا من ذلك إرسالهم إلى سيبيريا. لماذا؟ لأنهم قرروا أن نَفْي رجل من روسيا كما نَفَى الرب آدم من جنة عدن ليس بالعقاب الكافي؛ ففي بلد آخر، قد يُغرِق الرجل نفسه في العمل، ويبني بيتًا، وينشئ أسرة. أي إنه قد يبدأ حياته من جديد.

لكن عندما تَنفي رجلًا داخل بلده، فلا وجود لبداية جديدة. فبالنسبة للمنفيّ داخل وطنه- سواءً أُرسل إلى سيبيريا أو حُكم عليه بعقوبة «الحرمان من المدن الستِّ»- لن يُصبح حب الوطن أمرًا غامضًا أو مكفَّنًا بضباب الزمن. في الحقيقة، ولأن جِنسنا قد تطوَّر على نحو جعلنا نولي أكبر اهتمامنا للأشياء التي تقع بعيدًا عن متناول أيدينا، فإن هؤلاء الرجال، على الأغلب، سيظلّون يطيلون التفكير في مباهج موسكو أكثر من أي موسكوفيّ لديه حرية التمتّع بها.

لكنْ يكفي كل ذلك.

كان الكونت قد أخرج كأس بوردو [رفيعة وطويلة] من «السفيرة»، وضعها الآن فوق عمود المدخنة. انتزع السدادة من زجاجة الشاتونوف-دو-باب التي لا تحمل بطاقة تعريف، والتي كان قد أخذها من قبو المتروبول عام 1924. وحين كان يصبّ النبيذ، وقبْل أن يتذوّقه حتى، عرف أنه خميرةَ محصولٍ ممتاز. ربما من إنتاج عام 1900 أو 1921. عندما امتلأت كأسه، رفعه في اتجاه «أيدل آور».

قال: «نخب هيلينا روستوف، زهرة نيجني نوفغارِد. عاشقة بوشكين، نصيرة ألكسندر، المطرِّزة لكل كيس وسادة في متناول يديها. حياةٌ قصيرة جدًّا، وقلب شفوق جدًّا». ثم تجرّع الكأس عن آخرها.

ومع أن الزجاجة كانت لا تزال مملوءة، لم يملأ الكونت كأسه مجدَّدًا، ولا هو ألقى بها وراء ظهره. بل وضعها بعناية على عمود المدخنة ثم اقترب من سور السطح، حيث وقف منتصب القامة.

أمامه، امتدت المدينة، بجلالها وعظمتها. راحت جحافل أنوارها

ترتعش وتُدوّم حتى اختلطت بحركة النجوم. ثم أخذت تدور في كرة واحدة مشوّشة، خالطةً صنائع الإنسان بصنائع السماء.

وضع الكونت ألكسندر إلييتش روستوف قدمه اليمنى على حافة السور، وقال: «وداعًا يا بلادي».

وكأنما ردًّا عليه، طَرَفَ المنار أعلى برج ميشكا.

كانت المسألة الآن شديدة البساطة. مثل شخص يقف على رصيف ميناء في الربيع متأهبًا للاستمتاع بأول غَطسة في الموسم، ولم يبق أمامه سوى القفز. حين يبدأ المرء من فوق الأرض بستة طوابق فحسب، ويَسقط بسرعة كوبك، أو فنجان شاي، أو ثمرة أناناس، لن تستغرق الرحلة بأكملها إلا ثوانٍ؛ بعدها تكتمل الدائرة. فكما يقود الشروق إلى الغروب ويعود التراب إلى التراب، وكما يرجع كل نهر إلى البحر، على كل إنسان أن يرجع إلى حضن النسيان، من حيث...

«صاحب السعادة!».

استدار الكونت فزِعًا للمقاطعة، فرأى أبرام يقف وراءه منفعلًا. في الحقيقة، كان أبرام منفعلًا جدًّا حتى إنه لم يُظهر أدنى اندهاشٍ برؤية الكونت متأهِّبًا في ذلك الموقع حيث يلتقي السطح بالأثير.

قال الحِرَفيُّ المسنُّ: «ظننتُ أنني سمعت صوتك. أنا سعيد أنك هنا. يجب أن تأتي معي على الفور».

شرع الكونت يوضّح له: «أبرام، يا صديقي»، لكنَّ الشيخ استطرد بلا هوادة:

«لن تصدقني إذا أخبرتُك. يجب أن ترى بنفسك».

ثم، دون انتظار ردّ، هرول بخفّة مدهشة تجاه مخيَّمه.

أطلق الكونت تنهيدة. طمأنَ المدينة إلى أنه سيعود بعد لحظة، وتبع أبرام قاطعًا السطح إلى الكانون، حيث توقّف الشيخ وأشار إلى الركن الشمالي الشرقي من الفندق. وهناك، أمام خلفيّة البولشوي بإضاءته

الساطعة، كان المرء يتبيّن بالكاد فَورةً من الظلال الضئيلة تندفع عبر الهواء.

صاح أبرام: «لقد عادت!».

«النحلات...؟».

«نعم، لكن هذا ليس كل شيء. اجلس، اجلس». أشار أبرام باتجاه لَوح الخشب الذي طالما استخدمه الكونت مقعدًا.

بينما كان الكونت يضع اللوح على حَرفِه، انحنى أبرام على طاولته المرتجَلة. عليها كانت صينية من إحدى القفائر. قَطَع القرص الشمعي بسكين، وفَرَد العسل على ملعقة، وناوله للكونت. ثم اعتدل ثانية وعلى وجهه ابتسامة ترقُّب.

حثّه قائلًا: «تفضّل».

قبلَ الكونت الدعوة ووضع الملعقة في فمه. على الفور، أحس الحلاوة المألوفة للعسل الطازج- مُشمِسًا، ذهبيًّا، وبهيجًا. في ذلك الوقت من العام، توقَّع الكونت أن تعقب ذلك الانطباع الأول نفحةٌ من الليلك من حدائق ألكسندر، أو نوّارات الكرز من طريق الحدائق الدائري. لكن مع تحلّل الإكسير على لسانه، أدرك الكونت شيئًا مختلفًا بالكامل. عِوضًا عن أشجار وسط موسكو المزهرة، حَمَل العسل نفحةً لضفة نهر عشبيَة... أثراً لنسيم صيفيّ... إيعازًا بتعريشة... لكن أكثر من هذا كله، كان هناك ذلك الرحيق الذي لا لَبْسَ فيه لألف شجرةِ تفاح مُزهرة.

كان أبرام يؤمئ برأسه.

قال: «نيجني نوفغارِد».

وقد كانت.

بلا لَبس.

وأضاف أبرام هامسًا: «كل تلك السنين، لا بُد وأنها كانت تسمعنا».

نظر الكونت والحِرفيّ معًا باتجاه حافة السطح حيث كانت النحلات،

وقد قطعت أكثر من مائة وخمسين كيلومترًا وانكبَّت طوعًا على صناعتها، تحوم الآن فوق قفائرها مثل رؤوس دبابيس سوداء، مثل نجوم حطَّت من سمائها.

كانت الثانية صباحًا تقريبًا عندما تمنّى الكونت لأبرام ليلة سعيدة وعاد إلى غرفته. أخرج العملة الذهبية من جيبه، وأعادها فوق عمود العملات داخل قائمة مكتب جدِّه- حيث ستبقى دون مساس لثمانية وعشرين عامًا أخرى. وفي السادسة من مساء اليوم التالي، موعد فتح البويارسكي، كان الكونت أول من يدخل من الباب.

قال للمِتر: «أندري. هل تسمح لي بلحظة...؟».

الكتاب الثالث

1930

تَقلقَلَ الكونت ألكسندر إلييتش روستوف في الثامنة والنصف لدى سماع صوت المطر على الإفريز. بعين نصف مفتوحة، أزاح أغطيته ونزل عن السرير. ارتدى روبه ودسّ قدمه في شِبشِبه. أخرج صفيحة القهوة من المكتب، واغترف ملعقة بُنّ أفرغها في «الجهاز»، وبدأ يدوّر ذراع الطحن.

بينما يلفّ المقبض الصغير مرة بعد مرة، ظلّت الغرفة تحت سلطة النوم الواسنة. إذ استمر النعاس، الذي لم يجد من يقف أمامه بَعد، يلقي بظلاله على الأنظار والأحاسيس، على الأشكال والتراكيب، على ما قيل وما يجب أن يُفعل، باسطًا على كل ما سبق وَهَن سلطانه. لكن عندما فتح الكونت دُرج المطحنة الخشبي الصغير، تحوّل العالم وكل ما يحتويه بفعل هذا العبق، موضع حسد الخيميائيين القدامى- شذى البُنّ المطحون للتوّ.

في تلك اللحظة، انفصل الظلام عن النور، البحر عن اليابسة، السماء عن الأرض. حملت الأشجار ثمارًا وضجّت الغابات بحركة الطيور والحيوان وكلّ دابّة زاحفة. بينما هنا، في الجوار، راحت حمامةٌ صبور تنبش مانع التسريب المعدني بمخالبها.

حرَّر الكونت الدُرج الصغير من «الجهاز»، وصبّ محتوياته في الغلّاية (التي لم يغفل عن تعبئتها بالماء في الليلة السابقة). أشعل الموقِد ونَفَض عود الثقاب. وبينما كان ينتظر اختمار القهوة، قام بثلاثين تمرين قَرْفَصة وثلاثين تمرين إطالة، وأخذ ثلاثين نفسًا عميقًا. من الصوان الصغير

في الزاوية، أخرج إبريقًا صغيرًا من القشدة، وقطعتين من البسكويت الإنكليزي، وثمرة فاكهة (اليوم تفاحة). وبعد أن صبّ القهوة، بدأ يتلذذ بأحاسيس الصباح على أكمل وجه:

اللذاعة الناضرة للتفّاحة...

المرارة الساخنة للقهوة...

الحلاوة الحرّيفة للبسكويت الذي حَمَضت زبدته قليلًا...-

كان خليطًا كامل الأوصاف، حتى إن الكونت شعرَ، لدى الانتهاء منه، برغبة في تدوير ذراع الطحن، وتقسيم التفاحة إلى أربعة، وتحلية قطع البسكويت بالزبد، والاستمتاع بإفطاره من جديد.

لكنّ الوقت كالسيف. لذا، بعد أن سكب الكونت بقايا القهوة من الغلاية، نفض فتات البسكويت على الإفريز لصديقته ذات الريش. ثم أفرغ إبريق القشدة الصغير في صحن صغير واستدار ناحية الباب بِنيَّة وضعه في الردهة- وفي تلك اللحظة رأى المظروف على الأرض.

لا بُد أن شخصًا دسَّه تحت بابه في منتصف الليل.

وضع الصحن على الأرض لصديقه الأعور، وتناول المظروف فتبيَّن أنّ له ملمسًا غير معتاد، وكأنه يحتوي شيئًا مختلفًا للغاية عن خطاب. على الظَهر، كان يحمل شعار الفندق الأزرق الداكن، بينما على الوجه، في مكان الاسم والعنوان، كان ثمة استفسار: **الساعة الرابعة؟**

جلس الكونت على سريره وارتشف ثمالة قهوته. ثم دسّ سِنّ سكين التقشير تحت جُنيْح المظروف، وشقَّه من الركن إلى الركن، ونظر في داخله، ثم صاح: «مون ديو!».

فنون أراخني

التاريخ هو عملية تعيين الحوادث الجسام من رَغْد كرسيٍّ بظهرٍ عالٍ. مستفيدًا من موقعه في الزمن، ينظر المؤرخ إلى الوراء ويشير إلى تاريخ ما مثلما يشير فيلد مارشال أشيبُ الشعر إلى منعطف نهرٍ على خريطة ما، ويقول: **لقد كانت هنا. نقطة التحوّل. العامل الحاسم. اليوم المصيري الذي غيّر كل ما تَلاه تغييرًا جذريًّا.**

هناك، في الثالث من يناير عام 1928، كما يخبرنا المؤرخون، كان تدشين أول خطة خمسيّة- تلك المبادرة التي ستبدأ في تحويل روسيا من مجتمع زراعي ينتمي إلى القرن التاسع عشر إلى قوة صناعية تنتمي إلى القرن العشرين. وهناك في السابع عشر من نوفمبر عام 1929، سقط نيكولاي بوخارين، الأب المؤسس لجريدة «برافدا» ورئيس تحريرها، وآخر الأصدقاء المخلصين للفلّاح، ضحية مناورة بارعة من ستالين أطاحت به من المكتب السياسي- ما مهَّد الطريق إلى عودة الحكم الأوتوقراطي في كل شيء إلا الاسم. وهناك في الخامس والعشرين من فبراير عام 1927، كانت صياغة المادة 58 من القانون الجنائي- الشبكة التي سوف نسقط جميعًا في حبائلها في نهاية المطاف.

هناك في السابع والعشرين من مايو، أو هناك في السادس من ديسمبر؛ في الثامنة أو التاسعة صباحًا.

هناك، كان ما كان. مثلما يحدث في الأوبرا: أُسدلت ستارة، ورُفعت ذراع تحريك، وأُزيح المنظر في لحظة إلى مكامن السقف، ليَسقط مكانه منظرٌ آخر على الخشبة، وهكذا، عندما تُرفع الستارة بعدها بلحظة سيجد

الجمهور نفسه قد انتقل من صالة رقص كاملة التجهيز إلى ضفاف نهر تحفّه الأشجار...

لكن الحوادث التي جرت في تلك التواريخ المختلفة لم تقلِب مدينة موسكو رأسًا على عقب. عندما قُطعت الورقة من الروزنامة، لم تسطَع نوافذ غرف النوم فجأة بضوء مليون مصباح كهربي؛ ولم تنبثق تلك النظرة «الأبويّة» فجأة فوق كل مكتب وتغزو كل حلم؛ ولم تستيقظ المدينة على مئة سيارة شرطة يضع سائقوها المفاتيح في المحرّكات وينتشرون بها في الشوارع الظليلة. لدى إطلاق أول خطة خمسية، وسقوط بوخارين من عليائه، وتوسُّع القانون الجنائي بما يسمح بتوقيف أي شخص يوحي مظهره بأنه معارض، لم تكن هناك إلا أنباء، تباشير، أساسات. وسوف يمرّ عقد كامل من الزمن قبل أن تُستشعر آثارها بالكامل.

لا، بالنسبة لمعظمنا، لم تكن أواخر العشرينيات تتسم بسلسلة من الحوادث الجسام. بل كان مرور تلك السنين أشبه بإدارة مِشكال.

في قاع أسطوانة الـمِشكال تقبع شظايا من الزجاج الملوّن في ترتيب عشوائي؛ لكن بفعل التماعة ضوء، والتأثير المتداخل للمرايا، وسِحر التناظر، عندما يدقّق الناظر بالداخل يرى نسقًا مبهرَج الألوان، بالغ التعقيد، يبدو وأنه قد صُمِّم بأقصى درجة من الحرص. ثم لدى أوهى إمالة لمعصم اليد، تبدأ الشظايا في الحركة والاستقرار في تشكيل جديد- تشكيل يحمل تناظرَه الخاص من الأشكال، وتعقيده الخاص من الألوان، وإيحاءه الخاص بالتصميم الحريص.

هكذا كانت مدينة موسكو في أواخر العشرينيات.

وهكذا كان الحال في فندق المتروبول.

في الحقيقة، لو كان لموسكوفيٍّ مخضرَم أن يجتاز ساحة المسرح في اليوم الأخير من ربيع عام 1930، لوجد الفندق كما يتذكّره تمامًا.

هناك على السلالم الأمامية لا يزال يقف بافِل إيفانوفيتش في معطفه الطويل، يبدو أشوس كما هو (وإن كان ورِكُه الآن يسبب له بعض المتاعب في العصريّات المكفهرّة). على الجانب الآخر من الأبواب الدوّارة يقف الشبان المتحمسون أنفسهم معتمرين الطواقي الزرقاء نفسها متأهبين لأن يختطفوا حقائب المرء ويهرعوا بها صعودًا على السلالم (وإن كانوا الآن يُسمُّون غِريشا وجينيا بدلًا من باشا وبيتيا) ولا يزال فاسيلي، بمعرفته الخارقة بالأماكن، يقف وراء مكتب خَدمات النزلاء في مواجهة أركادي مباشرة، الذي لا يزال مستعدًا لتدوير المسجِّلة وإعارتك قلمًا عند الحاجة. وفي مكتب المدير، لا يزال السيد هاليكي يجلس خلف مكتبه البرَّاق (وإن كان مساعدُ مديرٍ جديد له ابتسامة كهنوتيّة يقطع أحلام يقظته لدى أوهى انتهاك لقواعد الفندق).

في البياتسا، يجتمع الروس من كل شكل ولون (أو على الأقل مَن استطاع منهم تأمين عملة صعبة) ليتناولوا قهوتهم على مهل ويقابلوا أصدقاءهم. بينما في صالة الرقص، أصبحت التعليقات الخطيرة والوصولات المتأخرة التي كانت تُميّز «الاجتماعات» في ما مضى، تُميّز الآن «مآدب العشاء الرسمية» (وإن لم يعد أحدٌ مغرَمًا بالأصفر يتجسّس من الشرفة).

والبويارسكي؟

في الساعة الثانية كان العمل في مطبخه يجري على قدم وساق. الشيفات الصغار يقفون على طول الطاولات الخشبية، يقطّعون الجزر والبصل، فيما ينزع ستانيسلاف، مساعد الشيف، عظام الحَمَام برقَّة وهو يصفِّر لحنًا. فوق المواقد الهائلة، كانت ثماني عيونٍ مشتعلة لتسوية صلصات، وحساءات، ويَخْنات. يفتح شيف المعجّنات، الذي يبدو مغطًّى بالدقيق مثل كعكاته، باب أحد الأفران لإخراج صينيتيْن من فطائر البريوس. وفي مركز كل تلك الأنشطة، بعينٍ على كل مساعد وإصبع في كل قِدْرٍ، يقف إميل زوكوفسكي، وفي يده السكّين متعدد الاستعمالات.

لو كان مطبخ البويارسكي أوركسترا، لكان إميل المايسترو، ولكان سكّينه متعدد الاستعمالات عصا القيادة. بنصلٍ عرضُه خمسة سنتيمترات عند القاعدة وخمسة وعشرين سنتيمترًا عند القمة، يندُر أن يفارق يده وأبدًا لا يبتعد عن متناوله. ومع أن المطبخ مجهَّز بسكاكين للتقشير، وسكاكين لنزع العظام، وسكاكين للتشريح، وسواطير، يستطيع إميل إتمام أي من تلك المهام المختلفة التي صُمِّمت لأجلها تلك السكاكين بسكينه متعدد الاستعمالات ذي الخمسة وعشرين سنتيمترًا. فبِهِ يستطيع سلخ أرنب. يستطيع بَشر قشرة ليمونة. يستطيع تقشير حبّة عنب وتقسيمها إلى أرباع. كذلك يستطيع استخدامه لقَلْب فطيرة بانكيك أو تقليب حساء، وعلى طرف نصله العلوي يستطيع قياس ملء ملعقةٍ من السكر أو رشة من الملح. لكنه، فوق كل ذلك، يستخدمه في الإشارة.

«أنتَ»، يقول للصَلْصَجيّ، ملوّحًا بِسِنّ سكينه: «هل ستغلي هذه حتى لا يبقى منها شيء؟ فيمَ ستستخدمها، هه؟ في رصف الطريق؟ في طلاء الأيقونات؟».

«أنتَ»، يقول للمتدرّب المدقِّق في طرف النُضُد: «ماذا تفعل هناك؟ هذا البقدونس نما وترعرع في وقت أقل من الذي استهلكتَه أنتَ في فَرمه!».

وفي اليوم الأخير من الربيع؟ يكون ستانيسلاف هو من يستقبِل سِنّ سكّينه. فبينما يزيل إميل الدهن عن أضلع الضأن، يتوقف فجأة ويحدّق على الجانب الآخر من الطاولة.

«أنتَ!»، يقول، مشيرًا بسكّينه إلى أنف ستانيسلاف: «ما هذا؟».

ستانيسلاف، وهو إستونيّ نحيل ظل يدرِس كل حركة من حركات مُعلّمه على النحو الواجب، يرفع رأسه عن حماماته بعينين مرتبكتين.

«ماذا يا سيدي؟».

«ماذا تصفّر؟».

صراحةً، كان ثمة لحن يدور في رأس ستانيسلاف- لحن صغير كان قد سمعه الليلة السابقة وهو يجتاز مدخل بار الفندق- لكنه كان يصفِّره بلا وعي. والآن إذ يواجه سكّين الشيف، لا يستطيع أن يتذكر اللحن مَهْما حاول.

يعترف: «لست متأكدًا».

«لست متأكدًا! أكنتَ تصفِّر أم لا؟».

«نعم يا سيدي. لا بُد أنني أنا من كان يصفِّر. لكنني أؤكد لك أنها كانت مجرد أنشودة».

«مجرد أنشودة».

«أغنية صغيرة».

«أعرف ما هي الأنشودة! لكن بأي حق تصفِّر أنشودة؟ هه؟ هل عيَّنَتك اللجنة المركزية مفوَّضًا لتصفير الأناشيد؟ هل هذا الذي أراه مثبَّتا على صدرك وسام الإنشاد العظيم؟».

يخبط إميل بسكينه على النُضُد، دون أن يُنكِّس بصره، فاصلًا قطعة لحم عن ضلعها وكأنه يقطَع اللحنَ من ذاكرة ستانيسلاف مرة وإلى الأبد. يرفع الشيف سكّينه ثانية ويشير بسِنّه، لكن قبل أن يستطرد، ينفتح ذلك الباب الذي يفصل مطبخ إميل عن بقية العالم على مصراعيه. إنه أندري، متعجلًا كعادته، وفي يده سِجلّه وعويناته تستريح فوق رأسه. مثل شقيٍّ بعد مشاجرة، يدسّ إميل سكّينه تحت ربطة مريلته ثم ينظر مترقبًا إلى الباب، الذي ينفتح ثانية بعد لحظة.

بأوهى لفّة من المعصم تنقلب شظايا الزجاج إلى ترتيب جديد. طاقية السعاة الزرقاء تُمرَّر من صبي إلى التالي، فستانٌ أصفر مثل الكناري يُطوى في صندوق، كُتيِّب إرشادي أحمر صغير يُحدِّث بأسماء الشوارع الجديدة، وعبر أبواب إميل المتأرجحة يدخل الكونت ألكسندر إلييتش روستوف- وعلى ذراعه سترة العشاء البيضاء الخاصة بالبويارسكي.

بعدها بدقيقة، كان يتحلَّق حول طاولة المكتب الصغير المشرف على المطبخ كل من إميل، وأندري، والكونت- «المجلس الرئاسي» الذي يلتقي يوميًّا الساعة 2:15 لتقرير مصير المطعم، بعاملِيه، وزبائنه، ودجاجاته، وحبَّات طماطِمه.

كما هي العادة، بدأ أندري الاجتماع بوضع نظارة قراءته على حافة أنفه وفتَح «السجلّ».

بادرهم قائلًا: «ليست لدينا حفلات في الغُرَف الخصوصية الليلة، لكن كل طاولات صالة الطعام محجوزة لشخصين».

«آه»، قالها إميل بابتسامة مكفهرّة لقائدٍ حربي يُفضل أن يفوقه العدوّ عددًا. «لكنك لن تستعجلهم، هه؟».

وأكد الكونت: «بالطبع لا. سنتأكد ببساطة من تسليمهم قوائم الطعام سريعًا وأخذ طلباتهم مباشرة».

أومأ إميل برأسه موافقًا.

وسأل الكونت المتر: «هل نتوقع أي مصاعب؟».

«لا شيء غير عادي».

أدار أندري «السجلّ» لكي يستطيع رئيس النُدُل أن يرى بنفسه.

مرّر الكونت إصبعًا على قائمة الحجوزات. كما قال أندري، لم يكن هناك شيء غير عادي. كان مفوَّض النقل يَنفُر من الصحافيين الأمريكان؛ والسفير الألماني يَنفُر من مفوَّض النقل؛ ونائب رئيس المديرية السياسية للدولة يَنفُر من الجميع(*). كان الشأن الأكثر حساسية أن عضويْن مختلفيْن

(*) -أنشئت «المديرية السياسية للدولة» OGPU لتحل محل «الوكالة فوق العادية لعموم روسيا» (»تشيكا» (بوصفها الجهاز المركزي للبوليس السري في روسيا. في عام 1934، سوف تُستبدَل «المديرية السياسية للدولة» بـ«مفوضية الشعب للشؤون الداخلية» NKVD، والتي سوف تُستبدَل بدورها بـ«وزارة أمن الدولة» MGB عام 1943 و«لجنة أمن الدولة» KGB عام 1954. على السطح، يبدو الأمر

من المكتب السياسي يترأسان طاولتيْن خلال دورة الإجلاس الثانية. ولأن الاثنين حديثا العهد بمنصبيهما، لم يكن من الضروري تخصيص أفضل الطاولات في المكان لأي منهما. ما كان ضروريًّا هو أن يُعامَلا معاملةً مماثلة في كل وجه من الوجوه. يجب أن يتلقيا خدمة على القدر نفسه من الجودة، على طاولتين بالحجم نفسه، وعلى مسافتين متساويتين من باب المطبخ. والأفضل أن يكونا على الجانبيْن المتقابليْن من أصيص الزرع المركزي (الليلة حزمة من السوسن).

سأل أندري، والقلم في يده: «ما رأيك؟».

بينما كان الكونت يقدم اقتراحاته حول من يجب أن يُجلَس أينَ، تناهت دقة خفيفة على الباب. دخل ستانيسلاف، حاملًا طاسة تقديم وصحنًا.

قال مساعد الشيف لأندري والكونت بابتسامة ودود: «يومكم سعيد يا سادة، بالإضافة إلى قائمتنا المعتادة، لدينا الليلة حساء الخيار و...»

«نعم، نعم»، قال إميل عابسًا: «نعرف، نعرف».

بإيماءة اعتذار، وضع ستانيسلاف الطاسة والصحن على الطاولة، حتى بعد أن صرفه إميل من الغرفة بإشارة من يده. فور ذهابه، أومأ الشيف إلى الطاسة. «إضافة إلى قائمتنا المعتادة، لدينا الليلة حساء الخيار وضلع الضأن بصوص النبيذ الأحمر».

على الطاولة كانت ثلاثة فناجين شاي. اغترف إميل الحساء في فنجانين وانتظر من زميليه أن يتذوّقاه.

قال أندري: «ممتاز».

أومأ إميل ثم استدار إلى الكونت وقد ارتفع حاجباه.

مربكًا. لكن الخبر الجيد أنه على عكس الأحزاب السياسية، أو الحركات الفنية، أو مدارس الموضة- التي تمرّ بمثل هذه التغييرات الجذرية- فإن طرائق البوليس السري ونواياه لم تتغيّر قط. لذا فلستَ مضطرًّا إلى تمييز إحداها عن الأخرى.

فكّر الكونت: إنه هريسٌ من الخيار المقشَّر. والزبادي بالطبع. رشّة ملح. شَبَت أقل مما قد يتوقعه المرء. في الحقيقة، هناك شيء آخر شديد الـ... شيء يُفصح عن اقتراب الصيف باللباقة نفسها، لكن بنكهة أكثر قليلًا...

سأَلَ: «نعناع؟».

أجاب الشيف بابتسامة المدحور.

«برافو مسيو».

«... ليستبِق الضأن»، أضافها الكونت بنبرة تقدير.

أحنى إميل رأسه مرة، ثم، وهو يستلّ سكّينه من وَسَطه، قطَّع أربع شرائح من الضِلع وكوَّم اثنين في صحن كل من زميليه.

كان الضأن، المغطى بالروزماري والبقسماط، شهيًّا وطريًّا. تنهَّد المتر ورئيس النُدُل في تقدير.

بفضل عضوٍ من اللجنة المركزية كان قد جَرَّب دون نجاح أن يطلب زجاجة بوردو للسفير الفرنسي الجديد عام 1927، أصبح بالإمكان مجددًا العثور على زجاجات نبيذ لها بطاقات تعريف في قبو المتروبول (في نهاية المطاف، معروفٌ أن رقبة التنين، رغم كِبَر حجمها، تستطيع أن تتحرك بسرعة رقبة الأفعوان). وهكذا، استدار أندري إلى الكونت وسأله عن رأيه: بِمَ يجب أن يُوصوا مع الضأن.

«شاتو لاتور 1899، لمن يقدِر على ثمنه».

أومأ الشيف والمتر.

«ولمن لا يقدِر».

فكّر الكونت.

«ربّما كوت دو رون».

قال أندري: «ممتاز».

التقط إميل سكّينه، وأشار إلى بقية الضلع محذّرًا الكونت: «قُل

لصبيانك إن الضأن يُقدَّم قليل الطهو. إذا أراده أحدهم متوسطًا، بإمكانه أن يذهب إلى الـمَقصَف».

أظهر الكونت استيعابه ورغبته في الامتثال. ثم أغلق أندري «السجلّ» ومسح إميل سكينه. لكن بعد أن دفعا كرسييهما إلى الخلف، ظل الكونت في مكانه.

قال: «يا سادة، شيء واحد آخر قبل فض الاجتماع...».

حين رأى الشيف والمتر ذلك التعبير الذي ارتسم على وجه الكونت، سحبا كرسييهما مجددًا إلى الطاولة.

نظر الكونت من النافذة إلى داخل المطبخ ليتأكد من أن العاملين منشغلون بأعمالهم. ثم أخرج من جيب سترته المظروف الذي كان قد دُسّ تحت بابه. عندما قَلَبَه في فنجان إميل غير المستخدَم، انسكبَت منه فتائلٌ باللونين الأحمر والوردي...

التزم الرجال الثلاثة الصمت للحظة.

أرجع إميل ظهره في كرسيه، ومجددًا قال: «برافو».

وسأل أندري: «هل تسمح لي؟».

«بالتأكيد».

رفع أندري الفنجان وهزّه إلى الأمام وإلى الخلف. ثم أعادَه برفق شديد إلى صحنه حتى إن الخزف لم يصدر صوتًا.

«هل هذا يكفي؟».

لم يكن الشيف، الذي تابَع الفتائل وهي تنسكب من المظروف، بحاجة إلى نظرة ثانية.

«بلا شك».

«هل الشَمَر لا يزال لدينا؟».

«هناك بضع بُصيْلات في آخر مخزن المؤن. سيكون علينا أن نتخلص من الأوراق الخارجية. لكنه، بخلاف ذلك، لا بأس به».

وسأل الكونت: «وهل وصلَك ردٌّ بخصوص حبّات البرتقال»؟
هز الشيف رأسه بنظرة جهمة.
سأل أندري: «كم واحدة ستلزمك؟».
«اثنتان، ربما ثلاث».
«أظنني أعرف أين أجد بعضها...».
سأل الشيف: «هل يمكنك العثور عليها اليوم؟».
أخرج أندري الساعة من جيب صدريّته وراجعها في كف يده.
«إذا حالفنا الحظ».
أين كان يمكن لأندري أن يحصل على ثلاث حبات برتقال بهذه السرعة؟ مطعم آخر؟ أحد المتاجر المخصّصة للعملات الصعبة؟ وليٌّ بين قيادات الحزب؟ طيّب، في هذا الشأن، من أين حصل الكونت على أوقية ونصف من الزعفران؟ لقد توقفت مثل تلك الأسئلة قبل سنوات. يكفي القول إن الزعفران أصبح في اليد والبرتقالات في المتناول.
تبادل المتآمرون الثلاثة نظرات الرضا ثم دفعوا كراسيهم إلى الخلف. أعاد أندري نظارته فوق رأسه بينما استدار إميل إلى الكونت.
«ستحرِص على وضع القوائم في أيديهم وأخذ طلباتهم على عجل، هه؟ لا تقاعُس؟».
«لا تقاعُس».
اختتم الشيف كلامه: «طيّب إذًا. نلتقي في الثانية عشرة والنصف».



عندما غادر الكونت البويارسكي وسترته البيضاء معلّقة على ذراعه، كانت على شفتيه ابتسامةٌ وفي خطاه طربٌ. في الحقيقة، كان ثمة إشراق في مَسلكه ككل.
«تحياتي يا غريشا»، قالها وهو يمر من أمام الساعي (الذي كان في

طريقه صاعدًا السلّم حاملًا مزهرية من الزنبق المخطَّط طولها أكثر من نصف متر).

«غوتن تاغ»، قالها للـــفُرولَين الشابة الجميلة في البلوزة الأرجوانية الفاتحة (الواقفة بجوار باب المصعد).

كان مزاج الكونت الطيّب يرجع جزئيًا، لا شك، إلى قراءة ميزان الحرارة. فعلى مدار الأسابيع الثلاثة الماضية، كانت الحرارة قد ارتفعت ثلاث درجات مئوية، مطلقةً ذلك المسار من الحوادث الطبيعية والبشرية التي تنتهي بمسحات من النعناع في حِساء الخيار، وبُلوزات أرجوانية عند أبواب المصاعد، وتوصيلات لحِزَم زنبق مخطَّط طولها نصف متر في منتصف النهار. كذلك كان مما أضفى خفّةً على خطواته هذان الوَعْدان بلقاء في العصر وموعدٍ غرامي في منتصف الليل. لكنّ العامل الذي أسهم في مزاج الكونت الطيّب على نحو أكثر مباشرةً كان كلمتي برافو الصادرتيْن من إميل. فذلك لم يحدث إلا مرة أو مرتين على مدار أربع سنوات.

حين كان الكونت يجتاز البهو، ردَّ الكونت على التلويحة الودود من الزميل الجديد عند شبّاك البريد، وأشار بالتحية إلى فاسيلي، الذي كان يضع سماعة هاتفه (وقد أمّن بلا شكّ تذكرتين أخرييْن لعرضٍ بيعت كل تذاكره).

«مساء الخير يا صديقي. غارقٌ في العمل كما أرى».

اعترافًا، أشار مسؤول خدمة النزلاء باتجاه البهو، الذي كان يضجّ بالحركة، تقريبًا كما كان الحال في أوقات الذروة قبل الحرب. وكأنما بالاتفاق، بدأ الهاتف على المكتب في الرنين، وقُرع جرس السعاة ثلاث مرات، ونادى شخص ما، «يا رفيق! يا رفيق!».

آه، رفيق، فكّر الكونت. الآن، ها هي كلمة ستتناقلها الأجيال...

عندما كان الكونت صبيًّا في سان بطرسبرغ، كان يندر أن يصادف

المرء تلك الكلمة. كانت تجوسُ دائمًا في مؤخرة طاحونة أو تحت طاولة في حانة، ومن حين إلى آخر تترك آثار مخالبها على المنشورات المطبوعة حديثًا التي تُركَت لتجفّ في أحد الأقبية. الآن، بعدها بثلاثين عامًا، أصبحت الكلمة الأكثر شيوعًا في اللغة الروسية.

كانت كلمة رفيق أعجوبة من أعاجيب الكفاءة الدلاليّة. كانت تُستخدم للترحيب أو الوداع. للتهنئة أو التحذير. للتحريض أو الاحتجاج. أو تمثّل، ببساطة، طريقة للَفْت انتباه شخص في بهو مزدحم لفندق كبير. وبفضل مرونة الكلمة، استطاع الشعب الروسي أخيرًا التخلي عن الرسميات المبتذلة، والألقاب البالية، والمصطلحات المملة- بل وحتى الأسماء! أي مكان آخر في أوروبا بأسرها ذلك الذي يمكن للمرء فيه أن يصرخ بكلمة واحدة لينادي أيًّا من أبناء جلدته رجلًا كان أم امرأة، شابًا أم شيخًا، صديقًا أم عدوًا.

«يا رفيق»، نادى شخصٌ ما مجدَّدًا- تلك المرة بمزيد من الإلحاح. ثم شدَّ كُمّ الكونت.

أجفل الكونت، واستدار ليجد الشاب الجديد من شبّاك البريد عند مِرفقه.

«آه، أهلًا بك. كيف يمكن أن أخدمك أيها الشاب؟».

بدا الارتباك على وجه الشاب لسماع سؤال الكونت، إذ افترَض أنه هو من يخدم الآخرين وليس العكس.

شرح قائلًا: «عندي خطاب لك».

«لي أنا؟».

«نعم يا رفيق. وصل بالأمس».

أشار الشاب إلى الشبَّاك ليوضح أن الخطاب بقي هناك.

قال الكونت: «طيّب، في تلك الحالة، تفضل أمامي».

استأنف الموظف العمومي والنزيل طريقهما إلى موقعيهما على جانبي ذلك الشباك الصغير الذي يفصل المكتوب عن المقروء.

فتَّش لحظة ثم قال: «هاكَ هو».

«شكرًا يا أستاذ».

تناول الكونت المظروف في يده، وتوقَّع نصف توقُّع أن يجده موجهًا إلى الرفيق، لكن هناك (تحت طابعَيْ بريد يحملان صورة للينين) كان الاسم الكامل للكونت- مكتوبًا بخط منمَّق بلا تكلّف، نُسُكيٍّ إلى حدٍّ ما، جدليٍّ من حين إلى آخر.

عندما نزل الكونت قبلها من البويارسكي إلى البهو، كان في طريقه إلى مكتب المبهجة الخجولة، حيث كان يرغب في تأمين قطعة من الخيط الأبيض لزرٍّ ظلَّ عالقًا بالكاد في سترته. لكنه لم يكن قد رأى ميشكا لنحو نصف عام؛ ولحظة تعرَّف على خط صديقه القديم، نهضَت سيدة تحمل كلبًّا صغيرًا من كرسيه المفضل بين أصص النخيل. هكذا أجَّل الكونت، الذي طالما احترم العلامات القَدَريَة زيارته للخياطة، واتخذ مقعده، وفتح الخطاب.

لينينغراد

14 يونيو، 1930

عزيزي ساشا

في الرابعة من صباح اليوم، وبعد أن عجزتُ عن النوم، غامرتُ بالخروج إلى المدينة القديمة. وبينما كان عرابدة الليالي البيضاء قد رجعوا إلى ديارهم مترنّحين، وكُمساريَّة الترام لم يعتمروا طواقيهم بَعد، سرتُ في نيفسكي بروسبِكت في ربيعٍ ساكنٍ بدا مسترَقًا من إقليم آخر، إن لم يكن من زمن آخر.

أصبح شارع نيفسكي، مثل المدينة نفسها، يحمل اسمًا جديدًا: شارع الخامس والعشرين من أكتوبر- يومٌ بارز يطالِب بحقّه في شارعٍ له تاريخ. لكنّه في تلك الساعة كان مثلما تتذكره، يا صديقي. ولمّا لمْ

يكن في رأسي وجهة معينة، عبرتُ قناتَيْ مويكا وفونتانكا، ومررتُ بالمحلات، وواجهات البيوت القديمة الكبيرة المطلية بالوردي حتى وصلتُ، في النهاية، إلى مقبرة تيخفِن، حيث يهجع جثمانا دوستويفسكي وتشايكوفسكي متباعدَيْن ببضعة أمتار. (هل تتذكر كم كنا نسهر إلى وقت متأخر لنتجادل حول أيُّهما أكثر عبقرية؟).

وفجأة، طرأ على ذهني أن السيرَ بطول شارع نيفسكي يشبه السير بطول الأدب الروسي. هناك في البداية- في الشارع المتفرع على ضفاف المويكا- يقع البيت الذي أنهى فيه بوشكين سُنيّ عمره. بعده بخطوات الغُرَف التي بدأ فيها غوغول كتابة «الأرواح الميّتة». ثم المكتبة الوطنية، حيث كان تولستوي يفتش في الأرشيف. وهنا، خلف جدران المقبرة، يقع الأخ فيودور، شاهِدنا الذي لا يكلّ على النفس البشرية، مقبورًا تحت أشجار الكرز.

وأنا واقف هائم في الأفكار، أشرقت الشمس فوق جدران المقبرة، مشعَّة نورها على الشارع، وتذكرتُ، مفتونًا، ذلك التأكيد العظيم، ذلك الإعلان، ذلك الوعد:

إشراقٌ دائمٌ،
إشراقٌ على كلِّ مكان،
حتى آخر الزمان...

قبل أن ينتقل الكونت إلى الصفحة الثانية من خطاب صديقه القديم، وجد نفسه يرفع رأسه، وقد اجتاحه تأثُّر عميق.

لم تكن ذكريات سان بطرسبرغ هي التي أثّرت فيه إلى هذا الحد- لا حنينٌ لشبابه بين الواجهات المطلية بالوردي، ولا لسنواته مع ميشكا في الشقة أعلى الإسكافيّ. ولم يكن تذكير ميشكا الشاعري بعظمة روسيا

الأدبية. ما حرّك مشاعر الكونت كان فكرة خروج صديقه القديم في ذلك الربيع المسترَق وهو لا يكاد يعرف إلى أين يتجه. إذ منذ السطر الأول في الخطاب، عرف الكونت بالضبط وجهة ميشكا.

كانت أربع سنوات قد مرّت منذ انتقال ميشكا إلى كييف مع كاترينا؛ وسنة منذ هَجَرَته من أجل رجل آخر؛ وستة أشهر منذ عاد إلى سان بطرسبرغ لكي يتمترَس مجددًا خلف كُتبه. ثم، في ليلة ربيعية في الرابعة صباحًا، عاجزًا عن النوم، يجد نفسه في شارع نيفسكي، يتبعُ الدربَ الذي سار فيه مع كاترينا يوم أمسكَت بيده لأول مرة. وهناك، بينما تبدأ الشمس في الشروق، تجتاحه أفكار عن تأكيدٍ، عن إعلانٍ، عن وعدٍ- وعد بالإشراق على كل مكان ودائمًا حتى آخر الزمان- وهو، في نهاية المطاف، غايةُ ما يطلبه المرء من الحب.

بينما راحت تلك الأفكار تمرّ في عقل الكونت، أكان قلِقًا أن يكون ميشكا لا يزال يتحسّر على كاترينا؟ أكان قلِقًا أن يكون صديقه القديم بصدد اقتفاءٍ سقيم لأثر غرامٍ مُنْقَضٍ؟

قلِقًا؟ ميشكا سيظل يتحسر على كاترينا بقية حياته! كلما سار في شارع نيفسكي بروسبِكت، ومهما غيَّروا اسمه، سيظل يخامره إحساس لا يُحتمل بالفقد. وتلك هي حال الدنيا. هذا الإحساس بالفقد هو بالضبط ما يجب أن نتوقعه، وأن نستعد له، وأن نرعاه في قلوبنا حتى آخر أيامنا؛ إذ إن كسرةَ قلبِنا وحدَها هي التي تَدحض، في النهاية، كل ما هو زائلٌ في الحب.

التقط الكونت خطاب ميشكا ليواصل قراءته، لكن وهو يَقلِب الصفحة، تصادف أن توقف ثلاثة شبان، خرجوا لتوّهم من البياتسا، على الجانب الآخر من أصيص نخل، وبدأوا محادثة مهمة.

كان الثلاثي يتألّف من شاب عشريني يبدو من الكومسومول [منظمة الشبيبة]، وشابتين أصغر سنًّا- إحداهما شقراء والأخرى سمراء. بدا أن

الثلاثة متجهون إلى إقليم إيفانوفو بصفة رسمية ما، وأن الشاب، قائدهم، يحذّر ابنتَيْ جلدته من الحرمان الذي ستواجهانه حتمًا، وفي الوقت نفسه يؤكد على الأهمية التاريخية لمهمَّتهما.

عندما انتهى، سألَت السمراء عن حجم الإقليم، لكن قبل أن يجيب، تفضَّلَت الشقراء قائلة: «مساحتها نحو ثمانمئة كيلومتر مربع وعدد سكانها نصف مليون. وهي منطقة زراعية في أغلبها، مع ذلك ليس بها إلا ثماني محطات لتأجير الجرارات الآلية وستّ طواحين حديثة».

لم يبدُ على القائد الوسيم أدنى انزعاج من إجابة رفيقته الصغيرة بالنيابة عنه. على العكس، كان واضحًا من التعبير المرتسم على وجهه أنه ينظر إليها ببالغ التقدير.

بينما اختتمت الشقراء درسها الجغرافي، جاء عضو رابع بالمجموعة يهرول من ناحية البياتسا. كان شابًّا أقصر وأصغر سنًّا من القائد، يعتمر طاقية بحّارة من تلك التي صارت تروق للشبان المحرومين من البحر منذ ظهور فيلم «المدمرة بوتومكين». وكانت في يده سترة قماشية ناولها للشقراء.

قال متلهفًا: «سمحتُ لنفسي بإحضار معطفك وأنا أتناول معطفي».

تقبَّلَت الشقراء المعطف بإيماءة من رأسها، دون كلمة شكر.

دون كلمة شكر...؟

نهض الكونت على قدميه.

«نينا؟».

استدار الشبّان الأربعة باتجاه أصيص النخيل.

ترك الكونت السترة البيضاء وخطاب ميشكا في كرسيه، وتقدم من وراء السعف صائحًا: «نينا كوليكوفا! يا لها من مفاجأة سارّة».

وهكذا كانت بالضبط بالنسبة للكونت: مفاجأة سارة. إذ إنه لم يرَ نينا منذ أكثر من سنتين؛ وكان كثيرًا ما يمر بغرفة الورق أو صالة الرقص فيجد نفسه يتساءل أين هي وماذا تفعل.

لكن على الفور، أدرك الكونت أن ظهوره المفاجئ لم يكن مواتيًا بالنسبة لنينا. ربما لم ترغب في أن تفسر لرفاقها معرفتها بـ«شخص سابق». ربما لم تذكُر لهم أنها عاشت شطرًا من طفولتها في هذا الفندق الراقي. أو ربما أرادت ببساطة أن تتابع هذه المحادثة الهادفة مع أصدقائها الهادفين.

قالت: «سأعود بعد لحظة»، ثم مضت باتجاه الكونت.

بديهيًّا، بعد فراق طويل كهذا، شعر الكونت برغبة غريزية في معانقة نينا الصغيرة مثل دبٍّ؛ لكنْ لاح في هيئتها أنها تُثنيه عن اندفاعه.

«سعيد برؤيتك يا نينا».

«وأنا أيضًا يا ألكسندر إلييتش».

تفحّص كل من الصديقين القديمين الآخر للحظة؛ ثم أشارت نينا باتجاه السترة البيضاء المعلّقة على ذراع الكرسي.

«أرى أنك لا تزال تُشرف على الطاولات في البويارسكي».

«نعم»، قال مبتسمًا، وإن لم يكن متأكدًا، من نبرتها العملية، أيعتبر ملاحظاتها مدحًا أم قدحًا... وبدوره، وجد نفسه راغبًا في السؤال (بلمعةٍ في عينيه) عما إذا كانت قد تناولت أورديفر في البياتسا، لكنه فضّل ألّا يفعل.

بدلًا من ذلك، قال: «أرى أنك مشرِفة على مغامرة».

ردَّت: «أظنها ستكون كذلك من بعض النواحي. لكن عمومًا سيكون هناك عمل كثير».

شَرحَت له أن أربعتهم بصدد المغادرة صباح اليوم التالي برفقة عشرة من الكوادر الأخرى في الكومسومول المحلّي إلى محلَّة كادي- وهي مركز زراعي قديم في قلب مقاطعة إيفانوفو- لمساعدة الـأودرنيك، أو «العُمّال النموذجيّين»، في تحويل المنطقة إلى تعاونيّات. في نهاية عام 1928، كانت 10 بالمئة فقط من المزارع في إيفانوفو قد تحولت إلى تعاونيّات. وبحلول عام 1931، سوف تصبح كلها تقريبًا كذلك.

«لأجيال ظل الكولاك يزرعون الأرض لحسابهم، ويُنظِّمون عمل الفلاحين المحليين لخدمة أغراضهم. لكنْ حان الوقت لأن تصبح الأرض العامّة في خدمة الصالح العام. إنها ضرورة تاريخية. حتميّة تاريخية»، قالت العبارة الأخيرة بنبرة من يُقرّ حقيقة واقعة، قبل أن تتابع: «في نهاية المطاف، هل يُعلِّم المدرّسُ أولادَه فقط؟ هل يراعي الطبيبُ أبويه فقط؟».

حين بدأت نينا هذه الخطبة القصيرة، بوغِت الكونت لوهلة من نبرتها ومصطلحاتها- من تقييمها الفوقيّ للكولاك والحاجة «الحتميّة» للمنظومة التعاونية. لكن عندما دسّت شعرها وراء أذنيها، أدرك أنه ما كان ينبغي عليه أن يفاجَأ لحَمِيَّتها. كانت، ببساطة، تُغدق على الكومسومول الحماس نفسه الذي لا يكلّ والانتباه الدقيق للتفاصيل الذي سبق وأغدقته على رياضيات البروفيسور ليستسكي. لقد كانت نينا كوليكوفا، وستظل، روحًا جادة تبحث عن أفكار جادة لتتناولها بجديّة.

كانت نينا قد قالت لرفاقها إنها عائدة بعد لحظة، لكنها إذ راحت تسترسل عن المهمة التي تنتظرها، بدا أنها نسيت أنهم لا يزالون واقفين على الجانب الآخر من أصيص النخيل.

بابتسامة خفيفة، لَفَت الكونت انتباهها إلى أن القائد الوسيم الواقف خلفها، وقد تطوّع بانتظار نينا، كان يصرِف الآخرين- وهي مناورة معقولة في أي أيديولوجية كانت.

«يجب أن أذهب»، قالتها بعد أن اختتمت ملاحظاتها.

وأجابها الكونت: «نعم. بالتأكيد. لا بُد أن أمامك عملًا كثيرًا».

صافحَته بعرفانٍ جادّ؛ وعندما استدارت لم يبدُ أنها لاحظت أن اثنين من رفاقها قد غادرا بالفعل- وكأن انتظار الشاب الوسيم لها شيءٌ اعتادته بالفعل.

مع مغادرة الشابين المثاليَّيْن للفندق، راح الكونت يراقبهما عبر

الأبواب الدوّارة. راقبهما والشاب يتحدث إلى بافِل، وبافِل يشير إلى تاكسي. لكن عندما ظهر التاكسي وفتح الشاب الباب، أشارت نينا بذراعها فوق ميدان المسرح، موضحة أنها متجهة إلى وجهة أخرى. قام القائد الوسيم بإشارة مماثلة، لا بُد وأنه كان يعرض مرافقتها، لكن نينا صافحته بذات الجديّة التي صافحت بها الكونت ثم عبرت الميدان في الاتجاه العمومي للضرورة التاريخية.

★ ★ ★

«أليس ذلك أقرب إلى الكريميّ من الصَدَفيّ؟».

معًا، كان الكونت ومارينا يحدّقان في بَكَرة خيط أخرجَتها لتوّها من دُرج مليء بالخيوط من كل درجة ممكنة من درجات الأبيض.

أجابت مارينا: «آسفة جدًا يا صاحب السعادة. الآن وقد نبّهتَني، فعلًا يبدو أقرب إلى الكريمي من الصدفي».

رفع الكونت رأسه عن البَكَرة إلى عين مارينا الثابتة، التي كانت مليئة بالقلق؛ لكن عينها الشاردة بدت مليئة بالشقاوة. ثم انفجرت في الضحك مثل فتيات المدارس.

قال: «آه، اعطني ذلك».

قالت بنبرة استرضائية: «دعها لي».

«لا يمكن».

«آه، هيّا».

«أنا قادر تمامًا على فِعل ذلك بنفسي، أشكرك».

لكن يُحسَب للكونت أنه لم يكن يناور فحسب. بل كان، في الحقيقة، قادرًا تمامًا على فعل ذلك بنفسه.

من البديهي أنك إذا أردت أن تكون نادلًا جيدًا يجب أن تتحكم في

مظهرك. يجب أن تكون نظيفًا، ومهندَمًا، وحَسن المظهر. لكن يجب أن تكون أنيقًا في ملبسك كذلك. إذ لا يمكنك التجوّل في قاعة الطعام بياقة أو أساور أكمام مُنسَّلة. وحاشا لله أن تواصل التخديم بزرٍّ معلَّق- إذ لن تنتبه بعدها إلا وهو يطفو فوق شوربة الفيشيسواز الخاصة بأحد الزبائن. لذلك، قبل أن ينضمَّ الكونت إلى موظفي البويارسكي بثلاثة أسابيع، كان قد طلب من ماريا أن تعلّمه فنون «أراخني»(*). ومن باب الحيطة، خصّص الكونت ساعة للدرس، وانتهى به الأمر أن أخذَ ثماني ساعات على مدار أربعة أسابيع.

من كان يعرف أن أنواع الغُرز بهذه الوفرة؟ الغُرزة الخلفية، غرزة حرف x، الغرزة المنزلِقة، غرزة السَرْفَلة، الغرزة المتصالِبة. ما كان أرسطو، ولا لاروس، ولا ديدرو- هؤلاء الموسوعيُّون العظام الذين قضوا حيواتهم في تصنيف كل أنواعِ الظواهر، وفهرستها، وتعريفها- ليتخيَّلوا أن هناك غُرزًا بهذا العدد، وكلٌّ منها تناسب غرضًا مختلفًا!

ممسكًا بخيطه الكريمي، جلس الكونت في أحد الكراسي؛ وعندما مدَّت له مارينا وسادة الدبابيس الخاصة بها، عاين الإبَر كما يعاين طفلٌ قِطَع شوكولاتة في صندوق.

قال: «هذه».

لعق الكونت الخيط وأغمض إحدى عينيه (تمامًا كما علَّمته مارينا)، ثم ألقَمَ الإبرة أسرع مما يَدخل القدّيسون من أبواب الفردوس. صنع الكونت عُروة، وعقد عُقدة، وقَطَع الخيط من البَكَرة، وجلس معتدلًا يباشر عمله بينما تباشر مارينا عملها (إصلاح كيس مخدّة).

كما الحال مع أي حَلَقَة خياطة منذ قديم الأزل، اعتاد بطلانا هنا على

(*) أراخني: نسَّاجة شهيرة في الأساطير اليونانية، تحدَّت الإلهة أثينا في مسابقة للنسج، وتفوقت عليها، فحوَّلتها الإلهة إلى عنكبوت. وكلمة «أراخني» تعني «عنكبوت» باليونانية. (المترجم)

تبادل الملاحظات عن يومهما وهما يَدرُزان. معظم تلك الملاحظات كانت تُستقبَل بـهممم أو فعلًا؟ دون كسرٍ لإيقاع العمل؛ لكن من حين إلى آخر كان شأنٌ ما يتطلب انتباهًا أكبر فيتوقف الدَرْز. هكذا، وبعد تبادل الملاحظات عن الطقس، وعن معطف بافِل الخفيف الجميل، تجمَّدَت إبرة مارينا فجأة في منتصف دَرزة عندما ذكَر الكونت أنه صادف نينا.

سألته متفاجئة: «نينا كوليكوفا؟».

«هي بعينها».

«أين؟».

«في البهو. كانت تتناول الغداء مع ثلاثة من رفاقها».

«هل تحدثتما؟».

«بشيء من الإسهاب».

«وماذا ذكَرَت لك عن نفسها؟».

«يبدو أنهم في طريقهم إلى إيفانوفو لتَعْقيل الكولاك وتَشْييع الجرارات، وماذا لديكِ أنتِ؟».

«دعك مني يا ألكسندر. كيف كانت هي؟».

هنا، توقف الكونت عن الدرْز.

قال بعد برهة: «كانت تُشبه نفسها في كل شيء. ما زالت مفعمة بالفضول والشغف والثقة بالنفس».

«رائع»، قالتها مارينا بابتسامة.

راقبها الكونت وهي تستأنف الدرْز.

«ومع ذلك...».

توقفَت مارينا ثانية ونظرَت إليه.

«ومع ذلك؟».

«لا عليكِ».

«ألكسندر. واضحٌ أن شيئًا يدور في عقلك».

«فقط لو سمعتِ نينا وهي تتكلم عن رحلتها الوشيكة، إنها شديدة الشغف، شديدة الثقة بالنفس، وربما شديدة العناد، حتى إنها تبدو بعيدة كل البعد عن المرح. مثل مُستكشِف جسور، تبدو مستعدةً لغرز علمها في قمة جليديّة قُطبيّة والمطالبة بها باسم الحتميّة. لكنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من الإحساس بأن سعادتها، في هذه الأثناء، ربما تنتظرها في خطّ عرضٍ مختلفٍ تمامًا».

«هيا يا ألكسندر. لا بُد أن نينا الصغيرة قد بلغت الثامنة عشرة. بالطبع، عندما كنتَ في تلك السن كنتَ أنتَ وأصدقاؤك تتكلمون بشغف وثقة بالنفس».

قال الكونت: «بالطبع كنا كذلك. كنا نجلس في المقاهي ونتجادل حول الأفكار إلى أن يمسحوا الأرضية ويطفئوا الأنوار».

«طيّب، ها أنت تقولها».

«صحيح أننا كنا نتجادل حول الأفكار يا مارينا؛ لكننا لم نكن ننوي فعلَ أي شيء بشأنها».

قَلَبت مارينا إحدى عينيها.

«حاشا لله أن تَفعل شيئًا بشأن الأفكار».

«لا، أنا جادّ. نينا شديدة الإصرار، أخشى أن تعرقلها قوة قناعاتها عن مباهج شبابها».

وضعَت مارينا كيس المخدّة في حِجرها.

«لطالما كنتَ مغرمًا بنينا الصغيرة».

«بالطبع».

«وذلك يرجع جزئيًّا لكونها روحًا مستقلّة».

«بالتحديد».

«إذًا عليك أن تثق بها. وحتى إن كانت عنيدة أكثر من اللازم، عليك

أن تثق بأن الحياة ستُلاقيها في الوقت المحدد. الحياة تلاقينا جميعًا في نهاية المطاف».

نكّس الكونت رأسه للحظة، متفكرًا في موقف مارينا. ثم عاد إلى مهمته، فغرسَ إبرته في ثقبَيّ الزرّ، ولفَّ الجزء المتبقي من الخيط، وربط العقدة جيدًا، وقطع الخيط بأسنانه. وحين كان يعيد غرس إبرة مارينا في وسادتها، لاحظ أن الساعة أصبحت 4:05، وهو ما أكد له مجددًا كَم يطير الوقت سريعًا عندما ينغمس المرء في مهمة سارة تصحبها محادثة سارة.

انتظِر لحظة!...، فكَّرَ الكونت.

4:05 بالفعل؟

«يا خبر!».

شكر الكونت مارينا، وتناول سترته، واندفع إلى البهو، ووثب صاعدًا الدَرَج اثنتين اثنتين، وعندما وصل إلى الجناح 311، وجد الباب مواربًا. نظر يسارًا ويمينًا، ثم انسلّ إلى الداخل وأغلق الباب.

على الجانب الآخر من الطاولة أمام مرآة زينة كانت حزمتا الزنبق المخطَّط اللتان مرَّتَا بجواره في وقت سابق من النهار. بعد أن عاين الكونت المكان بنظرةٍ سريعة، اجتاز غرفة الجلوس الخاوية ودخل غرفة النوم، حيث كانت هيئةٌ ممشوقة تقف في الظلال أمام إحدى النوافذ الكبيرة. لدى سماع صوت اقترابه، استدارت وتركت فستانها ينزلق إلى الأرض بوشيشٍ رقيق...

استدعاءٌ في الأصيل

بعد أن عاين الكونت المكان بنظرةٍ سريعة، اجتاز غرفة الجلوس الخاوية ودخل غرفة النوم، حيث كانت هيئةٌ ممشوقة تقف في الظلال أمام إحدى النوافذ الكبيرة. لدى سماع صوت اقترابه، استدارت وتركت فستانها ينزلق إلى الأرض بوشيشٍ رقيقٍ...

ما هذا!

عندما تركنا هذا الثنائي للمرة الأخيرة عام 1923، ألم تَصرِف آنا أوربانوفا الكونت مصحوبًا بأمرٍ حازمٍ بأن «يُسدل الستائر»؟ وعندما أغلق الباب خلفه بتكّة، ألم يتصرف مثل شبح قبل أن ينساق مبتئسًا إلى السطح؟ والآن، وهي تندسّ تحت أغطية الفراش، تُقدِّم هذه الهيئة المتعجرفة ابتسامة توحي بالصبر، والرقّة، بل والعرفان- وهي السمات التي تنعكس بالكامل تقريبًا في ابتسامة خصمها السابق وهو يعلّق سترة البويارسكي البيضاء على ظهر كرسي ويبدأ في فك أزرار قميصه!

فما الذي يمكن أن يكون قد حدث لكي تعود هاتان الروحان النقيضتان إلى الاتحاد؟ أيُّ درب متعرّج يمكن أن يكون قد قادهما إلى الجناح 311، ورجوعًا إلى أذرع بعضهما البعض؟

طيّب، لم يكن درب الكونت هو الذي تعرَّجَ. إذ كان ألكسندر روستوف قد قضى تلك السنين في التنقل بين أعلى سلم المتروبول وأسفله، من غرفة نومه إلى البويارسكي، والعكس. لا، الدرب الذي تعرَّج، والتفَّ، وانحرَف، وانثنَى على نفسه لم يكن دربَ الكونت؛ بل كان دربَ آنا.

عندما التقينا بالآنسة أوربانوفا للمرة الأولى في بهو المتروبول عام 1923، لم تكن العجرفة التي لاحظها الكونت في مسلكها تفتقر إلى الأساس، إذ كانت منتَجًا جانبيًّا لنجوميتها الواضحة. فبعد أن اكتشفها إيفان روسوتسكي في مسرح إقليميّ في ضواحي أوديسّا عام 1919، لعبت آنا دور البطولة النسائية في فيلميه التاليين. كان كلاهما فيلمًا رومانسيًّا تاريخيًّا يحتفي بالنقاء الأخلاقي لأولئك الذين يكدحون، ويُحقِّر من فساد الذين لا يكدحون. في الفيلم الأول، لعبَت آنا دور خادمة مطبخ في القرن الثامن عشر يَترك لأجلها نبيلٌ شابٌ بَهارِج البلاط. وفي الثاني، كانت فتاة في القرن التاسع عشر ورثت ثروة، فأدارت ظهرها لِتركَتها لكي تتزوج من صبي حدّاد. روسوتسكي، الذي اختار قصورَ الأمس إطارًا لحكاياته، أضاءها بالهالات الغبشاء للأحلام، وصوَّرها بالعدسات الضبابية للذكريات، وتوّج الفصول الأول، والثاني، والثالث بلقطات مقرَّبة لنجمته الصاعدة: آنا الطموحة؛ آنا المضطربة؛ آنا وقد وقعت أخيرًا في الحب. نال الفيلمان شعبية لدى الجمهور، وصادفا قبولًا من المكتب السياسي (الذي كان توّاقًا لمنح «الشعب» استراحة من سنوات الحرب عبر إلهاءات ذات مواضيع مناسبة)، وحصدت نجمتنا الشابة جزاء الشهرة بلا عناء.

في عام 1921، مُنحت آنا عضوية «اتحاد أفلام عموم روسيا» وانفتحت أمامها أبواب المتاجر المخصَّصة له؛ وفي عام 1922 مُنحت بيتًا ريفيًّا (داتشا) بالقرب من بيترهوف؛ وفي عام 1923 مُنحت قصرًا يعود إلى تاجر فراء سابق مؤثثًا بكراسٍ مذهَّبة، وصواناتٍ مطليَّة، وتسريحة من طراز لويس الرابع عشر- جميعها تصلح إكسسوارات في أحد أفلام روسوتسكي. في أمسياتها في ذلك القصر أتقنت آنا فنّ نزول السلالم القديمة. بيدٍ واحدة على الدرابزين وذيلِ فستانٍ حريريٍّ طويل ينساب

وراءها كقطار، كانت تنزل درجةً بعد أخرى بينما الرسّامون، والمؤلفون، والممثلون، وكبار أعضاء الحزب ينتظرون في أسفل السلم(*).

لكن الفنَّ هو أكثر سَدَنة الدولة غرابةً. فعلاوة على كونه يُنتَج بأيدي أناسٍ حالمين يتبرَّمون من التكرار أسرع حتى مما يتبرَّمون من إملاءات الآخرين، فهو أيضًا مُلتبِس على نحو مُغيظ. فقد يُصاغ حوارٌ متقَن الصنعة يهدف إلى توصيل رسالة شديدة الوضوح، لكنّ مسحةً من سخرية أو رفعةً من حاجِب تستطيع أن تُفسد التأثير إفسادًا ليس بعده إصلاح. بل وقد تُزكِّي فكرةً مناقضة تمامًا لما كان مقصودًا. وهكذا، فلعله مفهوم أن تلتزم السلطات الحاكمة بإعادة النظر في تفضيلاتها الفنية بين تارة وأخرى، حتى لو كان فقط من أجل المحافظة على لياقتها الذهنية.

المؤكد أنه في العرض الافتتاحي في موسكو للفيلم الرابع لروسوتسكي مع آنا في دور البطولة النسائية (الذي لعبت فيه شخصية أميرة يُخلَط بينها وبين طفلةٍ يتيمة، وتقعُ في حب طفلٍ يتيم يُخلَط بينه وبين أمير)، لاحَظَ الدواهي في الصالة أن السكرتير العام ستالين، الذي كان يُدلَّل في صباه باسم «سوسو»، لم يكن يبتسم من قلبه وهو ينظر إلى الشاشة كما كان في الماضي. غريزيًّا، كبحوا حماستهم، ما خفَّف من حماسة الحضور في الـمَشْرَف، ما خفَّف بدوره من حماسة الحضور في البلكون- حتى أصبح كل شخص في دار العرض يحسّ بخطبٍ ما.

(*) -في تلك الأيام المبكرة للاتحاد السوفييتي، كيف أقرَّ البلاشفة فكرة الكراسي المذهّبة وتسريحات طراز لويس الرابع عشر في قصور النجمات الصاعدات؟ وفي هذا الصدد، كيف استوعبوها في شُققهم؟ الأمر بسيط. كانت ثمة صفيحة نحاسية صغيرة مزيَّنة برقم بارز مدقوقة أسفل كل قطعة من الأثاث الراقي. وكان الغرض من هذا الرقم تعريف القطعة بوصفها جزءًا من الجَرْدَة الهائلة الخاصة بـ«الشعب». هكذا، يستطيع البُلشفيّ الطيّب أن ينام قرير العين وهو يعرف أن سرير الماهوغاني الذي يرقد عليه ليس له؛ وأنه، رغم شقته المؤثثة بتحفٍ لا تقدَّر بثمن، يحوز ممتلكاتٍ أقلّ من صعلوك.

بعد يومين من العرض الافتتاحي، تلقّت صحيفة «برافدا» رسالة مفتوحة من أحد الأباراتشيك (رجال الحزب) الصاعدين (كان يجلس وراء سوسو ببضعة مقاعد). كان الفيلم مسليًّا على طريقته، هكذا أقرَّ، لكن ما الذي يستشفّه المرء من رجوع روسوتسكي المتواصل إلى عصر الأمراء والأميرات؟ من رقصات الفالس والشمعدانات والسلالم الرخامية؟ أمَا بدأ هذا الافتتان بالماضي يفوح برائحة الحنين؟ ومجددًا، ألا يبدو خيط السرد الرئيسي لديه متمركزًا حول تجارب الفرد وانتصاراته؟ تلك النزعة التي يعززها اعتماده المفرط على اللقطات المقرّبة؟ نعم، لدينا امرأة أخرى جميلة في فستان آخر جميل، لكن أين الضرورة التاريخية؟ وأين الصراع الجَمعي؟

بعد أربعة أيام من ظهور الرسالة في البرافدا، اقتَطَع سوسو دقيقة من وقته قبل مخاطبة الجمعية العمومية لكي يقترب من هذا الناقد السينمائي الجديد ويمتدحه على بلاغة عباراته. بعد الجمعية العمومية بأسبوعين، تردَّد صدى موضوع الرسالة (وبعضًا من عباراتها البليغة) في ثلاث صحف أخرى وجريدة فنيّة. لاقى الفيلم توزيعًا محدودًا في دور عرض من الدرجة الثانية، حيث قوبل بتصفيق مكتوم. وبحلول ذلك الخريف، لم يصبح مشروع روسوتسكي التالي في مهبّ الريح فحسب، بل أصبحت جدارته السياسية نفسها موضع تساؤل...

ولأنها «فتاة ساذجة» في الأفلام ولكن ليس في الحياة، فهمت آنا أن سقوط روسوتسكي من الحظوة حَجَرٌ يمكن أن يجرّها سريعًا إلى الأعماق. بدأت تتجنب الظهور بصحبته في الأماكن العامة، بينما تُثني علنًا على جماليّات مخرجين آخرين؛ وكان يمكن لتلك الحيلة أن تنجح في أن تؤمّن لها طريقًا آخر للنجومية لولا تطوّرٍ مشؤوم على الجانب الآخر من الأطلنطي: الأفلام الناطقة. فمع أن وجه آنا كان لا يزال أحد أكثر الوجوه جاذبية على الشاشة، لم يكن الجمهور، الذي ظل لسنوات يتخيلها وهي تتكلم بنغمات عذبة، مستعدًا لسماع صوتها التينور الأجشّ.

هكذا، في ربيع عام 1928، في سن التاسعة والعشرين، سن النشاط والحيوية، أصبحت آنا أوربانوفا «في خبر كانَ».

وا حسرتاه. صحيح أن الصفيحة النحاسية المثبَّتة أسفل تحفة ثمينة يمكن أن تَمنح الرفيق الطيّب نومًا هانئًا، لكن من عيوب الأغراض التي تحمل أرقامًا مُتسلسِلة مدوَّنة في السجلّات أنها قد تُستعاد بجرَّة قلم، وتُخصَّص لاستخدام آخر. في غضون أشهر، ذهبت الكراسي المذهَّبة، والصوانات المزركشة، وتسريحة لويس الرابع عشر، كلها- ومعها قصر تاجر الفراء والبيت الريفي في بيترهوف- ووجدت آنا نفسها في الشارع مع صندوقَيْ ملابس. كانت لا تزال تمتلك في محفظتها أجرة القطار إلى مسقط رأسها في ضواحي أوديسّا. لكنها، عوضًا عن ذلك، انتقلت إلى شقة من غرفة واحدة بصحبة وصيفتها البالغة من العمر ستين عامًا، إذ لم تكن لدى آنا أدنى نيّة في العودة إلى مسقط رأسها ثانيةً.

المرة الثانية التي رأى فيها الكونت آنا كانت في نوفمبر عام 1928، بعد نحو ثمانية شهور من فقدانها قَصْرها. كان يَصبّ الماء في كوبِ مستورِد إيطاليّ عندما دلفَت من باب البويارسكي في فستان أحمر بلا أكمام وحذاء بكعب عالٍ. وبينما اعتذر الكونت للمستورِد وحاول تجفيف حجره بفوطة، تناهى إليه صوت الممثلة وهي تُوضّح لأندري أنها في انتظار ضيف سيأتي في أي لحظة.

قادها أندري إلى طاولة لشخصَيْن في الزاوية.

بعدها بأربعين دقيقة، وصل الضيف.

من مرصده على الجانب الآخر من قطعة الأثاث المركزية في البويارسكي (حزمة من زهور عبّاد الشمس)، أدرك الكونت أن الممثلة وضيفها لا يعرفان بعضهما بعضًا إلا بالسمعة. كان رجلًا حسن المظهر عمومًا، أصغر من آنا ببضع سنوات ويرتدي سترة أنيقة، لكن كانت تبدو عليه النذالة. فما إن اتخذ مقعده، ورغم اعتذاره عن التأخر، حتى كان يعاين بالفعل قائمة الطعام؛ وما إن شرعَت تُطمئِنه أنه ما مِن مشكلة، حتى

كان يشير بالفعل إلى نادِل طاولتهما. أمّا آنا، فقد بدت ساحرة. كانت تحكي قصصها بلمعة في عينيها وتصغي إلى قصصه بابتسامة جاهزة؛ وكانت الصورة المجسَّدة للصبر كلّما قاطعهما معجبٌ اقترب من الطاولة ليتملّق الفيلم الأخير للمخرج.

بعدها ببضع ساعات، بعد إذ صار البويارسكي خاويًا والمطبخ مغلقًا، اجتاز الكونت البهو لحظة خروج آنا وضيفها من بار الشاليابين. حين توقّف ليرتدي البالطو، أشارت آنا إلى المصعد، وكان واضحًا أنها تدعوه إلى الصعود لتناول كأس أخيرة. لكنه تابع وضع ذراعيه في الكُمَّيْن. كانت مقابلة سارة، هكذا أكد لها بنظرة إلى ساعته؛ لكن لسوء الحظ هناك من ينتظرونه في مكان آخر. ثم سَلَكَ أقصر طريق إلى الباب.

فيما كان المخرج الشاب يجتاز البهو، فكّر الكونت أن آنا شديدة التألق كما كانت عام 1923. لكنْ لحظة اختفاء المخرج في الشارع، تهدَّلَت ابتسامة الممثلة وسقط كتفاها. ثم مرَّرَت يدها على جبينها، واستدارت عن الباب- فقط لتلتقي بنظرة الكونت.

في لحظة، أرجعَت كتفيها إلى الوراء، ورفعَت ذقنها، وسارت بخطًى منتظمة تجاه السلم. لكن رغم إتقانها فنّ نزول السلالم أمام حشد من المعجبين، لم تكن قد أتقنت بعد فنّ صعود السلالم بمفردها. (لعلّه فنٌّ لم يتقنه أحد). عند الدرجة الثالثة، توقفت. وقفت بلا حراك. ثم استدارت، ونزلت ثانية، واتجهت إلى حيث يقف الكونت.

قالت: «كلما صادفتُ نفسي معك في هذا البهو، أشعر بأن الإهانة قدرٌ مكتوبٌ عليّ».

بدا الكونت متفاجئًا.

«إهانة؟ ما مِن سبب يدعوكِ للشعور بالإهانة، بحسب ما أرى».

«إذًا، فأنت أعمى».

نظرَت باتجاه الباب الدوّار وكأنه لا يزال يلفّ من وقت خروج المخرج الشاب.

«لقد دعوتُه لكأسٍ قبل النوم، فقال إنه مضطر للاستيقاظ مبكرًا».
«أنا لم أضطر للاستيقاظ مبكرًا في حياتي قَط».
ارتسمَت على شفتيها أول ابتسامة صادقة في الأمسية، ولوَّحت بيدها باتجاه السلم.
«إذًا، قد تريد الصعود معي».
في ذلك الوقت، كانت آنا تقيم في الغرفة 428. لم تكن أرقى غرفة في الطابق الرابع، ولم تكن الأسوأ. بجانب حجرة النوم الصغيرة، كانت تضم أيضًا مساحة جلوس صغيرة بها أريكة صغيرة، وطاولة قهوة صغيرة، ونافذتين صغيرتين تطلّان على قضبان الترام في شارع تياترالني برويزد. كانت غرفة تصلح لشخص يأمل في ترك انطباع جيّد دون أن يكون ميسور الحال. على طاولة القهوة كان ثمة كأسان، وصحن من الكافيار، وزجاجة فودكا في دلو من الثلج الذائب.
كانا يعاينان هذا الـميزانسين الصغير، عندما هزّت رأسها قائلة: «سيكلّفني هذا مبلغًا وقَدره».
«إذًا، لا يجب أن نضيّعه هدرًا».
سحب الكونت الزجاجة من الثلج وصب كأسًا لكل منهما.
قال: «نخب الأيام الخوالي».
وافقت بضحكة: «نخب الأيام الخوالي». ثم تجرّعا كأسيهما.
عندما يواجه المرء انتكاسة عميقة في مسيرة حياة تستحق الحسد، يجد أمامه عدة اختيارات. قد يحاول المرء، مدفوعًا بالعار، إخفاء كل دليل على التغيّر الطارئ على ظروفه. هكذا، نجد التاجر الذي يخسر مدخراته في القمار يتمسك بأفضل بدلاته إلى أن تتنسّل، ويقُص على مستمعيه طرائف قاعات النوادي الخاصة التي خسر عضويتها منذ زمن. وقد ينسحب المرء، مدفوعًا بالحسرة على نفسه، من العالم الذي عاش فيه هانئًا. هكذا، نجد الزوج الذي عانى طويلًا، وألحقَت به زوجتُه العار في المجتمع، هو مَن يغادر بيته إلى شقة صغيرة مظلمة في الجانب الآخر

من البلدة. أو، مثل الكونت وآنا، قد ينضمُّ المرء ببساطة إلى «حِلف الـمُهانين».

مثل «الماسونيين الأحرار»، يمثّل «حلف الـمُهانين» أخويّة قوية الآصرة يتحرك أعضاؤها دون علامات خارجية تُميّزهم، لكنهم يعرفون بعضهم البعض من نظرة واحدة. فأعضاء الحلف، الذين طُردوا فجأة من النعيم، يتشاركون منظورًا معينًا. لقد عرفوا أن الجمال، وقوة التأثير، والشهرة، مِزيات مستعارَة وليست هبات طبيعية، ومن ثم لم تعُد من السهل إثارة إعجابهم. وهُم لا يسارعون إلى الحسد أو الشعور بالاستياء. وبالتأكيد لا يمشّطون الصحف بحثًا عن أسمائهم. وهُم يظلّون ملتزمين بالعيش بين أقرانهم، لكنهم يستقبلون التزلّف بحذر، والطموح بإشفاق، والتعالي بابتسامة خفيّة.

بينما كانت الممثلة تصبّ المزيد من الفودكا، عاين الكونت الغرفة.

سألها: «كيف حال الكلبَيْن؟».

«حالهما أفضل من حالي».

قال، وهو يرفع كأسه: «في صحة الكلاب إذًا».

وافقته بابتسامة: «نعم، في صحة الكلاب».

وهكذا بدأ الأمر.

على مدار السنة ونصف التالية، كانت آنا تزور المتروبول كل بضعة أشهر. قبلها، كانت تتصل بمخرج عرفَته منذ زمن. كانت قد اعترفت بأن أيام ظهورها في الأفلام قد ولّت إلى غير رجعة، وقد أراحها هذا الاعتراف، فكانت تدعو المخرج ليكون ضيفها في البويارسكي. بعد أن تعلّمت الدرس عام 1928، لم تعد تصل إلى المطعم أولًا. بل كانت تضمَن، بإكرامية صغيرة لفتاة حجرة المعاطف، أن تصل بعد ضيفها بدقيقتين. على العشاء، كانت تعترف بأنها أحد أشد معجبي المخرج. كانت تتذكر عناصر منتقاة من عدد من أفلامه ثم تُسهب في الحديث عن

مشهد معين- مشهد يَسهل تجاهله لأنه يتضمن شخصية ثانوية وبضعة أسطر حواريّة، لكنه عولج بعناية واضحة واهتمام بالغ بالتفاصيل. وعندما تقود ضيفها إلى البهو، لا تقترح عليه تناول مشروب قبل النوم في الشاليابين؛ وبالتأكيد لا تدعوه لكأس في غرفتها. عوضًا عن ذلك كانت تقول له إنها سُرّت كثيرًا برؤياه، ثم تتمنى له ليلة سعيدة.

المخرج، وهو يرتدي معطفه، كان يتوقف لوهلة. وإذ يرى باب المصعد وهو يُغلَق، يعترف بأن أيام نجومية آنا أوربانوفا ربما تكون قد ولّت بالفعل إلى غير رجعة- لكنه يجد نفسه يتساءل إذا لم تكن الاختيار المثاليّ لذلك الدور الصغير في الفصل الثاني.

وبعد أن تدخل آنا غرفتها في الطابق الرابع، كانت تغيّر ملابسها، فترتدي فستانًا بسيطًا (بعد أن تُعلِّق رداءها في الدولاب)، ثم تسترخي بصحبة كتاب، وتنتظر وصول الكونت.

في أعقاب أحد تلك العشاءات مع مخرج من أصدقائها القدامى، اختيرت آنا لأداء مشهد واحد كعاملة مصنع في منتصف العمر تكافح من أجل استيفاء الحصة المقررة عليه. فإذ لم يتبقَّ من الربُع سنة إلا أسبوعين، تجتمع العاملات لصياغة خطاب لقيادة الحزب يُفصّل أسباب عجزهن المحتوم. لكن فور أن يشرعن في تعداد العقبات المختلفة التي واجهنها، تنهض آنا- وشعرُها مشدود بمنديل- لتلقي خطبة حماسية قصيرة لصالح استكمال العمل...

مع اقتراب الكاميرا أكثر من هذه الشخصية التي لا نعرف اسمها، يرى المشاهد أنها امرأة لم تعد شابة ولا فاتنة، لكنها تظل معتزة بنفسها ومرفوعة الهامة. وصوتها؟

آه، صوتها...

من الكلمات الأولى لخطبتها، يدرك الجمهور أنه أمام امرأة لا تعرف الكسل. إذ كان صوتها صوت امرأة تنفَّسَت غبار الطرق غير المرصوفة؛

صرخَت أثناء الولادة؛ صاحت مناديةً على أخواتها في ساحة المصنع. بمعنى آخر، كان صوت أختي، وزوجتي، وأمي، وصديقتي.

غنيٌّ عن القول أن خطبتها هي التي تحفّز النساء على مضاعفة جهودهن حتى ينتهين إلى تجاوز الحصة المقررة عليهن. لكن الأهم من ذلك، في العرض الافتتاحي للفيلم، جلس في الصف الخامس عشر رجل مدوَّر الوجه، بشعرٍ منحسر، سبق أن سبَّبَ لآنا شعورًا بالرهبة والإجلال؛ لم يكن ذلك الرجل إلا مديرًا لـ«إدارة الفنون السينماتوغرافية في موسكو» عندما حظي بشرف مقابلتها في الشاليابين عام 1923، لكنه أصبح الآن مسؤولًا كبيرًا في وزارة الثقافة، وتتردد شائعات أنه مرشّح محتمل لخلافة رئيسها الحالي. تأثَّر كثيرًا بخطبتها في المصنع حتى إنه سرعان ما سيسأل كل مخرج في مدى السمع إن كان قد رأى أداءها المذهل؛ وكلما كانت في موسكو، سوف يرسل باقة من الزنابق إلى غرفتها...

قد تبتسم ابتسامة العارف وتقول: آه. **هكذا حدث الأمر، إذًا. هكذا استعادت مركزها**... لكن آنا أوربانوفا كانت فنانة حقيقية تدرّبت على خشبة المسرح. فضلًا عن ذلك، بوصفها عضوًا في «حلف الـمُهانين»، أصبحت ممثلة تأتي في موعدها، وتحفظ حوارها، ولا تتذمّر قَط. ومع تحوّل الذوق الرسمي باتجاه الأفلام التي تحمل حسًّا واقعيًّا وتُعزز روح الصمود، كان هناك عادة دورٌ لامرأة ذات جمال متمرّس وصوت أجشّ. بعبارة أخرى، كان هناك العديد من العوامل، ضِمن نطاق سيطرة آنا وخارجها، ساهمت في بعثها من جديد.

ربما لا تزال متشكِّكًا. طيّب إذًا، ماذا عنكَ؟

لا شك أن هناك لحظات أخذَت فيها حياتك ما يشبه قفزة إلى الأمام؛ ولا شك أنك تنظر إلى تلك اللحظات باعتداد وفخر. لكن ألم يكن هناك حقًّا طرف ثالث يستحق ولو نزرًا يسيرًا من العرفان؟ مُرشد ناصِح، أو صديق للأسرة، أو زميل دراسة أعطى نصيحة في أوانها، أو عرَّفك بشخص ما، أو تحدث عنك بكلمة طيبة؟

لذا، دعنا لا نشرح الكيفيّات والأسباب. يكفي معرفة أن آنا أوربانوفا أصبحت نجمة مجددًا، لها بيت يطل على قناة فونتاكا وصفائح نحاسية بيضاوية مثبَّتة أسفل أثاثها؛ وإن كانت الآن عندما يأتيها ضيوف تستقبلهم على الباب.

★ ★ ★

فجأة، في الساعة 4:35 عصرًا، رأى الكونت كوكبة الدرفيل خماسيّة النجوم تدور أمام عينيه.

إذا رسم المرءُ خطًّا بإصبعه عَبْر نجمتيها السفليّتَيْن وتبع المسار عبر السماء، سيصل إلى كوكبة «أكيلا»، العُقاب؛ أما إذا رسم خطًّا عبر نجمتيها العلويّتيْن، فسيصل إلى كوكبة «بيغاسوس»، حصان بيليروفون المجنّح؛ وإذا رسم خطًا في الاتجاه المعاكس، سيصل إلى ما يبدو أنه نجم جديد جدًا- شمس لعلها استعرَت قبل ألف عام، لكنّ ضوءها قد وصل لتوّه إلى نصف الكرة الشمالي ليعمل كدليل للمسافرين المنهَكين، وعابري السبيل، والمغامرين على مدار الألفيّات القادمة...

«ماذا تفعل؟».

استدارت آنا باتجاه الكونت.

قال: «أظن أن لديك نَمْشَة جديدة».

«ماذا!»

حاولَت آنا النظر من فوق كتفها.

طمأنها: «لا تقلقي. إنها لطيفة».

«أين هي؟».

على بعد درجات قليلة من كوكبة الدرفيل.

«كوكبة الدرفيل؟».

«تعرفين. المجموعة النجمية التي تشبه الدرفيل. لديك واحدة بين لوحَيْ كتفيكِ».

«كم نَمْشة عندي؟».
«كم نجمة في السماء...؟».
«يا ربّي!».
انقلبت آنا على ظهرها.
أشعل الكونت سيجارة وسحب نفَسًا.
سألها وهو يناولها السيجارة: «ألا تعرفين قصة كوكبة الدرفيل؟».
أجابته بتنهيدة: «ولماذا أعرف قصة كوكبة الدرفيل؟».
«كابنة صيّاد».

«لماذا لا تقصّها علي».
«طيب. كان هناك شاعر ثريّ اسمه أريون. كان عازفًا عظيمًا على القيثارة ومبتكِر الديثرامب».
«الديثرامب».
«نوع قديم من الشعر. على أي حال، كان عائدًا من جزيرة صقلية عندما قرر طاقمه أن يريحه من ثروته. تحديدًا، أعطوه خيارَ أن يقتل نفسه أو أن يُلقى في البحر. وبينما كان أريون يوازن بين هذين الخيارين غير الجذّابيْن، راح يغني أغنية حزينة؛ وكان غناؤه بالغ الجمال، حتى إن سربًا من الدرافيل تجمّع حول السفينة؛ وعندما قفز في نهاية المطاف إلى البحر، حمله أحد الدرافيل بأمان إلى الشاطئ. وكمكافأة، وضع أبولو هذا المخلوق الخيّر بين النجوم لكي يتألق أبدَ الدهر».
«هذا جميل».
أومأ الكونت برأسه، مسترجعًا السيجارة من آنا ومنقلبًا على ظهره.
قال: «دورِك».
«دوري في ماذا؟».
«أن تحكي لي حكاية من حكايات البحر».
«لا أعرف أيًّا من حكايات البحر».

«آه، هيا. لا بُد أن أباكِ أخبركِ بواحدة أو اثنتين. لا يوجد صياد واحد في العالم المسيحي لا يحكي حكايات عن البحر».

«ساشا، عندي اعتراف لك...».
«اعتراف؟».
«أنا لم أنشأ على شواطئ البحر الأسود».
«لكن ماذا عن والدك؟ وعن لقائه في الغسق بجوار الشاطئ لرتقِ شَبَكته؟».
«كان والدي فلاحًا من بولتافا».

«لكن لماذا اختلقتِ قصة سخيفة كهذه؟».
«أظنني ظننتها ستجذبك».
«تظنينكِ ظننتِها؟»
«بالضبط».
فكّر الكونت لبرهة.
«وماذا عن نزع العظام عن الأسماك؟».
«لقد عملتُ في حانة في أوديسّا بعدما هربتُ من البيت».
هزّ الكونت رأسه.
«يا له من أمر محبِط».
استدارت آنا على جنبها لتواجه الكونت.
«لقد حكيتَ لي تلك القصة السخيفة عن تفّاحات نيجني نوفغارِد».
«لكن تلك قصة حقيقية!».
«آه، هيا. تفاحات بحجم قذيفة المدفع؟ على كل لون من ألوان الطيف؟».
ظل الكونت صامتًا للحظة. ثم كبس السيجارة في المطفأة على طاولة الفراش.

قال، وقد بدأ ينزل من السرير: «يجب أن أذهب».
قالت، وهي تسحبه إلى الخلف: «طيّب. أتذكر واحدة».
«واحدة ماذا؟»
«قصة من قصص البحر».
قَلَب عينيه.
«لا. أتكلم بجد. إنها قصة كانت تحكيها لي جدتي».
«قصة من قصص البحر».
«فيها مغامر شاب، وجزيرة مهجورة، وكنز من الذهب...».
على مضض، استلقى الكونت ثانية على الوسائد وأشار لها أن تبدأ.

روت آنا: كان يا ما كان، كان هناك تاجر ثري لديه أسطول من السفن وثلاثة أبناء، أصغرهم كان قصيرًا ضئيلًا. ذات ربيع، أعطى التاجر لولديه الكبيرين سفينتين محمّلتين بالفراء، والسجاد، والأقمشة الفاخرة، وأمر أحدهما أن يبحر شرقًا والآخر أن يبحر غربًا بحثًا عن ممالك جديدة للتجارة معها. عندما سأله الابن الأصغر عن مركبه، ضحك التاجر وولداه الكبيران. في النهاية، أعطى التاجر لابنه الأصغر مركبًا شراعيًّا صغيرًا بصارٍ واحد وأشرعة مهترئة، وطاقم من البحارة بلا أسنان، وأجولة فارغة لحفظ توازنها. عندما سأل الشاب والده إلى أي اتجاه يجب أن يُبحر، أجاب التاجر أنه يجب أن يبحر إلى حيث لا تغرب الشمس في ديسمبر.

وهكذا أبحر الابن باتجاه الجنوب مع طاقمه الحقير. بعد مرور ثلاثة أشهر في البحار المفتوحة، وصلوا إلى أرضٍ لا تغرب فيها الشمس في ديسمبر. هناك، رسوا على جزيرة ظَهَر أن فيها جبلًا من الثلج، لكن تبيَّن أنه جبل من الملح. كان الملح وفيرًا في موطنه حتى إن ربّات البيوت كنّ يلقين به من فوق أكتافهن لجلب الحظ دون تفكير. مع ذلك، أمر الشاب طاقمه بملء الأجولة في جسم المركب بالملح، حتى إن كان ذلك لمجرد زيادة وزن السفينة وحفظ توازنها.

مبحرين على نحو أكثر ثباتًا وسرعة من ذي قبل، سرعان ما صادفوا

مملكة عظيمة. استقبل الملك ابن التاجر في بلاطه وسأله ماذا لديه للمقايضة. أجاب الشاب أن لديه مركبًا مليئًا بالملح. قال الملك إنه لم يسمع بهذا الشيء من قبل، وتمنى له الخير وتركه لحال سبيله. لم تفتُر همّة الشاب، وقام بزيارة إلى مطبخ الملك، حيث رشّ الملح سرًا على لحم الضأن، وفي الحساء، وفوق الطماطم، وفي الكستردة.

تلك الليلة، ذُهل الملك لمذاق طعامه. كان الضأن أطيب، وكان الحساء أطيب، وكانت الطماطم أطيب، وحتى الكستردة كانت أطيب. استدعى طُهاته ليمثُلوا أمامه، وسألهم منفعلًا عن الأسلوب الجديد الذي استخدموه. مُبَلبَلين، اعترف الطهاة أنهم لم يفعلوا شيئًا مختلفًا؛ وإن كانوا تلقوا زيارة في المطبخ من شاب غريب جاء من البحر...

في عصر اليوم التالي، أبحر ابن التاجر إلى دياره في سفينة محمّلة بحقيبة من الذهب مقابل كل جوال من الملح.

...

«جدّتك أخبرتكِ بهذه الحكاية؟».

«هو كذلك».

«إنها قصة جيدة...».

«هي كذلك».

«لكنها لا تجلب لك الغفران».

«أعتقد ذلك»...

تحالف

في الساعة 5:45، وبينما كان نُدُله الخمسة واقفين في مواقعهم، قام الكونت بجولاته المسائية في البويارسكي. بادئًا من الزاوية الشمالية الغربية، سار في دائرة حول الطاولات العشرين ليتأكد من أن كل صحن وكوب وفضّيَّة، كل ملّاحة وكل مزهريّة في مكانها الصحيح.

على الطاولة رقم أربعة ضبطَ سكينًا ليحاذيه مع شوكته. وعلى الطاولة رقم خمسة حرّك كوب ماء من وضعية منتصف الليل إلى وضعية الساعة الواحدة. وعلى الطاولة رقم ستّة رفع كأس نبيذ التصقت بها آثار أحمر شفاه، بينما على الطاولة رقم سبعة مسحَ بقع الحساء من على ملعقة حتى أصبحَت الغرفة تنعكَس صافيةً على سطحها الفضي.

على هذا النحو، قد يلاحظ المرء، ربما ظهر نابليون وهو يسير في الساعة السابقة على الفجر بين جنوده، مراجعًا كل شيء، من مستودعات الذخيرة إلى ملابس المشاة- وقد تعلّم من الخبرة أن النصر في ميدان المعركة يبدأ باللمعة على حذاء.

لكنّ كثيرًا من معارك نابليون العظيمة لم تستمر أكثر من يوم ولم تُحارَب ثانية أبدًا...

على ذلك، فإن الـمُناظرة الأكثر جدارة قد تكون مع غورسكي والبولشوي. بعد أن دَرَس نيّة المؤلِّف، وتعاون تعاونًا وثيقًا مع المايسترو، ودرَّب الراقصين، وأشرف على تصميم الملابس والمناظر المسرحية، سار غورسكي هو الآخر بين جنوده في الدقائق السابقة على المعركة. لكن فور أن يُسدل الستار ويغادر الجمهور، لن يكون هناك موكب في

شارع الشانزليزيه. ففي غضون أقل من أربع وعشرين ساعة، ستعود راقصات الباليه، والموسيقيون، والفنيون للاجتماع لتنفيذ العرض نفسه بمعايير الإتقان نفسها. الآن، **تلكَ** كانت حياة البويارسكي - معركة يجب أن تُشنّ بذات المعايير الصارمة، وأن تُعطي، في الوقت نفسه، انطباعًا بالأريحية، كل ليلة من ليالي العام.

في الساعة 5:55، وبعد أن تأكد من أن كل شيء في مكانه في قاعة الطعام، حوَّل الكونت انتباهه، ولو باقتضاب، إلى مطبخ إميل. نظر الكونت من شبّاك الباب الصغير المستدير، فرأى مساعدي الشيف يقفون على أهبة الاستعداد في معاطفهم المبيَّضة حديثًا. رأى الصلصات تغلي فوق الموقد وزخارف الطعام جاهزة لتزيين الصحون. لكن ماذا عن ذلك الشيف المعروف ببُغضه للبشر؟ الآن ولم يتبقَّ على فتح أبواب البويارسكي سوى دقائق، ألم يكن يتذمّر من موظفيه، وزبائنه، وكل بني جنسه من الرجال؟

الحقُّ أن إميل زوكوفسكي كان يبدأ أيامه بتشاؤم سوداويّ. لحظةَ يَنظُر من تحت أغطيته، كان يقابِل الوجود بوجهٍ عابس، عارفًا أنه سيكون باردًا وقاسيًا. ثم، في الحادية عشرة، وإذ تأكدَت له أسوأ مخاوفه بعد قراءة الصحف الصباحية، يكون واقفًا على الرصيف في انتظار الترام المزدحم لكي يقعقع به إلى الفندق وهو يغمغِم: «يا له من عالم!».

لكن مع تقدم النهار، يتراجع تشاؤم إميل ساعة بعد أخرى، ويحلّ محله إحساس مفاده: لعلّ كل شيء لم يَضِع بعد. هذه النظرة الأكثر تورُّدًا تبدأ في التشكّل بهدوء نحو الظهيرة، عندما يصل إلى مطبخه ويرى قدوره النحاسية. تلك القدور المعلّقة إلى خطاطيفها، والتي لا تزال لامعة من جَلْي الليلة السابقة، تتراءى وكأنها تبشِّر بإمكانيَّاتٍ قابلة جدًّا للتحقّق. يخطو داخل المبرِّد، يرفع جَنْبَ خروف على كتفه، وعندما يُسقطه على المنضدة بلطمة مُرضية، تسطعُ نظرته للعالم بقوة مئة شمعة إضافية.

هكذا، بحلول الساعة 3:00، عندما يسمع إميل صوت الخضروات الجِذرية وهي تُقطَّع ويشم رائحة الثوم وهو يَطِشّ، قد يعترف على مضض أن الوجود يحمل عزاءاته الخاصة. ثم في الساعة 5:30، إذا بدا أن كل شيء في مكانه، قد يسمح لنفسه بتجربة النبيذ الذي كان يَطبخ به- فقط ليتخلص من الزجاجة، أنت تفهم طبعًا، المثل يقول «لا تُبذِّر اليوم كي لا تحتاج غدًا». وفي نحو الساعة 6:25، يتحوّل المزاج القاتم الذي استيقظ به إميل وبدا أنه ضاربٌ بجذوره في روحه، ثم يصبح مستبشرًا بلا رجعة عندما يستلم مطبخه أول طلب من الزبائن.

إذًا، ماذا رأى الكونت عندما نظر من الشبّاك الساعة 5:55؟ رأى إميل يدسّ ملعقة في طاسة من موس الشوكولاتة ويلعقها. عندما رأى الكونت هذا البرهان، استدار إلى أندري وأومأ برسه. ثم اتخذ موقعه بين الطاولتين رقم واحد واثنين بينما فضَّ المتر المصاريع ليفتح أبواب البويارسكي.



حواليّ الساعة التاسعة، عاين الكونت المطعم من أوّله إلى آخره، راضيًا بانقضاء الإجلاس الأول دون عقبات. كانت القوائم قد سُلِّمَت والطلبات قد أُخذَت وفقًا للخطة المقرَّرة. نجح النُدُل في اللحظة الأخيرة في تجنّب أربع طلباتٍ لتسوية الضأن تسويةً تامّة، وصُبَّت أكثر من خمس زجاجات لاتور، وأُجلِس عُضوًا المكتب السياسي بالعدل والقِسْطاس وخُدِما بالعدل والقِسْطاس. لكن بعد ذلك أشار أندري (الذي كان قد قاد لتوِّه مفوَّض النقل إلى الجانب الآخر من القاعة بعيدًا عن الصحافيين الأمريكان) إلى الكونت وقد ارتسمت على وجهه أمارات الهمّ والغمّ.

سأله الكونت عندما وصل إليه: «ماذا حدث؟».

وأجاب المتر: «أخبروني الآن بأن جلسةً خاصة ستُعقد في ‹الغرفة الصفراء›، بعد كل ما رتَّبناه».

«كم العدد؟».

«لم يحدِّدوا، لكنهم قالوا إنها ستكون جلسة صغيرة».

«إذًا، بإمكاننا إرسال فاسينكا. سآخذ أنا الطاولتين خمسة وستة؛ ويمكن أن يأخذ مَكْسيم الطاولتين سبعة وثمانية».

قال أندري: «لكن هذه هي المشكلة. لا نستطيع إرسال فاسينكا».

«ولِـمَ لا؟».

«لأنهم طلبوكَ بالاسم».

★ ★ ★

أمام «الغرفة الصفراء» كان يقف دَيْدَبان: جالوتٌ قادر على جعل أي داود يراجع نفسه. عندما اقترب الكونت من العملاق لم يبدُ عليه أنه مدركٌ لما حوله، ثم فجأة، ودون إشارة على أنه انتبه للقادم، تنحّى جانبًا وفتح الباب برشاقة.

لم يفاجأ الكونت برؤية عملاق يقف بباب جلسةٍ خاصة في المتروبول؛ ما كان مفاجئًا هو الترتيب الذي اتُّخذ لغرفة الطعام. إذ كانت معظم قطع الأثاث قد أزيحت إلى الأطراف، ولم تُترك إلا طاولة واحدة مجهَّزة لفردين تحت الثريّا- كان يجلس عليها رجل في منتصف العمر يرتدي بدلة رمادية داكنة.

للوهلة الأولى، بدا مثل رجلٍ معتادٍ على استعمال القوّة الغاشمة، رغم كونه أصغر حجمًا بكثير وأشدّ تأنّقًا بكثير من الحارس الواقف بالباب. كانت رقبته ورسغاه غليظة وكأنه مصارع، وكشفَ شعره الحليق عن ندبة فوق أذنه اليسرى، لعلها نتجت عن ضربة خاطفة سُدِّدَت إليه لتفلق جمجمته. وبدا في غير عجلة من أمره، يلعب بملعقته.

قال الكونت بانحناءة: «مساء الخير».

ردّ الرجل بابتسامة، وهو يعيد ملعقته إلى الطاولة: «مساء الخير».

«هل أُحضِر لسيادتك مشروبًا أثناء الانتظار؟».

«أنا لا أنتظر أحدًا آخر».

«آه»، قالها الكونت، ثم بدأ يرفع الصحون من أمام الكرسي الآخر.

«لست مضطرًا إلى رفعها».

«معذرة. ظننتُ أنك لا تنتظر أحدًا».

«لا أنتظر أحدًا آخر. أنا أنتظرك أنت يا ألكسندر إلييتش».

تفحَّص كل منهما الآخر لبرهة.

قال الرجل: «رجاءً، تفضل بالجلوس».

تردَّد الكونت في الجلوس على الكرسي المعروض عليه.

تحت ظروف كهذه، قد يقفز المرء إلى استنتاج أن تَردُّد الكونت نجم عن تشكُّكه في هذا الغريب، أو حتى خِشيته منه. لكنه تَردَّد، في المقام الأول، لأنه رأى أن جلوس المرء إلى طاولة يرتدي ملابس التخديم عليها أمرٌ خارجٌ تمامًا عن اللياقة.

قال الغريب بنبرة ودودة: «هيا. لن تحرمني متعة صحبتك وتتركني آكل وحدي».

أجاب الكونت: «بالطبع لا».

لكن رغم قبوله الجلوس، لم يَضَع الفوطة في حِجرِه.

تناهَت نقرةٌ على الباب، ثم دخل جالوت. اقترب من الطاولة دون أن ينظر إلى الكونت، ومدَّ يده إلى الغريب بزجاجة لكي يُبدي رأيه فيها.

مالَ المضيف إلى الأمام ودقّق في بطاقتها، ثم قال: «ممتاز. شكرًا يا فلاديمير».

بدا أن فلاديمير قد يكسر رقبة الزجاجة بكل بساطة، لكنه، بخفَّة مدهشة، أخرج فتّاحة من جيبه، ودوَّرها في يده، وسحبَ السدادة. ثم، بعد أن تلقَّى إيماءة من رئيسه، وضع الزجاجة على الطاولة وتراجع عائدًا

إلى الردهة. صبَّ الغريب كأسًا لنفسه، ثم، بينما تُحلّق الزجاجة فوق الطاولة بزاوية خمسٍ وأربعين درجة، نَظر إلى الكونت.

«ألن تشاركني؟».

«بكل سرور».

بعد أن صبَّ له الغريب، رفع كلاهما كأسه وشَرب.

أعاد الغريب كأسه إلى الطاولة، ثم قال: «الكونت ألكسندر إلييتش روستوف، حامل وسام القديس أندرو، عضو نادي الفروسية، مستشار الصيد الامبراطوري...».

«أنا الآن في ظَرفٍ غير الظَّرف».

«ألا تعرف من أكون؟».

«أعرف أنك رجلٌ تستطيع تأمين إحدى غرفتَيّ البويارسكي الخصوصيَّتَيْن لكي تتناول فيها طعامك بمفردك بينما يقف بِهِيموث دَيْدَبانًا ببابك»(*).

ضحكَ الغريب. ثم قال، وهو يريح ظهره في كرسيه: «ممتاز. وماذا ترى أيضًا؟».

تفحَّص الكونت مُضيفه بجرأة أكبر ثم هزّ كتفيه.

«سأقول إنك في الأربعين من العمر، وكنتَ عسكريًّا يومًا ما. ربما كنتَ في المشاة، لكنك أصبحتَ كولونيلًا في نهاية الحرب».

«وكيف تعرف أنني أصبحتُ كولونيلًا؟».

«إحدى صَنْعات الجنتلمان أن يميِّز بين أصحاب الرُّتَب».

«صَنْعات الجنتلمان»، ردَّدها الكولونيل بابتسامة، وكأنما إعجابًا بالتعبير. «وهل تستطيع أن تقول مِن أين أنا؟».

(*) يواصل الكونت إشاراته المستوحاة من الكتاب المقدس، فبعد «جالوت» و«داود»، يَذكُر «بِهيموث»، ذلك الوحش الأسطوري الذي ورد ذكره في «سفر أيوب». (المترجم)

صَرَف الكونت السؤال بإشاحة من يده.

«السبيل الأكيد لإهانة والونّي(*) هو أن تظنَّه فرنسيًّا، رغم أنهما يعيشان على بعد بضعة كيلومترات لا أكثر، ويتحدثان اللغة نفسها».

أقرَّ الكولونيل: «أظن أن هذا صحيح. مع ذلك، فأنا مهتمٌّ بتخمينك؛ وأعدك أنني لن أشعر بالإهانة».

تناول الكونت رشفة من نبيذه وأعاد الكأس إلى الطاولة.

«أكاد أكون متأكدًا أنك من شرق جورجيا».

اعتدل الضابط في جلسته وقد اكتسى وجهُه بالحماسة.

«مذهل. هل لديَّ لكنة مميزة؟».

«ليست ملحوظة بهذا القدر. لكن الجيوش، مثل الجامعات، هي الأماكن الأمثل لتذويب اللكنات».

«إذًا، لماذا شرق جورجيا؟».

أشار الكونت إلى النبيذ.

«وحده الجورجيّ الشرقيّ يبدأ وجبته بزجاجة رِكتْسِتيلي».

«لأنه قرويٌّ ساذج؟».

«لأنه يشتاق إلى دياره».

ضحك الكولونيل مجددًا.

«يا لك من داهية!».

تناهت نقرةٌ أخرى على الباب ثم دخل العملاق وهو يدفع عربة من طراز عصر الـ«ريجينسي».

«آه. ممتاز. ها نحنُ».

عندما كان فلاديمير يدفع العربة باتجاه الطاولة، شَرَع الكونت يدفع كرسيه إلى الخلف، لكنّ مضيفه أشار له بالبقاء جالسًا. رفع فلاديمير

(*) والونيّ: نسبة إلى إقليم «والونيا»، أحد الأقاليم البلجيكية. (المترجم)

القُبّة ووضع صحنًا في مركز الطاولة. وحين كان يغادر الغرفة، تناول الكولونيل سكينًا حادًّا وشوكة.

«دعنا نرى. ماذا لدينا هنا؟ آه، بطّ محمّر. لقد قالوا لي إن البويارسكي لا يُضاهى».

«لم يكذبوا عليك. احرص على تناول بعض الكرز وقطعة من الجِلد».

وزّع الكولونيل حصّةً لنفسه، شملَت الكَرَز والجِلد، ثم وزع حصّة للكونت.

عندما تناول القضمة الأولى قال: «لذيذة جدًّا».

أحنى الكونت رأسه متقبلًا الإطراء نيابةً عن إميل.

أشار الكولونيل إلى الكونت بشوكته.

«لديك ملفٌّ مثير جدًّا يا ألكسندر إلييتش».

«لديّ ملفّ؟».

«معذرة. إنها عادة فظيعة في الكلام. ما قصدته هو أن لديك خلفية مثيرة».

«آه، نعم. طيّب. لقد كانت الحياة كريمة معي على تقلّباتها».

ابتسم الكولونيل، ثم بدأ يتحدث بنبرة من يحاول أن يوفّي الحقائق قَدْرَها.

«لقد ولدتَ في لينينغراد...».

«لقد ولدتُ في سان بطرسبرغ».

«آه، نعم، بالطبع. في سان بطرسبرغ. تُوفّي والداك وأنت صغير، وربّتك جدتك. التحقتَ بالأكاديمية ثم بالجامعة الامبراطورية في... سان بطرسبرغ».

«كل هذا صحيح».

«وقد سافرتَ إلى الخارج، على ما أعتقد».

هزّ الكونت كتفيه.

«باريس. لندن. فلورنسا».

«لكن عندما غادرتَ البلاد للمرة الأخيرة عام 1914، ذهبتَ إلى فرنسا؟».

«في السادس عشر من مايو».

«صحيح. بعد أيام من تلك الحادثة مع الملازم بولونوف. خبِّرني، لماذا أطلقتَ النار على هذا الشاب؟ ألم يكن أرستقراطيًّا مثلك؟».

ظهرت صدمة خفيفة على وجه الكونت.

«لقد أطلقتُ النار عليه **لأنّه** كان أرستقراطيًّا».

ضحك الكولونيل ولوّح بشوكته مجدَّدًا.

«لم أفكر في الأمر بهذه الطريقة. لكن نعم، إنها فكرة يجب أن نفهمها نحن البلاشفة. إذًا، كنتَ في باريس وقت اندلاع الثورة، وبعدها بقليل عدتَ إلى الديار».

«بالضبط».

«الآن، أظنني أفهم لماذا سارعتَ بالعودة: لمساعدة جدتك على الخروج بأمان من البلاد. لكن بعد أن رتَّبتَ لفرارها، لماذا اخترتَ البقاء؟».

«كرامةً للمطبخ».

«لا، أسألك بجدّ».

«كانت أيام مغادرتي روسيا قد ولَّت إلى غير رجعة».

«لكنك لم تحمل السلاح مع ‹البِيض›».

«لا».

«ولا يبدو لي أنك جبان...».

«آمل ألّا أكون كذلك».

«لماذا إذًا لم تلتحق بالشجار الدائر؟».

تمهَّل الكونت، ثم هزّ كتفيه.

«عندما غادرتُ إلى باريس عام 1914، أقسمتُ ألّا أطلق النار مجددًا على أي شخص من بني جِلدتي».

«وأنت تعتبر البلاشفة من بني جلدتك».

«بالطبع».

«فهل تعتبر البلشفي جنتلمانًا؟».

«هذه قضية أخرى تمامًا. لكن بعضهم كذلك بكل تأكيد».

«مفهوم. لكن حتى من طريقتك في قول ذلك، أستطيع أن أقول إنك لا تعتبرني **أنا** جنتلمانًا. الآن، ما السبب في ذلك؟».

أجاب الكونت بضحكة خفيفة، وكأنما ليقول إنه ما مِن جنتلمان سيجيب على سؤال كهذا.

لكن الكولونيل ألحّ عليه: «هيا. ها نحن الاثنان نتناول بطّ البويارسكي المحمّر مع زجاجة من النبيذ الجورجيّ، وهو ما يجعلنا عمليًّا أشبه بالأصدقاء القدامى. وأنا مهتمٌ بحقّ. ما الذي تراه فيّ ويجعلك متأكدًا أنني لست جنتلمانًا؟».

كإيماءة تشجيع، انحنى الكولونيل على الطاولة ليعيد مِلء كأس الكونت.

قال الكونت بعد بُرهة: «إنه ليس شيئًا واحدًا. إنها مجموعة من التفاصيل الصغيرة».

«مثلما في الفسيفساء».

«نعم، مثلما في الفسيفساء».

«إذًا، اعطني مثالًا على أحد تلك التفاصيل الصغيرة».

تناول الكونت رشفةً من كأسه وأعادها إلى الطاولة في اتجاه الساعة الواحدة.

«كمضيفٍ، تصرفتَ بلياقة حقيقيّة عندما بادرتَ إلى الإمساك بأدوات توزيع الطعام. لكنّ الجنتلمان كان سيخدِم ضيفه قبل أن يخدِم نفسه».

ابتسم الكولونيل، الذي كان قد تناول لتوّه قضمةً من البط، لسماعه أوّل مثال من أمثلة الكونت ولوّح بشوكته.

قال: «استمر».

قال الكونت: «الجنتلمان لن يشير إلى رجل آخر بشوكته. ولن يتكلّم وفمُه مملوء بالطعام. لكن الأهم، ربما، كان سيقدّم نفسه في بداية الحديث- خاصة عندما يكون في موقفٍ أفضل من ضيفه».

وضع الكولونيل الشوكة والسكين.

وأضاف بابتسامة: «وطلبتُ النبيذ الخطأ».

رفع الكونت إصبعًا في الهواء.

«لا. هناك أسباب عديدة لطلب زجاجة نبيذ بعينها. وذكريات الديار من بين أفضل تلك الأسباب».

«إذًا، اسمح لي أن أقدم نفسي: أنا أوسيب إيفانوفيتش غليبنيكوف- كولونيل سابق في الجيش الأحمر ومسؤول بالحزب. عندما كان صبيًّا في شرق جورجيا كان يحلم بموسكو، وعندما أصبح رجلًا في التاسعة والثلاثين في موسكو أصبح يحلم بشرق جورجيا».

قال الكونت، وهو يمد يده فوق الطاولة: «سعدتُ بمقابلتك». تصافح الرجلان ثم استأنفا الأكل. بعد برهة، تجرّأ الكونت:

«اعذرني على وقاحتي يا أوسيب إيفانوفيتش: ما الذي **تفعله** تحديدًا كمسؤول في الحزب؟».

«دعنا نكتفي بأنني مكلَّف بمتابعة بعض الأشخاص المثيرين للاهتمام».

«آه. طيّب، أعتقد أن ذلك يصير أسهل عندما تضعهم رهن الإقامة الجبرية».

صحّح له غليبنيكوف: «في الحقيقة، يصير ذلك أسهل عندما تضعهم في بطن الأرض...».

أقرَّ الكونت بهذه النقطة.

تابع غليبنيكوف: «لكن على أي حال، يبدو أنك نجحت في التصالح مع وضعك».

«بوصفي دارسًا للتاريخ ورجلًا مكرَّسًا للحياة في الحاضر، أعترف بأنني لا أقضي الكثير من الوقت في تخيّل كيف كانت الأمور لتسير لو اختلف الحال عن الحال. لكنني أحب أن أفكر أن هناك فارقًا بين الاستسلام لوضع ما والتصالح معه».

أطلق غليبنيكوف ضحكةً وضرَب بخفّة على الطاولة.

«ها نحنُ. هذا الفارق الدقيق هو الذي جاء بي لكي أقف ببابك».

وضع الكونت فضّيَّاته، ونظر إلى مُضيفه باهتمام.

«إن أمّتنا، يا ألكسندر إلييتش، تقف عند منعطف مثير جدًّا. لقد أقمنا علاقات دبلوماسية مع الفرنسيين والبريطانيين على مدار سبع سنين، وهناك حديث أننا سنقيم علاقات مع الأمريكان. منذ عصر بيتر الأكبر، ظللنا نلعب دور ابن العم الفقير للغرب- نُعجَب بأفكارهم بقدر ما نُعجب بملابسهم. لكننا الآن بصدد لَعِب دورٍ مختلف تمامًا. ففي غضون سنوات، سنصبح مُصدِّرين للحبوب ومُصنِّعين للصُلب أكثر من أي بلد في أوروبا. ونحن متقدمون عنهم جميعًا بقفزات طويلة في الأيديولوجيا. على ذلك، للمرة الأولى، نوشك أن نتبوأ مكانتنا اللائقة على الساحة العالمية. وعندما نفعل ذلك، سيكون لزامًا علينا أن نُنصتَ بعناية وأن نتحدّث بوضوح».

«تريد أن تتعلّم الفرنسية والإنكليزية».

رفع أوسيب كأسه تأكيدًا.

«نعم يا سيدي. لكنني لا أريد تعلم اللغات فقط. أريد أن أفهم أولئك الذين يتحدثون بها. وعلى وجه الخصوص، أودّ أن أفهم طبقاتهم المميَّزة- فهؤلاء هم من يمسكون بدفّة القيادة. أودّ أن أفهم كيف ينظرون إلى العالم؛ ما الذي يُعدِّونه ضرورةً أخلاقية؛ ما الذي يميلون إلى تقديره وما الذي يزدرونه. إنها مسألة تطوير مهارات دبلوماسية معيّنة، إذا شئت.

لكن بالنسبة لرجل في مكانتي، من الأفضل للمرء أن يعزّز مهاراته... خِفيَة».

«وكيف تقترح أن أساعدك؟».

«الأمر بسيط. تناول الطعام معي مرة في الشهر في هذه الغرفة بالذات. تحدّث معي بالفرنسية والإنكليزية. شاركني انطباعاتك عن المجتمعات الغربية. وفي المقابل...».

ترك غليبنيكوف جملته تنقطع، لا تلميحًا بضآلة ما يستطيع فِعله من أجل الكونت، بل إيحاءً بوفرته.

لكن الكونت رفع يدًا ليوقف أي كلام عن المقابِل.

«إذا كنتَ من زبائن البويارسكي، يا أوسيب إيفانوفيتش، فأنا في خدمتك بالفعل».

أبسِنت

مع اقتراب الكونت من الشاليابين الساعة 12:15، انبعث من ذلك المكان- الذي كان في يوم من الأيام مُصلًّى للتعبُّد والتأمل- صوتٌ لم يكن متصوَّرًا قبل عشر سنوات. كان صوتًا تُميِّزه نوباتٌ من الضحك، وخليطٌ من اللغات، وثُغاء تُرومبِت، وصلصلة كؤوس- بعبارة أخرى، صوتُ مرحٍ ولهْو.

ما التطوّر الذي يمكن أن يكون قد جَلب تحوّلًا كهذا؟ في حالة الشاليابين، كانت هناك ثلاثة تطورات. الأول كان العودة المذهلة للشكل الموسيقي الأمريكي المدعو بالجاز. بعد أن أخمد البلاشفة الهوس به بدعوى ما فيه من انحلال متأصّل، بدأوا بتشجيعه مجددًا في منتصف القرن العشرين. ربما كان ذلك لكي يستطيعوا أن يدرسوا عن كثب كيف يمكن لفكرة واحدة أن تجتاح العالم. أيًّا كان السبب، ها هو يصدح بالأزيز والطنين والـ«رات- تا- تا» على مسرحِه الصغير في آخر الغرفة.

التطوّر الثاني كان عودة المراسلين الأجانب. في أعقاب الثورة، اصطحبهم البلاشفة مباشرةً إلى باب الخروج (ومعهم الآلهة، والشكوك، ومثيري المتاعب من كل صنف). لكنّ المراسلين طائفةٌ ماكرة. فبعد أن أخفوا آلاتهم الكاتبة، وعبروا الحدود، وغيَّروا ملابسهم، وعدُّوا إلى عشرة، بدأوا يتسللون عائدين إلى البلاد واحدًا بعد آخر. وهكذا في عام 1928، افتُتح «مكتب الصحافة الأجنبية» مجددًا في الطابق العلوي من المبنى المكوّن من ستة طوابق، وبلا مصعد، الموجود عن جدارة في منتصف الطريق بين الكرملين ومكاتب البوليس السرّي- وهي بُقعةٌ

تَصادَف وجودها على الرصيف المواجه للمتروبول. هكذا، في كل ليلة، أصبحتَ ترى خمسة عشر عضوًا من الصحافة الدولية في الشاليابين مستعدين للانقضاض على أذنيك. وعندما لا يجدون مستمعين، كانوا يصطفُّون عند منضدة البار مثل طيور نَوْرس على الصخور ويَنعَقون جميعًا في وقت واحد.

ثم كان ذلك التطور الغريب عام 1929. في أبريل من ذلك العام، أصبحتَ فجأة ترى المضيفات في الشاليابين؛ ليست واحدة، ولا اثنتان، بل ثلاثًا- كُلهنّ صغيرات في السن، وجميلات، يرتدين فساتين سوداء تعلو الركبة. كن يتحركن بين زبائن البار بجاذبية وأناقة، ملطِّفات الهواء بصُورِهن الظليَّة النحيلة، وضحكاتِهن الرقيقة، وآثارِ عطورهن. وإذا كان المراسلون الجالسون إلى منضدة البار ميّالين للكلام أكثر من الإصغاء، فقد كانت المضيفات، في نظام تكافليٍّ ممتازٍ، ميّالات للإصغاء أكثر من الكلام. يرجع ذلك جزئيًا، بالطبع، لكون وظائفهن تعتمد على ذلك. إذ كان يُطلب منهن القيام بزيارة أسبوعية لمبنًى رماديٍّ صغير عند ناصية شارع دزيرجينسكي حيث يَستقبلهن رجلٌ صغير ذو شعر رماديّ خلف مكتب صغير ذي لون رماديّ ليسجل كل ما تصادف لهن سماعه كلمةً بكلمة(*).

(*) -نعم، كان هذا الرجل الصغير ذو الشعر الرمادي خلف مكتبه الصغير ذي اللون الرماديّ مسؤولًا، ليس فقط عن تسجيل المعلومات التي تجمعها الساقِيات، وإنما عن ضمان مشاركتهن الإراديّة عن طريق تذكيرهن بواجبهن تجاه بلادهن، والإيحاء لهن بمدى سهولة أن يخسرنَ وظائفهن، و، عند الحاجة، بالغمزِ بتلميحاتٍ أكثر شؤمًا. لكن دعنا لا نُدين هذا الرجل بهذه السرعة.
إذ إنه لم يسبق له قَطّ الذهاب إلى بار الشاليابين. ولم يتناول قَط طعامه في البويارسكي. لقد خُصصت له حياةٌ بالوكالة- حياةٌ فيها كل الخبرات على مرمى حَجَر، وكل الأحساسيس مستعارة. لا ثغاء تُرومبِت لأجله، ولا صلصلة كأس، ولا مَنظر رُكبة امرأة شابة. مثل مساعدي العلماء، كان قَدَره ببساطة أن يُسجّل البيانات ثم يَسرد الملخص على رؤسائه دون تزويق أو إسهاب.

لكن، هل جعل التزام المضيفات هذا الصحافيين أكثر حذرًا أو تكتّمًا خشية أن تُنقَل عنهم ملاحظةٌ طائشة؟

على العكس. كان لدى فيلق الصحافة الأجنبية رهانٌ دائم قدرُه عشرة دولارات أمريكية لأي واحد منهم يتمكن من الحصول على استدعاء للمثول أمام مفوضيّة الشؤون الداخلية. ومن أجل تحقيق تلك الغاية، كانوا يَبتدعون استفزازاتٍ شنيعة ويَنسجونها في دردشاتهم. أحد الأمريكان جعل لسانه يزِلّ بأنه في الفناء الخلفي لأحد بيوت الداشا الريفية، ثمة مهندس محبَط يصنع منطادًا طبقًا للمواصفات التي قرأها في أعمال «جول فيرن»... ورَوَى آخر أن عالِم أحياءٍ، لم يُسمِّه، كان يُهجِّن رهطًا من الدجاجات مع سربٍ من الحَمَامات لإنتاج طائرٍ يستطيع وضعَ بيضةٍ في الصباح وتوصيل رسالةٍ في الليل... إجمالًا، كانوا مستعدين لقول أي شيء على مسمع من المضيفات- بمعنى، أي شيء قد يوضع تحته خطٌّ في تقرير ويَنزِل بلطمة على طاولة مكتب داخل الكرملين.

عندما وقف الكونت على مدخل الشاليابين، عَرِف أن اللهو الليلة أكثر حتّى من المعتاد. كانت فرقة الجاز في الزاوية، وهي المسؤولة عن تحديد الإيقاع، تكافح لمجاراة الضحكات المتفجِّرة والخبطات على الظهور. شقَّ الكونت طريقه وسط الهرج والمرج، واقترب من الطرف الأكثر تكتُّمًا من المكان (حيث عمودٌ من المرمر ينزل من السقف إلى

والحقُّ أنه كان يجيد هذه المهمة، بل وكان معروفًا في أرجاء قِسمه كأعجوبة من الأعاجيب. فما مِن أحد في عموم موسكو كان يستطيع كتابة تقرير على هذا القدر من الكمال الشاحب. كان قد أتقن، بقليل من التعليمات، فنّ كبحِ استبصاراته، والتخلّي عن دعاباته، ولَجْمِ استخدام الاستعارات، والتشبيهات، والمقارنات- مُجمل القول، كان يمرِّن كلَ عضلة من عضلات الإلجام الشعري. الحقيقة، لو أن المراسلين الذين يَنسَخ كلامهم بمقتضى الواجب رأوا فَقَط صنائع يديه مرةً واحدةً، لرفعوا له قبعاتِهم، وأحنوا رؤوسَهم، واعترفوا بأنه أحد كِبار معلمي الموضوعيّة.

الأرض). بعدها بلحظة، كان أودريوس ينحني باتجاه الكونت مستندًا إلى منضدة البار بساعده.

«مساء الخير يا كونت روستوف».

«مساء الخير يا أودريوس. يبدو أن لدينا احتفالًا صاخبًا الليلة».

أشار البارمان برأسه تجاه أحد الأمريكان.

«السيد لاينس اصطُحِب إلى 'المديرية السياسية للدولة' اليوم».

«المديرية السياسية للدولة! كيف ذلك؟».

«يبدو أن خطابًا مكتوبًا بخط يده وُجد على أرضيّة صالة بيرلوف للشاي- خطابٌ تضمّن وصفًا لتحركات قوّات وتثبيت مدفعيّة في ضواحي سمولِنْسك. لكن عندما وُضع الخطاب على المكتب وطُلب من السيد لاينس تفسيره، قال إنه كان ينسَخ، ببساطة، فقرَته المفضلة من 'الحرب والسلام'».

قال الكونت مبتسمًا: «آه، نعم. معركة بورودينو».

«ومكافأة على هذا الإنجاز، تسلَّم مبلغ الرهان وهو الآن يشتري دورة شراب للجميع. لكن كيف نستطيع خدمتك هذا المساء؟».

نقرَ الكونت على البار مرتين.

«ليس لديك أي قدر من الأبسِنت، أليس كذلك؟».

رفع أودريوس أحد حاجبيه بقدرٍ طفيف.

كان هذا البارمان يعرف تفضيلات الكونت تمام المعرفة. يعرف أن الكونت قبل العشاء يطلب كأسًا من الشامبانيا أو نبيذ الفيرموث الجاف. يعرف أنه بعد العشاء يطلب قَدَحًا من البراندي حتى يتراجع متوسط درجة الحرارة الليلية إلى أقل من أربع درجات ونصف، وعند تلك النقطة ينتقِل إلى كأس من الويسكي أو البورت. لكن أبسِنت؟ طوال معرفتهما التي بلغت عشر سنوات لم يسبق وأن طلب الكونت ولو كأسًا واحدةً. في الحقيقة، كان نادرًا ما يتناول أيًا من الخمور الـمُسكرة- وبالتأكيد ليس الخمور خضراء اللون التي يُقال إنها تُسبب الجنون.

لكن أودريوس، المحترف دائمًا، قَصَر دهشته على تلك الحركة من حاجبه.

قال: «ربما تبقَّت عندي زجاجة». ثم فتح بابًا خفيًّا في الجدار، واختفى داخل الخزانة حيث يحتفظ بمشروباته الرُوحيّة الأعلى سعرًا والأكثر خصوصيّة.

على المنصة، في الزاوية المواجهة للبار، كانت فرقة الجاز تلعب لحنًا صغيرًا مرحًا. الحقيقة أن الكونت لم يشعر بألفة مع الجاز في لقائه الأول معه. كان قد نشأ على تقدير موسيقى الوجدان والتباين الصوتي، الموسيقى التي تكافئ الصَبرَ والانتباه بحركات كريشندو ودِمِنيوِنْدُو، ألليغرو وأداجيو، الموسيقى المرتَّبة بإبداع على أربع حركات كاملة- لا مجرَّد حِفنة من النغمات حُشرت معًا يختلط فيها الحابل بالنابل في ثلاثين مازورة.

مع ذلك...

مع ذلك، فقد نما ذلك القالب الفني بداخله. مثل المراسلين الأمريكان، بدا الجاز قوة عِشْريَّة بطبعها- قوة جامحة قليلًا وميّالة لقول أول ما يخطر ببالها، لكنها عمومًا تتمتع بالمزاج الطيّب والنية الصافية. علاوة على ذلك، بَدا أن ذلك الشكل لا يعبأ إطلاقًا بأينَ كان أو إلى أين يتجه- مُظهرًا في آنٍ واحد، على نحو ما، ثقة المعلِّم المحنَّك وقلة خبرة المتدرِّب. أَمِن عجبٍ إذًا أن فنًّا كهذا لم ينشأ في أوروبا؟

خرج الكونت من حلم يقظته على صوت زجاجة توضع على البار.

قال أودريوس، وهو يُميل الزجاجة حتى يستطيع الكونت قراءة بطاقتها: «أبسِنت روبيت. لكن للأسف لم يبقَ فيها إلا أوقيَّة أو اثنتان».

«ستفي بالغرض».

أفرغ البارمان الزجاجة في كأسٍ مكتنِزة.

«شكرًا لك يا أودريوس. أرجوك أضِفها على حسابي».

«لماذا فعل ذلك؟»، سأل الكونت (استباقًا للتساؤل المفضّل لدى مستمِعته الصغيرة).

الأمر بسيط، كان والد الكونت يؤمن بأن الرجل يجب أن ينشغل كثيرًا بالحياة، لكن لا يجب أن ينشغل كثيرًا بالساعة. ولما كان تلميذًا لكل من الرواقيِّين ومونتاني، فقد آمن بأن خالِقنا قد خصص ساعات الصباح للكدّ والعمل. بمعنى، إذا استيقظ المرء قبل السادسة، وتناول وجبة خفيفة، ثم انكبّ على عمله دون مقاطعة، فبحلول الظهيرة سيكون قد أنجز عمل يومٍ كامل.

هكذا، كانت دقة الثانية عشرة، من وجهة نظر والده، لحظةَ حسابٍ ما. عندما يصدح جرس الظهيرة، يستطيع الرجل المثابر أن يفتخر باستغلاله الصباح استغلالًا جيدًا وأن يجلس لتناول غدائه بضميرٍ صافٍ. لكن عندما يَصدح لرجلٍ أرعَن- ذلك الذي بدَّد صباحه في الفراش، أو على الإفطار بصحبة ثلاث صحفٍ، أو في ثرثرة عاطلة في غرفة الجلوس- لن يكون أمامه خيار إلا أن يطلب المغفرة من الرب.

بعد الظهر، كان والد الكونت يؤمن بأن على الرجل أن يحرص على ألّا يمضي في الحياة بساعة معلَّقة في جيب صدريّته- متابعًا الدقائق وكأن حوادث حياته محطاتٌ على خطٍّ سكة حديدية. بل عليه، بعد أن يكون قد كدّ في عمله باجتهاد قبل الغداء، أن يقضي ساعات ما بعد الظهر بحرّية رشيدة. بمعنى، أن يتمشّى بين أشجار الصفصاف، أو يقرأ نصًّا خالدًا، أو يتحدث مع صديق تحت تعريشة، أو يتأمل أمام النار- منخرطًا في تلك المشاغل التي ليس لها ساعات مكرّسة، بل تفرض بنفسها متى تبدأ ومتى تنتهي.

والدقّة الثانية؟

كان والد الكونت مقتنعًا أنه يجدر بالمرء ألّا يسمعها أبدًا. إذا كان المرء قد قضى يومه بصورة جيدة- في خدمة العمل، والحرية، والربّ-

وأنها تقلِب المنطق رأسًا على عقب: سقفٌ مصنوع من الزجاج. حديقة استوائية أقيمت بين جدران. فسقيّة في منتصف قاعة!

عندما أكملت صوفيا معاينتها لمفارقات البياتسا، لاحَ أنها فهمَت بالغريزة أن مكانًا كهذا يستحق سلوكًا على مستوى راقٍ. إذ أخذَت دُميتها فجأة من فوق الطاولة ووضعتها على الكرسي الشاغر عن يمينها؛ وعندما سَحَب الكونت فوطته من تحت الفضيّات ليضعها في حِجره، قلَّدته صوفيا، وقد حرصت على وجه الخصوص ألا تُصلصِل شوكتها وسكينها؛ وعندما قال الكونت لمارتِن **شكرًا جزيلًا يا أستاذ** بعد أن أخذ طلباته، ردَّدَت صوفيا عبارة الكونت كلمةً بكلمة. ثم نظرت إلى الكونت، مترقبةً.

سألَته: «الآن؟».

«الآن ماذا يا عزيزتي؟».

«ألن تخبرني الآن عن الساعة مزدوجة الدقّات؟».

«آه. نعم. بالتأكيد».

لكن من أين يبدأ؟

الطبيعي أن يبدأ من البداية.

شَرَح لها الكونت أن والده هو الذي طلب صناعة الساعة مزدوجة الدقّات من شركة «بريغيه» المرموقة. أسَّسَ آل بريغيه متجرهم في باريس عام 1775، وسرعان ما عُرفوا في أرجاء العالم ليس فقط بإحكام ميقاتيَّاتِهم (بمعنى دِقَّة ساعاتهم)، ولكن لتعقيد الوسائل التي تستخدمها ساعاتهم للإبلاغ بمرور الزمن. كانت لديهم ساعات تعزف بِضع مازورات من موتسارت في نهاية كل ساعة. وكانت لديهم ساعات تدقّ ليس فقط على رأس الساعة وإنما في أنصاف وأرباع الساعات. وكانت لديهم ساعات تُظهِر أطوار القمر، وتَقدُّم الفصول، ودورة المدّ والجزر. لكن عندما زار والد الكونت متجر الشركة عام 1882، طرَح عليهم تحديًّا من نوع مختلف: ساعة تدقّ مرتين فقط في اليوم.

«لكنها دقّت لتوّها بصوت جميل».

«نعم. دقّت في الظهيرة. لكنها لم تدقّ في التاسعة والعاشرة والحادية عشرة».

«آه»، قالها الكونت بابتسامة. «في الأحوال العادية، ستكونين محقَّةً تمامًا يا عزيزتي. لكن، تعرفين، هذه ساعة مزدوجة الدقّات. لقد صُنعت قبل سنوات طويلة بناءً على طلبات محدّدَة من جدّي لكي تدقّ مرتين فقط في اليوم».

«لكن لماذا؟».

«لماذا حقًا، يا صديقتي. لماذا حقًا. اسمعي. دعينا نؤجل الموضوع حتى نصل إلى البياتسا حيث- بعد أن ننجز طلبنا ونستريح في أماكننا- سنرى أسباب وعِلل ساعة والدي. فأفضل شيء للاستمتاع بغداء لائق هو أن يكون لدينا موضوع شيّق للحديث».

★ ★ ★

في الساعة 12:10 لم تكن البياتسا قد ازدحمت بعد؛ وربما كان ذلك من حُسن الحظ، إذ فاز الكونت وصوفيا بطاولة ممتازة وخدمة سريعة من مارتِن- نادل جديد ماهر سحب كرسي صوفيا بتهذيب يستحق الإعجاب.

راحت صوفيا تجول ببصرها في القاعة مندهشة، بينما أوضح له الكونت: «ابنة أختي».

ردَّ مارتِن بابتسامة: «عندي ابنة في السادسة. سأترككما وحدكما قليلًا».

بداهةً، لم تكن صوفيا شديدة السذاجة لكي لا تعرف الأفيال، لكن لم يسبق لها أن رأت أي شيء مثل البياتسا. لم تكن متعجبة فقط لمساحة القاعة وأناقتها، وإنما لكل عنصر على حِدة من تلك العناصر التي بدا

العمل». ثم شكر صوفيا بطريقة توحي بأن بوسعها الآن الانصراف إلى حال سبيلها.

وردَّت هي: «عفوًا»، بطريقة توحي بأنها لا تنوي الذهاب إلى أي مكان.

هكذا، قفز الكونت من فراشه وصَفَق يديه لدى سماع الدقة الأولى من الساعة الثانية عشرة.

قال: «تمام. ماذا عن الغداء؟ لا بُد أنك تتضوّرين جوعًا. أعتقد أنك ستجدين البياتسا ممتعة جدًّا. إنها أكثر من مجرد مطعم. لقد صُممت لتكون امتدادًا للمدينة- لحدائقها، وأسواقها، وشوارعها».

لكن فيما كان الكونت يستطرد في وصف مزايا البياتسا، لاحظ أن صوفيا تحدِّق في ساعة أبيه وعلى وجهها علامات الدهشة. وعندما اجتازا عتبة الباب لينزلا إلى البياتسا، التفتت لتلقي نظرة أخرى ثم تردَّدَت- وكأنها تريد أن تسأل كيف لآلة رهيفة كهذه أن تطلق صوتًا جميلًا كهذا.

فكَّر الكونت وهو يشرع في إغلاق الباب: طيّب، إذا أرادت أن تعرف أسرار الساعة مزدوجة الدقات، فقد جاءت إلى المكان الصحيح. إذ لا يَعرف الكونت بعض الأمور عن فنون قياس الزمن وحسب، بل يعرف أيضًا كل ما يمكن معرفته عن هذه الـ-

«يا عمُّ ألكسندر»، قالتها صوفيا بصوت خافت كمن يستعد لنقل خبر سيء. «أخشى أن ساعتك معطَّلة».

فوجئ الكونت، فأرخى قبضته عن مقبض الباب.

«معطّلة؟ لا، لا، أؤكد لك يا صوفيا، ساعتي تحسب الزمن بكل دقة. بل إنها من صُنع حِرفيِّين معروفين في أرجاء العالم بالتزامهم بالدِقّة».

شَرَحت له: «ليس الجزء الخاص بحساب الزمن هو المعطّل. إنها الدقّات».

أو مسار حوادث غير متوقَّع محلّ ترحاب مثل انفجار ألعابٍ نارية في سماء صيفية- مثل شيء يستحق الإعجاب والتهليل.

لكن الواضح أن الحال لم يَعُد هكذا...

ذلك الوصول غير المتوقَّع لهذا الطرد الذي يَزِن خمسة عشر كيلوغرامًا مزَّق الحجاب من أمام عينيه. في غفلة منه- دون قرار، أو رأي، أو إذن- كانت العادة قد ضَرَبت جذورها في حياته اليومية. واضحٌ أنه أصبح الآن يتناول إفطاره في ساعة معيّنة. واضحٌ أنه يجب أن يأكل بسكويته دون مقاطعة. لا بُد أن يقرأ في كرسي معيَّن مائل بزاوية معيَّنة وبلا صوت يشتته أكثر من مخالب حمامة تنبُش. يجب أن يحلق خدَّه الأيمن، ثم خدَّه الأيسر، وبعدها فقط ينتقل إلى الجزء السفلي من ذقنه.

وفي هذا الشأن، أمال الكونت رأسه إلى الخلف ورفع موساه، لكنّ التغيير في زاوية نظرته كشف عينين سحيقتي الأغوار تحدِّقان فيه من صورة المرآة.

«يا ستَّار!».

«انتهيتُ من الفرجة على الصُوَر».

«أيُّها؟».

«كلُّها».

«كلُّها!» الآن، كانت عينا الكونت هما المفتوحتين على وسعهما. «طيّب، أليس ذلك رائعًا؟».

رفعت مظروفًا صغيرًا وهي تقول: «أظن أن هذا لك».

«من أين أتى هذا؟».

«شخص ما دفعه من تحت بابك...».

تناول الكونت المظروف فعرف على الفور أنه فارغ؛ لكن بدلًا من العنوان، كان سؤال **الساعة الثالثة؟** مكتوبًا بخط ممشوق...

دسّه الكونت في جيبه وقال: «آه، نعم. إنه شأن بسيط من شؤون

لكن بعد أن ضبط الكونت نفسه يلوِّح بفرشاة حلاقته بقوة أمام انعكاس صورته، تجمَّد فجأة. وفكر: **يا إلهي! هل هذا ممكن؟ فعلًا؟**

في سنٍّ الثامنة والأربعين؟

«ألكسندر روستوف، أيمكن أن تكون قد أصبحتَ أسيرَ عاداتِك؟».

عندما كان الكونت شابًّا، لم يكن ينزعج **أبدًا** من أي شخص آخر. كان يسعى لمخالطة الناس منذ لحظة استيقاظه.

عندما كان يقرأ في كرسيه، لم يكن يعتبر أي مقاطعة نوعًا من الإزعاج. في الحقيقة، كان يفضّل القراءة مع بعض الصخب في الخلفية. مثل صرخات باعة الشوارع؛ أو أنغام بيانو في شقة مجاورة؛ أو الأفضل من كل ذلك، وقْع أقدام على السلم- أقدام تصعد قلبَتَيْ سلّم بسرعة ثم تتوقف فجأة، وتطرق بابه، وتشرح بأنفاس متهدّجة أن اثنين من أصدقائه ينتظرانه على الرصيف في عربةٍ تجرّها أربعة جياد (في نهاية المطاف، أليست صفحات الكِتاب مُرقَّمة لهذا الغرض؟ لتسهّل على المرء أن يعرف مكانه بعد مقاطعة وجيهة؟).

أما بالنسبة للممتلكات، فلم يكن يولِّيها أدنى اهتمام. كان أول من يُعير كتابًا أو مظلّة إلى صاحِبٍ (دون أن يبالي بأنّ ما من صاحِب منذ أيام آدم أرجع كتابًا أو مظلّة).

والعادات؟ لطالما تفاخر بينه وبين نفسه بعدم امتلاك عادات. كان يتناول إفطاره الساعة 10:00 صباحًا في يوم، والساعة 2:00 بعد الظهر في اليوم التالي. وفي مطعمه المفضّل، لم يطلب قَط الطبق نفسه مرتين في موسم واحد. عوضًا عن ذلك، كان يرتحل عبر قوائم الطعام مثلما كان السيد ليفنغستون يرتحل عبر أفريقيا، وماجلّان عبر البحار السبعة.

لا، في سن الثانية والعشرين، لم يكن الكونت ألكسندر روستوف يشعر بالانزعاج، ولا المقاطعة، ولا القلق. إذ كان كل ظهور، أو تعليق،

«هل تحبين الصور؟ هاكِ كتاب يكفي العمر كله. لماذا لا تقلّبين فيه بينما أغتسل؟».

تحركت صوفيا قليلًا لكي تضع دميتها إلى جانبها، ثم تقبَّلت الكتاب ببساطة وثبات.

لاذ الكونت بالحمّام، وخلع قميصه، وغَسَل نصَه العلوي، ورغَّى خدَّيه، وهو يتمتم طوال الوقت بمعضلة اليوم الأساسية:

«وزنها لا يتجاوز خمسة عشر كيلوغرامًا؛ وطولها لا يتجاوز مترًا؛ وحقيبتها التي تحوي كل أغراضها يمكن وضُعها في دُرج واحد؛ ونادرًا ما تتكلم ما لم يكلمها أحد؛ وقلبها يدق مثل عصفور. فكَيف تشغل كل هذه المساحة؟!».

على مرّ الأعوام، أصبح الكونت يفكر أن مسكنه رحبٌ إلى حد ما. في الصباح، يتسع ببساطة لعشرين تمرين قَرفَصة وعشرين تمرين استطالة، لإفطار متأنٍ، وقراءة رواية في كرسي مائل. وفي المساءات بعد العمل، كان يحتضن تحليق الخيال، وذكريات السفر، وتأملات التاريخ، ويُتوِّجها جميعًا بنوم هانئ. مع ذلك فهذه الزائرة الصغيرة، بحقيبة أغراضها ودميتها المصنوعة من بقايا القماش، غيَّرت كل أبعاد الغرفة. لقد أنزَلَت السقف إلى أسفل، ورَفَعَت الأرض إلى أعلى، وأزاحت الجدران إلى الداخل، حتى أصبح لا ينوي التحرك إلى أي موضع إلا ووجدها في طريقه. فما إن استيقظ الكونت من نومته المتقطعة على الأرض، واستعد لممارسة تمارينه الرياضية الصباحية، حتى وجدها تقف في موضع التمرين. وعلى الإفطار، تناولَت أكثر من نصيبها العادل من الفراولة؛ ثم عندما أوشك على غمس بسكويتته الثانية في فنجان قهوته الثاني، وجدها تحدِّق فيها بلهفة، فلم يملك خيارًا إلا سؤالها إن كانت تريدها. وعندما أصبح مستعدًا، في النهاية، لإمالة كرسيه إلى الوراء وقراءة كتابه، وجدها جالسة في الكرسي، ترميه بنظرة مترقبة.

«قصدتُ الفيل».

اعترفَت بقدر من الحزن: «فقط في الكتب».

«آه. طيّب. إنه حيوان رائع. أعجوبة من أعاجيب الخلق».

ثار اهتمام صوفيا، وشَرع الكونت في وصف هذا الجنس من الحيوانات، مصورًا كل سمة من سماته بحركات مسرحية من ذراعيه. «موطنه الأصلي القارة السوداء، والحيوان البالغ منه يمكن أن يزن أكثر من خمسة آلاف كيلوغرام. سيقانه غليظة مثل جذوع الأشجار، وهو يحمّم نفسه بسَحب المياه عبر خرطومه ونثرها في الهواء...».

قاطَعَته بفرح: «إذًا، رأيتَ واحدًا؟ في القارة السوداء؟».

تململ الكونت.

«ليس في القارة السوداء بالضبط...».

«أين إذًا؟».

«في كُتب مختلفة...».

«أوه»، قالتها صوفيا، مُنهيةً الموضوع بكفاءةٍ مقصلةٍ تقطعُ رأسًا...

...

فكّر الكونت للحظة أيّ أعاجيبَ أخرى يمكن أن تأسر خيالها، وفي الوقت نفسه يكون رآها حقًّا رأي العين.

اقترح عليها: «تريدين سماع قصة عن أميرة؟».

اعتدلت صوفيا في جلستها.

«لقد ولّى عصر النبلاء مفسحًا الطريق لعصر الرجل العادي. إنها حتميّة تاريخيّة»، قالت ذلك باعتزاز من سمّع لتوّه جدول الضرب بشكل صحيح.

وردّ الكونت: «نعم. لقد قيل لي هذا».

تناول دليلًا مصورًا لمتحف اللوفر كان قد استعاره من القبو، وقال:

«العروسة ليس لها اسم».

«ما هذا؟ لا اسم؟ لكن بالتأكيد، **يجب** أن يكون لعروستك اسم».

حدَّقت صوفيا في الكونت للحظة، ثم أمالت رأسها مثل غراب نوحيّ.

«لماذا؟».

«لماذا؟»، كرّر الكونت. «طبعًا، حتى يمكن مخاطبتها. حتى يمكن دعوتها إلى تناول الشاي؛ مناداتها من الطرف الآخر من الغرفة؛ مناقشتها عندما تتغيّب؛ والدعاء لها في صلواتك. بعبارة أخرى، لكل الأسباب التي تجعلك **أنتِ** بحاجة إلى اسم».

راحت صوفيا تفكّر في الأمر، بينما مال الكونت إلى الأمام، مستعدًا للاستفاضة في الموضوع حتى أصغر التفاصيل. لكن الفتاة أومأت مرة واحدة برأسها وهي تقول: «سأسميها عروسة». ثم نظَرت إلى الكونت بعينيها الزرقاوين الواسعتين وكأنما لتقول: **الآن وقد حسمنا هذا الأمر، ماذا بعد؟**

استرخى الكونت في كرسيه وبدأ التنقيب في دليله الشامل للأسئلة العابرة، مستبعدًا سؤالًا بعد آخر. لكنه لاحظ أن نظرة صوفيا، من حُسن حظه، قد تحوَّلت خلسةً تقريبًا إلى شيء ما خلفَه.

خِفيةً، نظر الكونت إلى الوراء.

إنه الفيلُ العاجيّ، هكذا أدرك بابتسامة. لعلّ هذه الطفلة التي عاشت طيلة حياتها في إقليم ريفي لم تتخيل قَط وجود حيوان كهذا. لا بُد أنها تتساءل: **أي حيوان خياليّ هذا؟ أهو حيوان ثدييّ أم زاحف؟ حقيقي أم خرافي؟**

سألها الكونتِ بنظرة خلفية وابتسامة: «هل سبق لكِ رؤية واحد من هذه من قبل؟».

سألته: «فيل، أم مصباح؟».

سَعَل الكونت.

ماذا الآن، صحيح. فبعد أن رتَّبا فراشَيهما وأكَلَا بسكويتهما، أصبح اليوم بطوله يمتد أمامهما. 16 ساعة. 960 دقيقة. 57600 ثانية!

كانت الفكرة مهولةً لا جِدال.

لكن، من هو ألكسندر روستوف إن لم يكن محاورًا محنَّكًا؟ في حفلات الزفاف وأعياد الشفيع من موسكو إلى بطرسبرغ، كانوا يُجلِسونه بجوار أعتى الضيوف على مائدة العشاء. العمَّات المتزمّتات والأعمام المتعجرفون. الكئيب، واللاذع، والخجول. لماذا؟ لأن ألكسندر روستوف كان يُعتمد عليه من أجل جرِّ جلسائه إلى محادثات حيوية، أيًّا كانت طباعهم.

لو تصادف جلوسه بجوار صوفيا في حفل عشاء- أو حتى في مقصورة قطار مسافر عبر الريف- ماذا كان سيفعل؟ بداهةً، كان سيسألها عن حياتها: **من أين أنت، يا صديقتي؟ إيفانوفو تقولين؟ لم أذهب إلى هناك من قبل، لكنني لطالما رغبتُ في ذلك. ما هو أفضل فصل للزيارة؟ وماذا يجب على المرء أن يرى وهو هناك؟**

«إذًا، خبِّرني...»، بدأ الكونت بابتسامة، بينما انفتحَت عينا صوفيا على وسعهما.

لكن حتى والكلمات تغادر شفتيه، كان الكونت يراجِع نفسه. فهو، بكل تأكيد، ليس جالسًا إلى جوار صوفيا في مأدبة عشاء، ولا في عربة سكك حديدية. إنها طفلة انتُزعت، دون تفسير واضح، من ديارها. والمؤكد أن خيط التساؤل عن المناظر والفصول في إيفانوفو، أو عن الحياة اليومية لوالديها، سيثير مجموعة من التداعيات الحزينة، ويحفِّز مشاعر الحنين والفقد.

«إذًا، خبِّرني...»، قالها ثانية، وهو يشعر ببوادر دوخة، مع اتساع عينيها أكثر. لكنّ ومضة إلهام جاءته في الوقت المناسب:

«**ما اسم عروستِك؟**». هذه خطوة واثقة بحقّ، فكَّر الكونت وهو يربِّت على كتفه في خياله.

تعديلات

لم يسبق لصوت الجرس أن كانَ موضع ترحيب إلى هذه الدرجة. لا في موسكو. ولا في أوروبا. ولا في العالم بأسره. عندما واجهَ الفرنسيُّ كاربنتييه الأمريكيَّ دِمبسي، ما كان ليشعر بانفراجة لدى سماع قَرعة نهاية الجولة الثالثة أكثر مما شعر الكونت بانفراجة لدى سماع ساعته تدق الثانية عشرة. ولا مواطني براغ لدى سماع أجراس الكنيسة معلنةً انتهاء حصارهم على أيدي فريدريك الأكبر.

ما الذي فعلته تلك الطفلة لتجعل رجلًا ناضجًا يَعدّ الدقائق بهذا الحرص انتظارًا لموعد الغداء؟ هل راحت تُبعْبع بلا معنى؟ هل ظلّت تتقافز هنا وهناك وهي تُقرقِر؟ هل كانت تجهش بالبكاء أو تنطلق في نوبات صراخ لدى أوهى استثارة؟

على العكس. كانت هادئة.

هادئة على نحو مُربك.

لدى استيقاظها، نهضَت، وارتَدَت ملابسها، وسوَّت فراشها دون كلمة. عندما قدّم لها الكونت الإفطار، قضمت بسكويتها مثل راهبٍ قَطعَ على نفسه عهدًا بالصمت. ثم، بعد أن أتت على طبقها، تسلقت كرسي مكتب الكونت، وجلست على يديها، وراحت تنظر إليه بلا كلمة. ويا لها من نظرة. بحدَقَتين داكنتيْن وسحيقتَي الأغوار مثل اليمّ، كانت موتِّرةً للأعصاب قطعًا. ببساطة، بدا أنها تقول، دون خجل أو تعجّل: **ماذا الآن يا عمُّ ألكسندر؟**

لكن حين نظرَت إلى السلم الملتوي الضيّق، استدارت إلى الكونت ورفعت يديها في الهواء في تلك الإيماءة العالمية التي تعني: احملني!

قال الكونت: «هممم»، ثم، رغم عمره المتقدم، حملها.

تثاءبت.

فور دخولهما الغرفة، أجلس الكونت صوفيا على سريره، ووضع حقيبتها على مكتب الدوق الأكبر، ثم أخبرها أنه سيعود حالًا. سار في الردهة، وأخرج بطانيّة شتويّة من صندوقه. كانت خطّته أن يُعدَّ لها فراشًا صغيرًا على الأرض بجوار سريره ويعيرها إحدى وساداته. فقط سيكون عليه أن ينتبه حتى لا يدوس عليها إن استيقظَ في الليل.

لكنّ خِشية الكونت أن يدوس على صوفيا كانت بلا داعٍ. إذ عندما عادَ إلى غرفته حاملًا البطانيّة، كانت قد اندسّت تحت أغطيته بالفعل وغطّت في النوم.

وكيف يفعل؟

إنها المرأة التي- عندما كانت طفلة هي نفسها- اجتازَت البياتسا بلا تردد لكي تصبح صديقته؛ المرأة التي أظهرت له زوايا الفندق الخفية ومنحته، حرفيًّا تقريبًا، مفتاح ألغازه. عندما يطلب منك صديقٌ كهذا مساعدةً- خاصة إذا كان صديقًا ليس معتادًا على طلب معروف من الآخرين- لا تجد أمامك إلا ردًّا واحدًا مقبولًا.

دسّ الكونت الصورة الفوتوغرافية في جيبه. استجمع شتات نفسِه. ثم استدار ليجد عهدته الجديدة ترفع نظرها إليه.

«طيب يا صوفيا. هل أنتِ جائعة؟ هل تريدين أن تأكلي شيئًا؟».

هزّت رأسها.

«إذًا، لماذا لا نتوجه إلى الأعلى ونرتب أمورنا؟».

ساعد الكونت صوفيا على النزول من الكرسي وقادها عبر البهو. لكن عندما كان بصدد ارتقاء السلم، لاحظ أنها تحدّق في باب المصعد وهو ينفتح ليُخرج اثنين من نزلاء الفندق.

سألها: «ألم تستقلي مصعدًا من قبل؟».

أحكمت قبضتها على رقبة دميتها، وهزت رأسها ثانية.

«في تلك الحالة...».

أمسك الكونت الباب لصوفيا، وأشار لها أن تتقدمه. بفضول حذِر، دخلت المصعد، وأفسحت مكانًا للكونت، ثم راقبَت الأبواب وهي تنزلق مغلقة. بطريقة مسرحية ضغط الكونت زر الطابق الخامس وهو يقول: «بريستو!». ترنّح المصعد وبدأ يتحرك. تماسكت صوفيا؛ ثم مالت قليلًا إلى اليمين حتى تستطيع رؤية الطوابق وهي تتابع من بين قضبان المصعد.

«فوالا»، قالها الكونت عندما وصلا بعد لحظة إلى وجهتهما.

قاد الكونتُ صوفيا عبر الردهة وسلّم البُرج، وأشار لها ثانية أن تتقدم.

راقَبها الكونت وهي تخرج من الفندق وتتجه لاجتياز ميدان المسرح، تمامًا كما سبق وراقَبها قبل ثماني سنوات. عندما غابت عن الأنظار، نظر إلى الصورة في يده. كانت صورة لنينا وزوجها، والد صوفيا. من وجه نينا، عرف الكونت أن الصورة قد التُقطت قبلها بسنوات. كذلك عرف أنه كان نصفَ محقٍّ فقط. فصحيح أنه رأى زوجها قبل كل تلك السنوات في بهو المتروبول، لكن نينا لم تتزوج القائد الوسيم- بل تزوجت الشاب التعِس الذي كان يعتمر طاقية بحَّارة؛ ذلك الذي جلب لها معطفها بكل تلك اللهفة.

استغرق هذا الحوار بالكامل- منذ نطقَت نينا باسم الكونت وحتى خرجَت من باب الفندق- أقل من خمس عشرة دقيقة. هكذا، لم يكن أمام الكونت أكثر من لحظة ليفكر في طبيعة الالتزام الذي طُلب منه أن يقطعه على نفسه.

أكيد لن يستغرق الأمر إلا شهرًا أو شهرين. لن يكون مسؤولًا عن تعليم الفتاة، ولا عن تربيتها الأخلاقية، ولا عن تنشئتها الدينية. لكنْ صحّتها وراحتها؟ سيكون مسؤولًا عن هاتين حتى لو رعاها لليلة واحدة. ماذا ستأكل؟ أين ستنام؟ الليلة إجازته، لكن ماذا سيفعل بها مساء غدٍ، عندما سيكون عليه ارتداء سترة البويارسكي؟

لكن دعنا نتخيل أن الكونت، قبل أن يقطع الالتزام على نفسه، كان أمامه وقت لرؤية المشكلة بنظرة شاملة، للتفكير في كل تحدٍ وعقبة، للاعتراف بنقص خبرته، للإقرار بأنه، أغلب الظن، آخر من يصلح لهذا الدور، آخر الجاهزين له، وفي أسوأ موقع في موسكو كلها يؤهله للعناية بطفلة. لو كان يمتلك الوقت وحضور الذهن لحساب كل هذا، أكان سيرفض طلب نينا؟

ما كان ليحاول حتى إثناءها.

ركعت نينا على ركبتيها كي تستطيع النظر في عيني ابنتها. وضعَت يدًا على ركبة صوفيا وشَرَعت تتكلم بنبرة لم يسبق أن سمعها الكونت تتحدث بها. نبرة حنان.

«صوفيا، هذا عمّك ساشا الذي حكيتُ لك كثيرًا عنه».

«الذي أعطاكِ المنظار الجميل؟».

ابتسمت نينا قائلة: «نعم. هو نفسه».

قال الكونت: «أهلًا يا صوفيا».

بعدها، شرحت نينا أن ماما ذاهبةٌ لتجهيز بيت جديد، وسيكون على صوفيا أن تبقى في هذا الفندق الجميل لبضعة أسابيع. قالت لها نينا إن عليها أن تكون قوية ومؤدّبة وأن تسمع كلام عمّها إلى أن ترجع ماما.

قالت الفتاة: «وبعدها نأخذ القطار الطويل إلى بابا؟».

«صحيح يا حُلوَتي. بعدها نأخذ القطار الطويل إلى بابا».

كانت صوفيا تبذل ما بوسعها لمحاكاة قوة أمها؛ لكنها لم تكن تمتلك بعد قدرة أمها على السيطرة على عواطفها. لذا، رغم أنها لم تطرح أسئلة، ولم تتوسّل، ولم تُظهِر الفزع، عندما أومأت لتوضِّح أنها فهمت، سالت دموع على خدّيها.

استخدمَت نينا إبهامها لمسح الدموع عن إحدى وجنتي ابنتها، بينما استخدمت صوفيا ظَهْر يدها لمسح الوجنة الأخرى. نظرت نينا في عيني صوفيا حتى تأكدت أن الدموع قد توقفت. ثم أومأت برأسها مرة واحدة، وطبعَت قبلة على جبين ابنتها، وسحبَت الكونت بعيدًا بضع خطوات.

«هاكَ»، قالتها وهي تناوله حقيبة قماشية لها شرائط للتعليق، من ذلك النوع الذي يحمله الجندي على كتفيه. «هذه أشياؤها. وربما يجب أن تأخذ هذا أيضًا». ناولته نينا صورة صغيرة بلا إطار. «ربما الأفضل أن تحتفظ بها لنفسك. لا أعرف. سيكون عليك أن تقرر».

قبضَت نينا على ذراع الكونت ثانية؛ ثم اجتازت البهو في خُطى شخص لا يريد أن يترك لنفسه أي مساحة للتراجع.

سنوات أشغالًا إصلاحيّة. سيضعونه الليلة على متن قطار إلى سيفُستلاغ. وسأتبعه إلى هناك. ما أحتاجه هو شخص يعتني بصوفيا إلى أن أستقر».

«صوفيا؟».

تابع الكونت نظرة نينا عبر البهو إلى حيث تجلس فتاة في الخامسة أو السادسة لها شعر أسود وبشرة عاجيّة في كرسي عالي الظهر، وقدماها تتدليان على بعد بضع بوصات من الأرض.

«لا أستطيع أن آخذها معي الآن، حيث سأكون مضطرة إلى العثور على عمل وسَكَن. قد يستغرق الأمر شهرًا أو شهرين. لكن فور أن أستقر سأرجع وآخذها».

شرحت نينا تلك التطورات كما يُدلي المرء بسلسلة من النتائج العلمية- متتالية من الحقائق التي تستحق خوفَنا واستياءنا شأنها شأن قوانين الجاذبية أو الحركة. لكن الكونت لم يعد قادرًا على احتواء شعوره بالصدمة، حتى إنْ كان ذلك نتيجة للسرعة التي تكشَّفت بها تلك التفاصيل: زوج، ابنة، اعتقال، لوبيانكا، أشغال إصلاحيّة...

فسَّرَت نينا- تلك الروح الأكثر استقلالية بين الأرواح كافة- تعبيرات الكونت كإشارة على تردّده، فأمسكت بذراعه قائلة: «ليس عندي من ألجأ إليه غيرك يا ألكسندر».

ثم أضافت بعد وقفة قصيرة: «أرجوك».

معًا، اجتاز الكونت ونينا البهو باتجاه الطفلة ابنة الخامسة أو السادسة ذات الشعر الأسود، والبشرة البيضاء، والعينين الزرقاوين الفاتحتين. لو كان الكونت قد قُدِّم إلى صوفيا تحت ظروف مختلفة، لربما تسلَّى بأن لاحظ كيف تظهر عليها دلائل الطَبْع العمليّ الصارم المميِّز لنينا: أن صوفيا ترتدي ملابسَ بسيطة؛ وشعرها قصير، تقريبًا مثل صبيّ؛ وأن الدمية القماشية التي تحتضنها من رقبتها لا ترتدي فستانًا أصلًا.

وخمسة وستين سنتيمترًا، لها شعر أشقر مسترسل، وعينان زرقاوان فاتحتان، وتتمتع بحسٍّ نادرٍ من الرزانة.

صاح قائلًا: «نينا! يا لكِ من بهجة للناظرين. لم نسمع عنكِ من قديم الزمن. متى عدتِ إلى موسكو؟».

«هل تسمح لي بالحديث معك للحظة».

«بالتأكيد...».

أحس الكونت بأن وراء الزيارة أمرًا شخصيًّا، فتبع نينا بضع خطوات بعيدًا عن مكتب خدمات النزلاء.

بادرته بالقول: «الموضوع متعلّق بزوجي...».

قاطعها الكونت: «زوجك؟ هل تزوجتِ؟».

قالت: «نعم. أنا وليو متزوجان منذ ست سنوات. كنا نعمل معًا في إيفانوفو...».

«طبعًا، أتذكَّره».

هزّت نينا رأسها، وقد ضجرت من مقاطعات الكونت.

«لا أظنك قابلته».

«صحيح. لم نتقابل بمعنى المقابلة؛ لكنه كان هنا معك في الفندق قُبيل مغادرتكما».

حاولت نينا للحظة أن تتذكر تلك الزيارة مع زوجها إلى المتروبول، لكنها بعد ذلك أشاحت بيدها وكأنما تقول سواءً كانا في الفندق أم لا، فهذا لا معنى له بعد كل تلك السنوات.

«أرجوك يا ألكسندر إلييتش. ليس لديّ وقت طويل. قبل أسبوعين، تم استدعاؤنا للعودة من إيفانوفو لحضور مؤتمر حول مستقبل التخطيط الزراعي. في اليوم الأول للاجتماعات، اعتُقل ليو. بعد جهد، تتبّعتُ أثره وصولًا إلى معتقَل لوبيانكا، لكنهم لم يسمحوا لي برؤيته. بالطبع، بدأتُ أخاف الأسوأ. لكن يوم أمس، وصلني خبر أنه قد حُكم عليه بخمس

على ذلك، بعد أن أبدت الفتاتان إعجابهما بمحتويات واجهات العرض، وتخيَّلت كلٌّ منهما يومًا يأتي تمتلك فيه شقةً وخزانةَ ملابس تحفظ فيها قبعاتها، وساعاتها، وأحذيتها، استأنفتا السير، وهما تُدردشان حول الشابّين اللذين سيقابلانهما على العشاء، هَذيْن اللذيْن يتمتّعان بِصلاتٍ قوية مع ذوي الشأن.

في شارع تيترالني برويزد، انتظرتا على الرصيف إلى أن هدأت حركة السيارات، ثم عبرتا الشارع قفزًا حتى وصلتا إلى فندق المتروبول، حيث، لدى مرورهما بمكتب خدمات النزلاء في طريقهما إلى البياتسا، نالتا إعجاب رجل وقور وجذّاب وَخَطَه الشيْب...

«آه، نهاية الربيع»، هكذا أبدى الكونت ملاحظته لفاسيلي (الذي كان يفتّش في حُجوزات المساء). «من طول تنّورات هاتين الشابتين، أراهن أن الحرارة لا بُد تبلغ 20 درجة في تِفرسكايا، رغم أنها صارت السابعة مساءً. بعد أيام قليلة، ستجد الصِبْية يسرقون باقات الزهور من حدائق ألكسندر وستجد إميل ينثر حبّات البازلاء في أطباقه...».

«بلا شك»، قالها موظف خدمة النزلاء، بطريقة أمين مكتبة يتّفق مع باحث.

والحقيقة أنه في وقت سابق من ذلك اليوم، كانت أول حبّات فراولة في الموسم قد وصلت إلى المطبخ، ومرَّر إميل خلسةً حفنة منها إلى الكونت ليتناولها في إفطار الغد.

اختتم الكونت حديثه: «دون جدال، الصيف الآن على الأبواب والأيام القادمة ستكون طويلة وهانئة...».

«ألكسندر إلييتش».

لدى سماع اسمه على نحو غير متوقّع، استدار الكونت ليجد شابّة أخرى تقف وراءه تمامًا، وإن كانت تلك ترتدي بنطالًا. طولها مئة

هكذا، مِثل ذلك الرجل في «سِفر التكوين» الذي قال **ليكُن هذا أو ليكُن ذاك**، فكان هذا أو ذاك، عندما قال سوسو: **لقد تحسَّنت الحياة يا رفاق**، تحسَّنَت الحياة بالفعل.

مثالٌ على ذلك: في تلك اللحظة نفسها، كانت آنستان تسيران في شارع كوزنيتسكي موست، في فستانيْن زاهيَيْن ضيّقيْن عند الخصر واسعَيْن عند ربلة الساق. بل وكانت إحداهما تتباهى بقبّعة صفراء لها حافة تميل بإغواء فوق عينٍ طويلة الأهداب. ومع دمدمة المترو حديث الإنشاء تحت أقدامهما، توقفتا أمام ثلاث واجهات عرض عملاقة لـ«تسوم»، «المتجر المركزي الشامل»، كانت تَعرِض على الترتيب هرمًا من القبعات، وهرمًا من ساعات اليد، وهرمًا من الأحذية عالية الكعب.

بديهيّ أن كلتا الفتاتين لا تزال تعيش في شقة مزدحمة وتغسل فستانها الجميل في حوض غسيل مشترَك، لكن هل تنظران إلى نوافذ المتجر بحقد؟ على الإطلاق. بحسدٍ ربما، أو بأعين متسعة من الدهشة، لكن دون حقد. إذ لم تعد أبواب «تسوم» مغلقة أمامهما. فالمتجر، الذي كان يخدم الأجانب وكبار مسؤولي الحزب، فتح أبوابه أمام عموم المواطنين عام 1936– طالما يستطيعون الدفع لموظف الخزينة بالعملة الأجنبية، أو الفضة، أو الذهب. وفي واقع الأمر، في الطابق السفلي من «تسوم»، تجد مكتبًا حَسَن التجهيز حيث يجلس جنتلمانٌ متكتِّم على استعداد لأن يعطيك رصيدًا صالحًا للشراء من المتجر مقابل نصف قيمة مجوهرات جدَّتك.

أترى؟ لقد صارت الحياة أكثر بهجة **فعلًا**.

لـ«مفوضيَّة الشعب للشؤون الداخلية»، على وشك فهم هذه الحقيقة. فبعد اتهامه بالخيانة، والتآمر، وتهريب الماس، سوف يحاكم علنًا في «قصر النقابات»– القائم في مواجهة فندق متروبول على الجانب الآخر من الميدان– وسوف يُدان، ويُطلق عليه الرصاص بعد إجراءات موجزة. وعلى ذلك، سيرى الكثيرون في هذا بادرة أمل لأيام أكثر إشراقًا...

كان السكرتير العام للجنة المركزية للحزب الشيوعي كثيرًا ما يستغل الملاحظات الثانوية في الخطب الثانوية للإشارة إلى التحولات في تفكيره.

والحال أن سوسو، قبل إلقاء خطبته ببضعة أيام، كان قد رأى صورةً فوتوغرافيةً في الـ«هيرالد تريبيون» لثلاث فتيات بُلشفيّات يافعات صحيحات الأجساد يقفن أمام بوابة مصنع- يرتدين الـ«تونيك» ومنديل الرأس اللذَيْن طالما تحيَّز لهما الحزب. عادة، كانت صورة كهذه ستبعث الدفء في قلبه. لكن ظهورها في الصحافة الغربية كان بمثابة صدمة لسكرتير السكرتاريَّة، إذ قد يوحي هذا الزيّ البسيط للعالم أن الفتيات الروسيات، بعد ثماني عشرة سنة من الشيوعية، لا زِلن يَعِشنَ مثل الفلّاحات. وهكذا، انسلّت العبارات المحتومة وسط خطبته- وانحرف اتجاه البلاد.

فعندما قرأ رجال الأباراتشيك المتيقظون في صحيفة الـ«برافدا» أن الحياة قد تحسَّنت، فهموا أن البلاد وصلت إلى نقطة تحول- أنه بعد النجاح القاطع للثورة، أصبح الحزب مستعدًا ليس فقط لقبول، وإنما لتشجيع، قَدرٍ أكبر من التألّق، قَدرٍ أكبر من الترَف، قَدرٍ أكبر من الضحك. وفي غضون أسابيع أصبحت شجرة الكريسماس وموسيقى الغجر، وكان كلاهما قد أُقصي إلى المنافي منذ زمن بعيد، تحظى بترحابٍ دافئ في الديار: عُهد إلى بولينا مولوتوفا، زوجة وزير الخارجية، إطلاقُ أول مجموعة عطور سوفييتيّة؛ وكُلِّف «مصنع النور الجديد» (بمساعدة بعض الماكينات المستوردة) بإنتاج شامبانيا بمعدل عشرة آلاف زجاجة في اليوم؛ وخلع أعضاء المكتب السياسي أزياءهم العسكرية وارتدوا بدلًا منها بدلات أنيقة؛ أما هاته البنات الشغِّيلات الموجودات في المصانع فقد شُجعن الآن على ألا يَظهرنَ مثل الفلّاحات، وإنما مثل الفتيات السائرات في الشانزليزيه(*).

(*) صحيح أن تطهيرًا أخيرًا كان لا يزال مطلوبًا، لكنه سيوجَّه إلى كبار قيادات الحزب وأعضاء البوليس السري. في الحقيقة، كان «غينريخ ياغودا» الرئيس المرهوب

1938

وصول

دعونا نعترف بأن أوائل الثلاثينيات في روسيا كانت قاسية.

بالإضافة إلى التضوّر جوعًا في الأرياف، أدت مجاعة عام 1932 في نهاية المطاف إلى هجرة الفلاحين إلى المدن، ما أسهم بدوره في تكدّس البيوت، ونقص السلع الأساسية، وصولًا إلى اندلاع أعمال الشغب. في الوقت نفسه، كان أكثر العمال تفانيًا في المراكز الحضرية يُنهَكون تحت عبء أسبوع العمل المستمر؛ والفنانون يواجهون قيودًا أشدَّ حول ما يستطيعون تخيله وما لا يستطيعون؛ الكنائس أُغلقت، أو أُعيد استغلالها في أغراض أخرى، أو سُوِّيت بالأرض؛ وعندما اغتيل البطل الثوري سيرجي كيروف، طُهِّرت الأمّة من جمهرة كبيرة من العناصر المشكوك في ولائها السياسي.

لكن بعدها، في السابع عشر من نوفمبر عام 1935، في «مؤتمر الحزب الشيوعي الأول لعمال الستاخنوفيّة»(*)، أعلن ستالين بنفسه: **لقد تحسَّنَت الحياة يا رفاق. لقد صارت أكثر بهجة...**

صحيح، ملاحظة كهذه حين تسقط من بين شفتَيْ رجل دولة، عمومًا، يجب أن تُكنس عن الأرضية مع التراب والنُسالة. لكن عندما تسقط من بين شفتي سوسو، يجد المرء سببًا وجيهًا لإضفاء مصداقية عليها. إذ

(*) الحركة الستاخنوفيّة: نسبة إلى أليكسي ستاخنوف، عامل المناجم الذي استخرج أكثر من مئة طنّ من الفحم في ورديته التي لا تتجاوز ست ساعات، في أحد أيام عام 1935، وهي كمية تماثل 14 ضعفًا الحصة المقرّرة على زملائه. والمقصود بها تحفيز العمال على تجاوز حصصِهم الإنتاجية. (المترجم)

وفي عام 1932، سوف يؤدّي تضافر تلك العوامل المستعصية إلى انتشار البلاء في الأقاليم الزراعية في روسيا القديمة، وموت ملايين الفلاحين في أوكرانيا جوعًا(*).

لكن، كما لاحظنا، كل هذا كان لا يزال يلوح في الأفق. وعندما وصلَ قطار نينا أخيرًا إلى أصقاع إيفانوفو البعيدة، حيث كانت سنابل القمح الشابة تنحني مع النسيم في الحقول على مدّ البصر، فتَنَها جمال المناظر الطبيعية، والإحساس بأن حياتها قد بدأت للتوّ.

(*) -في الوقت الذي كان فيه إيمان كثير من الشبّان الموالين (مثل نينا) مِمَّن انضموا إلى «العمال النموذجيين» في الأرياف يتعرض لاختبارٍ قاسٍ نتيجة لما شهدوه بأعينهم، أُعفي معظم روسيا، بل ومعظم العالم، من مرأى هذه الكارثة التي صنعها الإنسان. فكما مُنِع فلاحو الريف من دخول المدن، مُنع صحافيُّو المدن من دخول الريف؛ وعُلِّق توصيل البريد الشخصي؛ وسُوِّدَت نوافذ قطارات الركاب. والحقيقة أن الحملة نجحت نجاحًا بالغًا في احتواء الوعي بالأزمة عندما تسرَّبت أنباء عن كون الملايين يموتون جوعًا في أوكرانيا. وسوف يكتب والتر دورانتي، كبير مراسلي نيويورك تايمز في روسيا (وأحد زعماء عصابات بار الشاليابين)، أن هناك مبالغات هائلة في تلك الشائعات التي تتناول المجاعة، وأنها ربما كانت من صنع الآلات الإعلامية المعادية للسوفييت. هكذا، سيهزّ العالم كتفيه. وحتى مع تكشّف الجريمة، سيفوز دورانتي بجائز بوليتزر.

حاشية

في صبيحة الثاني والعشرين من يونيو، بل ولحظة كان الكونت يفتش في جيوبه بحثًا عن خطاب ميشكا، كانت نينا كوليكوفا وأترابها الثلاثة يستقلّون قطارًا متوجهًا شرقًا إلى إيفانوفو، وهم مفعمون بالطاقة، والإثارة، وإحساس واضح بالهدف.

منذ إطلاق الخطة الخمسيّة الأولى عام 1928، ظل عشرات الآلاف من رفاقهم في المراكز الحضرية يعملون دون كلل لبناء محطات طاقة، ومصانع صُلب، ومنشآت تصنيع للمعدات الثقيلة. ومع تطور هذا الجهد التاريخي، كان لزامًا على الأقاليم المنتجة للحبوب في البلاد أن تقوم بدورها- عن طريق تلبية الطلب المتزايد على الخبز في المدن بقفزات في الإنتاج الزراعي.

لكن، من أجل تمهيد الطريق لهذا المسعى الطموح، اقتضت الضرورة نفي مليون شخص من الكولاك من أراضيهم- هؤلاء المستغِلّون أعداء الصالح العام، الذين تصادف أيضًا كونهم أكثر مزارعي الأقاليم كفاءة. أما من تبقّى من الفلاحين، الذين نظروا إلى مناهج الزراعة الوافدة حديثًا بامتعاض وتشكّك، فقد أثبتوا أنهم مُعادون حتى لأصغر مساعي التحديث. وهكذا، أصبحت الجرارات، التي يفترض أن تتقدم بالأساطيل لقيادة الطريق نحو العصر الجديد، نادرةً لا يجدها المرء إلا لمامًا. وفاقم تلك التحديات طقسٌ غير مواتٍ، ما أدى إلى انهيار الـمُخرَجات الزراعية. لكن بالنظر إلى حتميّة توفير الغذاء للمدن، فقد قوبل الانخفاض المتسارع في المحاصيل بزيادة في حصص الإنتاج وأوامر التوريد المطلوبة التي تُنفَّذ تحت تهديد السلاح.

بعد أن أنهى الكونت قهوته، نزل إلى الجناح 311- فقط ليجد الباب مفتوحًا، والدواليبَ فارغة، وصفيحةَ القمامة خاوية.

لكنّ خطاب ميشكا نصف المقروء لم يكن قد سقط من سترة الكونت في غرفة آنا. فبعد أن أفرغ جيوبه في الثالثة والنصف، ولحظة تعثَّر وهو يمد يده إلى البراندي، كان قد أسقط الخطاب في الفجوة بين خزانة الكتب والحائط، حيث كان مقدّرًا أن يبقى.

وربما كان ذلك من حسن الطالع.

فبينما كان الكونت قد تأثّر كثيرًا بمسيرة ميشكا بحُلوها ومُرّها في شارع نيفسكي بروسبِكت وبسطوره الشعرية الرومانسية، لم تكن السطور الشعرية من إبداع ميشكا على الإطلاق. كانت من قصيدة سبق وألَّفها ماياكوفسكي وهو واقف على كرسيه عام 1923. وما دفع ميشكا للاستشهاد بها ليس له علاقة بيوم أمسكت كاترينا بيده أول مرة. ما دفعه إلى هذا الاستشهاد، بل وإلى كتابة الخطاب من الأساس، هو حقيقة أنه في الرابع عشر من أبريل، كان فلاديمير ماياكوفسكي، شاعر الثورة المكلّل بالغار، قد أطلق النار على نفسه، في القلب، من مسدس إكسسوار؛ ذلك الذي يُستخدم في التصوير السينمائي.

صبّ الكونت لنفسه قليلًا، قطرةً فحسب، ليس أكثر من رشفة، وسقط ثانية في كرسيه. ثم أشار بإصبعه برفق في الهواء واستطرد:

«تَعْوِين التعاونيّات يا هيلينا، ونزع كولاكيَّة الكولاك- على صعيد الاحتمالات قد يكون أمرًا محتملًا، ومن ناحية الرَّجحان قد يكون راجحًا. لكن حتميًّا؟»

بابتسامة عارفة، هزّ الكونت رأسه لدى سماع الكلمة.

«اسمحي لي أن أخبرك ما هو الحتميّ. الحتميّ أن تقوم الحياة بزيارة لنينا هي الأخرى. قد تكون جادةً مثل القديس أوغسطين، لكنها أكثر يقظة وأكثر نشاطًا من أن تتركها الحياة تصافح يدًا ثم تمضي وحدها إلى حال سبيلها. سوف تتبعها الحياة في سيارة أجرة. سوف ترتطم بها مصادفةً. سوف تشقّ طريقها إلى عواطفها. ولكي تفعل ذلك، سوف تتوسّل، وتقايض، وتتآمر، بل وإن دعت الحاجة، سوف تلجأ إلى الاحتيال».

تنهّد الكونت أخيرًا وقال: «يا له من عالمٍ»، قبل أن يسقط نائمًا في كرسيه.

★ ★ ★

في الصباح التالي، بعينين مغبَّشتيْن قليلًا ورأس مصدَّع قليلًا، صبّ الكونت فنجانًا آخر من القهوة، واعتدل في مقعده، ومال على جنبه ليلتقط خطاب ميشكا من سترته.

لكنه لم يكن هناك.

تذكّر الكونت جيدًا أنه دسّ الخطاب في الجيب الداخلي وهو يغادر البهو في اليوم السابق؛ وقد كان هناك بكل تأكيد وهو يُصلح الزرّ في مكتب مارينا.

فكَّر: لا بُد أنه سقط عندما علَّق السترة على ظهر كرسي آنا. وهكذا،

لنفسه كأسًا من البراندي، وبتنهيدة رضا سقط على كرسيه. بينما راحت هيلينا تعاينه، من مستقرِّها على الجدار، بنظرة رقيقة متفهّمة.

اعترف: «نعم، نعم. الوقت تأخر قليلًا، وأنا سكران قليلًا. لكن عذري أنه كان يومًا حافلًا بالأحداث».

وكأنما ليوضح نقطته، نهض الكونت فجأة عن كرسيه وشدّ إحدى طيّات سترته.

«هل ترين هذا الزر؟ أُعرِّفكِ أنني خِطتَه بنفسي». ثم عاد ليسقط على كرسيه، وأمسك بكأس البراندي، وتناول رشفة، وتأمَّل: «كانت محقّة تمامًا، تعرفين. مارينا، أقصد. محقة جدًا، قطعًا، بتاتًا». تنهّد الكونت ثانية. ثم شارك أفكاره مع شقيقته.

منذ أول القصص التي رواها الإنسان، ظَلّ «الموت» يَستدعي الغافلين. في حكاية أو أخرى، يصل سرًا إلى البلدة ويستأجر غرفة في حانة، أو يترصّد في زقاق، أو يتسكع في السوق، خلسةً. ثم فور أن يأخذ البطل لحظة استراحه من شؤونه اليومية، يأتي «الموت» لزيارته.

كل هذا حسنٌ ولا عيب فيه، قالها الكونت مُراعيًا، لكن ما لا يُحكى إلا نادرًا هو أن «الحياة» مراوغة مثل «الموت» تمامًا. هي أيضًا قد تستتر بمعطف ذي قلنسوة. هي أيضًا قد تنسلُّ إلى البلدة، تترصّد في زقاق، أو تنتظر في مؤخرة حانة.

ألم تقم بزيارة كهذه لميشكا؟ ألم تجده يختبئ خلف الكتب، فاستدرجته خارج المكتبة، وأمسكت يَده في بقعة منعزلة مطلّة على نهر النيفا؟

ألم تجد أندري في ليون فأومأت له أن يتبعها إلى الخيمة الكبيرة؟

أفرغ الكونت كأسه، ونهض عن كرسيِّه، وتعثّر بخزانة الكتب وهو يمد يده إلى البراندي.

«**إكسكوزيه موا، مدام**».

المرء بالسقوط في حبائل تنويم مغناطيسيّ. بل وكانت برتقالة أخرى قد التحقت فجأة، دون انتباه إميل أو الكونت، بالمنظومة الشمسية. ثم، بحركة مسرحية راقية، أمسك أندري الكرات الأربع وانحنى لجمهوره.

الآن، جاء دور الكونت وإميل في التصفيق.

قال إميل: «لكن بالتأكيد، لم تكن تقذف البرتقالات».

«لا»، اعترف أندري، وهو يعيد البرتقالات بحرص إلى النضد. «كنت أقذف السكاكين».

قبل أن يتمكّن الكونت وإميل من الإفصاح عن شكوكهما، كان أندري قد أخرج ثلاثة سكاكين من أحد الأدراج، وأطلقها في الهواء. تلك لم تكن كواكب. كانت تدور في الهواء مثل أجزاء من آلة جهنّمية ما، وهو إحساس عزَّزته التماعات الضوء كلما انعكس لهيب الشمعة على النصال. ثم عادت السكاكين فجأة، مثلما انطلقت فجأة، ثابتة بين يديْ أندري.

داعبه الكونت قائلًا: «آه، لكن هل تستطيع اللعب بأربعة من هذه؟».

دون كلمة، عاد أندري إلى دُرج السكاكين؛ لكن قبل أن يمدّ يده إلى الداخل، كان إميل قد وقف على قدميه. وبتعبير صبيٍّ مفتونٍ بساحرِ شوارع، تقدّم بخجل من وسط الحشد ومدّ سكينه الخصوصيّ- تلك الآلة التي لم يمسسها بشر غيره طوال خمس عشرة سنة تقريبًا. تناولها أندري بانحناءة طقوسيّة جديرة بها. وعندما أطلق السكاكين الأربعة في الهواء، أرجع إميل ظَهره في كرسيه وراح يراقب، بدمعة في عينه، نصله المؤتمَن وهو يتشقلَب في الفضاء بلا عناء، شاعرًا أن هذه اللحظة، هذه الساعة، هذه الدنيا، لا يمكن أن تكون أفضل من ذلك.



في الثالثة والنصف صباحًا، صعد الكونت مترنِّحًا على السلّم، مال إلى غرفته، وعَبَر دولابه متعثّرًا، وأفرغ جيوبه فوق خزانة الكتب، وصبّ

«إيه؟ ما هذه؟ تحت ماذا؟»

«هل قلت الخيمة الكبيرة؟».

أجل. في حقيقة الأمر: السيرك.

كان أندري، الذي نشأ في كنف أبٍ مترمِّل سكِّير وعنيف، قد فرَّ من المنزل في سنّ السادسة عشرة لينضم إلى سيرك جوّال. مع تلك الفرقة جاء إلى موسكو عام 1913 حيث وقع في غرام بائعة كتب في منطقة أربات فودّع حياة السيرك. بعدها بشهرين، وُظِّف نادلًا في البويارسكي، وظل هناك من وقتها.

سأله الكونت: «وماذا كنت تفعل في السيرك؟».

خمّن إميل: «بهلوان؟ مهرّج؟».

«مدرب أسود؟».

«كنت ألعب بالمقذوفات».

قال إميل: «لا».

عوضًا عن الرد، نهض المِتر عن الطاولة وتناول ثلاث برتقالات غير مستخدَمة من فوق النضد. أمسك الحبَّات في يده، ثم وقف منتصبًا تمامًا. أو بالأحرى، وقف بميلٍ بسيط من تأثير النبيذ، أشبه بالساعة 12:02. ثم بعد وقفة قصيرة، أطلق الكُرَات في الهواء.

بكل أمانة، كان الشك يخامر الكونت وإميل تجاه مزاعم صديقهما القديم؛ لكن فور أن بدأ، لم يسعهما إلا أن يتعجّبا كيف لم يخمّنا ذلك من قبل. إذ كانت يدا أندري قد خُلقتا للّعب بالمقذوفات. كانت لمساته رشيقة حتى إن البرتقالات بدت وكأنما تتحرك من تلقاء نفسها. أو بالأحرى، كانت تتحرك مثل كواكب محكومة بقوة جاذبية تدفعها إلى أعلى وفي الوقت نفسه تمنعها من الاندفاع هاربة في الفضاء؛ بينما بدا أن أندري، الذي كان واقفًا أمام تلك الكواكب، ينتزعها ببساطة من مداراتها ويحرّرها بعدها بلحظة لتستأنف مسارها الطبيعي.

كانت حركة يديّ أندري شديدة اللطف والإيقاعية على نحو يهدد

رحيق شمس الصيف الذي، وقد حُصد في تلال اليونان ونُقل على ظهر بغل إلى أثينا، أَبحرَ عبر المتوسط في فَلوكة. بعبارة أخرى. مع أول ملعقة يجد المرء نفسه يُنقل إلى ميناء مارسيليا- حيث تضجّ الشوارع بالبحّارة، واللصوص، والنساء الجميلات؛ بنور الشمس والصيف؛ باللغات والحياة.

فتح الكونت عينيه.

قال: «**ماغنيفيك!**».(*)

أما أندري، الذي كان قد وضعَ ملعقته، فضمّ يديه الأنيقتين معًا في احترامٍ بادٍ، كمن يُصفّق تصفيقًا صامتًا.

أشرَق وجه الشيف، وانحنى أمام صديقيه ثم انضمّ إليهما في الوجبة التي طال انتظارها.

على مدار الساعتين التاليتين، أكل كل عضو من أعضاء «المجلس الرئاسي» ثلاث طاسات من البويابِس، وشرب زجاجة نبيذ، وتكلم بقلب مفتوح في دَوره.

وفيمَ تكلم هؤلاء الأصدقاء الثلاثة؟ قُل فيمَ لم يتكلموا! تكلّموا عن طفولتهم في بطرسبرغ، ومينسك، وليون. عن حُبّهم الأول والثاني. عن ابن أندري البالغ أربع سنوات وعن آلام أسفَل ظَهر إميل البالغة أربع سنوات. تحدَّثوا عمّا كان ومضى، عن الـمُشتهى والبديع.

إميل، الذي نادرًا ما يظل مستيقظًا حتى تلك الساعة، كان في حالة نشوة غير مسبوقة. عندما كانت قصص الصبا تُحكى، كان يضحك من كل قلبه حتى إن رأسه راحت تتماوج على كتفيه. وكان طَرَف فوطته يُرفع إلى عينيه أكثر بمرتين مما يُرفع إلى شفتيه.

وحُسن **الختام**؟ في الثالثة صباحًا، أشار أندري بشكل موجز، وعلى نحو عابر، وبين قوسين تقريبًا، إلى أيامه تحت الخيمة الكبيرة.

(*) **ماغنيفيك** *Magnifique*: رائع (بالفرنسية في الأصل). (المترجم)

عندما تقدّم إميل خطوة إلى الأمام وهو يرفع يده الباترة عاليًا فوق رأسه، شحب وجه الأسقف حتى صار بلون سمكة الحَدُّوق. ثم شوهد باب المطبخ وهو يتأرجح على مفاصله ولم يعد الأسقف موجودًا في المشهد.

أدار أندري والكونت أنظارهما من الباب إلى إميل. ثم اتسعت عينا أندري في استغراب، وأشار بإصبع حذِر إلى يد إميل المرفوعة. ففي حمأة غضبه، لم يسحب الشيف سكّينه، وإنما عود كرفس، كانت شوشاتُه الخضراء الصغيرة ترتعش الآن في الهواء. وفي صوتٍ واحد، ضجّ «المجلس الرئاسي» بالضحك.

في الواحدة صباحًا، اتّخذ المتآمرون مقاعدهم. على الطاولة أمامهم كانت شمعة واحدة، ورغيف خبز، وزجاجة نبيذ وردي، وثلاث طاسات من شوربة البويابِس.

بعد تبادُل نظرة، غمس الرجال الثلاثة ملاعقهم في اليخنة في وقت واحد، لكن حركة إميل لم تكن سوى خِفّة يد. إذ عندما رفع أندري والكونت ملعقتيْهما إلى فمَيْهما، ترك إميل ملعقته مُعلَّقة فوق الطاسة- عازمًا على دراسة تعبيرات صديقيه لحظة التذوّق الأول.

مدركًا تمام الإدراك أنه تحت المراقبة، أغمض الكونت عينيه لكي يركِّز أكثر مع انطباعاته.

كيف يصفها؟

المرء يتذوق الشوربة أولًا- هذا التقطير المسوَّى لعظام السمك، والشَمَر، والطماطم، بإحالته الشهية إلى الأراضي البروفِنسيّة الفرنسية. ثم يستمرئ المرء القشور الرقيقة للحَدُّوق واللدَانة الأُجاج لبلح البحر، الذي اشتروه من صيّاد على رصيف الميناء. ويتعجب المرء من جرأة البرتقالات التي وصلت من إسبانيا والأبسِنت الذي يُصبُّ في الحانات. كل تلك النكهات يجمعها، بشكل ما، ويشكّلها، ويُضفي عليها الألَق الزعفران-

تجمّد أعضاء «المجلس الرئاسي» في أماكنهم.

تقدم الأسقف خطوتين باتجاه الشمال إلى الشمال الغربي وهو يرصد المشهد.

قال بأفضل نبرة ودٍّ استطاعها: «مساء الخير يا سادة. ما الذي أتى بكم جميعًا إلى المطبخ في هذه الساعة...؟».

أندري، الذي كان يتمتّع بذهنٍ حاضر جعله يتحرك ليقف أمام القِدْر الموضوع فوق الموقد، أشار بيده باتجاه الطعام على النضد.

«نجري عملية جَرد».

«جَرد...؟».

«نعم. جَردنُا ربع السنوي».

ردَّ الأسقف بابتسامته الكهنوتيّة: «بالطبع. وبأمرِ مِن مَن تُجرون الجَرد ربع السنوي...؟».

مع تطور هذا الحوار بين الأسقف والمِتر، لاحظ الكونت أن إميل، الذي اكتسى وجهه بالشحوب لدى تأرجُح الباب إلى الداخل، كان يستعيد لونَه لحظةً بعد أخرى. بدأ الأمر باصطباغ خدَّيه باللون الزهري عندما اجتاز الأسقف عتبة الباب. وتحوّل إلى الورديّ عندما سأل الأسقف **ما الذي أتى بكم جميعًا إلى المطبخ...؟** لكن عندما سألَ **بأمرِ مِن مَن...؟** تحوَّل خدّا الشيف، ورقبته، وأذناه إلى اللون الأرجواني المميِّز للشعور بالإهانة. على نحو يجعلك تسأل إن كان وجود علامة الاستفهام في مطبخه، بحدِّ ذاته، جريمةً عُظمى.

قال الشيف متسائلًا: «بأمرِ مِن مَن؟».

أدار الأسقف نظره إلى أندري وإميل وقد بان عليه أنه فوجئ بتحوُّل الشيف. بدا مترددًا.

كرَّر الشيف: «بأمرِ مِن مَن؟».

فجأة، ودون أن يرفع عينيه عن الأسقف، مدَّ إميل يده وتناول سكّينه.

«بأمرِ مِن مَن!».

بحرص، أخرج الكونت الكأس الصغيرة المكتنزة من جيبه الخلفي ووضعها على النُضُد.

«آه»، قالها الشيف، وهو يمسح يديه في مريلته.

«هل تكفي هذه الكمية؟».

«نحتاجه لإضفاء لمحة لا أكثر. هَمسة. لَمسة. لو كنا نُعدّ الطبق الحقيقي لاحتجنا إلى كمية كبيرة».

دسّ إميل خنصره في الأبسِنت، ثم لَعَقه.

قال: «رائع».

اختار الكونت مفرش الطاولات الملائم من خزانة البياضات، وفرده بطقَّة ثم تركه يتموَّج هابطًا على الطاولة. وبينما كان يضع الصحون، بدأ الشيف يصفِّر لحنًا وابتسم الكونت عندما أدرك أنه اللحن نفسه الذي سبق وسمعه في الشاليابين، والذي يتحدث عن غياب الموز. وكأنما بالاتفاق، انفتح الباب المؤدي إلى السلم الخلفي وهرع أودري داخلًا وهو يحمل كومة من البرتقال تكاد تتدحرج من بين ذراعيه. عندما وصل إلى جوار إميل، انحنى من وسطه ودَلَقَ الكومة على النُضُد.

بغريزة مساجين لمحوا باب سجنهم مفتوحًا، تدحرجت البرتقالات في كل اتجاه لكي تُعظِّم من فُرصها في الهروب. وفي غمضة عين، كان أندري قد مدّ ذراعيه في دائرة واسعة ليصنع سورًا يحتجزها داخله. لكنّ إحدى البرتقالات راوغت المِتر واندفعت على النضد- متجهةً مباشرة صوب الأبسِنت! أسقط إميل سكّينه، وهَبَّ، وانتزع الكأس من على النضد في اللحظة الحاسمة. أما البرتقالة، التي كانت تزداد ثقةً، فاندفعت من وراء الشَمَر، وقفزت عن النضد، وارتطمت بالأرض، وشقت طريقها نحو المخرَج. لكن في اللحظة الأخيرة، تأرجح ذلك الباب الذي يفصل مطبخ إميل عن بقية العالم إلى الداخل، مرسلًا البرتقالة تدور عائدةً أدراجَها على الأرضية في الاتجاه المعاكس- بينما وقف الأسقف بالباب.

«أين هو الآن...؟ ربما في معبد الباغودا الأزرق في الـ«شينوازيري» تَبَعَك... ظريف جدًّا. خاصة عندما يأتي من رجل لا يستطيع أن يُقفّي «بَقَرة» مع «شَجَرَة». ثم، ما كل هذه الوقْفات التي تشبه ثلاث نقاط؟».

منذ ترقّي الأسقف، اتخذ عادة إضافة حُذوفات إلى نهاية كل سؤال. لكن ماذا يستنبط المرء منها...؟ أن علامة الاستفهام يجب أن تُنشَّ بعيدًا...؟ أن الجملة الاستفهامية لا يجب أن تنتهي أبدًا...؟ أنه، رغم كونه يطرح سؤالًا، لا يحتاج إلى جواب لأنه كوَّن رأيًا بالفعل...؟

بالطبع.

دخل الكونت من باب البويارسكي، الذي كان أندري قد أغلقه دون أن يوصده، واجتاز قاعة الطعام الخاوية، وولج من الباب المتأرجح إلى المطبخ. وهناك وجد الشيف على منضدته يُقطِّع بُصيلة من الشَمَر، بينما أربعة أعواد من الكرفس ترقد في صفٍّ منتظم، مثل اسبرطيِّين ينتظرون مصيرهم. على الجانب كانت شرائح سمك الحدُّوق وسلّة بلح البحر، بينما على الموقد قَبَع قدْرٌ نحاسيّ هائل تتصاعد منه سحب صغيرة من البخار لتعبق الهواء بمزيد من إرهاصات البحر.

رفع إميل رأسه عن الشَمَر، فالتقت عيناه بعيني الكونت وابتسم. في لحظة، رأى الكونت أن الشيف في حالته الوردية. منذ الثانية ظهرًا، كان قد استشعر أن كل شيء لم ينته بعد- ربما. والآن، بعد منتصف الليل بنصف ساعة لم يكن يراود الشيف أدنى شك في أن الشمس ستشرق غدًا، وأن معظم الناس خَيِّرون في دواخلهم. وأن الأمور، في نهاية المطاف، تميل إلى المضيِّ إلى ما فيه الصالح.

لم يضيِّع الشيف وقتًا في التحايا. عوضًا عن ذلك، ودون أن يوقف التقطيع، أمال رأسه باتجاه الطاولة الصغيرة، التي كانت قد نُقلت من مكتبه إلى داخل المطبخ وكانت تنتظر تجهيزها بصبر.

بيْدَ أنّ كل شيء بأوان.

زرع، ينزلق عبر شقٍّ في الباب. يراه المرء عند حواشي مجاله البصري، ذلك إن رآه أصلًا.

أجابه الكونت: «مساء الخير».

عاين كلاهما الآخر من أخمص القدمين إلى الرأس- كلاهما متمرِّسٌ في أن يؤكِّد، بنظرة واحدة، أسوأ شكوكه في الآخر. مال الأسقف إلى يمينه قليلًا، واتخذ مظهر من يسأل بدافع الفضول لا أكثر.

«ماذا لدينا هنا...؟».

«ماذا لدينا هنا؟».

«هذا، خلف ظهرك».

«خلف ظهري؟».

أخرج الكونت يديه ببطء ووضعهما أمامه وقَلَب كفّيه إلى أعلى ليوضح أنهما فارغتان. اختلجت الزاوية العليا اليمنى لابتسامة الأسقف، مضفيةً عليها مسحة خفيفة من التكلّف. بادله الكونت الابتسامة بمثلها وبانحناءة مهذّبة من الرأس استدار ليمضي في طريقه.

«ذاهبٌ إلى البويارسكي...؟».

توقف الكونت واستدار.

«نعم. هذا صحيح. البويارسكي».

«أليس مغلقًا...؟».

«نعم. لكن أظن أنني نسيت قلمي في مكتب إميل».

«آه. الأديب نسي قلمه. أين هو الآن... هممم. إن لم يكن في المطبخ، ربما عليك أن تبحث عنه في معبد الباغودا الأزرق في الـ«شينوازيري» تبَعَك...». ثم استدار الأسقف بابتسامته المتكلّفة، وانسلّ قطريًا عبر البهو.

انتظر الكونت إلى أن اختفى عن أنظاره، ثم هرع إلى الاتجاه المعاكس، وهو يغمغم:

المقايضة، التآمر، وإذا دعت الحاجة، اللجوء إلى الاحتيال. ثلاث مرات كان الحلم في متناول أيديهم، لكنه انزلق منها في اللحظة الأخيرة بسبب ظروف غير متوقَّعة (مرة بسبب الحظ العثِر، وأخرى بسبب العفن، ومرة بسبب الفئران).

لكن في بداية ذلك الأسبوع، بدا أن النجوم تعود إلى الانتظام في مواقعها. بوجود تسعة عناصر بالفعل في مطبخ إميل، وصلت أربع سمكات حَدُّوق كاملة وسلّة من بلح البحر إلى فندق المتروبول بالخطأ بدلًا من «الفندق الوطني». كان هذان هما المكونَيْن رقم عشرة وأحد عشر بضربة واحدة. اجتمع «المجلس الرئاسي» للتشاور. يستطيع أندري أن يطلب معروفًا، ويستطيع إميل أن يتفاوض على مقايَضة، ويستطيع الكونت أن يلجأ إلى أودريوس. وهذا يعني المكونات أرقام اثني عشر وثلاثة عشر وأربعة عشر. لكن رقم خمسة عشر؟ سوف يتطلّب هذا متجرًا يعرِض أكثر الرفاهيات نُدرة- بعبارة أخرى، متجر يخدم أكبر أعضاء الحزب. جرى استفسارٌ سرّيٌّ من قِبل الكونت لممثلة معيَّنة لها اتصالات معيَّنة. ويا للمعجزة! دُسَّ مظروف غير موقَّع تحت بابه. والآن، مع وجود المكونات الخمسة عشر كلّها في المتناول، كان صبر «المجلس الرئاسي» على وشك أن يُجازى. في غضون ساعة، سيجرِّبون مرة أخرى تلك النكهات المعقدة، ذلك التقطير المقدّس، ذلك الانطباع الذي في ثرائه وحصريته يشبه الـ...

«مساء الخير يا رفيق».

توقف الكونت في سيره.

للحظة، تردَّد. ثم استدار ببطء- بينما، من وسط ظلال كوَّة عمياء، ظهر المدير المساعد للفندق.

مثل نظيره في رقعة الشطرنج، لا يتحرك الأسقف طوليًّا ولا عرضيًّا. معه كل الأمور مائلة: ينسلُّ قُطْريًّا من ركن إلى ركن، يلتفُّ حول أصيص

«لا حاجة لذلك. إنها على حساب السيد لاينس».

عندما استدار الكونت ليغادر، بدأ أمريكيٌّ كان قد استولى على البيانو في أداء نمرةٍ صغيرة مرحة تحتفي بالحرمان من الموز، الحرمان من الموز اليوم. (*) بعدها بلحظة، كان كل الصحافيين يغنّون معه. في ليلة غير هذه، لربما تمهّل الكونت ليتابع الاحتفالات اللاهية، لكنّ حفلته الخاصة كانت بانتظاره. هكذا، حاملًا شُحنته الثمينة، أبحر عبر زحام المرافق، حريصًا كَيْلا تنسكب منه قطرة واحدة.

نعم، فكَّر الكونت وهو يصعد السلالم إلى الطابق الثاني، هذه الأمسية كأن لدى «المجلس الرئاسي» سببه الخاص للاحتفال.

كانت الخطة قد حيكت قبل نحو ثلاث سنوات، بعد أن انبثقت عن ملاحظة كئيبة من أندري، أكد عليها إميل.

كان المتر قد تحسّر قائلًا: «للأسف، الأمر مستحيل».

واعترف الشيف بهزّة من رأسه: «نعم».

لكن، أكان مستحيلًا؟

في نهاية المطاف، كان عدد المكوّنات لا يتجاوز خمسة عشر. ستة منها كان يمكن سحبُها من غرفة خزين البويارسكي في أي وقت من أوقات السنة. وخمسة أخرى تكون متاحةً بسهولة في موسمها. كان لُبّ المشكلة أن المكونات الأربعة الأخيرة، رغم التحسُّن الإجمالي في توفّر البضائع بشكل عام، ظلت نادرة نسبيًّا.

منذ البداية، تم الاتفاق على عدم التعجُّل - الطرق المختصرة والبدائل ممنوعة. إما السيمفونية كاملةً أو الصمت. هكذا، سيكون على «المجلس الرئاسي» أن يصبر ويترقّب. سيكون عليهم أن يجهّزوا أنفسهم للتوسّل،

(*) الإشارة إلى أغنية: Yes! We Have No Bananas Today لـ«بيلي جونز». (المترجم)

فالأحرى به أن يكون نائمًا قرير العين قبل الثانية عشرة. إذًا، فقد كانت الدقة الثانية من الساعة مزدوجة الدقّات، قَطعًا، ضربًا من الاحتجاج. **ما الذي يجعلك مستيقظًا إلى الآن؟** هذا ما تريد الساعة قولَه. **هل أهدرتَ ضوء النهار وأصبح عليك أن تبحث عن أشياء تفعلها في الظلام؟**

«البتِلّو».

«آه. شكرًا لك يا مارتِن».

على النحو الواجب، وَضع مارتِن الطبق الأول أمام صوفيا والثاني أمام الكونت. ثم تمهّل في وقفته بالقرب من الطاولة أكثر من اللازم.

«شكرًا لك»، قالها الكونت ثانية في إشارةٍ صرفٍ مهذَّبة. لكن حين تناول الكونت فضّياته وبدأ يروي لصوفيا كيف كان هو وأخته يجلسان بجوار الساعة مزدوجة الدقّات في الليلة الأخيرة من ديسمبر في انتظار أن تدقّ معلنةً عن العام الجديد، اقترب مارتِن خطوة أخرى من الطاولة.

سأله الكونت، بشيء من نفاد الصبر: «نعم؟».

تردَّد مارتِن.

«**هل**... أقطِّع اللحم للآنسة؟».

نظر الكونت عبر الطاولة إلى حيث كانت صوفيا، والشوكة في يدها، تحدِّق في صحنها.

مون ديو، فكَّر الكونت.

«لا داعِ لذلك يا صديقي. سأعتني أنا بالأمر».

فيما كان مارتِن يتراجع بانحناءة، استدار الكونت حول الطاولة وفي ضربات سريعة قليلة قطَّع شريحة البتلّو أمام صوفيا إلى ثماني قِطع. ثم، وهو يوشك على وضع أدوات المائدة أمامها، قطَّع القِطَع الثماني إلى ستّ عشرة قطعة. ولدى عودته إلى مقعده، كانت صوفيا قد تناولت أربع قِطع بالفعل.

بعد أن أعاد لها الزاد طاقتها، أطلقت صوفيا العنان لسيلٍ من

الـلِماذات. لماذا يُفضَّل الانشغال بالعمل في الصباح وبالطبيعة بعد الظهر؟ لماذا يقرأ الرجل ثلاث صُحف؟ لماذا على المرء أن يتمشّى تحت أشجار الصفصاف تحديدًا، لا تحت أي نوع آخر من الأشجار؟ وما هي التعريشة؟ الأمر الذي قاد بدوره إلى استفسارات أخرى تخصّ «أيدل آور»، والكونتيسة، وهيلينا.

من حيث المبدأ، كان الكونت عمومًا يعتبر وابل الاستجوابات سلوكًا سيئًا. فكلمات: **مَن، ماذا، لماذا، مَتى، وأين**، في حد ذاتها، لا تَصنع محادثة. لكنْ عندما بدأ الكونت الإجابة عن سلسلة الاستفسارات، راسمًا صورة سريعة لـ«أيدل آور» على مفرش الطاولة بأسنان شوكته، واصفًا شخصيات أفراد العائلة ومنوِّهًا بمختلف التقاليد- لاحظ أن صوفيا كانت منهمكة تمامًا، وكليًّا، وعلى الإطلاق. ما فشلَت في تحقيقه الأفيالُ والأميرات، حقّقته، بنجاح بالغ، الحياة في «أيدل آور». وفي غمضة عين، اختفت قِطع البتلّو من أمامها.

عندما رُفعت الصحون، عاود مارتِن الظهور ليستفسر إن كانا يريدان تحلية. نظر الكونت إلى صوفيا بابتسامة، مفترضًا أنها ستقفز لاقتناص الفرصة. لكنها عضَّت شفتها السفلى وهزّت رأسها.

سألها الكونت: «هل أنت متأكدة؟ آيس كريم؟ كوكيز؟ قطعة كيك؟».

لكنها راوحت مكانها في مقعدها قليلًا، وهزّت رأسها ثانية.

أهلًا بالجيل الجديد، فكّر الكونت بهزّة من كتفيه، وهو يُرجع قائمة التحلية إلى مارتِن.

«يبدو أننا انتهينا».

تناول مارتِن القائمة، لكنه تلكأ مجددًا. ثم، وهو يدير ظهره إلى الطاولة، مال قليلًا وبدا أنه يريد أن يهمس في أذن الكونت.

وفكَّر الكونت: يا ربّي! ماذا الآن؟

«كونت روستوف، أظن أن ابنة أختك... **قد تريد أن تذهب**».

«تذهب؟ تذهب إلى أين؟».

تردد مارتِن.

«إلى الـمُختلى...».

رفَع الكونت رأسه إلى النادل ثم إلى صوفيا.

«فهمتُ يا مارتِن».

انحنى النادل واستأذن في الانصراف.

اقترح الكونت بنبرة مترددة: «صوفيا، هل نزور غرفة السيدات؟».

أومأت صوفيا برأسها، وهي لا تزال تعضّ على شفتها.

بعد أن تقدَّمها في الرواق، سألها: «هل تريدين مني أن... أصحبك إلى الداخل».

هزّت صوفيا رأسها واختفت وراء باب المغسلة.

فيما كان الكونت ينتظر، وبّخ نفسه على بلادته. إذ لم يغفل فقط عن تقطيع شريحة لحمها واصطحابها إلى غرفة السيدات، بل إنه لم يفكّر أيضًا في مساعدتها على إفراغ حقيبتها، لأنها كانت ترتدي الملابس نفسها التي ارتدتها يوم أمس.

قال لنفسه: «وتسمي نفسك نادلًا...؟».

بعدها بلحظة، خرجت صوفيا، وقد بدا عليها الارتياح. لكنْ عندها، ورغم ولعها الواضح بالاستجوابات، تردَّدت كمَنْ يصارع رغبته في طرح سؤال.

«ما الأمر يا عزيزتي؟ هل تفكرين في شيء؟».

صارعَت صوفيا للحظة أخرى، ثم استجمَعت شجاعتها:

«هل لا يزال بإمكاننا الحصول على تحلية يا عمُّ ألكسندر؟».

الآن، كان الكونت هو من أبدى الراحة.

«دون شكّ يا عزيزتي. دون شكّ».

طالِع، نازِل

في الساعة الثانية، فتحَت مارينا للطارق على باب مكتبها لتجد الكونت بصحبة فتاة صغيرة تحمل دمية من مِزَق القماش وقد قبضَت عليها بقوة من رقبتها، فتفاجأت حتى كادت عيناها تستويان.

قال الكونت، وهو يرفع حاجبيه بإيماءة ذات معنى: «آه، مارينا. هل تتذكرين نينا كوليكوفا؟ اسمحي لي أن أقدم لك ابنتها، صوفيا. ستمكث معنا في الفندق لبعض الوقت...».

كأمٍّ لطفلين، لم تكن مارينا بحاجة إلى إشارة الكونت لتفهم أن أمرًا جسيمًا قد وقع في حياة الطفلة. لكنها أدركت أيضًا أن الفتاة متعجبة من الطنين المنبعث من آخر الغرفة.

قالت: «سعيدة جدًا بمقابلتك يا صوفيا. عرفتُ أمك جيدًا عندما كانت أكبر منك ببضع سنوات لا أكثر. لكن خبّريني: هل رأيتِ ماكينة خياطة من قبل؟».

هزّت صوفيا رأسها.

«طيّب إذًا. تعالي ودعيني أُريكِ واحدة».

مدّت مارينا يدها لصوفيا، وقادتها إلى الطرف الآخر من الغرفة، حيث كانت مساعدتها تُصلح ستارة بلون أزرق ملكي. نزلت مارينا على ركبتيها لتكون في مستوى صوفيا، وأشارت إلى أجزاء الماكينة المختلفة شارحةً فوائدها. ثم طلبت من الخيّاطة أن تفرِّج صوفيا على مجموعتهم من الأقمشة والأزرار، وعادت إلى الكونت وعلى وجهها تعبير متسائل.

في صوت هامس، سرد لها سريعًا حوادث اليوم الفائت.

اختتم الكونت كلامه قائلًا: «ترين الورطة التي وقعتُ فيها».

وصحَّحَت له مارينا: «أرى الورطة التي وقعَت صوفيا فيها».

اعترف الكونت متأسفًا: «نعم. أنت محقَّة تمامًا». ثم، لحظة كان على وشك الاستطراد، راودته فكرة- فكرة عبقرية، حتى إنه لم يصدق كيف لم يفكر فيها من قبل. «لقد أتيتُ، يا مارينا، لأرى إن كنت مستعدة للعناية بصوفيا لساعة واحدة وأنا في اجتماع البويارسكي اليومي...».

قالت مارينا: «بالطبع».

«كما قلتُ، لقد جئت بهذا القصد... لكنك مُحقّة، صوفيا هي التي تستحق دعمنا واهتمامنا. والآن، حين رأيتكما معًا، ورأيت رقّتك الفطرية، ورأيت كيف اطمأنَّت فورًا إلى صحبتك، أصبح واضحًا جليًّا فجأة أن ما تحتاجه، خاصة في هذا المنعطف في حياتها، هو لمسة أموميّة، طريقة أموميّة، أسلوب...».

لكن مارينا قاطعته. ومن أعماق قلبها قالت:

«لا تطلب مني ذلك يا ألكسندر إلييتش. اطلبه من نفسك».

أستطيع أن أفعلها، قال الكونت في نفسه وهو يقفز صاعدًا السلّم إلى البويارسكي. في نهاية المطاف، لم يكن الأمر يقتضي حقًا إلا إجراء بعض التعديلات الطفيفة- إعادة ترتيب بعض قطع الأثاث وتغيير بعض العادات. فلمّا كانت صوفيا أصغر من أن تُترك لحالها، سيكون عليه في النهاية أن يجد شخصًا يمكنه أن يجلس معها وهو في العمل. أما الليلة، فسيطلب ببساطة إجازة مسائية، ويقترح تقسيم طاولاته بين دينيس وديمتري.

لكن الصديق يُلبِّي حاجة صديقه قبل أن يطلبها. وهكذا، عندما وصل الكونت إلى اجتماع «المجلس الرئاسي» بعدها ببضع دقائق، وجد أندري يقول:

«ها قد جئتَ يا ألكسندر. أنا وإميل كنا نناقش للتوّ إمكانية تقسيم طاولاتك بين دينيس وديمتري الليلة».

تداعى الكونت في كرسيه، وأطلق تنهيدة ارتياح.

قال: «رائع. غدًا سأكون قد توصّلتُ إلى حلٍّ أطول أجلًا».

نظر الشيف والمتر إلى الكونت مرتبكيْن.

«حلّ أطول أجلًا؟».

«ألم تُقسّما طاولاتي حتى أكون حرًّا في المساء؟».

شهق أندري: «حرٌّ في المساء؟».

ضجّ إميل بالضحك.

«ألكسندر، يا صديقي، إنه السبت الثالث من الشهر. ستكون مطلوبًا في الغرفة الصفراء في الساعة العاشرة...».

ماين غوت،(*) فكّر الكونت. كان قد نسي تمامًا.

«...وفوق ذلك، لدينا عشاء الـ (غاز) في الغرفة الحمراء في السابعة والنصف».

كان مدير «غوركوفسكي أفتوموبيلني زافود» (غاز)، أكبر وكالات تصنيع السيارات في البلاد، ينظِّم عشاءً رسميًّا احتفالًا بالذكرى السنوية الخامسة لإنشاء الشركة. وكان سيحضر الحفل، بالإضافة إلى كبار الموظفين، مفوَّض الصناعات الثقيلة، وثلاثة ممثلين عن شركة فورد للسيارات- لا أحد منهم يعرف كلمة بالروسية.

قال الكونت: «سأهتم بالأمر شخصيًّا».

قال المِتر: «ممتاز. لقد جهّز ديمتري الغرفة بالفعل».

ثم دفع مظروفين على الطاولة باتجاه الكونت.

(*) ماين غوت *Mein Gott*: يا إلهي (بالألمانية في الأصل). (المترجم)

انسجامًا مع العادة البُلشفية، صُفّت الطاولات في الغرفة الحمراء على شكل حرف U طويل، حيث رُتِّبَت الكراسي على المحيط الخارجي- على هذا النحو يستطيع كل الجالسين رؤية رأس الطاولة دون مدٍّ أعناقهم. شعر الكونت بالرضا عن التجهيزات، فحوَّل انتباهه إلى المظروفين اللذين كان أندري قد أعطاه إيّاهما. فضّ المظروف الأصغر، وأخرج خريطة الإجلاس، تلك التي يُفترض أنها أُعدَّت في أحد مكاتب الكرملين. ثم فتح المظروف الأكبر، فاندلقَت منه بطاقات الجلوس، وبدأ يضعها في أماكنها. دار الكونت حول الطاولة مرة ثانية لكي يتأكد من دقّة عمله، ثم دسّ المظروفين في جيب بناطله- فقط ليكتشف مظروفًا آخر...

أخرج الكونت المظروف الثالث، وتأمّل فيه بجبين مقطَّب. بالأحرى، إلى أن قَلَبَه ورأى الخط الممشوق.

«يا لطيف!».

وفقًا لساعة الحائط، كانت 3:15 بالفعل.

اندفع الكونت خارجًا من الغرفة الحمراء، قاطعًا الردهة وصاعدًا طابقًا من السلالم. وجد باب الجناح 311 مواربًا، فانسلّ إلى الداخل، وأغلق الباب، واجتاز الصالة الكبيرة. في غرفة النوم، استدار ظلُّ امرأة عن النافذة بينما فستانها يسقط على الأرض بوشيش رقيق.

ردّ الكونت بسعلة خفيفة.

«آنا، حبيبتي...».

لاحظت الممثلة تعبيرات وجه الكونت، فسحبت فستانها مجددًا إلى أعلى باتجاه كتفيها.

«أنا آسف جدًّا، لكن بسبب تضارب غير متوقَّع في المواعيد، لن أستطيع الوفاء بموعدنا اليوم. في الحقيقة، لأسباب متعلّقة، قد أحتاج إلى أن أطلب منكِ معروفًا...».

طوال معرفتهما التي دامت خمس عشرة سنة، لم يسبق للكونت أن طلب من آنا إلا معروفًا واحدًا، وكان وزنه أقل من أوقيَّتَيْن.

أجابت: «طبعًا يا ألكسندر. ما هو؟».

«كم حقيبةً تسافرين بها؟».

بعدها ببضع دقائق، كان الكونت يهرول نزولًا على سلم الخدمات- وفي يديه حقيبتا سفرٍ باريسيّتان. تذكَّر باحترام متجدِّد غريشا وجينيا وكل أسلافهما. فمع أن حقيبتي آنا قد صُمِّمتا من أفخر الخامات، فقد بدا أنهما صُمِّمتا دون أدنى اعتبار لضرورة حملهما. كان المقبضان الجلديّان الصغيران ضئيلين حتى إنهما لا يتّسعان بالكاد إلا لإصبعين؛ وكانت أبعاد الحقيبتين سخيّة حتى إنهما كانتا ترتطمان من الدرابزين إلى ركبتِكَ مع كل خطوة. كيف يستطيع الحمّالون رفع هذه الأشياء والتحرّك بها بلا جهد؟ بل وغالبًا مع صندوق قبَّعات فوق البَيعة.

وصل الكونت إلى الطابق التحتانيّ، وشقّ طريقه بين أبواب الموظفين إلى حجرة الغسيل. في الحقيبة الأولى، عبَّأ ملاءتين، وغطاء فراش، وفوطة. وفي الثانية، عبَّأ وسادتين. ثم عاد صاعدًا ستة طوابق وهو يخبط ركبتيه في كل منعطف من سلَّم البُرج. في غرفته، أفرغ شحنة البياضات ثم مضى في الردهة ليجلب مرتبةً ثانية من إحدى الغرف المهجورة.

عندما خطرت تلك الفكرة ببال الكونت، بَدَت فكرةً ممتازة، لكن المرتبةَ كانت تُعارضها بكل قوة. عندما انحنى ليرفع المرتبة عن نوابضها المعدنية، عقدت ذراعيها، وكتمت أنفاسها، ورفضت أن تتزحزح من مكانها. وعندما تمكّن من إيقافها في وضع رأسي، انطرحت فورًا فوق رأسه، وكادت تُسقطه أرضًا. وعندما استطاع أخيرًا أن يجرَّها في الردهة، وأن يطرحها في غرفته، فَرَدَت أطرافها، واحتلت كل شِبر شاغر من الأرضية.

فكّر الكونت ويداه على وركيه: لن يصلح الأمر. إذا ترك المرتبة هناك، كيف سيتحركان في الغرفة؟ وبالتأكيد لن يجرّها كل يوم ليُدخلها ويُخرجها. لكن في ومضة إلهام، تذكّر الكونت ذلك الصباح قبل ستّ عشرة سنة، عندما عَزَّى نفسه بأن الحياة في هذه الغرفة سوف توفّر له مزايا السفر في قطار.

فكَّر: أجل. هذا هو الحل.

رفع المرتبة على حافتها، وسندها إلى الحائط وحذّرها أن تَبقى مكانها، إذا كانت تعرف مصلحتها. ثم أمسك بحقيبتي آنا وركض نازلًا أربعة طوابق حتى غرفة خزين البويارسكي، حيث تُحفَظُ الطماطم المعلّبة. بارتفاع يبلغ عشرين سنتيمترًا ومحيطٍ يبلغ خمسة عشر تقريبًا، بدت مناسبة تمامًا للمهمة. وهكذا، بعد أن رفعها مجددًا إلى أعلى (بقدرٍ كبير من اللهاث)، راح يكوِّم، ويرفَع، ويَسحب، ويَحطّ حتى أصبحت الغرفة جاهزةً. ثم، بعد أن أعاد حقيبتي آنا، اندفع نازلًا السلّم.

عندما وصل الكونت إلى مكتب مارينا (متأخرًا بأكثر من ساعة)، تنفّس الصعْداء حين وجد الخيّاطة وصوفيا جالستين على الأرض في مشاورات حميمة. قفزت صوفيا، وأمسكت بدميتها، التي كانت الآن في فستان بلون أزرق ملكيٍّ له أزرار سوداء صغيرة من الأمام.

«هل رأيتَ ماذا صنعنا لـ(عروسة)، يا عمُّ ألكسندر».

«جميل جدًّا!».

قالت مارينا: «إنها خيّاطة ممتازة».

عانقت صوفيا مارينا ثم خرجت تتقافز في الردهة مع صاحبتها ذات الحلّة الجديدة. تحرك الكونت ليلحق بعهدته، لكن مارينا نادته.

«ألكسندر. ماذا أعددتَ من ترتيبات لصوفيا وأنت في العمل الليلة...؟».

عضّ الكونت على شفته.

قالت: «طيّب. سأبقى معها هذا المساء. لكن غدًا، سيكون عليك العثور على شخص آخر. تحدّث مع إحدى خادمات الغرف الشابات. ربما نَتاشا. إنها عزباء وستكون جيدة مع الأطفال. لكن عليك أن تدفع لها أجرًا معقولًا».

أكد الكونت بامتنان: «نَتاشا. سأتحدث إليها أول شيء في الغد. وأجر معقول، بكل تأكيد. شكرًا جزيلًا يا مارينا. سأرسل العشاء لك أنت وصوفيا من البويارسكي نحو السابعة؛ وإذا كانت ليلة أمس مقياسًا، فستنام قريرة العين قبل التاسعة».

استدار الكونت ليمضي، ثم استدار عائدًا من جديد.

«وأنا آسف على ما حدث من قبل...».

«لا بأس يا ألكسندر. لقد كنتَ قلقًا لأنك لم تقضِ وقتًا بصحبة أطفال من قبل. لكنني متأكدة أنك جدير بالتحدي. إذا راودك الشك في أي وقت، تذكّر فقط أن الأطفال، بخلاف البالغين، يريدون أن يكونوا سعداء. أي إنهم لا يزالون يمتلكون القدرة على الاستمتاع إلى الحد الأقصى بأبسط الأشياء». على سبيل المثال، وضعت الخيّاطة شيئًا صغيرًا ويبدو تافهًا في يد الكونت مع تطمين وبضع تعليمات.

هكذا، بعدما صعد الكونت وصوفيا الطوابق الخمسة عائدين إلى غرفتهما، وأدارَت إليه نظرتها الزرقاء العميقة المترقِّبة، كان الكونت مستعدًا.

سألها: «أتريدين أن تلعبي لعبة؟».

قالت: «نعم، أريد».

«إذًا، تعالي من هنا».

بحركة مراسميّة، قاد الكونت صوفيا عبر باب الدولاب إلى مكتبه.

«أووه»، قالتها وهي تخرج من الناحية الأخرى. «هل هذه غرفتك السريّة؟».

وأجابها الكونت: «إنها غرفتـنا السريّة».
أومأت صوفيا بجدية لتظهر أنها تفهَّمَت.
لكن الأطفال بطبيعتهم يفهمون الغرض من الغرف السريّة أكثر مما يفهمون الغرض منَ الاجتماعات، وقاعات المحاكم، والبنوك.
أشارت صوفيا، بقدر من الخجل، إلى صورة مرسومة.
«هل هذه أختك؟».
«نعم. هيلينا».
«أنا أيضًا أحب الخوخ»، مرّرت يدها على طاولة القهوة. «هل كانت جدتك تشرب الشاي على هذه؟».
«بالضبط».
أومأت صوفيا بجدّية ثانية.
«أنا مستعدة للعبة».
«طيّب إذًا. ها هي طريقة اللعب. سترجعين إلى غرفة النوم وتعُدِّين حتى مئتين. وأنا سأبقى هنا لكي أخفي هذا داخل حدود هذا المكتب».
ثم، وكأنما من الهواء، أخرج الكونت الكُشتبان الفضي الذي أعطته له مارينا. «صوفيا، تعرفين كيف تعدِّين حتى مئتين؟».
اعترفت قائلة: «لا. لكن سأعد حتى مئة مرتين».
«أحسنتِ».
خرجت صوفيا من الدولاب، وأغلقت الباب وراءها.
جال الكونت ببصره في الغرفة بحثًا عن مكان مناسب- مكان يمثّل تحديًا معقولًا لطفلة دون أن يستغل سنَّها على نحو جائر. بعد بضع دقائق من التفكير، اقترب من خزانة الكتب الصغيرة ووضع الكُشتبان بحرص فوق «آنا كارنينا»؛ ثم اتخذ مقعدًا.
عند العَدّة المئتين، انفرَج باب الدولاب.
سألَت: «هل أنت جاهز؟».
«جاهز».

عندما دخلت صوفيا، توقّع الكونت أن تروح وتجيء في الغرفة على غير هدًى، ناظرة في كل اتجاه. عوضًا عن ذلك، ظلّت بالقرب من فُرجة الباب تدرس الغرفة بهدوء، بطريقة مقلِقة تقريبًا، من ركن إلى آخر. أعلى اليسار، أسفل اليسار، أعلى اليمين، أسفل اليمين. ثم، دون كلمة، سارت مباشرة إلى خزانة الكتب والتقطت الكُشتبان من فوق تولستوي. حدث ذلك في زمن أقل مما كان سيستغرقه الكونت في العدّ حتى مئةٍ مرةً واحدةً.

«أحسنتِ»، قالها الكونت، دون أن يعنيها. «دعينا نلعب ثانية».

ناولت صوفيا الكُشتبان للكونت. لكن فور أن غادرت الغرفة، وبّخ الكونت نفسه على أنه لم يفكّر في المخبأ التالي قبل بدء الجولة الثانية. الآن كانت أمامه مئتا ثانية فقط ليجد مكانًا مناسبًا. وكأنما لتثير أعصابه أكثر، بدأت صوفيا تعدّ بصوتٍ عالٍ حتى إنه كان يسمعها من وراء باب الدولاب المغلق.

«واحد وعشرون، اثنان وعشرون، ثلاثة وعشرون...».

فجأة، كان الكونت هو الذي يروح ويجيء في الغرفة على غير هدًى وينظر في كل اتجاه- مستبعدًا هذا المكان لأنه شديد السهولة، وذاك المكان لأنه شديد الصعوبة. في النهاية، دسّ الكُشتبان تحت مقبض «السفيرة»- على الطرف الآخر من الغرفة في مواجهة خزانة الكتب.

عندما عادت صوفيا، كرَّرت الإجراءات نفسها. ولو أنها، وكأنما توقعًا لخدعة الكونت الصغيرة البائسة، بدأت معاينتها تلك المرّة من الركن المواجه للمكان الذي عثرت فيه على الكُشتبان في الجولة الأولى. استغرقت عشرين ثانية كاملة لكي تنتزعه من مخبأه.

واضحٌ أن الكونت استهان بخصمه. فبوضع الكُشتبان في مواضع منخفضة إلى هذا الحد، كان قد لعب على مواطن قوّة صوفيا الطبيعية. في الجولة التالية، سيستغل مواطن ضعفها ويخفيه على ارتفاع مترين من الأرض.

«مرة أخرى؟»، قالها بابتسامة ثعلب.

«إنه دورَك».

«ما هذا؟».

«دورَك أن تبحث، ودوري أن أخفي».

«لا، تعرفين، في هذه اللعبة أنا أقوم بالإخفاء دائمًا وأنت تقومين بالبحث دائمًا».

تفحّصت صوفيا الكونت كما كانت أمها ستفعل.

«إذا كنتَ أنتَ من تقوم بالإخفاء **دائمًا**، وأنا من أقوم بالبحث **دائمًا**، فهذه ليست لعبة على الإطلاق».

عبس الكونت أمام حجتها التي لا تقبل الجدل. وعندما مدّت يدها، وضع الكُشتبان في كفّها على النحو الواجب. ثم، وكأن قَلْبَ الأدوار هذا ليس كافيًا، عندما مدّ يده إلى مقبض الباب، شدَّته من كُمّه.

«يا عمُّ ألكسندر، لن تختلس النظر، أليس كذلك؟».

يختلس النظر؟ خطرَ للكونت أن يقول كلمة أو اثنتين عن نزاهة آل روستوف. لكنه تمالك نفسه.

«لا يا صوفيا. لن أختلس النظر».

«وعد...؟».

«وعد».

خرج الكونت إلى غرفة النوم وهو يغمغم بشيء عن كلمته وكيف أنها سيفٌ على رقبته، هو الذي لم يغشّ قَط في لعبة الورق أو يتهرب من رهان، ثم بدأ في العد. بعد الـ150، صار يسمع صوفيا وهي تتحرك في أرجاء المكتب، وعندما وصل إلى 175، سمع صوت كرسي يُدفع على الأرض. ولأنه يدرك جيدًا الفرق بين الجنتلمان والنذل، واصل العدّ إلى أن عمّ الصمتُ الغرفة- أي، إلى الرقم 222.

نادَى: «جاهزة أم لا؟».

عندما دخل الغرفة، كانت صوفيا جالسة في أحد الكرسيّين عاليَيْ الظهر.

بأداء شبه مسرحيّ، وضع الكونت يديه خلف ظهره ودار في الغرفة وهو يقول هممم. لكن بعد دورتين، لم يكن الكُشتبان الفضي الصغير قد كشف عن نفسه بعد. وهكذا بدأ يبحث بقدر أكبر من الجديّة. سيرًا على خطى صوفيا، قسّم الغرفة إلى أركان واستعرضها على نحو منهجي، لكن بلا طائل.

متذكرًا أنه سمع أحد الكرسيين يُحرَّك، وحاسبًا طول صوفيا وامتداد ذراعها، قدَّر الكونت أنها ربما استطاعت الوصول إلى مكان ارتفاعه على الأقل متر ونصف عن الأرض. وهكذا، نظر خلف إطار بورتريه شقيقته؛ نظر تحت مفصّلات الشباك الصغير؛ بل ونظر فوق حَلْق الباب.

لكنّ الكُشتبان لم يظهر.

بين حين وآخر، كان ينظر إلى صوفيا على أمل أن تكشف نفسها بإلقاء نظرة خاطفة على مخبئها. لكنها حافظت على تعبيرٍ لا مبالٍ على نحو مثير للغيظ، وكأنها لا تمتلك أدنى فكرة عن التفتيش الدائر. وطيلة الوقت، تؤرجح قدميها الصغيرتين إلى الخلف والأمام.

كدارسٍ لعلم النفس، قرر الكونت أنه يجب أن يحاول حل المشكلة من وجهة نظر خصمه. فكما أراد أن يستغل قِصر قامتها، ربما استغلَّت هي طول قامته. بالطبع، هكذا فكّر. صوت تحريك الأثاث لا يعني بالضرورة أنها كانت تتسلق كرسيًّا؛ ربما كانت تسحب شيئًا إلى الجانب لكي تخفي شيئًا تحته. نزل الكونت على الأرض وزحف مثل سحلية من خزانة الكتب إلى «السفيرة» ذهابًا وإيابًا.

وظلت هي جالسة تؤرجح قدميها الصغيرتين.

وقف الكونت منتصبًا، فرطم رأسه بـمَيْلةِ السقف. وفوق ذلك، آلمته

ركبتاه من الأرضية الخشبية الصلبة، وأصبحت سترته مغطاة بالتراب. فجأة، وهو يعاين أرجاء الغرفة بقدرٍ من الانفعال، أدرك المآل الذي يزحف إليه بهدوء. كان يتسلل بطيئًا باتجاهه مثل قِطٍّ يقطع مَرجة عُشب؛ قطٌّ اسمه «الهزيمة».

أيمكن ذلك؟

أكان هو، ابن عائلة روستوف، مستعدًا للاستسلام؟

طيّب، في كلمة واحدة: أجل.

لم يكن هناك طريقان لِفِعل ذلك. لقد دُحر وعَرف ذلك. بداهة، سيكون عليه أن يقول كلمة أو اثنتين لتأنيب النفس، لكنه أولًا لعن مارينا والمسرّات المزعومة للألعاب البسيطة. تنفس بعمق، ثم تنهّد. ثم وقف بين يدي صوفيا مثلما وقف الجنرال ماك بين يدي نابليون، بعد أن ترك الجيش الروسي ينفلت من قبضته.

قال: «أحسنتِ يا صوفيا».

نظرَت صوفيا في عيني الكونت للمرة الأولى منذ دخوله الغرفة.

«هل تستسلم؟».

قال الكونت «أنا أتقبّل...».

«وهل هذا مساوٍ للاستسلام؟».

«نعم، إنه مساوٍ للاستسلام».

«إذًا يَجب أن تقولها».

طبعًا. يجب أن تتحقق إهانته بالكامل.

قال: «أنا أستسلم».

بلا أي بادرة شماتة، قَبِلت صوفيا استسلام الكونت. ثم قفزت عن كرسيها وسارت باتجاهه. تنحّى عن طريقها، مفترضًا أنها لا بُد قد خبأت الكُشتبان في مكان ما في خزانة الكتب. لكنها لم تقترب من خزانة الكتب.

بدلًا من ذلك، توقفت أمامه، ومدت يدها إلى جيب سترته، وأخرجت الكُشتبان.

بُهت الكونت.

بل وشرع يُتَفْتِف:

«لكن، لكن، لكن، صوفيا- هذا ليس عدلًا!».

تفحّصَت صوفيا الكونت بفضول.

«لماذا ليس عدلًا؟».

دائمًا هذه الـ«لماذا» اللعينة.

أجابها الكونت: «لأنه ليس كذلك».

«لكنك قلت إننا نستطيع إخفاءه في أي مكان في الغرفة».

«بالضبط يا صوفيا. جيبي لم يكن في الغرفة».

«جيبك كان في الغرفة عندما أخفيتُ الكُشتبان؛ وكان في الغرفة عندما كنتَ تبحث عنه...».

وبينما حدّق الكونت في وجهها الصغير البريء، اتّضح كل شيء. هو، سيّد ألعاب الخداع وخفّة اليد، كان ضحية للتلاعب في كل خطوة. عندما نادته لتصرّ على ألا يختلس النظر وشدّت كُمَّه بهذا اللطف، كانت تلك حيلة للتمويه على إسقاط الكُشتبان في جيبه. وعندما حركَت قطعة الأثاث مع اقتراب نهاية المئتي ثانية؟ لعبة مسرحية بحتة. تشويشٌ عديم الرحمة. وحتى عندما كان يبحث، ظلّت هي جالسة، متشبثة بدميتها الصغيرة في فستانها الأزرق الفاتح، دون أن ترتكب خطأً واحدًا يكشف عن مكائدها.

تراجع الكونت خطوة إلى الوراء، وانحنى لها انحناءة كبيرة.

★ ★ ★

في الساعة السادسة، بعد أن نزل إلى الطابق الأرضي ليضع صوفيا

برعاية مارينا، وعاد يصعد إلى الطابق السادس لجلب دُمية صوفيا، ثم نزل إلى الطابق الأرضي لتوصيلها، تابع الكونت طريقه إلى البويارسكي.

اعتذر لأندري على التأخير، ثم بدأ سريعًا في تقييم فريقه، واستعرض الطاولات، وعدّل الكؤوس، وصفّ الفضيات، واختلس نظرة إلى إميل، ثم أخيرًا أعطى الإشارة بفتح أبواب المطعم. في السابعة والنصف، ذهب إلى الغرفة الحمراء ليشرف على عشاء الـ(غاز). وفي العاشرة، مضى في الردهة إلى الغرفة الصفراء التي يقف جالوتٌ ما ديدبانًا على بابها.

منذ عام 1930، ظلّ الكونت وأوسيب يتناولان العشاء معًا في السبت الثالث من الشهر من أجل تعزيز فهم الكولونيل السابق بالجيش الأحمر للغرب.

بعد أن خصَّصا السنوات العديدة الأولى لدراسة الفرنسيين (بما في ذلك ما يستخدمونه من مصطلحات، وصِيَغ مخاطبة، وشخصيات نابليون وريشيليو وتاليران، وجوهر التنوير، وعبقرية الانطباعيّة، وجدارتهم السائدة لـجو ني سيه كوا[*])، قضى الكونت وأوسيب السنوات القليلة التالية في دراسة البريطانيين (بما في ذلك ضرورة تناول الشاي، والقواعد غير المنطقية للكريكت، وآداب صيد الثعالب، واعتزازهم العنيد، والمستحق، بشكسبير، والأهمية الفائقة وأسعة النطاق للحانة). لكن مؤخرًا، كانا قد حوَّلا انتباههما إلى الولايات المتحدة.

وهكذا، تلك الليلة، على الطاولة بجوار صحونهما شبه الخالية، كانت نسختان من تحفة ألِكسي دو توكفيل، «الديمقراطية في أمريكا». كان أوسيب قد شَعَر بقدرٍ من الفزع لضخامة العمل، لكن الكونت أكد

(*) جو ني سيه كوا *je ne sais quoi*: لا أعرف ماذا (بالفرنسية في الأصل). (المترجم)

له أنه ما من نصّ أفضل لتأسيس فهم جوهريٍّ للثقافة الأمريكية. هكذا، سهر الكولونيل السابق الليالي لثلاثة أسابيع ووصل إلى الغرفة الصفراء بلهفةِ تلميذٍ استعدّ جيدًا للحصول على شهادة البكالوريا. وبعد أن اتفق مع الكونت في شغفه بليالي الصيف، وردّد إطراءه على الـصوص أُو بوافر، وشاركه تقديره لنكهة نبيذ الكلاريت، كان أوسيب يتحرّق شوقًا لبدء العمل.

قال: «إنه نبيذ طيّب حقًا، ولحم طيّب، وليلة صيفية طيّبة. لكن أليس علينا أن نُحوّل انتباهنا إلى الكِتاب؟».

قال الكونت، وهو يضع كأسه: «نعم. بالتأكيد. دعنا نحوّل انتباهنا إلى الكِتاب. لماذا لا تبدأ أنت...».

«طيّب. أولًا، علي أن أقول إنه ليس ‹نداء البرّيّة›».(*)

قال الكونت بابتسامة: «لا. إنه بالتأكيد ليس ‹نداء البرّيّة›».

«ويجب أن أقرَ أنه رغم تقديري لعناية دو توكفيل بالتفاصيل، فإنني إجمالًا أجد الجزء الأول، حول النظام السياسي الأمريكي، بطيء الإيقاع للغاية».

أومأ الكونت برأسه بحكمة: «نعم. ربما يحقُّ تمامًا وصْف الجزء الأول بأنه مفصَّل إلى حد بعيد...».

«لكنني وجدت الجزء الثاني - حول سمات مجتمعهم - مذهلًا جدًّا».

«في هذا، لستَ وحدك».

«الحقيقة، منذ السطر الأول... انتظر. أين هو؟ ها نحن: **في ظنّي، ليس مِن بلد واحد في العالم المتحضّر يولّى فيه انتباه أقل للفلسفة من الولايات المتحدة**. ها! هذا يجب أن يخبرنا بشيء أو اثنين».

قال الكونت بضحكة خافتة: «صحيح جدًّا».

(*) نداء البريّة: رواية Call of the Wild لـ«جاك لندن». (المترجم)

«وهنا. بعد بضعة فصول، يشير إلى شغفهم غير العادي بالرخاء المادي. يقول إن عقول الأمريكان، **مشغولةٌ على وجه العموم بتلبية كل احتياجٍ من احتياجات الجسد والإقبال على أسباب الراحة الصغيرة في الحياة**. وهذا كان عام 1849. تخيّل لو زارهم في العشرينيات!».

«ها. زارهم في العشرينيات. ملاحظة جيدة يا صديقي».

«لكن قل لي يا ألكسندر: ماذا نفهم نحن من هذا التأكيد على أن الديمقراطية تتوافق مع الصناعة على وجه الخصوص؟».

أرجع الكونت ظهره في كرسيه وأخذ يحرك أدوات المائدة على الطاولة.

«نعم. سؤال الصناعة. هذه نقطة ممتازة للنقاش يا أوسيب. في قلب الموضوع. ماذا تفهم أنت من ذلك؟».

«لكنني كنت أسألك ماذا فهمتَ أنت يا ألكسندر».

«وستسمع رأيي حتمًا. لكن بوصفي معلِّمك، سيكون تقصيرًا مني أن أشوّه انطباعاتك قبل أن تسنح لك الفرصة لتشكيلها بنفسك. لذا دعنا نبدأ بأفكارك الطازجة».

تفحّص أوسيب الكونت، الذي مدّ يده بدوره إلى كأس نبيذه.

«ألكسندر... أنت قرأتَ الكتاب...».

أكد الكونت وهو يضع كأسه: «بالطبع قرأتُ الكتابَ».

«أقصد، هل قرأت الجزأين- حتى الصفحة الأخيرة».

«أوسيب، يا صديقي، من قواعد الدراسة الأكاديمية أن قراءة الدارس للعمل كلمة بكلمة لا يهم بقدر قدرته على تأسيس تآلف معقول مع مادته الجوهريّة».

«وإلى أي صفحة يمتد تآلفك المعقول في هذا العمل خصوصًا؟».

«احم»، قال الكونت، وفتح فهرس المحتويات. «دعني أرى الآن... نعم، نعم، نعم». رفع رأسه إلى أوسيب. «سبعة وثمانون؟».

تأمّل أوسيب الكونت لحظة. ثم تناول دو توكفيل وألقاه عبر الغرفة. ارتطم المؤرخ الفرنسي برأسه في صورة مؤطَّرة للينين وهو يتحدث أمام حشد في ميدان المسرح، فحطَّم زجاجها وأسقطها على الأرض بلطمةٍ. انفتح باب الغرفة الصفراء بقوة وقفز جالوت إلى الداخل وقد سحب سلاحه الناري.

«يا لطيف!»، صاح الكونت وهو يرفع يديه فوق رأسه.

أما أوسيب، الذي كان على وشك أن يأمر حارسه الشخصي بإطلاق النار على مُعلّمه، فسحب نفَسًا عميقًا، ثم هز رأسه ببساطة.

«لا بأس يا فلاديمير».

أومأ فلاديمير مرّة وعاد إلى موقعه في الردهة.

طوى أوسيب يديه على الطاولة ونظر إلى الكونت، في انتظار توضيح.

قال الكونت في حرج حقيقي: «أنا آسف. كان في نيتي أن أنهيه يا أوسيب. في الحقيقة، كنت قد أفرغت جدول مهامي ليلة أمس لكي أقرأ البقية، عندما... حدثت ظروف».

«ظروف».

«ظروف غير متوقَّعة».

«ما نوع الظروف غير المتوقَّعة».

«آنسة صغيرة».

«آنسة صغيرة؟».

«ابنة صديقة قديمة. ظهرت من العدم، وستمكث معي لبرهة».

نظر أوسيب إلى الكونت وكأنه مصعوقٌ، ثم أطلق ضحكة.

«مرحى، مرحى، مرحى. ألكسندر إلييتش. آنسة صغيرة تمكث معك. لماذا لم تقل ذلك؟ أنت في حلٍّ تمامًا، أيها الثعلب العجوز. أو على الأقل، إلى حدٍّ كبير. سنأخذ دو توكفيل، بعد إذنك؛ وستقرأه أنت إلى النهاية. لكن في الوقت الحالي، لا تتركني أستبقيك ثانيةً أخرى. الوقت

لم يتأخر كثيرًا بعدُ على بعض الكافيار في الشاليابين. ثم تستطيع خطفَها إلى البياتسا من أجل رقصة صغيرة».

«في الحقيقة... هي آنسة صغيرة جدًّا».

«صغيرة إلى أي حد؟».

«في الخامسة أو السادسة؟».

«في الخامسة أو السادسة!».

«سأقول من المؤكَّد تقريبًا أنها في السادسة».

«تستضيف فتاة من المؤكد تقريبًا أنها في السادسة».

«نعم...».

«في غرفتك».

«بالضبط».

«حتى متى؟».

«بضعة أسابيع. ربما شهر. لكن ليس أكثر من شهرين...».

ابتسم أوسيب وأومأ برأسه.

«فهمتُ».

اعترف الكونت: «لأكون أمينًا تمامًا، فقد سبَّبت زيارتها حتى الآن قدرًا من الارتباك لروتيني اليومي. لكنّ هذا كان متوقَّعًا، أظن، باعتبار أنها وصلَت لتوّها. فور أن نقوم ببعض التعديلات الصغيرة وتتوفر لها فرصة التأقلم، لا بُد أن يعود كل شيء ليمضي دون عقبات».

وافقه أوسيب: «بلا شك. في غضون ذلك، لا تدعني أعطلك».

واعدًا بقراءة نسخته من دو توكفيل قبل اجتماعهما التالي، استأذن الكونت في الانصراف وانسلّ خارجًا من الباب بينما تناول أوسيب زجاجة الكلاريت. وإذ وجدها خاوية، مدّ يده فوق الطاولة وأخذ كأس الكونت غير المنتهية وصبّها في كأسه.

هل تذكَّر تلك الأيام عندما كان أطفاله، من المؤكّد تقريبًا، في السادسة؟ أيام كانت تتناهى دقدقات في الأروقة قبل الفجر بساعة؟ أيام بدا كلُّ غرضٍ أصغر من التفاحة يختفي دون أثر، إلى أن يظهر فجأة تحت الأقدام؟ أيام كانت الكتب تظلّ بلا قراءة، والخطابات بلا ردود، وكل الأفكار لا تصل إلى منتهاها؟ لقد تذكّر تلك الأيام وكأنها الأمس.

قال ثانيةً بابتسامة على وجهه: «بلا شك. فور أن يقوما ببعض التعديلات الصغيرة، لا بُد لكل شيء أن يعود ليمضي دون عقبات...».

★ ★ ★

كان الكونت عمومًا يرى أن الرجال الناضجين لا يصحّ أن يركضوا في الردهات، لكن عندما ترك أوسيب كانت الساعة تقترب من الحادية عشرة، وكان قد استغل سجيّة مارينا الطيبة بأكثر مما يكفي. وهكذا، في استثناء لهذه المرة فقط، انطلق يركض في الردهة، وانعطف حول الزاوية، فارتطم مباشرة برجل ذي لحية مشعَّثة كان يسير عند رأس السلّم.

«ميشكا!».

«آه. ها أنت يا ساشا».

لحظةَ تعرَّف الكونت على صديقه القديم، كانت أول فكرة راودته أنه مضطر إلى أن يتركه لحال سبيله. فماذا يفعل غير ذلك؟ لا يوجد أمامه خياران.

لكن عندما ألقى نظرة متفحصة على وجه ميشكا، عرف أن ذلك مستحيل. كان واضحًا أن شيئًا مهمًّا قد حدث. وهكذا، بدلًا من أن يتركه الكونت لحال سبيله، قاده عائدَيْن إلى مكتبه حيث، بعد أن جلسا، قَلَب ميشكا قبعته في يديه.

بعد لحظة صمت قصيرة، بادره الكونت: «ألم يكن مقرَّرًا أن تصل إلى موسكو غدًا؟».

قال ميشكا وهو يلوّح بقبعته بلا مبالاة: «نعم. لكنني جئت يومًا أبكَر بناء على طلب شالاموف...».

كان فيكتور شالاموف، وهو أحد أصحابهما من أيام الجامعة، يعمل الآن مسؤول تحرير في «غوسليتزدات». كانت فكرته أن يجعل ميشكا يحرِّر الأجزاء المجمَّعة من رسائل أنطون تشيخوف- وهو المشروع الذي ظل ميشكا يكدح فيه كالعبيد منذ عام 1934.

قال الكونت مبتهجًا: «آه. لا بُد أنك أوشكت على الانتهاء».

ردّد ميشكا ضاحكًا: «أوشكتُ على الانتهاء. أنت محق تمامًا يا ساشا. لقد أوشكتُ على الانتهاء. الحقيقة لم يتبقَّ لي إلا أن أحذف كلمة».

وهذا ما تبيَّن:

في وقت مبكر من ذلك الصباح، كان ميخائيل مِنديتش قد وصل إلى موسكو في قطار ليلي من لينينغراد. كانت بروفات الكتاب في طريقها إلى المطبعة، وكان شالاموف قد قال إنه يريد اصطحاب ميشكا إلى «دار الكُتّاب المركزية» لحضور غداء احتفالي. لكن عندما وصل ميشكا إلى غرفة استقبال الناشر قُبيل الواحدة، طلب منه شالاموف أن يرجع معه إلى مكتبه.

فور جلوسهما، هنّأ شالاموف ميشكا على حُسن إنجازه لمهمته. ثم ربّت على البروفات التي لم تكن، كما تبيّن، في طريقها إلى المطبعة، بل تقبع هناك أمام مكتب المحرّر.

قال شالاموف إنها كانت وظيفة تحتاج إلى دقّة بالغة ومعرفة واسعة؛ وهي تُعدّ قدوةً تُحتذى في مجال البحث الأكاديمي. لكن كان هناك أمر واحد صغير يحتاج إلى معالجة قبل الطباعة. كان الأمر يتعلّق بعملية حذف في الرسالة السادسة المؤرخة بيونيو 1904.

كان ميشكا يعرف هذه الرسالة جيدًا. إنها مكتوبٌ يفيض حلاوةً ومرارةً صاغه تشيخوف لشقيقته، ماريا، يتنبأ فيه بالتعافي التام قبل موته ببضعة

أسابيع لا أكثر. أثناء تنضيد الحروف، لا بُد أن كلمةً قد سقطت- وهو ما يوضح أنك مهما راجعت وأعدت المراجعة، لن تقبض أبدًا على كل خطأ.

قال ميشكا: «دعنا نرى».

«هاكَ»، قالها شالاموف، وهو يدير البروفة لكي يستطيع ميشكا الاطّلاع على الخطاب بنفسه.

برلين،
6 يونيو 1904

عزيزتي ماشا،

أكتب إليك من برلين، قضيتُ يومًا كاملًا هناك. لقد صار الطقس شديد البرودة في موسكو، بل وهطلَت الثلوج بعد مغادرتك؛ لا بُد أن الطقس السيء أصابني بنزلة برد، بدأتُ أشعر بآلام روماتزميّة في ذراعَيّ وساقيّ، ولم أستطع النوم ليلًا، وفقدتُ قَدرًا كبيرًا من وزني، وحُقنت بالمورفين، وتناولتُ ألفَ نوع مختلف من الأدوية، وأتذكر بامتنان الهيروين الذي وصفه لي ألتشولِر ذات مرة. رغم ذلك، فمع اقتراب موعد الرحيل بدأتُ أستعيد صحتي. عادت إليّ شهيّتي، وبدأتُ أَحقن نفسي بالزرنيخ، إلى آخر ذلك. وأخيرًا، يوم الخميس غادرتُ البلاد وأنا نحيل جدًّا، بساقين عجفاوين نحيلتين جدًّا. قضيتُ رحلة جيّدة وسارّة. هنا في برلين، أخذنا غرفة مريحة في أفضل فندق. وأنا أستمتع كثيرًا بالحياة هنا ولم آكل جيّدًا هكذا وبهذه الشهيّة منذ وقت طويل. الخبز هنا رائع، أحشو بطني به حشوًا، والقهوة ممتازة، والطعام يفوق الوصف. الناس الذين لم يسافروا إلى الخارج قَط لا يعرفون كم يمكن للخبز أن يكون لذيذًا. لا يوجد هنا شايٌ لائق (معنا شاينا الخاص) ولا أي من مُقبِّلاتنا، لكن كل شيء آخر بديع، حتى وإن كان أرخص هنا من روسيا. لقد ازداد وزني قليلًا بالفعل، واليوم، برغم البرودة في الهواء، أخذتُ العربة لمسافة طويلة حتى متنزه

الـ«تيرغارتن». وهكذا يمكنك إخبار أمي وكل من يهمه الأمر أنني في طريقي إلى التعافي، أو إنني تعافيت بالفعل... إلخ، إلخ.

المخلص،
أ. تشيخوف

قرأ ميشكا المقطع مرة، ثم قرأه ثانية وهو يستدعي في عين رأسه صورة الخطاب الأصلي. بعد أربع سنوات، صار يحفظ معظم الخطابات عن ظهر قلب. لكن رغم محاولاته، لم يستطع التعرّف على الفرق.

سأل، أخيرًا: «ما المفقود؟».

«أوه»، قالها شالاموف، بنبرة شخص أدرك فجأة سوء فهم بسيط بين صديقين. «ليس هناك شيء مفقود. إنما هو شيء يجب أن يُحذَف. هنا».

مدّ شالاموف يده فوق المكتب ليشير إلى الأسطر التي تحدّث تشيخوف فيها عن انطباعاته الأولى عن برلين، وتحديدًا مديحه لخبزهم الرائع، وملاحظاته عن أن الروس الذين لم يسافروا لن يعرفوا كيف يمكن أن يكون الخبز لذيذًا.

«هذا الجزء يجب أن يُحذَف؟».

«نعم. هذا صحيح».

«بمعنى يُشطَب نهائيًّا».

«من فضلك».

«ولماذا، إذا سمحتَ لي بالسؤال؟».

«من أجل التكثيف».

«أي لتوفير الورق! وفور أن أحذف هذا المقطع الصغير من خطاب السادس من يونيو، أين تريدني أن أضعه؟ في البنك؟ في دُرج ملابس؟ في مقبرة لينين؟».

فيما كان ميشكا يحكي هذا الحوار للكونت، كان صوته يزداد علوًّا، وكأن إحساسه بالغضب قد تجدد؛ لكنه فجأة لاذ بالصمت.

تابع بعد لحظة: «بعدها يقول شالاموف، شالاموف هذا، صاحبنا أيام الشباب، يقول لي إنه لا يهمه إن أنا أطلقتُ المقطعَ من مدفع، لكنه يجب أن يُحذف. وهكذا، تعرف ماذا فعلت يا ساشا؟ هل تتخيل؟».

قد يصل المرء إلى استنتاج، أن الرجل الميّال إلى السير بلا توقف هو رجل يتصرف بحصافة- باعتبار أنه يخصص وقتًا طويلًا للتفكير في الأسباب والنتائج، في التصويبات والتبعات. لكن الكونت كان يعرف بالخبرة أن الرجال الميّالين إلى السير بلا توقف يقفون دائمًا على حافة التصرف بانفعالية. صحيحٌ أن الرجال الذين يسيرون بلا توقف يخضعون للمنطق، ولكنه منطق متعدد الوجوه، لا يُقرِّبهم من فهم واضح، أو حتى حالة من القناعة. عوضًا عن ذلك، يتركهم في ضياع يجعلهم مكشوفين أمام تأثير أوهَى نزوة، أمام غواية الفعل الطائش أو المتهور- تقريبًا كَمَنْ لم يفكِّر في الأمر على الإطلاق.

اعترف الكونت بقدر من التوجس: «لا يا ميشكا. لا أتخيل. ماذا فعلتَ؟».

مرّر ميشكا يدًا على جبهته.

«ما الذي يُفترض أن يفعله المرء عندما يواجه جنونًا كهذا؟ لقد شطبتُ المقطع. ثم خرجتُ من الغرفة دون كلمة».

لدى سماع هذه الخاتمة، شعر الكونت بارتياح كبير. ولولا هيئة الهزيمة البادية على صديقه القديم، لربما ابتسم حتّى. إذ يجب الاعتراف بأن ثمة شيئًا كوميديًا حقًا في ما حدث. كان يمكن أن تكون قصة من قصص غوغول يلعب فيها شالاموف دور مستشار ملكيّ بَدِين، متباهٍ بمنصبه. والمقطع المسيء، بعد أن يسمع مصيره الوشيك، ربما قفز من نافذةٍ وركض في زقاقٍ ولم يَعد يُسمَع عنه ثانية- إلى أن ظَهَر بعدها بعشر سنوات على ذراع كونتيسة فرنسية، تضع نظارةً بلا ذراعين وتتزيّن بوسام جوقة الشرف.

لكن الكونت حافظ على تعبيرٍ رصين.

واساهُ قائلًا: «لقد كنت محقًّا تمامًا. إنها مجرد جُملٍ قليلة. خمسين كلمة بين مئات الآلاف».

أشار الكونت إلى أن ميخائيل، في الحساب الختامي، لديه كثير مما يستحق الفخر. إذ كان التجميع الموثوق لخطابات تشيخوف عملًا طال انتظاره. عملٌ من شأنه أن يُلهِم جيلًا جديدًا كاملًا من الباحثين والطلاب، من القراء والكتّاب. وشالاموف؟ بأنفه الطويل وعينيه الصغيرتين، لطالما وجده الكونت يشبه النِمس، ولا يجب على المرء أن يترك نِمسًا يُفسد إحساسه بالإنجاز، أو استحقاقه للاحتفال.

اختتم الكونت بابتسامة: «اسمع يا صديقي. لقد وصلتَ في قطار الليل وفاتَك الغداء. هذه هي نصف المشكلة. عُد إلى فندقك. خُذ حمّامًا. كل شيئًا واشرب كأسًا من النبيذ. احصل على نوم هانئ. ثم غدًا ليلًا، سنلتقي في الشاليابين كما كان مقررًا، ونرفع كأسًا في صحة الأخ أنطون، ونضحك كثيرًا على حساب النِمس».

على هذا النحو، حاول الكونت أن يريح صديقه القديم، أن ينتشل معنوياته الغارقة، وأن يدفعه بلطف ناحية الباب.

في الساعة 11:40، نزل الكونت أخيرًا إلى الطابق الأرضي وطرقَ باب مارينا.

عندما فتحت الخيّاطة الباب، قال هامسًا: «آسف على التأخير. أين صوفيا؟ أستطيع أن أحملها إلى أعلى».

«لا داعِ للهمس يا ألكسندر. إنها مستيقظة».

«أبقيتِها مستيقظة!».

ردّت مارينا بحدّة: «لم أُبقي أي شخص بأي حال. لقد أصرَّت على انتظارك».

خطا الاثنان إلى الداخل، حيث كانت صوفيا تجلس على كرسي

وظهرها كامل الاعتدال. لدى رؤية الكونت، قفزَت إلى الأرض، وسارت لتقف بجانبه، وأمسكت يده.

رفعَت مارينا حاجبًا، وكأنما تقول: **هل ترى...**

رفع الكونت حاجبيه، وكأنما ليرد: **تخيّلي...**

قالت صوفيا للخيّاطة: «شكرًا على العشاء يا عمّة مارينا».

«شكرًا على مجيئك يا صوفيا».

رفعَت صوفيا رأسها إلى الكونت.

«هل نذهب الآن؟».

«بالتأكيد يا عزيزتي».

عندما تركا غرفة مارينا، لاحظ الكونت أن صوفيا الصغيرة مستعدة للذهاب إلى الفراش. دون أن تترك يده، قادته مباشرة إلى البهو، إلى داخل المصعد، وضغطت زر الطابق الخامس وهي تأمره: **بريستو!** عندما وصلا إلى سلّم البُرج، بدلًا من أن تطلب منه حملها، جرَّته فعليًّا ليصعدا الطابق الأخير من السلم. وعندما عَرَض عليها التصميم العبقري لسريرهما الجديد ذي الطابقين، لم تلتفِت للأمر كثيرًا. بدلًا من ذلك، سارعت في الردهة لتفرِّش أسنانها وترتدي قميص نومها.

لكن عندما عادت من الحمّام، بدلًا من الاندساس تحت الأغطية، صعدَت إلى كرسي المكتب.

سألها الكونت مندهشًا: «ألستِ جاهزة للنوم؟».

أجابته وهي ترفع يدًا لتُسكته: «انتظر».

ثم مالت قليلًا إلى اليمين لكي تنظر حول جذعه. متحيّرًا، تنحى الكونت جانبًا واستدار- في اللحظة المناسبة ليرى عقرب الدقائق واسع الخطى يلحق بشقيقه عقرب الساعات مقوَّس الساق. عندما تعانق الشقيقان، انحلَّت النوابض، ودارت التروس، وبدأت المطرقة الـمُنمْنمَة للساعة مزدوجة الدقات تشير إلى بلوغ منتصف الليل. أنصتت صوفيا

وهي جالسة في سكونٍ تامٍّ. ثم، مع الدقَّة الثانية عشرة الأخيرة، قفزت نازلة عن الكرسي وصعدَت إلى السرير.

قالت: «تصبح على خير يا عمُّ ألكسندر»؛ وقبل أن يُحكم عليها الكونت الغطاء، كانت قد غطَّت في النوم.

★ ★ ★

كان يومًا طويلًا على الكونت. واحدًا من أطول الأيام في ذاكرته. على حافة الإنهاك، فرَّش أسنانه وارتدى منامته سريعًا تقريبًا مثلما فعلت صوفيا. ثم عاد إلى غرفة نومه، وأطفأ النور واستلقى على المرتبة تحت الهيكل الحديدي الزنبركي لسرير صوفيا. صحيحٌ أن مرتبة الكونت لم تكن تتمتع بهيكل حديدي هي ذاتها، وصحيحٌ أن سرير صوفيا مرفوع على أعمدة من صفائح الطماطم المعلّبة المتراصّة فوق بعضها البعض، وبارتفاعٍ لا يَسمح للكونت- إلا بالكاد- بأن يَنقلب على جنبه؛ لكنه كان تحسنًا ملحوظًا مقارنة بالنوم على الأرض الخشبية الجامدة. لذا، بعد أن قضى يومًا كان أبوه ليفخر به، أن سمع أنفاس صوفيا الرقيقة، أغمض الكونت عينيه واستعد لكي ينجرف في نوم بلا أحلام. لكن، واحسرتاه، لم يأتِ النوم بسهولة لصديقنا المنهَك.

مثل رقصة الـ«ريل» الفولكلورية، حيث يقف الراقصون في صفَّيْن متواجهين، ثم يخرج أحدهم من الصفّ متقافزًا بمرح وبهجة، سيتقدّم أحد هواجس الكونت، وينحني أمامه انحناءة مسرحية ويراقصه، ثم يرجع للوقوف في آخر الصفّ ليفسح المجال للراقص التالي.

فماذا كانت هواجس الكونت بالضبط؟

كان قلِقًا بشأن ميشكا. فرغم أنه كان قد تنفس الصعْداء حين اكتشف أن بؤس صديقه ناتجٌ عن حذف أربع جُمل من الثلاثمئة صفحة المكوِّنة

للجزء الثالث، لم يستطع أن يمنع نفسه من الشعور بنوع من التطيُّر أن مسألة الكلمات الخمسين لم تنقضِ إلى غير رجعة...

كان قلِقًا بشأن نينا ورحلتها إلى الشرق. لم يكن الكونت قد سمع كثيرًا عن سيفُستلاغ، لكنه يعرف عن سيبيريا ما يكفيه لاستيعاب قسوة الطريق الذي اختارته نينا لنفسها...

كان قلِقًا بشأن صوفيا الصغيرة- لا على تقطيع شريحة لحمها أو تغيير ملابسها أو تلك الأمور البسيطة. بل لأنه لا يمكن لفتاة صغيرة أن تظل طويلًا في المتروبول، وتتردد على البياتسا لتناول الطعام، وتستقل المصعد إلى الطابق الخامس، دون أن يلاحظها أحد. صحيحٌ أن صوفيا لن تمكث مع الكونت إلا بضعة أسابيع، لكن يظل احتمالٌ قائمٌ أن يعرف موظفٌ بيروقراطيٌّ ما بإقامتها ويمنعها.

وأخيرًا، لنكون صريحين تمامًا، نُضيف أن الكونت كان قلقًا منذ الصباح التالي- عندما، بعد أن تقضم بسكويتها وتَسرق حبّات الفراولة الخاصة به، ستتسلّق صوفيا مقعده ثانية وتنظر إليه بعينيها الزرقاوين الداكنتين.

عندما تكون حياتنا في حالة جيشان، ورغم ما توفّره لنا أسرَّتنا من راحة، ربما نُضطر إلى البقاء مستيقظين نصارع مخاوفنا- لا يهم كبيرة كانت أم صغيرة، حقيقية أم متخيَّلة. مع ذلك، كان لدى الكونت روستوف سبب حقيقي للقلق على صديقه القديم ميشكا.

عندما غادر ميخائيل مِنديتش المتروبول في وقت متأخّر من ليلة الحادي والعشرين من يونيو، التزم بنصيحة الكونت حرفيًا. ذهب إلى فندقه مباشرة، وتحمَّم، وأكل، واندسّ في الفراش راجيًا نومًا هانئًا. وعندما استيقظ، راجع حوادث اليوم السابق بنظرة أكثر موضوعية.

في ضوء الصباح، رأى أن الكونت كان محقًّا تمامًا- إنها مجرد

خمسين كلمة. وشالاموف لم يطلب منه أن يحذف السطور الأخيرة من «بستان الكرز» أو «النورس». كانت فقرةً قد تظهر في مراسلات أي مسافر إلى أوروبا، ولعلّ تشيخوف نفسه، على الأرجح، صاغها دون تفكير.

لكن بعد أن ارتدى ميشكا ثيابه وتناول إفطارًا متأخرًا، عندما توجّه إلى «دار الكُتّاب المركزية»، تصادف مروره من أمام تمثال غوركي في ميدان أرباتسكايا، حيث كان ينتصب تمثال غوغول الجهِم في سابق الأيام. بخلاف ماياكوفسكي، كان مكسيم غوركي البطل المعاصر الأعظم بالنسبة لميشكا.

قال ميشكا لنفسه (وهو يقف في منتصف الرصيف متجاهلًا المارة): «هاكَ رجلٌ كتبَ ذات مرة على نحو مباشر شديد الطزاجة، ودون سنتمنتالية، أن ذكرياته عن الشباب أصبحت ذكرياتـنا عن الشباب».

لكن بعد أن استقر في إيطاليا، استدرجه ستالين لكي يعود إلى روسيا عام 1934 ووضعه في قصر ريابوشنسكي- لكي يستطيع أن يترأس مؤسسة «الواقعية الاشتراكية» كأسلوب فني وحيد لعموم الشعب الروسي...

«وماذا كانت نتيجة ذلك؟»، وجَّه ميشكا سؤاله للتمثال.

فشلٌ ذريع. لم يَكتب بولغاكوف كلمة واحدة منذ سنوات. وهجَرَت أخماتوفا قلمها. وماندِلستام؟ بعد أن قضى عقوبته بالفعل، يبدو أنه اعتُقل ثانية. وماياكوفسكي؟ أوه، ماياكوفسكي...

جذب ميشكا شعرات لحيته.

قديمًا في عام 1922، كَم كان جريئًا حين تنبأ لساشا أن هؤلاء الأربعة سوف يجتمعون معًا لصياغة شِعرٍ جديدٍ لروسيا. وقد كانت نبوءة بعيدة المنال، ربما. لكن في النهاية، كان ذلك ما فعلوه بالضبط. لقد خلقوا شِعرَ الصمت.

قال ميشكا: «نعم، الصمت يمكن أن يكون رأيًا. الصمت يمكن أن

يكون شكلًا من أشكال الاحتجاج. يمكن أن يكون وسيلةً للبقاء. لكن يمكن أيضًا أن يكون مدرسة شعرية- مدرسة لها أوزانها، واستعاراتها، وتقاليدها الخاصة. مدرسة لا تحتاج لأن تُكتب بأقلام الرصاص أو الحبر؛ وإنما يمكن أن تُكتب في الأرواح بمسدس موجَّه إلى الصدر».

على هذا، أدار ميشكا ظهره لمكسيم غوركي و«دار الكُتَّاب المركزية»، وذهب عوضًا عن ذلك إلى مكاتب «غوسليتزدات». هناك، صعد السلالم، ومرّ من أمام موظف الاستقبال، وفتح بابًا بعد باب حتى وجد النِمس في غرفة اجتماعات، يترأس اجتماعًا تحريريًّا. في مركز الطاولة كانت صحونٌ من الجبن والتين والرِنْكة المقدَّدة، منظرُها وحده، لسبب غير مفهوم، أشعل الغضب في صدر ميشكا. استدار صغار المحررين ومساعدي المحررين عن شالاموف ليروا من ذا الذي اقتحم الباب، كلهم يافعون وجادُّون- وهي حقيقة زادت ميشكا اهتياجًا.

صرخَ قائلًا: «رائع! أرى أنكم استللتُم سكاكينكم. ماذا ستقطعون اليوم إلى نصفين؟ ‹الأخوة كارمازوف›؟».

قال شالاموف مصدومًا: «ميخائيل فيودوروفيتش!».

«ما هذا؟»، صاح ميشكا، وهو يشير إلى امرأة شابة تصادف أنها تمسك بيدها شريحةَ خبز فوقها قطعة رنكة. «هل هذا الخبز من برلين؟ حذارِ يا رفيقة. إذا تناولتِ قضمةً واحدة، سيضعك شالاموف في مدفع ويطلقك كقذيفة».

رأى ميشكا أن الفتاة الشابة ظنَّته مجنونًا؛ لكنها أعادت قطعة الخبز إلى الطاولة بأي حال.

«أها!»، صاح ميشكا وكأنما أثبَت حُجته بالدليل القاطع...

نهض شالاموف عن كرسيه، هائج الأعصاب وقلقًا في آن.

قال: «ميخائيل. واضح أنك مستاء. سيسعدني الحديث معك لاحقًا في مكتبي عن أي شيء يدور في عقلك. لكن كما ترى، نحن في وسط اجتماع. وما زالت أمامنا ساعات من العمل...».

«ساعات من العمل. هذا ما لا أشكّ فيه».

بدأ ميشكا يعدِّد أعمال اليوم، ومع كل بند يتناول مخطوطًا من أمام أحد الموظَّفين ويرميه عبر الغرفة باتجاه شالاموف.

«هناك تماثيل يجب نقلها! سطور يجب حذفها! وفي الخامسة، لا يجب أن تتأخر عن حمّامك مع الرفيق ستالين. لأنك إن تأخرت، من سيكون هناك ليفرُك ظهره؟».

قال شاب ذو نظّارة: «إنه يهذي».

وتوسل إليه شالاموف: «ميخائيل».

صرخ ميشكا مختتمًا كلامه: «مستقبل الشِّعر الروسي هو الهايكو!»، ثم برضا شديد، صَفَع الباب في طريقه إلى الخارج. في الحقيقة، شعر برضًا بالغ لهذه الإيماءة، حتى إنه راح يصفع كل باب يقف بينه وبين الشارع في الأسفل.

وماذا، لنستعير عبارته، كانت نتيجة ذلك؟

في غضون يوم، كانت خلاصة تعليقات ميشكا قد نُقلت إلى السلطات؛ وفي غضون أسبوع، سُطِّرت كلمة بكلمة. وفي أغسطس، دُعي إلى مكاتب «مفوضيّة الشعب للشؤون الداخلية» في لينينغراد للاستجواب. وفي نوفمبر، مَثَل أمام إحدى اللجان الثلاثية المميزة لذلك العصر في محاكمة استثنائية. وفي مارس عام 1939، كان على متن قطار متّجه إلى سيبيريا سارحًا في ملكوت إعادة التفكير في ما مضى.

...

ولعلّ الكونت كان مصيبًا في قلقه على نينا، وإن كنا لن نعرف على وجه اليقين قَط- لأنها لم ترجع إلى المتروبول في غضون الشهر، ولا في غضون العام، ولا بعد ذلك أبدًا. في أكتوبر، بذل الكونت بعض المساعي لاكتشاف مكانها، وكانت جميعها عقيمة. يَفترض المرءُ أن نينا بذلت مساعيها الخاصة للتواصل مع الكونت، لكن ما مِن كلمة لاحت في الأفق، واختفت نينا كوليكوفا ببساطة وسط الشرق الروسي الشاسع.

كذلك كان الكونت مصيبًا في قلقِه من أن تلفت صوفيا الانتباه. فوجودها لم يُلاحَظ فحسب، بل وأُرسِل، في غضون أسبوعين من وصولها، خطابٌ إلى مكتب إداريّ ما داخل الكرملين يقول إن «الشخص السابق» الذي يعيش قيد الإقامة الجبرية في الطابق الأخير من فندق المتروبول يعتني بطفلة في الخامسة مجهولة الأبوين.

لدى تلقِّي هذا الخطاب، قُرِأ بعناية، وخُتِم، ومُرِّرَ إلى مكتب أعلى- حيث زُيِّن بختم آخر، وأُرسِل إلى أعلى لطابقين آخرين. وهناك، وصل إلى ذلك المكتب حيث يمكن، بجرّة قَلم، إرسال مشرفاتٍ من دار الأيتام الحكومية.

مع ذلك، فقد صادف أن قادت مراجعةٌ خاطفةٌ لعلاقات هذا «الشخص السابق» الأخيرة إلى ممثلة ممشوقة ما- ظلّت لأعوام خليلةً مزعومةً لمفوَّض مستدير الوجه عُيِّنَ مؤخرًا في المكتب السياسي. بين جدران مكتب صغير كالح في فرع حكومي شديد البيروقراطية، يصعب تخيّل العالم الخارجي بدقّة، إنما لا يصعب قَط تخيّل ما الذي قد يحدث لمسيرة المرء المهنية إذا قبضَ على الابنة غير الشرعية لعضو في المكتب السياسي ووضعها في ملجأ. سوف تكافأ هكذا مبادرة بعِصابةٍ على العينين وسيجارة [كأمنية أخيرة قبل الإعدام].

نتيجة لذلك، اكتُفي باستفسارات بالغة السرية. وتم التوصل إلى مؤشرات تقول إن ثمة احتمالًا كبيرًا أن تكون تلك الممثلة قد أقامت علاقة غرامية مع عضو المكتب السياسي لستة أعوام على الأقل. علاوة على ذلك، أكد أحد موظفي الفندق أنه يوم وصول الفتاة الصغيرة إلى الفندق، كانت الممثلة مقيمةً هناك. وهكذا، وُضِعت كل المعلومات التي جُمعت في سياق التحقيق في مكتبٍ بقفل ومفتاح (إذ ربما تُفيد ذات يوم). بينما أُشعلت النار في الخطاب الصغير الخبيث- الذي دشّن الاستقصاء في المقام الأول- وأُلقي في صفيحة القمامة حيث ينتمي.

إذًا، نعم، كانت لدى الكونت أسبابٌ وجيهة للقلق بشأن ميشكا، ونينا، وصوفيا. لكن أكان قلقه تجاه الصباح التالي قائمًا على أساس؟

كما تَبيَّن، فور أن رتّبا فراشيْهما وقَضَما بسكويتهما، تسلقت صوفيا كرسي المكتب بالفعل؛ لكن بدلًا من التحديق في الكونت مترقّبة، طَرَحَت عليه سلسلة من الأسئلة الإضافية عن «أيدل آور» وعن عائلته، كأنما ظلّت تصوغها في نومها.

وفي الأيام التي تلت، تحوّل الرجل الذي كان قد تعلّم المباهاة بقدرته على حكاية القصص بإيجاز مع التأكيد على النقاط الأكثر جوهرية، وأصبح، بحُكم الضرورة، مُعلِّمًا في الإسهاب، والملاحظات بين قوسين، والهوامش، وأخيرا تعلَّم حتى التنبؤ باستفسارات صوفيا التي لا تنتهي قبل أن تسنح لها فرصة صوغها.



تخبرنا الحكمة الشعبية أنه حين تتداخل خيوط بَكَرَة هواجسنا فتمنعنا من النوم، يكون العلاج الأمثل أن نعُدَّ الخراف في مَرجة عشب. لكن الكونت، الذي كان يحب الضأن مغطًى بالأعشاب ومقدَّمًا مع صوص النبيذ الأحمر، اختار منهجيّة مختلفةً تمامًا. فبينما كان يُصغي لأنفاس صوفيا، عاد بذاكرته إلى لحظة استيقاظه على الأرضية الخشبية الناشفة، وعن طريق إعادة تركيب زياراته المختلفة إلى البهو، والبياتسا، والبويارسكي، وجناح آنا، والقبو، ومكتب مارينا، على نحو منهجي، حَسَب بعناية كم قَلْبَة سلّم صعدها أو نزلها على مدار اليوم. وظل يطلع وينزل بعقله، وهو يعدّ قلبةً بعد أخرى، حتى وصل، مع الارتقاء الأخير للساعة مزدوجة الدقات، إلى رقمٍ إجماليٍّ يبلغ تسعة وخمسين- وعند تلك النقطة انزلق في نوم استحقّه عن جدارة.

حاشية

«عمُّ ألكسندر...؟».

«صوفيا...؟».

«هل أنت صاحٍ يا عمُّ ألكسندر؟».

...

«أنا صاحٍ يا عزيزتي. ما الأمر؟».

«لقدتركتُ ‹عروسة› في غرفة العمّة مارينا...».

...

«آه، نعم...».

1946

يوم السبت، الحادي والعشرون من يونيو عام 1946، مع ارتفاع الشمس عاليًا فوق الكرملين، صعد رجلٌ وحيدٌ السلالم ببطء من ضفة نهر موسكوفا، ومضى حتى مرَّ بكاتدرائية سان باسيل، وشقّ طريقه إلى الميدان الأحمر.

كان يرتدي معطفًا شتويًّا رثًّا، ويؤرجح ساقه اليمنى في شبه دائرة صغيرة وهو يمشي. في زمن آخر، ربما كانت خَلْطة المعطف الرثّ والساق العرجاء ستجعل الرجل ملحوظًا في نهارٍ صيفي مشرق كهذا. لكن في عام 1946، كان العرجان الذين يرتدون ثيابًا مستعارة يسيرون في كل حيّ من أحياء العاصمة. بل، وفي كل مدينة من مدن أوروبا.

عصر ذلك اليوم، كان الميدان مزدحمًا وكأنه يوم السوق. نساءٌ في فساتين مطبوعة بالأزهار كنّ يتسكّعن تحت الممرات المقنطَرة أمام «متجر الدولة الشامل» القديم. وأمام بوابات الكرملين، كان صِبْيَة المدارس يتسلّقون دبابتين خارجتين من الخدمة بينما جنودٌ في سترات بيضاء ضيّقة يقفون حراسة على مسافات متساوية وأيديهم متشابكة بارتخاء خلف ظهورهم. ومن مدخل مقبرة لينين، يمتدّ طابور متعرّج كثعبان طوله 150 مواطنًا.

توقف الرجل ذو المعطف الرثّ للحظة ليعاين السلوك المنظَّم لأبناء المناطق القصيَّة في بلده وهم ينتظرون في الطابور. في الأمام وقف ثمانيةٌ من الأوزبِك بشوارب مدلّاة يرتدون أفضل معاطفهم الحريرية؛ بعدهم أربع فتيات من الشرق بضفائر طويلة وطواقٍ مطرَّزة بألوان زاهية؛ ثم عشرة من فلاحي الموزيك من جورجيا، وهكذا دواليك- قضاءٌ ينتظر

بصبر خلف القضاءِ التالي لتقديم الاحترام لرفات رجلٍ قَضى قبل أكثر من عشرين عامًا.

إن كنا لم نتعلم شيئًا آخر فقد تعلمنا- على الأقل- الوقوف في الطوابير، هكذا تأمّل الرجل الوحيد بابتسامة ملتوية.

بالنسبة لأجنبي، لا بُد أن روسيا بدت كأنها أرض العشرة آلاف طابور. إذ كانت ثمة طوابير في محطات الترام، طوابير أمام البقّال، طوابير أمام وكالات التوظيف، والتعليم، والإسكان. لكن في حقيقة الأمر، لم تكن تلك عشرة آلاف طابور، ولا عشرة. كانت طابورًا واحدًا شاملًا جامعًا، يلتفُّ في أرجاء البلاد ويعودُ القهقرى في الزمن. لقد كان ذلك أعظم إبداعات لينين: طابور عالمي وغير محدود، مثل البروليتاريا نفسها. وقد أسّسه بفرمان عام 1917 واتخذ بنفسه الموضع الأولِ بينما تَسابَق رفاقه للاصطفاف خلفه. واحدًا تلو آخر، اتخذ كل روسي مكانه، وطال الطابور أكثر وأكثر إلى أن شمل كل مناحي الحياة. فيه كانت الصداقات تتشكّل والغراميات تلتهب؛ كان الصبر يتربَّى؛ والتحضّر يُمارَس؛ بل وكانت الحكمة تُجنى.

وفكَّر الرجل الوحيد: إذا كان المرء مستعدًا للوقوف في طابور لثماني ساعات من أجل شراء رغيف خبز، فماذا تساوي ساعة أو ساعتين لرؤية جثمان بطلٍ بالمجان؟

مرّ بالموقع الذي كانت تنتصب فيه ذات مرة كاتدرائية كازان، ثم انعطف يمينًا ومضى في طريقه؛ لكن لدى دخوله ميدان المسرح توقّف. فبينما كانت أنظاره تنتقل من قصر النقابات، إلى البولشوي، إلى مسرح مالي، وأخيرا إلى فندق المتروبول، تعجَّب حين رأى أن أغلب الواجهات القديمة لم يمسسها أذًى.

قبل ذلك اليوم بخمس سنوات، كان الألمان قد أطلقوا «عملية

باربارو سّا»- الهجوم الذي عَبَر أثناءه أكثر من ثلاثة ملايين جندي-نُشروا من أوديسا إلى البلطيق- الحدود الروسية.

عندما بدأت العملية، قدَّر هتلر أن قوات الـ«فيرماخت» ستؤمّن روسيا في غضون أربعة أشهر. والحقيقة أن القوات الألمانية بحلول أواخر أكتوبر، وبعد الاستيلاء على مينسك، وكييف، وسمولينسك، كانت قد تقدّمت بالفعل لنحو ألف كيلومتر، وكانت تزحف نحو موسكو من الشمال والجنوب في كمَّاشة كلاسيكية. في غضون أيام، ستكون المدينة في مرمى نيران مدافعهم.

في ذلك الوقت، كان قَدْرٌ من أعمال الشغب قد اندلع في العاصمة. كانت الشوارع مزدحمة بلاجئين وجنود فارّين ينامون في مخيمات مرتجَلة ويطهون طعامًا منهوبًا فوق نيران مكشوفة. ومع بدء انتقال الحكومة إلى كُويبيشِف، لُغِّمت جسور المدينة الستة عشر لكي يمكن نسفُها فور صدور الأوامر. ارتفعت أعمدة الدخان فوق جدران الكرملين من محارق الملفّات السرية، بينما في الشوارع، راح عمّال البلدية والمصانع، الذين لم يحصلوا على رواتبهم منذ شهور، يراقبون بتطيُّر متمرِّس نوافذَ القلعة القديمة التي لا تنطفئ أنوارُها قَط، وهي تبدأ في الإظلام، نافذة بعد أخرى.

لكن بعد ظهر الثالث عشر من أكتوبر، كان الراصد- الواقف في البقعة نفسها حيث يقف جوَّالنا الرثّ الآن- ليشهد منظرًا محيِّرًا. كان فريق صغير من العمال، تحت إشراف البوليس السري، يحملون المقاعد خارجين من البولشوي في طريقهم إلى محطة مترو مایاكوفسكي.

لاحقًا تلك الليلة، اجتمع كامل أعضاء المكتب السياسي على الرصيف، تحت سطح المدينة بثلاثين مترًا. في منجاةٍ من مرمى المدفعية الألمانية، اتخذوا مقاعدهم في الساعة التاسعة قبالة طاولة طويلة اصطفّ عليها الطعام والنبيذ. بعدها بقليل، توقف قطارٌ واحد في المحطة،

وانفتحت أبوابه، وخرج منه ستالين في زيّ عسكري كامل. وبعد أن اتخذ المارشال سوسو مكانه المستحق على رأس الطاولة، قال إن غرضه من جمع قيادة الحزب له شقّان. الأول، إعلان أن المجتمعين أمامه أحرار في المضي إلى كُويبيشِف، أما هو شخصيًّا، فلن يذهب إلى أي مكان. سيبقى في موسكو إلى أن تُراق آخر قطرةٍ من الدم الروسي. وثانيًا، صرَّح بأن الاحتفال بالذكرى السنوية للثورة سيقام في موعده، في السابع عشر من نوفمبر، في الميدان الأحمر كالمعتاد.

ولسوف يتذكر الكثيرون من الموسكوفيِّين لاحقًا ذلك الموكب بوصفه نقطة تحول من نوعٍ ما. فسماع صوت «نشيد الأممية» الذي تجيش له القلوب، بصحبة خمسين ألف حذاءٍ عسكري بينما قائدهم يقف متحديًا على المنبر عزَّز من ثقتهم وقوّى من عزيمتهم. سوف يتذكرون أن ذلك اليوم شهد تغيّرًا في اتجاه الريح.

مع ذلك، فلسوف يشير آخرون إلى السبعمئة ألفَ جندي الذين أبقاهم سوسو كقوّات احتياط في الشرق الأقصى والذين، لحظة الاحتفال، كانوا يُنشَرون سرًّا عبر البلاد لمساعدة موسكو. وغيرهم سوف يلاحظ أن الثلوج هطلت في ثمانية وعشرين يومًا بين أيام ديسمبر ذاك البالغ عددها واحدًا وثلاثين يومًا، ما أبقى الـ«لوفتفافه» [سلاح الجو الألماني] عمليًّا على الأرض. وبالتأكيد لم يكن تردِّي درجة الحرارة المتوسطة إلى 30 تحت الصفر- وهو طقس غريب على قوات الفيرماخت غَرابته على قوات نابليون- بالأمر السيئ. أيًّا كان السبب، ورغم أن قوات هتلر لم تستغرق أكثر من خمسة أشهر للزحف من الجبهة الروسية إلى مشارف موسكو، لن يَعبروا قَط بوابات المدينة. وبعد أن أخذوا أكثر من مليون أسير وسلبوا مليون حياة، سيبدأون انسحابهم في يناير عام 1942، تاركين المدينة، للعَجب، سليمة لم يمسسها ضرر.

نازلًا عن الرصيف، أفسح رجلُنا الوحيد الطريقَ لضابط شاب يقود

دراجة نارية جلست في عربتها الجانبية فتاة في فستان برتقالي زاهٍ؛ مرّ بين الطائرتين الحربيتين الألمانيتين المأسورتين المعروضتين في الميدان بأشجاره الجرداء؛ ثم، عند المدخل الرئيسي للمتروبول، انعطف حول الزاوية واختفى في الزقاق خلف الفندق.

طرائف ونقائض وحادثة

في الساعة 11:30، في مكتب مدير فندق المتروبول، جلس الكونت ألكسندر إلييتش روستوف على الكرسي المواجه للمكتب أمام الرجل صاحب الرأسِ الضيّق والمسلَك الفوقي.

عندما تلقّى الكونت استدعاءَ الأسقف في البياتسا، ظنّها مسألة مُلحَّة لأن الرسول انتظره لينهي فنجان القهوة ثم قاده توًّا إلى الجناح الإداري. لكن فور دخوله من باب المدير، لم يرفع الأسقف عينيه عن الأوراق التي كان يوقّعها. بل أشار بقلمه باتجاه الكرسي الشاغر بطريقة من يريد أن يُظهر أنه سيكون معك بعد لحظة.

«شكرًا لك»، قالها الكونت، متقبلًا عَرض الجلوس الروتيني بإيماءة روتينية من رأسه.

استغل الكونت، الذي لم يكن ممن يجلسون ساكنين، الدقائق الخالية في معاينة المكتب، الذي كان قد شهد نوعًا من التحوّل منذ كان يحتله إيوسيف هاليكي. صحيحٌ أن مكتب المدير السابق ظل على حاله، لكنه لم يعد أجرد على نحو لافت. فإلى جوار ستة أكوام من الأوراق، صار يتزيَّن الآن بدبّاسة، ومَقلَمة، وعُدَّتيْ هاتف (ربما ليستطيع الأسقف تعليق المكالمة مع اللجنة المركزية بينما يطلب رقم المكتب السياسي). وفي مكان الشيزلونغ الخمري الذي كان يسترخي فوقه البولندي العجوز كما كان يُشاع، كانت هناك الآن ثلاث خزائن ملفّات بأقفال من الصُلب المقاوم للصدأ تقف انتباهًا. أما مناظر الصيد المبهِجة التي كانت تزيِّن

ألواح الماهوغاني فقد استُبدلت، بالطبع، ببورتريهات للسادة ستالين، ولينين، وماركس.

بعد أن خطّ الأسقف توقيعه على اثنتي عشرة ورقة على النحو الذي يُرضيه تمام الرضا، كوّن كومةً سابعة على حافة مكتبه، ووضع القلم في حامِله، وللمرة الأولى نظر إلى الكونت في عينيه.

قال، بعد لحظة صمت: «أعتقد أنك ممن يستيقظون مبكرًا يا ألكسندر إلييتش».

«هذا ما يفعله ذوو العزم عادة».

ارتفعت زاوية فم الأسقف على نحو طفيف.

«نعم، بالطبع. ذوو العزم».

مدَّ يده فوق مكتبه ليسوِّي أحدث كومة من الأوراق.

«وتتناول الفطور في غرفتك نحو الساعة السابعة...؟».

«هذا صحيح».

«ثم في الثامنة، تمارس عادة قراءة الصحف في البهو».

ملعون هذا الرجل، فكَّر الكونت. يقاطعني في اللحظات الأخيرة لغداء مثالي مُبهِج باستدعاءٍ يُسلَّم باليد. مؤكدٌ أن شيئًا ما يدور في ذهنه. لكن ألا يستطيع الكفّ عن اللف والدوران؟ ألا يستطيع توجيه أسئلة مباشرة؟ ألا يعرف قيمتها؟ هل سيجلسان ليراجعا اليوم العادي في حياة الكونت دقيقة بدقيقة- بينما اجتماع «المجلس الرئاسي» مقرّر بعد أقل من ساعة؟

أكّد الكونت بقدرٍ من نفاد الصبر: «نعم، أقرأ صحف الصباح في الصباح».

«لكن في البهو. تنزل إلى البهو».

«بلا انقطاع. أنزل السلالم للقراءة في البهو المريح».

رجع الأسقف بظهره في كرسيه ورسمَ أوهى ابتسامة.

«إذًا، فلعلك على عِلم بالحادثة التي وقعت هذا الصباح في دهليز الطابق الرابع الساعة الثامنة إلا ربع».

للعِلم، كان الكونت قد استيقظ بُعيْد السابعة. بعد أن أكمل خمسة عشر تمرين قَرفَصة وخمسة عشر تمرين إطالة، وبعد أن استمتع بقهوته، وبسكويته، وثمرة فاكهة (اليوم يوسفي)، وبعد أن تحمّم، وحلق ذقنه، وارتدى ملابسه، قبَّل صوفيا على جبينها وغادر غرفة نومه بنيّة قراءة الصحف في كرسيه المفضل في البهو. نزل طابقًا واحدًا، وخرج من سلم البُرج واجتاز الردهة إلى السلم الرئيسي، كما كانت عادته. لكن عندما استدار في بَسطة الطابق الخامس، سمع أصوات هرج ومرج تأتي من أسفل.

الانطباع الأول كانَ خمسة عشر صوتًا تصرخ بعشرين لغة. وقد صاحبتها صفعةُ باب، وتهشُّم صحن، ونعيقٌ لجوجٌ للغاية بدا طَيْريَّ الطابع. عندما وصل الكونت إلى الطابق الرابع حوالي الساعة 7:45، رأى، في الحقيقة، جيشانًا حقيقيًّا.

كان كلُّ بابٍ تقريبًا مفتوحًا وكلُّ ضيفٍ في الردهة. بين الحشد كان صحافيّان فرنسيّان، ودبلوماسي سويسري، وثلاثة تجار فراء أوزبكيِّين، وممثلٌ للكنيسة الرومانية الكاثوليكية، وتِينور أوبرا عائدٌ إلى الوطن مع أسرته المكونة من خمسة أفراد. كان معظم أعضاء هذا التجمّع، الذين لا يزالون في مناماتهم، يلوِّحون بأذرعهم ويتكلمون بانفعال- بينما ثلاث أوزَّات بالغة تندفع مهتاجة بين سيقانهم، وهي تَزعق وتضرب بأجنحتها.

بدا الهلع على عدد من النساء وكأنهن يتعرّضن لهجمة من وحوش الـ«هاربي»(*). زوجة التينور كانت تختبئ خلف جذع زوجها الجسيم، وكريستينا، إحدى خادمات الغرف في الفندق، كانت تلتصق بالحائط،

(*) الهاربي: وحش أسطوري نصفه إنسان ونصفه طائر. (المترجم)

وهي تتشبّث بصينية خاوية أمام صدرها بينما عند قدميها يقبع خليطٌ من أدوات المائدة وعصيدة الكاشا.

عندما استعرض أبناء التينور الثلاثة قُواهم بمطاردةِ الطيور الثلاثة المختلفة في ثلاثة اتجاهات مختلفة، قدَّم سفير الفاتيكان نصيحة للتينور حول السلوك الملائم للأطفال. التينور، الذي لم يكن يتحدث إلا كلمات قليلة بالإيطالية، أبلغ الكاردينال (بنغمة فورتيسيمو عالية) أنه ليس رجلًا يجوز العبث معه. أما الدبلوماسي السويسري، الذي كان يتحدث كلًّا من الروسية والإيطالية بطلاقة، فضرب مثلًا على سُمعة أمَّته في الحياد بأن أنصَتَ لكلا الرجلين بفمٍ مغلق. عندما تقدّم الكاردينال إلى الأمام لكي يجعل نقطته أكثر بابويّةً، انطلقت إحدى الأوزات، بعد أن حاصرها ابن التينور الأكبر، بين قدميه مباشرة، ثم إلى داخل جناحه- وعند تلك النقطة، خرجت امرأة شابة، لم تكن بكل تأكيد ممثلةً للكنيسة الرومانية الكاثوليكية، تركض في الرواق ملفوفةً فقط بكيمونو أزرق.

عند تلك النقطة، كان الهرج والمرج- فيما يبدو- قد أيقظ نزلاء الطابق الخامس، إذ نزل عدد منهم بأقدامٍ تدقّ على السلم ليروا ما سبب كل هذه الجلبة. في مقدمة تلك المفرَزةً كان جنرالٌ أمريكي- رجل لا يعرِف المزاح قادم مما يُقال عنها «ولاية تكساس العظيمة». بعد أن قيّم الجنرال الموقف بسرعة، هَبَش إحدى الإوزات من رقبتها. تلك السرعة التي قَبَض بها على الطائر أعطت أولئك المجتمعين دفعةَ ثقة. بل إن العديدين هتفوا له مشجّعين. على الأقل، إلى أن لفّ يده الثانية حول رقبة الإوزة وقد ظهر واضحًا أنه ينوي قصفها. استجلب هذا صرخةً من المرأة الشابة في الكيمونو الأزرق، ودموعًا من ابنة التينور، وتقريعًا حازمًا من الدبلوماسي السويسري. وإذ واجه الجنرال تِلكُم العقبات في لحظة الفعل الحاسمة، عبَّر عن حَنَقه من رخاوة المدنيين، ودخلَ غرفة الكاردينال، وألقى الأوزة من النافذة.

عاد الجنرال بعدها بلحظة، عازمًا على استعادة النظام، واقتنص برشاقةٍ أوزة ثانية. لكن عندما رفع هذا الطائر عاليًا ليؤكد للمجتمعين نواياه المسالِمة، انحلّ الرباط حول خصره وانفتح روبُه على مصراعيه، كاشفًا عن سروالٍ داخليّ أخضر زيتونيّ قديم في الخدمة، ما جعل زوجة التينور تسقط مغشيًّا عليها.

فيما كان الكونت يراقب تلك الوقائع من البَسْطة، انتبه إلى حضورٍ مجاورٍ له. حين استدار، وجد أنه الضابط المرافق للجنرال، رجل عِشريّ كان قد أصبح من زبائن الشاليابين الثابتين. استوعب الضابطُ المرافقُ المنظرَ في نظرة واحدة، وأطلق تنهيدةَ رضا ثم علّق دون أن يوجّه كلامه لشخص بعينه:

«كَم أُحبُّ هذا الفندق!».

إذًا، هل كان الكونت «على عِلم» بما حدث في دهليز الطابق الرابع في الثامنة إلا ربع؟ قد يَسأل المرء بالمثل هل كان نوحٌ على عِلم بالفيضان، أو آدم بالتفاحة. بالطبع كان على عِلم. لا أحدَ على وجه الأرض كان على عِلم أكثر منه. لكن أي جانب من هذا العِلم يمكن أن يبرر مقاطعة تناول فنجان قهوة؟

أكّد الكونت: «أنا مُلمّ بحوادث هذا الصباح، إذ تصادف كوني أنزل على البَسطة لحظة وقوعها».

«إذًا فقد شهدتَ الهرج شخصيًّا...؟».

«نعم، رأيت الألاعيب تتوالى رأي العين. ومع ذلك، لست متأكدًا تمامًا من سبب وجودي هنا».

«إذًا فأنت في العتمة، إن جاز القول».

«في الحقيقة، أنا متحيّر. مستغرِب».

«بالطبع».

بعد لحظة صمت، قدّم الأسقف أكثر ابتساماته كهنوتيّة. ثم، وكأن التجوّل في المكتب في وَسط محادثة أمرٌ طبيعيّ تمامًا، نهض وسار إلى الحائط، حيث عدّل بحذر شديد بورتريه السيد ماركس، الذي أوهنَ انزلاقُه عن خطّافِه، لا جِدال، السلطةَ الأيديولوجيّةَ للغرفة.

تابع الأسقف وهو يستدير:

«أفهم لماذا اخترتَ، في وصفك لهذه الحوادث المؤسفة، استخدام كلمة **ألاعيب** بدلًا من هرج. إذ يبدو أن **ألاعيب** توحي بشقاوة طفوليّة ما...».

فكّر الكونت في هذا الكلام للحظة.

«أنتَ لا تشك في أبناء التينور؟».

«ليس حقًّا. في نهاية المطاف، كانت الأوزّات محبوسة في قفص في حجرة خزين البويارسكي».

«هل توحي بأن إميل له علاقة بالأمر؟».

تجاهل الأسقف سؤال الكونت وعاد إلى مكانه خلف المكتب.

دون داعٍ، أوضح الأسقف للكونت: «فندق المتروبول مَضْيَفَةٌ لبعض من أبرز رجال الدولة وأشهر الفنانين في العالم. عندما يدخلون من بابنا، لهم الحق أن يتوقعوا راحةً منقطعة النظير، خدماتٍ لا مثيل لها، وصباحاتٍ خالية من الهرج». ثم اختتم قوله وهو يمدّ يده إلى قلمه: «غنيٌّ عن القول أنني سأسبر أغوار الأمر وصولًا إلى قَعْر الحقيقة».

ردَّ الكونت، وهو ينهض عن كرسيه: «طيّب، إذا كان الوصول إلى القَعر هو المطلوب، أنا واثق أنه ما من رجل مناسب للمهمة أكثر منك».

شقاوة طفولية ما، غمغم الكونت وهو يخرج من الجناح الإداري. **صباحات الهرج**...

هل يظنّه الأسقف أحمق؟ هل تخيّل للحظة واحدة أن الكونت لا يفهم إلامَ كان يرمي؟ إلامَ كان يُلمح؟ أن صوفيا الصغيرة متورطة بطريقة ما؟

لم يدرك الكونت **بالضبط** ما الذي كان يعنيه الأسقف فحسب، بل كان بوسعه أن يجابهه ببضع تلميحات من جانبه- بل ويمكنه الردّ بعبارة موزونة من البحرِ الطويل، ليس أقلّ من ذلك. لكن فكرة تورّط صوفيا كانت بلا أساسٍ جدًّا، سخيفةٌ جدًّا، مُشينةٌ جدًّا، حتى إنها لم **تستحق** ردًّا.

الآن، لم يكن الكونت يُنكر أن صوفيا تتمتع بمسحة من حُب المزاح، شأنها شأن أي طفل في الثالثة عشرة من العمر. لكنها لم تكن من هواة التسكّع، ولا المشاكسة. لم تكن مستهترة. والحقيقة أن الكونت، وهو عائد من مكتب المدير، رآها هناك تجلس في البهو منحنية على كتاب دراسي جسيم. كان ذلك منظرًا مألوفًا لجميع موظفي المتروبول. لساعات تُلو ساعات، كانت تجلس في ذلك الكرسي نفسه تحفظ حروف عواصم البلاد، وتُصرِّف الأفعال، وتَحلّ المسائل الرياضية وصولًا لقيمة (س) أو (ص). وبحسٍّ مساوٍ من التفاني كانت تتلقى دروس الخياطة مع مارينا ودروس الصلصات مع إميل. اطلب من أي شخص يعرف صوفيا أن يصفها وسيخبرك أنها مجتهدة، خجولة، مهذّبة؛ أو بكلمة واحدة، **رزينة**.

فيما كان الكونت يصعد السلم إلى الطوابق العلوية، راح يعدد الحقائق ذات الصلة مثل فقيهٍ قانوني: في ثماني سنوات، لم تنفجر صوفيا في نوبة صراخ واحدة؛ كانت تفرِّش أسنانها كل يوم وتتوجه إلى المدرسة دون ضجيج؛ وسواءً حان الوقت لأن تتدثّر في معطفها، أو تُشمِّر عن ساعديها، أو تأكل نصيبها من البازلاء، كانت تفعل ذلك دون شكوى. حتى تلك اللعبة الصغيرة التي اخترعَتْها، والتي أصبحت مولعةً بها، كانت قائمة على وقارٍ يتجاوز سنوات عمرها.

وهكذا تُلعَب اللعبة:

يجلسان في مكان ما في الفندق، مثلًا: يقرآن في مكتبهما في صباح يوم أحد. عند الدقة الثانية عشرة، يضع الكونت كتابه ويستأذن ليقوم بزيارته الأسبوعية إلى الحلاق. بعد نزوله طابقًا واحدًا على سلّم البُرج

واجتيازه الردهة إلى السلم الرئيسي، يواصل رحلته نزولًا لخمسة طوابق أخرى حتى الطابق التحتانيّ، حيث، بعد أن يمرّ بدكّان الورد، وكشك الصحف، يدخل صالون الحلاق ليفاجأ بصوفيا تقرأ في صمت على المقعد المستطيل لصق الحائط.

بداهة، كان ذلك يستدعي النطقَ باسم الرب باطلًا وإسقاط ما يتصادف أن يكون في يده (ثلاثة كتب وكأس نبيذ حتى الآن هذا العام).

وإذ ينحّي المرء جانبًا أن لعبة كهذه قد تكون قاتلةً لرجل يقترب من عامه الستين، يتعجب من حنكة الآنسة الصغيرة. كان بوسعها، في ما يبدو، نقل نفسها من طرفٍ من الفندق إلى الطرف الآخر في غمضة عين. على مرّ السنين، لا بُد أنها أصبحت خبيرة بكل أروقة الفندق الخفية، ممراته الخلفية، والأبواب الواصلة بين الغرف، وفي الوقت نفسه طوَّرت حسًّا خارقًا بالتوقيت. لكن ما كان مثيرًا للإعجاب على وجه الخصوص هو سكونها الغرائبيّ لحظة الاكتشاف. فمهما قطعَتْ من مسافات ومهما أسرَعَت الخطى، لا تبدو عليها ولو لمحة إجهاد. لا تَسارُع في دقات القلب، ولا تهدُّج في الأنفاس، ولا قطرة عرق على جبينها. ولا كانت تُطلق ضحكة أو تُظهر أوهى ابتسامة. على العكس. بتعبير مُجدّ، وخجول، ومهذّب، كانت تحيّي الكونت بإيماءة ودود، وتعود لتنظر في كتابها، وتقلِّب الصفحة، بكل رزانة.

هكذا، كان تآمُر طفلةٍ ثابتةِ الجنان إلى هذا الحدّ لإطلاق سراح أوزَّات فكرةً مستحيلة بكل بساطة. على هذا النحو، قد يتهمها المرء بهدم برج بابل أو كسر أنف أبي الهول.

صحيحٌ أنها كانت في المطبخ تتناول عشاءها عندما أُبلغ الشيف للمرة الأولى أن دبلوماسيًّا سويسريًّا ما، كان قد طلب أوزة محمّرة، يتساءل عن مدى طزاجة الدواجن في المطعم. وصحيحٌ أنها كانت مخلصةً لعمها إميل. لكن مع ذلك، كيف لفتاة في الثالثة عشرة من عمرها أن تَختطف

وتَنقل ثلاثة دواجن إلى الطابق الرابع لفندق دولي في السابعة صباحًا دون أن يُكتشف أمرها؟ الفكرة نفسها، استنتج الكونت وهو يفتح باب غرفتيه، تُربِك المنطق، تُجافي قوانين الطبيعة، وتصفعُ الحس السليم على وجـ...

«**يا خفيّ الألطاف!**».

رأى صوفيا، التي كانت قبل لحظة في البهو، جالسةً على مكتب الدوق الأكبر، منحنية بكدّ على مُصنَّفه.

قالت دون أن ترفع رأسها: «أوه. هاللو يا بابا».

«يبدو أنه لم يعد من الأدب أن يرفع المرء رأسه عن عمله عندما يدخل جنتلمانٌ إلى الغرفة».

استدارت صوفيا في كرسيها.

«آسفة يا بابا. كنت مستغرقة في القراءة».

«هممم. وماذا يكون ذلك».

«مقالة حول أكل لحوم البشر».

«مقالة حول أكل لحوم البشر!».

«لميشيل دو مونتاني».

أقرّ الكونت: «آه. نعم. طيّب. هذه طريقة جيدة لقضاء الوقت بكل تأكيد».

لكن وهو يتّجه إلى المكتب، فكّر. ميشيل دو مونتاني؟ ثم نظر فورًا إلى قاعدة الكومود.

«هل هذا ‹آنا كارنينا›؟».

تابعت صوفيا نظرته.

«نعم، أظنُّه هو».

«لكن ماذا يفعل هناك بالأسفل؟».

«كان الأقرب في السمَاكة إلى مونتاني».
«الأقرب في السمَاكة!».
«هل هناك مشكلة؟».

«كل ما أستطيع قوله إن آنا كارنينا لم تكن لتضعكِ أنتِ تحت كومود أبدًا لمجرد أنكِ تماثلين مونتاني في السمَاكة».

★ ★ ★

كان الكونت يقول: «الفكرة نفسها سخيفة. كيف لفتاة في الثالثة عشرة أن تخطف وتنقل ثلاث أوزات كبيرات مسافة طابقين من السلالم دون أن ينكشف أمرها؟ ثم، أسألك: إذا كان هذا السلوك أصلًا من طباعها».
قال إميل: «بالتأكيد لا».
ووافقه أندري: «لا، ليس بأي حال».
هزّ الرجال الثلاثة رؤوسهم في استياء مشترك.
إحدى مزايا العمل معًا لسنوات طويلة أن الترهات اليومية يمكن تجاوزها سريعًا، ما يتركُ وقتًا وافرًا لمناقشة المشاغل الأكثر جسامة- مثل الروماتيزم، عدم كفاية المواصلات العامة، والسلوك التافه لأولئك الذين يُرقّون في وظائفهم بلا سبب مفهوم. بعد عقدين من الزمان، عرف أعضاء «المجلس الرئاسي» بعض الأمور عن الرجال صغار العقول الذين يجلسون خلف أكداس من الورق، وعن أولئك الذين يُطلق عليهم ذوّاقات جنيف ولا يستطيعون التفريق بين الأوزة والقَطَا.
قال الكونت: «أمرٌ مشين».
«بلا جدال».
«ويستدعيني قبل اجتماعنا اليومي بنصف ساعة، حيث لا تنقصنا أبدًا شؤون مهمة تستدعي النقاش».

وافقه أندري: «بالضبط. وهو ما يذكّرني يا ألكسندر...».

«نعم؟».

«قبل أن نَفتح الليلة، هلا جعلت أحدًا ينظف مصعد الطلبات؟».

«بالتأكيد. هل هو في حالة مُزرية؟».

«للأسف. لقد أصبح على نحو ماء مليء بالريش...».

لدى قول هذا، استخدم أندري واحدًا من أصابعه الأسطورية ليهرشَ شفتَه العليا، بينما تظاهر إميل بأنه يرتشفَ شايَه. والكونت؟ فتح فمه بعزم تام على أن يعقِّب التعقيب المثالي- الملاحظة التي تُفحم فتصير مثلًا دائرًا بين الناس.

لكن تناهت إلى مسامعهم طرقاتٌ على الباب، ودخل إيليا الصغير بملعقته الخشبية.

على مدار الحرب الوطنية العظمى، كان إميل قد خسرَ الأعضاء المتمرّسين في طاقمه واحدًا بعد آخر، حتى ستانيسلاف الـمُصفِّر. فمع استدعاء كل رجل صحيح البَدَن إلى الجيش، أُجبَر على حشو مطبخه بالمراهقين. هكذا، ترقّى إيليا، الذي عُيِّن عام 1943، بالأقدمية إلى مساعد شيف عام 1945، في شيخوخته في سن التاسعة عشرة. وتعبيرًا عن ثقته فيه، أنعم عليه إميل بملعقةٍ بدلًا من السكين.

«نعم؟»، قالها إميل وهو يرفع رأسه في نفاد صبر.

وردًّا على ذلك، تردد إيليا.

نظر إميل إلى العضوين الآخرين في «المجلس الرئاسي» وقَلَب عينيه، وكأنما ليقول: **هل تريان معاناتي**؟ ثم استدار ثانية إلى صبيّه.

«يستطيع أي شخص أن يرى أننا نباشر عملًا ما. لكن الواضح أن لديك شيئًا شديد الأهمية يجعلك تشعر بضرورة مقاطعتنا. طيّب إذًا، هاتِ ما عندك- قبل أن تزهق أرواحنا من طول الانتظار».

فتح الشاب فمه، لكن بدلًا من أن يفسِّر نفسَه، أشار ببساطة بملعقته

باتجاه المطبخ. تابع أعضاء «المجلس الرئاسي» اتجاه الأداة الطهويَّة عبر نافذة المكتب. هناك، بالقرب من الباب المؤدي إلى السلم الخلفي، وقف كائنٌ يبدو بائسًا في معطف شتويّ رثّ. لدى رؤيته، اصطبغ وجه إميل باللون القرمزي.

«من أدخلَه إلى هنا؟».

«أنا يا سيدي».

وقف إميل فجأة حتى كاد يُسقط كرسيه أرضًا. ثم، مثلما يَنزع القائد الشارات عن كتفي ضابطٍ منحرف، اختطف إميل الملعقة من يد إيليا.

«إذًا، أنت مفوَّض السفهاء الآن، هل هذا هو الحال؟ هه؟ عندما أدرتُ ظهري، رقّوك إلى سكرتير عام المخبولين؟».

تراجع الشاب خطوة إلى الخلف.

«لا يا سيدي. لم يُرقّوني».

ضرب إميل الطاولة بالملعقة، حتى كاد يشطرها نصفين.

«بالطبع لم يُرقّوك! كم مرة قلت لك ألا تُدخل الشحاذين إلى المطبخ. ألا ترى أنك إذا أعطيتَه كسرة خبز اليوم، سيأتي خمسة من أصدقائه غدًا، وخمسون في اليوم التالي؟».

«نعم يا سيدي، لكن... لكن...».

«لكن لكن... لكن ماذا؟».

«إنه لم يطلب طعامًا».

«إيه؟»

أشار الشاب إلى الكونت.

«لقد سألَ عن ألكسندر إلييتش».

نظر أندري وإميل إلى زميلهما في دهشة. ونظر الكونت بدوره عبر النافذة إلى الشحّاذ. ثم دون أن ينبس بكلمة، نهضَ عن كرسيه، وخرجَ من المكتب، وعانَق هذا الخلَّ الأثير الذي لم يرَه منذ ثماني سنوات.

رغم أن أندري وإميل لم يسبق لهما لقاء الغريب قَط، ففور أن سمعا اسمه عرفا بالضبط من يكون: الرجل الذي كان يعيش مع الكونت فوق دكان الإسكافي؛ ذلك الذي قطع ألف كيلومتر في غرفة طولها خمسة أمتار؛ عاشق ماياكوفسكي وماندلِشتام الذي، شأن الكثيرين غيره، حوكم وأدين باسم المادة 58.

اقترح أندري بإيماءة من يده: «خذا راحتكما. تستطيعان استخدام مكتب إميل».

ووافقه إميل: «نعم. على الرحب والسعة. مكتبي».

بغرائزه التي لا تخطئ، قاد أندري ميشكا إلى كرسي ظهرُه للمطبخ بينما وضع إميل خبزًا وملحًا على الطاولة- ذلك الرمز الروسي القديم لكرم الضيافة. بعدها بلحظة عاد بصحنٍ من البطاطس وقِطعٍ من البتلّو. ثم استأذن الشيف والمتر في الانصراف، وأغلقا الباب ليستطيعَ الصديقان القديمان الحديث دون إزعاج.

نظر ميشكا إلى الطاولة.

قال بابتسامة: «خبز وملح».

عندما نظر الكونت إلى ميشكا أمامه، تأثّر بتياريْن متضاديْن من المشاعر. من ناحية، كان الفرح الناتج عن رؤية صديق من أيام الشباب على نحو غير متوقع- وهو حدث يستأهل الترحاب بغض النظر عن الزمن والمكان. لكن في الوقت نفسه، وُوجه الكونت بحقائق ظهور ميشكا الدامغة. كان وزنه قد تراجع خمسة عشر كيلوغرامًا، يرتدي معطفًا باليًا، ويجرّ إحدى ساقيه وراءه، لم يكن غريبًا أن ظنّه إميل شحاذًا. بداهةً، كان الكونت قد راقب الزمن- في السنين الأخيرة- وهو يترك آثاره على المجلس الرئاسي. لاحظ الارتعاش العارِض في يدِ أندري اليسرى والصمَمَ الزاحفَ على أذنِ إميل اليمنى. لاحظ الشيبَ الذي وَخَط شعر الأول والصلع الذي تسلّل إلى رأس الأخير. لكن مع ميشكا، لم يكن

الأمر متعلقًا- ببساطة- بويلات الزمن. هنا كانت آثارُ رجلٍ على آخر، آثارُ حقبةٍ زمنية على أبنائها.

الأكثر إثارة للدهشة، ربما، كان ابتسامة ميشكا. في شبابهما كان ميشكا جادًّا أكثر من اللازم يخلو حديثه من السخرية. مع ذلك عندما قال «خبز وملح»، ارتسمت على وجهه ابتسامة المستهزئ.

قال الكونت بعد برهة: «سعيد برؤيتك يا ميشكا. لا أستطيع أن أخبرك كم ارتحتُ عندما أرسلتَ لي خبرَ إطلاق سراحك. متى عدت إلى موسكو؟».

أجابه صديقه بابتسامته الجديدة: «لم أعُد».

شرح ميشكا: بعد استكمال مدة عقوبته البالغة ثماني سنوات على النحو الواجب، كوفئ بـ«الحرمان من المدن الستة». وهكذا، لكي يزور موسكو، كان عليه أن يستعير جواز سفر من شخص متعاطف تحمل ملامحه شبهًا عابرًا به.

سأله الكونت متوجسًا: «هل وهذا تصرف حكيم؟».

هزّ ميشكا كتفيه.

«وصلتُ هذا الصباح من يِفاس بالقطار. وسأرجع إلى يِفاس الليلة».

«يِفاس... أين تقع؟».

«في مكان ما حيث ينمو القمح ويؤكل الخبز».

سأل الكونت متردّدًا: «هل تُدرِّس...؟».

أجاب ميشكا بهزّة من رأسه: «لا. نحن لا نُشجَّع على التدريس. لكننا أيضًا لا نُشجَّع على القراءة أو الكتابة. نحن بالكاد نُشجَّع على الأكل».

هكذا، كان ميشكا هو من بدأ بوصف حياته في يِفاس؛ وبينما كان يفعل ذلك، استخدَم صيغة الجمع كثيرًا حتى إن الكونت ظن أنّه انتقل إلى هناك بصحبة زميلٍ من المعسكرات. لكن رويدًا رويدًا، أصبح واضحًا أن ميشكا حين يقول «نحنُ» لا يشير إلى شخصٍ معيّن في ذهنه. بالنسبة

لميشكا «نحنُ» تشمل كل زملائه المساجين- وليس ببساطة أولئك الذين عرفهم في أرخانغِلسك. إنها تشمل المليون أو أكثر الذين كدحوا في جزر سولوفيتسكي أو في سيفُّستلاك أو على «قناة البحر الأبيض»، سواء كدحوا في عشرينياتهم، أو ثلاثينياتهم، أو لا يزالون يكدحون هناك.(*)

كان ميشكا صامتًا.

قال، بعد برهة: «أمر غريب ما يحدث للمرء في الليل. بعد أن نُسقِط مجارفنا ونسير متثاقلِين إلى ثكناتنا، كنا نبتلعُ ثريدَنا ونسحب بطاطيننا حتى ذقوننا متلهفين إلى النوم. لكنّ فكرةً غيرَ متوقَّعة كانت تأتينا لا مناص، ذكرى تُقبِل بغير دعوة، تريد مَن يقيِّمها، ويقيسها، ويزنها. في ليالٍ كثيرة كنت أجد نفسي أفكر في ذلك الألماني الذي قابلتَه في البار- ذلك الذي زعمَ أن الفودكا هي إسهام روسيا الوحيد للغرب والذي تحدّى أي شخص أن يسمِّي ثلاثة إسهامات أخرى».

«أتذكر ذلك جيدًا. لقد استعرتُ ملاحظتك أن تولستوي وتشيخوف يمثلان دفَّتي كتاب السرد، واحتججتُ بتشايكوفسكي، ثم طلبتُ للغشيم صحنًا من الكافيار».

(*) -بعد أن جُرِّدوا من أسمائهم وأواصرهم العائلية، من وظائفهم وممتلكاتهم، وسيقوا كالقطعان وسط الجوع والضنك، أصبح من المتعذر تمييز نزلاء الغولاغ- الـزيك- أحدهم عن الآخر. وقد كان ذلك، بالطبع، جزءًا من غاية الـمُراد. لكن السلطات العليا رأت أن اعتقالهم وتشغيلهم سخرةً في أجواء قاسية عقوبة ليست كافية، وهكذا سعت إلى طَمْس أعداء الشعب.

لكن ثمة نتيجة غير متوقعة ظهرت لهذه الاستراتيجية، ألا وهي إنشاء دُوَيْلة جديدة. من الآن فصاعدًا، سيتحرك الـزيك بعد أن جُرِّدوا من هوياتهم- رغم أعدادهم المليونيّة- في تناغم تام، فيتشاطرون الحرمان كما يتشاطرون إرادة البقاء. من الآن فصاعدًا، سيَعرفون بعضهم البعض متى وحيثما التقوا. سيفسحون مجالًا لبعضهم البعض تحت سقوفهم وإلى طاولاتهم، ويخاطبون بعضهم البعض بـأخي وأختي؛ لكن مهما كانت الظروف، لن يستخدموا كلمة رفيق، أبدًا، أبدًا.

«هذا هو».

هزّ ميشكا رأسه ثم نظر إلى الكونت بابتسامته.

«ذات ليلة قبل بضع سنوات، فكّرتُ في إسهام آخر يا ساشا».

«إسهام خامس؟».

«نعم، إسهام خامس. إحراق موسكو».

بوغت الكونت.

«تقصد عام 1812؟».

أومأ ميشكا برأسه.

«هل تستطيع أن تتخيل التعبير على وجه نابليون عندما أوقِظ في الثانية صباحًا وخرج من غرفة نومه الجديدة في الكرملين ليكتشف أن المدينة التي استولى عليها قبل ساعات فحسب أُضرِمت فيها النيران على أيدي مواطنيها؟». أطلق ميشكا ضحكة خفيضة. «نعم، إحراق موسكو كان روسيًّا بوجه خاص يا صديقي. هذا مما لا شك فيه. لأنه لم يكن حادثًا منفردًا؛ كان أسلوبًا. أحد الأمثلة المنتزَعة من تاريخ يضم الآلاف من تلك الحوادث. فنحن الروس، كشعب، أثبتنا براعةً غير عادية في تدمير ما أنشأناه».

ربما بسبب عَرَجِه، لم يَعد ميشكا ينهض ليذرع الغرفة؛ لكن الكونت رأى أنه يذرع الغرفة بعينيه.

«كل بلد لديها لوحة عظيمة يا ساشا- تلك التي تسمى تحفةً وتعلَّق في قاعة جليلة وتلخِّص الهوية القومية لأجيال تالية. الفرنسيون عندهم **الحرية تقود الشعب** لـديلاكروا، والهولنديون عندهم **دورية الليل** لـرامبراندت؛ والأمريكان عندهم **واشنطن يعبر نهر ديلاوير**، ونحن الروس؟ لدينا شقيقتان توأمان: **بيتر الأكبر يستجوب أليكسي** لـنيكولاي غِه؛ و**إيفان الرهيب وابنه** لإيليا ريبين. لعقود، ظلت هاتان اللوحتان مبجَّلتين من شعبِنا، ومحلّ ثناء من نُقّادنا، ونموذجًا ينسخه طُلابنا المثابرون في

مدارس الفن. مع ذلك، فماذا تُصوِّران؟ في الأولى، نرى قيصرنا الأكثر استنارة وهو يتفحَّص ابنه الأكبر بعين الشك، يوشك على أن يصدر عليه حكمًا بالموت؛ بينما في الثانية، يحمل إيفان الرهيب جثمان ابنه الأكبر، وقد أوقَع به بالفعل العقوبة القصوى بضربةٍ من الصولجان على الرأس.

«كنائسنا، المعروفة في أرجاء العالم بجمالها الفريد، بأبراجها المستدقَّة ذات الألوان الزاهية وقُبَيْباتها غير المعقولة، نمحقُها واحدةً بعد أخرى. نهدم تماثيل أبطالنا القدامى وننزع أسماءهم من الشوارع، وكأنهم كانوا من نسج خيالنا. شعراؤنا إما نُخرسهم، أو ننتظر بصبر لكي يُخرسوا أنفسهم».

تناول ميشكا شوكته، وضربها في قِطعة بتلّو من الطبق الذي لم يمسُّه بعد، ورفعها في الهواء.

«هل تعرف أنه في الماضي، في عام 1930، عندما أعلنوا فرض المزارع الجماعية كنظام أوحد للزراعة، قام نصفُ فلّاحينا بذبح قطعان ماشيتهم بأنفسهم بدلًا من التخلي عنها للتعاونيّات؟ أربعة عشر مليون رأس ماشية تُركت للجوارح والذباب».

أعاد بلطف قطعة اللحم إلى صحنها، وكأنما في إيماءة احترام.

«كيف يمكننا أن نفهم هذا يا ساشا؟ ما الذي في تلك الأمة يدعم رغبةً لدى شعبها في تدمير أعماله الفنية، وتخريب مدنه، وقتل ذريّته دون وازع من ضمير؟ بالنسبة للأجانب، لا بُد أن الأمر يبدو صادمًا. لا بُد أنه يبدو وكأننا نحن الروس لدينا لا مبالاة وحشيّة تجعلنا لا ننظر إلى أي شيء، ولا حتى فلذات أكبادنا، على أنه مقدس. وكم تألمتُ لتلك الفكرة. كم أزعجَتني. ومهما كنت منهكًا، كان مجرد التفكير في الأمر قادرًا على جعلي أتقلّب في فراشي حتى الفجر.

«ثم ذات ليلة، جاءني في حلم يا ساشا: مایاکوفسكي بنفسه. استشهَدَ ببعض الأبيات الشعرية- أبيات جميلة خلّابة لم أسمعها من قبل- عن

لحاءِ شجرة تامول يتلألأ في شمس الشتاء. ثم شحَن مسدسه بعلامة تعجُّب ووضع الماسورة على صدره. عندما استيقظتُ، فهمتُ فجأة أن هذه النزعة لتدمير الذات ليست رجسًا، ولا شيئًا يستدعي الخجل أو الاستنكاف؛ إنها أعظم قوانا. نحن نصوّب البندقية إلى أنفسنا لا لأننا أكثر زهدًا أو أقل ثقافة من البريطانيين، أو الفرنسيين، أو الإيطاليين. على العكس. نحن مستعدون لتدمير ما خلقناه لأننا لا نؤمن بأي منه قدر إيماننا بقوة الصورة، أو القصيدة، أو الصلاة، أو الشخص».

هز ميشكا رأسه.

«انتبه لكلماتي يا صديقي: نحن لم نحرق موسكو ونسوّيها بالأرض للمرة الأخيرة».

كما في الماضي، تكلم ميشكا بحرقة محمومة، تقريبًا كأنه يثبت وجهة نظره لنفسه. لكن فور أن أفصح عن رأيه، نظر عبر الطاولة ورأى التعبير المهموم على وجه الكونت. ثم، فجأة، ضحك من قلبه، دون مرارة أو سخرية، ومدّ يده فوق الطاولة ليضغط على ساعد صديقه القديم.

«أرى أنني أربكتُك يا ساشا، بكلامي عن المسدسات. لكن لا تقلق. أنا لم أنتهِ بعد. ما زال لدي شيء أهتم بأمره. في الحقيقة، هذا هو السبب الذي جعلني أتسلل إلى هذه المدينة: لكي أزور المكتبة من أجل مشروع صغير أعمل عليه...».

أحسَّ الكونت بالراحة، وهو يلحظ اللمعة القديمة في عين ميشكا- تلك التي كانت تومض حتمًا قبل أن يُلقي نفسه بطيشٍ في ورطة لعينة.

سأل الكونت: «هل هو عملٌ شعريّ؟».

«شعريّ؟ نعم، بصورة ما، أظنُّه كذلك... لكنه أيضًا شيئًا أكثر أصوليّة. شيء يمكن البناء عليه. لستُ مستعدًا بعد لمشاركته، لكن عندما أكون مستعدًا، ستكون أول من يعرف».

عندما خرجا من المكتب وقاد الكونت ميشكا إلى السلم الخلفي، كان العمل يجري في المطبخ على قدم وساق. على المنضدة كان البصل يُفرم، والبنجر يُقطَّع، والدجاج يُنتف. من الموقد، حيث كانت ستة قدور تُسوّى، أشار إميل إلى الكونت أن ينتظر لحظة. بعد أن مسح يديه في مريلته، جاء إلى الباب ببعض الطعام ملفوفًا في ورقة بنّية.

«شيء صغير لأجل رحلتك يا ميخائيل فيودوروفيتش».

بدا أن ميشكا بوغت من العرض، ولبرهة ظن الكونت أن صديقه سيرفضه من حيث المبدأ. لكن ميشكا شكر الشيف وتناول الربطة في يده.

أندري كان هناك أيضًا، ليعرب عن سعادته بلقاء ميشكا أخيرًا ويتمنى له حظًا سعيدًا.

بعد أن ردّ على المشاعر الطيبة بمثلها، فتح ميشكا الباب المؤدي إلى بئر السلم، لكنه توقف. أخذ لحظة لينظر في أرجاء المطبخ بكل ما فيه من نشاط ووفرة، ولينقل نظره من أندري اللطيف إلى إميل طيب القلب، ثم استدار إلى الكونت.

قال: «من كان يتخيّل عندما حُكم عليك بالإقامة الجبرية مدى الحياة في المتروبول قبل كل تلك السنين، أنك قد أصبحت أكثر رجل محظوظ في عموم روسيا».

★ ★ ★

في الساعة 7:30 ذلك المساء، عندما دخل الكونت الغرفة الصفراء، سحقَ أوسيب سيجارته وقفز من كرسيه.

«آه! ها أنت هنا يا ألكسندر. ظننتُ أن رحلةً سريعة إلى سان فرانشيسكو لا بأس بها. لم نتقابل منذ عام كامل. اطفئ النور إذا سمحت».

هرع أوسيب إلى مؤخرة الغرفة، واتخذ الكونت شاردًا مقعده إلى

الطاولة المخصصة لفردين ووضع فوطته في حِجره.

...

«ألكسندر...».

نظر الكونت إليه.

«نعم؟».

«النور».

«أوه. معذرة».

نهض الكونت، وأطفأ النور، وظل واقفًا بجوار الحائط.

...

سأله أوسيب: «ألن تجلس ثانية؟».

«آه، نعم. طبعًا».

عاد الكونت إلى الطاولة وجلس في كرسي أوسيب.

«هل أنت بخير يا صديقي؟ لا تبدو على طبيعتك...».

أكد له الكونت بابتسامة: «لا، لا. كل شيء ممتاز. أرجوك أكمل ما تفعله».

انتظر أوسيب للحظة لكي يتأكد، ثم نَقَر على المفتاح، وهرع عائدًا إلى الطاولة بينما بدأت الظلال القديمة الكبيرة ترتعش على حائط غرفة الطعام.

بعد شهرين من الحدث الذي أَحبَّ أوسيب أن يسميه «مسألة دو توكفيل»، ظهر في الغرفة الصفراء مع آلة عَرض ونسخةٍ غير مراقَبَة من فيلم «يوم في حلبة السباق»(*). بداية من تلك الليلة فصاعدًا، ترك الرجلان

(*) «يوم في حلبة السباق»: الفيلم الأمريكي A day at the Races، إنتاج عام 1937. (المترجم)

مُصنَّفات التاريخ على الأرفف حيث تنتمي وأكملا دراستهما لأمريكا عبر الوسائط الفيلمية.

كان أوسيب إيفانوفيتش قد أتقن اللغة الإنكليزية وصولًا إلى الماضي التام المستمر مبكرًا في عام 1939. لكن، في رأي أوسيب، كانت الأفلام الأمريكية لا تزال تستحق الانتباه الحريص، ليس كمجرد نوافذ على الثقافة الغربية، وإنما كآليات غير مسبوقة للقمع الطبقي. إذ كان اليانكي، في ما يبدو، قد اكتشفوا مع السينما كيفية استرضاء الطبقة العاملة بأكملها بكلفة نكلةٍ واحدة أسبوعيًّا.

قال: «فقط انظر إلى حقبة الكساد عندهم. من البداية إلى النهاية استمرت عشر سنوات. عِقد كامل تُرِكت فيه البروليتاريا لتتدبر أمرها وحدها، مستجديةً في الأزقّة ومتسولةً على أبواب الكنائس. لو كانت ثمة لحظة مناسبة لانعتاق العامل الأمريكي من نير العبودية، لكانت تلك اللحظة بكل تأكيد. لكن هل انضموا إلى أخوتهم في السلاح؟ هل حملوا بَلطاتِهم وهشّموا أبواب القصور؟ ولا ليوم واحد. عوضًا عن ذلك، كانوا يُجرجرون أقدامهم إلى أقرب دارٍ لعرض الأفلام، حيث تظل أحدث الخيالات معلَّقة أمامهم مثل ساعةِ جيب في نهاية سلسلة. نعم يا ألكسندر، سيكون لزامًا علينا أن ندرس هذه الظاهرة بأكبر قدر من المثابرة والحرص».

وهكذا، درسا هذه الظاهرة.

وأدرك الكونت أن أوسيب اضطلع بهذه المهمة بأكبر قدر من المثابرة والحرص، لأن الأفلام عندما كانت تُعرض، كان يعجز عن البقاء ساكنًا. أثناء أفلام الـ«ويسترن»، عندما يندلع عراكٌ في خمّارةٍ ما، كان يُحكِم قبضتيه، يتفادى ضربةً، يُوجّه لكمة يسارية للأحشاء، ولكمة

صاعدة للفكّ. عندما رَقَص فيودور أستير مع جنجيرا روجرز(*)، كانت أصابعه تنفتح على وسعها وترفرف حول خصره بينما قدماه تراوحان إلى الخلف والأمام على السجادة. وعندما خرج بيلا لوغوسي من الظلال، قَفَز أوسيب من مقعده وكاد يسقط على الأرض. ثم، مع تتالي «تيترات» الفيلم، كان يهزّ رأسه بتعبير أشبه بالإحباط الأخلاقي.

كان يقول: «أمرٌ مشين».

«مشين».

«خبيث!».

مثل العالِم المخضرم، كان أوسيب يشرح ببرود ما شاهداه للتوّ أيًّا كان. كانت الأفلام الموسيقية «معجَّنات مصمَّمة لاسترضاء المعدَمين بأحلام يقظة عن نعمةٍ لا يمكن الوصول إليها». وأفلام الرعب «خفّة يدٍ تُستبدل فيها مخاوف الرجل العامل بمخاوف فتياتٍ جميلات». وكوميديات الفودفيل «مخدرات سخيفة»، وأفلام الويسترن؟ الدعاية الأكثر مراوَغةً على الإطلاق: حكايات يُمثَّل فيها الشرُّ بتعاونيّات تَسلب وتَنهَب، بينما يُمثل الفضيلة شخصٌ واحد يجازف بحياته للدفاع عن حُرمة الـمِلكيّة الخاصة لشخص آخر. إجمالًا؟ «هوليوود هي أخطر قوة في تاريخ الصراع الطبقي».

أو هكذا كان أوسيب يجادل، إلى أن اكتشف ذلك النوع من الأفلام الأمريكية الذي سيُعرف لاحقًا باسم «فيلم نوار». باهتمام مفتون شاهد أمثال «مسدس للإيجار» و«ظلال الشك»، و«تأمين مزدوج»(**).

(*) يلاحظ القارئ طريقة نطق أوسيب للأسماء الأمريكية، حيث يقول «سان فرانشيسكو» بدلًا من «سان فرانسيسكو»؛ و«فيودور أستير» بدلًا من «فريد أستير» و«جنجيرا روجرز» بدلًا من «جينجر روجرز». (المترجم)

(**) «مسدس للإيجار» This Gun for Hire (إنتاج 1942)؛ «ظلال الشك» Shadow of a Doubt (إنتاج 1943)؛ «تأمين مزدوج» Double Indemnity (إنتاج 1944). (المترجم)

«ما هذا»، كان يوجّه سؤاله لا لأحدٍ على وجه التعيين. «مَن الذي يصنع تلك الأفلام؟ وبرعاية مَن؟».

من فيلم إلى آخر، بدا أن هذا الاتجاه الفني يرسم صورة لأمريكا حيث الفساد والقسوة يسترخيان على الأريكة؛ حيث العدالة متسوِّلة، والطِيبة حمقاء؛ حيث الإخلاص مجبولٌ من ورق، والمصلحة الشخصية مصنوعةٌ من حديدٍ صُلب. بعبارة أخرى، يرسم صورة جَسورة للرأسمالية كما هي حقًا.

«كيف حدث ذلك يا ألكسندر؟ لماذا يسمحون بصناعة تلك الأفلام؟ ألا يدركون أنهم يدقُّون إسفينًا تحت أحجار أساساتهم ذاتها؟».

لكن لم ينجح أي نجم من نجوم هذا الجنس السينمائي في أن يخلب لُبّ أوسيب أكثر من همفري بوغارت. باستثناء «كازابلانكا» (الذي رآه أوسيب فيلمًا يصلح للنساء)، كانا قد شاهدا كل أفلام بوغارت مرتين على الأقل. سواء في «الغابة المتحجرة»، أو «الغنى والفقر»، أو، خصوصًا، «الصقر المالطي»(*)، كان أوسيب يثمِّن نظرات الممثل الجامدة، وتعليقاته التهكميّة، وافتقاره للمشاعر عمومًا. «لاحظ كيف يبدو دائمًا نائيًا ولا مبالٍ في الفصل الأول؛ لكن فور أن يُستثار غضبه يا ألكسندر؛ لا تجد شخصًا جاهزًا للقيام بما هو ضروري أكثر منه- يتصرّف بذهنٍ صافٍ، بسرعة، ودون وازعٍ من ضمير. هاكَ حقًّا ‹رجل ذو عزم›».

في الغرفة الصفراء، تناول أوسيب لقمتين من بتلّو إميل المسبَّك مع صوص الكافيار، وجرعة من النبيذ الجورجيّ، ورفع رأسه في الوقت المناسب ليرى صورة «جسر البوابة الذهبية».

(*) «الغابة المتحجرة» The Petrified Forest (إنتاج 1936)؛ «الغنى والفقر» To Have and Have Not (إنتاج 1944)؛ «الصقر المالطي» The Maltese Falcon (إنتاج 1941). (المترجم)

مُجدّدًا، في الدقائق التي تلت ذلك، استعانت الآنسة «وندرلي» الفاتنة، وإن كانت غامضةً نوعًا، بخدمات «سام سبيد». ومجدّدًا، أُطلق الرصاص على شريك «سبيد» في أحد الأزقّة، وبعدها بساعات لقي «فلويد ثِرسبي» المصير نفسه. ومجددًا، وضع «جويل كايرو»- أو «الرجل البدين»- و«بريجيد أوشوغنسي»، بعد أن تحالفا خلسةً، المخدّر في ويسكي «سبيد» وتوجّهها إلى رصيف المرفأ، وقد أصبحت طريدتهما المراوِغة أخيرًا في متناول أيديهما. لكنْ لحظة كان «سبيد» يعالج رأسه، دخلَ غريبٌ في معطف أسود وقبعة سوداء مكتبه مترنّحًا، وأسقط صُرَّة على الأرض، ثم سقط ميّتًا على الكنبة.

سأل الكونت: «هل تظن أن الروسَ وحشيّون على وجه الخصوص يا أوسيب؟».

«ما هذا؟»، همس أوسيب، وكأنه يشاهد الفيلم وسط جمهور لا يريد إزعاجَهم.

«هل تظنِ أننا، من حيث الجوهر، أكثر قسوة من الفرنسيين، أو الانكليز، أو هؤلاء الأمريكان؟».

«ألكسندر»، هَسْهَس أوسيب (فيما كان «سبيد» يغسل دمَ الغريب عن يديه)، «ما الذي تتحدث عنه بحق الجحيم؟».

«أقصد، هل تظن أننا ميّالون أكثرَ من غيرنا إلى تدمير ما صنعَته أيدينا؟».

أوسيب، الذي لم يكن قد حوّل عينيه عن الشاشة، استدار الآن ليحدّق في الكونت غير مصدِّق. ثم نهض فجأة، ومضى إلى آلة العرض ضاربًا الأرض بقدميه، وجمَّد الفيلم لحظة كان «سبيد»، وقد وضع الصرَّة الملفوفة لفّةً مرتجَلةً على المكتب، يُخرج مطواته من جيبه.

سأله وهو يشير إلى الشاشة: «هل معقولٌ أنك لا ترى ما الذي يحدث؟ بعد أن وصل من الشرق إلى رصيف ميناء سان فرانشيسكو،

أطلق النار على «الكابتن جاكوبي» خمس مرات. وقفز من سفينة محترقة، وراح يترنّح عبر المدينة، واستخدم آخر أنفاسه لكي يجلب إلى الرفيق «سبادسكي» هذه الصرَّة الغامضة الملفوفة في ورق ومربوطة بخيط. وأنت تختار هذه اللحظة بالذات للتحدث في أمور ميتافيزيقية!».

كان الكونت، بعد أن استدار إليه، يرفع إحدى يديه ليحمي عينيه من وهج آلة العرض.

قال: «لكننا شاهدناه يفتح تلك الصُرَّة ثلاث مرات على الأقل من قبل يا أوسيب».

«وما الفارق؟ لقد قرأتَ آنا كارنينا عشر مرات على الأقل، لكنني أراهن أنك ستظل تبكي عندما ترمي نفسها تحت القطار».

«هذا شيء مختلف تمامًا».

«فعلًا؟».

ساد صمتٌ. ثم بتعبير حانق، أطفأ أوسيب آلة العرض، وفتح النور، وعاد إلى الطاولة.

«طيّب يا صديقي. أستطيع أن أرى أنك مستاء من شيء ما. لنرَ إن كان بإمكاننا أن نفهمه، لكي نستطيع متابعة دراستنا».

هكذا، وصفَ الكونت لأوسيب المحادثة التي جَرَت بينه وبين ميشكا، أو بالأحرى، نقل إليه آراء ميشكا حول إحراق موسكو، وإسقاط التماثيل، وإخراس الشعراء، وذبح أربعة عشر مليون رأس من الماشية.

الآن، كان أوسيب، بعد أن أعرب عن إحباطه، يصغي إلى الكونت بانتباه، ومن وقت لآخر يومئ برأسه ردًّا على مختلف آراء ميشكا.

فور أن انتهى الكونت، قال: «طيّب. إذًا، ما الذي يزعجك بالضبط يا ألكسندر؟ هل يصدمك زعمُ صديقك؟ هل يجرح أحاسيسك؟ أنا أفهم قلقك على حالته العقلية؛ لكن ألا يمكن أن يكون محقًّا في آرائه لكن مخطئًا في مشاعره؟».

«ماذا تقصد؟».

«مثلما في ‹الصقر المالطي›».

«أوسيب، أرجوك».

«لا، أنا جادٌّ تمامًا. ما الطائر الأسود إن لم يكن رمزًا للتراث الغربي نفسه؟ نحتٌ صنعه فرسان الحملات الصليبية من الذهب والمجوهرات تكريمًا لـمَلكٍ ما، إنه شعار الكنيسة والملكيّات- تلك المؤسسات الجشعة التي طالما اعتُبِرَت أساسًا لكل فنون وأفكار أوروبا. طيّب، من ذا الذي يقول إن حبَّهم لذلك التراث ليس مضلِّلًا مثل حبّ ‹الرجل البدين› لصقره؟ لعل ذلك **بالضبط** هو ما يجب أن يُكنَس جانبًا قبل أن يستطيع شعبُهم أن يأمل في المضي قدمًا».

صارت نبرته أكثر لينًا.

«البلاشفة ليسوا مثل ‹القوط الغربيين› يا ألكسندر. نحن لسنا جحافل بربريّة تُغِير على روما وتُدمِّر كل ما هو جميل بدافع الجهل والحسد. العكس هو الصحيح. عام 1916، كانت روسيا دولة بربريّة. كانت الأمة الأكثر جهلًا في أوروبا، وكان أغلب سكانها يعيشون في صيغة معدَّلة من القِنانة: يَفلحون الحقول بمحاريث خشبية، ويضربون زوجاتهم على أضواء الشموع، ويَسقطون على مصاطبهم وهم سكارى من الفودكا، ثم يستيقظون فجرًا ليركعوا أمام أيقوناتهم. بعبارة أخرى، يعيشون تمامًا مثلما عاش أسلافهم قبل خمسمئة عام. ألا يمكن أن يكون تبجيلنا لكل التماثيل والكاتدرائيات والمؤسسات القديمة هو بالضبط ما كان يعرقلنا عن التقدم؟».

توقف أوسيب لحظة ليعيد ملء كأسيهما بالنبيذ.

«لكن أين نقفُ الآن؟ إلى أي مدى وصلنا؟ عن طريق مزاوجة الإيقاع الأمريكي بالأهداف السوفييتية، أصبحنا الآن على وشك القضاء على الأمّية **تمامًا**. نساء روسيا اللاتي عانين طويلًا، قِنانتنا الثانية، ارتقين إلى

وضعية المساواة. شيّدنا مدنًا جديدة بالكامل وصار إنتاجنا الصناعي يفوق نظيرَه في معظم أرجاء أوروبا».

«لكن بأي ثمن؟».

ضرب أوسيب على الطاولة.

«بأغلى الأثمان! لكن هل تظن أن إنجازات الأمريكان- الذين يحسدهم العالم أجمع- جاءت بلا ثمن؟ فقط اسأل أخوتهم الأفارقة. وهل تظن أن المهندسين الذين صَمّموا ناطحات سحابهم المرموقة، أو شيّدوا طرقهم السريعة، ترددوا للحظة قبل تسوية الأحياء الصغيرة الجميلة التي تقف في طريقهم بالأرض؟ أؤكد لك يا ألكسندر، لقد وضعوا الديناميت وضغطوا على المكابس بأنفسهم. وكما قلت لك من قبل، نحن والأمريكان سنقود العالم لما تبقى من هذا القرن لأننا الدولتان الوحيدتان اللتان تعلّمتا إزاحة الماضي جانبًا بدلًا من الانحناء أمامه. لكن في حين فعلوا هم ذلك خدمةً لفردانيّتهم الغالية، نحاول نحن أن نفعله خدمةً للصالح العام».



عندما فارق الكونتُ أوسيب في العاشرة، بدلًا من صعود السلالم إلى الطابق السادس، توجّه إلى الشاليابين راجيًا أن يجده خاويًا. لكن عندما دخل البار، رأى مجموعة صاخبة تتألف من صحافيين، وأعضاء في السلك الدبلوماسي، واثنتين من المضيفات الشابات في فستان أسود قصير- ووسط الهرج، للَّيلة الثالثة على التوالي، كان الضابط المعاون للجنرال الأمريكي. كان منحنيًا إلى الأمام وذراعاه مفرودان، يتراوح إلى الخلف والأمام على مشطي قدميه، ويقصّ حكايته مثل مُصارعٍ على البساط.

«... متفاديًا صاحب النيافة، تقدم بورترهاوس العجوز ببطء من الأوزّة الثانية، في انتظار أن تنظر فريسته في عينيه. ذلك هو السر، تعرفون: النظر في العينين. تلك هي اللحظة التي يترك فيها بورترهاوس خصومه يتخيلون لثانية واحدة أنهم أندادٌ له. أخذ بورترهاوس خطوتين إلى اليسار، ثم فجأة أخذ ثلاثًا إلى اليمين. فقدت الأوزة توازنها، ونظرَت في عيني ذلك الصبي العجوز- وعندها، قفز بورترهاوس!».

قفز الضابط المعاون.

صرخَت المضيفتان.

ثم قهقهتا.

عندما عاد الضابط المعاون ليقف منتصب القامة، كان يمسك بثمرة أناناس. بيدٍ ملفوفة حول حَلقِها والأخرى تحت ذيلِها، عرض الكابتن الثمرةَ لكي يراها الجميع، تمامًا كما كان الجنرال قد عَرض الأوزة الثانية.

«وعند هذا المنعطف الحاسم، انفكّ زنّار الجنرال الطيب وانفتح روبُه، كاشفًا عن سروال عسكري أمريكي قصير مطابِق للمعايير- لدى رؤيته، سقطت مدام فيلوشكي مغشيًّا عليها».

هلّل الجمهور، وانحنى الضابط المعاون. ثم وضع ثمرة الأناناس برفق على البار ورفع مشروبه.

قال أحد الصحافيين: «ردّة فعل مدام فيلوشكي تبدو مفهومة تمامًا. لكن ماذا فعلت أنتَ عندما رأيت سروال الرجل العجوز؟».

صاح الضابط المعاون: «ماذا فعلتُ؟ قدمتُ له التحية العسكرية بالطبع».

ثم أفرغ كأسه وسط ضحكات الآخرين.

«الآن، يا سادة. أقترح الخروج إلى الليل. أستطيع أن أقول من خبرتي الشخصية إن ‹القومي› يقدِّم السامبا الأكثر بؤسًا في النصف الشمالي من الكرة الأرضية. عازف الطبل، صاحب العين العمياء، لا يعرف كيف

يضرب الصنج. وقائد الفرقة لا يمتلك أدنى حسّ بالإيقاع اللاتيني. كانت أكثر مرة يقترب فيها من أمريكا الجنوبية عندما سقط طابقًا من السلالم على دَرَج من خشب الماهوغاني. لكنه يتمتع بنوايا ممتازة وخصلة شعر مستعارة كأنها نزلت من الجنّة».

على ذلك، ترنَّح الجمع المتنافر خارجين إلى الليل، تاركين الكونت ليقترب من البار في سكينة وهدوء نسبيَّيْن.

«مساء الخير يا أودريوس».

«مساء الخير يا كونت روستوف. ماذا تحبّ؟».

«كأس أرمانياك، ربما».

بعدها ببرهة، بينما كان الكونت يدوِّر البراندي ليقلِّبه في كأسه المكتنزة، وجد نفسه يبتسم للصورة التي رسمها معاون الضابط- ما قاده بالتالي للتأمل في شخصية الأمريكان بوجه عام. بطريقته المقنِعة، كان أوسيب قد دفع بأن هوليوود، أثناء الكساد الكبير، أضعفَت القوى الحتمية للثورة عن طريق احتيالها الـمُحكَم. لكن الكونت تساءل إن كان أوسيب لم يقلِب تحليلَه رأسًا على عقب. صحيحٌ، بكل تأكيد، أن الأفلام الموسيقيّة المبهرَجة والتمثيليات الهزلية الرخيصة انتعشت أثناء الثلاثينيات في أمريكا. لكنْ انتعشَت معها أيضًا موسيقى الجاز وناطحات السحاب. هل كانت تلك مخدرات صُمِّمت لإخماد أمة متقلقِلة؟ أم كانت علاماتٍ على روحٍ فطريّة مستعصية على القمع لم يستطع الكساد نفسه إخمادها.

بينما كان الكونت يعطي تقليبةً أخرى للبراندي، جلس زبونٌ على بعد ثلاثة مقاعد إلى يساره. لدهشة الكونت، كان الضابط المعاون.

أودريوس، المتيقّظ دائمًا، انحنى وهو يسند ساعده على البار: «مرحبًا بك مرة أخرى يا كابتن».

«شكرًا يا أودريوس».

«كيف أخدمك».

« الطلب السابق نفسه، أعتقد».

استدار أودريوس ليحضِّر المشروب، بينما راح الكابتن يطبِّل بيديه على البار ويجولُ ببصره في خمول. عندما التقت نظراته مع الكونت، منحه إيماءة وابتسامة ودود.

لم يستطع الكونت أن يكتم السؤال: «ألن تذهب إلى ‹القومي›؟».

أجاب الأمريكي: «يبدو أن أصدقائي كانوا متعجّلين جدًّا على أن يصطحبوني، حتى إنهم تركوني وراءهم».

منحه الكونت ابتسامة متعاطفة. «يؤسفني سماع ذلك».

«لا، أرجوك لا تأسف. أنا مغرم جدًّا بأن أُترك وراءً. دائمًا ما يمنحني هذا منظورًا جديدًا تمامًا حول المكان الذي ظننتني ذاهبًا إليه، أيًا كان. علاوة على ذلك، فأنا سأغادر في الصباح الباكر عائدًا إلى الوطن لبعض الوقت، إذًا لعلّ ذلك أفضل».

مدّ يده إلى الكونت.

«ريتشارد فاندروايل».

«ألكسندر روستوف».

منحه الكابتن إيماءةً ودودًا أخرى ثم أشاح ببصره، لكنه عاد لينظر إليه فجأة.

«ألم تكن النادل المسؤول عن طاولتي ليلة أمس في البويارسكي».

«نعم».

تنهَّد الكابتن في ارتياح.

«الحمد لله. لولا ذلك، لكان عليّ إلغاء مشروبي».

وكأنما بالاتفاق، وضع أودريوس المشروب على البار. تناول الكابتن رشفةً وأطلق تنهيدةً أخرى، تلك المرّة تنهيدة رضا. ثم تفحّص الكونت لبرهة.

«هل أنت روسي».
«حتى النخاع».
«طيّب إذًا، دعني أقول في البداية إنني متيّمٌ جدًّا ببلادكم. أحب حروف لغتكم الطريفة وتلك المعجّنات الصغيرة المحشوة باللحم. لكن فكرة أمّتكم عن الكوكتيل مزعجة للغاية...».
«كيف؟».
أشار الكابتن بمحاذاة البار مباشرة إلى أباراتشيك مشعَث الحاجبين كان يُدردِش مع شابة سمراء؛ كلاهما يمسك بمشروب أحمر بدرجة أرجوانيّة غريبة.
«فهمتُ من أودريوس أن هذه التوليفة تحتوي على عشرة مكونات مختلفة. فبالإضافة إلى الفودكا، والروم، والبراندي، وشراب الرمّان، تتباهى بخلاصة الوَرد، ورشّة من النكهات العطريّة، ومَصَّاصة مُذابَة. لكن الكوكتيل لا يفترَض أن يكون خليطًا غير متجانس. إنه ليس عبوَّة من الزهور المجففة ولا استعراضًا في عيد الفصح. في أفضل أحواله، يجب أن يكون الكوكتيل منعشًا، وأنيقًا، وصافيًا- وأن يقتصر على مكوِّنيْن اثنين لا أكثر».
«اثنان فقط؟».
«نعم. لكن يجب أن يكمّلا بعضهما البعض؛ أن يضحكا على نكات بعضهما البعض ويصحِّحا أخطاء بعضهما البعض؛ ولا يصرخان قَط في بعضهما البعض أثناء الحديث. مثل الجين والتونيك»، قالها، مشيرًا إلى مشروبه. «أو البوربون والماء... أو الويسكي والصودا...». هزّ رأسه، ورفع كأسه، وارتشف.
«معذرة على الإسهاب».
«لا بأس على الإطلاق».
أومأ الكابتن ممتنًّا، لكن بعد برهة تساءل:
«هل تمانع أن أبدي ملاحظة؟ أقصد من النوع الشخصي؟».

قال الكونت: «أبدًا».

دفع الكابتن مشروبه على البار وانتقل إلى الكرسي التالي.

«يبدو أن شيئًا يشغل بالك. أقصد، لَكَ نصف ساعة وأنت تقلِّب هذا البراندي. إذا لم تأخذ حذرك، ستكبر الدوَّامة التي خلقْتَها وتحفُر حفرةً في الأرض وينتهي بك الحال في القبو».

وضع الكونت كأسه ضاحكًا.

«أظنّك محقٌّ. لا بُد أن شيئًا يشغل بالي».

«طيّب إذًا»، قالها ريتشارد، مشيرًا إلى البار الخالي. «لقد جئتَ إلى المكان المناسب. منذ القِدم والجنتلمانات يجتمعون في مشارب كهذا ليخفّفوا الأحمال عن أنفسهم في صحبة أرواحٍ متعاطفة».

«أو غرباء».

رفع الكابتن إصبعًا في الهواء.

«ما من أرواح متعاطفة أكثر من الغرباء. إذًا، ما رأيك أن نتجاوز الديباجة. هل الأمر متعلّق بالنساء؟ المال؟ قَفْلَة الكاتب؟».

ضحك الكونت ثانية؛ ثم، مثل غيره من الجنتلمانات منذ القِدم، خفّف الأحمال عن نفسه لهذه الروح المتعاطفة. وَصَف فكرة ميشكا عن الروس وكيف أنهم خبراء غير عاديِّين في تدمير ما صنعته أيديهم. ثم وَصَف فكرة أوسيب عن ميشكا وكيف أنه محقٌّ تمامًا لكنّ تدمير الآثار والتحف أمرٌ جوهريّ لتقدم الأمم.

«أوه، إذًا هذا هو الأمر»، قالها الكابتن، وكأن ذلك كان تخمينه الرابع.

سأله الكونت: «نعم. لكن ما النتائج التي تنتهي إليها من كل ذلك؟».

«ما النتائج؟».

تناول ريتشارد رشفة.

«أظن أن صديقيك كليهما شديدا الفطنة. أقصد أن الأمر يتطلّب قدرًا جيدًا من الَحذاقة لكي تجذبَ خيطًا من القماش دون أن ينقطع. لكنني أشعر بأن كليهما فاتَه شيء ما...».

دقّ بأصابعه على البار وهو يحاول صوغ أفكاره.

«أفهم أن ثمة تاريخًا صغيرًا من التفكيك هنا في روسيا؛ وأن هدمَ مبنًى قديم جميل لا بُد يولِّد بعض الأسى على ما انقضى وبعض الإثارة بشأن الآتي. لكن في نهاية المطاف، لا يسعني إلا الشك في أن الأشياء الكبرى تبقى وتدوم.

«خُذ صاحبنا سقراط مثلًا. قبل ألفي عام، كان يتجوّل في السوق مشاركًا أفكاره مع كل من يصادفه؛ ولم يشغل نفسه حتى بتدوينها. ثم وقع في ورطة ما، فثَقَب تذكَرَته بنفسه، سَحب مِقبَسه، طَوى شمسيّته. أديوس. أديو. فِينِي.

«مضى الزمن قُدمًا، كعادته. وسيطرَ الرومان. ثم البرابرة. ثم دفنّاه نحنُ تحت العصور الوسطى الممتدّة. مئات السنوات من الطواعين والسموم وإحراق الكتب. وبشكلٍ ما، بعد كل ذلك، لا تزال الأشياء الكبيرة التي تصادَف أن قالها ذلك الرجل في السوق معنا اليوم.

«أظن أن النقطة التي أحاول إثباتها هي أننا، كجنس من المخلوقات، لسنا ماهرين بما يكفي في كتابة المراثي. لا نعرف كيف سينتبه الناس إلى الرجلِ أو إنجازاتِه بعد ثلاثة أجيال من الآن، أكثر مما نعرف ماذا سيتناوله حفيدُ حفيدِ حفيدِه على الإفطار يوم الثلاثاء في شهر مارس. لأن ربّة القدر عندما تُسلِّم شيئًا ما إلى الأجيال القادمة، إنما تسلِّمه من وراء ظهرها».

ظل كلاهما صامتيْن لبرهة. ثم أفرغ الكابتن كأسه وأشار بإصبعه إلى براندي الكونت.

«قُل لي، مع ذلك، هل يفعل هذا الشيء ما يتوجّب عليه؟».



عندما غادر الكونت الشاليابين بعدها بساعة (وقد انضمّ إلى الكابتن فاندروايل في جولتين من توليفة أودريوس الحمراء الأرجوانيّة)، فوجئ لرؤية صوفيا لا تزال تقرأ في البهو. حين وقعت عيناه عليها، لوّح لها بإشارة خفيفة من يده فردَّت بإشارة خفيفة من يدها قبل أن ترجَع إلى كِتابها، برزانة...

استخدم الكونت كل حضور ذهنه ليقطع البهو ماشيًا الهُوَيْنا. وضع قدمه بحرص على الدَرَج، وقد اتخذ مظهر الرجل هادئ البال، وبدأ يصعد ببطء. لكن لحظة أن انعطف حول الزاوية، انطلق عدوًا بأقصى سرعة.

بينما يندفع إلى أعلى، كان يسيطر بالكاد على إحساسه بالبهجة. كانت العبقرية الخفيّة للعبة صوفيا تكمن في أنها تختار متى تلعبها. بداهةً، كانت تنتظر أمثال تلك اللحظات التي يكون فيها مشتّتًا أو غافلًا، وعلى هذا النحو تنتهي اللعبة عمومًا قبل أن يعرف حتى أنها بدأت. لكن الليلة، ستتغير الأمور- لأن الكونت أدرك من تلويحة صوفيا العادية أن اللعبة قائمة.

لقد نلتُ منها الآن، هكذا فكّر وهو يتجاوز الطابق الثاني بضحكةٍ صغيرة خبيثة. لكن وهو يستدير على قَلبَة الطابق الثالث، أدركَ مزية ثانية تمتلكها صوفيا في هذه اللعبة: صِغَر سنّها. إذ كانت خطاه قد بدأت تبطئ على نحو ملحوظ. وإذا كان تهدُّج أنفاسه مؤشرًا دالًّا، فسيصل إلى الطابق السادس زحفًا- هذا إن وصل حيًّا. وهكذا، من باب الحرص، أبطأ خطاه عندما وصل إلى الطابق الخامس، وصار يصعد بخطى ثابتة.

فَتَح الباب المؤدي إلى سلم البُرج، ثم توقف وأَنصت. نظر إلى أسفل السلم، فلم يرَ شيئًا. أيمكن أن تكون قد تجاوزته؟ مستحيل. لم يكن لديها ما يكفي من الوقت. مع ذلك، احترازًا من ذلك الاحتمال البعيد أن تكون قد نقلت نفسها بطريقة سحريّة، صعد الكونت الطابق الأخير على أطراف

أصابعه وعندما فتح الباب، فعل ذلك بلا مبالاة- فقط ليرى أن الغرفة، في واقع الأمر، كانت خالية.

فركَ يديه معًا وهو يتساءل: أين أضع نفسي؟ فكّر في صعود الفراش والتصرف كأنه نائم، لكنه أراد أن يرى التعبير على وجهها. لذا جلس في كرسي المكتب، وأماله إلى الخلف على قائمتين، وسَحب أقرب كتاب إلى يده، تصادف أن كان مسيو مونتاني. فتح المصنّف كيفما اتُّفق، فوقع على مقالة «عن تعليم الأطفال».

«بالضبط»، قالها بابتسامة مراوغة. ثم تبنّى تعبيرَ الجهبذ واسع الاطلاع وهو يتظاهر بالقراءة.

لكنّ خمس دقائق مرت دون أن تظهر.

«آه، طيب. لا بُد أنني كنت مخطئًا»، هكذا كان يعترف ببعض الإحباط، عندما انفتح الباب بقوة. لكنها لم تكن صوفيا.

كانت إحدى خادمات الغرف. في حالة هلع.

«إيلينا. ما الأمر؟».

«إنها صوفيا! لقد سقطَت».

قفز الكونت عن كرسيه.

«سقطت! أين؟».

«على سلّم الخدمات».

انطلق الكونت متجاوزًا الخادمة واندفع كالسهم نازلًا سلّم البُرج. بعد قلبَتيْن من السلالم الخاوية، بدأ صوتٌ في زاوية ما من عقله يقول إن إيلينا لا بُد مخطئة؛ لكن عندما استدار حول بسطة الطابق الثالث، وجدَ صوفيا هناك- مفلطحةً على الدَرَج، عيناها مغلقتان، وشعرها مشعَّث بالدماء.

«يا ربي!».

سقط الكونت على ركبتيه.

«صوفيا...».

لم ترُدّ.

رفع الكونت رأسها برفق، فرأى الشجَّ فوق جبينها. لم تنكشِف جمجمتُها، لكنها كانت تنزف وغائبة عن الوعي.

كانت إيلينا خلفه الآن، تذرف الدموع.

قالت: «سأذهب لآتي بطبيب».

لكن الساعة تجاوزت الحادية عشرة. ومن يعرف كم سيستغرق ذلك؟

وضع الكونت ذراعيه تحت رقبة صوفيا وركبتيها، ورفعها عن الدَرَج، وحملها نازلًا الطوابق الباقية. في الطابق الأرضي، دفع الباب بكتفه وشقّ البهو. لم ينتبه، إلا في منطقة نائية من وعيه، إلى الزوجين في منتصف العمر اللذين ينتظران المصعد، إلى فاسيلي الواقف عند مكتبه؛ إلى الأصوات في البار. وفجأة، وجد نفسه على دَرَج المتروبول في هواءِ الصيف الدافئ- للمرة الأولى منذ أكثر من عشرين عامًا.

روديون، الحاجب الليلي، نظر إلى الكونت مصدومًا.

قال الكونت: «تاكسي. أحتاج إلى تاكسي».

من فوق كتف الحاجب، رأى أربع سيارات أجرة مصفوفة على بعد خمسة عشر مترًا من المدخل، في انتظار آخر زبائن الشاليابين. كان سائقان في مقدمة الطابور يدخّنان ويثرثران. قبل أن يتمكّن روديون من رفع صافرته إلى شفتيه، كان الكونت يجري باتجاههما.

عندما لاحظ السائقان الكونت وهو يقترب، ارتسمت على وجه أحدهما ابتسامة متكلِّفة عارفة، وعلى وجه الآخر نظرة استنكار- إذ ظن كلاهما أن الجنتلمان يحمل بين ذراعيه فتاةً سكرانة. لكنهما وقفا في وضع انتباه عندما رأيا الدم على وجهها.

قال الكونت: «ابنتي».

«هنا»، قالها أحد السائقين، وهو يلقي سيجارته على الأرض ويركض ليفتح الباب الخلفي للسيارة.

قال الكونت: «إلى مستشفى سان أنسيلم».

«سان أنسيلم؟».

«بأسرع ما يمكنك».

حرَّك السائق ناقل السيارة إلى وضعية الانطلاق، ومضى في ميدان المسرح متجهًا إلى الشمال بينما راح الكونت، وهو يضغط منديلًا مطويًا على جُرح صوفيا بإحدى يديه ويمسح على شعرها بالأخرى، يتمتم بتطمينات غير مسموعة- وراحت شوارع المدينة تمرق بنافذته غير مرئيَّة.

بعد دقائق، توقفت السيارة.

قال السائق: «وصلنا»، ثم خرج وفتح الباب الخلفي.

خرج الكونت بحرص وصوفيا بين ذراعيه، ثم توقف فجأة وقال: «ليست معي نقود».

«أيّ نقود! اذهب بالله عليك».

عبر الكونت الرصيف وهرع باتجاه المستشفى، لكن وهو يعبر بابها، عرف أنه ارتكبَ خطأً فظيعًا. في ردهة المدخل، رأى رجالًا بالغين ينامون على المقاعد الطويلة، مثل لاجئين في محطة للقطارات. كانت أضواء الردهة ترتعش وكأنما يضيئها مُولِّد معطوب، وكان الهواء عابقًا برائحة النشادر ودخان السجائر. عندما كان الكونت شابًا، كانت سان أنسيلم واحدة من أرقى المستشفيات في المدينة. لكنّ ذلك كان قبل ثلاثين عامًا. الآن، لا بُد أن البلاشفة شيَّدوا مستشفيات جديدة- حديثة، وزاهية، ونظيفة- وتركوا هذه المنشأة القديمة كعيادةٍ لمحاربين قدامى، ومشرَّدين، ومنبوذين لولاها ما وجدوا علاجًا.

أزاح الكونت رجلًا بدا نائمًا وهو واقف، واتجه إلى مكتب تجلس إليه ممرضة شابة، تقرأ.

قال: «إنها ابنتي. لقد أصيبت».

رفعت الممرضة رأسها، وتركت مجلّتها. اختفت وراء أحد الأبواب. وبعد وقت بدا دهرًا، عادت بصحبة شاب في سترة الممارسين العموميين

البيضاء. تقدَّم الكونت بصوفيا وهو يرفع المنديل المشرَّب بالدماء ليُظهر الجرح. مرَّر الممارس العام يدَه على فمه.

قال: «هذه الفتاة يجب أن يراها جرّاح».

«وهل عندكم جرّاح؟».

«ماذا؟ لا، بالطبع لا». نظر إلى الساعة على الحائط. «في السادسة ربما».

«في السادسة؟ مؤكد أنها تحتاج إلى رعاية الآن. يجب أن تفعل شيئًا».

حكَّ الممارس العام فمه بيده ثانية ثم استدار إلى الممرضة.

«اعثري على الدكتور كرازناكوف. قولي له أن يأتي إلى غرفة الجراحة الرابعة».

اختفت الممرضة ثانية، وسحبَ الممارس العام نقّالة على عجلات.

«ضعها هنا وتعال معي».

دفع الممارس العام صوفيا في الردهة، والكونت إلى جانبه، ثم دخلا بها إلى أحد المصاعد. فور الوصول إلى الطابق الثالث، دلفا من باب متأرجح إلى رواق طويل فيه نقّالتان أخريان، يرقد على كل منهما أحد المرضى.

«ادخُل هنا».

دفع الكونت الباب لينفتح ودفع الممارس العام صوفيا إلى غرفة الجراحة الرابعة. كانت غرفة باردة، مبلّطة من الأرض إلى السقف. في أحد الأركان، كانت البلاطات قد بدأت تتساقط من الملاط، وثمة طاولة جراحة، ومصابيح معلّقة على أعمدة، وحاملة أدوات جراحيّة. بعد بضع دقائق، انفتح الباب ودخل طبيبٌ غير حليق بصحبة الممرضة الشابة. بدا أنه أوقِظ من نومه للتوّ.

قال بصوت منهَك: «ما الأمر؟».

«فتاة صغيرة بإصابة في الرأس يا دكتور كرازناكوف».

قال: «طيّب. طيّب»، ثم أشار بيده إلى الكونت مضيفًا: «ممنوع الزوّار في غرفة الجراحة».

أمسك الممارس العام بمرفق الكونت.

قال الكونت: «انتظر لحظة. هل هذا الرجل مؤهَّل».

نظر كرازناكوف إلى الكونت وقد احمرّ وجهه. «ماذا قال؟».

استمر الكونت في مخاطبة الممارس العام الشاب.

«لقد قلتَ إنها تحتاج إلى جرّاح. هل هذا الرجل جرّاح؟».

صرخ كرازناكوف: «أخرجه من هنا، أقول لك».

لكنّ باب غرفة الجراحة تأرجح منفتحًا مرة أخرى، ودخل رجلٌ طويل القامة في أواخر أربعينيّاته بصحبة مرافِقة حسنة الهندام.

سأل: «من المسؤول هنا؟».

قال كرازناكوف: «أنا المسؤول. من أنت؟ ماذا يحدث؟».

أزاح الوافد الجديد كرازناكوف جانبًا، واقترب من الطاولة وانحنى على صوفيا. فَرَق شعرها بحذرٍ شديد ليفحص الجرح. رَفَع أحد حاجبيها بإبهام ثم أخذ نبضها بالضغط على الرسغ والنظَر إلى ساعته. عندها فقط استدار إلى كرازناكوف.

«أنا لازوفسكي، رئيس قسم الجراحة بمستشفى البلديّة الأول. سأشرف على هذه المريضة».

«ما هذا؟ الآن اسمعني يا أنتَ».

استدار لازوفسكي إلى الكونت.

«هل أنت روستوف؟».

قال الكونت، مذهولًا: «نعم».

«خبّرني متى وكيف حدث هذا. كُن دقيقًا بقدر الإمكان».

«لقد سقطَت وهي تصعد السلم جريًا. أظنها خبطَت رأسها في حافة البَسْطَة. كان ذلك في فندق المتروبول. قبل نصف ساعة لا أكثر».

«هل كانت تشرب؟».

«ماذا؟ لا. إنها طفلة».

«كم عمرها؟».

«ثلاثة عشر».

«اسمها».

«صوفيا».

«طيّب. ممتاز».

تجاهل لازوفسكي احتجاجات كرازناكوف المتواصلة، وحوَّل انتباهه إلى مرافِقته حسنةِ الهندام وبدأ يعطيها تعليمات بأن تجدَ ملابس جراحة للفريق ومكانًا مناسبًا للاغتسال؛ وأن تجمع الأدوات الجراحية اللازمة؛ وأن تُعقِّم كل شيء.

تأرجح الباب وانفتح، وظهر شابٌ يبدو رائق البال وكأنه أتى لتوه من حفلٍ راقص.

قال بابتسامة: «مساء الخير يا رفيق لازوفسكي. يا له من مكانٍ ساحر هنا».

«طيّب يا أنطونوفيتش. إلى العمل. إنه كسر في الجانب الأمامي من العظمة الجداريّة اليسرى مع احتمال وجود تورُّم دمويّ تحت الجافية. ارتدِ سترتك. وانظر إن كان بوسعك فعل شيء بشأن هذه الإضاءة».

«تمام يا سيدي».

«لكن أولًا، أَخرجهم من هنا».

فيما شَرَع أنطونوفيتش يسوق الطبيبيْن المقيمَيْن إلى خارج غرفة الجراحة بابتسامته الهانئة، أشار لازوفسكي إلى الممرضة الشابة التي كانت على وردية المكتب بالأسفل.

«أنتِ لا. اجهزي لكي تساعدي».

ثم استدار إلى الكونت.

«ابنتك أصيبت بشجٍّ قويّ يا روستوف، لكنها لم تسقط برأسها من طائرة. لقد صُمِّمت الجمجمة لتحمّل درجة معينة من المعاملة الخشنة. في مثل هذه الحالات، يكمن الخطر الأكبر في التورُّم وليس في التلف المباشر. لكنه ليس شيئًا جديدًا علينا. سنعتني بابنتك على الفور. في هذه الأثناء، سيكون عليك الجلوس في الخارج. سآتي وأبلغك فور أن أستطيع».

أُقتيد الكونت إلى مقعدٍ طويل أمام غرفة الجراحة مباشرة. استغرق بضع لحظات قبل أن يدرك أن الرواق قد أُخليَ في الدقائق السابقة: اختفت النقّالتان بمريضَيْهما النائميْن. فجأة، انفتح الباب المتأرجح في نهاية الرواق ليدخل أنطونوفيتش، الذي كان الآن في ملابس الجراحة، ويُصفِّر. ومع تأرجح الباب منغلقًا، رأى الكونت أن رجلًا في بدلة سوداء كان قد أمَسَك له الباب. عندما عاد أنطونوفيتش إلى غرفة الجراحة الرابعة، كان الكونت وحيدًا في الرواق الخالي.

كيف قضى الدقائق التالية؟ كما كان أي إنسان سيقضيها.

صلَّى للمرة الأولى منذ طفولته. سمَح لنفسه أن يتخيل الأسوأ، ثم طمأن نفسه أن كل شيء سيكون على ما يرام، مسترجعًا ملاحظات الجرّاح القليلة مرةً بعد مرة.

كرر لنفسه: «لقد صُمِّمت الجمجمة لتحمُّل درجة معينة من المعاملة الخشنة».

لكن رغم إرادته، زارته أمثلةٌ مناقِضة. تذكَّر حطّابًا دمثًا من قرية بيتروفسكوي، على سبيل المثال، كان قد أُصيب في الرأس في زهرة شبابه بعدما سقط عليه غصنٌ ثقيل. عندما استعاد وعيه، كان قويًا كالمعتاد، لكن واجمًا؛ في بعض الأوقات كان يُخفق في التعرف على أصدقائه؛ ودون أدنى استثارة كان ينفجر غضبًا في شقيقاته- وكأنه يذهب للفراش رجلًا، وينهض من الفراش رجلًا آخر.

بدأ الكونت يوبّخ نفسه: كيف أمكنه أن يترك صوفيا تلعب لعبة متهوّرة كهذه؟ كيف أمكنه أن يقضي ساعة من الانبساط في بارٍ شاغلًا نفسه باللوحات التاريخية والتماثيل- بينما كانت ربّة القدر تجهّز لوضع حياة ابنته على المحكّ؟

رغم كل الهواجس المصاحبة لتنشئة طفلةٍ- حول الواجبات المدرسية، والفساتين، والسلوكيات- تظل مسؤولية الأب، في نهاية المطاف، غاية في البساطة: توصيل الطفلة بأمان إلى البلوغ حتى تستطيع أن تحظى بفرصة لعيش حياة هادفة و، بمشيئة الله، هانئة.

مرت دقائق لم يعرِف لها عددًا.

انفتح باب غرفة الجراحة وظهر الدكتور لازوفسكي. كان قناعُه مسحوبًا إلى أسفل ذقنه، ويداه خاويتين لكنّ مريلته ملوثة بالدم.

قفز الكونت واقفًا.

قال الجرّاح: «أرجوك يا روستوف. تفضّل بالجلوس».

عاد الكونت للجلوس على المقعد.

لم ينضم إليه لازوفسكي؛ بل وضع قبضتيه على وِركيْه ونظر إلى الكونت من أعلى بنظرة اقتدارٍ واضحة.

«قلتُ لك، الخطر الأكبر في تلك المواقف هو التورُّم. لقد خفَّفنا من الخطر. مع ذلك، فقد أصيبت بارتجاج، وهو عمليًّا كدمة في المخ. ستعاني من صداع وستحتاجَ إلى قسطٍ جيد من الراحة. لكن في غضون أسبوع، سوف تنهض سليمةً معافاة».

استدار الجرّاح لكي يذهب إلى حال سبيله.

مدّ الكونت يدًا.

«دكتور لازوفسكي...»، قالها، بطريقة شخص يريد أن يسأل سؤالًا، لكنه- فجأة- لا يجدَ الوسيلة لفعل ذلك.

لكنّ الجرّاح، الذي تعرّض لهذا الوضع من قبل، فهمَ ما يكفي.

«ستكون كما هي تمامًا... يا روستوف».

شرع الكونت يشكر الطبيب، لكن الرجل ذا البدلة السوداء فتح الباب في آخر الرواق مرة أخرى، تلك المرة لأوسيب غليبنيكوف.

قال الجرّاح للكونت: «معذرة».

التقى أوسيب ولازوفسكي في منتصف الرواق، وتباحثا لدقيقة في أصوات خفيضة بينما الكونت يراقبهما مبهوتًا.

عندما اختفى الجرّاح في غرفة الجراحة، جلس أوسيب إلى جوار الكونت على المقعد الطويل.

قال ويداه على ركبتيه: «طيّب يا صديقي. صغيرتك صوفيا سبَّبت لنا رعبًا حقيقيًّا».

«أوسيب... ماذا تفعل هنا؟».

«أردتُ أن أتأكد أنكما بخير».

«لكن كيف وجدتَنا؟».

ابتسم أوسيب.

«قلت لك يا ألكسندر، صَنْعتي أن أتابع بعض الأشخاص المثيرين للاهتمام. لكن هذا لا يهم الآن. ما يهم هو أن صوفيا ستكون بخير. لازوفسكي أفضل جرّاح في المدينة. غدًا صباحًا، سيأخذها إلى مستشفى البلديّة الأولى، حيث يمكنها أن تتعافى في جوٍّ مريح. لكن أخشى أنك لا يجب أن تبقى هنا أكثر من ذلك».

شَرع الكونت في الاحتجاج، لكن أوسيب رفع يدًا مهدِّئةً.

«اسمعني يا ساشا. إذا كنتُ أنا عرفتُ ما حدث الليلة، فسرعان ما سيعرفه آخرون. ولن يكون في صالحك، ولا في صالح صوفيا كذلك، إن وجدوك تجلس هنا. إذًا، هذا ما يجب أن تفعله: هناك سلّم في آخر هذا الرواق. عليك أن تنزل إلى الطابق الأرضي وتخرج من الباب المعدني الأسود، الذي يقود إلى زقاق خلف المستشفى. في الزقاق، ستجد رجلين في انتظارك سيرجعانك إلى الفندق».

قال الكونت: «لا أستطيع أن أترك صوفيا».

«أخشى أنك مضطر إلى ذلك. لكن قلقك مفهوم تمامًا. لذا فقد رتبتُ لأن يبقى شخصٌ مع صوفيا بدلًا منك إلى أن تصبح جاهزةً للعودة إلى بيتها».

عند هذه الملاحظة، انفتح الباب لتدخل امرأة في منتصف العمر تبدو متحيّرة ومرتعبة. كانت مارينا. وخلف الخيَاطة كانت مشرفةٌ ترتدي زيّ العمل.

قال أوسيب وهو ينهض: «آه. ها هي ذي».

نظرت مارينا إلى أوسيب أولًا، لأنه هو من وَقَف. ولأنها لم تره من قبل، استقبَلَت نظرته بقلق. لكن عندها رأت الكونت جالسًا على المقعد فركضت إليه.

«ألكسندر! ماذا حدث؟ ماذا تفعل هنا؟ لقد رفضوا إخباري بأي شيء».

«إنها صوفيا يا مارينا. لقد سقطَت سقطة سيئة على سلّم الخدمات في الفندق، لكنْ هناك جرّاح معها الآن. ستكون على ما يرام».

«الحمد لله».

استدار الكونت إلى أوسيب وكأنه على وشك تقديمه لها. لكن أوسيب استبقَه.

قال مبتسمًا: «الرفيقة ساماروفا. لم نلتقِ من قبل، لكنني أيضًا صديق لألكسندر. أخشى أنه مضطر إلى العودة إلى المتروبول. لكنه سيشعر براحة كبيرة إذا استطعتِ البقاء مع صوفيا إلى أن تستعيد عافيتها. أليس كذلك يا صديقي؟».

وضعَ أوسيب يدًا على كتف الكونت دون أن يرفع نظره عن مارينا.

قال الكونت: «أعرف أنني أطلب منك الكثير يا مارينا. لكن...».

«ولا كلمة أخرى يا ألكسندر. بالطبع سأبقى معها».

قال أوسيب: «ممتاز».
استدار إلى المرأة في زيّ العمل.
«هل ستحرصين على أن تحصل الرفيقة ساماروفا على كل ما تطلبه؟».
«نعم يا سيدي».
منحَ أوسيب لمارينا ابتسامةَ تطمين أخرى ثم سَحب الكونت من مرفقه.
«من هنا يا صديقي».
قاد أوسيب الكونت في الرواق وإلى داخل بيت الدَرَج الخلفي. نزلا معًا طابقًا واحدًا دون كلام ثم توقّف أوسيب على البَسْطة.
«هنا نفترق. تذكّر. انزل طابقًا آخر واخرج من الباب المعدني الأسود. بداهةً، سيكون من الأفضل ألا تَذكر لأي شخص أن أيًّا منّا كان هنا».
«أوسيب، لا أعرف كيف أردّ جميلك».
قال بابتسامة: «يا ألكسندر، لقد ظللتَ في خدمتي أكثر من خمسة عشر عامًا. ومن دواعي سروري أن أكون في خدمتك مرة واحدة». ثم مضى.
نزل الكونت الطابق الأخير وخرج من الباب المعدني الأسود. كان الفجر قد اقترب، وبرغم أنه وجد نفسه في الزقاق، لم يستشعر رقّة الربيع في الهواء. على الجانب الآخر من الزقاق، كانت ثمة شاحنة صغيرة كُتب على جنبها بأحرف كبيرة: «تعاونيّة مخابز النجم الأحمر». وكان شابٌ نابت الذقن يستند إلى باب مقعد الراكب وهو يدخّن. عندما رأى الكونت، رمى السيجارة ولطَم الباب خلفه. ودون أن يسأل الكونت من يكون، ذهب إلى مؤخرة الشاحنة وفتحَ الباب الخلفي.
«شكرًا»، قالها الكونت وهو يصعد إلى الداخل، دون أن يتلقى ردًّا.
فقط عندما انغلق الباب ووجد الكونت نفسه محنيًّا من وسطه في مؤخرة شاحنة، فَطِنَ إلى ذلك الإحساس المثير: رائحة الخبز الطازج. عندما رأى شعار تعاونية المخابز قبل لحظات، ظنَّه نوعًا من التمويه. لكن

هاكَ أكثر من مئتي رغيف مصفوفة على الأرفف المثبَّتة بطول أحد جانبي الشاحنة بترتيب مضبوط. برفقٍ، مدّ الكونت يده- وهو يكاد لا يصدق نفسه- ليضعها على أحد الأرغفة، فوجده طريًّا ودافئًا. لا بُد أنه خرج من الفرن قبل أقل من ساعة واحدة.

بالخارج، انغلق باب الراكب ودار محرك الشاحنة. سارع الكونت بالجلوس على المقعد الحديدي المواجه للرفوف وانطلقوا في طريقهم.

في الصمت، أنصت الكونت لصوت انتقال تروس الشاحنة. بعد أن أسرعت وأبطأت وهي تدخل وتخرج من المنعطفات المختلفة، تَسَارع المحرك الآن في ما بدا أنه طريق سريع.

زحزح الكونت نفسه إلى مؤخرة الشاحنة وظهره محنيٌّ، ونظر من شبّاك الباب المربع الصغير. لوهلة، راح يراقب المباني والظِلّات القماشية ولافتات المتاجر وهي تمرق سريعًا، دون أن يستطيع تحديد مكانه. ثم فجأة، رأى النادي الإنكليزي القديم وأدرك أنهم لا بُد في شارع تِفرسكايا- ذلك الطريق القديم الذي يبدأ كالشعاع من الكرملين باتجاه سان بطرسبرغ، والذي سبق وتنزّه فيه ألف مرة من قبل.

في أواخر الثلاثينيات، كان شارع تِفرسكايا قد وُسِّع ليسعَ المواكب الرسمية التي تنتهي في الميدان الأحمر. وبينما رُفع بعض المباني الفاخرة وأزيح إلى الوراء تحقيقًا لهذه الغاية، فقد كان مصير معظمها هو الهدم، حيث حلَّت محلها أبراج عالية، عملًا بالمرسوم الجديد الذي يقضي بألّا يقل ارتفاع المباني المطلة على شوارع الدرجة الأولى عن عشرة طوابق. هكذا، كان على الكونت أن يشرئب بعنقه لكي يلتقط علامات مألوفة بينما تمضي الشاحنة في طريقها. لكنه توقَّف عن البحث عن العلامات المألوفة، وبدلًا من ذلك راح يراقب الواجهات الضبابية ومصابيح الشوارع وهي تتراجع بسرعة من مجال رؤيته، وكأن حبلًا ما يشدُّها إلى البعيد.

★ ★ ★

هناك، في عليَّة المتروبول، وجد الكونت بابه لا يزال مفتوحًا ومونتاني على الأرض. التقط الكونت كتاب والده، وجلس على سرير صوفيا. ثم للمرة الأولى تلك الليلة، ترك نفسه يبكي، وصدره يعلو ويهبط بخفّة مع تحرره من الأثقال. لكن الدموع التي تنساب على وجهها بلا رادع لم تكن دموع حزن. بل كانت دموع أكثر رجلٍ محظوظ في عموم روسيا.

بعد بضع دقائق، تنفَّس الكونت بعمق وخامره إحساس بالسكينة. انتبه إلى أن كتاب والده لا يزال في يده، فنهض عن سرير صوفيا ليضعه جانبًا- وعند تلك اللحظة، رأى الحقيبة الجلدية السوداء التي تُركت على مكتب الدوق الأكبر. كانت مربعة يبلغ كل من أضلاعها نحو ثلاثين سنتيمترًا، وارتفاعها نحو خمسة عشر سنتيمترًا، لها يد من الجلد ومشابك من الكروم. فوقها، أُلصقت ملاحظة موجهة إليه في خط غير مألوف. انتزع الكونت الملاحظة، وفردها، وقرأ:

ألكسندر،

يا لها من سعادة أن أقابلك الليلة. كما ذكرتُ لك، أنا متوجهٌ إلى الوطن لبعض الوقت. في هذه الأثناء، ظننتُ أن بإمكانك الاستفادة من هذه. ربما تولي انتباهًا خاصًّا لمحتويات الجيب العلوي، وأعتقد أنك ستجده وثيق الصلة بدردشتنا.

مع أحرّ التحية حتى نلتقي مجددًا،
ريتشارد فاندروايل

فضّ الكونت المشابك، وفتح غطاء الحقيبة. كان فونوغرافٌ محمول. بالداخل كانت كومةٌ صغيرة من التسجيلات في مغلّفات ورقيّة بُنيّة

اللون. بناء على اقتراح ريتشارد، انتقى الكونت القرصَ العلوي. كانت بطاقة التعريف في مركزه تَذكُر أنه تسجيل لفلاديمير هوروفيتس يعزف كونشرتو البيانو الأول لتشايكوفسكي في قاعة «كارنيغي هول» بنيويورك.

كان الكونت قد حضر حفلًا لهوروفيتس في موسكو عام 1921، قبل أقل من أربع سنوات من سفر عازف البيانو إلى برلين للعزف في حفل رسمي- بصحبة رزمة من العملات الأجنبية مدسوسة في حذائه...

عثر الكونت على السلك الكهربائي مطويًّا في جيب في مؤخرة الحقيبة. فَرَدَه، ووصّل الجهاز بالمقبس في الحائط. أخرج التسجيل من مغلَّفه، ووضعه على القرص الدوّار، وأدار المفتاح، وأنزل الإبرة، وعاد للجلوس على سرير صوفيا.

في البداية، سمع أصواتًا مكتومة، وبضع سعلات، والحفيف الأخير لجمهور يستقر في مقاعده؛ ثم صمتٌ؛ ثم تصفيقٌ حارّ لعلّه للعازف وهو يصعد الخشبة.

كتم الكونت أنفاسه.

بعد أن عَزفت الأبواق أول أنغامها العسكرية، تعالت الوتريّات، ثم بدأ ابن جلدته في العزف، مستدعيًا لجمهورٍ أمريكي حركاتِ ذئبٍ بين أشجار التامول، وصريرَ ريح في السهوب، وارتعاشَ شمعةٍ في صالة رقص، وومضة مدفع في معركة بورودينو.

حاشية

في الثالث والعشرين من يونيو، الساعة الرابعة بعد الظهر، كان أندري دوراس يستقل الحافلة عائدًا إلى شقته في أربات، وقد استغلَ يوم إجازته لزيارة صوفيا في مستشفى البلديّة الأول.

في اليوم التالي، كان متشوقًا لإبلاغ «المجلس الرئاسي»، في اجتماعهم اليومي، أنها بحالة معنوية مرتفعة. كانت ترقد في جناح خاص بالمستشفى، وتتمتع بغرفة مستقلة مليئة بضوء الشمس، وانتباهٍ دائمٍ من كتيبة من الممرضات. وسوف يسعد إميل عندما يعلم أن حلوى «الكّوكيز» التي أرسلها قد استُقبلت على نحو رائع، وأن صوفيا وعدت بإبلاغه حالما تنفُذ. بينما كان أندري، من جانبه، قذ جاءها بكتاب قصص مغامرات كان المفضَّل لدى ابنه.

في ميدان سمولنسكايا، ترك أندري مقعدَه لامرأة أكبر سنًّا. سينزل بعد بضعة شوارع على أيّ حال- ليشتري خيارًا وبطاطس من سوق الفلّاحين في الساحة. كان إميل قد أعطاه نصف رطل من لحم الخنزير المفروم، وكان بصدد طبخ كفتة الكوتليتي لزوجته.

كان أندري وزوجته يعيشان في بناية سكنيّة ضيّقة من أربعة طوابق في منتصف الشارع. وكانت شقتهم هي الأصغر بين الشقق الست عشرة، لكنها كانت لهما وحدهما. على الأقل إلى الآن.

بعد أن أتمّ أندري مأموريته في السوق، صعد السلّم إلى الطابق الثالث. مرّ بالأبواب الأخرى بطول الرواق، وشمّ رائحة البصل وهو يحمَّر في

إحدى الشقق وسمع أصواتًا في الراديو من أخرى. نقل حقيبة البقالة إلى ذراعه اليسرى، وأخرج مفتاحه.

دخل أندري، ونادى زوجته، وإن كان يعرف أنها لن تكون في البيت. ستكون واقفةً في الطابور أمام متجر الحليب الجديد الذي افتُتح في كنيسة أُخرجَت من الخدمة في الجانب الآخر من الجيرة. قالت إن الحليب هناك أكثر طزاجة والطابور أقصر، لكن أندري كان يعرف أن ذلك ليس صحيحًا. مثل كثيرات غيرها، ذهبت هناك لأن الـمُصلَّى الصغير في مؤخرة الكنيسة كان مزينًا بفسيفساء للمسيح مع السامريّة عند البئر لم يتكلّف أحد عناء هدمها؛ والنساء اللاتي كن ينتظرن حليبهن في الطابور كن مستعدّات لأن يحفظنَ مكانِك وأنتِ تنسلين بعيدًا لكي تصلّي.

حمل أندري بقالته إلى الغرفة الصغيرة المشرفة على الشارع، والتي تستخدم كمطبخ وغرفة جلوس في آن. على المنضدة الصغيرة وضع الخضروات. بعد أن غسل يديه، غسل الخيار وقطّعه. قشّر البطاطس ووضعها في قِدر من الماء. خَلط اللحم الذي أعطاه له إميل مع بصل مفروم، شكَّل أقراص كفتة الكوتليتي، وغطاها بفوطة. وضع المقلاة على الموقد وصبّ فيها بعض الزيت لما بعد. وبعد أن نظّف المنضدة، غسل يديه ثانية، وجهّز الطاولة، ثم مضى في الطرقة بنيَّة الاضطجاع قليلًا. لكنه تجاوز باب غرفة نومهما، دون تفكير، ودخل الغرفة التالية.

قبل ذلك بعدة أعوام، كان أندري قد زار شقة بوشكين في سان بطرسبرغ- تلك التي عاش فيها آخر أيامه. كانت حجرات الشقة قد حُفظت تمامًا كما كانت يوم وفاة الشاعر. بل وكانت ثمة قصيدة غير مكتملة وقلم على طاولة المكتب. في ذلك الوقت، كان أندري قد فكّر، وهو يقف خلف الروب الصغير ويحدّق في مكتب الشاعر، في المشروع بأكمله بوصفه ضربًا من السخف- وكأنه بالإبقاء على بضع متعلّقات في مكانها، يستطيع المرء حقًّا أن يحفظ لحظةً من هجمة الزمن الشعواء.

لكن عندما قُتل إيليا، إبنهما الوحيد، في معركة برلين- قبل أشهر من نهاية الحرب- فعل هو وزوجته الأمر نفسه: تركا كل بطانيّة، وكل كتاب، وكل قطعة ملابس بالضبط حيث كانت يوم وصلهما الخبر.

في البداية، اعترفَ أندري، كان ذلك مبعثَ راحة هائلة. عندما يكون وحده في الشقة، كان يزور الغرفة؛ وعندما يفعل، كان يعرفَ من هبطةِ الفراش الموضعَ حيث لا بُد أن زوجته جلست وهو في العمل. الآن، مع ذلك، كان يشعر بالقلق كون هذه الغرفة المحفوظة بعناية قد بدأت تُثبِّت حزنَهما بدلًا من تخفيفه؛ وكان يعرف أن الوقت قد حان لكي يتخلصا بنفسيهما من متعلّقات ابنهما.

ومع أنه كان يعرف هذا، لم يُثر المسألة مع زوجته. لأنه كان يعرف أيضًا أن شخصًا ما في البناية، عمّا قريب، سيلفت انتباه سلطات الإسكان إلى موت ابنهما؛ ومن ثم سيكون عليهما الانتقال إلى شقة أصغر حتّى، أو يتحتّم عليهما استضافة غريب، وهكذا، تستولي الحياة على الغرفة وتعيدها إلى حوزتها.

لكن حتّى حين كانت تراوده هذه الفكرة، تقدّم أندري إلى السرير وسوّى البطاطين حيث كانت زوجته تجلس؛ وعندها فقط، أطفأ النور.

الكتاب الرابع

1950

أداجيو، أندانتي، ألّيغرو

«في طرفة عين».

هكذا، في الحادي والعشرين من يونيو، لخّص الكونت ألكسندر روستوف رحلة ابنته من الثالثة عشرة إلى السابعة عشرة، عندما علّق فاسيلي كيف شبّت سريعًا.

«في لحظة كانت تروح وتجيء صعودًا ونزولًا على السلالم- متسكّعة حقيقية، مشاكسة، ومستهترة- وفي اليوم التالي، تصبح آنسة ذاتَ ذكاء وأناقة».

وكان ذلك صحيحًا إلى حد بعيد. إذا كان الكونت تسرّع في وصف صوفيا بالرزانة عندما كانت في الثالثة عشرة، فقد تنبأ على نحو دقيق بشخصيتها وهي على أعتاب البلوغ. ببشرة فاتحة وشعر أسود طويل (باستثناء الخصلة البيضاء المنسدلة من أثر جرحها القديم)، كان بإمكان صوفيا أن تجلس لساعات تستمع إلى الموسيقى في مكتبهما. كان بإمكانها أن تخيط لساعات مع مارينا في غرفة الخياطة، أو تدردش لساعات مع إميل في المطبخ دون أن تتململ في كرسيها ولو مرة واحدة.

عندما كانت صوفيا في الخامسة، ظنّ الكونت، بسذاجة ربما، أنها ستشبّ لتصبح نسخة سوداء الشعر من أمها. لكن بينما كانت صوفيا تشاطر نينا وضوح الإدراك والثقة في الرأي، كانت تختلف عنها تمامًا في السلوك. ففي حين كانت الأم ميّالة للتعبير عن نفاد صبرها لدى أوهى

إشارة على نقائص العالم، بدا أن صوفيا تفترض أن كوكب الأرض حسَن النيّة عمومًا، حتى إن كان ينحرف في دورانه من حين لآخر. وفي حين لم تكن نينا تتردد في مقاطعة الشخص وسط ادعاءاته لكي تُدلي برأيٍ نقيضٍ ثم تُعلن أن المسألة قد حُسمت بلا رجعة، كانت صوفيا تُنصت بانتباه شديد وبابتسامة متعاطفة حتى إن مُحاورَها، بعد أن أُرخِي له اللجام للتعبير عن آرائه بإسهاب، كثيرًا ما يجد صوته يخفت إلى أن يتلاشى وهو يشرع في مساءلة افتراضاته ذاتها...

رزينة. كانت تلك هي الكلمة الوحيدة المناسبة لذلك. وحدثَ التحوُّل في طرفة عين.

«عندما تصل إلى عُمرنا، يا فاسيلي، يسير كل شيء بسرعة كبيرة. يُهيّأ لك أن مواسم كاملة تمرّ دون أن تترك أدنى أثر على ذاكرتنا».

«كلام سليم...»، أجابه مسؤول خدمة النزلاء (وهو يفتش وسط كومة من التذاكر).

أكمل الكونت: «لكن بالتأكيد، ثمة قدر من الراحة في هذا الأمر. فحتى حين تبدأ الأسابيع تتعاقب علينا كلمح البصر، تظل تترك أعظم الآثار على أطفالنا. عندما يبلغ المرء السابعة عشرة ويبدأ في تجربة الاستقلال الحقيقي لأول مرة، تصبح حواسَّه شديدة اليقظة، وأحاسيسه مضبوطة بدقّة حتى إن كل محادثة، كل نظرة، كل ضحكة قد تُحفر في ذاكرته بصورة لا تُمحى. والأصدقاء الذين يصنعهم المرء في سنوات التطبُّع تلك؟ سيقابلهم المرء أبدًا بفيض من المودّة».

بعد أن أوضح الكونت هذه المفارقة، بدأ ينظر عبر البهو، حيث كان غريشا ينوء بحمل أمتعة أحد النزلاء باتجاه مكتب الاستقبال بينما ينوء جينيا بحِمل أمتعة نزيل آخر باتجاه الباب.

تأمّل قائلًا: «ربما هي مسألة توازن سماويّ. نوع من التكافؤ الكونيّ. قد يكون الرقم الإجمالي لعِيشَة الزمن رقمًا ثابتًا، ومن ثم، لكي يستطيع

أولادنا تشكيل انطباعات متوقِّدة عن شهر من الشهور- شهر يونيو هذا مثلًا- يكون علينا نحنُ أن نتنازل عن حقّنا المزعوم فيه».

لخّص فاسيلي قائلًا: «لكي يتذكروا، علينا أن ننسى».

قال الكونت: «بالضبط. لكي يتذكروا، علينا أن ننسى. لكن هل علينا أن نستاء من تلك الحقيقة؟ هل علينا أن نشعر بالاستصغار من فكرة أن خبراتهم في الوقت الراهن قد تكون أثرى من خبراتنا؟ لا أظن. إذ إنه ليس من أهدافنا في هذه المرحلة المتأخرة أن نجمِّع ألبومًا جديدًا من الذكريات المستديمة. عوضًا عن ذلك، علينا أن نكرّس أنفسنا لضمان أن يتذوّقوا هم الخبرات الغزيرة. وعلينا أن نفعل ذلك دون هلع. بدلًا من إحكام الأغطية وتزرير المعاطف، علينا أن نُبقي على رباطة جأشنا، وكرمنا، وحصافتنا. علينا أن نشجّعهم على المغامرة بالخروج من تحت أنظارنا الحارسة، ثم نتنهّد بفخر عندما يمرّون أخيرًا من أبواب الحياة الدوّارة...».

وكأنما ليوضح فكرته، أشار الكونت بكرم وحصافة باتجاه مدخل الفندق، وهو يطلق تنهيدة دالّة. ثم نَقَر على مكتب خدمة النزلاء.

«بالمناسبة. هل تعرف أين هي؟».

رفع فاسيلي رأسه عن التذاكر.

«الآنسة صوفيا؟».

«نعم».

«في صالة الرقص مع فيكتور على ما أظن».

«آه. لا بُد أنها تساعده في تنظيف الأرضيات للوليمة القادمة».

«لا. ليس فيكتور إيفانوفيتش. بل فيكتور ستيبانوفيتش».

«فيكتور ستيبانوفيتش؟».

«نعم. فيكتور ستيبانوفيتش سكادوفسكي. قائد الأوركسترا في البياتسا».

إذا كان الكونت، من جهة، قد حاول أن يشرح لفيكتور كيف أن الزمن، في السنوات الذهبية، يمكن أن يمرّ بسرعة خاطفة تاركًا الكثير من الانطباعات على ذاكرتنا، وكأنه لم يحدث قَط- طيّب إذًا، هاكَ مثال ممتاز.

إذ كانت الدقائق الثلاث التي استغرقها الكونت للانتقال من محادثة ممتعة على مكتب خدمة النزلاء إلى صالة الرقص، حيث أمسك بتلابيب ذلك النذل، قد مرَّت هي الأخرى في طرفة عين. أجل، مرَّت بسرعة شديدة حتى إن الكونت لم يتذكر أنه أسقط الأمتعة من قبضة غريشا وهو يهرول في البهو؛ ولا تذكر أنه ضرب الباب لينفتح وهو يصرخ: **أها!**؛ ولا أنه انتزع الكازانوفا الواعد من مقعد الغرام، حيث رآه يشبِّك أصابعه بأصابع صوفيا.

لا، لم يتذكّر الكونت أيًا من ذلك. لكن لضمان توازنٍ سماويّ وتكافؤٍ للأكوان، سيتذكر هذا النذل الـمُشورَب الذي يرتدي ملابس السهرة كلَّ ثانية من تلك اللحظات لبقيَّة حياته بكل تأكيد.

توسَّل إليه، وهو مُعلَّق في الهواء: «يا صاحب السعادة. هناك سوء تفاهم فظيع!».

رفع الكونت رأسه إلى الوجه المفزوع فوق قبضتيه، فتأكد أن الأمر ليس فيه أي سوء تفاهم. لقد كان الشخص نفسه الذي يحرك عصاه بانشراح على منصة الفرقة الموسيقية في البياتسا. ورغم أنه يعرف، في ما يبدو، كيف يستخدم الألقاب التشريفيّة في الوقت المناسب، كان واضحًا أنه أفعوان خسيس مثل ذلك الذي تلوّى خارجًا من بين شُجيرات جنة عدن.

لكن أيًا كانت درجة خسّته، فقد وضع الموقف الحالي الكونت في مأزق. لأنك بعد أن ترفع النذل من تلابيبه، ماذا تفعل معه؟ على الأقل عندما يكون لديك شخصٌ ممسوكٌ من قفاه، يمكنك رفعه وإخراجه من

الباب وإلقاءه على السلالم. لكن عندما يكون لديك شخص ممسوكٌ من تلابيبه، لا يكون من السهل التخلّص منه. قبل أن يستطيع الكونت حلّ هذه المعضلة، أثارت صوفيا مُعضلتها الخاصة.

«بابا! ماذا تفعل؟».

«اذهبي إلى غرفتك يا صوفيا. أنا وهذا الجنتلمان لدينا بضعة أمور نناقشها- قبل أن أشبعه ضربًا».

«تُشبعه ضربًا؟ لكن فيكتور ستيبانوفيتش مُدرِّسي».

أبقى الكونت عينًا على النذل، ورمق ابنته بالأخرى.

«ماذا؟».

«مُدرِّسي. إنه يُعلمني البيانو».

أومأ المدرّس المزعوم برأسه أربع مرات في تتابع سريع.

دون أن يرخي قبضته عن تلابيب الوغد، أرجع الكونت رأسه إلى الوراء ليتمكّن من دراسة الـميزانسين بمزيد من العناية. عند النظرة المدقِّقة، بدا مقعد الغرام الذي كان يجلس عليه الثنائي، بالفعل، مقعد بيانو. وفي موضع تشابك أيديهما كان هناك صفٌّ منتظم من المفاتيح العاجيّة.

شدّد الكونت قبضته.

«هذه هي لعبتك إذًا، أليس كذلك؟ إغواء الآنسات بالعزف البهلواني».

بدا المدرس المزعوم مبهوتًا.

«بالقطع لا يا صاحب السعادة. لم يسبق لي أن أغويت أي إنسان بالعزف البهلواني. كنا نعزف سلالم موسيقية وسوناتّات. أنا نفسي تدرّبتُ في الكونسرفاتوار- حيث حصلتُ على قلادة موسرغسكي. أنا فقط أقود الفرقة الموسيقية في المطعم لأكسب قُوتي». مستغلًا تردد الكونت، أشار إلى البيانو برأسه. «دعنا نُريك. صوفيا، لماذا لا تعزفي المقطوعة الحالمة التي كنا نتدرّب عليها؟».

المقطوعة الحالمة...؟

أجابت صوفيا: «كما تشاء يا فيكتور ستيبانوفيتش»، ثم استدارت إلى لوحة المفاتيح لتُرتّب أوراق نوتتها الموسيقية.

قال الموسيقي للكونت بإيماءة أخرى باتجاه البيانو: «ربما... إذا كان بإمكانك فقط أن...».

قال الكونت: «أوه. نعم، بالطبع».

أعاده الكونت إلى الأرض وسوّى تلابيبه بمسحة سريعة من يديه.

ثم انضمّ المدرس إلى تلميذته على المقعد المستطيل.

«طيّب يا صوفيا».

عدّلت صوفيا جلستها، ووضعت أصابعها على المفاتيح؛ ثم برقّة متناهية، بدأت تعزف.

عندما سمع الكونت المازورة الأولى، تراجع خطوتين إلى الوراء.

أكانت تلك النغمات الثماني مألوفةً له؟ هل تعرّف عليها أصلًا؟ نعم، كان ليعرفها لو لم يكن رآها منذ ثمانين سنة ثم تصادف أن دَخلَت مقصورته في القطار. كان ليعرفها لو قابلها في شوارع فلورنسا في ذروة الموسم السياحي. باختصار، كان ليعرفها في أي مكان.

لقد كانت شوبان.

المصنَّف التاسع، الحركة الثانية، في مقام مِي المنخفض الكبير.

بينما كانت تُكمل المقطع التكراري الأول من اللحن بنعومة فائقة وتنتقل إلى المقطع الثاني الذي يوحي بقوّةٍ عاطفيةٍ صاعدة، تراجع الكونت خطوتين أخريين إلى الوراء ووجد نفسه يجلس في أحد الكراسي.

هل جرّب أن يفخر بصوفيا من قبل؟ بالطبع. كل يوم. كان فخورًا بنجاحها في المدرسة، بجمالها، باتزانها، بغرام كل من يعملون في الفندق بها. هكذا، كان متأكدًا أن ما يشعر به في تلك اللحظة لا يمكن

أن يوصف بالفخر. إذ تنطوي حالة الفخر على قدر من المعرفة المسبَقة، معرفة تجعلك تقول: **انظر، ألم أقل لك كم هي مميزة؟ كم هي محبّبة؟ طيّب، الآن ترى بنفسك.** لكن أثناء استماعه لصوفيا وهي تعزف شوبان، كان الكونت قد غادر عالم المعرفة ودخل عالم الدهشة.

من ناحية، دُهش لاكتشافه أن صوفيا تستطيع العزف على البيانو من الأساس؛ ومن ناحية أخرى، أنها عالجت اللَحنَيْن الأساسي والمصاحب بهذه المهارة. لكن ما أدهشه حقيقة كان حساسية تعبيرها الموسيقي. يمكن للمرء أن يقضي حياته بأكملها لكي يُتقن الجوانب الفنيّة من البيانو ولا يحقق قَط حالة التعبير الموسيقي- تلك الخيمياء التي لا يحيط من خلالها العازف بمشاعر المؤلِّف وحسب، وإنما يوصّلها- على نحو ما- إلى جمهوره من خلال عزفه.

أيًّا كان الشجن الشخصيّ الذي أراد شوبان التعبير عنه عَبر هذا المؤلَّف الصغير- سواءً انبثقَ عن حبٍّ مفقود، أو ببساطة عن ذلك الألم العَذب الذي يشعر به المرء لدى رؤية شبّورةً فوق مرجةٍ في الصباح- فقد كان هناك، جاهزًا لكي يُختَبر حتى النخاع، في صالة الرقص في فندق المتروبول بعد مئة عام من موت المؤلِّف. لكنْ ظلّ السؤال: كيف يمكن لفتاة في السابعة عشرة من عمرها إحراز هذا التعبير الفذّ، إن لم يكن مستمدًّا من فقدِها وتَوْقِها هي شخصيًّا.

عندما بدأت صوفيا تعزف المقطع التكراري الثالث للّحن، **نظر** فيكتور ستيبانوفيتش من فوق كتفه ورفع حاجبيه وكأنما يقول: **هل تُصدّق هذا؟ هل تخيّلتَ هذا طيلة سنوات عمرِك؟** ثم عاد سريعًا لينظر إلى البيانو وقَلَب الصفحة على النحو الواجب، تقريبًا كما يَقلب صبيٌّ الصفحة لـمُعلّمه.

بعد أن قاد الكونتُ فيكتور ستيبانوفيتش إلى البهو، حيث تحدّثا

للحظة حديثًا خاصًّا، عاد إلى صالة الرقص ليجد صوفيا لا تزال جالسة أمام البيانو، فجلس إلى جوارها موليًا ظهره للمفاتيح.

ظلّا صامتين.

سألها الكونت بعد برهة: «لماذا أخفيتِ عني أنك تَدرسين البيانو؟».

قالت: «أردتها أن تكون مفاجأة. لعيد ميلادك. لم أقصد أن أضايقك. أنا آسفة».

«صوفيا، إذا كان على أحدنا أن يعتذر، فهو أنا. أنت لم ترتكبي أيّ خطأ. على العكس. كان ذلك رائعًا- وبلا جدال».

تورَّدت صوفيا ونكّست رأسها باتجاه لوحة المفاتيح.

قالت: «إنها مقطوعة جميلة».

وافقها الكونت ضاحكًا: «طيّب، نعم، إنها مقطوعة جميلة. لكنها أيضًا قطعة ورق عليها دوائر، وخطوط، ونقاط. تقريبًا، كل دارس للبيانو على مدار القرن الماضي تعلّم معزوفة شوبان الصغيرة تلك. لكن بالنسبة لأغلبهم، كان الأمر أشبه بالتسميع. واحد فقط من كل ألف- أو حتى من كل مئة ألف- يمكنه أن يبعث الحياة في الموسيقى مثلما فعلتِ لتوَّك».

لم ترفع صوفيا عينيها عن لوحة المفاتيح. تردد الكونت، ثم سأل بقدر من الفزع:

«هل كل شيء على ما يرام؟».

رفعَت صوفيا رأسها، متفاجئةً قليلًا. وحين رأت ذلك القلق على وجه أبيها، ابتسمت.

«بالطبع يا بابا. لماذا تسأل؟».

هزّ الكونت رأسه.

«لم يسبق لي العزف على آلة موسيقية طيلة حياتي، لكنني أفهم شيئًا عن الموسيقى. حين يَسمعك المرءُ وأنت تعزفين المازورات الافتتاحية لتلك المقطوعة بهذه البراعة وهذا الشجن، لا يسعه إلا أن يفترض أنكِ استقيتِ من نبعِ أحزانٍ عميق بداخلك».

قالت: «أوه، هكذا». ثم بحماسة الباحث الشاب بدأت تشرح: «فيكتور ستيبانوفيتش يسمّي ذلك **الحالة المزاجية**. يقول إن المرء قبل أن يعزف لحنًا ما، عليه أن يفتّش في قلبه عن مثال يشبه الحالة المزاجية للمؤلِّف. لذلك، عندما أعزف هذه المقطوعة، أفكر في أمي. أفكر كيف تخبو ذكرياتي القليلة عنها، ثم أبدأ في العزف».

ظل الكونت صامتًا، وقد اكتسحته موجة أخرى من الدهشة.

سألت صوفيا: «هل يبدو ذلك منطقيًّا».

«فائق المنطقية»، قالها، ثم أضاف بعد لحظة تفكير: «عندما كنتُ أصغر سنًّا، كان يخامرني الشعور نفسه بشأن أختي. كل سنة كانت تمرّ، كان يبدو لي أن قطعة صغيرة أخرى منها قد انفلتت بعيدًا؛ وبدأتُ أخاف أن يأتي اليوم وأنساها تمامًا. لكنّ الحقيقة هي: مهما مرّ من زمن، لا تنفلت تلك الأشياء التي أحببناها من بين أيدينا بالكامل».

لاذا بالصمت. ثم جال الكونت ببصره في المكان، وأشار بيده.

«كانت تلك إحدى غُرفِها المفضّلة».

«أختك؟».

«لا، لا. أمّك».

نظرت صوفيا حولها بقدر من المفاجأة.

«صالة الرقص...؟».

«بكل تأكيد. بعد الثورة، هُجرت كل الطرق القديمة لِفعل الأشياء- وكان ذلك هو المطلوب في ما أظن. لكنّ الطرق الجديدة لِفعل الأشياء لم تكن قد ترسّخَت بعد. وهكذا كانت كل أنواع الجماعات في مختلف أرجاء روسيا- اتحادات مالية، لجان مواطنين، مفوضيّات- تجتمع في غرف مثل هذه الغرفة لكي تُسوّي أمورها».

أشار الكونت إلى الشرفة.

«عندما كانت أمك في التاسعة، كان بوسعها أن تجثو هناك وراء

الدرابزين لمراقبة تلك الاجتماعات لساعات متواصلة. كانت تجدها جميعًا شديدة الإثارة. زحزحةُ الكراسي والخطبُ الحماسية والدقُّ بالمطرقة. وحين أفكر الآن، أجدها كانت محقّة تمامًا. في نهاية المطاف، كان مسارٌ جديدٌ يُرسم للبلاد أمام أعيننا مباشرة. لكن في ذلك الوقت، كان الزحف والركوع لا يمنحني إلا تشنّجًا في الرقبة».

«كنت تصعد إلى هناك أنت أيضًا؟».

«أوه، كانت تُصرّ على ذلك».

ابتسم الكونت، وابتسمت صوفيا.

أضاف الكونت بعد برهة: «الآن أفكر: هكذا عرفتُ عمتك مارينا. لأن كل مرة أزور فيها صالة الرقص، كنت أفتَق مقعدة بنطالي».

ضحكت صوفيا. ثم رفع الكونت إصبعًا وحركه بطريقة مَن تذكّر شيئًا آخر.

«لاحقًا، عندما كانت أمك في الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة، كانت تأتي إلى هنا لإجراء تجارب...».

«تجارب!».

«كانت أمك من النوع الذي لا يأخذ أي شيء بوصفه حقيقةً مُسلّمًا بها. لو لم تشهد ظاهرة ما بعينيها، تظل بالنسبة لها مجرد فرضيّة. وشمل هذا قوانين الفيزياء والرياضيات. ذات يوم، وجدتُها هنا تختبر مبادئ غاليليو ونيوتن بإسقاط أغراض مختلفة من الشرفة وحساب وقت سقوطها بساعة إيقاف من تلك التي يستخدمها العدّاؤون».

«وهل هذا ممكن أصلًا؟».

«كان كذلك بالنسبة لأمك».

لاذا بالصمت لبرهة أخرى، ثم استدارت صوفيا وطبعت قبلة على خدّ الكونت.

★ ★ ★

عندما غادرَت صوفيا للقاء صديقة، ذهب الكونت إلى البياتسا ومتّع نفسه بكأس نبيذ مع الغداء- وهو أمر كان يفعله في ثلاثينيّاته ولم يعد يفعله بعد ذلك إلا لمامًا. وبالنظر إلى مفاجآت الصباح، بدا له مناسبًا. في الحقيقة، عندما رُفع صحنَه والتزَم بالامتناع عن تناول التحلية، طلب كأسًا ثانية.

عندما استرخى في مقعده والنبيذ في يده، تطلّع إلى الشاب الجالس إلى الطاولة المجاورة، الذي كان يرسم في كرّاس. كان الكونت قد لاحظه في البهو اليوم السابق والكرّاس في حِجره وصفيحةٌ صغيرة من الأقلام الرصاصية الملونة إلى جانبه.

مال الكونت إلى يمينه قليلًا.

«منظرٌ طبيعي، أم بورتريه، أم طبيعة صامتة؟».

رفع الشاب رأسه وقد بدت عليه المفاجأة.

«معذرة؟».

«لم أستطع أن أمنع نفسي من ملاحظتك وأنت ترسم الاسكيتش. كنت أتساءل إن كان منظرًا طبيعيًّا، أم بورتريهًا، أم طبيعة صامتة؟»

أجاب الشاب بتهذيب: «لا شيء من المذكور أعلاه، للأسف. إنه منظر داخلي».

«للمطعم؟».

«نعم».

«هل لي أن أرى؟».

تردد الشاب ثم ناول الكونت كرّاسه.

فور أن أمسك الكونت بالكرّاس، ندم على الإشارة إلى **اسكيتش**. لم تكن الكلمة تفي الشاب حقه كفنان، إذ كان قد قبضَ على البياتسا بالتمام والكمال. صوَّر الزبائن على الطاولات بالضربات القصيرة والزاهية للمدرسة الانطباعية، ما أضفى إحساسًا بأنهم منخرطون في محادثات

حيوية؛ بينما صوَّر النُدُل الذين يتحركون برشاقة بين الطاولات بقدر من الضبابية. لكن الأسلوب الموحي الذي رسم الشاب به الناس كان يتناقض بحدّة مع مستوى التفصيل الذي رَسم به الغرفة نفسها. الأعمدة، والفسقية، والقناطر، كانت جميعها متحقِّقة بالمنظور المثالي والنِسَب المثالية، مع كل زخرفة في مكانها.

قال الكونت: «إنها رسمة رائعة. لكن يجب أن أقول إن إحساسك بالفضاء خصوصًا إحساس بديع».

ابتسم الغريب ابتسامة حزينة بعض الشيء.

«هذا لأنني معماريّ بالدراسة، لا فنانًا».

«هل تُصمّم فندقًا؟».

أطلق المعماري ضحكة.

«في هذه الأوضاع، سأكون سعيدًا لو صَمّمتُ بيتًا للطيور».

حين لاحظ الشابُ الفضولَ على وجه الكونت، استفاض قائلًا: «في الوقت الحالي، تُشيّد الكثير من المباني في موسكو، لكنّ الطلب على المعماريين قليل. لقد قبلتُ وظيفة مع وكالة ‹إنتوريست›. إنهم بصدد إنتاج كُتيّب عن أرقى فنادق المدينة وأنا أرسم المناظر الداخلية».(*)

(*) -أي نوع من تقلّبات الدهر ذلك الذي يمكن أن يؤدّي إلى طفرة في البنّائين وكساد في المعماريّين؟ الأمر بسيط:

في يناير، كان عمدة موسكو قد دعا لمؤتمر لمعماريّي المدينة لمناقشة متطلّبات العاصمة في ظل النمو السريع في عدد سكانها. على مدار ثلاثة أيام، تشكَّل إجماع حماسيّ عبر اللجان المختلفة أن الوقت قد حان لخطوات جديدة جريئة. هكذا، مستغلين أحدث المواد والتقنيات، اقترحوا أن تشيِّد المدينةُ أبراجًا ارتفاعها أربعين طابقًا بمصاعد تنطلق من البهو إلى السطح، وشقق يمكن تهيئتها لتلبية الاحتياجات المختلفة، كل منها مزوّد بمطبخ حديث وحمام خاص ونوافذ من الألواح الزجاجية تنشر ضوءًا طبيعيًّا!

في الحفل الختامي للمؤتمر، تقدّم العمدة- وهو رجل أصلع يميل للجلافة،

قال الكونت. «آه. لأن الصورة الفوتوغرافية لا تستطيع القبض على إحساس المكان!».

ردّ المعماري: «في الحقيقة، لأن الصورة تلتقط حالة المكان بدقّة أكثر من اللازم».

«أوه، فهمت»، قالها الكونت، وهو يشعر بقدر من الإهانة نيابةً عن البياتسا. في دفاعه عنها، لم يستطع أن يمنع نفسه أن يلفتَ إلى أن عَظَمَة المطعم، وقد اشتهر بأناقته في زمنه، لم تكمن قَط في ما يحتويه من قطع أثاث أو تفاصيل معمارية.

سأل الشاب: «فيمَ كانت تكمن إذًا؟».

«في مواطنيه».

«ماذا تقصد؟».

سوف يكون لدينا سبب لزيارته مجددًا في وقت لاحق- بالشكر للحضور على براعتهم، وإبداعيتهم، وإخلاصهم للحزب. واختتم كلامه قائلا: «إنه لمن دواعي الرضا اكتشاف أننا جميعًا متفقون. لكي نُسكِن رفاقنا بأسرع الوسائل وأكثرها اقتصادًا، يجب علينا، في واقع الأمر، أن نتّبع خطًى جديدة جريئة. لذا، دعونا لا نشغل أنفسنا بالتصاميم المعقدة، ولا ننحني أمام الترهات الجماليّة. دعونا نُنذر أنفسنا، بدلًا من ذلك، لنموذج عموميّ يناسب عصرنا».

هكذا وُلد العصر الذهبي للمباني السكنية سابقة التجهيز، أسمنتية الحوائط، خماسية الطوابق- ومساحات المعيشة المكوَّنة من خمسة وثلاثين مترًا ومزوَّدة بإمكانية الوصول الميسَّر إلى حمّامات عمومية تتباهى بأربعة مغاطس (في نهاية المطاف، من يمتلك الوقت للتمدد في حمّام بينما جيرانه يقرعون عليه الباب).

كان تصميم تلك المباني السكنية شديد الابتكار، ومعمارها شديد البديهية، حتى إنه كان بالإمكان تشييدها بناء على صفحة مواصَفات واحدة- سواءً وُضعت مقلوبة أم معدولة! في غضون ستة أشهر، كانت الآلاف منها قد انبثقت في ضواحي موسكو، مثل فطور عيش الغراب بعد المطر. وكان تحقّقها شديد المنهجيّة، حتى إنك كان يمكن أن تخطئ وتدخل أي شقة أخرى في المربع السكني، فتشعر فورًا أنك في منزلك.

أدار الكونت كرسيه حتى يواجه جاره على نحو أفضل.

«في أيامي، كنتُ أتمتّع بترف الترحال من مكان إلى آخر. وأستطيع أن أقول لك عن خبرة شخصية إن أغلبية مطاعم الفنادق- ليس في روسيا فقط، كما تَفهم، ولكن في أرجاء أوروبا- كانت مصمّمة لخدمة ضيوف الفندق، وكان هذا ما تفعله. لكن هذا المطعم لم يكن كذلك، ولم يفعل ذلك. لقد صُمِّم ليكون، وكان، ملتقًى لمدينة موسكو بأكملها».

أشار الكونت باتجاه مركز القاعة.

«لمعظم السنوات الأربعين الأخيرة، في ليالي السبت العاديّة، كان بوسعك رؤية روسٍ من كافة المشارب يتزاحمون حول تلك الفسقيّة، يشتبكون في محادثات مع مَن يتصادف جلوسه إلى الطاولة المجاورة أيًّا مَن كان. بداهةً، قاد ذلك إلى غراميات مرتجَلة، ونقاشات حامية حول الفروق التي تميّز بوشكين عن بِترارك. نعم، لقد شاهدتُ سائقي سيارات أجرة يخالطون مفوَّضين وأساقفة مع بائعين في السوق السوداء؛ وفي مناسبة واحدة على الأقل، رأيتُ آنسة صغيرة تُغيّر وجهةَ نظر رجلٍ كبير».

أشار الكونت إلى الموضع الذي يبعد نحو ستة أمتار.

«هل ترى هاتين الطاولتين هناك؟ ذات عصريَّة عام 1939 راقبتُ غريبيْن، أحس كل منهما أنه يعرف الآخر على نحو غامض. وبينما كانا يتناولان المشهّيات والطبق الرئيسي، والتحلية، راحا يسترجعان حياتهما بأكملها خطوة بعد خطوة بحثًا عن اللحظة التي لا بُد أنهما التقيا فيها».

جال المعماري ببصره في أرجاء المطعم بتقديرٍ متجدِّد.

«أتصوّر أن الغرفة هي محصّلة كل ما دار فيها».

وافقه الكونت: «نعم، أعتقد ذلك. ورغم أنني لست متأكدا تمامًا إلامَ انتهت كل المخالطات في هذه الغرفة تحديدًا، فأنا أعرف يقينًا أن العالم أصبحَ مكانًا أفضل بفضلها».

صَمَت الكونت لبرهة وهو ينظر حوله بدوره. ثم أشار بإصبعه ليوجّه انتباه المعماري إلى منصة الفرقة الموسيقية في الجانب البعيد من القاعة.

«هل تصادَف ورأيت الأوركسترا التي تلعب هنا مساءً من قبل؟».

«لا، لماذا؟».

«لقد حدث لي أغرب شيء اليوم...».

★ ★ ★

«الواضح أنه كان يسير في الردهة عندما سمع بالصدفة إحدى ‹تنويعات موتسارت› تنبعث من صالة الرقص. فدسَّ رأسه مفتونًا من الباب ورأى صوفيا على لوحة المفاتيح».

صاح ريتشارد فاندروايل: «لا!».

«سألها الرجلُ أين تَدرِسين. وبوغت عندما عرف أنها لم تكن تدرس مع أي شخص. كانت قد علَّمت نفسها لعب المقطوعة بالإنصات إلى أحد التسجيلات التي قد أعطيتَها لي ثم ضَرْب النغمات واحدة بعد أخرى».

«أمرٌ لا يُصدَّق».

«وقد تأثّر الرجل بقدراتها الطبيعية حتى إنه أخذها كطالبة عنده في التوّ واللحظة؛ ومن وقتها وهو يعلّمها عزف المؤلَّفات الكلاسيكية في صالة الرقص».

«وهذا هو الرجل من البياتسا، تقول؟».

«لا أحد غيره».

«الذي يلوّح بالعصا؟».

«هو عينه».

هزّ ريتشارد رأسه متعجبًا. «أودريوس، هل سمعتَ هذا؟ يجب أن نرفع كأسًا في صحة السيدة الصغيرة، وبأسرع ما يمكن. كأسان من كوكتيل ‹العصا الذهبيّة› يا صاحبي».

البارمان المتيقّظ دائمًا كان يصبّ، بالفعل، من زجاجاتٍ مختلفة الأحجام بينها شارتروز أصفر، ونكهات عطريّة، وعسل، وفودكا مشرّبة بالليمون. في تلك الليلة من عام 1946 عندما تعارف الكونت وريتشارد للمرة الأولى حول توليفة أودريوس الحمراء الأرجوانية، تحدّى الأمريكي البارمان أن يولّف كوكتيلًا في كل لون من ألوان كاتدرائية سان باسيل. هكذا وُلدت «العصا الذهبية»، و«بيضة أبي الحنّاء»، و«جدار الطوب»، ومشروبٌ أخضر داكن يسمّى «شجرة الكريسماس».(*) علاوة على ذلك، أصبح من المعروف عمومًا في البار أن كل مَن يتمكّن مِن شرب الكوكتيلات الأربعة، الواحد تلو الآخر مباشرةً، ينال لقب «بطريرك عموم روسيا»- فور أن يستعيد وعيه.

ريتشارد، الذي كان الآن ملحقًا بوزارة الخارجية، كان يميل للبقاء في السفارة طوال إقامته في موسكو. مع ذلك، ظل يمرّ بالمتروبول بين حين وآخر ليتناول مشروبًا ليليًّا مع الكونت. وهكذا، صُبّ كوكتيل ‹العصا الذهبيّة› وقَرع السيدان كأسيهما رافعين النخب: «في صحّة الأصدقاء القدامى».

قد يتعجّب البعض كيف لرجلين تعارفا قبل أربع سنوات فحسب أن يعتبرا نفسيهما صديقين قديمين، لكنّ سلطان الصداقة لا يُحسب بمرور الزمن. كان هذان الاثنان ليشعرا بأنهما صديقان قديمان لو تقابلا قبل بضعة ساعات فحسب. بدرجة ما، كان ذلك لأنهما روحَان مؤتلِفتان- يجدان أدلة وفيرة على الأرضية المشتركة وأسبابًا كثيرة للضحك وسط المحادثات العفويّة؛ لكنها كانت أيضًا مسألة تنشئة بكل تأكيد. إذ إن نشأتهما في دارين كبيرتين في مدينتين كوزموبوليتانيَّتين، ودراستهما

(*) «العصا الذهبية»: اسم عشبة تنمو في أمريكا الشمالية؛ «بيضة أبي الحنّاء»: المقصود بيضة هذا الطائر المميَّزة بلونها الأزرق المائل إلى الخضرة. والأسماء الأربعة تدلّ على ألوان الكوكتيلات. (المترجم)

للفكر الحُرّ، وتمتعهما بساعات فراغ طويلة، وتعرّضهما لأرقى الأشياء- مع أن الكونت والأمريكيّ وُلدا بفارق عشر سنوات وستة آلاف كيلومتر، كل ذلك جعل المشتركات بينهما أكثر من المشتركات بين كل منهما ومعظم أبناء جلدته.

هذا، بالطبع، هو ما يجعل الفنادق الكبرى في كل عواصم العالم تبدو متشابهة. فالبلازا في نيويورك، والريتز في باريس، والكلاريدج في لندن، والمتروبول في موسكو- التي شُيِّدت بفارق خمس عشرة سنة بين أحدها والآخر، كانت بدورها أرواحًا مؤتلِفة، إذ كانت أول فنادق في مدنها بتدفئة مركزية، ومياه ساخنة، وهواتف في الغرف، وصُحُف دولية في الأبهاء، ومطابخ دولية في المطاعم، وبارات أمريكية متفرعة من البهو. وقد شُيِّدت تلك الفنادق لأمثال ريتشارد فاندروايل وألكسندر روستوف، حتى إن الواحد منهم، عندما يسافر إلى مدينة أجنبية، يشعر وكأنه في بيته ووسط أقاربه.

قال ريتشارد وهو يهزّ رأسه: «لا زلتُ لا أصدّق أنه ذلك الرجل من البياتسا».

قال الكونت: «أعرف. لكنه في الحقيقة دَرَس في الكونسرفاتوار هنا في موسكو حيث حصل على قلادة موسرغسكي. هو فقَط يقود الفرقة في البياتسا ليكسب قُوتَه».

أكّد أودريوس بنبرة من يقرّ حقيقة واقعة: «على المرء أن يكسب قُوته أو يستسلم لموته».

تفحّص ريتشارد الساقي لبرهة.

«طيّب، هذا هو جوهر المسألة، أليس كذلك؟».

هزّ أودريوس كتفيه، معترفًا بأن جوهرَ المسألة هو بضاعةُ البارمان، ثم استأذن في الانصراف ليجيب على الهاتف خلف البار. عندما انصرف، بدا أن ملاحظته قد أدهشت الكونت على وجه الخصوص.

وجّه سؤاله لريتشارد: «هل تعرف فَراشات مانشستر؟».
«فراشات مانشستر... أليس فريقًا لكرة القدم؟».
قال الكونت مبتسمًا: «لا، ليس فريقًا لكرة القدم. إنها قضية غير عادية من حوليّات العلوم الطبيعية كان أبي يحكيها لي وأنا طفل».
لكنْ قبل أن يستفيض الكونت، عاد أودريوس.
«كانت تلك زوجتُك على الهاتف يا سيد فاندروايل. طلبَت مني أن أذكّرك بموعدك في الصباح؛ وأنبّهك أن سائقك ينتظر بالخارج».
رغم أن معظم الزبائن في البار لم يقابلوا السيدة فاندروايل قَط، كانوا يعرفون أنها رابطة الجأش مثل أركادي، ومتيقّظة مثل أودريوس، وعليمة بأماكن تواجد الناس مثل فاسيلي- عندما يتعلّق الأمر بوضع خاتمةٍ لسهرات السيد فاندروايل.
اعترف السيد فاندروايل: «آه، نعم».
متفقين على أن الواجبَ يأتي أولًا وقبل كل شيء، تصافح الكونت والسيد فاندروايل وتمنّى كل منهما للآخر التوفيق حتى لقائهما القادم.
عندما غادر ريتشارد، جال الكونت ببصره في الغرفة ليرى إن كان هناك شخص يعرفه، وسُرّ لرؤية المعماري الشاب من البياتسا على طاولة في الركن، محنيًّا على كرّاس رسمِه. لعلّه يرسم البار.
فكّر الكونت: هو أيضًا إحدى فراشات مانشستر.
عندما كان الكونت في التاسعة، أجلسه والده ليشرح له نظرية داروين حول الانتخاب الطبيعي. وفيما كان الكونت ينصت، بدا له جوهر فكرة ذلك الإنكليزي بديهيًّا تمامًا- أن النوع يتطوّر ببطء، على مدار عشرات الآلاف من السنين، لكي يُزيد من فرص بقائه إلى أقصى الحدود. في نهاية المطاف، كان طبيعيًّا أن يزداد الغزال سرعةً إن ازدادت مخالب الأسد حدّة. لكن ما حيّر الكونت هو ملاحظة والده أن الانتخاب الطبيعيّ لا يحتاج إلى عشرات الآلاف من السنين كي يحدث. لا يحتاج حتى إلى مئة سنة. بل لوحظ أنه يتكشف خلال بضعة عقود.

صحيح، كما قال والده، أن إيقاع التطور يجب أن يتباطأ في البيئة الساكنة نسبيًّا، إذ لا يواجَه كل نوعٍ على حِدة بظروف تتطلّب التكيُّف. لكن البيئات لا تظل ساكنة لفترات طويلة. إذ تفصح قوى الطبيعة عن نفسها حتمًا بطريقة تستدعي الحاجة إلى التكيُّف. فالجفاف الممتد، والشتاء قارس البرودة، والثورات البركانية، أيّ من هذه يمكن أن تغيّر التوازن بين هذه الصفات التي تحسّن فرصة الأنواع في البقاء وتلك التي تُعرقلها. وهذا، بالأساس، ما حدث في مانشستر بإنكلترا، في القرن التاسع عشر، عندما أصبحت المدينة واحدة من أول عواصم الثورة الصناعية.

على مرّ آلاف السنين، ظلت فراشات مانشستر المنقَّطة تمتلك أجنحةً بيضاء ذات نُقطٍ سوداء. هذا اللون كان يوفّر للنوع تمويهًا مثاليًّا عندما تهبط الفراشات على اللحاء الرمادي الفاتح لأشجار المنطقة. في كل جيل قد تظهر بعض الشذوذات، مثل فراشات بأجنحة حالكة السواد- لكنّ الطيور كانت تقتنصها من على الأشجار قبل أن تسنح لها فرصة التكاثر أصلًا.

لكن عندما أصبحت مانشستر مزدحمة بالمصانع في أوائل القرن التاسع عشر، بدأ السُخام المنبعث من المداخن يستقر على كل سطح متصوَّر، بما في ذلك لحاء الأشجار؛ وفجأة، أصبحت الأجنحة المرقّطة بنقطٍ خفيفة، التي طالما نجحت في حماية معظم الفراشات المنقّطة، تكشفها بلا رحمة أمام عيون مفترسيها، بينما أصبحت الأجنحة الشاذّة الأكثر دُكنة تجعل صاحباتها غير مرئيّة. هكذا، فإن التنويعات حالكة السواد التي كانت تشكّل أقل من 10 بالمئة من تعداد فراشات مانشستر عام 1800، أصبحت تشكّل أكثر من 90 بالمئة مع نهاية القرن. أو هكذا شرح والد الكونت، بالرضا البراغماتيّ لصاحب العقليّة العلميّة.

لكنّ الدرسَ لم يستقر جيدًا في ذهن الكونت الصغير. إذ فكّر: لو كان ذلك يحدث للفراشات بتلك البساطة فما الذي يمنع حدوثه للأطفال؟

ماذا سيحدث له ولشقيقته، على سبيل المثال، لو تعرّضا لكميّة وافرة من دخان المداخن أو لأجواءٍ متطرّفة؟ هل يمكن أن يصبحا ضحايا للتطور المتسارع؟ في الحقيقة، أصبح الكونت مبلبلًا جدًّا بالفكرة حتى إنه عندما اكتَسَحت «أيدل آور» العواصف المطيرة في سبتمبر من ذلك العام، صارت الفراشات تأتي لتناكده في أحلامه.

بعد بضع سنوات، سوف يفهم الكونت أنه كان يرى الأمر بالمقلوب. لم يكن إيقاع التطور شيئًا مخيفًا. إذ لا مصلحة للطبيعة في كون أجنحة الفراشات المنقّطة سوداء أو بيضاء، إنما هي تأمَل بإخلاص أن تستمر الفراشات المنقّطة في البقاء. وهذا هو السبب الذي جعل الطبيعة تُصمِّم قوى التطور بحيث تلعب على مرّ الأجيال لا على مرّ ملايين السنين- لتضمَن أن تمتلك الفراشاتُ والبشر فرصةً للتكيّف.

تمامًا مثل فيكتور ستيبانوفيتش، هكذا فكّر الكونت. فالرجل الذي كان زوجًا وأبًا لطفلين، لا بُد أن يكسب قُوتَه. لذا يلوّح بعصاه في البياتسا، فيبدو وكأنه يتخلّى عن المؤلفات الكلاسيكية. ثم ذات عصريّة ما، عندما يصدُف ويتعثّر في عازفة بيانو صغيرة واعدة، في الوقت الذي يستطيع توفيره على قِلّته، يُعلّمها مقطوعات شوبان الحالمة على بيانو مستعار. وعلى هذا النحو أيضًا يمتلك ميشكا «مشروعه»؛ ويَشعر هذا المعماري الشاب، العاجز عن بناء المباني، بالفخر والمتعة من تخطيط دواخِل الفنادق بحرص في كرّاسه.

للحظة، فكّر الكونت أن يذهب إلى الشاب، لكن بدا له أن ذلك الأخير يطبِّق مهاراته برضًا بالغٍ يجعل مقاطعته جريمةً. لذا، عوضًا عن ذلك، تجرّع الكونت كأسه، ونَقَر على البار مرتين، وتوجّه إلى أعلى ليخلد إلى النوم.

★ ★ ★

بالطبع كان الكونت محقًّا تمامًا. إذ عندما تمنَع الحياةُ الإنسانَ من ملاحقة أحلامه، سيتحايل لملاحقتها بأي حال. هكذا، حتى والكونت يفرّش أسنانه، كان فيكتور ستيبانوفيتش يُنحّي جانبًا اتفاقًا كان يعمل عليه لأجل فرقته الموسيقية لكي يفتّش في «تنويعات غولدبِرغ»- بحثًا عن واحدة تناسب صوفيا. بينما في قرية بِفاس، في غرفة مستأجَرة ليست أكبر كثيرًا من غرفة الكونت، على ضوء شمعة، كان ميخائيل مِنديتش يجلس مُحدودبًا إلى طاولة، يَخيط ملزمةً أخرى من ست عشرة صفحة. وفي الشاليابين بالأسفل؟ واصل المعماري الشاب شعوره بالفخر والمتعة بعمله. لكن على عكس افتراض الكونت، لم يكن يُضيف رسمًا للبار إلى مجموعته من دواخل الفنادق. في الحقيقة، كان يعمل في كرّاسٍ مختلف تمامًا.

في الصفحة الأولى من هذا الكتاب متعدّد الصفحات كان تصميمٌ لناطحة سحاب ارتفاعها مئتي طابق- بلوحِ قفزٍ على السطح يُمكِن للمستأجرين أن يقفزوا من فوقه بالمظلة إلى حديقة عُشبية في الأسفل. في صفحة أخرى رَسَم كاتدرائية للإلحاد بخمسين قُبيْبة مختلفة، بعضها يمكن أن ينطلق مثل الصواريخ إلى القمر. وفي أخرى متحفٌ عملاق للمعمار يعرض مستنسَخات بالحجم الطبيعي لكل المباني القديمة الكبرى التي قُوِّضَت في مدينة موسكو لكي تُفسح المكان للجديد.

لكن في هذه اللحظة تحديدًا، ما كان المعماري يعمل عليه هو رسمٌ مفصَّل لمطعم مزدحم يبدو شديد الشبه بالبياتسا. فقط، تحت أرضية هذا المطعم كان هناك آليات معقّدة من المحاور، والمسنّنات، والتروس؛ ومن أحد الحوائط الخارجية تبرز ذراعُ تدوير عملاقة، بإدارته تدور كل كراسي المطعم حول نفسها مثل باليرينات في صندوق موسيقى، ثم تلفُّ حول المكان حتى تتوقّف عند طاولة مختلفة في كل مرة. وفوق هذه المنظر الحيّ يجلس جنتلمانٌ في الستين من عمره، محدّقًا بالأسفل من فوق السقف الزجاجي، وقابضًا بيده على الذراع، استعدادًا لتدوير الزبائن.

1952

أمـريـكا

مساء أربعاء في أواخر يونيو، دخل الكونت وصوفيا، والذراع في الذراع، البويارسكي، حيث اعتادا تناول العشاء في ليلة إجازة الكونت.

«مساء الخير يا أندري».

«**بونسوار مون آمي. بونسوار مادموازيل**. طاولتكما بالانتظار».

عندما دعاهما أندري للدخول بإشارة من يده، رأى الكونت أنها ليلة أخرى مزدحمة. في الطريق إلى الطاولة رقم عشرة، مرّا بزوجتَيْ مفوَّضيْن جالستين إلى الطاولة رقم أربعة. وعلى الطاولة رقم ستة، وحيدًا، كان أحد أساتذة الأدب البارزين- يقولون إنه صارع بمفرده أعمال دوستويفسكي وصرعها أرضًا. وعلى الطاولة رقم سبعة لم تكن سوى آنا أوربانوفا الفاتنة بصحبة المفتون.

بعد عودتها بنجاح إلى الشاشة الفضية في الثلاثينيات، كانت آنا، في عام 1948، قد استُميلت مرة أخرى إلى الخشبة بفضل مدير «مسرح مالي». كانت تلك بمثابة ضربة حظ للممثلة التي بلغت الخمسين، ففي حين كانت الشاشة الفضية تفضّل الجميلات الشابّات بكل وضوح، بدا أن المسرح يفهم فضائل السنّ المتقدّمة. في نهاية المطاف، لم تكن ميدا، وليدي ماكبث، وإيرينا أركادينا وغيرهنّ أدوارًا لذوات العيون الزُرق والخدود التي تتورّد خجلًا. بل كانت أدوارًا لنساء ذُقنَ مرارة الفرح وحلاوة اليأس. لكنّ عودة آنا إلى الخشبة كانت من حسن طالع الكونت أيضًا، فبدلًا من زيارة المتروبول بضعة أيام في السنة، أصبحت الآن تقيم

لشهور في كل مرة، ما أتاح لهذا الفلكيّ المخضرَم متابعة أحدث خرائط الأبراج السماوية بأكبر قدر من العناية...

فور أن جلس الكونت وصوفيا، استعرضا قائمة الطاعم بعناية (بدءًا من الطبق الرئيسي إلى المشهيّات كالمعتاد)، وأبلغا طلبهما لمارتِن (الذي كان قد رُقِّي إلى البويارسكي عام 1942 بناء على توصية من الكونت)، قبل أن ينتقلا إلى العمل.

لا شك أن الفترة الزمنية بين إبلاغ الطلب ووصول المشهيّات واحدة من أكثر الفترات المحفوفة بالمخاطر في التفاعلات الإنسانية. فما من عاشقَين صغيرَين لم يجدا نفسيهما في هذا المنعطف وسط صمت مفاجئ جدًا، منيع جدًّا في ما يبدو، لدرجة أنه يهدّد بإلقاء ظلال الشك على الكيمياء بينهما. وما من زوج وزوجة لم يجدا نفسيهما، فجأة، متوتّرَيْن خشية ألا يعثرا على موضوع مُلحّ، أو مشبوب، أو مدهش يتحدثان فيه. إذًا، فثمة سبب قوي يجعل معظمنا يقابل هذا الصدع الخطير بنوعٍ من التوجس.

لكن الكونت وصوفيا؟ كانا يتطلعان إلى تلك الفُسحَة طيلة اليوم- إذ كانت اللحظات المخصصة للعبة **زوت**.

زوت لعبة من اختراعهما، قواعدها بسيطة. يقترح اللاعب الأول فئةً تشمل مجموعة فرعية متخصصة من الظواهر- مثل الآلات الوتريّة، أو الجزر الشهيرة، أو المخلوقات المجنّحة باستثناء الطيور. بعدها يتبادل اللاعبان الأدوار ذهابًا وإيابًا إلى أن يخفق أحدهما في العثور على مثال مناسِب في فاصل زمني مناسب (لنقُل دقيقتين ونصف). ويتحقق النصر لأول لاعب يفوز بجولتين من ثلاث جولات. ولماذا سُمّيت اللعبة **زوت**؟ لأن **زوتالور!**،(*) وفقًا للكونت، كانت الصيحة الوحيدة الجديرة في وجه الهزيمة.

(*) **زوتالور!** *Zut alors*: سُحقًا (بالفرنسية في الأصل). (المترجم)

هكذا، بعدما ظلّا يبحثان طيلة يومهما عن فئات صعبة، ويفكران بحرص في الإجابات الصالحة، عندما استعاد مارتِن قائمتي الطعام تَواجَه الأب والابنة مستعدَّيْن.

بعد أن خسر الكونت المباراة السابقة، كان له الحق في اقتراح الفئة الأولى وقد فعل ذلك بثقة: «رباعياتٌ شهيرة».

قالت صوفيا: «اختيار جيّد».

«شكرًا لك».

تناول كل منهما رشفة ماء، ثم بدأ الكونت.

«الفصول الأربعة».

«العناصر الأربعة».

«الشمال، والجنوب، والشرق، والغرب».

«الديناري، والسباتي، والكبّة، والبستوني».

«الباص، والتينور، والألتو، والسوبرانو».

فكرت صوفيا.

...

«متّى، ومرقص، ولوقا، ويوحنا- مؤلفو الأناجيل الأربعة».

«بورياس، وزيفيروس، ونوتوس، ويوروس- الرِياح الأربعة».

ابتسم الكونت من داخله، وشرع يعد الثواني؛ لكنه لم يُكمل العدّ.

«الـمِرَّة الصفراء، الـمِرَّة السوداء، الدم، والبلغم- الأخلاط الأربعة».

«تري بيان!».

«ميرسي».

تناولت صوفيا رشفة ماء لكي تموّه مَسحة الشماتة على شفتيها. لكن الآن، كانت هي من يحتفل قبل الأوان.

«فرسان الرؤيا الأربعة».

«آه»، قالتها صوفيا بتنهيدة من يتلقى رصاصة الرحمة، لحظة وصول مارتِن حاملًا الـ«شاتو دِيكِم». بعد أن قدّم النادل الزجاجة، سَحَب السدادة، وصبّ عيّنةً للتذوق، ثم خَدَم على الطاولة.

سألت صوفيا بعد ابتعاد مارتِن: «الجولة الثانية؟».

«بكل سرور».

«حيوانات باللونين الأبيض والأسود- مثل الحمار الوحشي».

قال الكونت: «ممتاز».

للحظة، أعاد ترتيب فضّياته، ثم تناول رشفة من النبيذ وأعاد كأسه ببطء إلى الطاولة.

قال: «البطريق».

«طائر البوفِن».

«الظربان».

«الباندا».

فكّر الكونت؛ ثم ابتسم.

«الحوت القاتل».

جابهته صوفيا: «الفراشة المنقّطة».

اعتدل الكونت مستاءً.

«لكنها حيواني **أنا**».

«إنها ليست حيوانك؛ لكنه دورك...».

عَبَس الكونت.

صاح قائلًا: «الكلب الدلماسي (دلماشيان)».

الآن، كانت صوفيا هي من يرتّب فضّياته ويرتشف نبيذه.

قال الكونت: «الوقت يمرّ...».

قالت صوفيا: «أنا».
«ماذا!».
أمالَت رأسها وأبرزت الخصلة البيضاء وسط شعرها الأسود الطويل.
«لكنكِ لستِ حيوانًا».
ابتسمَت صوفيا متعاطفةً ثم قالت: «دورك».

راح الكونت يفكّر: **هل هناك سمكة سوداء وبيضاء؟ عنكبوت أسود وأبيض؟ ثعبان أسود وأبيض؟**

قالت صوفيا: «تِك، تُك، تِك، تُوك».
«نعم، نعم. انتظري لحظة».

...
فكّر الكونت: **أعرف أن هناك حيوانًا آخر أسود وأبيض. حيوان مشهور. رأيته بنفسي. إنه على طرف لسا...**
«هل أحظى حقًّا بشرف مخاطبة ألكسندر روستوف؟».
رَفَع الكونت وصوفيا رأسيْهما متفاجئيْن، فوجدا أمامهما البروفيسور الشهير من الطاولة رقم ستة.
قال الكونت، وهو ينهض عن الطاولة: «نعم، أنا ألكسندر روستوف. وهذه ابنتي صوفيا».

«أنا البروفيسور ماتي سيروفيتش من جامعة ولاية لينينغراد».
قال الكونت: «غنيٌّ عن التعريف».
أبدى البروفيسور امتنانه بانحناءة سريعة من رأسه.
تابَع: «أنا أحد المعجبين بشعرك. ربما تَمنحني شرف دعوتك على كأس كونياك بعد أن تنتهي من وجبتك».
«سيكون من دواعي سروري».
«أنا في الجناح 317».
«سأكون هناك في غضون ساعة».
«رجاءً. خذ وقتك».
ابتسم البروفيسور وتراجع بلطف مبتعدًا عن الطاولة.
عاد الكونت للجلوس، ووضع فوطته في حِجره بشكل تلقائي، ثم أخبر صوفيا: «ماتي سيروفيتش واحد من أكثر أساتذة الأدب تبجيلًا في روسيا؛ ويبدو أنه يريد مناقشة الشعر معي على كأس من الكونياك. ما رأيك في ذلك؟».
«رأيي أن الوقت يداهمك».
خَفَض الكونت حاجبيه.
«نعم. طيب. كانت لديّ إجابة على طرف لساني. كنت سأنطق بها بعد لحظة، لو لم يقاطعنا...».
أومأت صوفيا، بطريقة ودودة لشخص لا ينوي التفكير في حيثيات الالتماس المقدّم إليه.
أقرّ الكونت: «طيب. جولة لكل واحد».
تناول الكونت كوبِك من جيب الفضّيَّة في صدريّته ووضعه على إظفر إبهامه لكي يقترعا على مَن سيختار الفئة الفاصلة. لكن قبل أن يرمي العملة في الهواء، ظهر مارتِن حاملًا الطبق الأول: تأويل إميل لـ«سَلَطة أوليفييه» من أجل صوفيا ومعجون كبد الأوزّ من أجل الكونت.

ولأنهما لا يلعبان قَط وهما يأكلان، فقد انتقلا إلى مناقشة ممتعة لحوادث اليوم. وعندما كان الكونت يفرِد آخر ملعقة من كبد الأوزّ على زاوية رغيف خبز محمّص قالت صوفيا، بطريقة عابرة، إن آنا أوربانوفا في المطعم.

سأل الكونت: «لا أفهم».

«آنا أوربانوفا، الممثلة. إنها جالسة هناك إلى الطاولة رقم سبعة».

«فعلًا؟».

رَفَع الكونت رأسه لينظر عبر قاعة الطعام بفضول خامل؛ ثم عاد إلى فَرد المعجون.

«لماذا لا تدعوها أبدًا لتشاركنا العشاء؟».

رفع الكونت رأسه وعلى وجهه صدمة خفيفة.

«أدعوها إلى العشاء! هل أدعو تشارلي تشابلن أيضًا؟». أطلق الكونت ضحكة وهزّ رأسه: «الأصول أن يتعارف الناس قبل أن يدعوا بعضهم بعضًا للعشاء يا عزيزتي». ثم أنهى كبدة الأوزّ تمامًا كما أنهى كلامه.

استطردت صوفيا: «أعتقد أنك خائف عليّ من الإصابة بصدمة ما. لكن مارينا تعتقد أن ذلك بسبب...».

صاح الكونت: «مارينا! مارينا لديها رأي حول لماذا يجب أن أدعو أو لا أدعو هذه الـ... هذه الآنا أوربانوفا لتشاركنا العشاء؟».

«بطبيعة الحال يا بابا».

رجع الكونت بظهره في مقعده.

«مفهوم. إذًا ما هو الرأي الذي كوّنته مارينا **بطبيعة الحال**؟».

«تعتقد أن ذلك لأنك تحب أن تُبقي أزرارَك في عُلَبك».

«أزراري في عُلَبي؟».

«تعرف: أزرارك الزرقاء في عُلبة، وأزرارك السوداء في أخرى، وأزرارك الحمراء في ثالثة. لديك علاقاتك هنا، علاقاتك هناك، وتحب أن تبقيها متباعدة».

«هكذا؟ لم أكن أعرف أنني أعامل الناس مثل الأزرار».
«على الإطلاق يا بابا. فقط أصدقاءك».
«لقد أثلجتِ صدري!».
«هل تسمح لي».
كان ذلك مارتِن، يشير إلى الصحون الخاوية.
ردّ الكونت بحدّة: «شكرًا لك».
أحس مارتِن بأنه قاطَع حوارًا حاميًا، فسارع إلى رفع الطبق الأول، وعاد بصحنين من «بتلّو البويارسكي»، وأكمل كأسَي النبيذ الناقصتين، واختفى دون كلمة. تنشّق الكونت شذا الغابات المنبعث من عيش الغراب ثم بدآ يأكلان في صمت.
قال الكونت بعد أن تناول بضع لقمات: «إميل تفوّق على نفسه».
وافقته صوفيا: «صحيح».
تجرّع الكونت رشفةً وفيرة من الـ«شاتو ديكِم»، الذي كان من إنتاج عام 1921 والأفضل لمصاحبة البتلّو.
«آنا تعتقد أن السبب في ذلك أنك متمسك كثيرًا بأساليبك».
أخذ الكونت يسعل في منديله، إذ كان قد قرّر منذ زمن بعيد أن تلك هي الوسيلة الأنجع لطرد النبيذ من قصبته الهوائية.
سألت صوفيا: «هل أنت بخير؟».
أعاد الكونت فوطته إلى حِجره ولوّح بيده في اتجاه الطاولة رقم سبعة.
«وكيف، إذا كان لي أن أسأل، عرفتِ ما تفكر به هذه الآنا أوربانوفا؟».
«لأنها أخبرتني».
«إذًا فقد تعارفتُما».
«بالطبع تعارفنا. تعارفنا منذ سنوات».
زَفَر الكونت قائلًا: «طيّب. هذا أمر رائع. فلماذا لا تدْعينها أنتِ للعشاء. الحقيقة لو أنني زرٌّ في علبة، ربما كان الأفضل أن تجتمعي أنت، ومارينا، والآنسة أوربانوفا لتناول العشاء سويًا».

«نعم، هذا بالضبط ما اقترحَه أندري».

«كيف حال كل شيء الليلة؟».

صاح الكونت وهو يرمي فوطته في صحنه: «جئنا على ذكر الشيطان!».

مأخوذًا، نقَل أندري نظره من الكونت إلى صوفيا في توجّس.

«هل هناك خطب ما؟».

رد الكونت قائلًا: «الطعام في البويارسكي رفيع، والخدمة ممتازة. لكن النميمة لا نظيرَ لها».

نهض الكونت.

قال لصوفيا: «أظن أن لديكِ تمرين بيانو تحضرينه يا آنسة. الآن إذا سمحتما لي، عندي موعد بالأعلى».

بينما كان الكونت يسير في الردهة، لم يستطعِ مقاومة التفكير في أن الجنتلمان، في زمنٍ ما ليس بعيدًا، كان يستطيع توقُّع قدرٍ من الخصوصية في علاقاته الشخصية. كان بوسعه، بقدرٍ من الاطمئنان، أن يضع مراسلاته في دُرج المكتب وأن يترك مذكراته على طاولة السرير.

رغم ذلك، ومن ناحية أخرى، ظل الرجال الساعون إلى الحكمة، منذ قديم الأزل، يلجأون إلى قمم الجبال، والكهوف، والأكواخ وسط الغابات. لذا ربما إلى تلك الأماكن يجب أن يتجه الإنسان في نهاية المطاف، ليتمتّع بأدنى فرصة لتحقيق الاستنارة دون تدخّل المتطفلين. مثالٌ على ذلك: فيما كان الكونت يتوجّه إلى السلم، من الذي صادفَه ينتظر المصعد؟ ليس سوى الخبيرة الضليعة في السلوك الإنساني، آنا أوربانوفا.

«مساء الخير يا صاحب السعادة...»، قالتها للكونت بابتسامة موحية. لكنْ، عندما لاحظت التعبير على وجهه، ارتفع حاجباها في تساؤل: «هل كل شيء على ما يرام؟».

قال الكونت بصوت هامس، مع أن أحدًا لم يكن في الجوار: «لا أصدق أنك تتحدثين خِفية مع صوفيا».

ردّت هامسة بدورها: «ليس خِفية. بل يتصادف أننا نتحدث وأنت في العمل».

«وتظنّين هذا مناسبًا؟ أن تعقدي صداقة مع ابنتي في غيابي؟».

«طيّب، أنت تحبّ أن تضع أزرارك في عُلبِك يا ساشا...».

«أظن هذا!».

استدار الكونت ليمضي إلى حال سبيله، لكنه توقف وعاد أدراجه.

«وبالمناسبة، إن كنت أحب وضع أزراري في عُلبِي، فهل هناك أي خطأ في ذلك؟».

«على الإطلاق».

«هل سيكون العالم مكانًا أفضل لو أبقيتُ كل الأزرار في برطمان زجاجي كبير؟ في عالم كهذا، كلما حاولتِ الوصول إلى زرٍّ من لون معيّن، ستدفعه أناملك إلى أسفل حتمًا، تحت الأزرار الأخرى، إلى أن يختفي عن أنظارك. وهكذا، سينتهي بك الأمر إلى أن تنفعلي وتدلقي كل الأزرار على الأرض- ثم تقضين ساعة ونصف في لململتها ثانية».

سألت آنا باهتمام حقيقي: «هل نتحدث عن أزرار حقيقية الآن؟ أم إن ذلك لا يزال مجازًا؟».

قال الكونت: «غير المجازي هو موعدي مع بروفيسور بارز. وهو، بالمناسبة، سيتطلب إلغاء أي مواعيد أخرى هذا المساء».

بعدها بعشر دقائق، كان الكونت يقرع ذلك الباب الذي سبق له وأن فتحَه ألف مرّة، لكنه لم يقرعه من قبل قَط.

قال البروفيسور: «آه، ها أنت هنا. تفضل بالدخول».

لم يكن الكونت قد دخل إلى جناحه القديم منذ أكثر من خمس

وعشرين سنة- ليس منذ تلك الليلة من عام 1926 عندما وقف على إفريز سور السطح.

كان غرف الجناح، الذي ظل مؤثثًا على طراز صالونات القرن التاسع عشر الفرنسية، لا تزال أنيقة، وإن بدت مستهلَكة بعض الشيء. الآن، كانت مرآةٌ واحدة من المرآتين المذهَّبتيْن معلّقة على الحائط؛ والستائر الحمراء الداكنة حال لونها؛ وطقم الأرائك والكراسي بحاجة إلى إعادة تنجيد؛ وبينما كانت ساعة عائلته لا تزال منتصبةً مثل ديدبان بجوار الباب، فقد توقّف عقرباها عند الساعة 4:22، وقد أصبحت مجرد قطعة ديكور في الغرفةِ، لا أداةً مهمّة للحفاظ على المواعيد. لكن إذا كان المرء لا يعود يسمع الصوت الرقيق لتقدّم الزمن في الجناح، فقد كان يسمع بدلًا منه أنغامَ فالس تنبعثُ من مذياع كهربائي فوق رفّ مدفأةِ غرفة الطعام.

دخل الكونت غرفة الجلوس وراء البروفيسور، وهو يرمق، بوحي العادة، الركن الشمالي الغربي الذي يتمتّع بإطلالة متميزة على البولشوي- هناك، في إطار النافذة، رأى هيئة ظلّية لرجل يحدّق في الليل. رجل طويل رفيع يقف وقفةً أرستقراطية، كان يمكن- في زمن آخر- أن يكون الكونتَ نفسه. لكن عندها استدار الرجل واجتاز الغرفة بيدٍ ممدودة.

«ألكسندر؟».

«ريتشارد؟».

لم يكن سواه. ابتسم ريتشارد فاندروايل في بدلته الأنيقة، وقبضَ على يد الكونت.

«تسرني رؤيتك! منذ متى لم نلتقِ؟ سنتين تقريبًا؟».

من غرفة الطعام، ارتفع صوت أنغام الفالس أعلى قليلًا. نظر الكونت في اللحظة الأخيرة ليرى البروفيسور سيروفيتش وهو يُغلق باب غرفة نومه ويدير الترباس النحاسي. أشار ريتشارد إلى أحد الكرسيين بجوار طاولة القهوة التي كانت حافلة بتشكيلة من المزّات.

«تفضل بالجلوس. أظن أنك تناولت عشاءك، لكنك لن تمانع أن آكل أنا لقمتيْن أليس كذلك؟ إنني أتضوّر جوعًا». جلس ريتشارد على الكنبة، ووضع شريحة من السلمون المدخّن على قطعة من الخبز وراح يلوكها مستمرئًا حتى وهو يفرد الكافيار على فطيرة بِليني. «رأيتُ صوفيا من بعيد في البهو بعد ظهر اليوم ولم أصدق عينيّ. كم صارت جميلة! لا بُد أن كل صبيان موسكو يطرقون بابك».

قال الكونت وهو يلوّح بيده مستعرضًا الغرفة: «ريتشارد. ما الذي نفعله هنا؟».

أومأ ريتشارد برأسه، ونفض الفتات عن يديه.

«أعتذر على الأداء المسرحي. البروفيسور سيروفيتش صديق قديم، ومن كَرَمه يعيرني غرفة جلوسه بين حين وآخر. أنا باقٍ في المدينة لبضعة أيام لا أكثر، ولم أرغب في تفويت فرصة التحدث إليك على انفراد، إذ لا أعرف بالضبط متى سأرجع».

سأل الكونت متوجسًا: «هل حدث خطبٌ ما؟».

رفع ريتشارد يديه إلى أعلى.

«على الإطلاق. في الحقيقة، يقولون لي إنها ترقية. سأعمل خارج السفارة في باريس للأعوام القليلة القادمة مشرفًا على مبادرة صغيرة من مبادراتنا، والأغلب أنها ستبقيني مربوطًا إلى مكتب ما. الحقيقة يا ألكسندر أنني أردت رؤيتك لهذا السبب...».

تقدّم ريتشارد ليجلس على حافة الكنبة، واضعًا مرفقيه على ركبتيه.

«منذ الحرب، ربما لم تعد العلاقات بين بلدينا ودّية كثيرًا، لكن ذلك كان متوقعًا. نُطلق نحنُ خطة مارشال، فتطلقون أنتم خطة مولوتوف. نشكّل نحنُ الناتو؛ فتشكّلون أنتم الكومِنفورم. نطوّر نحنُ قنبلة ذرية، فتطورون أنتم قنبلة ذرية. الأمر يشبه لعبة التنس- وهو ليس تمرينًا جيدًا فحسب، لكنه أيضًا فُرجة مسلّية جدًّا. فودكا؟».

صبّ ريتشارد كأسًا لكل منهما.

قال: «**زا فاس**».

وردّ الكونت: «**زا فاس**».

تجرع الرجلان كأسيهما فملأهما ريتشارد من جديد.

«المشكلة أن لاعبكم الأكبر ظل يلعب المباراة بصورة ممتازة، لوقت طويل، وهو اللاعب الوحيد الذي نعرفه. فإذا ترك الملعب غدًا، لا نعرف مَن سيأخذ مضربه، وما إذا كان سيلعب من على الخط الخلفي أم من على الشبكة».

توقف ريتشارد لبرهة.

«أنت تلعب التنس؟».

«لا، للأسف».

«آه. طيب. الفكرة هي أن الرفيق ستالين يبدو في آخر أيامه؛ وعندما يُسلِم الروح، ستكون الأمور غير متوقّعة على الإطلاق. والأمر لا يتعلق فقط بالدبلوماسية الدولية، بل أقصد هنا في موسكو. وبحسب من سينتهي إلى تولّي المسؤولية، يمكن لأبواب المدينة أن تنفتح على مصراعيها أمام العالم، أو توصد أبوابها وتُتربسها من الداخل».

أعلن الكونت: «علينا أن نأمل في الاحتمال الأول».

ووافقه ريتشارد: «بالضبط. ليس من مصلحتنا بالتأكيد أن نُصلّي للاحتمال الآخر. لكن أيًّا كان ما يحدث، فالأفضل أن نحسب حسابنا. وهو ما يقودنا إلى سبب زيارتي. أنت تعرف، المجموعة التي سأترأسها في باريس تعمل في حقل الاستخبارات. وحدةٌ بحثيّةٌ من نوع ما، على وجه التقريب. ونحن نبحث عن بعض الأصدقاء هنا وهناك ممن يكونون بين حين وآخر في موقف يسمح لهم بإلقاء بعض الضوء على هذا الأمر أو ذاك...».

قال الكونت متفاجئًا بعض الشيء: «ريتشارد، أنت لا تطلب مني التجسس على بلادي».

«ماذا؟ التجسّس على بلادك؟ قطعًا لا يا ألكسندر. أحبّ أن أفكر في الأمر كنوعٍ من النميمة الكوزموبوليتانيّة. تعرف: مَن دُعي إلى الحفل الراقص ومَن جاء دون دعوة؛ مَن أمسك بيد مَن في الركن؛ ومَن احمرّ وجهه من الخجل. الموضوعات المعتادة على إفطار صباح الأحد في أي مكان في العالم. وفي مقابل هذا النوع من التفاهات، يمكن أن نُظهر سخاءً إلى أبعد الحدود».

ابتسم الكونت.

«ريتشارد، أنا لستُ ميالًا للنميمة مثلما لستُ ميالًا للتجسس. لذا، دعنا لا نتحدث في الأمر ثانية وسنظل صديقَيْن مقرَّبيْن».

قال ريتشارد، وهو يقرع كأسه بكأس الكونت: «في صحة الصديقيْن المقربيْن إذًا».

على مدار الساعة التالية، نحّى الرجلان مباراة التنس جانبًا وتحدثا عوضًا عن ذلك عن حياتيهما. تكلم الكونت عن صوفيا، التي كانت تحقق خطوات رائعة في الكونسرفاتوار، والتي ظلت متأمّلة جدًّا وهادئة جدًّا. وتحدث ريتشارد عن أولاده، الذين كانوا يحققون خطوات رائعة في روضة الأطفال، والذين ظلوا على حالهم، لا متأمّلين ولا هادئين. تحدثا عن باريس وتولستوي وقاعة «كارنيغي هول» للموسيقى. ثم في الساعة التاسعة، نهض هذان الرجلان المتآلفان عن مقعديهما.

قال ريتشارد: «لعلّ من الأفضل ألا أرافقك للباب. آه، ولو أثير الموضوع، فأنت والبروفيسور سيروفيتش قد خُضتما مناقشة مطوّلة حول مستقبل السوناتّا. أنتَ كنتَ معها، وهو كان ضدّها».

بعد أن تصافحا، تابع الكونت ريتشارد وهو يختفي في غرفة النوم، ثم عاد باتجاه الباب لكي يخرج دون أن يرافقه أحد. لكن لدى مروره بساعة جدّه، تردّد. كم كانت مخلِصة في وقفتها في صالة استقبال جدته والإعلان عن ساعة الشاي، أو ساعة العشاء، أو ساعة النوم. في عشيّات

الكريسماس، كانت تحدد اللحظة حيث يُسمح للكونت وشقيقته بدفع درفتَيْ الباب الموصد.

فتح الكونت الباب الزجاجي الضيق في خزانة الساعة، ومدّ يده إلى الداخل فوجد المفتاح الصغير لا يزال معلّقًا في خطّافه. أدخله الكونت في ثقب المفتاح، وأدار الساعة إلى النهاية، وضَبَط الوقت، ونكَز البندول وهو يفكر: **دعِ العجوزة ترصُد الوقت لبضع ساعات إضافية.**

بعدها بتسعة شهور تقريبًا، في الثالث من مارس عام 1953، سوف يَلقى الرجل المعروف بـ«الأب العزيز»، أو فوزد، أو كوبا، أو سوسو، أو- ببساطة- ستالين، حتفَه في مقامه بكونتسِفو جرّاء سكتة دماغية.

في اليوم التالي، وصل عمال بصحبة شاحنات محمّلة بالزهور، إلى قصر النقابات في ميدان المسرح، وفي غضون ساعات كانت واجهة المبنى قد زُينت ببورتريه لستالين ارتفاعه ثلاثة طوابق.

في السادس من الشهر، وقف هاريسون ساليسبري، الرئيس الجديد لمكتب موسكو التابع لصحيفة نيويورك تايمز، في جناح الكونت القديم (الذي كان يحتله الآن القائم بالأعمال المكسيكي)، ليتابع الموقف، حيث وصل أعضاء من الهيئة الرئاسية في موكب من ليموزينات طراز «زيم»، وحيث حُمل نعش سوسو، بعد أن أُخرج من سيارة إسعاف زرقاء زاهية، بشكل احتفالي إلى الداخل. وفي السابع من الشهر، عندما فتح قصر النقابات أبوابه للجمهور، راقب ساليسبري بقدر من الدهشة طابور المواطنين المنتظرين لتقديم احتراماتهم يمتد لمسافة ثمانية كيلومترات عبر المدينة.

ولسوف يتساءل كثير من الملاحظين الغربيين، ما الذي يدفع مليون مواطن للوقوف في الطابور من أجل رؤية جثمان طاغية؟ العابثون قالوا إن هؤلاء يريدون التأكد من أنه مات حقًّا؛ لكنّ تعليقًا كهذا لا يفي الرجال والنساء الذين انتظروا وبكوا حقَّهم. في حقيقة الأمر، كانت بعض

الحشود تبكي فقدان رجل سبق وأن قادهم إلى النصر في الحرب الوطنية العظمى ضد قوات هتلر؛ وكانت حشودٌ أخرى تبكي فَقْد رجلٍ قاد روسيا بمفرده حتى أصبحت قوة عالمية؛ بينما كان آخرون يبكون ببساطة لأنهم أدركوا أن عصرًا جديدًا من الشك قد بدأ للتو.

إذ أثبتت تنبؤات ريتشارد، بالطبع، صحتها التامة. عندما لفظ سوسو آخر أنفاسه، لم تكن هناك خطة للاستخلاف، ولا نائبًا واضحًا. داخل الهيئة الرئاسية كان ثمانية رجال مختلفين يستطيعون إقامة حجج منطقية على أحقيتهم في القيادة: وزير الداخلية بيريا، ووزير القوات المسلحة بولغانين، ونائب رئيس مجلس الوزراء مالينكوف، ووزير التجارة الخارجية ميكويان، ووزير الخارجية مولوتوف، وعضوا الأمانة العامة كغانوفيتش وفوروشيلوف، وحتى عمدة موسكو السابق نيكيتا خروتشوف- رجل الأبارتشِك الجلف الغليظ الأصلع الذي أثبت براعة منذ عهد قريب في تشييد المباني السكنية الإسمنتية خماسية الطوابق.

وقد شعر الغرب بقدر كبير من الراحة حين ظهر، في أعقاب الجنازة، أن صاحب الفرصة الأكبر هو التقدّمي، داعية الانفتاح على العالم، والمعارض الصريح للأسلحة النووية مالينكوف- لأنه، مثل ستالين، عُيّن رئيسًا للحزب وسكرتيرًا عامًا للجنة المركزية. لكن سرعان ما تشكّل إجماع في الصفوف العليا للحزب أنه لا يجب السماح مطلقًا لأي شخص بالجمع بين هذين المنصبين بعد ذلك. وهكذا، بعدها بعشرة أيام، أُجبر رئيس الحزب مالينكوف على تمرير رئاسته للأمانة العامة إلى خروتشوف المحافظ، ما دشّن مرحلة الرئاسة المزدوجة لخصمَيْن- توازنٌ رهيف للسلطة بين رجلين يحملان وجهتي نظر متناقضتين ويشكّلان تحالفين ملتبسَيْن، وهو ما سيترك العالم رهن التكهنات لبضع سنوات تالية.

★ ★ ★

«كيف يمكن لأي شخص أن يعيش حياته منتظرًا ‹اللاحق›؟».
رغم تأكيد الكونت على أنه لا يملك الوقت لمواعيد أخرى ذلك المساء، فقد سأل هذا السؤال وهو في فراش آنا أوربانوفا.
واستطرد: «أعرف أن هناك شيئًا دونكيشوتيًّا في الحلم بـ‹السابق›، لكن في نهاية المطاف، عندما يكون ‹السابق› نفسه بعيد المنال، فكيف نستسلم لـ‹اللاحق›؟ سيمثّل هذا تناقضًا مع الروح الإنسانية. إن رغبتنا في اختلاس نظرة لأسلوب حياة مختلف، أو مشاركة لمحة من أسلوب حياتنا مع الآخرين، لهي رغبة جوهرية، لدرجة أن قوى ‹السابق›، حتّى عندما توصِد قوى ‹اللاحق› أبواب المدينة، تجِد وسيلةً للانسلال بين الشقوق».
مدّ الكونت يده، واستعار سيجارة آنا، وسحب نفسًا. فكّر للحظة ثم لوّح بالسيجارة باتجاه السقف.
«في السنوات الأخيرة، ظللتُ أخدِّم على أمريكان قطعوا الطريق إلى موسكو لحضور عرضٍ واحد في البولشوي. في هذه الأثناء، كان ذلك الثلاثي العشوائي الذي يعزف في الشاليابين يجرب عَزف أي مقطوعة صغيرة من الموسيقى الأمريكية سمعوها في المذياع. تلك هي قطعًا قوى ‹السابق› في أبرز تجلّياتها».
سحبَ الكونت نفسًا آخر.
«عندما يكون إميل في مطبخه، هل يطبخ ‹اللاحق›؟ بالطبع لا. إنه يسوّي، ويحمّص ‹السابق›، ويضعه في الصحون: بتلّو من فيينا، حمامة من باريس، أو يخنة مأكولات بحرية من جنوب فرنسا. أو فكّري في قضية فيكتور ستيبانوفيتش».
«لن تبدأ في الحديث عن فراشات مانشستر ثانية».
قال الكونت متذمِّرًا: «لا. أنا أثير نقطة مختلفة تمامًا. عندما يجلس فيكتور وصوفيا إلى البيانو، هل يعزفان موسُرغِسكي، وموسُرغِسكي، وموسُرغِسكي؟ لا. بل يعزفان باخ وبتهوفن، روسّيني وبوتشيني، بينما

في ‹كارنيغي هول›، حين يعزف هوروفيتس أعمال تشايكوفسكي، يستجيب الحضور بتصفيق هادر».

استدار الكونت على جنبه ليتفحّص الممثلة.

قال، وهو يعيد إليها سيجارتها: «أنتِ صامتة على غير العادة. ربما لا تتفقين معي؟».

سحبت آنا نفسًا وزفرت ببطء.

«ليست مسألة أنني لا أتفق معك يا ساشا. لكنني لست متأكدة أن الإنسان يستطيع أن يقضي حياته ببساطة راقصًا على أنغام ‹السابق›، كما تسميه. هناك حقائق معينة يجب مواجهتها أيًّا كنت تعيش، وفي روسيا قد يعني هذا بعضًا من الانحناء أمام ‹اللاحق›. خذ مثلًا شوربة البويابِس البحرية التي تعشقها، أو هذا التصفيق الحار في ‹كارنيغي هول›. ليست مصادفة أن المدن التي تستشهد بها مدنٌ بَحريّة: مارسيليا ونيويورك. وأقول إنك تستطيع العثور على أمثلة مشابهة في شنغهاي وروتردام. لكن موسكو ليست ميناءً يا حبيبي. في قلب كل ما هو روسيا- بثقافتها، وسيكولوجيتّها، وربما مصيرها- ينتصب الكرملين، قلعة مسوّرة عمرها ألف سنة وتبتعد عن البحر بأكثر من ستمئة كيلومتر. من الناحية الماديّة، لم تعد أسوارها عاليةً بما يكفي لصدّ الهجوم، لكنها لا تزال تُلقي بظلالها على البلاد بأكملها».

انقلب الكونت على ظهره وحدّق في السقف.

«ساشا، أعرف أنك لا تريد تقبُّل فكرة أن روسيا يمكن أن تكون انغلاقيّة بطبيعتها، لكن هل تظن أنهم حتّى في أمريكا يديرون نقاشًا كهذا؟ يتساءلون ما إن كانت بوابات نيويورك على وشك الانفتاح أو الانغلاق؟ يتساءلون إن كان ‹السابق› أرجَحَ من ‹اللاحق›؟ كل المؤشرات تقول إن أمريكا تأسّست على ‹السابق›. إنهم لا يعرفون حتّى ما هو ‹اللاحق›».

«وكأنك تحلمين بالعيش في أمريكا».

«الجميع يحلمون بالعيش في أمريكا».

«هذا سخف».

«سخف؟ نصف سكّان أوروبا سينتقلون إلى هناك غدًا، حتى وإن كان لمجرد التمتع بسُبل الراحة».

«سُبل الراحة؟ ما هي سُبل الراحة؟».

انقلبت آنا على جنبها، وسحقت سيجارتها، وفتحت دُرج طاولة سريرها، وأخرجت مجلة أمريكية كبيرة لاحظ الكونت أنها سُمّيت بصلافةٍ «الحياة» (لايف). بدأت آنا تقلّب الصفحات وهي تشير إلى صور فوتوغرافية مختلفة ذات ألوان زاهية، بدا أن كلًّا منها يُظهر المرأة نفسها في فستان مختلف تبتسم أمام بِدعة مُحدَثة.

«غسّالات أطباق. غسّالات ملابس. مكانس كهربائية. مُحمِّصات خبز. تلفزيونات. وانظر هنا، باب كراجٍ أوتوماتيكي».

«ما هو باب الكراج الأوتوماتيكي؟».

«إنه باب كراج يفتح ويغلق نفسه بدلًا منك. ما رأيك في هذا؟».

«رأيي أنني لو كنت باب كراج، لافتقدتُ الأيام الخوالي».

أشعلت آنا سيجارة أخرى وناولتها للكونت. سحب نفسًا وراقب الدخان وهو يتصاعد لولبيًّا باتجاه السقف حيث تنظر ربّات الإلهام إلى أسفل من فوق السحاب.

قال بعد برهة: «سأخبرك ما هي سُبل الراحة. أن تنامي حتى الظُهر ويكون لديكِ مَن يجلب لك الإفطار على صينية. أن تَلغي موعدًا في الدقيقة الأخيرة. أن تستبقي عربةً عند باب حفلة، لتتمكّني، فور أن يخطر ببالك، من الانطلاق إلى حفلة أخرى. أن تتجنّبي الزواج في شبابِك وتتخلّي تمامًا عن فكرةِ إنجاب أطفال. هذه هي أعظم سُبل الراحة يا أنوشكا- وفي وقت ما، كنت أتمتع بها جميعًا. لكن في النهاية، أصبحَت سُبل العناء هي التي تشغلني أكثر من أي شيء».

أخذت آنا أوربانوفا السيجارة من بين إصبعي الكونت، وأسقطَتها في كوب ماء، وطبعت قبلةً على أنفه.

1953

ملائكة وشيّاطون

«مثل النجوم الدوَّارة»، غمغم الكونت وهو يسير رائحًا غاديًا في غرفته.

هكذا يمرّ الوقت عندما يترك المرء للانتظار دون أن يفهم السبب. الساعات تمتد بلا نهاية. والدقائق بلا رحمة. والثواني؟ نعم، كل ثانية منها تُطالِب بوقفة على خشبة المسرح، بل وتصرّ على إلقاء مناجاةٍ حافلة بالوقفات الجسيمة والترددات الأرِيبة، ثم ما إن تُقابَل بأوهى قدر من الاستحسان، حتى تقتنص الفرصة وتبدأ في إعادة المناجاة من أوّلها.

لكن ألم يُسهب الكونت من قبل ويُطنب في مدى البطء الذي تتقدم به النجوم؟ ألم يسبق له أن تغزَّلَ في الكويكبات وكيف تبدو عالقة في مسارها عندما يرقد المرء على ظهره ويصغي لوقع الخطى في العشب- وكأنما الطبيعة نفسها تتآمر لإطالة السويعات الأخيرة قبل انبلاج الصبح، حتى يستمتع السهران بمذاقها إلى أقصى الحدود؟

طيّب، هذا صحيح. بالتأكيد كان الحال كذلك بالنسبة لشاب في الحادية والعشرين من عمره ينتظر آنسة في مَرْجة- بعد أن تسلّق اللبلاب ونَقَر على الزجاج. لكن أن تترك رجلًا ينتظر وهو في الثالثة والستين بعد أن خفّ شعره، وتيبّست مفاصله، وأصبح رهن احتمالٍ أن يكون كل نَفَسٍ من أنفاسِه النَفَسَ الأخير؟ هناك شيء اسمه الكياسة، في نهاية المطاف.

حَسَبَها الكونت: لعلها الواحدة صباحًا الآن. كان يُفترَض بالعرض أن ينتهي في الحادية عشرة. وحفل الاستقبال في الثانية عشرة. كان لا بُد أن يكونا هنا منذ نصف ساعة.

تساءل بصوت عال: «ألم تتبقَّ أي سيارات تاكسي في موسكو؟ ولا عربات ترام؟».

أم إنهم قد توقّفوا في مكان ما في طريق العودة...؟ هل مرَّا بأحد المقاهي فعجِزا عن مقاومة الرغبة في الانسلال إلى الداخل وتقاسُم فطيرة بينما هو ينتظر وينتظر وينتظر؟ هل يمكن أن يكونا قُساة القلب إلى هذا الحدّ؟ (إن كان كذلك، فأجدر بهما ألا يجرؤَا على إخفاء الحقيقة، لأنه يستطيع أن يعرف إن كانا تناولا فطيرةً من على مسافة خمسة عشر مترًا!).

توقف الكونت في رواحه ومجيئه لكي يختلس نظرةً وراء السفيرة، حيث كان قد أخفى بحرص زجاجة الـ«دوم برينيون».

الاستعدادُ لاحتفال **مُحتمَل** مهمةٌ مراوِغة. في حال ابتسم الحظ، يجب على المرء أن يكون مستعدًا لأن يخبط السقف بالسدادة. لكن في حال هزّ الحظ كتفيه لا مباليًا، يجب على المرء أن يكون مستعدًا للتصرف وكأنها مجرّد ليلة أخرى، ليس لها أهمية خاصة- ثم لاحقًا يُغرق الزجاجة التي لم تُفتح في قاع البحر.

دسّ الكونت يده في الدلو. كان الثلج قد ذاب إلى نصفه تقريبًا ووصلت حرارة المياه إلى 10 درجات. إذا لم يرجعا قريبًا، ستصبح الحرارة فاترةً جدًّا ما يجعل الزجاجة جديرة بقاع البحر.

طيّب، هذا ما يستحقانه.

لكن بعد أن سحب الكونت يده ووقف منتصب القامة، سمع صوتًا غير عادي ينبعث من الغرفة التالية. كانت دقّة الساعة مزدوجة الدقات. شركة «بريغيه» الموثوقة تُعلن دقة منتصف الليل.

مستحيل! لقد ظل الكونت ينتظر لساعتيْن على الأقل. لقد قطع أكثر من ثلاثين كيلومترًا في ذهابه وإيابه. لا بُد وأن تكون الواحدة والنصف الآن. ليس أقل من ذلك بدقيقة واحدة.

غمغم الكونت: «ربما بريغيه الموثوقة لم تعد موثوقة إلى هذا القدر».

في نهاية المطاف، كان عُمر الساعة أكثر من خمسين سنة، وحتى أرقى الميقاتيّات تخضع لويلات الزمن. سوف تفقد التروس تروسيَّتها في نهاية المطاف، تمامًا كما ستفقد النوابض نبضيَّتها. لكن بينما كان الكونت يفكر في هذه الفكرة، سمع من نافذة الإفريز الصغيرة ساعة برج في البعيد تدقّ مرّة، ثم مرّتين، ثم ثلاثة...

قال، وهو يَسقط في كرسيه: «نعم، نعم. لقد أوضحتِ وجهة نظرك».

يبدو أنه كان مقدَّرا أن يكون يوم المنغّصات.

عصر ذلك اليوم، كان مساعد مدير البويارسكي قد جَمَع موظفيه لكي يعرض عليهم التدابير الجديدة المتعلّقة بأخذ الطلبات، وتسليمها، والمحاسبة عليها.

من الآن فصاعدًا، كما شَرَح لهم، عندما يأخذ النادل طلبًا، سيدوّنه في دفترٍ مخصص لهذا الغرض. عندما يترك الطاولة، يَنقل الطلب إلى المحاسب، الذي، بعد أن يُسجل مَدخلًا في دفتر حساباته، يُصدر إيصال طهوٍ للمطبخ. في المطبخ، يُسجَّل مدخلٌ مقابلٌ في سِجلّ الطهو، وعند تلك النقطة يبدأ الطهو. عندما يصبح الطعام جاهزًا للتناول، يُصدَر إيصالُ تأكيد من المطبخ إلى المحاسب، الذي يقدِّم بدوره إيصالًا مختومًا للنادل يُصرِّح له فيه باستلام الطعام. وهكذا، بعد بضع دقائق، سيكون النادل قادرًا على وضع العلامة المناسبة في دفتره ليؤكد أن هذا الطبق الذي تم طلبه، وتسجيله، وطهوه، واستلامه، أصبح أخيرًا على الطاولة...

الآن، في كل أنحاء روسيا، لم يكن هناك من هو أكثر إعجابًا بالكلمة المكتوبة من الكونت ألكسندر إلييتش روستوف. في زمنه، رأى بيتًا شعريًا لبوشكين يُمِيل قلبًا متردّدًا. شاهد فقرة واحدة من دوستويفسكي تحفّز رجلًا على العمل وآخر على اللامبالاة- في الساعة عينها. وبالتأكيد شعر

بالرضا لأن شخصًا ما انتبه لحِكَم سقراط في ساحة الـ«أغورا »ومواعظ يسوع فوق «الجبل»، فسجّل كلماتهما للأجيال القادمة. إذًا، دعنا نتفق أن هواجس الكونت تجاه هذا النظام الجديد لم تُبنَ على نفورٍ ما من الأقلام والأوراق.

بالأحرى، كانت مسألة سياق. فالشخص، حين يقرر تناول الطعام في البياتسا، يجب أن يتوقع أن يميل النادل على طاولته ويُشخبط في دفتره الصغير. لكن منذ أن أصبح الكونت رئيس نُدُل في البويارسكي، صار الزبائن يتوقعون من النادل القائم على خدمتهم أن ينظر في أعينهم، ويجيب على أسئلتهم، ويقدم لهم النصائح، ويسجّل تفضيلاتهم بلا خطأ واحد- دون حتّى أن يُخرج يديه من وراء ظهره.

وكما هو متوقَّع، عندما دخل النظام الجديد حيّز الممارسة ذلك المساء، صُدم زبائن البويارسكي حين وجدوا موظفًا يجلس وراء مكتب صغير خلف منصة الـ«مِتر دوتيل». وتملّكتهم الحيرة حين راقبوا الأوراق وهي ترفرف في أرجاء الغرفة، وكأنهم في قاعة سوقٍ للأوراق المالية. لكنهم استشاطوا غضبًا حين وجدوا قطع البتلّو وأعواد الهليون تصل إلى طاولاتهم باردة مثل الهُلام.

بالطبع، لن يَصلح هذا.

بالصدفة، في منتصف الإجلاس الثاني، لاحظ الكونت الأسقفَ وهو يتوقف لحظة بباب البويارسكي. هكذا، ولأنه نشأ على مبدأ أن الرجال المتحضّرين يجب أن يلجأوا إلى مشاطرة شواغلهم مع زملائهم والتصرّف بروح الجماعة، اجتاز الكونت قاعة الطعام ولحق بالأسقف في البهو.

«حضرة المدير لِبليفسكي!».

«حضرة رئيس النُدُل روستوف»، قالها الأسقف، وقد اندهش قليلًا أن يستوقفه الكونت. «أيّ خدمة...؟».

«إنها مسألة بسيطة حتى إنني لا أريد إزعاجك بها».

«إذا كانت مسألة تهمّ الفندق، فهي تهمني».

وافقه الكونت: «هذا صحيح. الآن، أؤكد لك يا حضرة المدير لِبليفسكي، إنه في عموم روسيا ما مِن عاشق للكلمة المكتوبة أكثر...».

بعد أن أثار الكونت الموضوع، استطرد ممتدحًا أبيات بوشكين، وفقرات دوستويفسكي، وتدوين حكم سقراط ومواعظ يسوع. ثم شرح الخطر الذي تمُثله الأقلام والدفاتر على الأناقة الرومانتيكية التي عُرف بها البويارسكي.

اختتم الكونت كلامه وقد التمعت عيناه: «تخيّل أنك عندما تقدّمتَ لطلب يد زوجتك، كان عليك تقديم طلبك ممهورًا بختم الإدارة المختصّة، ثم أخْذِ ردّها في ورقة صغيرة من ثلاث نسخ- لكي تعطي نسخة لها، وأخرى لوالدها، وثالثة لكاهن الأسرة؟».

لكن قبل أن ينتهي الكونت من مزحته، ذكّره التعبير الذي ارتسم على وجه الأسقف أن المرء يجب، عمومًا، أن يتجنّب ذكر الزواج على سبيل المزاح...

قال الأسقف: «لا أرى أيّ علاقة لزوجتي بهذا الأمر».

وافقه الكونت: «لا. كان هذا مثالًا سيئًا. ما أحاول قوله هو أن أندري وإميل، وأنا...».

«إذًا أنت تُقدّم هذه الـمَظْلمة بالنيابة عن المتر دوراس والشيف زوكوفسكي؟».

«طيّب، لا. لقد استوقفتك من تلقاء نفسي. وهي ليست مَظْلمة في حد ذاتها. لكن ثلاثتنا حريصون على ضمان رضا زبائن البويارسكي».

ابتسم الأسقف.

«بالطبع. وأنا متأكّد أن كلًّا منكم لديه مخاوفه الخاصة المتعلقة بواجباته المحدَّدة. لكن بوصفي **مديرًا** للمتروبول، فأنا من يجب أن

يضمن توافق كلِّ جانب من جوانب الفندق مع معايير الكمال؛ وهذا يتطلب انتباهًا يقِظًا لمنع أي فروقات».

ارتبك الكونت.

«فروقات؟ أي نوع من الفروقات؟».

«كل أنواع الفروقات. في يوم ما، يمكن أن يكون فارقًا بين عدد حبّات البصل التي وصلت إلى المطبخ وعدد الحبّات التي وُضعت في اليخنة. في يوم آخر، قد يكون فارقًا بين عدد كؤوس النبيذ المطلوبة وتلك المصبوبة».

شعر الكونت بالبرودة تسري في جسده.

«هل تتحدث عن سرقة؟».

«هل أفعل؟».

ظل الرجلان يحدّقان في بعضهما البعض للحظة، ثم ابتسم الأسقف ابتسامة صغيرة.

«بالنظر إلى إخلاصكم المشترَك، اعتبر أن لك مطلق الحرية في نقل حوارنا للشيف زوكوفسكي والمتر دوراس في أقرب فرصة».

كزّ الكونت على أسنانه.

«تأكد أنني سأنقله كلمة بكلمة غدًا في اجتماعنا اليومي».

تفحّص الأسقف الكونت.

«لديكم اجتماع يومي...؟».

حسبُنا القول إن الزبائن، في الإجلاس الثاني للبويارسكي، شعروا بالصدمة، والحيرة، وثارت ثائرتهم مرة أخرى فيما كانت الأوراق تطير في أرجاء قاعة الطعام مثل طيور درَّاج سمعَت طلقة بندقية. وبعد أن احتمل الكونت كل ذلك، جلس وحيدًا في مكتبه يَعدُّ الدقائق.

دقّ الكونت بأصابعه على ذراع كرسيه، ثم نهض وعاود المرواح والمجيء وهو يدندن بسوناتّا موتسارت للبيانو رقم 1 في مقام دو الكبير.

أخذ يهمهم: «دوم دي دوم دي دوم».

كانت مقطوعة مبهجة، عليك الاعتراف بذلك، ومناسبة تمامًا لشخصية ابنته. الحركة الأولى كان لها إيقاع صوفيا وهي في العاشرة من عمرها، عائدة من المدرسة إلى البيت بخمسة عشر شيئًا تريد أن تحكيه. دون أن تضيّع الوقت في شرح مَن هو فلان ومَن هو عِلّان، أو ما هذا وما ذاك، كان لسانها ينطلق بالحكي، وهي ترصّع تقريرها بعبارة: **وبعد ذلك، وبعد ذلك، وبعد ذلك، وبعد ذلك**. في الحركة الثانية، انتقلت السوناتّا إلى إيقاع متّزن ينسجم أكثر مع صوفيا في السابعة عشرة، عندما كانت تُرحّب بالعواصف الرعدية في عصريّات السبت حتى تستطيع أن تجلس في مكتبها بكتاب في حِجرها أو باسطوانة في الفونوغراف. في الحركة الثالثة، بإيقاعها الحثيث وأسلوبها التنقيطيّ، كنت تكاد تسمعها وهي في الثالثة عشرة، تركض نازلةً على سلّم الفندق، تتجمّد عند البسطة لوهلة لكي تترك شخصًا يمرّ، ثم تندفع إلى الأمام في طَرَب.

نعم، كانت مقطوعة مبهجة، لا شك في ذلك. لكن أكانت مبهجة زيادة على اللزوم؟ هل سيراها الـمُحكِّمون مفتقِرة إلى الثِقَل المطلوب للعصر؟ عندما اختارت صوفيا تلك المقطوعة، حاول الكونت أن يبدي هواجسه على نحو دبلوماسي، بالإشارة إلى القطعة بوصفها «سارَّة» و«مسلّية للغاية»؛ ثم لاذ بالصمت. فدور الوالد أن يعبّر عن مخاوفه ثم يرجع ثلاث خطوات إلى الخلف. لا خطوة واحدة، اسمح لي، ولا اثنتان، بل ثلاثًا. أو ربما أربعًا. (لكن ليس خمسًا بأي حال). نعم، يجب على الوالد أن يُفصح عن تردّده ثم يأخذ ثلاث أو أربع خطوات إلى الخلف، كي يستطيع الطفل أن يتخذ قراره بنفسه- حتى إن أحبطه ذلك القرار.

لكن انتظر!

ماذا كان ذلك؟

عندما استدار الكونت، انفتَح باب الدولاب واندفعَت آنا إلى المكتب، ساحبةً صوفيا وراءها.

«لقد فازت!».

للمرة الأولى منذ عشرين عامًا، أطلق الكونت صرخة: «ها-ها!».

عانق آنا على بشارتها بالخبر السعيد.

ثم عانق صوفيا على فوزها.

ثم عانق آنا ثانية.

قالت آنا بأنفاس متهدّجة: «معذرة على التأخير. لكنهم لم يتركوها تغادر الحفل».

«انسي الأمر تمامًا! لم أنتبه لمرور الوقت أصلًا. لكن اجلسا، اجلسا، اجلسا وخبّراني بكل شيء».

قدّم الكونت الكرسيين عاليي الظهر للسيدتين، ورَبَض هو على حافة السفيرة مصوبًا نظراته إلى صوفيا، مترقّبًا. ابتسمت صوفيا بخجل، وتركت الكلمة لآنا.

قالت الممثلة: «كان أمرًا لا يُصدَّق. قبل صوفيا، اعتلى المسرحة خمسة مؤدِّين. عازفا كمان، وعازف تشيللو، و...»

«صحيح؟ في أي قاعة؟».

«في القاعة الكبرى».

«أعرفها جيدًا. لقد صممها زاغورسكي في منقَلَب القرن. كم كان الحضور؟ من كان هناك؟».

قطّبت آنا جبينها، وضحكت صوفيا.

«بابا. اتركها تحكي».

«طيّب. طيّب».

وهكذا، فعل الكونت ما أُمر. تَرك آنا تحكي. وحكت كيف اعتلى المسرح خمسة مؤدُّين قبل صوفيا: عازفا كمان، وعازف تشيللو، وعازف بوق فرنسي، وعازف بيانو آخر. كلُّهم بيَّضوا وجه الكونسرفاتوار، فسلكوا مسلكًا احترافيًّا وعزفوا على آلاتهم بكل دقّة. مقطوعتان لتشايكوفسكي،

مقطوعتان لريمسكي كورساكوف، وقطعة لبورودين. لكن بعدها، جاء دور صوفيا.

«أقول لك يا ساشا، عندما ظهرَت شهق الحضور. اجتازت الخشبة إلى البيانو دون أن يُصدر فستانها أدنى حفيف. وكأنها تطفو فوق الأرض».

«أنتِ علّمتيني ذلك يا خالة آنا».

«لا، لا يا صوفيا. الطريقة التي دخلتِ بها **لا تُعلَّم**».

واتفق معها الكونت: «دون شك».

«طيّب. عندما أعلن المدير أن صوفيا ستلعب سوناتا رقم واحد للبيانو لموتسارت، صدرت بعض الغمغمات وبعض التململ في الكراسي. لكن لحظة بدأت العزف، ران الصمت على الجميع».

«كنت أعرف. ألم أقل لكِ؟ ألم أقل لكِ أن قليلًا من موتسارت لن يضرّ أبدًا؟».

«بابا...».

تابعت آنا قولها: «عزفَت برقّة كبيرة، بفرحة كبيرة، حتى إنها كسبَت الجمهور منذ البداية. الابتسامات كانت على كل وجه في كل صفّ، أقول لك. والتصفيق عندما انتهت! لو فقط أمكنَك سماعه يا ساشا. لقد هزّ الثريّات حتى تساقط منها التراب».

«كم موسيقيّ عزفوا بعد صوفيا؟».

«لا يهم. لقد انتهت المسابقة والجميع عرف ذلك. الصبي المسكين الذي ظهر بعدها كان عليه أن يُجرَّ جرًّا إلى الخشبة. وبعدها، كانت فاتنة الحفل، يرفعون نخبها في كل رُكن».

صاح الكونت، وهو يقفز على قدميه: «**مون ديو**! كدتُ أنسى».

أزاح السفيرة جانبًا وأخرج الدلو الذي يحوي زجاجة الشامبانيا.

«**فوالا**!».

عندما غاصت يد الكونت في الماء، عرف أن درجة الحرارة قد

ارتفعت إلى 12 درجة، لكن ماذا كان يهمّ؟ بِليَّةٍ واحدةٍ من إصبعيه قشّر الورق المفضّض عن الزجاجة، ثم اندفعت السدادة إلى السقف! انسالت الشامبانيا على يديه وضحكوا جميعًا. ملأ كأسين طويلتين للسيدتين وكأسَ نبيذ لنفسه.

قال: «نخب صوفيا. ولتكن الليلة بداية مغامرة كبيرة- مغامرة يتردد صداها في طول البلاد وعرضها».

قالت وقد تورَّد خداها: «بابا! لقد كانت مسابقة مدرسية فحسب».

«مسابقة مدرسية فحسب! إحدى السمات الجوهرية للشباب يا عزيزتي أنهم لا يلاحظون المغامرة الكبيرة عندما تبدأ. لكن بوصفي رجلًا خبيرًا، تستطيعين أن تأخذيها كلمة مني أن...».

فجأة أسكَتَت آنا الكونت برفع يدها، ونَظرت إلى باب الدولاب.

«هل سمعتما ذلك؟».

وقف الثلاثة دون حراك. بكل تأكيد. كان ثمة صوت يتكلم، وإن كان مكتومًا. لا بُد أن شخصًا ما يقف بباب غرفة النوم.

همس الكونت: «سأرى مَن».

حطّ كأسه، وانسلّ بين السترات، وفتح باب الدولاب، وخطا إلى داخل غرفة النوم ليرى- أندري وإميل عند قدم الفراش وسط سجالٍ هامس. كان إميل يحمل كعكة من عشر طبقات على شكل بيانو، ولا بُد أن أندري قد اقترح عليه وضعها على السرير برفقة رسالة صغيرة، لأن إميل كان يردّ قائلًا إن المرء «لا يرمي ‹تورتة دوبوش› على غطاء فراشٍ»- لحظة انفتح باب الدولاب واندفع منه الكونت.

زَفَر أندري آهةً.

وشهق الكونت شهقةً.

وأسقط إميل الكعكة.

وكان يمكن أن تنتهي الأمسية في التوّ واللحظة، لولا عَجْز أندري

الفطري عن ترك الأشياء تسقط على الأرض. بأخفّ خطواتٍ وأصابع ممدودة، التقط لاعب البهلوانيات السابق الكعكة في الهواء.

أطلق أندري تنهيدة راحة وحدّق إميل وفمه مفتوح، بينما حاول الكونت أن يتصرف بشكل طبيعي.

«أندريه، إميل، يا لها من مفاجأة سارّة...».

التقط أندري الخيط من الكونت، وتصرف وكأن شيئًا غير عاديّ لم يحدث للتوّ. قال: «إميل أعدّ شيئًا صغيرًا لأجل صوفيا ترقبًا لفوزها. رجاءً أبلغها أحرّ تهانينا». ثم وضع أندري الكعكة بلطف على مكتب الدوق الأكبر، واستدار إلى الباب.

لكن إميل لم يتزحزح من مكانه.

سأل: «ألكسندر إلييتش. ماذا كنت تفعل في الدولاب بحقّ إيفان؟».(*)

سأل الكونت: «في الدولاب؟ نعم، أنا... أنا كنت...». ثم تلاشى صوته تدريجيًا.

قدّم أندري ابتسامة تعاطف ثم أشاح بيديه وكأنما يكنُس الموضوع؛ وكأنما يقول: **العالم واسع، وطُرق الرجال عجيبة**...

لكن إميل قطّب جبينه لأندري، وكأنما يقول: **هراء**.

نظر الكونت من أحد عضوي المجلس الرئاسي إلى الآخر.

قال أخيرًا: «أين لياقتي؟ صوفيا ستبتهج لرؤيتكما. من فضلكما. من هذا الطريق». ثم أشار بيدٍ مُرحِّبةٍ إلى الدولاب.

نظر إميل إلى الكونت وكأنه فقد عقله. لكن أندري، الذي لم يكن ليتردد قَط في تلبية دعوة لائقة، رفع الكعكة وأخذ خطوة باتجاه باب الدولاب.

(*) إيفان: يقسم إميل بهذا الاسم الروسي الشهير الذي حمله عددٌ من حكام روسيا، من بينهم إيفان الأكبر، وإيفان الرهيب. (المترجم).

أطلق إميل زمجرةً ساخطة. وقال لأندري: «إذا كنا سندخل، من الأفضل أن تنتبه كَيْلا تلطخ الأكمام بالكِريمة». وهكذا، مرّر المِتر الكعكة لإميل وفرّق بحرص سترات الكونت بيديه المرهفتين.

عندما خرجوا من الجانب الآخر، فوجئ أندري لدى رؤية مكتب الكونت للمرة الأولى، لكن المفاجأة سرعان ما استُبدلت بمرأى صوفيا. قال: «**نوتر شامبيون!**»(*) وهو يأخذها من ذراعيها ويقبّلها على خديها. أما إميل، فقد استُبدلت مفاجأته لرؤية مكتب الكونت بمفاجأة أكبر وأعظم عندما رأى نجمة الأفلام آنا أوربانوفا تقف بداخله. فما لم يعرفه الكونت أن الشيف كان قد شاهد كل أفلامها، من الصف الثاني في غالب الأحيان.

عندما لاحظ أندري الانبهار على وجه إميل، خطا خطوة سريعة إلى الأمام ووضع يديه تحت الكعكة. لكن إميل لم يفقد السيطرة تلك المرة. بل دَفَع الكعكة فجأة إلى آنا، وكأنه قد خبزها خصيصًا لها.

قالت: «شكرًا جزيلًا لك، لكن هذه لصوفيا؟».

تورّد إميل من كتفيه إلى قمة رأسه الذي يزحف عليه الصلع واستدار إلى صوفيا.

قال: «لقد صنعتُها كما تفضلينها. تورتة دوبوش بكريمة الشوكولاتة».

«شكرًا يا عمُّ إميل».

أضاف: «إنها على شكل بيانو».

عندما أخرج إميل سكّينه متعدد الاستعمالات من زنّار مريلته وشرع في تقطيع الكعكة، أخرج الكونت كأسين أخريين من السفيرة وملأهما بالشامبانيا. سُردت قصة انتصار صوفيا ثانية وشَبّهت آنا عزفها الممتاز بكعكة إميل الممتازة. وعندما بدأ الشيف يشرح للممثلة دقائق وصفة عمل التورتة، كان أندري يحكي لصوفيا تلك الليلة قبل عدة سنوات عندما شربوا نخب وصول الكونت إلى الطابق السادس.

(*) **نوتر شامبيون!** *Notre champion*: بطلتنا (بالفرنسية في الأصل). (المترجم)

«هل تتذكر يا ألكسندر؟».

ردّ الكونت بابتسامة: «وكأنه كان بالأمس. تلك الليلة، قمت أنت بواجب الضيافة يا صديقي، ومارينا كانت هنا مع فاسيلي...».

وكأنما بِفِعل السِّحر، لحظة نَطَق الكونت باسم فاسيلي، دَخل مسؤول خدمة النزلاء من باب الدولاب. بطريقة عسكرية، ضَرَب كعبيه وقدّم التحية للمجتمعين في تتابعٍ سريع دون أن يُظهر أدنى إشارة على أنه فوجئ بمكان الاجتماع.

«آنسة أوربانوفا. صوفيا. أندري. إميل». ثم استدار إلى الكونت وقال: «ألكسندر إلييتش، هل لي بكلمة...؟».

من طريقة فاسيلي في السؤال، كان واضحًا أنه يريد التحدث مع الكونت على انفراد. لكنّ مساحة مكتب الكونت لم تكن تتجاوز تسعة أمتار مربّعة، ولم يكن بوسعهما الابتعاد أكثر من ثلاث خطوات عن الباقين لتأمين قَدرٍ من الخصوصية- وهو الفعل الذي اعتُبر على الفور بلا أهمية عندما تحرك بقية أعضاء الحفل الأربعة مسافةً مساوية في الاتجاه نفسه.

قال فاسيلي (بطريقة: بيني وبينك): «أريد أن أبلغك أن مدير الفندق في الطريق».

جاء دور الكونت لإبداء دهشته.

«في الطريق إلى أين؟».

«في الطريق إلى هنا. أو بالأحرى... إلى هناك»، قالها فاسيلي، وهو يشير إلى الخلف باتجاه غرفة نوم الكونت.

«لكن لأيّ سبب؟».

شرح فاسيلي أنه حين كان يراجع حجوزات ليلة الغد، تصادف وأن رأى الأسقف يتلكأ في البهو. وبعد عدة دقائق، عندما اقترب رجلٌ ضئيل يعتمر قبعة عريضة الحواف من مكتب الاستقبال وطلب الكونت بالاسم،

قدّم الأسقف نفسه، وأوضح أنه كان ينتظر الزائر، وعَرَض عليه أن يصحبه شخصيًّا إلى غرفة الكونت.

«متى كان ذلك؟».

«كانا يدخلان المصعد عندما صعدتُ أنا على السلالم؛ لكنهما كانا بصحبة السيد هاريمان من الجناح 215 والزوجين تاركوف من الغرفة 426. وبحساب الوقفات في الطابقين الثاني والرابع، أظنهما يجب أن يكونا هنا في أي لحظة».

«يا ربيّ!».

تبادل أعضاء الحفل النظرات.

قال الكونت: «لا تُصدروا أي صوت». دخل الدولاب وأغلق باب المكتب خلفه، ثم فتح الباب إلى غرفة نومه بحذرٍ أكبر قليلًا مما فعل في المرة السابقة. أراحه أن يجد الغرفة خالية، فأغلق باب الدولاب، وتناول نسخة صوفيا من رواية «آباء وأبناء»، وجلس في كرسي مكتبه، وأماله على قائمتيه لحظة سماع القرع على الباب.

نادى الكونت: «مَن بالباب؟».

وردّ عليه الأسقف: «أنا المدير لِبليفسكي».

ترك الكونت القائمتين الأماميَّتَيْن لكرسيه تسقطان بلطمةٍ وفتح الباب ليرى الأسقف في الردهة بصحبة رجل غريب.

قال الأسقف: «أتمنى ألا نكون أزعجناك».

«طيّب، إنها ساعة غير معتادة للزيارة...».

قال الأسقف بابتسامة: «بالطبع. لكن اسمح لي بتقديمك للرفيق فرينوفسكي. كان يسأل عنك في البهو، لذا سمحتُ لنفسي أن أريه الطريق، بسبب... بُعد غرفتك».

ورد الكونت: «هذا كرم كبير منك».

عندما استخدم فاسيلي كلمة «ضئيل» لوصف الرفيق فرينوفسكي،

ظنّ الكونت أن مسؤول خدمة النزلاء كان يضفي بعضًا من الحيويّة على اختياره للصفات. لكن الحقيقة أن كلمة صغير لم تكن مُصغِّرة بما يكفي لوصف قوام الرفيق فرينوفسكي. فحين أراد الكونتُ مخاطبة زائره، قاوم إغراء أن يُقرفِص على مقعدته.

«أي خدمة يا سيد فرينوفسكي؟».

شرح فرينوفسكي، وهو يخلع قبعته الصغيرة عن رأسه: «أنا هنا بخصوص ابنتك».

سأل الكونت: «صوفيا؟».

«نعم، صوفيا. أنا مدير ‹أوركسترا شباب أكتوبر الأحمر›. ابنتك أثارت انتباهنا مؤخرًا كعازفة بيانو موهوبة. والحقيقة أنني سعدتُ بحضور أدائها الليلة، وهو سبب زيارتي في هذا الوقت المتأخر. لكنني جئت، بكل سرور، لأعرض عليها منصب عازف البيانو الثاني معنا».

صاح الكونت: «أوركسترا موسكو للشباب. أمر رائع. أين مكانكم؟».

أوضح فرينوفسكي: «لا. معذرة أنني لم أكن واضحًا. ‹أوركسترا أكتوبر الأحمر للشباب› ليست في موسكو. إنها في ستالينغراد».

بعد برهة من الحيرة، حاول الكونت أن يتمالك نفسه.

«كما قلتُ، إنه عرض رائع يا سيد فرينوفسكي... لكن أخشى أن صوفيا لن تكون مهتمة به».

نظر فرينوفسكي إلى الأسقف وكأنه لم يفهم ملاحظة الكونت.

وهزّ الأسقف رأسه ببساطة.

قال فرينوفسكي للكونت: «لكنها ليست مسألة اهتمام. لقد قُدّم لها طلبٌ صادرٌ ومُنحَت موعدًا- من قِبل نائب الوزير الإقليمي للشؤون الثقافية». أخرج المدير خطابًا من سترته، وناوله للكونت، ومدّ إصبعه ليشير إلى توقيع نائب الوزير. «كما ترى، على صوفيا الحضور إلى الأوركسترا في الأول من سبتمبر».

شاعرًا بالغثيان، قرأ الكونت هذا الخطاب الذي يرحّب، بلغة تِقَنيَّة للغاية، بابنته في أوركسترا في مدينة صناعيّة تبعد ألف كيلومتر.

قال الأسقف: «أوركسترا الشباب في ستالينغراد. لا بُد أنه أمر مثير جدًّا بالنسبة لك يا ألكسندر إلييتش...».

رفع الكونت رأسه عن الخطاب، ورأى لمعة الشماتة في ابتسامة الأسقف، وعلى الفور اختفى شعور الكونت بالغثيان والحيرة- وحلّ محلهما غضبٌ بارد. فَرَد الكونت قامته، وتقدم خطوة باتجاه الأسقف بنية الإمساك بتلابيبه، أو الأفضل بحلقِه- عندما فُتح باب الدولاب ودخلت آنا أوربانوفا إلى الغرفة.

رفع الجميع رؤوسهم في دهشة: الكونت، والأسقف، والمدير الموسيقي الضئيل.

سارت آنا برشاقة حتى وقفت إلى جانب الكونت ووضعت يدها برقّة على أسفل ظهره، وهي تتفحص التعبيرات على وجه الرجلين الواقفين بالباب، ثم خاطبت الأسقف بابتسامة.

«ما الأمر أيها المدير لِبليفسكي، تبدو وكأنك لم ترَ امرأة جميلة تخرج من دولاب من قبل».

تَفْتَفَ الأسقف قائلًا: «لم يسبق لي ذلك».

قالت متعاطفة: «بالطبع». ثم حوَّلَت انتباهها إلى الغريب. «ومن لدينا هنا؟».

قبل أن يستطيع الأسقف أو الكونت الردّ، رفع الرجل الصغير عقيرته: «الرفيق إيفان فرينوفسكي، مدير 'أوركسترا أكتوبر الأحمر للشباب' في ستالينغراد. إنه لشرف وامتياز أن أقابلك يا رفيقة أوربانوفا».

ردَّدَت آنا بأكثر ابتساماتها فتنة: «شرفٌ وامتياز. أنت تبالغ يا رفيق فرينوفسكي؛ لكنني لن أحسبَ ذلك عليك».

ردَّ لها الرفيق فرينوفسكي الابتسامة باحمرار في الخدَّيْن.

أضافت: «هاكَ، دعني آخذ عنك قبعتك».

إذ كان المدير الموسيقي، في الواقع، قد طَوَى قبعته على نفسها مرتين. تناولَتها آنا من يده، وفَرَدت قمَّتها، وطقطقَت حافتها معيدة إياها إلى وضعها الأول، ثم أرجعتها إليه بطريقة سوف يحكيها المدير مئات المرات في السنوات التالية.

«إذًا، أنتَ مديرٌ موسيقيٌّ لأوركسترا الشباب في ستالينغراد».

قال: «نعم».

«إذًا ربما تعرف الرفيق ناتشفكو؟».

لَدى سماع اسم وزير الثقافة ذي الوجه المدوَّر، هبّ المدير واقفًا، فاردًا قامته بصورة أضافت سنتيمترين إلى قامته.

«لم أحظَ بشرف التعرّف عليه من قبل».

أكدت آنا: «بانتيليمون رجل رائع، وهو داعم عظيم للمواهب الشابة. والحقيقة أنه أبدى اهتمامًا شخصيًّا بابنة ألكسندر، صوفيا الصغيرة».

«اهتمام شخصي...؟».

«آه، نعم. ليلة أمس كان يحكي لي كم سيكون مثيرًا أن يشاهِد تطوّر موهبتها. أشعر بأن لديه خططًا عظيمة لأجلها هنا في العاصمة».

«لم أكن أعرف...».

نظر المدير إلى الأسقف بتعبير مَن وجدَ نفسه في موقف غير مريح دون أن يرتكب أي خطأ، ثم استدار إلى الكونت ثانية، واستعاد خطابه برفق، وقال: «إذا أرادت ابنتك العزف في ستالينغراد في أي وقت، أرجو ألا تتردد في الاتصال بي».

قال الكونت: «شكرًا لك يا رفيق فرينوفسكي. هذا فضلٌ كبير منك».

قال فرينوفسكي، وهو ينقل نظره من آنا إلى الكونت، ثم إلى آنا ثانية: «أنا آسف جدًا أننا أزعجناكما في هذه الساعة غير المناسبة». ثم وضع قبعته على رأسه وهرع إلى سلم البُرج والأسقف في أعقابه.

بعد أن أغلق الكونت الباب بهدوء، رجع إلى آنا، التي ارتسمت على وجهها جديّة غير معتادة.

سألها: «متى بدأ وزير الثقافة يبدي اهتمامًا شخصيًّا بصوفيا؟».

أجابته: «غدًا بعد الظهر. على أقصى تقدير».

★ ★ ★

إذا كان لدى المجتمعين في مكتب الكونت سببٌ جيّد للاحتفال قبل زيارة الأسقف، فقد أصبح لديهم سبب أفضل للاحتفال بعد مغادرته. فتح الكونت زجاجة براندي، ووجدت آنا تسجيلِ جاز أمريكي كان ريتشارد قد دسّه بين التسجيلات الكلاسيكية، وشغّلته على الفونوغراف. في الدقائق التي تلت، صُبّ البراندي بأريحية، وأُكلت كعكة إميل بكاملها، وشُغِّل تسجيل الجاز مرة بعد مرة، ونال كل جنتلمان دوره في كَحْت الباركيه رِفقة السيدتين الحاضرتين.

عندما وُزّعت آخر كؤوس البراندي، اقترح إميل- الذي كان، بالنظر إلى الوقت، في حالة تقترب من النشوة- أن ينزلوا جميعًا إلى الطابق السفلي من أجل جولة أخرى من الشراب، ومزيد من الرقص، ونقل الاحتفال إلى فيكتور ستيبانوفيتش، الذي كان لا يزال يقود فرقته الموسيقية في البياتسا.

على الفور، حظي مقتَرح إميل بتأييد، ثم تم تمريره بالإجماع.

قالت صوفيا، وهي متورّدة قليلًا: «لكن قبل أن نذهب، أحب أن أرفع نخبًا: في صحة ملاكي الحارس، أبي وصديقي، الكونت ألكسندر روستوف. الرجل الذي يميل إلى رؤية أفضل ما فينا».

«في صحته! في صحته!».

أكملت صوفيا: «ولا داعي للقلق يا بابا. أيًّا كان من يأتي ليقرع بابنا، فأنا لا أنوي تَرك المتروبول أبدًا».

بعد أن تجرّعوا كؤوسهم هاتفين، تعثّروا خارجين من الدولاب، ومضوا إلى الردهة. فتح الكونت الباب المؤدي إلى بُرج الجرس، وانحنى انحناءة خفيفة وهو يومئ لكل فرد بالتقدّم. لكن لحظةَ كان الكونت على وشَك اللحاق بالآخرين في بيت الدَرَج، ظهَرَت- من وسط الظلال في آخر الردهة- امرأة في أواخر منتصف العمر تُعلِّق على كتفها حافظة جلديّة وتربط شعرها بمنديل. ومع أن الكونت لم يرها من قبل، فقد ظَهَر من مَسلكها أنها تنتظره للتحدث معه على انفراد.

نادى الكونت في سلم البُرج: «أندري. لقد نسيتُ شيئًا في الغرفة. اذهبوا جميعًا. سأنزل بعد لحظة...».

فقط عندما انحسر آخر الأصوات في أسفل السلّم اقتربت المرأة. في الضوء، رأى الكونت فيها أثر جمالٍ حادٍّ- مثل امرأة لا تقبل أنصاف الحلول في شؤون الغرام.

قالت دون ابتسام: «أنا كاترينا ليتفينوف».

استغرق الكونت لحظة ليدرك أن هذه ليست سوى كاترينا التي حكى عنها ميشكا، شاعرة كييف التي كان قد عاش معها في العشرينيات.

«كاترينا ليتفينوف! يا للعجب! لأي شيء أدين بهذه الـ...».

«هل لديك مكان يمكن أن نتكلم فيه؟».

«نعم... بالطبع...».

قاد الكونت كاترينا إلى غرفة النوم ثم، بعد لحظة تردد، أخذها عبر السِترات إلى مكتبه. والواضح أن تردده لم يكن له معنى، إذ نظَرَت في أرجاء الغرفة كمن سمع وصفًا لها من قبل، مومئةً بخفّة لنفسها وهي تنقّل أنظارها من المكتبة إلى طاولة القهوة إلى السفيرة. أنزلت حافظتها الجلدية من على كتفها، فبدت متعَبة فجأة.

قال الكونت، وهو يقدّم لها كرسيًّا: «تفضلي».

جلست، واضعة الحافظة الجلدية في حجرها. ثم مررت يدها على رأسها، خالعة منديلها، وكاشفة عن شعر بنيّ فاتح مقصوص قصيرًا مثل الرجال.

بعد برهة، قال الكونت: «الأمر متعلق بميشكا، أليس كذلك...».

«نعم».

«متى؟».

«قبل أسبوع من اليوم».

أومأ الكونت برأسه، وكأنه كان يتوقع الخبر منذ فترة. لم يسأل كاترينا كيف لقي صديقه القديم حتفه، ولم تتطوع هي بإخباره. كان واضحًا أن زمانه قد خانه.

سأل الكونت: «أكنتِ معه؟».

«نعم».

«في يِفاس؟».

«نعم».

«كنت أظن أنك...».

«لقد فقدتُ زوجي منذ زمن».

«أنا آسف. لم أعرف. هل لديك أطفال...؟».

«لا».

قالتها بحدّة، وكأنما ردًّا على سؤال أحمق؛ لكن بعدها تابَعَت برقّة أكبر: «تلقيتُ خبرًا من ميخائيل في يناير. ذهبتُ إليه في يِفاس. ظللنا معًا آخر ستة أشهر». بعد لحظة أضافت: «كان يتحدث عنك كثيرًا».

قال الكونت: «كان صديقًا مخلصًا».

وصحَّحَت له كاترينا: «كان رجلًا متفانيًا».

كان الكونت على وشك إبداء ملاحظة حول نزوع ميشكا للسقوط في المآزق وعشقه للسير روحةً وجيئةً، لكنها كانت قد وصفَت صديقه القديم أفضل مما وصفه هو طيل حياته. كان ميخائيل فيودروفيتش مِنديتش رجلًا متفانيًا.

أضاف الكونت، لنفسه تقريبًا: «وشاعرًا ممتازًا...».

«ليس وحده».

نظر الكونت إلى كاترينا وكأنه لم يفهم. ثم قدّم ابتسامة محزونة.

قال: «لم يَسبق لي كتابة قصيدة في حياتي».

الآن، كانت كاترينا هي التي لا تفهم.

«ماذا تقصد؟ ماذا عن ‹أين هو الآن (؟)›».

«ميشكا هو مَن كتب تلك القصيدة. في الصالة الجنوبية في ‹أيدل آور›... في صيف عام 1913...».

ظل الارتباك باديًا على كاترينا، فأسهب الكونت:

«بعد انتفاضة عام 1905 وما تلاها من عمليات قمع، عندما تخرّجنا كان الوقت لا يزال خطرًا لكتابة قصائد الاستياء السياسي. وبالنظر إلى خلفية ميشكا، كان يمكن للأوخرانا [الشرطة السريّة] أن تكنسه بمقشّة. لذا ذات ليلة- بعد أن أتينا على زجاجة مارغو جيدة بشكل استثنائي- قررنا نشر القصيدة باسمي».

«لكن لماذا باسمك؟».

«ماذا كانوا ليفعلوا بالكونت ألكسندر روستوف- عضو نادي الفروسية، والابن الروحي لأحد مستشاري القيصر؟». هز الكونت رأسه. «المفارقة، بالطبع، أنّ عمري أنا كان أطول من عمره. لكن بسبب تلك القصيدة، كدتُ أعدم رميًا بالرصاص عام 1922».

فجأة، كانت كاترينا، التي تصغي للقصة باهتمام، تكبح دموعها.

قالت: «آه، لكن هكذا كان هو ببساطة».

ظل كلاهما صامتًا بانتظار أن تستعيد هدوءها.

قال الكونت: «أريدك أن تعرفي كم أقدِّر مجيئك إلى هنا لتخبريني».

لكن كاترينا أوضَحَت أن لا داعي للشكر.

«جئتُ إلى هنا بطلب من ميخائيل. طلب مني أن أعطيك شيئًا».

من حافظتها الجلدية أخرجَت حزمة ملفوفة في ورق بنيّ سادة ومربوطة بجديلة.

عندما أمسك الكونت الحزمة بيديه، أدرك من وزنها أنها كتاب.

قال الكونت بابتسامة: «هذا مشروعه».

قالت: «نعم». ثم أضافت بتأكيد حازم: «لقد عمل عليه كالعبيد».

أومأ الكونت ليعرب عن فهمه ويطمئِن كاترينا أنه لم يأخذ تلك العطيَّة باستهانة.

جالت كاترينا ببصرها مجددًا في أرجاء الغرفة وهي تهز رأسها بخفّة وكأنها تجسّد بشكلٍ ما لُغز المآلات التي انتهت إليها الأمور؛ ثم قالت إن عليها الانصراف.

نهض الكونت حين نهضت، ووضع مشروع ميشكا على الكرسي.

سألها: «هل ستعودين إلى يِفاس؟».

«لا».

«هل ستبقين في موسكو؟».

«لا».

«أين إذًا؟».

«هل يهمّ ذلك؟».

استدارت لتذهب.

«كاترينا...».

«نعم؟».

«هل أستطيع أن أفعل لك أي شيء؟».

للوهلة الأولى، بدت كاترينا متفاجئة من عرض الكونت، وأوشكت أن تمضي إلى حال سبيلها. لكن بعد لحظة، قالت: «تذكّره».

ثم خرجَت من الباب.

عاد الكونت إلى كرسيه وجلس في صمت. بعد لحظات رفع تركة

ميشكا، وفكّ الجديلة، وبَسَط الورقة. بالداخل كان كتاب صغير مغلَّف بغلاف جلدي. زُخرف على الغلاف تصميمٌ هندسيّ بسيط، في قلبه كان عنوان العمل: **خبزٌ وملح**. من القَطع الخشن للصفحات والخيوط السائبة، كان واضحًا أن التغليف مِن صُنع هاوٍ متفانٍ.

بعد أن مرّ الكونت بيده على سطح الغلاف، فتح الكتاب على صفحة العنوان. هناك، محشورةٌ في وصلة التئام الغلاف، كانت صورةٌ قد التُقطت عام 1912 بعد إلحاح من الكونت، ووسط تبرّمٍ من ميشكا. على اليسار، وقف الكونت الشاب بقبعة عالية على رأسه، ولمعة في عينيه، وشاربين يمتدان تحت حدود خدّيه؛ بينما على اليمين وقف ميشكا، يبدو عليه وكأنه على وشك الانطلاق هربًا من الإطار.

ومع ذلك، كان قد احتفظ بالصورة كل تلك السنين.

بابتسامة آسفة، حطّ الكونت الصورة الفوتوغرافية ثم قَلَب صفحة العنوان إلى الصفحة الأولى من كتاب صديقه القديم. لم تكن تحتوي إلا على مقتطَف واحد مطبوع بحروف متفاوتة قليلًا:

وقال لآدم: «لأنّك سمعتَ لقول امرأتك وأكلتَ من الشجرة التي أوصيتُك قائلًا: لا تأكل منها، ملعونةٌ الأرض بسببك. بالتعب تأكل منها كلَّ أيام حياتك. وشوكًا وحسكًا تُنبت لك، وتأكل عشبَ الحقل. بعرق وجهك تأكل خبزًا حتى تعود إلى الأرض التي أُخذتَ منها. لأنك ترابٌ، وإلى التراب تعود».

«التكوين»
3: 17–19

قَلَب الكونت على الصفحة الثانية، وفيها كان أيضًا مقتطفٌ واحد:

فتَقدَّمَ إليه الـمُجرِّب وقال له: «إن كنت ابن الله فقُل أن تصير هذه الحجارة **خبزًا**. فأجاب وقال: مكتوبٌ: ليس **بالخبز** وحده يحيا الإنسان، بل بكُلِّ كلمة تخرج من فم الله».

«متّى»

4: 3–4

ثم إلى الثالثة:

وأخَذَ **خبزًا** وشَكَرَ وكسَّرَ وأعطاهم قائلًا: «هذا هو جسدي الذي يُبذل عنكم. اصنعوا هذا لِذِكْري».

«لوقا»

22: 19

عندما تابع الكونت تقليب الصفحات ببطء، وجد نفسه يضحك. إذ هاكَ كان مشروع ميشكا في عجالة: خلاصة وافية لـمُقتطفات من نصوصٍ عُمَد مرتّبةٍ ترتيبًا زمنيًّا، لكنْ في كل منها كُتبت كلمة **خبز** بأحرف كبيرة وطُبعت ببنط سميك. بداية من الكتاب المقدّس، استمرت الاستشهادات عبر أعمال الإغريق، والرومان وصولًا إلى أمثال شكسبير، ومِلتون، وغوته. لكن مع تحيةَ إجلال خاصة للعصر الذهبي للأدب الروسي:

من باب الحشمة، ارتدى إيفان ياكوبليفيتش معطفه الطويل فوق قميصه التحتي وجلس إلى الطاولة. سكب بعض الملح، وجهَّز بصلتين، وتناول سكينًا وبدأ يقطّع **الخبز** وقد ارتدى قناع الجديّة. بعد أن قَطَع الرغيف إلى اثنين، نظر في منتصفه، ولدهشته، رأى شيئًا أبيض اللون. نكز إيفان ياكوبليفيتش بسكّينه بحذَر وتحسَّس بإصبعه. «ناشف!»، قال

لنفسه. «ماذا عساه يكون؟».

دسّ أصابعه وسحبه- كان أنفًا!

«الأنف».

نيكولاي غوغول

(1836)

الرجل الذي لا يستحق الحياة على الأرض، لا يُدفِئه نور الشمس مثلما يُدفئ الآخرين، ولا يغذيه **الخبزُ** ويجعله قويّ البدن.

«مذكرات صيّاد»

إيفان تورغينيف

(1852)

التحمَ الماضي والحاضر معًا. كان يحلم أنه وصل إلى الأرض الموعودة حيث تجري أنهار اللبن والعسل، وحيث يأكل الناس **خبزًا** لم يَكسبوه ويتسربلون بالذهب والفضة...

«أُبلوموف»

إيفان غونتشاروف

(1859)

قال آملًا: «هذا محض هراء، ولا شيء يستحق القلق! مجرد اضطراب جسماني. زجاجة بيرة واحدة، وقطعة من **الخبز** الجاف وسترى- في لحظة يصبح العقل أقوى، والأفكار أوضح، والعزائم أصلب!».

«الجريمة والعقاب»

فيودور دوستويفسكي

(1866)

أنا، ليبيديف السافل، لا أؤمن بالعربات التي توصّل **الخبز** للبشرية! فالعربات التي توصّل **الخبز** للبشرية جمعاء، دون أي اعتبارات أخلاقية للفعل الذي ترتكبه، قد تَحرِم بدم بارد جدًّا جزءًا معتبرًا من تلك البشرية من التمتّع بما تُوصِّله.

«الأبله»

فيودور دوستويفسكي

(1869)

وهل تعرف؟ هل تعرف أن البشرية يمكن أن تعيش دون الإنكليزي، يمكن أن تعيش دون الألماني، ويمكن أن تعيش في رغدٍ وهناء دون الروسي، ويمكن أن تعيش دون عِلم، دون خبز، وهي فقط لا تستطيع العيش دون جمال...

«الشياطين»

فيودور دوستويفسكي

(1872)

كل هذا حدث في الوقت نفسه: صبيّ رَكَض وراء حمامة، ونظر إلى ليفين مبتسمًا؛ الحمامة ضربت بجناحيها ورفرفت بعيدًا، متلألئة في الشمس وسط الهواء المرتعش بغبار الثلج. بينما رائحة **الخبز** المخبوز هبَّت من النافذة حين ظهرت فيها الأرغفة الصغيرة. كل هذا معًا كان جيدًا بشكل غير عادي حتى إن ليفين ضحك وبكى من الفرحة.

«آنا كارنينا»

ليو تولستوي

(1877)

هل ترى تلك الأحجار في تلك الصحراء الحارقة الجرداء؟ حوِّلها إلى خبز وسوف تتبعك البشرية كقطيع من الخراف، ممتنةً ومطيعةً... لكنك لم ترغب في حرمان الإنسان من الحرية ورفضتَ العرض، إذ أنك فكَّرتَ: أيَّ حرية تلك إذا كانت الطاعة تُشرى بأرغفة **الخبز**.

من قصة: «كبير المحقّقين».

«الأخوة كارمازوف»

فيودور دوستويفسكي

(1880)

راح الكونت يقلِّب الصفحات، وابتسم وهو يتعرف على المشاكَسة المميَّزة التي يُفصح عنها مشروع ميشكا. لكن بعد مقتطَف «كبير المحققين»، كان هناك استشهادٌ ثانٍ من «الأخوة كارمازوف» من مشهد كان الكونت قد نساه تمامًا. مشهد متعلّق بالصبي الصغير، إليوشكا- ذلك الذي طارده زملاؤه في المدرسة حتى سقط مريضًا على نحو خطير. عندما يموت الصبي في نهاية المطاف، يقول والده مفطور القلب لإليوشا كارمازوف الورِع كالقديسين إن ابنه قد أوْصى بطلب واحد أخير:

> بابا، عندما تهيل التراب في قبري، فتِّت كَسرة **خبز** عليه حتى تأتي العصافير، وسوف أسمعهم وأكون سعيدًا أنني لا أرقد وحيدًا.

لدى قراءة ذلك المقطع، انهار ألكسندر روستوف أخيرًا وبكى. بالتأكيد، بكى على صديقه، هذا الإنسان الكريم، وإن كان مزاجيًّا، الذي لم يحظَ بمكانه في الزمن إلا لبرهة وجيزة- والذي، مثل هذا الطفل المهجور، ظل عازفًا عن إدانة العالم على كل مظالمه.

لكن، بالطبع، بكى الكونت أيضًا على نفسه. فبرغم صداقته بمارينا وأندري وإميل، وبرغم حبّه لآنا، وبرغم صوفيا- هذه النِعمة الاستثنائية التي هبطت عليه من السماء- عندما مات ميخائيل فيودوروفيتش مِنديتش، رَحَل آخر معارف شبابه. مع أن ذكراه، كما لفتَت كاترينا عن حق، ستظل حاضرة.

أخذ الكونت نفسًا عميقًا، وحاول استعادة رباط جأشه، عازمًا على القراءة حتى الصفحات الأخيرة من خطبة وداع صديقه القديم. لم يستمر توالى الاستشهادات، التي تغطي أكثر من ألفي عام، طويلًا. فبدلًا من المواصلة إلى العصر الحاضر، انتهى الاستعراض في يونيو عام 1904، بالجُمل التي كان ميشكا قد قصّها من الخطاب الذي كتبه تشيخوف قبل كل تلك الأعوام:

> هنا في برلين، أخذنا غرفة مريحة في أفضل فندق. وأنا أستمتع كثيرًا بالحياة هنا ولم آكل جيدًا هكذا وبهذه الشهية منذ وَقت طويل. **الخبز** هنا رائع، أحشو بطني به حشوًا، والقهوة ممتازة، والطعام يفوق الوصف. الناس الذين لم يسافروا إلى الخارج قطّ لا يعرفون كم يمكن **للخبز** أن يكون لذيذًا...

بالنظر إلى متاعب الثلاثينيات، افترض الكونت أنه يستطيع أن يفهم لماذا أصرّ شالاموف (أو رؤساؤه) على هذا القدر الطفيف من الرقابة- وقد افترضوا أن ملاحظة تشيخوف لا يمكن أن تؤدي إلا إلى إحساسٍ بالسخط أو سوء الطوايا. لكن المفارقة، بالطبع، كانت أن ملاحظة تشيخوف لم تعد صحيحة أصلًا. إذ عرف الشعب الروسي الآن، بكل تأكيد، وأكثر من أي شخص في أوروبا، كم يمكن لقطعة الخبز أن تكون لذيذة.

عندما أغلق الكونت كتاب ميشكا، لم يتوجه مباشرة إلى أسفل لينضم إلى الآخرين. عوضًا عن ذلك، بقي في مكتبه، هائمًا في أفكاره.

بالنظر إلى الظروف، قد يظنّ البعض، وهو أمر مفهوم، أن الكونت جلس يستدعي ذكريات صديقه القديم. لكنه، في حقيقة الأمر، لم يعد يفكر في ميشكا. كان يفكر في كاترينا. تحديدًا، كان يفكر- بقدر من التوجس- أنه في غضون عشرين عامًا، أصبحت هذه الفراشة المضيئة، هذه النحلة الدوَّارة، هذه الأعجوبة من أعاجيب العالم، امرأة تستطيع، عندما تُسأل إلى أين هي ذاهبة، أن تجيب دون أدنى تردّد: **وهل يهمّ ذلك؟**

الكتاب الخامس

1954

تصفيق ومديح

«باريس...؟».

أو هكذا سأل أندري بطريقة شخص لا يصدّق أذنيه.

قال إميل: «نعم».

«باريس... فرنسا؟».

قطّب إميل جبينه: «هل أنت سكران؟ هل تلقيت ضربة على رأسك؟».

سأل المِتر: «لكن كيف؟».

استرخى إميل في كرسيه وأومأ برأسه. إذ هنا كان السؤال الجدير برجل ذكي.

من الحقائق المعروفة جيدًا أن الـهومو سابينس هو الأكثر قدرة على التكيف بين كل الأجناس على سطح الأرض. ضع قبيلة منه في صحراء وسوف يتلحّفون بالقطن، وينامون في خيام، ويسافرون على ظهور الجمال؛ ضعهم في القطب الشمالي وسوف يتلحّفون بجلد الفقمة وينامون في بيوت الـ«إغلو» المقبّبة المصنوعة من الثلج، ويسافرون بزلّاجات تجرها الكلاب. وإذا وضعتهم في مناخ سوفييتي؟ سيتعلّمون كيف يقيمون محادثات ودودة مع الغرباء وهم ينتظرون في الطابور؛ سيتعلّمون أن يكدِّسوا ملابسهم بعناية في النصف الخاص بهم من أدراج الخزانة؛ وسيتعلّمون أن يرسموا بنايات متخيَّلة في كراساتهم. بمعنى آخر، سيتكيّفون.

لكن أحد أوجه التكيّف بالنسبة للروس الذين سنحت لهم فرصة

زيارة باريس قبل الثورة، بكل تأكيد، كان تقبُّل حقيقة أنهم لن يروا باريس ثانية، أبدًا، أبدًا...

قال إميل لدى رؤية الكونت يدخل من الباب: «ها هو ذا. اسأله بنفسك».

بعد أن اتخذ الكونت مقعده، أكد أنه بعد ستة أشهر من الآن، في الحادي والعشرين من يونيو، سوف تكون صوفيا في باريس، فرنسا. وعندما سألاه كيف حدث ذلك، أجاب الكونت بهزّة من كتفيه: الـ«فوكس». أي: «جمعية العلاقات الثقافية مع البلدان الأجنبية التابعة للحزب الشيوعي».

الآن، جاء دور إميل للتعبير عن ذهوله: «هل لدينا علاقات ثقافية مع بلدان أجنبية؟».

«الواضح أننا الآن نرسل فنانينا إلى جميع أرجاء العالم. في أبريل سوف نرسل الباليه إلى نيويورك؛ في مايو سوف نرسل فرقة مسرحية إلى لندن؛ وفي يونيو سوف نرسل أوركسترا كونسرفاتوار موسكو إلى مينسك، وبراغ، وباريس- حيث ستعزف صوفيا مقطوعة لرحمانينوف في أوبرا (بِليِه غارنييه)».

قال أندري: «أمرٌ لا يصدَّق».

وقال إميل: «أمرٌ وهميّ».

«أعرف».

ضحك الرجال الثلاثة، حتى أشار إميل بسكّينه متعدد الاستعمالات إلى زملائه:

«لكنها تستحقّ عن جدارة».

«أوه، بكل تأكيد».

«دون شك».

صمت الثلاثة، وقد هام كلٌّ منهم للحظة في ذكرياته الخاصة عن مدينة النور.

تساءل أندري: «هل تظنّها تغيَّرت؟».

قال إميل: «نعم. مثلما تغيَّرت الأهرامات».

وهنا، كان أعضاء «المجلس الرئاسي» الثلاثة على وشك أن يخوضوا في الماضي الورديّ، لولا أن انفتح باب مكتب إميل متأرجحًا ودخل العضو الأحدث في اجتماع البويارسكي اليومي: الأسقف.

«مساء الخير يا سادة. آسف لأنني جعلتكم تنتظرون. كان هناك عمل عند مكتب الاستقبال يتطلّب عنايتي العاجلة. في المستقبل، رجاءً لا تشعروا بالحاجة إلى التجمّع قبل وصولي».

شَخَرَ إميل، بصوت نصف مسموع.

تجاهَل الأسقفُ الشيف، واستدار إلى الكونت.

«رئيس النُدُل روستوف، أليس هذا يوم راحتك؟ لا يجب أن تشعر بضرورة حضور الاجتماع اليومي عندما لا يكون مقرَّرٌ عليك العمل».

قال الكونت: «الاطلاع الجيّد يجعل الشخص مستعدًّا بشكل جيّد».

«بالطبع».

قبل بضع سنوات، كان الأسقف قد قدّم شرحًا جيدًا للكونت مفاده أن كل موظف بالمتروبول لديه مهامه الصغيرة المحدودة، لكنّ المدير وحده عليه أن يضمن مستوًى ممتازًا للفندق بأكمله. وإحقاقًا للحق، فإن شخصية الأسقف جعلته مناسبًا تمامًا للمهمة. إذ سواء كان في غرف النزلاء، أو البهو، أو خزانة البياضات في الطابق الثاني، فما مِن تفصيلة أصغر من اللازم، وما مِن خطأ غير ذي شأن، وما مِن لحظة غير مناسبة للإفادة من تدخُّل الأسقف الثمين، والنيّق، الـمُسفِّه لآراء الآخرين تقريبًا. وهكذا كان الحال بالتأكيد داخل جدران البويارسكي.

بدأ الاجتماع اليومي بوصف مفصّل لأطباق المساء الخاصة. بطبيعة الحال، كان الأسقف قد استغنى عن تقليد تذوّق الأطباق الخاصة، باعتبار أن الشيف يعرف مذاق طعامه جيدًا، وأن تجهيز عينات للموظفين

أمرٌ عشوائي وإهدار لا لزوم له. عوضًا عن ذلك، أمر إميل بكتابة وصفة الأطباق الخاصة باليد.

بشخرةٍ أخرى، دفع الشيف قائمته على الطاولة. بعد شخبطة سلسلة من الدوائر والأسهم وعلامات x، توقّف قلم الأسقف الرصاص.

تفكَّر ثم قال: «أظن أن البنجر سيكون جيدًا مع لحم الخنزير، مثل التفاح. وإذا لم أكن مخطئًا، يا شيف زوكوفسكي، لا يزال لديك مكيالٌ من البنجر في حجرة المؤن».

بينما كان الأسقف يُدرج تحسيناته على قائمة إميل، ألقى الشيف نظرة حانقة عبر الطاولة على الرجل الذي أصبح يسميه الآن «الكونت ثِرثار».

أعاد الأسقف القائمة المصحَّحة إلى الشيف، وحوَّل انتباهه إلى المِتر، الذي دفع «السجلّ» على الطاولة. ورغم أن اليوم كان واحدًا من آخر أيام عام 1953، فتح الأسقف «السجلّ» على الصفحة الأولى وراح يقلّب عبر أسابيع السنة واحدًا بعد آخر. وعندما وصل أخيرًا إلى الوقت الحاضر، أخذ يدقّق في حجوزات الأمسية برأس قلمه الرصاص. ثم أصدر تعليمات الإجلاس لأندري وأعاد إليه «السجلّ» بدفعه على الطاولة. وكملاحظة أخيرة، نبّه الأسقف المِتر إلى أن الزهور في وسط غرفة الطعام قد بدأت تذبل.

قال أندري: «لاحظتُ ذلك أنا أيضًا. لكنني أخشى أن دكّان الزهور الذي نتعامل معه لا يجري المتابعة اللازمة لضمان التجديد المستمر للباقات».

«إذا لم تكن قادرًا على تأمين زهور طازجة بما يكفي من دكّان أيزنبرِغ للزهور، لربما حان الوقت إذًا للانتقال إلى باقات الزهور الحريريّة. هذا سيجنّبنا ضرورة تجديد الباقات فضلًا عن المنفعة الإضافية المتمثّلة في مزيد من التوفير».

قال أندري: «سأتحدّث مع ‹أيزنبِرغ للزهور› اليوم».

«طبعًا».

فور أن اختتم الأسقف الاجتماع وغادر إميل وهو يزمجر باحثًا عن مكيال البنجر، رافق الكونت أندري إلى السلم الرئيسي.

«**آتوتالو**»، قالها المِتر، وهو ينزل إلى دكّان الزهور.

«**آبيانتو**»،(*) قالها الكونت وهو يصعد إلى غرفته.

لكن فور أن اختفى أندري عن الأنظار، عاد الكونت من بسطة الطابق الثاني. تلصص حول الزاوية ليتأكد أن صديقه قد غادر، ثم هرع إلى البويارسكي. وبعد أن أوصد الباب خلفه اختلس النظر إلى المطبخ ليتأكد أن إميل وموظفيه مشغولون في شؤون أخرى. عندها فقط، اقترب من منصّة المِتر، وفتح الدُرج، ورسم علامة الصليب مرتين، وسحب عدد عام 1954 من «السجلّ».

في غضون دقائق، كان قد استعرض كل حجوزات يناير وفبراير. توقّف عند عشاء منتظَر في الغرفة الصفراء في مارس وآخر في الغرفة الحمراء في أبريل، لكن كليهما لم يكُن مناسبًا. عندما تقدّم أكثر في المستقبل، كانت صفحات «السجلّ» تزداد خواءً. صارت الأسابيع تمرّ دون خانة واحدة. بدأ الكونت يقلّب الصفحات بإيقاع أسرع، بل وبمسحة من إحباط- إلى أن تعثّر في الحادي عشر من يونيو. بعد أن تفحّص الملاحظات الهامشية المكتوبة بخط أندري الرقيق، دقّ على الخانة مرتين. عشاء مشترك للجنة الرئاسية ومجلس الوزراء- اثنتان من أقوى الهيئات في الاتحاد السوفييتي.

أعاد الكونت «السجلّ» إلى دُرجه، وصعد السلالم إلى غرفة نومه، ودفع كرسيه جانبًا، وجلس على الأرض، وللمرة الأولى منذ قرابة ثلاثين عامًا فتح أحد الأبواب الخفيّة في قوائم مكتب الدوق الأكبر. ورغم أن

(*) **آتوتالور** *à tout à l'heure*، **آبيانتو** *à bientôt*: أراك لاحقًا (بالفرنسية في الأصل). (المترجم).

الكونت فكَّر في التحرك منذ ستة أشهر كاملة، وتحديدًا منذ ليلة زيارة كاترينا، لم تبدأ عقارب الساعة في الدوران إلا عندما عرف بأمر «جولة المساعي الحميدة» الخاصة بالكونسرفاتوار.

★ ★ ★

عندما وصل الكونت إلى الشاليابين في السادسة تلك الليلة، كان روّاد البار يحتفلون بالمغامرات العصيبة لـ«ويبستر البدين»، وهو أمريكيّ عِشَريّ، وإن كان منحوسًا نوعًا ما، وصل مؤخّرًا إلى العاصمة. كان «البدين»، وهو شاب في الثالثة والعشرين لا يزال يعاني من ذلك الابتلاء الذي أكسبه اسمه منذ صباه، قد أُرسل إلى روسيا بأمر من والده- صاحب شركة ماكينات البيع الأمريكية في مونتكلير بولاية نيوجيرسي- مصحوبًا بتعليمات صارمة ألا يرجع إلى الديار إلى أن يبيع ألف ماكينة. بعد ثلاثة أسابيع، كان قد نجح أخيرًا في تأمين اجتماعه الأول مع أحد مسؤولي الحزب (مساعد مدير حلبة التزلج في متنزّه جوركي)، ومن ثم أقنعه عددٌ من الصحافيين أن يتكفّل بجولة شامبانيا.

اتخذ الكونت مقعدًا في الطرف الآخر من البار، وتقبَّل كأسًا من أودريوس بإيماءة وابتسامة امتنان من رجلٍ لديه دافعه الخاص للاحتفال. معروف أن خطط الإنسان تخضع للحدث العارض، والذهن المتردّد، والتعجّل الطائش؛ لكن لو كان الكونت قد وُهب القدرة على هندسة مسارات الحوادث على النحو الأمثل، لما أنجز تلك المهمة على نحو أفضل مما تفعله ربّة القَدَر بنفسها. لذا رفع كأسه، وقد ارتسمت ابتسامة على شفتيه.

لكن أن ترفع نخبَ ربَّة القَدَر هو، في حد ذاته، تحدٍّ للقَدَر؛ وهكذا، لم يكد الكونت يضع كأسه على البار، إلا وشَعَر بهبة هواء ثلجيّ تلسع قفاه، أعقبها همسة مُلحّة.

«صاحب السعادة».

استدار الكونت على كرسيه، ففوجئ بفيكتور ستيفانوفيتش يقف خلفه والصقيع على كتفيه والثلج على طاقيته. قبلها ببضعة أشهر، كان فيكتور قد التحق بأوركسترا لموسيقى الحجرة، ومن ثم صار نادر الظهور في الفندق مساءً. علاوة على ذلك، كان يلهث وكأنه جاء ركضًا في شوارع المدينة.

صاح الكونت: «فيكتور! ما الأمر؟ تبدو في حالة مزرية».

تجاهل فيكتور الملاحظة وبدأ يتحدث بتعجُّل غريب عليه.

«أعرف حرصك على حماية ابنتك، يا صاحب السعادة، ومعك حق في ذلك. إنه حق لكل والد، وواجب على أي شخص يربّي فتاة رقيقة القلب مثلها. لكن مع فائق الاحترام، أظنك ترتكب خطأً فظيعًا. سوف تتخرّج في غضون ستة أشهر، ولن يعوق فرصتها في الحصول على مكانة جديرة بها إلا قرارك هذا».

قال الكونت، وهو ينهض عن كرسيه: «فيكتور. ليست عندي فكرة عمَّ تتحدث».

تفحّص فيكتور الكونت.

«ألم تأمر صوفيا بسحب اسمها؟».

«سحب اسمها من ماذا؟».

«لقد تلقيتُ للتو مكالمة من المدير فافيلوف. أبلغني أنها رفضت الدعوة للسفر مع أوركسترا الكونسرفاتوار».

«رفضَت الدعوة! أؤكد لك، يا صديقي، ليس لديّ فكرة عن هذا. في الحقيقة، أنا أتفق معك مئة بالمئة أن إشراق مستقبلها متوقِّف على عزفها في تلك الجولة».

تبادل الرجلان النظرات، مصعوقَيْن.

قال الكونت بعد برهة: «لا بُد أنها تصرفت من تلقاء نفسها».

«لكن لماذا؟».

هزّ رأسه.

«أخشى أنه ربما يكون خطأي يا فيكتور. بالأمس، ساعة العصر، عندما سمعنا الخبر، بالغتُ في فرحتي كثيرًا: **فرصة عزف رحمانينوف أمام جمهور من الآلاف في أوبرا بِلِيه غارنييه!** لا بُد أنني حفّزتُ مشاعر الهلع بداخلها. إن قلبها رقيق، كما تقول؛ لكنها شجاعة أيضًا. لا بُد أنها ستغيّر رأيها في الأسابيع القادمة».

أمسك فيكتور بالكونت من كُمّه.

«لكن ليست هناك أسابيع قادمة. يوم الجمعة، سيصدر إعلانٌ عام يصِف خط سير الأوركسترا والبرنامج الموسيقي. والمدير يريد تسكين كل العازفين في أماكنهم قبل الإعلان. لقد ظننتُ أن انسحاب صوفيا كان قرارك، لذا فقد حصلت على تأكيد منه أنه سينتظر أربعًا وعشرين ساعة قبل استبدالها بشخص آخر- حتى تسنح لي فرصة إقناعك. إذا كانت قد اتخذت هذا القرار بنفسها، ينبغي عليك أن تتحدث إليها الليلة وتغيّر رأيها. لا بُد أن تدافع هي عن موهبتها!».

بعدها بساعة على الطاولة رقم عشرة في البويارسكي، وبعد أن استُعيدت القوائم وقُدّمت الطلبات، نظرَت صوفيا إلى الكونت مترقّبة- إذ كان دوره ليبدأ جولة الزوت. لكن رغم أنه كان قد جهّز فئة واعدة (الاستخدامات الشائعة للشمع)(*)، فقد آثر عوضًا عن ذلك استدعاءَ قِصة من الماضي لم يحكها من قبل.

شرع يقول: «هل سبق وأن حكيت لك عن يوم الأوسمة في الأكاديمية؟».

(*) -صناعة الشموع؛ ختم الخطابات؛ نحت المجسمات؛ تلميع الباركيه؛ إزالة الشعر؛ تحديد الشوارب...!

قالت صوفيا: «نعم، حكيت لي».
قطّب الكونت حاجبيه، وراجع كل المحاورات التي أجراها مع ابنته بالترتيب الزمني فلم يجد دليلًا على أنه قد حكى لها القصة من قبل.
اعترف، من باب التهذيب: «ربما أكون قد ذكرت شيئًا عن يوم الأوسمة مرة أو اثنتين. لكنني متأكد تمامًا أنني لم أحكِ لك هذه القصة **بالتحديد** من قبل. تعرفين، عندما كنت صبيًّا كنت أتمتع بمهارة معينة في دقة التصويب. وذات ربيع- عندما كنت في سنّك تقريبًا- كان هناك يوم الأوسمة في الأكاديمية حيث وقع الاختيار علينا جميعًا للمنافسة في فعاليات مختلفة...».
«ألم تكن أقرب إلى الثالثة عشرة»؟».
«ما هذا؟».
«ألم تكن في الثالثة عشرة عندما حدث ذلك؟».
راحت عينا الكونت تتحركان ذهابًا وإيابًا وهو يستكمل حسابات معينة.
تابَع بقدر من نفاد الصبر: «طيّب، نعم. أظنني كنت في نحو الثالثة عشرة. النقطة المهمة أنه بالنظر إلى دقة تصويبي، كانوا يعتبرونني عمومًا في جميع أرجاء المدرسة الأفضل في مسابقة رمي السهام، وكنت أتطلّع إلى الحدث بترقب عظيم. لكن كلما اقتربنا من يوم الأوسمة، كلما أصبح تصويبي أسوأ. فأنا الذي كنت معروفًا بالقدرة على ثَقب حبات العنب من بُعد خمسين خطوة، أصبحت فجأة عاجزًا عن إصابة جِلد فيل من بُعد خمس عشرة خطوة. مجرّد منظر السهم كان يجعل يديّ ترتعشان وعينيّ تدمعان. فجأة وجدتُ نفسي، أنا- سليل عائلة روستوف- أفكّر في ادِّعاء مرض ما ودخول المصحّة...».
«لكنك لم تفعل».
«صحيح. لم أفعل».
تناول الكونت رشفة نبيذ وتوقّف لإحداث تأثير دراميّ.

«في النهاية وصل اليوم المرهوب؛ وبوجود كل المتفرجين مجتمعين في الملاعب الرياضية، حان وقت مسابقة الرماية. فور أن رأيت الهدف، صرت أترقب الإهانة التي ستأتي بكل تأكيد عندما- برغم سمعتي- يخطئ سهمي الهدفَ بمسافة بعيدة. لكنْ بيدين مرتعشتين شددتُ قوسي، ومن زاوية عيني تصادف أن رأيت البروفيسور تارتاكوف العجوز يتعثّر في عصاه التي يتسنّد إليها ويسقط وسط كومة من الروث. طيّب، المنظر ملأني بفرحة طاغية حتى إن أصابعي أطلقت القوس من تلقاء نفسها...».

«وشقّ سهمك الهواء ثم أصاب منتصف الهدف».

«نعم. هذا صحيح. في المنتصف تمامًا. إذًا، ربما أخبرتُك بهذه القصة من قبل. لكن هل تعرفين أنه منذ ذلك اليوم، كلما خامرني قلق تجاه غايتي، أفكر في البروفيسور تارتاكوف العجوز وهو ينقلِب وسط الروث فأصيبُ هدفي بكل ثقة».

قَلَب الكونت يده في الهواء في إيماءة مسرحيّة.

ابتسمت صوفيا لكن بحيرة، وكأنها ليست متأكدة لماذا اختار الرامي الشهير أن يحكي هذه القصة بالذات في هذا الوقت بالذات. لذا، استفاض الكونت.

«في الحياة، الأمور واحدة بالنسبة لنا جميعًا. نحن مجبرون على مواجهة لحظات الهلع، سواء في مجلس الشيوخ، أو في ملعب رياضي، أو... على خشبة قاعة للعروض الموسيقية».

حدّقت صوفيا في الكونت لبرهة ثم أطلقت ضحكة صافية.

«قاعة للعروض الموسيقية».

قال الكونت، وقد شعر ببعض الإهانة: «نعم. قاعة للعروض الموسيقية».

«لقد أخبرك أحدُهم عن محادثتي مع المدير فافيلوف».

أعاد الكونت ترتيب شوكته وسكينه، اللذيْن كانا قد مالا قليلًا على نحو ما.

قال بنبرة من لا يُلزم نفسه بشيء: «ربما أكون قد سمعت من شخص ما».

«بابا. أنا لست خائفة من العزف مع الأوركسترا أمام الجمهور».

«هل أنت واثقة؟».

«كل الثقة».

«لم يسبق لك العزف في قاعة بحجم البِلِيه غارنييه...».

«أعرف».

«والفرنسيون معروفون بأنهم جمهور مُتطلِّب...».

ضحكت صوفيا ثانية.

«طيب، إذا كنت تحاول تطميني، فأنت لا تقوم بعمل ممتاز. لكن بكلّ أمانة يا بابا، الشعور بالقلق ليس له علاقة بقراري».

«إذًا ماذا؟»

«ببساطة لا أريد الذهاب».

«ولماذا لا تريدين الذهاب؟».

نكّست صوفيا رأسها باتجاه الطاولة وحركت فضياتها بدورها.

قالت أخيرًا- وهي تشير إلى القاعة و، بالامتداد، إلى الفندق: «أنا أحب المكان هنا. أحب المكان هنا بصحبتك».

عاين الكونت ابنته. بشعرها الأسود الطويل، وبشرتها الفاتحة، وعينيها الزرقاوين الداكنتين. بدت أكثر رزانة من سنها. وهنا، ربما، تكمن المشكلة. إذ لو كانت الرزانة علامة على النضج، إذًا فعلامة الشباب الطيش.

قال: «أريد أن أخبرك بقصة مختلفة، قصة أنا واثق من أنك لم تسمعيها قَط. لقد حدثَت في هذا الفندق قبل نحو ثلاثين عامًا- في ليلة ثلجيّة من ليالي ديسمبر، مثل ليلتنا هذه...».

ومضى الكونت يخبر صوفيا عن الكريسماس الذي احتفل به مع أمها في البياتسا عام 1922. أخبرها عن أورديفر نينا المكوّن من الآيس كريم،

وإحجامها عن الجلوس في صفوف مدرسيّة، وحجتها أن المرء إذا رغب في توسيع آفاقه، فأفضل شيء له أن يغامر إلى ما وراء الأفق.

فجأة تجهَّمَ الكونت.

«أخشى أن أكون قد أسأتُ إليك إساءة بالغة يا صوفيا. منذ طفولتك، استدرجتُكِ إلى حياة كانت محدودة في أساسها بجدران هذا المبنى الأربعة. كلُّنا فعلنا هذا. مارينا، وأندري، وإميل، وأنا. لقد حاولنا جعل الفندق يبدو واسعًا ورائعًا مثل العالم، لكي تُفضّلي قضاء المزيد من الوقت معنا. لكن أمك كانت محقّة تمامًا. الإنسان لا يحقّق إمكانياته بالإنصات إلى ‹شهرزاد› في قاعة مذهَّبة، أو بقراءة ‹الأوديسة› في وكرِه. الإنسان يحقّق ذلك بالانطلاق إلى المجهول الشاسع- تمامًا مثل ماركو بولو عندما سافر إلى الصين، أو كولومبوس عندما سافر إلى أمريكا».

أومأت صوفيا متفهّمة.

تابع الكونت:

«لقد كانت عندي أسبابٌ لا حصر لها لكي أفخر بك؛ أحد أعظم تلك الأسباب بالتأكيد ليلة مسابقة الكونسرفاتوار. لكن اللحظة التي شعرتُ فيها بالفخر لم تكن لحظة رجوعكما أنتِ وآنا بخبر الفوز. بل كانت في وقت سابق من ذلك المساء، عندما راقبتُك وأنت تتّجهين خارجة من أبواب الفندق في طريقك إلى القاعة. إذ إن ما يهمّ في الحياة ليس هو أن نتلقّى وصلةً من التصفيق؛ ما يهمّ هو أن نمتلك شجاعة المضي قدمًا رغم عدم تأكدنا من نيل المديح».

قالت صوفيا بعد لحظة: «إذا كنت سأعزف على البيانو في باريس، فكل ما أتمناه أن تكونَ هناك بين الجمهور لتسمعني».

ابتسم الكونت.

«أؤكد لك يا عزيزتي أنك لو عزفتِ على البيانو فوق سطح القمر، فسوف أسمع دقَّة كل وَتَر».

أخيل الأشوس

«تحياتي يا أركادي».

«تحياتي يا كونت روستوف. هل هناك ما أستطيع فعله لك هذا الصباح؟».

«إذا لم يكن يزعجك، هل يمكنك أن تعيرني بعض أدواتك المكتبية؟».

«بالطبع».

واقفًا عند مكتب الاستقبال، خطّ الكونت رسالةً من سطر واحد تحت شعار الفندق وكتب اسم المرسَل إليه على المظروف بخط مائل على النحو اللائق؛ انتظر إلى أن أصبح رئيس السعاة غير مشغول، واجتاز البهو على نحو عَرَضيّ، ودفع الرسالة على مكتب رئيس السعاة، ثم توجّه إلى أسفل لزيارته الأسبوعية إلى الحلّاق.

كانت سنوات طويلة قد مرّت على الأيام التي كان فيها ياروسلاف ياروسلافل يمارس سحره في صالون الحلاقة الخاصّ بالمتروبول، وفي هذه الأثناء كان عددٌ كبير من الخلفاء قد حاول ملء فراغه. كان آخرهم- بوريس «فُلان الفُلانيفيتش»- مؤهلًا لتقصير شعر الرجل؛ لكنه لم يكن فنانًا ولا محاورًا جيدًا مثل ياروسلاف. في الحقيقة، كان يمارس عمله بكفاءة بكْماء حتى يظن المرء أنه نصف آلي.

«تسوية؟»، كان هذا سؤاله للكونت، دون أن يضيّع وقتًا مع الفاعل أو الفعل، أو غير ذلك من حشوات اللغة.

بالنظر إلى شعر الكونت الآخذ في الصلع ونزوع الحلاق للإنجاز، قد لا يستغرق الأمر برمّته أكثر من عشر دقائق.

قال الكونت: «نعم، تسوية. لكن ربما حلاقة ذقن أيضًا».

قَطَّب الحلّاق جبينه. كان نصفه البشري، بكل تأكيد، ميالًا إلى لفت الانتباه إلى أن ذقن الكونت ناعمة وكأنه حلقها منذ بضع ساعات فحسب؛ لكن نصفه الآلي كان شديد الانضباط، حتى إنه كان قد وضع المقص وتناول فرشاة الحلاقة.

بعد أن خَفَق بوريس رغوة كافية، وجّه بضع ضربات خفيفة لتلك المناطق من وجه الكونت حيث كانت الشعيرات لتظهر لو أنه كان بحاجة إلى حلاقة. سنّ أحد أمواسه على مَشحَذته، ومال على الكرسي، وبِيدٍ ثابتة حَلَق الجزء العلوي من خد الكونت الأيمن بتمريرة واحدة، ماسحًا الشفرة على الفوطة المعلّقة إلى خصره، وبعدها انحنى على الجزء العلوي من خدّ الكونت الأيسر، وحَلَقه بالهمّة ذاتها.

تبرّم الكونت. بهذا المعدل سينتهي في دقيقة ونصف.

الآن، كان الحلّاق يرفع ذقن الكونت، مستخدمًا عُقلة مثنيّة من أحد أصابعه. شعر الكونت بملمس الموسى المعدني على حَلْقه. وعند هذه النقطة ظهر أحد السعاة على الباب.

«معذرة يا سيدي».

«نعم»، قال الحلّاق وشفرته ثابتة في مكانها قُبالة وريد الكونت العنقيّ.

«لديّ رسالة لك».

«على المقعد».

قال الشاب ببعض القلق: «لكنها عاجلة».

«عاجلة؟».

«نعم يا سيدي. من المدير».

للمرة الأولى، رفع الكونت بصره إلى الساعي.

«المدير؟».

«نعم يا سيدي».

بعد زفرة مطوّلة، أبعد الحلاق الشفرة عن ذقن الكونت، وتناول المكتوب، و- بينما كان الساعي يختفي في الردهة- فضّ المظروف بموساه.

فرد الحلّاق الرسالة، وحدّق فيها لدقيقة كاملة. في تلك الثواني الستين، لا بُد أنه قرأها عشرَ مرات لأنها لم تكن مؤلّفة إلا من أربع كلمات: **احضر عندي على الفور.**

زَفَر الحلّاق مجددًا ثم نظر إلى الجدار.

«لا أتخيّل»، قالها دون أن يوجّه كلامه لأحد. قلَّب الأمر في رأسه لدقيقة أخرى، ثم استدار إلى الكونت. «يجب أن أباشر شيئًا».

«بكل تأكيد. افعل ما عليك فعله. لستُ في عجلة من أمري».

ولكي يؤكّد الكونت كلامه، أمال رأسه وأغمض عينيه وكأنما ليأخذ غفوة؛ لكن عندما تراجع وقعُ أقدام الحلّاق بعيدًا في الردهة، قفز الكونت عن كرسيه مثل قِط.



عندما كان الكونت شابًا، اعتاد أن يتباهى بكونه لا يتأثّر بتكّات الساعة. في الأعوام الأولى من القرن العشرين، كان بعض معارفه قد أضفوا نوعًا من الاستعجال على كل أفعالهم. أصبحوا يحسبون زمن تناول الفطور، والمشوار إلى المكتب، وتعليق القبّعة على الشماعة بدقة متناهية وكأنهم يستعدون لحملة عسكرية. أصبحوا يجيبون على الهاتف في رنته الأولى، ويمرّون بأعينهم سريعًا على مانشيتات الصحف، ويُقصِرون محادثاتهم على الكلام الأكثر اتصالًا بالموضوع، ويقضون أيامهم عمومًا في ملاحقة عقرب الثواني. فليباركهم الرب.

أما الكونت، فقد آثر حياة هادفة لكنها غير متعجّلة. إذ لم يكن فقط عازفًا عن التسابق باتجاه ساعة بعينها- كان يزدري حَمل الساعات أصلًا- بل كان أيضًا يشعر ببالغ الرضا وهو يُطمئِن أحد أصدقائه أن الشأن الدنيوي يمكنه انتظار وجبة غداء متأنّية أو نزهة على ضفّة نهر. في نهاية المطاف، ألا يتحسّن النبيذ بمرور الزمن؟ أليس مَرُّ السنين هو الذي يضفي على قطعة الأثاث مظهرها العتيق الذي يَسرّ العين؟ في الختام، نجد أن المشاغل التي يراها معظم بني الإنسان الحديث عاجلةً (مثل المواعيد مع الصيارفة واللحاق بالقطارات)، ربما كان يمكنها الانتظار، بينما تلك التي تُعدّ ضئيلة الشأن (مثل فناجين الشاي والدردشات اللطيفة) أثبتت بالفعل أنها تستحقّ الاهتمام العاجل.

قد يعترض الإنسان الحديث: **فناجين الشاي والدردشات اللطيفة! إذا كان على المرء أن يخصص وقتًا لهذه المساعي الفارغة، فكيف يباشر احتياجات الإنسان الراشد؟**

لحسن الحظ، فإن الإجابة على هذه المعضلة قدَّمها الفيلسوف زينون في القرن الخامس قبل الميلاد. أَخيل، رجل الأفعال والمهمّات العاجلة، المتدرِّب على قياس مجهوداته بأعشار الثواني، يجب عليه- فورًا- إنجاز جَريَة مسافتها عشرين مترًا. لكن لكي يتقدّم البطل مترًا واحدًا، عليه أن يتقدّم أولًا نصف متر، ولكي يتقدّم نصف متر عليه أولًا أن يتقدّم رُبعًا، ولكي يتقدّم ربعًا عليه أولًا أن يتقدّم ثُمنًا، وهكذا دواليك. هكذا، في طريقه لاستكمال جَرْية العشرين مترًا، لا بُد على أخيل اجتياز عددٍ لا نهائيّ من الأطوال- وهو، بالتعريف، ما يستغرق وقتًا لا نهائيًّا من الزمن. بِمَدّ الأمور على استقامتها (كما كان الكونت يحب أن يوضّح)، فالرجل الذي لديه موعد في الثانية عشرة يجد أمامه عددًا لا نهائيًّا من الفواصل الزمنية بين «الآن» و«عندها»، يستطيع فيه أن يلاحق مسرَّات الروح.

كود إيرات ديمونستراندوم [وهو المطلوب إثباته].

لكن منذ عودة صوفيا إلى البيت تلك الليلة في آخر ديسمبر بخبر جولة الكونسرفاتوار، تغيّرت وجهة نظر الكونت حول مرور الزمن. قبل أن ينتهيا من الاحتفال بالخبر حتّى، كان قد أجرى حِسبته وعرف أن أمامه أقل من ستة أشهر قبل حلول موعد مغادرتها. مئة وثمانية وسبعون يومًا، على وجه الدقة؛ أو 356 دقة من الساعة مزدوجة الدقات. وفي تلك الفترة الزمنية القصيرة، كان عليه أن ينجز الكثير...

بالنظر إلى عضوية الكونت وهو شاب أصغر سنًا في نادي أصحاب الحياة الهادفة غير المتعجّلة، قد يظن المرء أن تكّات هذه الساعة راحت تطنّ في أذنيه مثل بعوضة في الليل؛ أو دَفَعته، مثل أوبلوموف، إلى أن يستدير على جنبه ويواجه الحائط ضائقًا ومعتلًا. لكن ما حدث هو العكس. في الأيام التالية، نَشَّطَت تلك التكّات خطاه، وشَحَذت حواسه، وسَرَّعت بديهته. ومثلما يشتعل غضب همفري بوغارت، كشفت تكتكة الساعة أن الكونت رجلًا من أولي العزم.

في الأسبوع الأخير من ديسمبر، كانت إحدى عملات الامبراطورة كاثرين التي أخرجها من مكتب الدوق الأكبر قَد أُرسلت مع فاسيلي إلى قبو متجر «تسوم» وصُرِّفت إلى رصيد مشتريات. وبحصيلة هذا الرصيد، اشترى مسؤول خدمة النزلاء حقيبة سفر صغيرة برونزيّة اللون، إضافة إلى بعض ضروريات السفر، مثل فوطة، وقطعة صابون، ومعجون أسنان، وفرشاة أسنان. لُفَّت هذه الأشياء بورق هدايا وقُدِّمت لصوفيا عشيّة الكريسماس (في منتصف الليل تمامًا).

وفقًا للمدير فافيلوف، كان من المقرر أن تعزف صوفيا كونشرتو البيانو الثاني لرحمانينوف في النمرة قبل الأخيرة من البرنامج، يعقبها عازف كمان نابغة يؤدّي كونشرتو لدفورجاك، كلاهما مع أوركسترا كاملة. لم يراود الكونت أدنى شك في مقدرة صوفيا على عزف الكونشرتو الثاني لرحمانينوف؛ لكن حتى هوروفيتس كان لديه تارنوفسكي. وهكذا، في

أوائل يناير، استأجر الكونت فيكتور ستيبانوفيتش ليساعدها على التمرين.

في آخر يناير، أوكل الكونت إلى مارينا تفصيل فستان جديد لأجل الحفل الموسيقي. بعد اجتماعٍ للتصميم شمل مارينا، وآنا، وصوفيا- واستبعَد الكونت لسبب غير مفهومٍ- أُرسل فاسيلي مجددًا إلى «تسوم» لشراء لفّة من قماش التَفتا.

على مرّ السنين، كان الكونت قد بذل جهدًا كافيًا لتعليم صوفيا مبادئ العاميّة الفرنسية. مع ذلك، فبداية من فبراير، نحّى الأب والابنة مباريات الـزوت جانبًا لكي يراجعا تطبيقات أكثر عملية من اللغة الفرنسية وهما ينتظران المشهيات.

"Pardonnez- moi, Monsieur, avez-vous l'heure, s'il vous plaît?"

"Oui, Mademoiselle, il est dix heures."

"Merci. Et pourriez-vous me dire où se trouvent les Champs-Élysées?"

"Oui, continuez tout droit dans cette direction."

"Merci beaucoup."

"Je vous en prie."(*)

في أوائل مارس، للمرة الأولى منذ سنوات، زار الكونت قبو المتروبول. مارًا بغرفتي التدفئة والكهرباء، مضى في طريقه إلى الزاوية الصغيرة حيث يواري الفندق تلك الأغراض التي خلّفها الضيوف وراءهم. ركعَ بجوار

(*) «معذرة يا سيدي، هل تعرف كم الساعة الآن من فضلك؟»/ «نعم يا آنسة، إنها العاشرة»/ «شكرًا لك. وهل يمكنك أن تخبرني أين الشانزليزيه؟»/ «نعم، تابعي السير في هذا الاتجاه»/ «شكرًا جزيلًا»/ «على الرحب والسعة». (المترجم)

رفّ الكتب، وعاين الكعوب، وهو يولي اهتمامًا خاصًا لتلك المجلّدات الحمراء الصغيرة ذات الأحرف الذهبية: «منشورات بايدكر». بطبيعة الحال، كانت معظم أدلّة السفر في القبو مخصصة لروسيا، باستثناء عدد قليل لبلدان أخرى، لا بُد أنها تُركت في نهاية جولة ممتدّة. هكذا، وسط الروايات المهجورة، وجد الكونت واحدًا من «منشورات بايدكر» يخصّ إيطاليا؛ وواحدًا لفنلندا، وواحدًا لإنكلترا، وأخيرًا، اثنين لمدينة باريس.

ثم، في الحادي والعشرين من مارس، خطّ الكونت العبارة الواحدة المائلة اللجوجة تحت شعار الفندق، ودفع المظروف على مكتب رئيس السعاة، وذهب في زيارته الأسبوعية إلى الحلّاق، وانتظر وصول الرسالة...



بعد أن دسّ الكونت رأسه في الردهة ليتابع بوريس وهو يصعد السلم، أغلق باب صالون الحلاقة وحوّل انتباهه إلى خزانة ياروسلاف الزجاجية الشهيرة. في مقدّمة الخزانة كان صفّان من الزجاجات البيضاء الكبيرة التي تحمل شعار «شركة المطرقة والمنجل للشامبو». لكن خلف هؤلاء الجنود المقاتلين من أجل النظافة الشاملة، منسيّةً تقريبًا، كانت مجموعةٌ منتقاة من الزجاجات زاهية الألوان من الأيام الخوالي. أخرجٍ الكونت عددًا من زجاجات الشامبو، وعاين المستحضرات المنشّطة لفروة الرأس، وقِطع الصابون، والزيوت- لكنه لم يعثر على ضالته.

فكّر في نفسه: لا بُد أنها هنا.

بدأ الكونت ينقّل الزجاجات من أماكنها كقطع شطرنج- ليرى ما يختبئ خلفها. وهناك، مدسوسةً في زاوية خلف قارورتين من الكولونيا الفرنسية، مغطاةً بالتراب، كانت تلك الزجاجة السوداء الصغيرة التي كان ياروسلاف ياروسلافل يسميها- بغمزة من عينه- «نبع الشباب».

وضع الكونت الزجاجة في جيبه، وأعاد بقية الزجاجات إلى الخزانة،

وأغلق بابها. لدى مروقه عائدًا إلى كرسيه، سوّى مريلة حلاقته وأرخى رأسه إلى الخلف؛ لكن بينما كان يغمض عينيه، راودته صورة بوريس وهو يفضّ المظروف بموساه. قفز الكونت من كرسيه، واختطف أحد الأمواس الاحتياطية من على النُضُد، ودسّه في جيبه، ثم عاد إلى مكانه- في اللحظة التي دخل فيها الحلّاق من الباب وهو يدمدم بعبارة ما عن مشاوير الحمقى وإهدار الوقت.

في غرفته بالأعلى، وضعَ الكونت الزجاجة السوداء الصغيرة في مؤخرة الدُرج، وجلس إلى مكتبه بصحبة «بايدكر» باريس. استشار فهرس المحتويات، وانتقل إلى الصفحة الخمسين، حيث القسم الخاص بالدائرة الثامنة. وكما هو متوقّع، قبل وصْف قوس النصر والـ«غران بلِيه»، قبل وصْف مطعمَي مادلين ومكسيم، وجد مطويّة ورقيّة رقيقة تحتوي على خريطة مفصّلة للمنطقة. أخرج الكونت موسى بوريس من جيبه، واستخدم نصله لقطع الخريطة بدقّة من دليلها؛ ثم بقلم أحمر رَسَم بحرص خطًّا متعرجًا من جادة جورج الخامس إلى شارع بيير شارون وصولًا إلى الشانزليزيه.

عندما انتهى الكونت من الخريطة، ذهب إلى مكتبه وتناول نسخة والده من «المقالات» لمونتاني من خزانة الكتب حيث كانت قد استقرّت مستريحة منذ حرَّرَتها صوفيا من تحت الكومود. أعاد الكونت الكتاب مجددًا إلى مكتب الدوق الأكبر، وبدأ يقلّب الصفحات، متوقّفًا هنا وهناك لقراءة المقتطفات التي كان والده قد وضع تحتها خطوطًا. وبينما كان يتلكأ عند فقرة بعينها في فصل «عن تعليم الأطفال»، بدأت الساعة مزدوجة الدقات الإشارة إلى ساعة الظهيرة.

لم يتبقَّ غير مئة وثلاث وسبعين دقة، هكذا فكّر الكونت.

ثم أطلق تنهيدة، وهز رأسه، ورسم الصليب مرتين، وبموسى بوريس بدأ يُزيل النصّ من مئتي صفحة من هذه التحفة الأدبية.

أرّيفيديرتشي

ذات مساء في أوائل مايو، بينما الكونت يجلس في الكرسي عالي الظهر وسط أصص النخيل، راح يتلصص من فوق حافة جريدته على الزوجين الإيطاليين الشابين الخارجين من المصعد. كانت هي جميلة، وطويلة، وداكنة البشرة، في فستان داكن طويل، وكان هو أَقصر قامة يرتدي بنطالًا وسترة. لم يكن الكونت يعرف ما الذي جاء بهذين الزوجين إلى موسكو، لكنهما كانا يغادران الفندق بصورة مضمونة كل مساء في الساعة السابعة، غالبًا من أجل اغتنام مباهج حياة الليل في المدينة. مثالٌ على ذلك: عندما خرجا من المصعد الساعة 6:55، توجّها مباشرة إلى مكتب خدمة النزلاء، حيث كان فاسيلي جاهزًا بتذكرتين لأوبرا «بوريس غودونوف» وحجزًا لعشاء متأخّر. ثم مرّ الزوجّان بمكتب الاستقبال ليتركا مفتاحهما، الذي علَّقه أركادي في الفتحة رقم ثمانية وعشرين من الصف الرابع.

وَضَع الكونت صحيفته على الطاولة، ونهض، متثائبًا، وتمطّى. سار باتجاه الباب الدوّار وكأنه يريد الوقوف على حالة الطقس. في الخارج على الدَرَج، تبادل روديون التحيّة مع الزوجين الشابين، وأشار إلى تاكسي، وفتح لهما الباب الخلفي. عندما انطلقت السيارة، استدار الكونت على عقبيه واجتاز البهو باتجاه السلم. راح يصعد السلالم درجة في كل مرة (كما صار يفعل منذ عام 1952) حتى الطابق الرابع، وسار في الرواق، وتوقّف أمام الباب الثامن والعشرين. دسَّ إصبعين في جيب الفضيّة في صدريّته، وأخرج مفتاح نينا. ثم بنظرة إلى اليسار ونظرة إلى اليمين، انسل داخلًا.

لم يكن الكونت قد دَخَل الغرفة 428 منذ أوائل الثلاثينيات- عندما كانت آنا تحاول إنعاش مسيرتها المهنية- لكنه لم يُضِعْ وقتًا في تقييم التغيّرات التي طرأت على ديكور غرفة الجلوس الصغيرة. عوضًا عن ذلك، ذهب مباشرة إلى غرفة النوم وفتَح باب الدولاب الأيسر. كان مليئًا بفساتين تشبه تمامًا الفستان الذي ترتديه الجميلة السمراء الليلة: فساتين سادة، قصيرة الأكمام، وبطول الركبة (كانت هيئة تناسبها تمامًا، في نهاية المطاف). أغلق الكونت الجانب الخاص بها من الدولاب، وفتح الباب الخاص برفيقها. في الداخل كانت بناطيل وسترات على الشمّاعات، وطاقيّة مسطحة تشبه طواقي بائعي الصحف معلَّقة على خطاف. اختار بنطالًا برونزي اللون، وأغلق الباب. في الدُرج الثاني من الكومود، وجد قميصَ أكسفورد أبيض. أخرج كيس وسادة مطويًّا من جيبه، وحشاه بالملابس. عاد إلى غرفة الجلوس، وفتح فُرجة في الباب، وتأكد من خلوّ الردهة، ثم انسلّ خارجًا.

فقط مع تكّة القفل خطر على بال الكونت أنه كان يجب أن يأخذ الطاقيّة أيضًا. لكن وهو يدسّ أصبعيه ثانية في جيب صدريّته، سمَع صرير العجلات الذي لا تخطئه الأذن. أخذ الكونت ثلاث خطوات واسعة في الرواق، واختفى في سلم البُرج- في اللحظة التي انعطف فيها أوليغ، موظّف خدمة الغرف، حول الزاوية، وهو يدفع عربته أمامه.



في الحادية عشرة ليلًا، كان الكونت في الشاليابين يراجع قائمته بصحبة كأس من البراندي. عُملات الامبراطورة كاثرين، «دليل بايدكر الإرشادي»، نبعُ الشباب، البنطال والقميص، إبرة متينة وخيط من مارينا، كلها أصبحت في حوزته. ما زال أمامه إنجاز بعض الأمور، لكنّ شيئًا

واحدًا يظلّ معلقًا: مسألة الإخطار. منذ البداية، عرف الكونت أن هذا العنصر سيكون الأكثر صعوبة في خطّته. في نهاية المطاف، يستطيع المرء أن يُرسل برقيّة ببساطة. لكنّ ذلك لم يكن ضروريًا. إذا لم يتبقَّ أمام الكونت خيارٌ آخر، كان مستعدًا للاستغناء عنه.

أفرغ الكونت كأسه بِنيّة التوجّه إلى أعلى، لكن قبل أن ينهض من مقعده جاءه أودريوس حاملًا الزجاجة.

«رشفة إضافية على حساب المكان».

منذ أن بلغ الكونت الستين، أصبح يمتنع عمومًا عن تناول الكحوليات بعد الحادية عشرة، إذ وجد أن مشروبات آخر الليل، مثل الأطفال متعكّري المزاج، كثيرًا ما توقظك في الثالثة أو الرابعة صباحًا. لكن ستكون وقاحةً من الكونت أن يرفض عرض البارمان، خاصة بعد أن كلّف نفسه مشقّة فتح الزجاجة. لذا، تقبّل الكونت الرشفة الإضافية بتعبير ينمّ عن الامتنان، ثم استرخى وحوّل انتباهه إلى مجموعة صغيرة من الأمريكان يضحكون في الطرف البعيد من البار.

مرة أخرى، كان مصدر المرح هو رجل المبيعات التعِس من مونتكلير بولاية نيوجيرسي. فبعد أن كافح لكي يجعل أيّ شخص من ذوي النفوذ يردّ على مكالماته الهاتفية، بدأ الأمريكي، في أبريل الماضي، تأمين مواعيد وجهًا لوجه مع موظفين كبار في كل فرعٍ متصوَّر من الحكومة. كان قد التقى شخصيًّا بمسؤولين في مفوضيّات الشعب للغذاء، والمالية، والعمل، والتعليم، بل والعلاقات الخارجية. وقد ظل الصحافيون يتابعون تلك التطوّرات بنوع من التعجب، إذ كانوا يعرفون أن فرصة تسويق ماكينات البيع في الكرملين لا تتجاوز فرصة تسويق بورتريه جورج واشنطن هناك. وقد ظلّوا على حيرتهم إلى أن عرفوا أن ويبستر كان قد سأل والده أن يُرسل إليه خمسين حقيبة من السجائر الأمريكية وقوالب الشوكولاتة لكي يستطيع تسويق ماكيناته على أفضل وجه. هكذا، أصبح

البائع العاجز عن تأمين موعدٍ واحد، فجأة، محل ترحاب بأذرعٍ مفتوحة في مئة مكتب- وأصبح يُرافَق إلى الخارج خاوي اليدين.

كان يقول: «لقد كدتُ أفعلها اليوم أيضًا».

بينما راح الأمريكي يقصّ تفاصيل نجاحه الوشيك، كان طبيعيًّا أن يتذكّر الكونت ريتشارد، الذي كان واسع العينين مثل ويبستر تقريبًا، وعِشَريًّا على النحو نفسه، ومستعدًّا مثله تمامًا لأن يحكي حكاية مرحة يسخر فيها من نفسه.

وضع الكونت الكأس على البار.

فكّر: هل يُعقَل أن يكون كذلك؟

لكن قبل أن يستطيع الكونت الإجابة على السؤال، لوّح الأمريكي باليدين بإشارة ودود باتجاه شخص في البهو- ومَن الذي ردّ الإشارة إلا ذلك البروفيسور البارز...؟

★ ★ ★

بُعيد منتصف الليل، سوّى الأمريكي حسابه على البار، وربّت على أكتاف أصحابه، والتفّ صعودًا على السلّم وهو يصفّر نسخة تقريبية من «نشيد الأمميّة». في رواق الطابق الرابع، راح يتحسس مفاتيحه. لكن فور انغلاق باب غرفته، أصبحت قامته أكثر استقامة، وقسماته أكثر اتزانًا.

وفي تلك اللحظة، أضاء الكونت المصباح.

رغم أن الأمريكي لا بُد ارتبك لرؤية غريب يجلس في أحد كراسيه، لم يقفز إلى الخلف أو يصرخ، بل قال بابتسامة مخمور: «معذرة. لا بُد أنني في الغرفة الخطأ».

قال الكونت: «لا. أنت في الغرفة الصحيحة».

«طيب، إذا كنتُ في الغرفة الصحيحة، إذًا لا بُد أنك أنت في الغرفة الخطأ...».

قال الكونت: «ربما. لكنني لا أظن».

أخذ الأمريكي خطوة إلى الأمام وتفحّص ضيفه غير المدعو بمزيد من العناية.

«ألستَ نادل البويارسكي»

قال الكونت: «نعم. أنا النادل».

أومأ الأمريكي برأسه ببطء.

«نعم. السيد...؟».

«روستوف. ألكسندر روستوف».

«طيّب يا سيد روستوف. كنت أودّ أن أقدِّم لك مشروبًا، لكن الوقت متأخر وعندي موعد مبكر. هل هناك شيء آخر أستطيع فعله من أجلك؟».

«نعم، يا سيد ويبستر. أظن ذلك. تعرف، لديّ خطابٌ أحتاج إلى توصيله إلى صديقٍ في باريس، لعلك تعرفه...».

رغم الساعة المتأخِّرة والموعد المبكر، انتهى الحال بأن قدّم ويبستر البدين للكونت كأسًا من الويسكي.

الآن، إذا كان الكونت، كقاعدة، يتجنّب معاقرة الشراب عمومًا بعد الحادية عشرة، فهو لا يشرب مطلقًا بعد منتصف الليل. بل إنه سبق واستشهد بأبيه أمام صوفيا حول هذا الموضوع، مؤكدًا أن ذلك لا يؤدي إلا لأفعال الطائشة، وعلاقات رعناء، وديون قمار.

لكن بعدما كان قد تسلل إلى غرفة هذا الأمريكي ورتّب لتوصيل رسالةٍ، تذكّر الكونت فجأة أن همفري بوغارت لم يسبق له قَط أن اعتذر عن عرضِ شراب بعد منتصف الليل. في الحقيقة، كانت كل الأدلّة ترجّح أن بوغارت يفضّل الشراب بعد منتصف الليل- بعد أن تكونَ الأوركسترا كفّت عن العزف، ومقاعد البار خَلت من الزبائن، والعرابدة مضوا متخبّطين إلى قلب الليل. كانت تلك هي التي يستطيع فيها الرجال من

أولي العزم، وراء باب صالون مغلق، ووسط إضاءة خافتة، ورفقة زجاجة ويسكي على الطاولة، أن يتحدّثوا بعيدًا عن إلهاءات الغرام والضحك.

قال الكونت للسيد ويبستر: «نعم، شكرًا لك. كأس ويسكي قد يكون في أوانه بالضبط».

وكما تبيّن، كانت غريزة الكونت محقّة تمامًا، إذ جاءت كأس الويسكي في أوانها. وكذا الكأس الثانية.

هكذا، عندما ودّع الكونت السيد ويبستر أخيرًا متمنيًا له ليلة سعيدة (وفي جيبه علبة سجائر أمريكية لآنا وفي الآخر قالب شوكولاته لصوفيا)، توجّه إلى مسكنه في مزاج رائق.

كان رواق الطابق الرابع خاليًا وساكنًا. خلف صفّ الأبواب المغلقة هَجع النزلاء، العمليّ منهم والحالِم، الحذِر ومرتاح البال. مندسّين هناك تحت الأغطية، كانوا يحلمون بالفطور، تاركين أروقة الليل ليرتادها أمثال صامويل سبيدسكي وفيليب مارلوف وألكسندر إلييتش روستوف...(*).

قال الكونت وهو يتمايل في الرواق: «نعم. **أنا** النادل».

ثم بحنكة النادل التي صقلتها السنين، لاحظ الكونت بطرف عينه شيئًا يناديه: باب الغرفة 428.

كانت «بوريس غودونوف» أوبرا من ثلاث ساعات ونصف. وعشاء ما بعد المسرح سيستغرق ساعة ونصف. إذًا، على غالب الظنّ، لن يرجع الإيطاليّان إلى الفندق قبل ثلاثين دقيقة أخرى. طَرَق الكونت الباب وانتظر؛ طرق ثانية ليتأكد؛ ثم تناول المفتاح من صدريّته، وفتح الباب واجتاز العتبة سريعًا، بنظرٍ صافٍ، ودون وخزٍ من ضمير.

من النظرة الأولى، أدركَ أن خدمة الغُرَف اللّيليّة زارت الجناح، إذ كان كل

(*) تيمّنًا بصديقه أوسيب إيفانوفيتش، ربما، يشير الكاتب إلى «سام سبيد» بطل فيلم «الصقر المالطي» The Maltese Falcon، و«فيليب مارلو» بطل فيلم «النوم الكبير» The Big Sleep، وقد مَنَح كلًّا منهما اسمًا روسيًّا. وقد جسّد الدورين الممثل الأمريكي «همفري بوغارت». (المترجم)

شيء في مكانه: الكراسي، والمجلات، ودورق المياه والأكواب. في غرفة النوم، وجد زوايا الفراش مطويّة إلى أسفل بزاوية خمس وأربعين درجة.

فتح الدَرْفة اليمنى، ومدّ يده ليأخذ طاقية بائعي الصحف من على خُطّافها عندما لاحظ شيئًا فاتَه من قبل. على الرفّ فوق الملابس كانت صرّة ملفوفة في ورقة ومربوطة بجديلة- صرّة تُقارِب في حجمها تمثالًا صغيرًا...

وضع الكونت طاقية بائعي الصحف على رأسه، وسحب الصرّة من الرفّ ووضعها على الفراش. فكّ الرباط وافتضّ الورقة بحرص- ليجد أمامه مجموعة من دمى الـ**ماتريوشكا** الروسيّة. كانت الدمى، الملوّنة بأسلوب بسيط وإن كان تقليديًّا، والمتوفّرة في مئة متجر من متاجر موسكو، هي بالضبط ذلك النوع من الألعاب الطريفة التي يحبّ الوالدان الرجوع بها من أجل طفلهما بعد رحلة إلى روسيا.

والتي تتّسع أيضًا لشيء يُخفى بداخلها...

جلس الكونت على السرير، وفتح أكبر الدُمى، ثم فتح التي تليها في الحجم، ثم فتح التي تليها في الحجم، وعندما كان على وشك فتح الرابعة، سمع مفتاحًا يدور في القفل.

للحظة، أصبح «الرجل ذو العزم» «رجلًا لا يعرف ماذا عليه أن يفعل». لكن لدى سماعِ صوت باب الرواق ينفتح وصوت الإيطاليَّيْن، اغترف الكونت أنصافَ الدُمى، واندسّ في الدولاب، وأغلق الباب بهدوء.

لا بُد أن الرف الذي يعلو قضيب التعليق كان بارتفاع يقل عن مائة وثمانين سنتيمترًا، لأن الكونت، ليتمكّن من الدخول، اضطر إلى أن يحني رأسه مثل مُذنِب يُعلن عن توبته (وَصَل المعنى المقصود).

لم يستغرق الزوجان إلا لحظات قليلة ليخلعا معطفَيهما ويدخلا غرفة النوم. فكّر الكونت: إذا ذهبا إلى الحمام من أجل «التواليت» الليلي معًا، ستسنح له فرصة ممتازة للهرب. لكن الغرفة 428 فيها حمّام واحد صغير، وبدلًا من التزاحم في حوض الاستحمام، اختار الزوج والزوجة الدخول بالتناوب.

أنصت الكونت جيدًا، فسمع صوت تفريش الأسنان، وفتح الأدراج،

وارتداء المنامات. سمع ملاءات السرير وهي تُرفع. سَمع محادثةً هامسةً، رَفْع كتابين، وتقليب صفحات. بعد خمس عشرة دقيقة، أو دهرٍ، سمع عبارات حُبّ متبادلة، وصوت قُبلة رقيقة، ثم أُطفئت الأنوار. بفضلِ من الرب، اختار هذا الثنائي حَسَن المظهر الخلود للنوم بدلًا من مطارحة الغَرام...

لكن الكونت تساءل: كم سيطول الوقت قبل أن يسقطا في النوم؟ راح يصغي لأنفاسهما، حريصًا على ألّا يحرك عضلة واحدة. سمع سعلة؛ نَشْقة؛ تنهيدة. ثم شخصًا يتقلّب على جنبه. كان يمكن أن يَخشى من سقوطه هو نفسه في النوم، لولا الألم البالغ في رقبته والفكرة التي تزحف إليه: إنه، هو نفسه، سرعان ما سيحتاج إلى دخول الحمّام.

وفكَّر الكونت: ها قد رأيتَ بنفسك. سببٌ آخر للامتناع عن الشراب بعد منتصف الليل...

★ ★ ★

"Che cos 'era questo?! Tesoro, svegliati!"

"Cos'è?"

"C'è qualcuno nella stanza!"

...

(بوم)

"Chi è la?"

"Scusa."

"Claudio! Accendi la luce!"

(بام)

"Scusa."

(كراش)

"Arrivederci!" (*)

(*) الحوار بالإيطالية: «ماذا كان هذا؟! اصحَ يا حبيبي»/ «ماذا حدث؟»/ «شخصٌ بالغرفة»/ «مَن هناك؟»/ «معذرة»/ «كلاوديو! افتح النور»/ «معذرة»/ «وداعًا».

بلوغ

«مستعدان؟»، سألَت مارينا.

ردّ الكونت وآنا، وكانا يجلسان متجاورين على الأريكة في جناح الممثلة، بالإيجاب.

بحركة مسرحية جديرة باللحظة، فتحَت مارينا باب غرفة النوم لتكشف عن صوفيا.

كان الفستان الذي فصّلته الخياطة لأجل الحفل الموسيقي رداءً طويل الأكمام على شكل بوق- ضيّق فوق الخصر ورحيب تحت الركبة. وقد أضفت زُرقة القماش، التي تُذكِّر بأعماق المحيط، تناقضًا غرائبيًّا مع بياض بشرة صوفيا وسواد شعرها.

أطلقت آنا شهقة.

وأَشرَق وجه مارينا.

والكونت؟

لم يكن ألسكندر روستوف عالـمًا ولا علّامة؛ لكن في سن الرابعة والستين كان حكيمًا بما يكفي لمعَرفة أن الحياة لا تتقدّم في قفزات ووثبات. بل تتكشّف تدريجيًّا. وهي، في كل لحظة، تجسيد لألف تَحوُّل. إذ تنحسر مَلَكاتنا وتتلاشى، وتتراكم خبراتنا، وتتطور آراؤونا- إن لم يكن على مهل، فعلى الأقل بالتدريج. على نحو يجعل حوادث اليوم العادي قادرة على تغييرنا قدر ما تستطيع رشّة فلفل أن تغيّر اليخنة. مع ذلك،

(المترجم)

أحس الكونت أن صوفيا اجتازت عتبة البلوغ في تلك اللحظة تحديدًا، لحظة انفتاح باب الغرفة وظهورها في فستانها الجديد. على أحد جانبي ذلك الفاصل كانت فتاة في الخامسة أو العاشرة أو العشرين، هادئة الطباع وجامحة الخيال، تعتمد عليه في الرفقة والنصيحة؛ بينما على الجانب الآخر كانت امرأةٌ شابة ذات فطنة وبهاء لا تحتاج إلى الاعتماد على أي شخص إلا نفسها.

سألَت صوفيا بخجل: «طيّب؟ ما رأيك؟».

قال الكونت بزهوٍ سافرٍ: «أنا معقود اللسان».

وقالت آنا: «تَبدين مُبهرة».

وقالت مارينا: «أليس كذلك؟».

طَربت صوفيا للمديح ولاستحسان آنا، فدارَت دورة كاملة على قدميها.

عندها اكتشف الكونت، وهو لا يكاد يصدّق عينيه، أن الفستان بلا ظَهر. قماش التَفتا (الذي اشترى منه لفَّة كاملة، لا تؤاخذني) كان يسقط من على كتفيها في قطعٍ مُكافئ شديد الحدة يصل إلى قراره عند قاعدة العمود الفقري لصوفيا.

استدار الكونت إلى آنا.

«أظن أن ذلك صنيعتك أنتِ».

كفّت الممثلة عن التصفيق.

«ما هو صنيعتي؟».

أشاح بيده باتجاه صوفيا.

«هذا الفستان الذي بلا فستان. لا شكّ أنه مُستقًى من أحد مجلات سُبُل الراحة التي تحبّينها».

قبل أن تتمكن آنا من الإجابة، دقَّت مارينا بقدمها.

«هذا صنيعتي أنا».

بوغت الكونت بنبرة الخيّاطة، ورأى ببعض الهلع أنه بينما كانت

إحدى عينيها تدور باتجاه السقف في سخط كانت العين الأخرى مصوَّبة عليه مثل قذيفة مدفع.

قالت: «إنه فستان من تصميمي **أنا**. مفصَّل بيدي **أنا**. لأجل صوفيا حبيبتي **أنا**».

وإذ لاحظ الكونت أنه ربما أساء لفنانة دون قصد، تبنّى نبرة أكثر تصالحًا.

«إنه فستان جميل بلا جدال يا مارينا. أحد أجمل الفساتين التي رأيتها؛ وقد رأيتُ الكثير من الفساتين الراقية في زمني». هنا أطلق الكونت ضحكة صغيرة مرتبكة على أمل تصفية الأجواء، ثم استطرد بنبرة صداقة ومنطِق: «لكن بعد شهور من التجهيز، ستعزف صوفيا رحمانينوف في بِلِيه غارنييه. ألن يكون مما يُرثى له أن يحدّق الجمهور في ظهرها بدلًا من الإنصات إلى عزفها؟».

اقترحَت الخياطة: «ربما عليك أن تلفّها بالخيش. لتضمن ألا ينصرف انتباه الجمهور».

احتج الكونت: «لم أكن أبدًا لأقترح الخيش. لكن هناك شيء اسمه الاعتدال، حتى داخل حدود الأناقة».

ضربَت مارينا الأرض بقدمها ثانية.

«كفى! لسنا مهتمين بوساوسك يا إلكسندر إلييتش. فقط لأنك شاهدت مذّنب عام 1812، لا يعني أن صوفيا يجب أن ترتدي تنورة داخلية وفستانًا منفوشًا».

شرع الكونت في الاعتراض، لكن آنا تدخّلَت.

«ربما علينا أن نسمع رأي صوفيا».

نظروا جميعًا إلى صوفيا التي، كانت تنظر لنفسها في إعجاب في المرآة، غافلة عن مسار النقاش. استدارت وتناولَت يدي مارينا.

«أعتقد أنه رائع».

نظرت مارينا إلى الكونت نظرة انتصار؛ ثم استدارت مجددًا إلى صوفيا، وأمالت رأسها وتفحّصت عملها اليدوي بعين أكثر نقدًا.

تحركت آنا لتقف بجوار الخيّاطة وهي تسأل: «ما الأمر؟».

«ينقصه شيء ما...».

غمغم الكونت: «فستان؟».

تجاهلته النساء الثلاث.

بعد لحظة، قالت آنا: «أنا أعرف». ثم انسلّت إلى غرفة نومها، وعادت بقلادة ضيّقة بها حِلية من الياقوت. ناولتها لمارينا، التي ربطتها حول عنق صوفيا، ثم رجعت المرأتان الأكبر سنًا خطوة إلى الخلف.

واتفقتا: «مثالي».

«هل هذا صحيح؟»، سألت آنا بينما كانت تسير مع الكونت في الرواق بعد قياس الفستان.

«هل ماذا صحيح؟».

«هل رأيتَ حقًا مذنّب عام 1812؟».

تنحنح الكونت.

«فقط لأنني حريص على الاحتشام لا يعني أنني ‹دَقّة قديمة›».

ابتسمت آنا.

«هل لاحظتَ أنك تنحنحت لتوّك».

«ربما فعلتُ. لكنني لا أزال والدها. ماذا كنت تريدينني أن أفعل؟ أتنصّل من مسؤولياتي؟».

ردّت آنا ضاحكة: «تتنصّل؟ بالطبع لا، يا صاحب السموّ».

كان الاثنان قد وصلا إلى النقطة التي يختفي عندها باب سلّم الخدمات عن العيان. توقّف الكونت، واستدار إلى آنا بابتسامة المهذّب المتكلّف.

«حان وقت اجتماع البويارسكي اليومي. على ذلك، استأذنك في الانصراف الآن». ثم بإيماءة من رأسه، اختفى خلف الباب.

حين كان ينزل على السلالم، شعر بانفراجة. إذ كان سلّم الدَرَج، بهندسته الدقيقة وصمته المطبَق، أشبه بمصلّى صغير أو غرفة قراءة- مكان مصمَّم لكي يوفّر للمرء العزلة والفُسحة. أو كان كذلك على الأقل إلى أن انفتح الباب ووضعت آنا قدمها على البَسْطة.

عاود الكونت صعود السلم وهو لا يصدّق عينيه.

همس قائلًا: «ماذا تفعلين؟».

ردّت: «أريد النزول إلى البهو. أظن أنني سأصحبك إلى أسفل».

«لا يمكن أن تصحبيني. هذا سلّم الخدمات!».

«لكنني نزيلة في هذا الفندق».

«وهذا هو المقصود بالضبط. سلّم الخدمات مخصص لأولئك الذين يَخدمون. هناك على الجانب الآخر من الرواق سلّم أنيق مخصص للأنيقين والأنيقات».

ابتسمت آنا وأخذت خطوة باتجاه الكونت.

«ما الذي أثار عفاريتك؟».

«لا شيء أثار عفاريتي. عفاريتي بخير».

تابعت بنبرة متفلسفة: «أظنه أمر مفهوم. طبيعي أن يُستثار الأب قليلًا عندما يكتشف أن ابنته أصبحت آنسة جميلة».

قال الكونت، وهو يتراجع خطوة إلى الخلف: «لم أُستثر. اعتراضي الوحيد أن ظهر الفستان ما كان يجب أن يُقصّ إلى هذا الحد».

«يجب أن تعترف بأن ظهرها جميل».

«ربما. لكن العالم لا يحتاج إلى إمتاع عينيه بكل فقرة من فقرات ظهرها».

أخذت آنا خطوة أخرى إلى الأمام.

«لطالما أبديتَ إعجابك بفقرات ظهري...».

«هذا شيء مختلف تمامًا». حاول الكونت أن يأخذ خطوة أخرى إلى الخلف، لكنه اصطدم بالجدار.

قالت آنا: «سأعطيك مذنّب 1812».

★ ★ ★

«هل نبدأ».

هذا السؤال المباشر على نحو صادم خرج من الرجل الذي كان يأكل، ويشرب، وينام على اللفّ والدوران.

بشخرةٍ، دفع إميل القائمة على طاولة المكتب.

وتململ الكونت وأندري في كرسييهما.

بعد أن أصبح الأسقف يحضر اجتماع البويارسكي اليومي منذ صيف عام 1953، غيَّر مكان الاجتماع في أبريل عام 1954 من مكتب إميل إلى مكتبه، بدعوى أن نشاطًا كهذا يُشتّت انتباه المطبخ. ولكي يستوعب المكان أعضاء «المجلس الرئاسي»، جهّز المدير ثلاثة كراسٍ فرنسية مصفوفة أمام طاولة مكتبه؛ كراسٍ صغيرة الأبعاد تجعلك تظن أنها صُمّمت أصلًا لوصيفات في بلاط لويس الرابع عشر. بعبارة أخرى، كان من المستحيل فعليًّا على رجل بالغ أن يجلس فيها مرتاحًا، خاصة وهي متجاورة في صفٍّ صغير ضيّق. وقد قَصد بذلك أن يجعل مِتر البويارسكي، وشيفه، ورئيس نُدُله يشعرون بأنهم تلاميذُ استدعاهم ناظر المدرسة.

تناول الأسقف القائمة وسوّاها على حافة مكتبه، ثم راح يراجع كل صنف برأس قلمه مثل مصرفيّ يراجع مرتين الأرقام الإجمالية وراء موظَّفيه المتدرّبين.

بطبيعة الحال، وجد التلاميذ الثلاثة أنفسهم، في تلك الأثناء، يتفقّدون المكان. لو كانت الحوائط قد زُيّنت بخرائط للعالم أو بجدول دوريّ، لكان بإمكانهم استغلال الوقت على نحو مُثمر- فيتخيّل الواحد منهم

أنه كولومبوس يعبر الأطلنطي أو خيميائي في الإسكندرية القديمة. لكن لـمّا لم يكن في المكان إلا ثلاثة بورتريهات لستالين، ولينين، وماركس، لم يتبقَّ أمام الثلاثة خيارٌ سوى التململ.

عندما انتهى الأسقف من تصحيح قائمة إميل، وأعادها إلى الشيف، استدار بنشقةٍ من أنفه إلى أندري، الذي سلَّمه «السجلّ» على النحو الواجب. كالمعتاد، فتح الأسقف على صفحة البداية وراقبه «المجلس الرئاسي» بسُخطٍ ساكن وهو يقلّب الصفحات إلى أن وصل أخيرًا إلى الليلة الأخيرة من مايو.

قال: «ها نحن».

مجدَّدًا، تحرّك رأس المصرفي من خانة إلى خانة، من عمود إلى عمود، ومن صفّ إلى صفّ. قدم الأسقف لأندري معلومات إجلاس الليلة ووضع قلمه على المكتب.

وإذ استشعر أعضاء «المجلس الرئاسي» أن الاجتماع على وشك الانتهاء، تحرّكوا إلى حواف كراسيهم. لكن بدلًا من إغلاق «السجلّ»، قلّب الأسقف فجأة الصفحات إلى الأمام ليعاين الأسابيع التالية. بعد أن قَلَب بضع صفحات، توقّف.

«كيف تسير تجهيزات العشاء المشترك للجنة الرئاسية ومجلس الوزراء...؟».

تنحنح أندري.

«كل شيء في محلّه. بناءً على طلب رسمي، سوف يقام العشاء لا في الغرفة الحمراء ولكن في الجناح 417، الذي رتّب أركادي أن يكون شاغرًا؛ وقد انتهى إميل لتوّه من وضع قائمة الطعام؛ وألكسندر، الذي سوف يشرف على العشاء، ظلّ يعمل عن قُرب مع الرفيق بروب، ضابط الاتصال المسؤول من الكرملين، لضمان أن تسير الأمسية على نحو سلِس».

رفع الأسقف رأسه عن «السجلّ».

«بالنظر إلى أهمية الحدث، ألا يجب عليك أن تشرف عليه شخصيًا، يا مِتر دوراس؟».

«كنت أنوي البقاء في البويارسكي، كالعادة. لكن أستطيع بالتأكيد الإشراف على العشاء، إذا كنت تظنّ أن ذلك أفضل».

قال الأسقف: «ممتاز. إذًا يستطيع رئيس النُدُل روستوف البقاء في المطعم لضمان أن تسير كل الأمور هناك على نحو سليم».

مع إغلاق الأسقف لـ«السجلّ»، سَرَت البرودة في جسد الكونت.

كان عشاء اللجنة الرئاسية ومجلس الوزراء مفصّلًا تفصيلًا على نواياه. لم يكن بوسعه التفكير في مناسبة أفضل. لكن حتى لو ظهرت مناسبة أخرى، فمع بقاء ستة عشر يومًا فقط حتى جولة الكونسرفاتوار، كان الوقت- ببساطة- يداهم الكونت.

دفع الأسقف الكتاب على مكتبه، معيدًا إيّاه إلى أندري، ورَفَع الاجتماع.

كالمعتاد، سار أعضاء «المجلس الرئاسي» من مكتب الناظر إلى بيت السلم في صمت. لكن عند البَسْطة، عندما شرع إميل في الصعود إلى الطابق الثاني، أمسَك الكونت بأندري من كُمّه.

قال هامسًا: «أندري، يا صديقي. هل تسمح لي بلحظة...؟».

إعلان

في الساعة 6:45 في الحادي عشر من يونيو، وقف الكونت ألكسندر روستوف في الجناح 417 مرتديًا سترة البويارسكي البيضاء، ليتأكد من أن كل شيء في مكانه المناسب وأن كل رجاله مهندمين على النحو المناسب قبل أن يفتح الباب لعشاء عام 1954 المشترك للجنة الرئاسية ومجلس الوزراء.

قبلها بأحد عشر يومًا، كما نعرف، كان الكونت قد أُعفي من هذا الواجب بقدر من الفظاظة. لكن في وقت مبكر بعد ظهر العاشر من يونيو، وصل المتر دوراس إلى اجتماع البويارسكي اليومي حاملًا خبرًا مفجعًا. قال إنه ظل يعاني لبعض الوقت من رعشة في يديه؛ رعشة مميزة لبدايات الشلل. بعد ليلة نوم مضطربة، استيقظ ليكتشف أن الوضع قد ازداد سوءًا على نحو كبير. وللتدليل على ذلك، رفع يده اليمنى فوق الطاولة حيث ارتعشت مثل ورقة شجر.

نظر إميل وقد ارتسمت الصدمة على وجهه. بدا وأنه يفكّر: **أيُّ إلَهٍ ذلك الذي يصنع عالمًا حيث يتقدّم الرجل في السنّ فتصيبه علّة تستهدف تلك الخاصّية التي ميّزته عن أقرانه من الرجال ورفعت مكانته في عيون الجميع؟**

أي إلَهٍ ذلك، يا إميل؟ الإله نفسه الذي أصاب بتهوفن بالصمم ومونيه بالعمى. فما يعطيه الرب، هو بالتحديد ما يأتي لاحقًا ليسلبه.

لكن إذا كان وجهُ إميل قد عبّر عن سُخط يكاد يكون تجديفيًّا مما حاق بصديقه، فقد ارتسمت على وجه الأسقف تكشيرة انزعاج.

وإذ لاحظ أندري ضيق المدير، سعى للتخفيف عنه.

«لا تقلق أيها المدير لِبليفسكي. لقد اتصلتُ بالفعل بالرفيق بروب في الكرملين وأكّدت له أنني لن أستطيع الإشراف على عشاء الغد بنفسي، لكن رئيس النُدُل روستوف سينهض بمسؤولياتي». ثم أضاف: «وغنيٌّ عن القول، أن الرفيق بروب شعر براحة كبيرة لذلك».

قال الأسقف: «بالطبع».

حين قال أندري إن الرفيق بروب قد شعر براحة كبيرة لوجود رئيس النُدُل روستوف مشرفًا على عشاء الدولة هذا، لم يكن يبالغ. فالرفيق بروب، المولود بعد الثورة بعشر سنوات، لم يعرف أن رئيس النُدُل روستوف كان قيد الإقامة الجبرية في المتروبول؛ بل ولم يعرف أن رئيس النُدُل روستوف «شخصٌ سابق». ما كان يعرفه- وعن خبرة شخصية- هو أن رئيس النُدُل روستوف يمكن الاعتماد عليه في متابعة كل تفصيلة على الطاولة والتصرف فورًا عند أول بادرة استياء من العميل. ومع أن الرفيق بروب كان لا يزال يفتقر إلى الخبرة نسبيًّا في شؤون الكرملين، فقد كان خبيرًا بما يكفي ليعرف أنه سيتحمل عواقب أي قصور يحدث في الأمسية تمامًا كما لو كان هو من جهّز الطاولة، وأعدّ الوليمة، وصبّ النبيذ بنفسه.

نقل الرفيق بروب شخصيًا شعوره بالراحة للكونت أثناء اجتماع قصير صبيحة يوم العشاء. على طاولة لاثنين في البويارسكي، راجع ضابط الاتصال الشاب مع الكونت، دون لزوم تقريبًا، كل تفاصيل الأمسية: التوقيت (تُفتح الأبواب سريعًا الساعة 9:00)؛ ترتيب الطاولات (حرف U طويل بعشرين مقعدًا على كل جانب وستة على رأس الطاولة)؛ قائمة الطعام (تفسير الشيف زوكوفسكي للوليمة الروسية التقليدية)؛ النبيذ (أوكراني أبيض)؛ وضرورة إطفاء الشموع الساعة 10:59 بالضبط. ثم، ربما لتأكيد أهمية الأمسية، أعطى الرفيقُ بروب الكونت فكرةً عن قائمة الضيوف.

صحيحٌ أن الكونت، عمومًا، لم يكن يشغل نفسه بالأعمال الدائرة في

أروقة الكرملين، لكنّ ذلك لا يعني أنه لم يكن ملمًّا بالأسماء المكتوبة في تلك الورقة- إذ سبق له أن خدَّم عليهم جميعًا. أجل، خدّم عليهم في مأموريات رسمية في الغرفتين الحمراء والصفراء، لكنه خدّم عليهم أيضًا على طاولات أكثر حميمية وتحت حراسة أقل تشددًا في البويارسكي وهم يتناولون الطعام مع زوجاتهم أو خليلاتهم، مع أصدقائهم أو أعدائهم، مع أساتذتهم أو تلاميذهم. وعرف كيف يميّز بين الجاف والفظّ، وبين اللاذع والمتعجرف. لقد رآهم جميعا متّزنين ورأى معظمهم سكارى.

قال الكونت بينما كان الأبارتشِك الشاب ينهض استعدادًا للانصراف: «سنعتني بكل شيء. لكن يا رفيق بروب...».

توقّف الرفيق بروب.

«نعم، يا رئيس النُدُل روستوف؟ هل نسيتُ شيئًا؟».

«لم تعطني ترتيبات الإجلاس».

«آه. لا تقلق. الليلة لن يكون هناك ترتيبٌ للإجلاس».

ردّ الكونت بابتسامة: «إذًا، تأكّد أن الأمسية سيُكتب لها النجاح».

لماذا سعد الكونت لهذه الدرجة بسماع أن عشاء الدولة ليس به ترتيب للإجلاس؟

على مدار ألف عام، ظلّت الحضارات في كافة أرجاء العالم تَعتبر رأس الطاولة بقعةً متميّزة. عندما يرى المرء طاولة مجهّزة بشكل رسمي، يعرف غريزيًّا أن المقعد على رأسها مشتهًى أكثر من المقاعد على جانبيها- لأنه يسبغ على شاغله، لا محالة، مظهر القوة، والأهمية، والمشروعية. بمدّ الأمور على استقامتها، يعرف المرء أيضًا أنه كلما ابتعد الشخص عن الرأس، كلما بدا أقل قوة، وأهمية، ومشروعية. لذا، فدعوة ستة وأربعين زعيمًا لحزب سياسيّ للعشاء حول أطراف حرف U مستطيل دون ترتيب إجلاس تنطوي على مجازفة بقدرٍ من الفوضى...

لا شكّ أن توماس هوبز كان ليشبّه الموقف بـ«الرجل في الحالة

الطبيعية»، وكان ليرجّح حدوث مشاجرة. فالحضور الستة والأربعون، المولودون بالمؤهّلات نفسها والمدفوعون بالرغبات نفسها، لديهم حقٌّ متساوٍ لشغل أي مقعد على الطاولة. وعلى هذا، سيلي ذلك، على غالب الظن، تناطحٌ من أجل الجلوس على الرأس، تُغذّيه اتهامات، وتعنيفات، وتلاكم، وربما تبادلٌ لإطلاق النار.

أما جون لوك، من ناحيته، فكان سيَدفع بأنه ما إن يُفتح باب غرفة الطعام، وبعد لحظة قصيرة من الارتباك، ستسود الطبائع الأفضل للرجال الستة والأربعين، وستقودهم نزعة التعقّل إلى الجلوس على المقاعد بطريقة عادلة ومنظّمة. وهكذا، فسوف يقترع الحضور، على غالب الظن، لتحديد مجالسهم، أو سوف يعيدون، ببساطة، ترتيب الطاولات في دائرة- تمامًا مثلما فعل الملك آرثر، لضمان إنصاف الجميع.

ولو كان لجان جاك روسو أن يُدلي بدلوه من موقعه في منتصف القرن الثامن عشر، لأبلغ السيّدان لوك وهوبز أن الضيوف الستة والأربعين- وقد تحرّروا في نهاية المطاف من طغيان التقاليد الاجتماعية- سوف يزيحون الطاولات جانبًا، ويجمعون فاكهة الأرض في أيديهم، ويتقاسمونها بكل حرية في حالة من النعيم الطبيعي!

لكن الحزب الشيوعي لم يكن «حالة طبيعية». على العكس، كان واحدًا من أكثر الهياكل التي صنعها الإنسان تعقيدًا وقصديّة. من حيث الجوهر، كان التراتبية العظمى بين كل التراتبيّات.

لذا، عندما وصل الضيوف، كان الكونت متأكدًا تقريبًا أنه لن يرى تهديدًا بالقبضات المضمومة، ولا اقتراعًا، ولا تقاسمًا للفاكهة بروح حرّة. بالأحرى، بأقل قدر من التدافع والتسابق، سيجد كلٌّ من الحضور الأربعة والستين مكانه المناسب على الطاولة؛ وهذا الترتيب «التلقائي» سيُخبر المراقب المجتهد بكل ما يلزم معرفته عن حُكم روسيا للسنوات العشرين القادمة.

★ ★ ★

عند إشارة الكونت، انفتح باب الجناح 417 الساعة 9:00 مساء بالضبط. بحلول الساعة 9:15 كان ستة وأربعون رجلًا من مختلف المراتب والأقدميّات يتّخذون المقاعد المتناسبة مع مراكزهم. دون توجيه، تُرك رأس الطاولة لبولغانين، وخروتشوف، ومالينكوف، وميكويان، ومولوتوف، وفوروشيلوف- الأعضاء الستة الأبرز في الحزب- مع حجز مقعدي الوسط للرئيس مالينكوف والسكرتير العام خروتشوف(*).

في الحقيقة، وكأنما لتأكيد الفكرة، عندما دخل خروتشوف إلى الغرفة لم يتوجه إلى رأس الطاولة مباشرة. بل راح يتبادل بضع ملاحظات مع فيتشسلاف ماليشيف، وزير تصنيع الآلات المتوسطة(**)، الرجل العادي الذي لا يميّزه شيء بين أقرانه، وكان يجلس قرب نهاية الطاولة. فقط عندما استراح الجميع ربّتَ عمدة موسكو السابق على كتف ماليشيف وتوجّه بطريقة عاديّة إلى المقعد المجاور لمالينكوف- الكرسي الأخير الشاغر في الغرفة.

على مدار الساعتين التاليتين أكل الحاضرون بشهيّة، وشربوا بحريّة، ورفعوا أنخابًا تراوحت في نبرتها من المتعالي المتغطرس إلى

(*) -سيتذكر القارئ المجتهد أنه لدى موت ستالين كان هناك ثمانية رجال مبرَّزين في أعلى قمة الحزب. فأين كان الاثنان الآخران وقت أقيم هذا العشاء؟ لازار كاغانوفيتش، الستاليني القديم صاحب القبضة الحديدية، أُرسل في مهمة إدارية إلى أوكرانيا. في غضون بضع سنوات، سوف يرأس مصنعًا للبوتاسيوم على بعد ألف وخمسمئة كيلومتر من موسكو. لكن على الأقل كان مصيره أفضل من لافرينتي بيريا. فالرئيس السابق للبوليس السري، الذي ظنّه الكثيرون من المراقبين الغربيين في وضع يؤهّله لوراثة العرش بعد وفاة ستالين، زيَّنهُ الحزب، عوضًا عن ذلك، بطلقة مسدس في الرأس. ومن ثم، صاروا ستة.

(**) وزارة تصنيع الآلات المتوسّطة: كانت الوزارة المسؤولة عن المنشآت النووية. (المترجم)

المرِح الظريف، لكنْ دائمًا بروح بالغة الوطنية. وبين الأنخاب، بينما كان الكونت يقدّم الأطباق، ويعيد ملء الكؤوس، ويستبدِل الفضيات، ويرفع الصحون، ويزيل الفتات من فوق البياضات، انخرط الحضور في أحاديث جانبية مع الجالسين عن يسارهم، أو تشاوروا مع الجالسين عن يمينهم، أو غمغموا لأنفسهم بهمسٍ وسط طنين الاحتفال.

لدى قراءة هذا، ربما يعنّ لك أن تسأل بقدر من التهكّم ما إذا كان الكونت روستوف- هذا الرجل الذي يعرف أصول اللياقة- سمح لنفسه أن يسترِقَ السمع لأيّ من الحوارات الخاصة حول الطاولة؟ لكن سؤالك واستخفافك سيكون في غير محله على الإطلاق. فـصَنْعة النادل القدير، كما الخادم الممتاز، أن يسترِقَ السمع.

انظر مثلًا إلى رئيس خدم الدوق الأكبر ديميدوف. في أيامه، كان كيمب يقف بالساعات في آخر غرفة المكتبة صامتًا ومتصلّبًا مثل تمثال. لكن إذا ذكر أحد ضيوف الدوق الأكبر، ولو عابرًا، أنه يشعر بالعطش، وجدتَ كيمب هناك يُقدم له مشروبًا. وإذا اشتكى أحدهم بصوت خفيض من البرد، رأيتَ كيمب إلى جوار المدفأة يقلّب الفحم. وعندما لفتَ الدوق الأكبر نظر أحد أصدقائه إلى أن الكونتيسة شيماتوفا «مُبهجة» لكنْ ابنها «لا يُعتمد عليه»، عرف كيمب، دون أن يخبره أحد، أنه في حال ظهور شيماتوفا الأم وشيماتوفا الابن على الباب بلا سابق إنذار، سيُبلِغ الأولى أن الدوق الأكبر موجودٌ، والثاني أن الدوق الأكبر متوعّكٌ.

على ذلك، هل استرَقَ الكونت السمع لأيٍّ من الحوارات الخاصة بين الحضور؟ هل سمع أيًّا من الملاحظات الخبيثة، أو الأحاديث الجانبية اللاذعة، أو الملاحظات الهازئة المنطوقة وشوشةً؟

لقد سمع كل كلمة.

لكل رجل شخصيته على الطاولة، ولا يحتاج المرء إلى التخديم

على أعضاء الحزب الشيوعي لثمانية وعشرين عامًا لكي يعرف أن الرفيق مالينكوف لا يرفع أنخابًا إلا نادرًا، ويرفعها حينئذٍ بكأس من النبيذ الأبيض، أما الرفيق خروتشوف فيرفع أربعة أنخاب في كل أمسية ودائمًا بالفودكا. هكذا، لم يَفُت الكونت أن عمدة موسكو السابق، خلال الوليمة، لم ينهض على قدميه قَط. لكن في الحادية عشرة إلا عشر دقائق، وبينما الوليمة على وشك الانتهاء، دقّ السكرتير العام على كأسه بنصل سكينه.

شرعَ يقول: «أيها السادة، فندق المتروبول ليس غريبًا على الحوادث التاريخية. في الحقيقة، في عام 1918 قام الرفيق سفيردلوف بإقفال الباب على أعضاء لجنة صياغة الدستور في الجناح الذي أسفلنا بطابقين- مشددًا أن أحدًا لن يخرج إلى أن يتمُّوا مهمتهم».

ضحكٌ وتصفيق.

«نخب سفيردلوف!»، صاح أحدهم وقلّده الجميع، بينما كان خروتشوف يتجرّع كأسه بابتسامة واثقة.

تابع خروتشوف: «الليلة، نحظى بشرف شهادة حدثٍ تاريخيّ آخر في المتروبول. وإذا اتجهتم معي إلى النوافذ يا رفاق، أعتقد أن الوزير ماليشيف لديه إعلان لكم...».

بتعبيرات تتراوح بين الفضول والاستغراب، دفع الحضور الأربعة والأربعون الآخرون كراسيهم واقتربوا من النوافذ الكبيرة المطلّة على ميدان المسرح، حيث كان يقف ماليشيف بالفعل.

«شكرًا سيادة السكرتير العام»، قالها ماليشيف بانحناءة تجاه خروتشوف، تبعتها وقفةٌ خطيرة: «يا رفاق، كما يعلم معظمكم، فقد بدأنا منذ ثلاث سنوات ونصف في تشييد محطتنا الجديدة للطاقة في مدينة أوبنينسك. وإنه لمن دواعي فخري أن أعلن أن محطة أوبنينسك، بعد ظهر يوم الاثنين، أصبحت تعمل بكامل طاقتها- قبل الموعد المقرر بستة شهور».

استحسانٌ لائق وإيماءاتٌ بالرؤوس.

أكمل ماليشيف: «علاوة على ذلك، في الساعة الحادية عشرة بالضبط الليلة- بعد أقل من دقيقتين- ستبدأ المحطة في إمداد الطاقة لنصف مدينة موسكو...».

عندها، استدار ماليشيف وواجه النوافذ (بينما قام الكونت ومارتِن بإطفاء الشموع على الطاولة في هدوء). بالخارج، ظلت أضواء موسكو تتلألأ كما هي، حتى إنه، مع مرور الثواني، بدأ المجتمعون في الغرفة مراوحة أماكنهم وتبادل الملاحظات. لكن فجأة، في الركن الشمالي الغربي من المدينة، انقطعت الأنوار في منطقة مساحتها عشرة شوارع مرّة واحدة. بعدها بلحظة، انقطعت الأنوار عن الحي المجاور. ثم بدأ الظلام يتحرّك عبر المدينة مثل ظلٍّ يتمدّد على سهل فسيح، مقتربًا أكثر فأكثر، حتى، نحو الساعة 11:02، أظلمت نوافذ الكرملين التي لا تُطفأ أبدًا، وبعدها ببضع ثوان أظلمت نوافذ المتروبول.

في الظلام، راحت غمغمات اللحظة الفائتة تزداد علوًّا وتتغير في نبرتها، معربةً عن مزيج من الدهشة والفزع. لكنّ المراقب المنتبه كان بإمكانه أن يرى من الصورة الظلّية لماليشيف أنه، عندما حلّ الظلام، لم يتكلم ولم يتحرك. بل تابع النظر من النافذة. فجأة، في الركن الشمالي الغربي الأقصى من العاصمة، ارتعشت الأنوار من تلكم الشوارع التي كانت قد أظلمت أولًا، وعادت تضيء المنطقة. الآن، كان الألق هو الذي يزحف على المدينة، يقترب أكثر فأكثر، حتى ومضت نوافذ الكرملين وأضاءت، أعقبتها الثريّا فوق الرؤوس- وضجّ العشاء المشترك للجنة الرئاسية ومجلس الوزراء بتصفيق مستحَقّ. إذ إن أضواء المدينة، في الحقيقة، توهّجت على نحو بدا أكثر سطوعًا مع الكهرباء القادمة من أول محطة للطاقة النووية في العالم.

★ ★ ★

بلا شك، كانت خاتمة عشاء الدولة واحدًا من أرقى المشاهد المسرحية السياسية التي شهدتها موسكو في تاريخها. لكن عندما انقطعَت الأنوار، هل تكبَّدَ أيٌّ من مواطني المدينة أيَّ مشقّة.

لحسن الحظ، لم تكن موسكو عام 1954 عاصمة العالم للأجهزة الكهربائية. لكن في البرهة القصيرة للانقطاع، توقّفت ثلاثمئة ألف ساعة على الأقل عن العمل، وأُخرس أربعون ألف مذياع، واسودّت خمسة آلاف شاشة تلفزيون. عَوَت الكلاب وماءت القطط. أُسقطت الأباجورات، وبكى الأطفال، وخَبَط الآباء سيقانهم في طاولات القهوة، واصطدم عددٌ معتبَر من السائقين- وقد رفعوا رؤوسهم من وراء زجاج سياراتهم الأمامي لدى الإظلام المفاجئ للمباني- في مصدّات السيارات التي كانت أمامهم.

في ذلك المبنى الرمادي الصغير عند ناصية شارع زيرجنسكي، ظَل الرجل الصغير ذو الشعر الرمادي المسؤول عن تدوين تنصُّتات الساقيات يضرب على آلته الكاتبة. إذ كان يعرف، شأن أي بيروقراطي صالح، كيف يضرب على الآلة الكاتبة بعينين مغمضتين. لكنّ شخصًا ما، بعد انقطاع الأنوار ببضع لحظات، تخبَّط في الرواق، فرَفَع كاتبنا المرتبك رأسَه، وانزاحت أصابعه سهوًا مقدار عمود واحد من المفاتيح إلى اليمين، ما جعل النصف الثاني من تقريره إمّا غير مفهوم، أو مُشفّر، وفقًا للزاوية التي تنظر منها.

في هذه الأثناء، في مسرح مالي، حيث كانت آنا أوربانوفا- في باروكة مصبوغة بالرماديّ- تؤدي دور «إيرينا أركادينا» في مسرحية «النورس» لتشيخوف، أطلق الجمهور صيحات قلق مكتومة. ومع أن آنا وزملاءها الممثلين كانوا مدرَّبين جيدًا على مغادرة الخشبة في الظلام، لم يبادروا إلى ذلك. فبعد أن تمرَّنوا على مناهج ستانِسلافسكي، بدأوا على الفور يتصرّفون كما كانت شخصياتهم لتتصرّف لو وجدت نفسها فجأة في إظلام تام:

أركادينا: [فَزِعةً] الأنوار انقطعت!

تريغورين: ابقِ مكانِك يا عزيزتي. سأبحث عن شمعة.

[صوت حركة حذِرة بينما يخرج تريغورين من اليمين، أعقبه لحظة صمت].

أركادينا: أوه، قنسطنطين، أنا خائفة.

قنسطنطين: إنه مجرد ظلام يا أمي- الظلام الذي منه أتينا وإليه نعود.

أركادينا: [وكأنها لم تُنصت إلى ابنها] هل تظن الأنوار انقطعت عن روسيا كلها.

قنسطنطين: لا يا أمي. لقد انقطعت عن العالم كله...

وفي المتروبول؟ نادلان في البياتسا يحملان صينيّتين إلى طاولتيهما تصادما؛ أربع زبائن في الشاليابين سكبوا مشروباتهم وتلقّى واحدٌ قَرصةً؛ والأمريكي، ويبستر البدين، المحبوس في المصعد بين الطابقين الثاني والثالث، وزّع على زملائه الركّاب قوالب الشوكولاتة. أما مدير الفندق، الجالس وحده في مكتبه، فقد تعهّد بالوصول «إلى قَعْر الحقيقة».

لكن في غرفة طعام البويارسكي، حيث ظل عَبَق المكان، على مدار نحو خمسين سنة، مرتبطًا بضوء الشموع، ظلّ الزبائن يتلقّون الخدمة دون انقطاع.

نوادر

في ليلة السادس عشر من يونيو، بجانب شنطة سفر صوفيا وحقيبة ظهرها الخاويتين، رتّب الكونت جميع الأغراض المختلفة التي كان قدِ جمعها لأجلها. في الليلة السابقة، بعدما عادت من البروفة، أجلسها وشرح لها بالضبط ما عليها فعله.

سألته، بعينين تترقرقان بالدموع: «لماذا انتظرتَ حتى الآن لتتحدث عن هذا الأمر؟».

«خفت أن أخبرك قبلها، فتعترضين».

«لكنني أعترض».

قال، وهو يتناول يدها: «أعرف. لكن في كثير من الأحيان يا صوفيا، ننظر إلى أفضل مسارٍ أمامنا فنجده يستحق الاعتراض عند الخطوة الأولى. في الحقيقة، هكذا يبدو دائمًا تقريبًا».

ما تلا ذلك كان نقاشٌ بين الأب والابنة حول الأسباب والدوافع، تباينٌ في وجهات النظر، مقارنةُ الآفاق الزمنية، وتعبيرات حارّة عن الآمال المتضاربة. لكن في النهاية، طلب الكونت من صوفيا أن تثق فيه؛ طلبٌ تبين أنها لا تعرف كيف ترفضه. وهكذا، بعد لحظة من الصمت المشترك، وبالشجاعة التي أبدتها منذ أن التقيا أول مرة، أصغَت صوفيا بانتباه بينما كان الكونت يمرُّ على كل تفصيلة خطوةً بعد خطوة.

الليلة، فيما كان الكونت يُكمل ترتيب الأغراض، راجع التفاصيل نفسها لنفسِه، لضمان ألا يكون شيءٌ قد نُسي أو أُغفل؛ وكان يشعر، أخيرًا، أن كل شيء في محله، عندما انفتح الباب بغتة.

صاحت صوفيا، متقطّعة الأنفاس: «لقد غيروا مكان العرض!».
تبادل الأب والابنة نظرات قلقة:
«إلى أين؟».
فتحت صوفيا فمها لتجيب، لكنها توقّفَت وأغمضت عينيها، ثم فتحتهما بطريقة تنمّ عن الأسى.
«لا أستطيع أن أتذكر».
طمأنها الكونت، الذي يعلم تمام العلم أن الأسى ليس صديقًا للتذكّر: «لا بأس. ماذا قال المدير بالضبط؟ هل تتذكّرين أي شيء عن المكان الجديد؟ أي معلَم في المنطقة أو أي اسم؟».
أغمضت صوفيا عينيها ثانية.
«كانت قاعة، أظن... سال».
«السال بِليل؟»
«هذه هي!».
أطلق الكونت تنهيدة ارتياح.
«لا داعي للقلق. أعرف المكان جيدًا. قاعة تاريخيّة تتمتع بتجهيزات صوتيّة ممتازة- تصادف أيضًا أنها في الدائرة الثامنة...».
هكذا، وضَّبَت صوفيا حقيبتيها، ونزل الكونت إلى القبو. بعد أن عثر على النسخة الثانية من «دليل بايدكر» لباريس، قَطع الخريطة، وصَعد السلم، وجلس إلى مكتب الدوق الأكبر، ورسَمَ خطًّا أحمر جديدًا. ثم عندما شُدّت كل الأربطة وطقطقت مشابك الأقفال، أشار الكونت لصوفيا، بلمسة احتفالية، أن تتقدّم إلى باب الدولاب، ثم إلى داخل المكتب، تمامًا كما فعل قبل ست عشرة سنة. وتمامًا كما حدث وقتها، قالت صوفيا: «أوو!».
إذ منذ أن غادرَت في وقت مبكر من عصر ذلك اليوم لحضور البروفة الأخيرة، كان مكتبهما السرّي قد تحوّل وتبدّل. فوق المكتبة كان شمعدانٌ

مضاء بنور ساطع. الكرسيان عاليا الظهر وُضعا على جانبي طاولة القهوة الشرقية الموروثة عن الكونتيسة، والتي بدورها غُطِّيت بالبياضات، وزُيِّنت بباقة صغيرة من الأزهار، وجُهّزت بطقم من أرقى فضيات الفندق.

قال الكونت بابتسامة، وهو يسحب الكرسي لصوفيا: «طاولتك في الانتظار».

سألته وهي تضع منديلها في حِجرها: «شوربة الأوكروشكا؟».

قال الكونت وهو يتّخذ مقعده: «طبعًا. قبل أن يسافر المرء إلى الخارج، الأفضل أن يتناول شوربة بسيطة تُدفئ القلب من بَلَده، حتى يستطيع أن يتذكّرها بشغف إذا شعر بقدر من الإحباط».

قالت صوفيا بابتسامة: «سأحرص على فعل ذلك، لحظة أشعر بالحنين للديار».

بينما كانا ينهيان الشوربة، لاحظت صوفيا أن سيّدة فضّية صغيرة في فستان من القرن الثامن عشر مدسوسةٌ بجوار باقة الزهور.

سألت: «ما هذه؟».

«لماذا لا تنظرين بنفسك؟».

تناولت صوفيا السيدة الصغيرة و، عند سماعها بوادر صلصلة، راحت ترجّها إلى الأمام والخلف. مع صوت الرنين الناتج، انفتح باب المكتب ودخل أندري يدفع عربةً من عصر الـ«ريجينسي» عليها قبّة فضيّة.

«بونسوار، مسيو! بونسوار مادوموازيل!».

ضحكت صوفيا.

قال: «أتمنّى أن تكوني قد استمتعتِ بالشوربة».

«كانت لذيذة».

«تري بيان».

رفع أندري الطاسات من على الطاولة وخزَّنها على الرفّ السفلي من عربته بينما نظر الكونت وصوفيا إلى القبّة الفضيّة بترقّب. لكن عندما

عاد أندري للاعتدال في وقفته، بدلًا من كَشْف ما خبأه لهم الشيف زوكوفسكي، أخرج دفترًا.

شرح قائلًا: «قبل أن أقدّم لكما الطبق الثاني، سأحتاج منكم تأكيدَ رضاكم عن الشوربة. برجاء وقّعا هنا وهنا وهنا».

بدت الصدمة على وجه الكونت فانطلقت دفقة من الضحك من كل من أندري وصوفيا. ثم بحركة أنيقة، رفع المتر القبّة وعرض أحدث أطباق إميل المخصوصة: الأوز على طريقة صوفيا. وفيه، كما شرح أندري «رُفعت الأوزة في مصعد الطلبات، وطُوردت عبر الردهة، وأُلقي بها من النافذة قبل أن تُحمّر».

قطّع أندري الطائر، وقدّم الخضروات، وصبّ الشاتو مارغو، كل ذلك بحركة واحدة من يديه. ثم تمنّى للآكلين «بون أبيتي» وهو يتراجع خارجًا من الباب.

بينما استمتع الاثنان بأحدث إبداعات إميل، حكى الكونت لصوفيا ببعض التفصيل الهرج الذي حدث في الطابق الرابع في ذلك الصباح من عام 1946- بما في ذلك السروال الداخلي العسكري الذي قدّم له ريتشارد فاندروايل التحيّة العسكرية. وقاده هذا على نحو ما إلى إعادة سرد المرّة التي ألقت فيها آنا أوربانوفا ملابسها من النافذة، فقط لتعود وتلملمها في منتصف الليل. ما يعني أنهما تشاركا تلك القصص الصغيرة المرحة التي يُصنع منها إرثُ العائلة.

ربما يجد البعض هذا مفاجئًا، بعد أن افترض أن الكونت سيخصّص هذا العشاء المتميز لتقديم نصائح كتلك التي قدّمها اللورد بولونيوس لأوفيليا في مسرحية «هاملت»، أو يُعرب عن كَسرة قلبها لرحيلها. لكن الكونت كان قد تعمّد الاهتمام بتلك الشؤون كلها الليلة السابقة، بعد أن ناقشا ما يجب أن تفعله.

كان الكونت قد أظهر قدرًا من الانضباط غريبًا نسبيًّا عن شخصيته، إذ

قيَّد نفسه بنصيحتين أبويّتين موجَزتين لا غير. الأولى أن الإنسان إذا لم يقهر ظروفه، فحتمًا ستقهره ظروفه؛ بينما الثانية إحدى مقولات مونتاني: إن أكبر دليل على الحكمة أن يحافظ المرء على بشاشته مهما حدث. لكن عندما وصل الأمر إلى المجاهرة بكَسرة القلب، كان الكونت قد كبح جماح نفسه. وعلى ذلك، اكتفى بإخبارها كم سيكون حزينًا في غيابها، لكنه سيفرح أيّما فرح كلما خطرت مغامرتها الكبيرة على باله.

لماذا كان الكونت حريصًا لهذه الدرجة على ضمان تغطية كل هذا في الليلة السابقة على رحلة صوفيا؟ لأننا جميعًا نعرف أن المرء عندما يسافر إلى الخارج للمرة الأولى، لا يحب أن يُثقِل كاهله بتعليمات مرهِقة، أو نصائح جسيمة، أو مشاعر تُبكي العيون. مثل ذكرى الشوربة البسيطة، عندما يشعر المرء بالحنين إلى الديار سيجد عزاءً أكبر في تلك القصص الصغيرة اللطيفة التي سُردَت ألف مرة من قبل.

مع ذلك، عندما فرغت صحونهما في النهاية، حاول الكونت أن يطرح موضوعًا جديدًا بدا واضحًا أنه يُثقل على ذهنه.

شرع يقول، متلعثمًا بعض الشيء: «كنت أفكر... أو بالأحرى، خَطَر لي، أنك قد تحبين... أو في لحظة معينة، ربما...».

ضحكت صوفيا، متسلّية برؤية ارتباك والدها غير المعهود.

«ما الأمر يا بابا؟ ما الذي قد أُحبّه؟».

مدّ الكونت يده إلى جيب سترته، وأخرج بخجل الصورة الفوتوغرافية التي كان ميشكا قد دسّها داخل صفحات مشروعه.

«أعرف كم تحبين صورة والديك، لذا فكرتُ... قد تحبين صورة لي أنا أيضًا». تورّد وجهه للمرة الأولى منذ أكثر من أربعين عامًا، وناولها الصورة وهو يضيف: «إنها الصورة الوحيدة لديّ».

تأثرت صوفيا تأثرًا حقيقيًّا، وتناولت الصورة وفي نيتها أن تعبّر عن أعمق امتنانها؛ لكن عندما وقعَت عيناها على الصورة، ضربَت بيدها على فمها وشرعَت تضحك.

اندفعت قائلة: «شارِبَاك!».

قال: «أعرف. رغم أنهما، صدّقي أو لا تصدّقي، في وقتٍ ما، كانا مثار حسد نادي الفروسية...».

أطلقت صوفيا ضحكة عالية أخرى.

قال الكونت وهو يرفع يده: «طيّب. إذا كنت لا تريدينها، سأتفهم ذلك».

لكنها ضمّت الصورة إلى صدرها.

«لن أفارقها ولو منحوني العالم كله». مبتسمةً، اختلست نظرة أخرى إلى شاربَيْه ثم رفعت رأسها إلى أبيها متعجبة. «ماذا حدث لهما؟».

«ماذا حدث لهما، نعم...».

ارتشف الكونت جرعةً معتبرةً من نبيذه، وأخبر صوفيا بعصر ذلك اليوم من عام 1922 عندما قُصّ أحد شاربيه على نحو فظّ بِيَد رجل قويّ البنية في صالون الحلاقة بالفندق.

«يا لها من وحشية!».

وافقها الكونت: «نعم، ولمحة مما كانت تخبّئه الأيام. لكن بطريقة ما، يستحقّ هذا الرجل أن أتوجّه له بالشكر على حياتي معك».

«ماذا تقصد؟».

شرح الكونت كيف أنه بعد بضعة أيام من حادثة صالون الحلاقة، ظهرت أمها فجأة عند طاولته في البياتسا لتسأله، عمومًا، السؤال نفسه الذي سألته صوفيا للتوِّ: أين ذهبا؟ وبهذا الاستفسار البسيط، استُهلّت صداقتهما.

الآن، جاء دور صوفيا لتتجرّع من نبيذها.

سألته بعد لحظة: «هل ندمتَ قَط على العودة إلى روسيا؟ أقصد بعد الثورة».

تفحّص الكونت ابنته. إذا كان الكونت قد شعر بأنها قد اجتازت عتبة البلوغ عندما رآها تخرج من غرفة آنا في فستانها الأزرق، فهاك دليل

مثاليّ على ذلك. فعندما وجّهت صوفيا سؤالها، بتلك النبرة وذلك العزم، لم تفعل ذلك كطفلة تسأل والدها، وإنما كبالغة تسأل بالغًا آخر عن الاختيارات التي قام بها. لذا، أعطى الكونت السؤال تفكيرَه المستحق. ثم أجابها بالحقيقة:

«حين أنظر إلى الوراء، يبدو لي أن هناك أناسًا يلعبون دورًا أساسيًّا في كل منعطف. ولا أقصد فقط النابوليونات الذين يؤثّرون على مسار التاريخ؛ أقصد رجالًا ونساءً يظهرون بشكل روتيني في المنعطفات الحاسمة لتَقدُّم الفنون، أو التجارة، أو تطوّر الأفكار– وكأن الحياة نفسها قد استدعتهم مجددًا للمساعدة في تحقيق هدفها. طيّب، منذ يوم ولادتي يا صوفيا، كانت هناك مرة واحدة فقط احتاجتني فيها الحياة لأكون في مكان معين في وقت معين، كان ذلك عندما أحضرَتك أمك إلى بهو المتروبول. ولو عيّنوني قيصرًا لعموم روسيا بدلًا من وجودي في هذا الفندق في تلك الساعة، ما قَبِلت».

نهضت صوفيا عن الطاولة لتطبع قبلة على خد والدها. ثم عادت إلى كرسيها، وأراحت ظهرها، وضيّقت عينيها، وقالت: «ثلاثيّات مشهورة».

صاح الكونت «ها-ها!».

وهكذا، بينما راحت الشموع تذوب بلهيبها وزجاجة المارغو تُشرب إلى ثمالتها، جرت الإحالة إلى الأب، والابن، والروح القدس؛ إلى المطهر، والجنة، والجحيم؛ إلى طُرق موسكو الدائرية الثلاثة؛ المجوس الثلاثة؛ ربّات القدر الثلاث؛ الفرسان الثلاثة؛ الساحرات الثلاث في «ماكبث»؛ لغز أبي الهول، رؤوس سيربيروس(*)؛ نظرية فيثاغورَس؛

(*) المجوس الثلاثة: ثلاثة حكماء من الشرق وَرَد ذكرهم في الكتاب المقدس. لغز أبي الهول: عن الكائن الذي يسير على أربع في الطفولة، وعلى اثنين في الشباب، وعلى ثلاث في الشيخوخة؛ والجواب هو الإنسان. سيربيروس: كلب ذو ثلاثة رؤوس في الأساطير اليونانية. (المترجم)

الشوك، والملاعق، والسكاكين؛ القراءة، والكتابة، والحساب؛ الإيمان، والأمل، والحبّ (وأعظمها الحب).

«الماضي، والحاضر، والمستقبل».

«البداية، والوسط، والنهاية».

«الصبح، والظهر، والليل».

«الشمس، والقمر، والنجوم».

وبهذه الفئة تحديدًا، ربما كان بالإمكان للّعبة أن تستمر طيلة الليل، لولا أن الكونت أَسْقَط مَلِكَه بنفسه بانحناءة من رأسه عندما قالت:

«أندري، وإميل، وألكسندر».

في الساعة العاشرة، عندما أطفأ الكونت وصوفيا الشموع وعادا إلى غرفتهما، تناهى إلى مسامعهما طَرقٌ خفيفٌ على الباب. تبادل الاثنان النظر بابتسامات محزونة، إذ عرفوا أن الساعة قد حانت.

قال الكونت: «ادخل».

كانت ماريانا، في قبعتها ومعطفها.

«آسفة على التأخير».

«لا، لا. جئتِ في الموعد تمامًا».

تناولت صوفيا السترة من الدولاب، وأنزل الكونت شنطة سفرها وحقيبة ظهرها من فوق السرير. ثم توجّه ثلاثتهم نزولًا سلم البُرج إلى الطابق الخامس، حيث خرجوا، واجتازوا الرواق، وأكملوا نزولهم على السلّم الرئيسي.

في وقت سابق من ذلك اليوم، كانت صوفيا قد ودّعت بالفعل أركادي وفاسيلي؛ مع ذلك، خرجا من خلف مكتبيهما لرؤيتها وهي تغادر، وانضم إليهما بعد لحظة أندري في بدلته التوكسيدو وإميل في مريلته. حتى أودريوس ظهر من خلف بار الشاليابين، تاركًا زبائنه دون رعاية من باب التغيير. التفّ هذا الجمع الصغير حول صوفيا في دائرة من الأمنيات

الطيبة، وهم يشعرون بمسحة حسد مفهومة تمامًا بين الأسرة والأصدقاء، من جيل إلى جيل.

قال أحدهم: «ستكونين فاتنة باريس».

«لا نطيق صبرًا لسماع أخبارك».

«ليجلب أحدكم حقيبتها».

«نعم، قطارها سيغادر في غضون ساعة».

عندما خرجت مارينا لتستدعي تاكسي، وكأنما باتفاق مُسبَق، تراجع أركادي، وفاسيلي، وأودريوس، وأندري، وإميل بضع خطوات إلى الخلف- حتى يستطيع الكونت وصوفيا تبادل كلمات أخيرة بمفردهما. ثم تعانق الأب والابنة، وخرجت صوفيا، متشكّكةً في صحة القرار، من باب المتروبول الذي لا يكفّ عن الدوران.

عاد الكونت إلى الطابق السادس، وقضى برهة ينظر في أرجاء غرفة النوم من زاوية إلى زاوية، وقد صارت بالفعل ساكنةً على نحو غير طبيعي. لقد أصبحَت وكرًا فارغًا، هكذا فكّر. يا لقسوة ما آلت إليه الأمور.

صبّ لنفسه كأسًا من البراندي وارتشف جرعةً معتبَرة، ثم جلس إلى مكتب الدوق الأكبر وكتب خمسة خطابات على ورق الفندق. عندما انتهى، وضع الخطابات في الدُّرج، وفرّش أسنانه، وارتدى منامته، ثم، رُغم رحيل صوفيا، نام على المرتبة تحت نوابض السرير.

آصِرَة

مع بدء الحرب العالمية الثانية، تحولت أنظار الكثيرين في أوروبا السجينة بأمل، أو بيأس، تجاه ما تتمتع به الأمريكتان من حرية. أصبحت لشبونة نقطة الإقلاع الكبيرة. لكن الوصول إلى لشبونة مباشرة لم يكن متاحًا للجميع، وهكذا، نشأ دربٌ متعرّجٌ وملتوٍ للّاجئين. باريس إلى مارسيليا، عَبْر المتوسط إلى وهران، ثم بالقطار، أو السيارة، أو على الأقدام، بحذاء الساحل الأفريقي إلى كازابلانكا في المغرب الفرنسية. هنا، قد يحصل المحظوظون، بالمال، أو النفوذ، أو حسن الطالع، على تأشيرات دخول وينطلقون إلى لشبونة، ومن لشبونة إلى العالم الجديد. لكنّ آخرين ينتظرون في لشبونة- وينتظرون- وينتظرون- وينتظرون...

همس أوسيب: «يجب أن أخبرك يا ألكسندر. إنه اختيار ممتاز. كنتُ قد نسيت كم هو مثير».

قال الكونت: «ششش. إنه يبدأ».

بعد أن دشّن الكونت وأوسيب خطّتهما الدراسية عام 1930 باجتماعات شهرية، أصبحا يلتقيان بوتيرة أبطأ على مر السنين. وهكذا، بدأ الرجلان الاجتماع رُبع سنويًا، ثم نِصف سنويًا، ثم أصبحا لا يجتمعان على الإطلاق.

قد تتساءل: لماذا؟.

لكن ألا بُد من وجود سبب؟ هل لا زلتَ تتعشّى مع كل أصدقائك

الذين كنت تتعشّى معهم قبل عشرين سنة؟ يكفي القول إن كلًّا منهما كان مولعًا حقًّا بالآخر، لكن الحياة تدخَّلَت رغمًا عنهما. هكذا، عندما تصادف لأوسيب زيارة البويارسكي رفقة أحد زملائه ذات ليلة في أوائل يونيو، اقترب من الكونت لدى مغادرته المطعم لكي يقول له إن وقتًا طويلًا جدًّا قد مرّ منذ آخر لقاء.

وافقه الكونت: «نعم، هذا صحيح. علينا أن نلتقي ونشاهد فيلمًا معًا».

وقال أوسيب بابتسامة: «كلّما كان أقرب كان أفضل».

وكان يمكن أن يَترك الرجلان الأمر عند ذلك الحدّ، لكنْ عندما استدار أوسيب ليلحق بزميله على الباب، خطرَت فكرةٌ ببال الكونت.

قال، وهو يمسك بكُمّ أوسيب: «النوايا لا تَرقي لمصاف الخطط. إذا كان الأقرب أفضل، إذًا لماذا لا نفعل ذلك الأسبوع القادم؟».

استدار أوسيب، وفكّر في كلام الكونت للحظة.

«تعرف، أنت محقٌّ تمامًا يا ألكسندر. ما رأيك في التاسع عشر؟».

«التاسع عشر سيكون ممتازًا».

«ماذا نشاهد؟».

دون تردد، قال الكونت: « ‹كازابلانكا›».

تأوّه أوسيب متشكّيًا: « ‹كازابلانكا›...».

«أليسَ همفري بوغارت ممثلك المفضل؟».

«طبعًا. لكن كازابلانكا ليس فيلمًا لهمفري بوغارت. إنه مجرد قصة حب تَصادَف ظهوره فيها».

«على العكس. أقول لك إن كازابلانكا هو فيلم همفري بوغارت».

«أنت تظن هذا فقط لأنه يرتدي سترة عشاء بيضاء على مدار نصف الفيلم».

ردّ الكونت بقدر من الجفاف: «هذا سخف».

أقر أوسيب: «ربما كان سخفًا نوعًا ما، لكنني لا أريد مشاهدة «كازابلانكا»».

الكونت، الذي لم يكن من ذلك النوع الذي يترك رجلًا آخر يتغلّب عليه بصبيانيّته، عبسَ قاطبًا شفتيه.

تنهّد أوسيب: «طيّب. لكن إذا اخترت أنت الفيلم، أختار أنا الطعام».

لاحقًا، فور أن وَمَض الفيلم على الشاشة، افتُتن أوسيب. في نهاية المطاف، كانت هناك جريمة قتل لـمـرسالَيْن ألمانيّيْن في الصحراء، ثم حصارٌ للمشتبهين في ساحة السوق، وإطلاقُ نار على هارب، ونَشْل رجلٍ بريطاني، ووصول الغستابو بالطائرة، وموسيقى ومقامرة في «ركِس كافيه أميريكان»، وكذا إخفاء خطابَيْ عبور في بيانو- وكان ذلك في الدقائق العشر الأولى فقط!

في الدقيقة العشرين، عندما أمرَ الكابتن رينو ضابطَه أن يقبض على أوغارتي بهدوء وامتثل الضابطُ بتحيّة عسكرية، قدّم أوسيب أيضًا تحية عسكرية. عندما صرّف أوغارتي مكاسبه، صرّف أوسيب مكاسبه. وعندما اندفع أوغارتي بين الحراس، وصفعَ الباب، وسحب مسدسه، وأطلق أربع رصاصات، اندفع أوسيب، وصفعَ، وسحبَ، وأطلقَ.

[أوغارتي الذي ليس لديه مكان للاختباء، يجري بجنون في الرواق. وحين يرى رِك يظهر من الاتجاه المقابل، يُمسك به].

أوغارتي: رِك! رِك! ساعدني!

رِك: لا تكن أحمق. لن تستطيع الهرب.

أوغارتي: رِك، خبّئني. افعل شيئًا! يجب أن تساعدني يا

رِك. افعل شيئا! رِك! رِك!

[ينهض رك ببرود بينما الحراس والدَرَك يُجرجِرون أوغارتي].

زبون: عندما يأتون للقبض عليّ يا رِك، أتمنّى أن تكون مفيدًا أكثر من ذلك.

رِك: أنا لا أضع حياتي على حدّ السكين من أجل أي إنسان.

[متحرِّكًا على نحو عاديّ بين الطاولات والزبائن اللامبالين، بعضهم على وشك المغادرة، يتحدّث رِك للغرفة بصوت هادئ].

رِك: أنا آسف على الإزعاج يا جماعة، لكن الأمر انتهى الآن. كل شيء على ما يرام. اجلسوا واقضوا وقتًا طيبًا. استمتعوا... طيّب، يا سام.

بينما يبدأ سام وفرقته الموسيقية العزف، معيدين شيئًا من هدوء البال إلى الصالون، مال أوسيب باتجاه الكونت.

«ربما كنت محقًّا يا ألكسندر. لعلّنا أمام بوغارت في أفضل أدواره. هل رأيت اللامبالاة التي أظهرها حين كان أوغارتي يُشدُّ من تلابيبه فعليًّا؟ وعندما يقول هذا الأمريكي المتعالي ملاحظتَه المتعجرفة، لا يتعطَّف بوغارت حتى بالنظر إليه وهو يجيبه. ثم بعد أن أمر عازف البيانو بالعزف، يذهب لمتابعة شؤونه وكأنّ شيئًا لم يكن!».

أنصت الكونت لأوسيب بتكشيرة، ثم نهض فجأة، وأطفأ آلة العرض.

«هل سنشاهد الفيلم، أم سنتكلم عنه؟».

أُخذ أوسيب على حين غرّة، فطمأن صديقه: «سنشاهد».

«حتى النهاية؟».

«حتى التِتْرات».

هكذا، أعاد الكونت تشغيل آلة العرض بينما ركّز أوسيب أقصى انتباهه على الشاشة.

إذا كان لنا أن نقول الحقيقة، فإن الكونت، بعد إثارة هذه الضجة حول ضرورة الانتباه، لم يركّز انتباهه هو الأقصى على حوادث الفيلم. نعم، كان يشاهد باهتمامٍ كافٍ عندما، في الدقيقة الثامنة والثلاثين، تقع عينا سام على رِك وهو يشرب الويسكي وحيدًا في الحانة. لكن عندما يذوب دخان سيجارة رِك بطريقة المزج إلى مونتاج لأيّامه مع إلسا في باريس، تذوب أفكار الكونت إلى مونتاجٍ باريسيٍّ خاصٍّ به.

مع ذلك، فمونتاج الكونت، على خلاف رِك، لم ينهَل من نبع ذكرياته؛ بل نَهَل، عوضًا عن ذلك، من نبع خيالاته. بدأ بصوفيا تترجّل في محطة «غار دو نور» بينما بخار القاطرة يتصاعد كسحابة فوق الرصيف. بعدها بلحظات، كانت خارج المحطة وحقيبتيها في يديها، مستعدةً لاستقلال الحافلة مع زملائها الموسيقيين. ثم كانت تنظر من النافذة على مناظر المدينة والحافلة تمضي باتجاه الفندق، حيث سيبقى الموسيقيون الشبّان إلى أن يحين موعد حفلتهم الموسيقية- تحت الأعين المراقِبة لاثنين من موظفي الكونسرفاتوار، وممثّلَيْن من الـ«فوكس»، وملحَقٍ ثقافيّ، وثلاثة «مشرفين» يعملون لحساب الـ«كيه جي بي»...

عندما عاد الفيلم من باريس إلى كازابلانكا، عاد الكونت معه. مُزيحًا جانبًا أفكاره عن ابنته، تابَعَ الأكشن وهو يلاحظ بطرف عينه استسلام أوسيب التام لـمِحَن الأبطال.

لكن الكونت استمتع على وجه الخصوص بتفاعل صديقه مع الدقائق الأخيرة من الفيلم. إذ حين كانت الطائرة المتّجهة إلى لشبونة في الهواء والميجَر ستراسير صريعًا على الأرض، عندما كشّر الكابتن رينو لزجاجة

مياه معدنية ماركة «فيشي»، ورماها في سلة مهملات، وركلها على الأرض،(*) كشَّر أوسيب غليبنيكوف، الكولونيل السابق بالجيش الأحمر والمسؤول الكبير في الحزب، الذي كان يجلس على حافة كرسيّه، ورمى، ورَكل.

(*) مياه معدنية ماركة «فيشي»: «فيشي» هو، أيضًا، اسم الحكومة الفرنسية المتعاونة مع النازي إبان فترة الاحتلال، والتي اتخذت من مدينة «فيشي» مقرًّا لها. لذا فإن الكابتن رينو، وهو يكشِّر للزجاجة، ويرميها في سلة المهملات، ويركلها، إنما يعبر عن مشاعره اللحظية تجاه «حكومة فيشي». (المترجم)

خصوم سِلاح

(وانعتاق)

«مساء الخير ومرحبًا في البويارسكي»، بادرَ الكونت بالروسيّة، مخاطبًا الزوجين في منتصف العمر، صاحبَيْ الشعر الأشقر والعيون الزرقاء، اللذين رفعا رأسيهما عن قائمتيهما.

سأله الزوج بالإنكليزية، وإن بجرسٍ اسكندنافيّ لا تُخطئه الأذن: «هل تتكلم الإنكليزية؟».

وعليه، ترجمَ الكونت: «مساء الخير ومرحبًا في البويارسكي. اسمي ألكسندر وسأكون نادلكما الليلة. لكن قبل أن أصِف لكما أطباقَنا الخاصة، هل تسمحان بأن أقدم لكما فاتح شهيّة؟».

قال الزوج: «أظن أننا جاهزيْن للطلب».

وأوضحت الزوجة بابتسامة مرهَقة: «لقد وصلنا لتوّنا إلى الفندق بعد يوم سفر طويل».

تردّد الكونت.

«ومن أين جئتما، إذا سمحتما لي بالسؤال...؟».

قال الزوج بمسحة من نفاد الصبر: «هِلسنكي».

قال الكونت: «طيّب إذًا، **تيرفِتولوا موسكوفا**».

ردّت الزوجة بابتسامة: «**كييتوس**».(*)

(*) **تيرفِتولوا موسكوفا** *tervetuloa Moskova*/ **كييتوس** *kiitos*: مرحبًا بكما في موسكو/ شكرًا لك (بالفنلندية في الأصل). (المترجم)

«بالنظر إلى رحلتكما الطويلة، سأحرص على أن تُقدَّم لكما وجبة ممتعة دون تأخير. لكن قبل أن آخذ طلبكما، هلا تفضّلتُما بإعطائي رقم الغرفة...؟».

منذ البداية، كان الكونت قد قرّر أنه سيحتاج إلى اختلاس بضعة أغراض من نرويجي، أو دانمركي، أو سويدي، أو فنلندي. ظاهريًّا، لم يبدُ أن تلك المهمة تمثل تحديًا كبيرًا، إذ كان يتردد على المتروبول الكثير من الزوار الاسكندنافيين. كانت المشكلة تكمن في أن الزائر المعنيّ لا بُد سيُبلغ مدير الفندق فور اكتشافه أن جيبه قد نُشل، وهو ما قد يؤدي إلى إبلاغ السلطات، واستدعاء موظفي الفندق لمواجهتهم بشكل رسميّ، بل وقد يصل الأمر إلى تفتيش الغُرف وإرسال الحرّاس إلى محطات القطار. هكذا، كان لا بُد أن يحدث النَشْل في الدقيقة الأخيرة، لا قبلَ ذلك. في هذه الأثناء، لم يَسَع الكونت إلا الدعاء أن يظل الرجل الاسكندنافي في الفندق حتى اللحظة الحاسمة.

بانتباهٍ عابس، كان قد تابَع بائعًا من ستوكهولم وهو يسجّل خروجه من الفندق في الثالث عشر من يونيو. ثم في السابع عشر، كان صحافي من أوسلو قد تلقّى استدعاءً من صحيفته. وبّخ الكونت نفسه كثيرًا على عدم التحرك قبل ذلك. لكن يا للعجب، عندما لم تتبقَّ إلا أربعٌ وعشرون ساعة، دخل زوجان فنلنديّان مُرهَقان البويارسكي وجلسا مباشرة إلى إحدى طاولاته.

لكن تبقّت مشكلة صغيرة: الغرض الأول الذي أراد الكونت تأمينه كان جواز سفر الجنتلمان. ولـمّا كان معظم الأجانب في روسيا يحملون جوازات سفرهم معهم، لن يستطيع الكونت القيام بزيارة لجناح الفنلنديَّيْن في الصباح التالي وهما يتجولان في المدينة؛ سيحتاج إلى زيارة الجناح الليلة- وهما بداخله.

بقدر ما نكرَه الاعتراف بتلك الحقيقة، فإن ربّة القدر لا تنحاز لهذا أو لذاك. إنها حقَّانيّة وتفضل عمومًا الحفاظ على قدرٍ من التوازن بين احتمالية النجاح والفشل في كل مساعينا. هكذا، بعد أن وَضعت ربّةُ القَدَر الكونتَ أمام تحدي ضرورة انتشال جواز سفر في اللحظة الأخيرة، قَدَّمت له عزاءً صغيرًا: ففي الساعة 9:30، عندما سأل الفنلنديَّيْن إذا كانا يحبان رؤية عربة التحلية، رفضا بذريعة أنهما مرهقان وجاهزان للفراش.

بُعيد منتصف الليل، عندما أُغلق البويارسكي وتمنّى الكونت ليلة سعيدة لأندري وإميل، صعد السلّم إلى الطابق الثالث، ومضى في الردهة حتى منتصفها، وخلع حذاءه، وباستخدام مفتاح نينا انسلّ داخل الجناح 322 في قدميه المجَوْربتين.

قبل ذلك بعدة أعوام، تحت لعنة ألقتها ممثلة ما، كان الكونت قد سَكَن لبعض الوقت بين الأطياف غير المنظورة. وهكذا، وهو يدخل غرفة نوم الفنلنديَّيْن على أطراف أصابعه، دعا فينوس أن تستره وسط الضباب- تمامًا كما فعلَت مع ابنها، أنياس، عندما كان يتجوّل في شوارع قرطاج- حتى تقع أقدامه ساكنةً، ويبقى قلبه صامتًا، ولا يصير وجوده في الغرفة ملحوظًا أكثر من نسمة هواء.

ولما كان الوقت أواخر يونيو، كان الفنلنديَّان قد أسدلا الستائر لحَجب وهج الليالي البيضاء، لكن شريحة ضئيلة من الضوء نفذَت بين مُلتقى الستارتين. على هذا الضوء الخافت، اقترب الكونت من قائمة السرير ودَرَس الهيئتَيْن النائمتين للمسافرَيْن. بفضل الله، كانا في الأربعين من العمر تقريبًا. لو كانا أصغر بخمس عشرة سنة، لما كانا نائمين. بعد عودتهما مترنِّحَيْن من عشاء متأخر في منطقة أربات طلبا فيه زجاجتي نبيذ، لكانا الآن يتطارحان الغرام. ولو كانا أكبر بخمس عشرة سنة، لكانا يتقلّبان ويتململان، يستيقظان مرّتين في الليل لزيارة المرحاض. لكن في

الأربعين؟ كانا يتمتعان بشهية تكفي لأكلةٍ جيّدة، ومزاج يكفي لشُربٍ معتدل، وحكمة تكفي لاستغلال غياب الأطفال في الحصول على نومةٍ ليليّةٍ هانئة.

في غضون دقائق كان الكونت قد أمَّن جواز سفر الجنتلمان و150 ماركًا فنلنديًّا من الكومود، وسار على أطراف أصابعه في غرفة الجلوس، وانسلّ عائدًا إلى الردهة، التي كانت خالية.

في الحقيقة، كانت خالية تمامًا، حتى إن حذاءه لم يكن هناك.

قال الكونت لنفسه: «اللعنة! لا بُد أن الخدمة الليلة أخذتها للتلميع».

بعد أن وبّخ الكونت نفسه مرارًا، خفَّف عن نفسه قائلًا إن الفنلنديَّيْن سوف يُرجعان الحذاء إلى مكتب الاستقبال في الصباح التالي على الأكثر، حيث سُيلقَى وسط مقتنيات الفندق من الأغراض المفقودة غير المتعرَّف عليها. كما أنه وجد عزاءً آخر، حين كان يصعد سلّم البُرج، في أن كل شيء بخلاف ذلك قد سار وفقًا للخطة. **بحلول ليلة الغد**... هكذا كان يفكّر وهو يفتح باب غرفة نومه- ليفاجأ بالأسقف جالسًا إلى مكتب الدوق الأكبر.

بداهةً، شعر الكونت بالسُخط، غريزيًّا، للوهلة الأولى. إذ إن مدقِّق الفروقات هذا، نازع بطاقات النبيذ هذا، لم يكتفِ فقط بدخول مَسكن الكونت دون دعوة، بل وأراح مرفقَيْه على هذا السطح المغطى بالنُقَر حيث كُتبت في زمنٍ مَا حُججٌ مُقنِعة موجَّهةٌ لرجال دولة ونصائحُ راقيةٌ موجَّهةٌ لأصدقاء. فتح الكونت فمه ليطلب تفسيرًا، عندما لاحظ أن أحد الأدراج مفتوحة، وأن ثمة ورقة في يد الأسقف.

الخطابات، أدرك الكونت وقد استولى عليه الفزع.

أوه، لو فقط كانت الخطابات...

ربما لم تكن التعابير المكتوبة بتأنٍّ عن الغرام والرفقة شائعة بين الزملاء، لكنها لم تكن مثيرة لكثير من الشك في حد ذاتها. فللرجل كل

الحق- وبعض المسؤولية- أن ينقل مشاعره الطيبة لأصدقائه. لكن ما يُمسكه الأسقف لم يكن واحدًا من الخطابات المكتوبة حديثًا. بل كان خريطة «بايدكر» الأولى- تلك التي كان الكونت قد رَسَم فيها خطًّا أحمر فاتحًا يصل بين «بلِيه غارنييه» والسفارة الأمريكية عن طريق جادة جورج الخامس.

ثم مجددًّا، سواءً كان خطابًا أم خريطة، لا يَهمّ. فعندما استدار الأسقف لدى سماع صوت الباب، رأى تعابير الكونت وهي تتحوّل من السُخط إلى الرعب- وهو تحوُّل أكّد الذنب قبل توجيه أي اتهام.

«رئيس النُدُل روستوف»، قالها الأسقف، وكأنه فوجئ برؤية الكونت في غرفته ذاتها. «أنت حقًّا رجلٌ متعدد الاهتمامات: نبيذ... مطبخ... شوارع باريس...».

قال الكونت وهو يحاول السيطرة على نفسه: «نعم. كنتُ أقرأ شيئًا من بروست مؤخَّرًا، وأردت أن أعيد التعرّف على ترتيب دوائر المدينة».

قال الأسقف: «بالطبع».

تعرِف القسوةُ أنها لا تحتاج إلى ميلودراما. يمكنها أن تظل هادئة وساكنة كما تحب. يمكنها أن تتنهّد، أو تهز رأسها هزّةً مستنكرةً طفيفة، أو تُقدم اعتذارًا متعاطفًا على ما هي مضطرة لفعله. يمكنها المضيّ ببطء، ومنهجيّة، وحتميّة. هكذا، بعد أن وضع الأسقف الخريطة بلطف على السطح المنقَّر لمكتب الدوق الأكبر، نهض عن الكرسي، وسار عبر الغرفة، وانسلّ من جوار الكونت دون كلمة.

ما الذي مَرّ بذهن الأسقف وهو ينزل الطوابق الخمسة من العليّة إلى الطابق الأرضي؟ أيُّ عاطفة كانت تخامره؟

ربما الشماتة. فبعد أن ظل يشعر بأن الكونت يستصغره على مدار أكثر من ثلاثين عامًا، لعلّه يشعر الآن بالسعادة كونه تمكّن أخيرًا من إلزام هذا

الجهبذ الـمُدَّعي مكانَه. أو ربما الاستقامة. ربما كان الرفيق لِبليفسكي شديد الإخلاص لأخويّة البروليتاريا (التي نشأ منها)، حتى إن بقاء هذا «الشخص السابق» في روسيا الجديدة خَمَش إحساسه بالعدالة. أو ربما، ببساطة، الرضا البارد للحَسود. فأولئك الذين عانوا من مصاعب في الدراسة أو صناعة الأصدقاء وهم صغار، يظلّون ينظرون دائمًا نظرة مريرة لمن عاشوا حياة سهلة يسيرة.

الشماتة، الاستقامة، الرضا، من يعرف؟ لكنّ الشعور الذي خامرَ الأسقف لدى فتح باب مكتبه كان بالتأكيد شعور صَدْمة- إذ كان الخصم الذي ترَكه في العليّة قبل دقائق يجلس الآن وراء مكتب المدير وفي يده مسدّس.

كيف أمكَن ذلك؟

عندما غادر الأسقف غرفة نوم الكونت، كان الكونت متجمدًا في مكانه تحت وطأة إعصار من المشاعر- شعور بالغضب، بالارتياب، بالندم، بالخوف. بدلًا من إحراق الخريطة، كان قد دسَّها مثل أحمق في دُرج مكتبه. ستة شهور من التخطيط الحريص والتنفيذ الدؤوب انقلبَت بزلّة واحدة. والأسوأ أنه عرَّض صوفيا للخطر. أيُّ ثمن ستدفعه لإهماله؟

لكن إذا كان الكونت تجمّد في مكانه، فقد تجمّد لخمس ثوانٍ لا غير. فهذه الأحاسيس المفهومة تمامًا، التي هدَّدت باستنزاف الدمِ من قلبه، كَنَسَتها العزيمة جانبًا.

استدار الكونت على عقبيه، وتوجه إلى رأس سلّم البُرج، وأنصت تاركًا الأسقف ينزل الطابقين الأوّلَيْن. بعدها، شرع الكونت، وهو لا يزال على قدميه المجورَبتَيْن يتبع خطوات الأسقف؛ لكن عندما وصل إلى الطابق الخامس، خرج من سلّم البُرج، وهرول في الرواق، وركض نزولًا على السلّم الرئيسي، تمامًا كما كانت صوفيا تفعل وهي في الثالثة عشرة.

كأنه لا يزال مكفَّنًا بالضباب، عندما نزل الكونت آخر درجات السلّم، رَكَض في الرواق ودخل المكاتب التنفيذية دون أن يراه مخلوق؛ لكن عند وصوله إلى باب الأسقف، اكتشف أنه موصَد. وبينما كان يَذكُر اسم الربّ باطلًا، خَبَط بيديه على صِدريّته في ارتياح. إذ كان لا يزال يحمل مفتاح مرور نينا في جيبه. دخل الكونت، وأوصد الباب، وسار إلى الحائط حيث كانت خزائن الملفات قد حَلّت محل شيزلونغ السيد هاليكي. بدأ الكونت العدَّ من بورتريه ماركس، ووضع يده في منتصف اللوح الثاني على اليمين، ودفعه، فانفتح إلى الخارج. أخرج الكونت العلبة المرصّعة من حُجَيْرتها، ووضعها على المكتب، وفتح الغطاء.

قال: «يا للروعة!».

ثم جلس في كرسي المدير، وأخرج المسدسين، وحشاهما، وانتظر. خمّن أن أمامه ثواني لا أكثر قبل أن يُفتح الباب، لكنه استغلّها بأفضل ما يستطيع لتخفيف أنفاسه، وتخفيض ضربات قلبه، وتهدئة أعصابه؛ حتى إنه مع دوارن مفتاح الأسقف في القفل، كانا باردًا مِثل قاتِل.

كان وجود الكونت خلف المكتب غير متوقَّع حتى إن الأسقف أغلق الباب قبل أن يلاحظ وجوده. لكن إذا كان لكل إنسانٍ نقاطُ قوّته، فإحدى نقاط قوة الأسقف كانت أنه لا يبتعد قَط أكثر من خطوة عن مقتضيات التراتبيّة الوظيفية، إضافة إلى إحساسه المتأصّل بالتفوق.

قال، بنبرة مشاكسة تقريبًا: «رئيس النُدُل روستوف، ليس من شأنك التواجد في هذا المكتب. أنا أصرّ على مغادرتك على الفور».

رفع الكونت أحد المسدسين.

«اجلس».

«كيف تجرؤ!».

كرّر الكونت ببطء أكثر: «اجلس».

سيكون الأسقف أول من يعترف أنه لا يمتلك خبرة مع الأسلحة

النارية. في الحقيقة، كان لا يكاد يفرّق بين المسدس ذي الخزنة الدوّارة والمسدس نصف الآلي. لكن أي أحمق يستطيع أن يرى أن ما يمسكه الكونت كان مسدسًا أثريًّا، قطعة متحفيّة، أعجوبة.

قال: «أنت لا تترك لي خيارًا سوى إبلاغ السلطات». ثم تقدّم إلى الأمام ورفع سمّاعة أحد الهاتفين.

ترك الكونت الأسقف وصوّب مسدسه إلى بورتريه ستالين وأطلق رصاصة بين عيني الرئيس السابق.

مصدومًا إما بالصوت أو التدنيس، قفز الأسقف إلى الخلف، مُسقطًا السماعة بقعقعة.

رفع الكونت المسدس الثاني وصوّبه إلى صدر الأسقف.

قال مجدّدًا: «اجلس».

هذه المرة، أذعن الأسقف.

الآن، وقف الكونت، ومسدسه الثاني لا يزال مصوَّبًا إلى صدر الأسقف. أعاد سماعة الهاتف إلى حاملها. التفّ حول كرسي الأسقف وأوصد الباب. ثم عاد إلى مقعده خلف المكتب.

ظل الرجلان صامتَيْن بينما كان الأسقف يستعيد إحساسه بالتفوق.

«طيّب يا رئيس النُدُل روستوف، يبدو أنك نجحت في إبقائي قسرًا تحت التهديد باستخدام العنف. فماذا تنوي أن تفعل؟».

«سننتظر».

«ننتظر ماذا؟».

لم يُحرِ الكونت جوابًا.

بعد بضع لحظات، بدأ أحد الهاتفَين في الرنين. غريزيًّا، مدّ الأسقف يده إليه، لكن الكونت هزّ رأسه. رنّ إحدى عشرة مرة قبل أن يخلد إلى الصمت.

أصرّ الأسقف: «كم من الوقت تتوقّع أن تحتجزني هنا؟ ساعة؟ ساعتين؟ حتى الصباح؟».

كان سؤالًا جيدًا. أجال الكونت بصره على حوائط الغرفة بحثًا عن ساعة، لكنه لم يجد.

قال: «اعطني ساعتك».

«معذرة؟».

«لقد سمعتَني».

خلع الأسقف ساعته من معصمه ورماها على المكتب. عمومًا، لم يكن الكونت من أنصار الاستيلاء على ممتلكات الرجال تحت تهديد السلاح، لكن بعد أن ظل يتباهى بتجاهُل عقرب الساعات لسنوات طويلة، حان الوقت لكي يهتمَّ بأمره.

وفقًا لساعة الأسقف (التي كانت- على الأرجح- متأخِّرة خمس دقائق لكي يضمن ألا يتأخَّر عن عمله أبدًا)، كانت الساعة 1:00 صباحًا تقريبًا. سيكون عليه انتظار بعض ضيوف الفندق العائدين من عشاءات متأخرة، وبعض المتلكّعين في البار، وتنظيف البياتسا وترتيبها، وكنس البهو. بحلول الساعة 2:30، سيكون الفندق قد أصبح ساكنًا في كل ركن وزاوية.

قال الكونت: «استرح». ثم ليمرِّر الوقت، بدأ يصفِّر مقطعًا من أوبرا «كوزي فان توتي» لموتسارت. في موضع ما في الحركة الثانية، لاحظ أن الأسقف كان يبتسم هازئًا.

سأله الكونت: «هل تفكر في شيء؟».

التوى الركن العلوي الأيسر من فم الأسقف.

قال متهكِّمًا: «أمثالك. كم أنتم دائمًا مقتنعون بصلاح أفعالكم. وكأن الرب نفسه يتأثّر كثيرًا بأساليبكم الثمينة وطُرقِكم المبهجة في فعل الأشياء، فيبارككم بنفسه لتفعلوا ما يعنّ لكم. يا له من غرور».

أطلق الأسقف ما لا بُد يعتبرونه في بيته ضحكةً.

تابَعَ: «طيّب، لقد أخذتم زمنكم. أخذتم فرصتكم للرقص مع أوهامكم والتصرف بلا رقيب أو حسيب. لكن فرقتكم الموسيقيّة الصغيرة كفَّت عن العزف. أيًّا كان ما تقوله أو تفعله الآن، أيًّا كان ما تفكر فيه، حتى إذا كان في الثانية أو الثالثة صباحًا خلف باب موصد، سوف يخرج إلى النور. وعندما يخرج، سوف تحاسَب عليه».

أصغى الكونت للأسقف باهتمام حقيقي وقَدرٍ من المفاجأة. أمثاله؟ الرب يباركه ليفعل كما يشاء؟ بينما يراقص أوهامه؟ لم يكن لدى الكونت فكرة عمَّا يتكلم عنه الأسقف. في نهاية المطاف، كان قد عاش قيد الإقامة الجبرية في المتروبول لأكثر من نصف عمره. كاد أن يبتسم، وأوشك أن يُطلق مزحة عن الخيالات الكبيرة لأصاغر الرجال- لكن، بدلًا من ذلك، ازدادت قسماته جدِّية، وهو يفكر في التوكيد المتعجرف للكونت على أن كل شيء «سوف يخرج إلى النور».

تحوَّلت نظرته إلى خزائن الملفّات، وكانت قد صارت خمسَ خزائن.

أبقى الكونت ماسورة مسدسه مصوَّبة إلى الأسقف، وسار إلى خزائن الملفات، وسحب الدُرج العلوي الأيسر. كان موصدًا.

«أين المفتاح؟».

«ليس لك شأن بفتح هذه الخزائن. إنها تحتوي على ملفاتي الشخصية».

استدار الكونت حول المكتب وفتَح الأدراج. فوجئ بأنها خاوية.

أين يخفي رجلٌ مثل الأسقف مفتاح ملفّاته الشخصية؟ نعم، يُبقيه معه شخصيًّا، بالطبع.

استدار الكونت حول المكتب ووقف فوق رأس الأسقف.

قال: «تستطيع أن تعطيني ذلك المفتاح، أو أستطيع أنا أن آخذه منك. لكن ليس هناك طريق ثالث».

عندما رفع الأسقف رأسه في تعبير ناقِم خفيف، رأى أن الكونت رَفَع المسدس القديم في الهواء وقد اتضح أنه مستعدٌ للنزول به على وجهه. أخرج الكونت حلقة صغيرة من المفاتيح من أحد جيوبه ورماها على المكتب.

عندما حطَّت بصليلها، رأى الكونت أن الأسقف مرّ بشيء من التحوُّل. لقد فَقَد فجأة إحساسه بالتفوق، وكأن ذلك الإحساس كان مؤمَّنًا طوال الوقت بامتلاكه لتلك المفاتيح. التقط الكونت الحلقة، وفتَّش فيها إلى أن عثر على أصغر المفاتيح، ثم فتح كل خزائن ملفّات الأسقف واحدة بعد أخرى.

في الخزائن الثلاث الأولى، وجد مجموعة مرتَّبة من التقارير حول عمليات الفندق، مطاعمه وباراته؛ معدَّلات الإشغال؛ الموظفين؛ نفقات الصيانة؛ المستودعات؛ و، أَجَل، الفروقات. لكن في الخزنتين الباقيتين، كانت الملفات مخصصة للأفراد. علاوة على ملفّات حول مختلف الضيوف الذين أقاموا في الفندق على مرّ السنين، كان ثمة ملفات مرتّبة هجائيًا للموظفين. لأركادي، وفاسيلي، وأندري، وإميل. وحتى مارينا. بنظرة واحدة، عرف الكونت الغرض منها. كانت تقريرًا دقيقًا عن الأخطاء البشرية، تُسجِّل أمثلة محدَّدة من التأخير، الوقاحة، التذمّر، السُكر، التراخي، الاشتهاء. لم يكن بالإمكان وصف محتويات هذه الملفات بأنها مُلفَّقة أو غير دقيقة. لا شكّ أنّ كل المذكورين آنفًا مدانون بمواطن الضعف الإنساني تلك من ناحية أو أخرى، لكن الكونت كان يستطيع أن يجمع ملفًا حجمه خمسين ضعفًا يدوِّن فيه فضائل كلٍّ منهم. سحب الكونت ملفّات أصدقائه ورماها على المكتب، ثم عاد إلى الخزائن وراجَع حرف الراء. عندما وجد ملفّه الخاص، أسعده أن يكتشف أنه واحدٌ من أغلظ الملفّات.

نظر الكونت إلى ساعته (أو بالأحرى ساعة الأسقف). كانت 2:30

صباحًا: ساعة الأشباح. أعاد الكونت حشو المسدس الأول، ودسَّه في حزامه، ثم صوّب الآخر إلى الأسقف.

قال: «حان وقت التحرّك»، ثم أشار إلى الملفّات على المكتب بالمسدس. «إنها ممتلكاتك. احملها بنفسك».

جمعها الأسقف دون احتجاج.

«إلى أين نذهب».

«ستعرف قريبًا جدًّا».

قاد الكونت الأسقفَ عبر المكاتب الخاوية، إلى داخل بئر سلّم مسوَّر، ونزولًا طابقَيْن تحت مستوى الشارع.

على كل إدارته النيّقة لأدق تفاصيل الفندق، كان واضحًا أن الأسقف لم يسبق له أن نزل إلى القبو قَط. خرج من الباب في أسفل السلّم، ونظر حوله في مزيج من الخوف والاشمئزاز.

«المحطة الأولى»، قالها الكونت، وهو يجذب بابًا ثقيلًا من الفولاذ يقود إلى المغلاة. تردَّد الأسقف، فلكزه الكونت بماسورة مسدسه. «هناك». تناول الكونت منديلًا من جيبه، وفتح الباب الصغير في الأتون. قال: «ارمِها هنا».

دون كلمة، غذّى الأسقف النيران بملفاته. لعل السبب قُربه من النار، أو الجهد المبذول في حَمْل كومة الملفات والنزول بها لطابقين، لكن الأسقف كان قد بدأ يتعرَّق بطريقة غريبة عليه.

قال الكونت: «هيا. المحطّة التالية».

فور خروجه من المغلاة، لكزَ الكونت الأسقف ليسير في القاعة إلى خزانة العجائب.

«هناك. على الرفّ السفلي. هاتِ ذلك الكتاب الأحمر الصغير».

فعل الكونت مثلما أُمر وناول الكونت «بايدكر» فنلندا.

أومأ الكونت برأسه ليوضّح أنهما سيواصلان السير إلى داخل القبو.

بدا الأسقف الآن شاحبًا للغاية، بعد بضع خطوات بدا أن ركبتَيْه قد تنوءان تحت ثقله.

لاطفه الكونت: «لقد اقتربنا». وبعدها بلحظة كانا يقفان بالباب الأزرق الفاتح.

أخرج الكونت مفتاح نينا من جيبه، وفتح الباب. قال: «إلى الداخل».

خطا الأسقف إلى الداخل واستدار. «ماذا ستفعل بي؟».

«لن أفعل أي شيء بك».

«إذًا متى سترجع؟».

«لن أرجع أبدًا».

قال الأسقف: «لا تستطيع تركي هنا. قد أظلّ لأسابيع قبل أن يجدني أحد!».

«أنت تحضر الاجتماع اليومي للبويارسكي، يا رفيق لِبليفسكي. لو كنتَ أصغيتَ السمع في الاجتماع الأخير، لتذكّرتَ أن لدينا وليمة ليلة الثلاثاء في صالة الرقص. أنا متأكّد أن أحدهم سيعثر عليك عندها».

عند تلك النقطة، أغلق الكونت الباب وحَبَس الأسقف داخل تلك الغرفة حيث تتحيَّن الأبهة فرصتها.

لا بُد أنهما سيكونان على وفاقٍ تام معًا، فكَّر الكونت.

كانت الثالثة صباحًا عندما بدأ الكونت صعود سلّم البُرج من طابق البهو. بينما كان يصعد، شعر بارتياح مَن نجا في اللحظة الأخيرة. مدّ يده في جيبه، وأخرج جواز السفر المسروق والماركات الفنلنديّة ودسّها في الـ«بايدكر». لكن عندما انعطف حول الزاوية في الطابق الرابع، سَرَت قشعريرة في عموده الفقري. إذ في القَلْبة التي تعلوه مباشرة كان شبحُ القط الأعور. من موقعه المتعالي، كان القط ينظر إلى هذا «الشخص

السابق»- الذي يقف هناك في قدميه المجَوْرَبتيْن حاملًا مسدسيْن في حزامه وبضائع مسروقة في يده.

لقد قيل إن الأدميرال لورد نيلسون، وكان قَد فَقَد إحدى عينيه في معركة النيل(*) عام 1798، عندما لوَّح القائد العام بإشارة الانسحاب أثناء معركة كوبنهاغن، رفع منظاره الميداني إلى عينه العوراء- وهكذا واصل هجومه إلى أن أصبحت البحريّة الدنماركية مستعدة للتفاوض حول هدنة.

ومع أن تلك القصة كانت محبّبة لدى الدوق الأكبر وكثيرًا ما يعيدها على الكونت الصغير كمثال على الثبات الباسل في وجه الظروف العاتية، فلطالما راودت الكونت شكوكٌ أنها قصّة منتحَلة نوعًا ما. في نهاية المطاف، في خضمّ الصراعات المسلحة، تتعرّض الحقائق حتمًا للإصابة كما السفن والرجال، إنْ ليس أكثر. لكن في مستهلّ الانقلاب الصيفي لعام 1954، أدار قطُّ المتروبول الأعور عينًا عمياء لغنائم الكونت غير المشروعة، ودون أدنى بادرة استياء، اختفى أسفل السلّم.

(*) معركة النيل: معروفة أيضًا باسم «معركة أبي قير البحرية»، بين الأسطولين الإنكليزي (بقيادة نيلسون) والفرنسي (بقيادة بونابارت) في خليج «أبي قير» المصري، وانتهت بهزيمة الأسطول الفرنسي. (المترجم)

نهايات

رغم أنه ذهب إلى الفراش في الرابعة صباحًا، في الحادي والعشرين من يونيو استيقظ الكونت في ساعته المعتادة. قام بخمسة تمارين قَرفَصة، وخمسة تمارين إطالة، وسَحَب خمسة أنفاس عميقة. تناول إفطارًا مكونًا من قهوة، وبسكويت، وفاكهته اليومية (اليوم تشكيلة من التوت)، بعدها نزل إلى أسفل لقراءة الصحف والدردشة مع فاسيلي. تناول غداءه في البياتسا. وبعد الظهر، قام بزيارة إلى مارينا في غرفة الخياطة. ولما كان يوم إجازته، فقد تناول مشروبًا فاتحًا للشهية في السابعة في الشاليابين، حيث شارك أودريوس المتيقّظ دائمًا دهشته لحلول الصيف. في الثامنة، تناول عشاءه على الطاولة رقم عشرة في البويارسكي. خلاصة القول: تعامَل مع يومه تمامًا مثلما كان يتعامل مع أي يوم آخر. غير أنه عندما غادر المطعم في العاشرة، بعد أن أخبر ناديا أن المدير يريد رؤيتها، انسلّ داخل حجرة المعاطف الخالية ليستعير المعطف المطريّ وقبعة فيدورا(*) الخاصَّين بالصحافي الأمريكي ساليسبري.

هناك في الطابق السادس، نَبَش الكونت في عُمق صندوقه القديم ليُخرج حقيبة الظهر التي استخدمها عام 1918 في سفرته الطويلة من باريس إلى «أيدل آور». كما في تلك الرحلة، لن يأخذ معه هذه المرة إلا الضروريات. بمعنى: ثلاثة غيارات من الملابس، وفرشاة أسنان

(*) قبعة فيدورا: طراز شهير من القبعات، لها حافة عريضة مستديرة، وبها انبعاج في قمتها، واثنان على جانبيها. (المترجم)

ومعجون، ورواية «آنا كارنينا»، ومشروع ميشكا، و، أخيرًا، زجاجة الـ«شاتونوف دو باب» التي كان ينوي أن يشربها في الرابع عشر من يونيو عام 1963- والموافق ذكرى مرور عشر سنوات على وفاة صديقه القديم.

لملم الكونت أغراضه، ثم قام بزيارة أخيرة إلى غرفة مكتبه. قبلها بسنين طويلة، كان قد ودّع بيتًا كاملًا. ثم بعدها ببضع سنوات ودّع جناحًا. الآن، كان عليه أن يودّع غرفة مساحتها تسعة أمتار مربعة. كانت، دون مُنازع، أصغر غرفة شغلها في حياته؛ مع ذلك فبشكل ما، داخل تلكُم الجدران الأربعة جاء العالم وذهب. بهذه الفكرة، لـمَس الكونت قبعته تحية لبورتريه هيلينا وأطفأ النور.

★ ★ ★

لحظة كان الكونت ينزل إلى البهو، كانت صوفيا تختتم عزفها على خشبة الـ«سا بلييل» في باريس. نهضَت عن البيانو، واستدارت إلى الجمهور في حالة تساؤل تقريبًا- فحيثما عزفت صوفيا، كانت تَغرَق في عزفها بالكامل، حتى تنسى أن هناك من يسمعها. لكن بعد أن أعادتها موجة التصفيق الثانية إلى حواسها، لم تنسَ أن تشير بلطف إلى الأوركسترا وقائدها، قبل أن تحيي الجمهور بانحناءة أخيرة.

وراء الكواليس، تلقّت صوفيا فورًا تهنئة رسمية من الملحق الثقافي وعناقًا حارًا من المدير فافيلوف. كان أجمل أداءٍ لها إلى الآن، هكذا قال. لكن بعدها حوّل الرجلان انتباههما مرة أخرى إلى الخشبة، حيث كان نابغة الكمان يتّخذ موقعه أمام القائد. عمّ الصمت القاعة حتى أصبح بإمكان الجمهور سماع دَقَّة عصا القائد. ثم بعد لحظة سكون شامل، بدأ الموسيقيون في العزف واتجهت صوفيا إلى غرفة الملابس.

كانت أوركسترا الكونسرفاتوار تعزف كونشرتو دفورجاك في أكثر

قليلًا من ثلاثين دقيقة. وستسمح صوفيا لنفسها بخمس عشرة دقيقة لتصل إلى الـمَخرج.

حملت حقيبة ظهرها، واتجهت مباشرة إلى أحد الحمامات المخصّصة للموسيقيين. أوصدت الباب وراءها، وركلت حذاءها، وخلعت الفستان الأزرق الجديد الذي صنعته لها مارينا. نزعَت القلادة التي أهدتها إياها آنا وأسقطتها فوق الفستان. ارتدَت البنطال وقميص أكسفورد اللذين كان والدها قد اختلسهما من الجنتلمان الإيطالي. ثم وهي تنظر في المرآة الصغيرة فوق المغسلة، أخرجَت المقص الذي أعطاها إياه والدها وشَرعت في قَص شعرها.

كان واضحًا أن تلك الأداة الصغيرة المسبوكة على شكل طائر البَلَشون، التي كانت شقيقة والدها تُثمّنها كثيرًا، قد صُممت للقصف، لا للجزّ. جَرَحت الحلقتان براجم إبهام صوفيا وسبّابتها وهي تحاول وتفشل في المضيّ بالنصل عبر خُصلات شعرها الطويل. بدأت صوفيا تذرف الدمع في إحباط، فأغمضَت عينيها وسحبت نفَسًا. قالت لنفسها: **لا وقت لذلك**. مسحت الدموع عن خدّيها بظَهر يدها، وبدأت ثانية- تقصّ خصلات أصغر من الشعر، وتعمل على نحو منهجي حول رأسها.

عندما انتهت، كَنست الشعر بيديها وألقته في المرحاض وطردته إلى مواسير الصرف، تمامًا كما وجّهها أبوها. ثم من جيبٍ جانبي في حقيبتها أخرجت الزجاجة السوداء الصغيرة التي كان حلاق المتروبول يستخدمها في ما مضى لصبغ أولى الشعرات الرمادية حين تظهر في لُحى زبائنه. كان غطاء الزجاجة مزوَّدًا بفرشاة صغيرة ملصَقة به. أمسكت صوفيا بخصلة الشعر البيضاء التي ظلت تميِّزها فعليًّا منذ سن الثالثة عشرة، وانحنت على المغسلة وراحت تمسحها بالصبغة بحرص إلى أن صارت سوداء مثل بقية شعرها.

عندما انتهت، أعادت الزجاجة والمقص إلى حقيبتها. أخرجت طاقية

الإيطالي ووضعتها على المغسلة. ثم حوَّلت انتباهها إلى كومة الملابس على الأرض- وعندها أدركَت أنها لم تفكر قَط في حذائها. كل ما كان في حوزتها هو الحذاء الأنيق ذو الكعب العالي المستدقّ الذي ساعدتها آنا في اختياره لأجل مسابقة الكونسرفاتوار في العام الفائت. وإذ لم تجد أمامها خيارًا آخر، ألقت به في سلة القمامة.

لملمت الفستان والقلادة لتتخلّص منهما بدورهما. نعم، كانت مارينا قد صنعت الفستان وآنا قد أهدتها القلادة، لكن لم يكن بوسعها أخذهما معها- كان والدها قد شدَّد على أنه لا مجال لذلك. فإن هي أُوقِفت لأي سبب من الأسباب وفُتشت حقيبتها، ستفضح تلك الأغراض الأنثوية الفاتنة سَترها. تردّدت صوفيا للحظة، ثم حشرت الفستان في سلة القمامة مع الحذاء؛ لكن القلادة، دسَّتها في جيبها.

شدّت صوفيا أشرطة حقيبتها وأرجحتها على ظهرها، وأنزلت الطاقية بإحكام فوق رأسها، وفتحت باب الحمام، وأصغت. كان صوت الوتريّات قد بدأ يتعالى، مُنبئًا بنهاية الحركة الثالثة. غادرت الحمام، وانعطفت بعيدًا عن غرفة الملابس واتجهت إلى مؤخِّرة المبنى. تعالت الموسيقى أكثر لدى مرورها خلف الخشبة مباشرة. ثم مع أولى نغمات الحركة الأخيرة، اجتازت الـمَخرج الخلفي للقاعة وولجت قلب الليل حافية.

مهرولةً، لكن دون ركض، استدارت صوفيا حول الـ«سال بلييل» إلى شارع «فوبورغ سانت-أونوريه»، حيث يقع المدخل الرئيسي لقاعة الموسيقى بأنواره الساطعة. عبرت الشارع، وولجت من فتحة باب وخَلَعت طاقية الإيطاليّ. من تحت حافتها، سحبَت الخريطة الصغيرة التي كان والدها قد قصّها من الـ«بايدكر» وطواها حتى صارت في مقاس علبة كبريت. فتحتها، وحدَّدت اتجاهاتها ثم بدأت تتبع الخط الأحمر لمسافة نصف ناصية بطول «فوبورغ سانت-أونوريه»، ثم دخولًا في

جادة هوشي إلى قوس النصر، ثم يسارًا إلى الشانزليزيه، ومنها مضت إلى ساحة الكونكورد.

في رسمه للخط المتعرج من أبواب الـ«سال بلييل» إلى السفارة الأمريكية، لم يختر الكونت الطريق المباشر. كان ذلك سيتطلّب منها السير لعشر نواصٍ بطول «فوبورغ سانت-أونوريه». لكن الكونت أراد أن يُبعد صوفيا عن قاعة الموسيقى بأسرع ما يمكن. هذه اللفّة البسيطة لن تضيف إلا بضع دقائق إلى رحلة صوفيا، لكنها ستسمح لها بالاختفاء وسط زحام الشانزليزيه؛ ولا بُد أن يتبقّى لها مع ذلك وقتٌ كافٍ للوصول إلى السفارة قبل أن يُكتشف غيابها.

لكن عندما حسبَ الكونت حِسبته، أغفل الأثر الذي سيقع على فتاة في الحادية والعشرين من عمرها حين ترى قوس النصر واللوفر مضيئين في الليل للمرة الأولى. صحيحٌ أن صوفيا سبق ورأتهما في اليوم السابق، جنبًا إلى جنب الكثير من المناظر الأخرى؛ لكنها رأتهما- كما تخيَّل الكونت تمامًا- من شبّاك حافلة. كان أمرًا مختلفًا تمامًا أن يراهما المرء في مستهلّ الصيف، بعد أن استقبَلَ لتوّه تصفيقًا حارًا، وغيَّر من هيئته، وهَرَب في قلب الليل...

فرغم أننا لا نجد ربَّة للمعمار في التقاليد الكلاسيكية، أظننا نتفق أن مظهر بناية ما، تحت ظروف معيّنة، يُمكن أن يخلّف أثرًا قويًّا في حدّ ذاته على ذاكرة المرء، ويؤثر في مشاعره، بل ويغيّر حياته. على هذا، توقفت صوفيا في ساحة الكونكورد، مجازِفةً بدقائق ثمينة، واستدارت ببطء في مكانها، وكأنها في لحظة تجلّي الحقيقة.

في الليلة السابقة على مغادرتها موسكو، كانت صوفيا قد أعربت عن أساها لـما طلبه منها والدها، وحاول هو مواساتها بفكرة معينة. قال إن حيواتنا تُسيِّرها المخاوف؛ مخاوف كثيرٌ منها مزعجٌ أو حتى مروعٌ؛ لكن إذا ثابرنا وحافظنا على نقاء قلوبنا، قد ننال لحظة صفاء فائق- لحظة نرى فيها كل الوقائع التي وقعت لنا وهي تتخذ أماكنها في المسار الضروري

للأحداث، بينما نضع أقدامنا على أعتاب حياة جديدة جسور طالما تمنّيناها.

عندما أقام والدها تلك الحجّة، بدا الأمر عجائبيًّا جدًّا، مُضخَّمًا جدًّا حتى إنه لم يُلطِّف من أسى صوفيا على الإطلاق. لكن حين كانت صوفيا تدور حول نفسها في ساحة الكونكورد، وترى قوس النصر، وبرج إيفل، وحدائق التويلري، والسيارات ودراجات الفيسبا تَلِفّ حول المسلّة العظيمة، نالت لمحةً مما كان والدها يقصده.

★ ★ ★

«أكانت هكذا طوال الليلة؟».

كان ريتشارد فاندروايل، وهو يقف في شقّته داخل السفارة، قد لاحظ لتوّه زاوية ربطة عنقه في مرآة غرفة النوم. كانت مائلة بمقدار خمس وعشرين درجة.

«ربطة عنقك دائمًا هكذا يا عزيزي».

استدار ريتشارد إلى زوجته مصدومًا.

«دائمًا! ولماذا بربّك لم تقولي شيئًا من قبل؟».

«لأنني أظن أن ذلك يُضفي عليك قدرًا من المجون».

أومأ ريتشارد كشخص يمكن أن يتدبّر أموره مع «المجون»، وألقى نظرة ثانية في المرآة، ثم أرخى ربطة عنقه، وعلّق سترته التوكسيدو على ظهر كرسيه، وكان على وشك أن يقترح شرابًا ليليًّا عندما سمع طرقة على الباب. كان أحد معاونيه.

«ما الأمر يا بيلي؟».

«معذرة على إزعاجك في هذه الساعة يا سيدي. لكنْ هناك شاب يسأل عنك».

«شاب؟».
«نعم. يبدو أنه يسعى للحصول على لجوء...».
رفع ريتشارد حاجبيه.
«لجوء من ماذا؟».
«لست متأكدًا يا سيدي. لكنه لا ينتعلَ حذاءً».
تبادل السيد والسيدة فاندروايل النظرات.
«طيّب. ربما من الأفضل أن تأتي به إلى هنا».
عاد المعاون بعد دقيقة بصحبة شاب في طاقية مسطَّحة كان، بالفعل، حافي القدمين. على نحو مهذب، إنما متلهِّف، خلع الشاب طاقيته وضمها بكلتا يديه إلى خصره.
قالت السيدة فاندروايل: «بيلي. هذا ليس شابًا».
اتسعت عينا المعاون.
قال ريتشارد: «غير معقول! صوفيا روستوف».
ابتسمت صوفيا بارتياح: «سيّد فاندروايل».
أخبر ريتشارد المعاون أن باستطاعته الذهاب، ثم اقترب من صوفيا بابتسامة عريضة وأمسكها من مرفقيها.
«دعيني أحظى بنظرة جيّدة إليك». دون أن يترك صوفيا، استدار ريتشارد إلى زوجته. «ألم أخبرك بأنها جميلة؟».
قالت السيدة فاندروايل بابتسامة: «أخبرتني طبعًا».
ذلك رغم أن صوفيا رأت أن السيدة فاندروايل هي الجميلة.
قال ريتشارد: «يا له من مسار مذهل للحوادث».
سألت صوفيا متردِّدة: «أنتَ لم... تكن تنتظرني؟».
«بالطبع كنا ننتظرك! لكن والدك أصبح مغرمًا بكل هذا التمويه. أكَّد لي أنك آتية، لكنه رفض إبلاغي متى، أو أين، أو كيف. وبالتأكيد لم يخبرني بوصولك في هيئة صبيّ حافي القدمين». أشار ريتشارد إلى حقيبة صوفيا. «هل هذا كل ما أحضرتِه معك؟».

«للأسف».

سألت السيدة فاندروايل: «هل أنت جائعة؟».

قبل أن تردّ صوفيا، تدخّل ريتشارد: «بالطبع جائعة. أنا جائع وقد عُدت لتوّي من عشاء. عندي اقتراح يا عزيزتي: لماذا لا ترين إن كان بإمكانك تأمين بعض الملابس لصوفيا بينما نُدردِش أنا وهي. ثم يمكننا أن نلتقي جميعًا في المطبخ».

ذهبت السيدة فاندروايل تبحث عن ملابس، وقاد ريتشارد صوفيا إلى مكتبه، وجلس على حافة طاولة المكتب.

«لا أستطيع أن أعبّر لك عن مدى فرحتنا برؤيتك عندنا يا صوفيا. وأنا أكره جدًا أن أقدِّم العملَ على المتعة. لكن فور أن نجلس لتناول الطعام، لن ننشغل إلا بمغامراتك. لذا، قبل أن نذهب إلى المطبخ، ذَكَر والدك أنه ربما يكون لديك شيء لأجلي...».

بَدَت صوفيا خجولة ومتردِّدة.

«قال والدي إنه ربما يكون لديك شيء لأجلي أولًا...».

ضحك ريتشارد وصَفَق يديه معًا.

«أنتِ محقّة! لقد نسيتُ تمامًا».

اتجه ريتشارد إلى إحدى خزانات الكتب، ووقف على أطراف أصابعه، ومدّ يده إلى الرفّ العلوي وسحب ما بدا كتابًا كبيرًا- لكن تبيَّن أنه حزمةٌ ملفوفةٌ في ورق بُنّي. وضعها ريتشارد على مكتبه بهدّةٍ مكتومة.

في المقابل، شرعت صوفيا تمدّ يدها في حقيبة ظهرها.

حذّرها ريتشارد: «قبل أن تعطيني أي شيء، لعلّ عليك أن تتأكدي أن هذا هو المطلوب...».

«أوه، نعم. فهمتُ».

وأضاف: «علاوة على ذلك، فقد كدتُ أموت من الفضول».

اتجهت لتقف بجوار ريتشارد عند مكتبه، وفكَّت الدوبارة وفردت الورقة. بالداخل كانت نسخة قديمة من «المقالات» لمونتاني.

قال ريتشارد بنبرة مرحة: «طيّب، يجب أن تعطي ذلك الفرنسي العجوز حقّه. إنه أثقل بكثير من آدم سميث أو أفلاطون. لم تكن لدي أيّ فكرة في الحقيقة».

لكن عندها فتحت صوفيا الكتاب، كاشفة عن تجويف مستطيل مقصوص داخل الصفحات، ظهرت بداخله ثماني حِزمٍ صغيرة من العملات الذهبية.

قال ريتشاد: «طبيعيّ».

أغلقت صوفيا الكتاب وأعادت ربط الدوبارة. ثم أنزلت حقيبة ظهرها، وأفرغت محتوياتها على كرسي وناولتها فارغة لريتشارد.

«قال أبي أن تقطع الخياطة فوق الحمّالتيْن».

تناهت طرقة على الباب وأطلت السيدة فاندروايل برأسها.

«معي ملابس لأعرضها عليك يا صوفيا. هل أنت جاهزة؟».

قال ريتشارد وهو يعطي صوفيا إيماءة: «توقيت مثالي. سألحق بكما بعد دقيقة».

عندما أصبح ريتشارد بمفرده، أخرج مطواة من جيبه. فتح الشفرة وقطع بحرص الخياطة التي كانت قد خيطت بخبرة فوق الحمَّالتَيْن. في الفجوة الضيقة التي تُفتح بطول إحدى الحمّالتين دُسَّت ورقة ملفوفة بإحكام.

أخرج ريتشارد اللفافة من مخبئها، وجلس وهو يفردها على مكتبه. على الوجه كان رسم بياني عنوانه: «عشاء مشترك لمجلس الوزراء واللجنة الرئاسية، 11 يونيو، 1954». الرسم البياني نفسه يصوِّر حرف U كبيرًا مع ستة وأربعين اسمًا كُتبت حول أطرافه. وتحت اسم كل شخص كُتب منصبه وملخّصٌ عن شخصيته في ثلاث كلمات. أما ظهر الورقة، فحمل وصفًا تفصيليًّا للأمسية المعنيّة.

بالطبع، وصف الكونت الإعلان المتعلّق بمحطة أوبنينسك للطاقة

النووية وطريقة العرض المسرحية للحظة توصيلها بشبكة موسكو. لكنه شدّد أيضًا في سياق تقريره على التفاوتات الطفيفة في السلوكات الاجتماعية أثناء الأمسية.

أولًا، لاحظ الكونت أن ضيوف العشاء، لدى وصولهم، اندهشوا جميعًا من اختيار المكان. كان واضحًا أنهم وصلوا إلى الفندق متوقّعين أن يتناولوا العشاء في واحدة من غرفتي البويارسكي الخصوصيَّتين، لكنهم وُجِّهوا، عوضًا عن ذلك، إلى الجناح 417. الاستثناء الوحيد كان خروتشوف- الذي دخل الغرفة وقد بدا على ملامحه الرضا البارد لشخص لا يعرف أين سيقام العشاء فقط، ولكنه سعيد أيضًا لرؤية كل شيء في محلّه على أكمل وجه. وقد أزال السكرتير العام أي شك بخصوص انخراطه شخصيًّا في التخطيط للأمسية عندما نهض قبل الحادية عشرة بعشر دقائق، بعد أن ظل صامتًا على غير العادة، ليرفع نخبًا ذكر فيه لمحة عن تاريخ الجناح الواقع أسفله بطابقين.

لكن بالنسبة للكونت، كانت عبقرية الأمسية تكمن في إظهار خروتشوف العابر لاصطفافه مع ماليشيف. في الشهور الأخيرة، لم يُخفِ مالينكوف اختلافه مع خروتشوف في مسألة التسلّح النووي. تنبأ مالينكوف بأن سباق التسلّح النووي مع الغرب لن يسفر إلا عن نتائج فتّاكة، بل وأصبح يسمّيه «سياسة يوم القيامة». لكن بهذه اللقطة الصغيرة من المسرح السياسي، بدَّل خروتشوف، بخفّة يدّ مثالية، تلك الصورة الرهيبة عن معركة «هرمجدّون» بصورة منعشة لمدينة تتلألأ بالطاقة النووية. وهكذا، بضربة واحدة، أظهر الصقرُ المحافظُ نفسَه بمظهر الناظر للمستقبل، وأظهر خصمَه بمظهر الرجعيّ.

مع سطوع أضواء المدينة بذلك التوهّج، وبوجود زجاجات الفودكا المبرَّدة على الطاولة، كان من الطبيعي أن يقطع ماليشيف الغرفة ليتشاور مع السكرتير العام. ولما كان معظم الآخرين لا يزالون يتحركون هنا وهناك والابتسامات على وجوههم، اتخذ ماليشيف بحركة تلقائية مقعدًا

خاليًا بجوار خروتشوف. وهكذا، عندما بدأ الجميع يستعيدون أماكنهم، وجد مالينكوف نفسه محجوزًا وراء خروتشوف وماليشيف؛ وبينما ظل رئيس الحزب الشيوعي ينتظر بارتباك أن ينتهيا من حوارهما حتى يستطيع استعادة مقعده، لم يحرّك أحد من الحضور ساكنًا.

عندما انتهى ريتشارد من قراءة وصف الكونت، استراح في كرسيه وابتسم، متمنّيًا لو كان لديه مئة رجل مثل ألكسندر روستوف. وفي تلك اللحظة لاحظ قطعة الورق الصغيرة المجعّدة قليلًا الملقاة على مكتبه. عندما التقطها، تعرف فورًا على خطّ الكونت المشبّك. تلك الملاحظة، التي لا بُد أنها سقطت من داخل التقرير، تحوي توجيهات واضحة بخصوص تأكيد وصول صوفيا إلى السفارة بأمان، يعقبها سلسلة طويلة من الأرقام، كل رقم من سبع خانات.

قفز ريتشارد على قدميه.

«بيلي!».

بعد لحظة انفتح الباب وأطل المعاون برأسه.

«سيدي؟».

«إذا كانت العاشرة تقريبًا في باريس، فكم تكون بالتقريب في موسكو؟».

«منتصف الليل».

«كم فتاة على السويتش؟».

اعترف المعاون، وقد بدت عليه الحيرة: «لستُ متأكدًا. في هذه الساعة، اثنتان، ربما ثلاثًا؟».

«هذا لن يكفي! اذهب إلى قسم الآلة الكاتبة، وغرفة فكّ الشفرات، والمطبخ. اجمع كل من يمتلك إصبعًا في يده!».

★ ★ ★

عندما وصل الكونت إلى البهو بحقيبة الظهر معلّقة على كتفه وجلس في كرسيه بين أصص النباتات، لم يتململ. لم ينهض ويسير هنا وهناك، أو يقرأ الطبعة المسائية. ولا هو نظر إلى الوقت في ساعة الأسقف.

لو طُلِب من الكونت مُسبقًا أن يتخيّل كيف سيكون شعوره وهو جالس هناك وسط تلك الظروف، لتوقّع أن يخامره نوع من القلق. لكن الدقائق راحت تمضي، ولم يجد الكونت الانتظار مقلقًا على الإطلاق؛ بل وجده مطمئِنًا على نحو مدهش. بصبر بدا وأنه من عالم آخر، راح يراقب ضيوف الفندق وهم يجيئون ويذهبون. رأى باب المصعد ينفتح وينغلق. سمع صوت الموسيقى والضحك المنبعثين من بار الشاليابين.

في تلك اللحظة، شعر الكونت أن لا أحدَ في غير مكانه؛ أن كل شيء صغير إنما هو جزءٌ من خطة كبرى؛ وأنه في سياق تلك الخطة، قُصِد له أن يجلس في الكرسي بين أصص النباتات وينتظر. وعند منتصف الليل تمامًا تقريبًا، كوفئ صبرُ الكونت. إذ توافقًا مع الإرشادات التي كتبها لريتشارد، بدأ كل هاتف في الطابق الأول للمتروبول في الرنين.

رنّت الهواتف الأربعة على مكتب الاستقبال. رنّ الهاتفان الداخليّان الموضوعان على طاولة جانبية بجوار المصعد. رنَّت الهواتف على مكتب فاسيلي ومنّصة رئيس السعاة. وكذا الهواتف الأربعة في البياتسا، والثلاثة في المقهى، والثمانية في المكاتب التنفيذية، والاثنان على مكتب الأسقف. إجمالًا، لا بُد أنها كانت ثلاثين هاتفًا ترنّ في اللحظة نفسها.

يا له من أمر بسيط من حيث الفكرة، الرنين المتزامن لثلاثين هاتفًا. مع ذلك، فقد خَلق فورًا نوعًا من الهرج. مَن كانوا في البهو بدأوا ينظرون من زاوية إلى أخرى. ما الذي يمكن أن يجعل ثلاثين هاتفًا ترنّ في الثانية عشرة ليلًا؟ هل أصيب المتروبول بصاعقة؟ هل تعرضت روسيا للهجوم؟ هل جاءت أرواح الماضي لتصفية حسابها مع الحاضر؟

عندما يرنّ هاتفٌ واحد، تدفعنا غريزتنا إلى أن نلتقط السماعة ونقول

«ألو». لكن عندما يرنّ ثلاثون هاتفًا في اللحظة نفسها، تدفعنا غريزتنا إلى التراجع خطوتين إلى الخلف والتحديق. الموظفون القلائل في وردية الليل وجدوا أنفسهم يركضون من هاتف إلى آخر دون التجرؤ على إجابة أي منها. الحشد السكران في الشاليابين بدأ يتدفّق إلى البهو، أما نزلاء الطابق الثاني، الذين أيقظتهم الجلبة من نومهم، فنزلوا في موكبٍ على السلالم. وفي خضم هذا الهرج والمرج، ارتدى الكونت ألكسندر إيليتش روستوف طاقية الصحافي ومعطفه بهدوء، وعلّق حقيبته على كتفه، وخرج من فندق المتروبول!

خاتمة

كلمات ختامية

في الحادي والعشرين من يونيو عام 1954، غادر فيكتور ستيبانوفيتش سكادوفسكي شقته قُبيل منتصف الليل للّحاق بموعد.

كانت زوجته قد طلبت منه ألّا يذهب. إذ أرادت أن تعرف: أي خير يمكن أن يأتي من موعد في هذه الساعة؟ ألا يعرف أن الشرطة تجوب الشوارع في منتصف الليل؟ أن الشرطة **تحرص** على أن تجوب الشوارع في منتصف الليل. لأن هذا هو الوقت الذي يتواعد فيه الحمقى منذ بدء الخليقة.

ردّ فيكتور على زوجته بأن هذا ليس إلا هراء؛ بأنها تتصرف بميلودراميّة. لكن عندما غادر المبنى، وسار عشر نَوَاصٍ إلى طريق الحدائق الدائري قبل أن يستقل حافلة، أراحته اللامبالاة التي استقبله بها باقي ركاب الحافلة.

نعم، كانت زوجته منزعجة لذهابه إلى موعد في منتصف الليل. لكن لو عَرفَت الغرض من الموعد، لجُنّ جنونها. وبعد معرفة نواياه، لو سألته لماذا بحق الرب وافق على فعل شيء طائش كهذا، لما استطاع أن يجيبها. لم يكن هو نفسه متأكدًا من السبب.

لم يقرر أن يفعل ذلك ببساطة لأجل صوفيا. بالطبع، كان يشعر بما يشبه الفخر الأبوي بإنجازاتها كعازفة بيانو. كان فيكتور قد تخلّى منذ أمد بعيد عن تلك الفكرة الخيالية؛ فكرة مساعدة فنانة شابة على اكتشاف موهبتها؛ وكانت تجربة هذه الفكرة على هذا النحو غير المتوقع أمرًا يفوق الوصف. علاوة على ذلك، فساعات التدريس لصوفيا هي التي

قادته، في نهاية المطاف، لأن يتبع حلمًا آخر من أحلامه المهجورة: عزف المؤلفات الكلاسيكية في موسيقى حجرة. لكن حتى مع ذلك، لم يكن الأمر ببساطة قاصرًا على هذا.

بدرجة أكبر، كان يفعل ذلك لأجل الكونت. إذ شعر فيكتور، لسبب مجهول، بنوعٍ عميقٍ من الإخلاص تجاه ألكسندر إلييتش روستوف؛ إخلاص يقومُ على مشاعر احترام لم يكن فيكتور قادرًا على صياغتها- ولن تستطيع زوجته، على كل فضائلها، أن تفهمها قَط.

لكن ربما الأكثر من كل ذلك، وافق على طلب الكونت لأنه شعر بأن هذا هو الصواب؛ وهذا الشعور بالاقتناع، في حد ذاته، كان متعةً تزداد نُدرة مع الزمن.

بهذه الفكرة، ترجّل فيكتور من الحافلة، ودخل محطة سان بطرسبرغ القديمة، وسار في الصالة المركزية باتجاه المقهى ساطع الإضاءة حيث قيل له أن ينتظر.

كان فيكتور يجلس في مقصورة في الزاوية- يراقب عازف أكورديون عجوز وهو ينتقلِ من طاولة إلى أخرى- عندما دخل الكونت المقهى. كان يرتدي معطفًا أمريكيًّا طويلًا وقبعة فيدورا رمادية داكنة. حين رأى فيكتور أنزلَ حقيبة ظهره، وخلع المعطف والقبعة، وانضم إليه في المقصورة. عندما ظهر النادل بعدها بلحظة، طلب فنجانًا من القهوة ثم انتظر وصول القهوة قبل أن يدفع كتابًا أحمر صغيرًا على الطاولة.

قال: «أريد أن أشكرك على هذا».

«لا حاجة للشكر، يا صاحب السعادة».

«أرجوك يا فيكتور. نادني ألكسندر».

كان فيكتور على وشك أن يسأل إن كان الكونت سمع أي خبر من صوفيا، لكنه قوطِع بشجار على الجانب الآخر من المقهى. كان اثنان من باعة الفاكهة المهزولين يحملان سلّتين مجدولتين قد انخرطا في نزاع

حدودي. بالنظر إلى تلك الساعة المتأخرة، لم يتبقَّ مع كل منهما إلا عددٌ بائس من الثمار؛ ورغم أن ذلك كان يمكن أن يضفي جوًّا من العبث على جدالهما في عيون المراقبين، بدا أن المسألة مسألة مبدأ. وتحقيقًا لتلك الغاية، بعد تبادلٍ قصير للشتائم سدّد أحدهما ضربة لوجه الآخر. وبِدمٍ يسيل على شفتيه وثمارٍ ملقيّة على الأرض، ردَّ المعتدى عليه بالمثل.

عندما أوقف زبائن المقهى حواراتهم لمشاهدة المشاجرة وقد ارتسمت على وجوههم تعبيراتٍ عارفةٍ ضَجِرة، استدار مدير المقهى حول البار وجرّ المتحاربَيْن إلى الخارج من ياقتَيْهما. للحظة، عمّ الصمت الغرفة بينما حدّق الجميع من نوافذ المقهى إلى حيث بقي بائعا الفاكهة جالسَيْن على الأرض على بعد بضعة أمتار. ثم فجأة، عزف لاعب الأَكورديون المسنّ- الذي كان قد كفّ عن العزف أثناء الشجار- نغمة ودود، لعلّه أراد بها استعادة الأجواء الطيبة.

تناول فيكتور رشفة من قهوته، بينما راح الكونت يراقب عازف الأَكورديون باهتمام.

سأل: «هل سبق لك مشاهدة فيلم (كازابلانكا)؟».

بقدر من الارتباك، اعترف فيكتور أنه لم يشاهده.

«آه. يجب أن تشاهده يومًا».

وهكذا، أخبر الكونت فيكتور عن صديقه أوسيب ومشاهدتهما الأخيرة للفيلم. ووصف له، خصوصًا، المشهد الذي جَرْجَرت الشرطة فيه محتالًا صغيرًا وكيف أن صاحب المقهى الأمريكي، بعد أن أكّد لزبائنه أن كل شيء على ما يرام، أعطى إشارة عابرة لقائد الفرقة باستئناف العزف.

شرح الكونت: «صديقي تأثَّرَ كثيرًا بذلك. رأى أن إشارة صاحب المقهى لعازف البيانو ببدء العزف فور انتهاء عملية الاعتقال دليلٌ على لا مبالاةٍ بمصائر الآخرين. لكنني أتساءل...».

★ ★ ★

في الصباح التالي، في الحادية عشرة والنصف، وصل ضابطان من الـ«كيه جي بي» إلى فندق المتروبول لاستجواب رئيس النُدُل ألكسندر روستوف حول شأنٍ لم يُفصحا عنه.

بعد أن اصطحبهما أحد السعاة إلى غرفة روستوف في الطابق السادس، لم يجد الضابطان إشارة على وجوده هناك. ولم يكن يهذّب شعره في صالون الحلاقة، ولا يتناول غداءه في البياتسا، ولا يقرأ الصحف في البهو. جرى استجواب عدد من أقرب رفقاء روستوف، منهم الشيف زوكوفسكي والمِتر دوراس، لكنّ أيًّا منهم لم يكن قد رأى روستوف منذ الليلة السابقة. (كذلك حاول الضابطان الحديث مع مدير الفندق، فقط ليكتشفا أنه لم يصل إلى العمل بعد- وهي الحقيقة التي سُجّلت بحسب الأصول في ملفّه!). في الساعة الواحدة، استُدعيَ رجلان آخران من الـ«كيه جي بي» من أجل إجراء تفتيش أكثر شمولًا للفندق. في الثانية، شُجِّع الضابط الكبير الذي يجري التحقيق على الحديث مع فاسيلي، مسؤول خدمة النزلاء. عندما وجده عند مكتبه في البهو (حيث كان مشغولًا بتأمين تذاكر مسرحية لأحد النزلاء)، لم يلجأ الضابط إلى اللفّ والدوران. طرح سؤاله على مسؤول خدمة النزلاء بلا مواربة.

«هل تعرف مكان ألكسندر روستوف؟».

وأجاب عليه مسؤول خدمة النزلاء: «ليست لدي أدنى فكرة».



بعد أن عرف الشيف زوكوفسكي والمِتر دوراس أن كلًّا من المدير لِبليفسكي ورئيس النُدُل روستوف مفقودَيْن، جلسا الساعة 2:15 إلى اجتماعهما اليومي في مكتب الشيف، حيث انخرطا على الفور في حديث مغلق. للأمانة، خصصا قليلًا من وقتهما للتفكير في غياب المدير

لِبليفسكي. لكن الشطر الأكبر من الوقت خُصص لمناقشة غياب رئيس النُدُل روستوف...

عضوا «المجلس الرئاسي»، اللذان كانا قد شعرا بقلق في البداية عندما نما إلى علمهما خبر اختفاء صديقهما، وجدا عزاءً في الإحباط الواضح لدى ضباط الـ«كي جي بي»- إذ أكّد لهما ذلك أن الكونت ليس في قبضتهم. لكن بقي السؤال: **أين يمكن أن يكون؟**

ثم بدأت شائعة تنتشر بين موظفي الفندق. فمع أن ضباط الـ«كي جي بي» كانوا مدرَّبين على الاستغلاق، كانت الإشارات، والكلمات، وتعبيرات الوجوه تَنقلُ معاني لا تخفى على أحد. هكذا، على مدار الصباح، تسرَّبَت تلميحات واستُخلِصت استدلالات بأن صوفيا قد فُقدت في باريس.

«هل هذا معقول...؟»، تساءل أندري بصوت عالٍ، موحيًا لإميل بوضوح أن صديقهما ربما يكون قد هرب في قلب الليل.

ولما كانت الساعة لا تزال 2:25، والشيف زوكوفسكي لم يَترك بعدُ الدرب المتشائم وينعطف في الدرب المتفائل، ردَّ بحدّة: «بالطبع لا!».

قاد هذا إلى نقاش بين الرجلين حول الفروق بين ما هو محتمل، ومعقول، وممكن- وهو نقاش كان يمكن أن يستمر لساعة كاملة، ما لم تقطعه طرقة على الباب. أجاب إميل بـ«نعم؟» متوترة، واستدار متوقعًا أن يجد إيليا بملعقته الخشبية، لكنه رأى موظفًا من غرفة البريد.

بُهِت الشيف والمِتر كثيرًا بهذا الظهور المفاجئ حتى إنهما راحا يحدّقان.

سألهما بعد برهة: «هل أنتما الشيف زوكوفسكي والمِتر دوراس؟».

أعلن الشيف: «بالطبع نحن هما! مَن يمكن أن نكون؟».

دون كلمة، قدّم لهما الموظف اثنين من المظاريف الخمسة التي

أُسقطت في شِقّ غرفة البريد الليلة السابقة (وكان قد قام بالفعل بزيارات لمكتب الخيّاطة، والبار، ومكتب خدمة النزلاء). بأداء احترافي على طول الخط، لم يُظهر الموظف أي فضول في ما يخص محتويات هذه الخطابات رغم ثقلها غير المعتاد؛ وبالتأكيد لم يتسكّع في انتظار فضّها، إذ كان لديه الكثير من العمل لمباشرته، شكرًا جزيلًا.

حين غادر موظف البريد، نظر إميل وأندري إلى أسفل، كلٌّ في مظروفه، في عجب. على الفور، لاحظا الخط المكتوب على الخطابين، الذي يجمع بين الأناقة، والاعتزاز، والصدق. عندما التقت أعينهما، رفعا حواجبهما ثم فضّا المظروفين. بالداخل، وجد كلٌّ منهما خطابَ فُراقٍ يشكرهما على رفقتهما، ويطمئنهما أن **ليلة شوربة البويابِس** لن تُنسى أبدًا، ويسألهما أن يقبَلا ما هو مُرفقٍ كعهدٍ صغير لصداقة لا تموت. وقد تصادف لـ«الـمُرفَق» أن كان أربع عملات ذهبية.

الرجلان، اللذان كانا قد فتحا خطابيهما في اللحظة نفسها، وقرآهما في اللحظة نفسها، أسقطاهما على الطاولة الآن في اللحظة نفسها.

شهق إميل: «هذا حقيقي!».

أندري، وهو رجل كتوم ومتحضِّر، لم يفكِّر ولو للحظة أن يقول: **لقد قلتُ لك**. لكنه علّق باسمًا: «يبدو هذا...».

لكن عندما تعافى إميل من تلك المفاجآت السعيدة (أربع قطع ذهبية وصديق قديم حرٌّ طليق بقوة عزيمته!)، هز رأسه كشخصٍ تعرَّض للهجران.

سأله أندري في قلق: «ما الأمر؟».

قال الشيف: «مع رحيل ألكسندر وإصابتك بالشلل، ماذا سيحدث لي؟».

نظر أندري إلى الشيف للحظة وابتسم.

«إصابتي بالشلل! يا صديقي، يداي خفيفتان ورشيقتان كعهدهما دائمًا».

ثم ليُثبت كلامه، التقط أندري عملات كاثرين الذهبية الأربع وأطلقها تدور في الهواء.

★ ★ ★

في الخامسة من عصر ذلك اليوم، في مكتبٍ جيّد التجهيز داخل الكرملين (يطلُّ على زهور الليلك في حدائق ألكسندر، لا أقلّ)، جلس الرئيس الإداري للشعبة الخاصة من جهاز الأمن السوفييتي المتشعّب خلف مكتبه يراجع ملفًا. في بدلته الرمادية الداكنة، ربما يَصِف المرء هذا المدير الكبير بأنه غير مميَّز نسبيًّا مقارنة بأي بيروقراطي آخر في أواخر الستينيات من عمره ممن غزا الصلع رؤوسهم، لولا النُدبة فوق أذنه اليسرى حيث، كما يدلّ مظهره، كان شخصٌ قد حاول أن يفلق جمجمته.

عندما طُرق الباب، نادى الرئيس الإداري: «ادخل».

كان الطارق شابًا في قميص وربطة عنق يحمل ملفًا بنيًّا ثقيلًا.

«نعم؟»، قالها الرئيس الإداري لمساعده، دون أن يرفع عينيه عن عمله.

ردّ المساعد: «سيدي. نما إلى علمنا في وقت باكر من صباح اليوم أن أحد الطلّاب في جولة المساعي الحميدة التابعة لكونسرفاتوار موسكو قد فُقد في باريس».

رفع الرئيس الإداري عينيه.

«أحد الطلاب من كونسرفاتوار موسكو؟».

«نعم يا سيدي».

«ذكر أم أنثى».

«آنسة».

«ما اسمها؟».

راجع المساعد الملف في يديه.

«اسمها الأول صوفيا وتقيم في فندق المتروبول، حيث ربّاها المدعو ألكسندر روستوف، شخصٌ سابقٌ قَيْدَ الإقامة الجبرية؛ مع أن هناك تساؤلات في ما يبدو حول مسألة الأبوّة».

«فهمتُ... وهل استُجوِب روستوف هذا؟».

«هذا هو الأمر يا سيدي. لم يتسنَّ العثور على روستوف هو الآخر. جرى تفتيش مبدئي لمقره في الفندق ولم يُسفر عن شيء، ولا أحد ممن تم استجوابهم اعترف برؤيته منذ ليلة أمس. مع ذلك، فقد أسفر تفتيش ثانٍ أكثر شمولًا عصر اليوم عن اكتشاف مدير الفندق، محبوسًا في غرفة تخزين في القبو».

«ليس الرفيق لِبليفسكي...».

«هو بنفسه يا سيدي. يبدو أنه اكتشَف خطة فرار الفتاة وكان في طريقه لإبلاغ الـ«كيه جي بي» عندما تغلَّب عليه روستوف وأجبره على الدخول إلى غرفة التخزين تحت تهديد السلاح».

«تحت تهديد السلاح!».

«نعم يا سيدي».

«ومن أين أتى روستوف بسلاح ناري؟».

«يبدو أنه كان يمتلك زوجين من مسدسات المبارزة الأثرية- والعزم على استخدامهما. في الحقيقة، تأكَّد لنا أنه أطلق النار على بورتريه ستالين في مكتب المدير».

«أطلق النار على بورتريه ستالين. طيّب. يبدو لي أنه شخص عديم الرحمة...».

«نعم يا سيدي. وإذا سمحت لي بالقول، داهية. إذ يبدو أنه قَبل ليلتين سُرق جوازُ سفر فنلندي ونقودٌ فنلندية من أحد نزلاء الفندق الفنلنديين. ثم ليلة أمس، سُرق معطف مطر وقبعة من صحافي أمريكي. وعصر هذا اليوم، أُرسِل المحققون إلى محطة لينينغرادسكي للسكك الحديدية، حيث تأكّد أن رجلًا يرتدي القبعة والمعطف المشار إليهما شوهد وهو يستقل قطار الليل إلى هِلسنكي. وقد عُثر على القبعة والمعطف داخل أحد الحمّامات في آخر الخط من الجانب الروسي في فيبورغ جنبًا إلى جنب دليل سفرٍ لفنلندا انتُزعت خرائطه. وباعتبار الإحكام الأمني عند عبور السكة الحديد إلى فنلندا، لعلّ روستوف ترجَّل في فيبورغ لكي يعبر الحدود على قدميه. وقد استُنفِر الأمن المحلي، لكن ربما يكون قد أفلت بالفعل من بين أصابعهم».

«فهمتُ...»، قالها الرئيس الإداري مجددًا، متقبِّلًا الملف من مساعده وواضعًا إيّاه على مكتبه. «لكن خبّرني، كيف أقمنا الصلة بين روستوف وجواز السفر الفنلندي في المقام الأول؟».

«الرفيق لِبليفسكي يا سيدي».

«وكيف ذلك؟».

«عندما كان الرفيق لِبليفسكي يُقتاد إلى القبو، شاهد روستوف وهو يأخذ الدليل الفنلندي من مجموعة من الكتب المتروكة. بهذه المعلومة، أقيمت الصلة على الفور بسرقة جواز السفر، وأُرسل الضباط إلى المحطة».

قال الرئيس الإداري: «عملٌ ممتاز من جميع النواحي».

«نعم يا سيدي. وإن كان المرء لِيتعجّب».

«يتعجّب من ماذا؟».

«لماذا لم يُطلق روستوف النار على لِبليفسكي عندما سنحت له الفرصة؟».

قال الرئيس الإداري: «الواضح أنه لم يُطلق النار على لِبليفسكي، لأن لِبليفسكي ليس أرستقراطيًّا».

«سيدي؟».

«أوه. لا تشغل بالك».

عندما نقر الرئيس الإداري على الملف الجديد بأصابعه، تلكأ المساعد عند مدخل الباب.

«نعم؟ هل هناك شيء آخر؟».

«لا يا سيدي. ليس هناك شيء آخر. لكن كيف نتابع الأمر؟».

فكّر الرئيس الإداري في السؤال للحظة، ثم، مستريحًا في كرسيه بأوهى بادرة ابتسامة، أجاب:

«اجمع المشبوهين المعتادين».

★ ★ ★

كان فيكتور ستيبانوفيتش، بالطبع، هو من ترك دليل الإدانة في حمام محطة فيبورغ النهائية.

بعد ساعة من توديع الكونت، استقل القطار المتجه إلى هِلسنكي مرتديًا قبعة الصحافي ومعطفه والـ«بايدكر» في جيبه. عندما ترجَّل في فيبورغ، مزّق الخرائط وترك الدليل مع الأغراض الأخرى على نُضدٍ في حمام المحطة. ثم سافر عائدًا على القطار التالي المتجه إلى موسكو خاوي اليدين.

مرّت سنة تقريبًا قبل أن تسنح الفرصة أخيرًا لفيكتور أن يشاهد «كازابلانكا». بداهةً، استُثير اهتمامه عندما تحول المشهد إلى «رِكس كافيه» وبدأت الشرطة تحاصر أوغارتي، إذ تذكَّر حواره مع الكونت في مقهى محطة القطار. وهكذا، بأقصى قدرٍ من الانتباه، شاهد رِك وهو

يتجاهل توسلات أوغارتي لنجدته؛ ورأى كيف ظلّت تعبيرات صاحب المقهى باردة ومتعالية بينما تجرجر الشرطة أوغارتي من تلابيبه؛ لكن عندها، حين كان رِك يتحرك وسط الزبائن المرتبكين باتجاه عازف البيانو، أَسَرَت ملاحظةٌ ما عينَ فيكتور. تفصيلة شديدة الخفّة، ليست أكثر من بضع لقطات من الفيلم: في وسط هذه الرحلة القصيرة، بينما رِك يمر بطاولة أحد الزبائن، دون أن يتمهّل أو يتوقّف عن تطمين الزبائن، عَدَل كأسَ كوكتيل كانت قد أُطيح بها أثناء الشجار.

نعم، فكّر فيكتور، هذا هو، بالضبط.

إذ هكذا كانت كازابلانكا، نُقطة مراقبة قَصيَّة في زمن الحرب. وهكذا في قلب المدينة، تحت الأنوار الكاشفة مباشرة، كانت «ركِس كافيه أمريكان»، حيث يستطيع المهمومون الاجتماع من أجل مقامرة أو مشروب وإنصاتٍ إلى موسيقى؛ من أجل التآمر، والعزاء، والأهم، الأمل. وفي قلب هذه الواحة كان رِك. وكما كان صديق الكونت قد لاحظ، فإن برود صاحب المقهى تجاه اعتقال أوغارتي وإشارته للفرقة بمواصلة العزف يمكن أن يوحي بدرجة من اللامبالاة بمصائر الرجال. لكن في عَدلِه لكأس الكوكتيل في أعقاب الهرج، ألم يُظهر أيضًا إيمانًا جوهريًّا بأن الإنسان يستطيع، بأبسط الأفعال، إعادة قَدْرٍ من النظام إلى العالم؟

وبعد حين

في واحدة من أولى عصريّات صيف عام 1954، وقف رجل طويل في ستينياته وسط العشب العالي بين عدد من أشجار التفاح المتهالكة. في مكان ما في مقاطعة نيجني نوفغارِد. ساهمت شعيرات ذقنه النابتة، وحذاؤه الـمُترَب، والحقيبة المعلّقة على ظهره في إعطائه مظهر رجلٍ ظل يمشي على قدميه لعدة أيام، وإن لم يبدُ عليه الإنهاك.

توقف المسافر بين الأشجار، ونظر إلى الأمام مسافة بضع خطوات حيث تبيَّن بالكاد ما يشبه طريقًا غَزَته الأعشاب منذ زمن بعيد. عندما انعطف الرجل إلى هذا الطريق القديم بابتسامة متأسّية ورزينة في آن، نزل عليه صوت من السماء يسأله: **إلى أين تذهب**.

توقّف الرجل في مساره، ورفع بصره لحظةَ قَفَز من شجرة التفاح على الأرض- مصحوبًا بخشخشة الفروع- طفلٌ في العاشرة من عمره.

اتسعت عينا الشيخ.

«أنت صامت مثل فأر، أيها الشاب».

لاحت في عيني الصبي نظرة اعتزاز، وبدا واضحًا أنه اعتبر ملاحظة الرجل ضربًا من المديح.

«وأنا أيضًا»، قالها صوتٌ هيّاب من بين الأوراق.

رَفع المسافر رأسه ليجد فتاة في السابعة أو الثامنة قابعة فوق فرعٍ.

«أنتِ كذلك بالفعل! هل تريدين مساعدة في النزول؟».

قالت الفتاة: «لا أريد». لكنها علَّقت نفسها بزاوية معيّنة لتسقط بين ذراعي المسافر، على أي حال.

فور أن أصبحت الفتاة على الأرض بجوار الصبي، عرف المسافر أنهما شقيقان.

«نحن قراصنة»، قالها الصبي بنبرة من يُقرّ حقيقة واقعة، وهو ينظر باتجاه الأفق.

قال الرجل: «هذا واضح».

سألت الفتاة الصغيرة بفضول: «هل أنت ذاهب إلى القصر؟».

وحذَّر الصبي: «لم يعد أحد يذهب إلى هناك تقريبًا».

سأل الرجل، بعدما لم ير أثرًا له عبر الأشجار: «أين هو؟».

«سنُريك».

قاد الصبيُّ والفتاةُ الرجلَ عبر الطريق القديم الذي غزته الأعشاب، الذي انعطف في قوسٍ طويلٍ متراخٍ. بعد أن سارا لعشر دقائق، حُلَّ لغز احتجاب القصر: فبعد أن أُحرِق وسُوّي بالأرض قبل عقود، كان يتكوّن الآن من مدخنتين مائلتين على جانبي فُسحة لا يزال الرماد يتناثر فيها هنا وهناك.

إذا غاب المرء لعقود عن مكان يحمل له معزّة خاصّة، فمن الحكمة عمومًا ألا يرجع إليه ثانية قَط.

يزخر التاريخ بأمثلة على الاستفاقة: بعد عقود من التجوال في البحار والتغلب على كل أنواع الأخطار الفتاكة، عاد أوديسيوس أخيرًا إلى إيثاكا، فقط ليتركها ثانية بعد بضع سنوات. وروبنسُن كروزو، حين تمكن من العودة إلى إنكلترا بعد سنوات من العزلة، أبحر بعدها بوقت قصير متجهًا للجزيرة نفسها التي سبق وأن صلّى بحرارة للنجاة منها.

هؤلاء المسافرون الذين لا يستقرّون في مكان، لماذا يهجرون سريعًا ديارهم التي عادوا إليها بعد اشتياق دام لسنوات؟ يصعب أن نعرف السبب. لكن لعلّ هؤلاء الذين يرجعون بعد غيبة طويلة يواجهون

خلطةً من المشاعر الحارّة وتأثيرات الزمن القاسية لا يمكن أن تفرز إلا إحباطات. لم يعد المنظر الطبيعي جميلًا كما يتذكّره المرء. وشراب التفاح الـمَحلِّي ليس بالحلاوة نفسها. والمباني الساحرة جُدّدت بطريقة يتعذّر معها التعرف عليها، بينما انقضت التقاليد القديمة الجميلة لتفسح المجال لمسرَّات جديدة غامضة. وبعد أن تخيّل المرء في زمنٍ ما مكانَه في قلب هذا العالم الصغير، يجد نفسه ملحوظًا بالكاد، إن لاحظه أحد من الأساس. من هنا، تقتضي الحكمة أن يتوجّه المرء إلى أبعد ما يكون عن دياره القديمة.

لكن ما مِن نصيحة، مهما ضربت بجذورها في التاريخ، تناسب الجميع. فالرجلان اللذان يولدان بفارق سنة أو فوق تلَّيْن متجاورين، يختلفان جذريًّا أحدهما عن الآخر، تمامًا مثل زجاجات النبيذ. على سبيل المثال، بينما كان هذا المسافر يقف أمام أطلال بيته القديم، لم تُصِبه صدمة، ولا شعر بنقمة، ولا خامره يأس. بل ظل محافظًا على الابتسامة نفسها، المتأسّية والرزينة في آن، التي ارتسمت على محيَّاه لدى رؤيته الطريق الذي غزته الأعشاب. إذ اتضح أن المرء قادرٌ على القيام بزيارة سارّة للماضي إن هو توقَّع أن يرى تغيُّرًا في كل جانب من جوانبه تقريبًا.

بعدما تمنّى مسافرنا للقرصانيْن الصغيريْن حظًا سعيدًا، شقّ طريقه إلى القرية التي تبعد نحو ثمانية كيلومترات.

ورغم أنه لم ينزعج لاختفاء الكثير من المعالم القديمة، فقد شعر بعزاء كبير حين وجد أن النُزل القائم على أطراف البلدة لا يزال في مكانه. أحنى رأسه وهو يدخل من الباب الأمامي وأنزل حقيبته عن كتفه. استقبلته صاحبة النُزل– امرأة في منتصف العمر ظهرت من المؤخرة وهي تمسح يديها في مريلتها– بالتحية، وسألته إذا كان يبحث عن غرفة. ردَّ المسافر بالإيجاب، لكنه قال إنه يريد أن يأكل شيئًا أولًا. وهكذا، أشارت برأسها تجاه الباب الذي يقود إلى الحانة.

أحنى رأسه ثانية وعبرَ إلى الداخل. بالنظر إلى الساعة، لم يكن هناك إلا عددٌ قليل من سكان المنطقة جالسين هنا وهناك إلى الطاولات الخشبية القديمة، يأكلون يخنة بسيطة من الكرنب والبطاطس، أو يشربون كأسًا من الفودكا. بتحية ودود من رأسه لأولئك الذين كلّفوا أنفسهم عناء رفع أعينهم عن وجباتهم لينظروا إليه، اتجه الرجل إلى الغرفة الصغيرة ذات الموقِد الروسي القديم في مؤخرة الحانة. وهناك في الزاوية، على طاولة لاثنين، بشعرٍ غزاه الشيب، كانت المرأة ممشوقة القدّ في الانتظار.

عن المؤلف

أمور تاولز، من مواليد عام 1964 في مدينة بوسطن- أمريكا، تخرج من جامعة ييل وحصل على درجة الماجستير في اللغة الإنجليزية من جامعة ستانفورد. نُشرت روايته الأولى «Rules of Civility» في عام 2011 ولاقت نجاحًا كبيرًا وتصدرت قوائم الأفضل مبيعًا في كبريات الصحف والمجلات الأمريكية، وحازت نسختها المترجمة إلى الفرنسية على جائزة Fitzgerald لعام 2012، «جنتلمان في موسكو» هي روايته الثانية، نُشرت عام 2016 ، وكانت أيضًا في قوائم الأكثر مبيعًا.

عن المترجم

إيهاب عبد الحميد. كاتب ومترجم مصري، مواليد عام 1977. له عدد كبير من الترجمات من بينها: «قصة الجنس عبر التاريخ» لـ«راي تاناهيل»، «الجين، تاريخ حميم» لـ«سيدهارتا موكرجي»، وروايات «عداء الطائرة الورقية»، «ألف شمس ساطعة»، «ورددت الجبال الصدى» لـ«خالد الحسيني»، و«صيحة القطعة 49» لـ«توماس بينشون»، و«الصيادون» لـ«تشيغوزي أوبيوما».

كتاب العام 2017

وفقًا للتايمز، صنداي تايمز، ديلي أكسبرس...
أحد أفضل الكتب في عام 2017 وفقًا لباراك أوباما

قرأها أكثر من مليوني قارئ وتتحول الآن إلى مسلسل تلفزيوني

في ٢١ يونيو عام ١٩٢٢، اقتيد الكونت ألكسندر إلييتش روستوف- حامل وسام القديس أندرو، عضو نادي الفروسية، مستشار الصيد الإمبراطوري- عبر بوابة الكرملين إلى الميدان الأحمر، ثم إلى الأبواب الدوارة الأنيقة لفندق المتروبول. بعد أن اعتبرته محكمة استثنائية بلشفية أرستقراطيًا لم يُظهر ندمه وتوبته، فحكمت عليه بالإقامة الجبرية. لكن بدلًا من جناحه المعتاد، عليه أن يعيش في غرفة فوق السطح، بينما تعيش روسيا عقودًا من الاضطرابات العنيفة. فهل يمكن لهكذا حياة أن تكون بالغة الثراء؟

«تحفة ساحرة... بالغة الرقة والظرف. سرد دقيق ومضحك للطبيعة الموحشة للحياة في الاتحاد السوفييتي... وبعيدا عن الحبكة العبقرية في هزليّتها والشخصيات الدقيقة في رسمها، يزداد الكتاب إمتاعا بأسلوب تاولز بالغ الإتقان، باختياره المدهش واللذيذ للكلمات.. إنها بهجة خالصة». – Daily Express

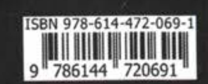
«عمل بالغ السحر، والذكاء، والعمق» – Sunday Times

«ما من رواية تاريخية كانت أكثر براعة، وبصيرة، وأصالة» – Sunday Times, Culture Magazine

«جمل راقية، شخصيات رائعة، وسرد مبتكر... هكذا يجب أن تكون الرواية: ساحرة، بارعة، شعرية، وسخيّة. بهجة خالصة» – Mail on Sunday

«إنها مكسب... رواية بديعة.. مشبعة.... تاولز روائي محترف حقًا..» – New York Times Book Review

«لا تستطيع مقاومتها... يحاول تاولز استكشاف إجابة عن سؤال كبير.. كيف يمكن لإنسان أن يعيش حياة أصيلة وغنية في وقت يكون فيه مجرد البقاء على قيد الحياة انتصار بحد ذاته..» – The Oprah Magazine


ISBN 978-614-472-069-1



daraltanweer.com
بيروت • القاهرة • تونس